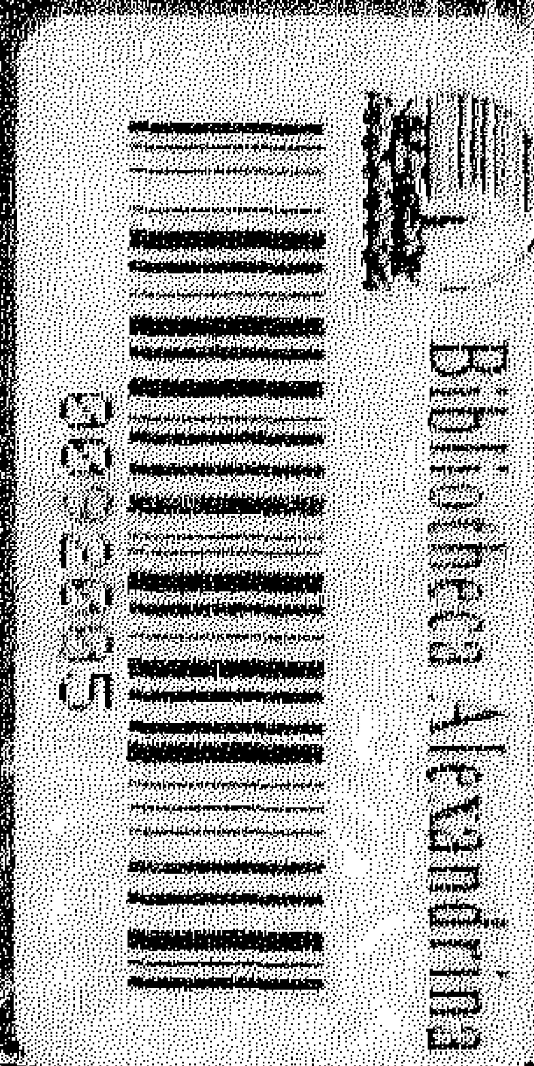
كتاب

الإمتاع والمؤانسة

تأليف

أبي حيان التوحيدي

١ - ٣



منشورات دار مكتبة الحياة

كتاب
الإمتاع والمؤانسة

تأليف

أبي حيان التوحيدي

وهو مجموع مسامرات في فنون شتى
حاضر بها الوزير ابا عبد الله العارض في نحو اربعين ليلة

الجزء الأول

صححه وضبطه وشرح غريبه

أحمد أمين و أحمد الزين

دار مكتبة الحياة
للطباعة والنشر والتوزيع

مقدمة الناشر

ان من غايات مكتبة الحياة للطباعة والنشر ان تبقى مجلية في كل مضمار يرتبط بالكتاب ، مهما اختلف نوعه ومنحاه ، شرط ان يكون ذا قيمة انسانية يسهم في البناء الثقافي العربي المعاصر ، وقد الف القراء مفاجآت هذه المؤسسة النشيطة بكتب التراث العربي الضخمة أمثال «الاغاني» لابي الفرج الاصبهاني و«محاضرات الادباء» لابي القاسم حسين محمد الراغب الاصبهاني و«مجمع الامثال» للميداني و«عيون الانباء في طبقات الاطباء» لابن ابي أصيبعة واخيراً الموسوعة التاريخية الادبية الضخمة «شرح نهج البلاغة» لابن ابي الحديد . كما نشرت «معجم متن اللغة» للشيخ احمد رضا في خمسة مجلدات . مع عشرات الكتب المماثلة في الادب والفكر ، التاريخ ، يقابلها ثروة من الترجمات العالمية لمفكرين أمثال : اشبنغلر ووايتهد وبرتراند راسل وجان بول سارتر وكامو وجون ديوي وكثيرين غيرهم في حقول مختلفة من اقتصاد وعلم وسياسة وفلسفة وفن الخ.. وغاياتها من هذا النشاط الرصين هي اغناء المكتبة العربية وتهيئة الجوار فيها للكتب العالمية ، الآمنة الجوار .

وهي اذ تقدم كتاب « الامتاع والمؤانسة » في حلته هذه فانما تعتبره حلقة من سلسلة في موضوعه تواصل بها رسالتها أمام تراث الحضارة العربية ولخدمة ثقافة العرب المعاصرة .

مقدمة

كتاب الامتاع والمؤانسة

بقلم : أحمد أمين

أبو حيان التوحيدى من أولئك العلماء الأدباء ، الذين أصيبوا فى حياتهم بالبؤس والشقاء ، وظل حياته يجاهد ويكافح فى التأليف واحتراف الوراقة والنسخ وجوب الأقطار ، يقصد الأمراء والوزراء لعلهم يكافئون علمه وأدبه ، فلم يحظ من كل ذلك بطائل ، وعاش كما يقول فى بعض كتبه على نحو أربعين درهما فى الشهر أى ما يساوى جنيهاً واحداً — مع أنه كما يقول — رأى كل من حوله من العلماء والشعراء يحظون من الأمراء بالمال الكثير والحظ الوافر ، وليس أكثرهم يدانيه علماً أو يجاريه أدبا . قصد ابن العميد وابن عباد وابن شاهويه وابن سعدان وأبا الوفاء المهندس وغيرهم ، ومدح وأطرى ، وبكى واشتكى ، وهدد وأوعد ، فما نفعه مدحه ولا ذمه ، ولا إطراؤه ولا هجاؤه ، فإن استفاد شيء مما عاناه أبو حيان فإنما هو الأدبُ بما كتب وألّف ، وبما هجا واستعطف .

ولم يكن حظه بعد وفاته بأحسن من حظه فى حياته ، فقد عجب ياقوت من أن مؤرخى الرجال لم يترجموا له ، مع أنه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ، ولم نعثر فيما بين أيدينا من الكتب على ترجمة وافية لحياته إلا نتفاً قصيرة وأخباراً ضئيلة .

وأراد هو أن ينتقم من الناس الذين كفروا صنيعه ، وجحدوا علمه وأدبه ، فأحرق فى آخر أيامه كتبه ، وقال : « إنى جمعت أكثرها للناس ولطلب المثالة

منهم ، ولعقد الرياسة بينهم ، ولمد الجاه عندهم ، فحرمتُ ذلك كله... ولقد اضطررت بينهم بعد العشرة والمعرفة فى أوقات كثيرة إلى أكل الخضر فى الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح فى قلب صاحبه الألم » .

قال السيوطى : « ولعل النسخ الموجودة الآن من تصانيفه كتبت عنه فى حياته وخرجت من قبل حرقها » .

وكان من شؤمه أنه لم يبق من كتبه التى ألفها — وتبلغ نحو العشرين — إلا القليل ، ولم يطبع منها إلا المقابسات والصداقة والصديق ، ورسالة فى العلوم ، وما بقى منها مخطوطاً ، بل وما طبع منهـا مملوء بالتحريف والتصحيف إلى حد يقلل من قيمتها والانتفاع بها .

ولعل أقوم كتبه وأنفعها وأمتعها كتابه الذى نحن بصدده وهو « كتاب الإمتاع والمؤانسة » .

فهو كتاب ضخم يقع فى ثلاثة أجزاء أخذنا أنفسنا بنشره لتعميم نفعه .

ولتأليف أبى حيان لهذا الـكتاب قصة ممتعة ، ذلك أن أبا الوفاء المهندس كان صديقاً لأبى حيان وللوزير أبى عبد الله العارض ، فقرب أبو الوفاء أبا حيان من الوزير ، ووصله به ، ومدحه عنده ، حتى جعل الوزيرُ أبا حيان من سُمّاره ؛ فسامره سبعا وثلاثين ليلة كان يحادثه فيها ، ويطرح الوزير عليه أسئلة فى مسائل مختلفة فيجيب عنها أبو حيان .

ثم طلب أبو الوفاء من أبى حيان أن يقص عليه كل ما دار بينه وبين الوزير من حديث ، وذكّره بنعمته عليه فى وصله بالوزير ، مع أنه «أى أبا حيان»

ليس أهلا لمصاحبة الوزراء لقبح هيئته وسوء عادته وقلة مرانته وحقارة لبسته، وهدده إن هو لم يفعل أن يغض عنه، ويستوحش منه، ويوقع به عقوبته، وينزل الأذى به.

فأجاب أبو حيان طلب أبي الوفاء، ونزل على حكمه، وفضّل أن يدون ذلك فى كتاب يشتمل على كل ما دار بينه و بين الوزير من دقيق وجليل وحلو ومر، فوافق أبو الوفاء على ذلك، ونصحه أن يتوخى الحق فى تضاعيفه وأثنائه، والصدق فى إيراده، وأن يطنب فيما يستوجب الإطناب، ويصرح فى موضع التصريح.

« فكان من ذلك كتاب الإمتاع والمؤانسة »

من هو الوزير أبو عبد الله العارض الذى سامره أبو حيان ؟

لقد بحثت عنه فى مظانه فلم أوفق إلى العثور عليه، وقبل ذلك عُنِيَ المرحوم أحمد زكى باشا بالبحث والسؤال عنه من بعض علماء الشرق والغرب فكان حظه حظى.

وأخيراً رجحت أنه هو الوزير أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان وزير صمصام الدولة البويهى، وقد ورد اسمه هكذا فى كل ما راجعت من كتب التاريخ أمثال: (تجارب الأمم) وذيله (وابن الأثير)، ولم يلقبه أحد منهم (بالعارض)؛ وكلمة (العارض) كما فى كتاب (الأنساب للسمعانى) معناها: « من يعرف العسكر ويحفظ أرزاقهم، ويوصلها إليهم ويعرضهم على الملك إذا احتيج إلى ذلك » فالظاهر أن الوزير أبا عبد الله لقّب هذا اللقب إما لأنه تولى هذا العمل قبل أن يتولى الوزارة، أو كان هذا لقباً لأسرته؛ ودليلى على ذلك أمور:

(١) أنه ورد فى صدر هذا الكتاب أن أبا الوفاء ذكر لأبى حيان:

أنك لمـا انكفأت من الرّى إلى بغداد فى آخر سنة ٣٧٠ مغيظاً من ابن عباد ، وعدتك صلاح حالك ، وأن أوصلك إلى الأستاذ أبى عبد الله العارض ، ثم جاء وصف أبى عبد الله هذا بالوزير .

ونحن إذا رجعنا إلى من اســتوزر فيما بين سنة ٣٧٠ وســنة ٣٧٥ لم نجد وزيراً يكنى بأبى عبد الله إلا الوزير أبا عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان ، فقد استوزره صمصام الدولة سنة ٣٧٣ وقتله سنة ٣٧٥ .

(٢) جاء فى أثناء كتاب « الإمتاع والمؤانسة » أن أبا حيـان قص على الوزير أنه سمع رجلا على جسر بغداد يقول وقد رأى ابن بقية الوزير المشهور مصلوباً بعد أن مات عضد الدولة : « سبحان الله ! عضد الدولة تحت الأرض وابن بقية فوق الأرض » ، فلما سمع الوزير ذلك قال : استأذنت الملك فى دفن ابن بقية فدفن .

وقد ذكر المؤرخون أن ابن بقية دفن فى عهد صمصام الدولة ؛ ولم يكن لصمصام الدولة وزير يكنى بأبى عبد الله غير ابن سعدان .

(٣) ومما يستأنس به أن أبا حيان كان متصلا بالوزير ابن سعدان وألف له كتاب « الصداقة والصديق » وقد ذكر فى أوائله « أن السبب كان فى إنشاء هذه الرسالة أنى ذكرت شيئاً منها لزيد بن رفاعة أبى الخير ، فنماه إلى ابن سعــدان سنة إحدى [وسبعين] وثلاثمائة قبل تحمله أعباء الدولة وتدبيره أمر الوزارة حين كانت الأشغال خفيفة ، والأحوال على أذلالها جارية ، فقال لى ابن سعدان : قد قال لى زيد عنك كذا وكذا . قلت : قد كان ذلك . قال : فدوّن هــذا الكلام وصله بصلاته . . . . فجمعت ما فى هذه الرسالة » .

فاتصال أبى حيان بابن سعدان وتأليفه له كتاب «الصداقة والصديق» يرجح الظن بأنه هو أبو عبد الله العارض .

ثم كان من رجال صمصام الدولة من اسمه أبو الحسن بن عمارة العارض استخدمه صمصام الدولة فى السفارة بينه و بين أعدائه أحيانا ، ولكن يبعد أن يكون هو الذى ألف له كتاب الإمتاع والمؤانسة — لأن كنيته أبو الحسن والذى ألّف له الكتاب أبو عبد الله — ولأن أبا الحسن لم يكن وزيراً لصمصام الدولة . وفى الكتاب النص فى مواضع متعددة على أنه ألفه لوزير .

(٤) ذكر فى كتاب « الإمتاع والمؤانسة » أصدقاء أبى عبد الله العارض وعدد منهم ابن زرعة وأبا الوفاء المهندس ومسكويه والأهوازى وبهرام وابن شاهويه ، وأنهم كانوا يلازمونه وأنهم أهل مجلسه ، وعدد فى كتاب الصداقة والصديق أصدقاء ابن سعدان فإذا هم هم[1] ؛ فاتحاد الأصدقاء وتوافقهم واجتماعهم فى مجلس وزير يرجح الظن جدا بأن ابن العارض هو ابن سعدان .

(٥) جاء فى «كتاب الإمتاع والمؤانسة » أن الوزير سأل أبا حيان عما يقول الناس فيه . فقال له : « سمعت بباب الطاق قوما يقولون : اجتمع الناس اليوم على الشط ، فلما نزل الوزير ليركب الزبزب صاحوا وضجوا وذكروا غلاء القوت وعوز الطعام وتعذر الكسب وغلبة الفقر ، وأنه أجابهم بجواب مُرّ مع قطوب الوجه و إظهار التبرم » .

وهذه الأوصاف كلها تنطبق على ما ذكره أبو شجاع فى كتابه « ذيل تجارب الأمم » عن حادثة جرت لابن سعدان .

***

(١) انظر الصداقة والصديق ص ٣١

وابن سعدان هذا استوزره صمصام الدولة البويهى سنة ٣٧٣ لما تقلد الأمور بعد وفاة أبيـه عضد الدولة . جاء فى كتاب « ذيل تجارب الأمم لأبى شجاع : « وفيها [أى فى سنة ٣٧٣] خُلع على أبى عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان خلع الوزارة — وكان رجلا باذلا لعطائه ، مانعا للقائه ، فلا يراه أكثر من يقصده إلا ما بين نزوله من درجة داره إلى زبزبه[1] ؛ ومع ذلك فلا يخيب طالب إحسان منه فى أكثر مطلبه .... فبسط يده فى الإطلاقات والصلات .... وأحدث من الرسوم استيفاء العشر من جميع ما تسبب به الأولياء والـكتّاب والحواشى من أموالهم وأرزاقهم .... وانضاف إلى ضيق خلقه ما اتفق فى وقت نظره من غلاء سعر ، فتطيرت العامة ورجموا زبزبه ، وشغّبوا الديلم عليه ، وجمعوا على نهب داره ، وانتهت الحال إلى ركوب صمصام الدولة إلى مجتمعهم حتى تلافاهم وردّهم[2] » .

وقد ظل ابن سعدان فى الوزارة إلى سنة ٣٧٥ حتى ظهر له خصم هو أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، فظل يكيد له وينصب الشباك للإيقاع به .

وحدث أن ابن سعدان أراد أن يعيّن أباه كاتبا لوالدة صمصام الدولة لما ماتت كاتبها ، فقال أبو القاسم لصمصام الدولة : « إن ابن سعدان قد استولى على أمورك ، وملك عليك خزائنك وأموالك ، فإذا تم له حصول والده مع السيدة حصلنا تحت الحجر معه[3] » . وتمت المـكيدة ولم يعيّن أبوه . ثم قبض على ابن سعدان وأصحابه وأودعوا السجن ، واستوزر صمصام الدولة هـذا الواشى

(١) الزبزب : ضرب من السفن .
(٢) ص ٨٥ .
(٣) ص ١٠٣

أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف ، ولم يكتف أبو القاسم بحبس ابن سعدان فانتهز فرصة خروج ثائر على صمصام الدولة اسمه « أسفار بن كردويه » يريد خلعه ، فدس أبو القاسم إلى صمصام الدولة أن ابن سعدان متصل بهذا الثائر وأن الذى جرى كان من فعله وتدبيره ، وأنه لا يُؤمَن ما يتجدد منه فى محبسه ، فأمر صمصام الدولة بقتله ، فقتل سنة ٣٧٥

وكان لابن سعدان ناحية أخرى علمية أدبية يصورها أبو حيان فى كتبه ، فهو واسع الاطلاع ، له مشاركة جيدة فى كثير من فروع العلم من أدب وفلسفة وطبيعة وإلهيات وأخلاق ، يدل على ذلك حواره الذى يحكيه أبو حيان فى كتابه الإمتاع والمؤانسة والمقابسات ، فهو يسأل أسئلة عميقة ، وينقد الإجابة عنها نقداً قيما .

وفوق ذلك كان له فى وزارته منتدى يجمع كثيراً من جلة العلماء والأدباء منهم ابن زرعة الفيلسوف النصرانى ، وابن مسكويه صاحب (تهذيب الأخلاق) (وتجارب الأمم) ، وأبو الوفاء المهندس الذى سنتحدث عنه ، وأبو سعد بهرام بن أردشير ، ومن الشعراء ابن حجاج الشاعر الماجن المشهور ، ومن الكتّاب أبو عبيد الخطيب الكاتب ، وأبو حيان صاحبنا .

وكان له مجلس شراب يجلس إليه بعض هؤلاء فيتفكهون ويتنادرون ويذهبون فى فنون الحديث كل مذهب ، ومجلس جد يتحاورون فيه ويتناقشون فى الفلسفة والأخلاق والأدب .

وكان يباهى بمجلسه ويفخر به على مجالس الأمراء المعاصرين له ، مثل المهلبى وابن العميد والصاحب بن عباد . فيقول فى أصحابه هؤلاء : « ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير ، . . . وأن جميع ندماء المهلبى لا يفون بواحد من

هؤلاء ، وأن جميع أصحاب ابن العميد يشتهون أقل مَن فيهم ، وأن ابن عباد ليس عنده إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون و يحمقون ويتصايحون[1] » . فلا عجب — إذن — أن يكون من نتاج ابن سعدان الوزير العالم هذا الكتاب الذى نحن بصدده ؛ كتاب « الإمتاع والمؤانسة » .

* * *

وأما أبو الوفاء الذى وصل أبا حيان بابن سعدان والذى ألف أبو حيان له كتاب « الإمتاع والمؤانسة » ودوّن له فيه كل ما دار بينه و بين الوزير فى سبع وثلاثين ليلة ، فهو محمد بن محمد بن يحيى البُوزجانى . ترجم له ابن النديم فى (الفهرست) وابن خلكان فى (وفيات الأعيان) ؛ وقال فيه هذا الأخير : « إنه أحد الأئمة المشاهير فى علم الهندسة ، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها ، وكان شيخنا العلامة كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس — وهو القيم بهذا الفن — يبالغ فى وصف كتبه ، و يعتمد عليها فى أكثر مطالعاته ويحتج بما يقوله وكان عنده من تآليفه عدة كتب .... وكانت ولادته سنة ٣٢٨ بمدينة بوزجان ، وقدم العراق سنة ٣٤٨ ، وتوفى سنة ٣٧٦ » . وقد ذكر ابن خلكان أنه نقل تاريخ الوفاة هذا من شيخه ابن الأثير . ولكن الذى فى ابن الأثير أنه عدّ وفاته فى حوادث سنة ٣٨٧ ، فإما أن ابن خلكان أخطأ فى النقل أو أن الناسخ أخطأ فى الكتابة .

وكان أبو الوفاء هذا من ندماء ابن سعدان كما تقدم ، وقد وصفه ابن سعدان فى جملة ما وصف من أصحابه . فقال : « وأما أبو الوفاء فهو والله ما يقعد به عن المؤانسة الطيبة والمساعدة المطربة والمفاكهة اللذيذة والمواتاة الشهية ، إلا أن لفظه خراسانى ، و إشارته ناقصة ، هذا مع ما استفاده بمقامه الطويل ببغداد ، والبغدادى

(١) انظر رسالة الصداقة والصديق ص ٣٣

إذا تخرسن كان أعلى وأظرف من الخراسانى إذا تبغدد[1] » .

* * *

إلى هنا رأينا أن الكتاب ألّف لأبى الوفاء المهندس ، نقل فيه أبو حيان ما دار بينه وبين ابن سعدان . ولكن القفطى فى كتابه « أخبار الحكماء » عند ترجمته لأبى سليمان المنطقى أورد كلاما يناقض ما نقول ، سواء فى ذلك من ألف له الكتاب ، ومن دار الحديث بينه وبين أبى حيان .

فقد ذكر : « أن أبا سليمان كان أعور ، وكان به وَضَح ، وكان ذلك سبب انقطاعه عن الناس ولزومه منزله ، فلا يأتيه إلا مستفيد وطالب علم ، وكان يشتهى الاطلاع على أخبار الدولة وعلم ما يحدث فيها . . . . . وكان أبو حيان التوحيدى من بعض أصحابه المتصمين به ، وكان يغشى مجالس الرؤساء ويطلع على الأخبار ، ومهما عَلِمه من ذلك نقله إليه وحاضره به ، ولأجله صنف كتاب « الإمتاع والمؤانسة » نقل له فيه ما كان يدور فى مجلس أبى الفضل عبد الله بن العارض الشيرازى عند ما تولى وزارة صمصام الدولة بن عضد الدولة[2] » . وأنا أرجح خطأ القفطى فى الوجهين معاً .

فأما فى الأول : فإن النسخة التى بيدى تذكر أنه ألفه لأبى الوفاء المهندس لا لأبى سليمان المنطقى . ويقول فى صدر الكتاب : إنه ألفه ردا لجميل أبى الوفاء إذ كان هو الذى أوصله لأبى عبد الله . وعندما يأتى ذكر أبى الوفاء فى ثنايا الكتاب ، ويسأل أبو عبد الله أبا حيان عن رأيه فيه يمدحه ويثنى عليه ، ويقول : كيف أذمه وهو الذى أوصلنى بك ، وقد سبق أن أثبتنا أن أبا الوفاء كان من ندماء أبى عبد الله .

(1) الصداقة والصديق ٣٢ .
(2) أخبار الحكماء ص ٢٨٣ .

ودليل آخر ، وهو أن أبا حيان فى بعض كلامه فى الـكتاب يستجدى من ألّف له الـكتاب ، وقد كان أبو الوفاء المهندس فى منزلة تسمح له بذلك ، فإنه رجل جليل القدر يلقبه الوزير بشـيخنا . أما أبو سليمان فكان فقيراً كما ذكر ذلك أبو حيان فى هذا الـكتاب ، وكانت صلة أبى حيان به صلة علمية لا صلة مالية ، فمن البعيد جدا أن يستجديه أبو حيان .

ودليل ثالث : وهو أن الوزير أبا عبد الله سأل أبا حيان فى الـكتاب عن أبى سليمان هذا ، فذكر له أوصافه ، وفيها ما هو عيب لأبى سليمان كقوله : إنه يجتمع مع قوم للشراب ، ويذكر بعضهم الوزير بالسوء ، فلو كان أبو حيان ألفه لأبى سليمان لـكان بعيداً كل البعد أن يذكر هذا الحديث .

ودليل رابع : وهو أن أبا حيان ينقل فى كتابه هذا عن أبى سليمان ، ويذكر آراءه ، وينقل بعض رسائله إلى الوزير ، ولو كان يؤلف الـكتاب لأبى سليمان لاستغنى عن ذكر ما يعرفه أبو سليمان عن نفسه من أقواله ورسائله ، ولـكان أبو حيان فى ذلك كمن ينقل إلى البئر ماءه ، وإلى الـكنز ذهبه ، وهذا غير مألوف ولا مستساغ .

لهذا كله نرجح خطأ القفطى فيما ذهب إليه من أنه ألفه لأبى سليمان المنطقى .

كما نرجح خطأه فى الشق الثانى ، وهو أن أبا حيان دوّن فيه ما كان يدور بينه وبين أبى الفضل عبد الله بن العارض الشيرازى وزير صمصام الدولة .

ذلك لأن النسخة التى بين أيدينا يذكر فيها أبو حيان أنه دوّن فيه ما دار بينه وبين أبى عبد الله العارض لا أبى الفضل عبد الله بن العارض . وقد راجعنا كتب التاريخ التى بين أيدينا وأحصينا فيها من تولى الوزارة لصمصام الدولة ، فلم نجد من بينهم أبا الفضل عبد الله بن العارض الشيرازى الذى ذكره القفطى

وكما تقول دائرة المعارف الإسلامية فى مادة أبى حيان تبعا له .

نعم رأينا من يسمى أبا الفضل الشيرازى ، وكان يعيش فى هذا العصر ولكن اسمه أبو الفضل محمد بن عبد الله بن المرزبان الشيرازى لا أبو الفضل عبد الله الشيرازى كما يقول القفطى . وكان هذا كاتباً لا وزيراً ، وكان صديقاً لأبى على الحسن التنوخى ، ونقل عنه كثيراً فى كتابه « نشوار المحاضرة » ولقبه الكاتب لا الوزير . والذى ألف له الإمتاع والمؤانسة وزير لا كاتب .

يضاف إلى ذلك ما ذكرنا قبل من البراهين .

فالكتاب — فى رأينا — كتب لأبى الوفاء المهندس لا أبى سليمان المنطقى ودون فيه ما دار فى مجلس ابن سعدان لا أبى الفضل الشيرازى .

* * *

وصف الكتاب : قال القفطى فى وصفه : «وهو كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة فى فنون العلم ، فإنه خاض كل بحر ، وغاص كل لجة ، وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب الإمتاع بخط بعض أهل جزيرة صقلية وهو : ابتدأ أبو حيان كتابه صوفيا وتوسّطه محدّثا ، وختمه سائلا ملحفاً [1] » .

قسم أبو حيان كتابه إلى ليال ، فكان يدون فى كل ليلة ما دار فيها بينه وبين الوزير على طريقة قال لى وسألنى وقلت له وأجبته . وكان الذى يقترح الموضوع دائماً هو الوزير . وأبو حيان يجيب عما اقترح ، وكان الوزير يقترح أولا موضوعا حسبما اتفق و ينتظر الإجابة ؛ فإذا أجاب أبو حيان أثارت إجابته أفكاراً ومسائل عند الوزير فيستطرد إليها و يسأله عنها ، فقد يسأله سؤالا يأتى

(١) أخبار الحكماء ٢٨٣ .

فى أثناء الإجابة عنه ذكر لابن عباد أو ابن العميد أو أبى سليمان المنطقى ، فيسأله الوزير عنهم وعن رأيه فيهم ، وهكذا ، يستطرد من باب لباب ، حتى إذا انتهى المجلس كان الوزير يسأله غالباً أن يأتيــه بطرفة من الطرائف يسميها غالبا : « ملحة الوداع » فيقول الوزير — مثلا — : إن الليل قد دنا من فجره ، هات ملحة الوداع . وهذه الملحة تكون — عادة — نادرة لطيفة أو أبياتا رقيقة ، وأحيانا يقترح الوزير أن تكون ملحة الوداع شعراً بدويا يشم منه رائحة الشيح والقيصوم وهكذا .

وأحيانا يكلفه الوزير أن يتم له المسألة المعروضة فى رسالة ؛ فقد سأله مرة عن المصادر التى تجىء على وزن تفعال ، فأجابه أبو حيان عن بعضها ، ثم طلب منه الوزير أن يجمع له ما جاء فى اللغة منها .

وأحيانا يتخذ الكلام شكل حوار . فأبو حيان — مثلا — يروى عن ديوجانيس أنه سئل : متى تطيب الدنيا ؟ . فقال : « إذا تفلسف ملوكها ، وملك فلاسفتها » ؛ فلم يرض الوزير عن هذا ، وقال : إن الفلسفة لا تصح إلا لمن رفض الدنيا وفرّغ نفسه للدار الآخرة ؛ فكيف يكون الملك رافضاً للدنيا وقالياً لها ، وهو محتاج إلى سياسة أهلها ، والقيام عليها باجتلاب مصالحها ونفى مفاسدها ! — وأطال فى ذلك — وفى كثير من الأحيان يعلق الوزير على إجابة أبى حيان بالاستحسان أو الاستهجان مع ذكر أسباب ذلك .

وأحيانا يطلب إليه الوزير أن يحضّر له رسالة فى موضوع ، ثم يتلوها عليه فى جلسة مقبلة كما فعل مرة ، إذ كلفه أن يكتب له فى المجون والملح ، ففعل أبو حيان وقرأها عليه فى مجلس . قال أبو حيان : « فلما قرأتها على الوزير قال : ما علمت أن مثل هذا الحجم يحوى هذه الوصايا والملح » .

وآونة يثير الوزير مسائل أشكلت عليه في اللغة والفلسفة والاجتماع ، يعرضها على أبي حيان ويطلب منه الجواب فيفعل .

ويحدث أحياناً أن الوزير يدفع لأبي حيان برقعة فيها أسئلة يطلب إليه أن يفكر في الإجابة عنها ، ويتصل بغيره من العلماء ليأخذ رأيهم فيها ؛ كما حدث مرة أنه دفع إليه رقعة بخطه فيها مطالب ، وقال : باحث عنها أبا سليمان وأبا الخير ، ومن تعلم أن في محاورته فائدة . وكان في الرقعة أسئلة منها عن الروح وصفته ومنفعته ، وما المانع أن تكون النفس جسما أو عرضاً أو هباء ؛ وهل تبقى ؟ وإن كانت تبقى فهل هي تعلم ما كان الإنسان فيه هٰهنا الخ . ويقول الوزير في آخر هذه الرقعة : « إن هذا وما أشبهه شاغل لقلبي وجاثم في صدري ، ومعترض بين نفسي وفكري ، وما أحب أن أبوح به لكل أحد » ؛ ويأمره بأن يكتم خطه فإن أراد أن يعرض هذه المسائل مكتوبة على أبي سليمان فلينسخها بخطه هو . ثم سأل أبو حيان أبا سليمان وذكر إجابته عنها ونقلها إلى الوزير ، وعلى هذا النمط يجرى تأليف الكتاب .

وموضوعات الكتاب متنوعة تنوعا ظريفاً لا تخضع لترتيب ولا تبويب ، إنما تخضع لخطرات العقل وطيران الخيال وشجون الحديث . حتى لنجد في الكتاب مسائل من كل علم وفن ؛ فأدب وفلسفة وحيوان ومجون وأخلاق وطبيعة وبلاغة وتفسير وحديث وغناء ولغة وسياسة وتحليل شخصيات لفلاسفة العصر وأدبائه وعلمائه وتصوير للعادات وأحاديث المجالس ، وغير ذلك مما يطول شرحه .

* * *

فلما أراد أبو حيان أن يدوّن لأبي الوفاء ما دار بينه وبين الوزير زاد فيه ونمق الحديث . وكان يدوّن جزءاً ويرسله إلى أبي الوفاء ويتبعه بجزء آخر وهكذا ...

وحدث هو نفسه عن ذلك كله فى أول الجزء الثانى فقال : « قد فرغت من الجزء الأول على ما رسمتَ لى القيام به ، وشرفتنى بالخوض فيـه ، وسردت فى حواشيه أعيان الأحاديث التى خدمت بها مجلس الوزير ، ولم آل جهداً فى روايتها وتقويمها ، ولم أجنح إلى تعمية شىء منهـا ، بل زبرجت كثيراً بناصع اللفظ مع شرح الغامض ، وصلة المحذوف ، و إتمام المنقوص ، وحملته إليك على يد «فائق» الغلام ، وأنا حريص على أن أتبعه بالجزء الثانى ، وهو يصل إليك فى الأسبوع إن شاء الله .

وقد خاف أبو حيان من بعض ما ورد فى الـكتاب ؛ فإنه فى حديثه مع الوزير عاب أشخاصاً من رجالات الدولة الذين يستطيعون إيذاءه ، فرجا أبا الوفاء أن يحفظ هذا الـكتاب سرا ، فقال : « وأنا أسألك ثانية على طريق التوكيد كما سألتك على طريق الاقتراح أن تكون هذه الرسالة مصونة عن عيون الحاسدين العيابين ، بعيدة عن تناول أيدى المفسدين المنافسين ، فليس كل قائل يسلم ، ولا كل سامع ينصف » .

وقد أنجز أبو حيان وعده ، وأرسل إليـه الجزء الثانى على يد غلامه فائق أيضاً . ثم أرسل إليه الجزء الثالث وهو الأخير ، وقال فى أوله :

« قد أرسلت إليك الجزءين الأول والثانى . وهذا الجزء — وهو الثالث قد والله ألقيت فيه كل ما فى نفسى من جد وهزل ، وغث وسمين ، وشاحب ونضير ، وفكاهة وأدب ، واحتجاج واعتـذار .... ولأنه آخر الـكتاب ختمته برسالة وصلتها بكلام فى خاص أمرى » .

وعلى هذا الوضع ينتهى الـكتاب .

ولست أستبعد أن يكون أبو حيان قد تزيد فيه ، واخترع أشياء لم تجر فى

مجلس الوزير ، فقد عرف عنه أمثلة من هذا القبيل ، فقد اتهمه العلماء من قبل ومنهم ابن أبى الحديد بأنه وضع الرسالة المشهورة المعزوّة إلى أبى عبيدة على لسان أبى بكر وعمر فى حق على بن أبى طالب ، ولعل هذا التزيد كان من ضمن الأسباب التى دعته أن يرجو أبا الوفاء فى أن يكون الكتاب سرا ، فإنه ألف الكتاب فى حياة الوزير ، وخشى أن الوزير يطلع عليه فيعلم مقدار ما تزيد .

أما أنه ألفه فى حياة الوزير ، فالدليل عليه ما جاء فى نسخة ميلانو : « أنشئت هذه الرسالة فى رجب سنة ٣٧٤ » والوزير ابن سعدان ظل وزيراً من سنة ٣٧٣ إلى سنة ٣٧٥ كما تقدم .

***

وأياً ما كان ، فالكتاب ممتع مؤنس كاسمه ، يلقى نوراً كثيراً على العراق فى النصف الثانى من القرن الرابع — أعنى فى العصر البويهى — وهو عصر مغبش بالظلام فإنه يتعرض لكثير من الشؤون الاجتماعية فى ثنايا حديثه ، فيصف الأمراء والوزراء ومجالسهم كابن عباد وابن العميد وابن سعدان ، ومحاسنهم ومساويهم ، ويصف العلماء ، ويحلل شخصياتهم ، وما كان يدور فى مجالسهم من حديث وجدال وخصومة وشراب ، ويصف النزاع بين المناطقة والنحويين كالمناظرة الممتعة التى جرت بين أبى سعيد السيرافى ومتّى بن يونس القُنّائى فى المفاضلة بين المنطق اليونانى والنحو العربى ، ورأى العلماء فى الشعوبية والمفاضلة بين الأمم ، إلى كثير من أمثال ذلك .

وفى الكتاب النص الوحيد الذى كشف لنا عن مؤلفى إخوان الصفاء ، وقد نقله القفطى منه ، إذ كان الوزير قد سأل أبا حيان عن هذه الرسائل ومن ألفها ؛ وعن القفطى نقله كل من كتبوا عن إخوان الصفاء .

كما أن فيه فوائد كثيرة عن الحياة السياسية للدولة ، فهو يصف كثيراً حالة الشعب فى عصره وموقفهم من الأمراء والملوك ، وهيجانهم واضطرابهم وأسباب ذلك .

وكما يعرض أحياناً للحياة الاجتماعيــة الشعبية فيذكر عدد القينات فى الـكرخ فيقول : « ولقد أحصينا فى ســنة ٣٦٠ : ٤٦٠ جارية من القينات ومائة وعشرين من الحرائر ، وخمسة وتسعين من الصبيان الذين يجمعون بين الحذق والحسن . هذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزته ورقبائه ، وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهرون بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط أو ثمل فى حال أو خلع العذار فى هوى » . وأطيل جدا لو وصفت ما فى الـكتاب من فوائد .

ثم إن أسلوبه فى تقسيمه إلى ليال ، وذكره ما دار فى كل ليلة على سبيل الحديث والحوار ، يجعله لذيذاً شـيقاً ، أو على حد تعبيره هو — ممتعاً مؤنساً — فهو أشبه شيء بألف ليلة وليلة ، ولـكنها ليست ليالى للهو والطرب وكيد النساء ولعب الغرام ، إنما هى ليال للفلاسفة والمفكرين والأدباء ، إذ يتعرض فيه لأهم مشاكل الفلاسفة ، كالبحث فى الروح والعقل والقضاء والقدر وما إلى ذلك ، كما يتعرض لمشاكل البلغاء كالليلة البديعة التى جرى فيهـا الحديث عن النثر والنظم والمفاضلة بينهما ، ومزايا كل ونقصه وهكذا . فإن كان ألف ليلة وليلة يصور أبدع تصوير الحياة الشعبية فى ملاهيها وفتنها وعشقها ، فـكتاب الإمتاع والمؤانسة يصور حيـاة الأرستقراطيين أرستقراطية عقلية ؛ كيف يبحثون ، وفيم يفكرون ، وكلاهما فى شكل قصصى مقسم إلى ليال ، وإن كان حظ الخيال فى الإمتاع والمؤانسة أقل من حظه فى ألف ليلة وليلة .

وأسلوب أبى حيان فى الكتاب أسلوب أدبى راق كعهدنا فى كل كتابته ؛ يحب الازدواج ويطيل فى البيان ، ويحتذى حذو الجاحظ فى الإطناب والإطالة فى تصوير الفكرة ، وتوليد المعانى منها حتى لا يدع لقائل بعده قولا ؛ ولكن أغمضَ أسلوبه فى هذا الكتاب تعرضه كثيراً لمسائل فلسفية عميقة قد عزّت على البيان ، ودقت عن الإيضاح ، فإذا هو خرج عن هذه الموضوعات الدقيقة إلى موضوعات أدبية : كوصف لفقره وبؤسه ، أو وصف للكرم وفوائده ، أو وصف للسان والبيان ؛ جرى قلمه وسال سيله وأجاد وأبدع .

نُسخ الكتاب : للكتاب — فيما أعلم — نسختان ، لا أعلم لهما فى مكاتب العالم ثالثة .

فأما النسخة الأولى فكاملة ، وهى تقع فى خمسة أقسام .

وقد جاء فى طرة الجزء الثانى ما نصه : « رسم لخزانة السلطان الأعظم ، مالك رقاب الأمم ، مولى ملوك العرب والعجم ، باسط الأمن والأمان ، ناشر العدل والإحسان ، أبى المفاخر فخر الدنيا والدين سليمان بن غازى « محمد الأيوبى » خلد الله تعالى مملكته وسلطانه ، وأعلى فى الخافقين عزه وبرهانه » .

فالجزء الثانى كتب للعادل سليمان بن غازى الأيوبى .

***

وكان العادل سليمان أديبا شاعرا ، جاء فى (كشف الظنون) ذكر كتاب اسمه « الدر الثمين فى شعر الثلاثة السلاطين » وهم : « العادل سليمان الأيوبى وولده الأشرف أحمد وولده الكامل خليل » . فسليمان هذا هو صاحب الخزانة المكتوب هذا الجزء برسمها .

وجاء فى آخر هذا الجزء : « تمت الجزء الثانى من كتاب المؤانسة والإمتاع بحول الله وحسن توفيقه فى شوال سنة خمسة عشر وثمانمائة على يد أضعف العباد شرف بن أميره فى حصن المحروسة حماها الله تعالى عن الآفات والعاهات آمين يا رب العالمين » .

وخط الجزء الثانى (وهو فى ثلاثة مجلدات) مخالف لخط الجزء الأول (وهو فى مجلدين) ، وإن كان الخطان قريبى الشبه بعضهما ببعض ، والجزء الأول غير مضبوط ، والثانى مضبوط بالضبط الكامل . وكلا الجزئين مملوء بالأخطاء الخطيرة بالزيادة والنقص والتحريف ، ويظهر أن الكاتبين من الخطاطين الذين يجيدون الخط ولا يحسنون الفهم . وكاتب الجزء الثانى يغلب على الظن أنه تركى لا يحسن العربية فهو يقول : « تمت الكتاب » « لا تم الكتاب » . ويقول « فى سنة خمسة عشر وثمانمائة » بدل « خمس عشرة » وهذه — مع الأسف — هى وحدها النسخة التامة .

وهذه النسخة أخذها المرحوم أحمد زكى باشا بالفتوغرافيا من مكتبة طوب قبو سراى لما اطلع على الكتاب وعرف قيمته . وقد أحضر النسخة الفوتوغرافية معه إلى القاهرة ، واحتفظ بها فى مكتبته الخاصة ؛ وقد قرأ الكتاب ، ووضع فى الصفحة الأولى من كل جزء فهرسا بعدد الليالى وبعض الموضوعات ، كما وضع أسماء الأعلام الواردة فى الكتاب أمام كل صفحة ، مما يدل على أنه كان يريد نشره ، ويريد ترجمة الأعلام التى وردت فيه ولكن لم يتعرض لتصحيح شىء مما فيه من أغلاط .

وقد توفى — رحمه الله — وهى فى مكتبته الخاصة ، فاشتراها السيد حمدى السفرجلانى الدمشقى ، وباعها لدار الكتب المصرية .

والنسخة الثانية نسخة فوتوغرافية أخذت من أصل فى ميلانو ، وليست كاملة ، وإنما هى قطع ثلاث : قطعتان من الجزء الثانى وقطعة من الجزء الثالث وهى مشوشة غير مرتبة ، وقد استحضرها زكى باشا أيضا ، واحتفظ بها لنفسه ، ثم بيعت لدار الكتب .

ولم يذكر فى أية قطعة من القطع تاريخ نسخها ، وخطها واضح وجميل أيضا ومضبوطة . ولكنها فى جملتها لا تقل فى الأخطاء عن سابقتها .

وقد كان فى نية السيد حمدى السفرجلانى نشر المخطوطة قبل بيعها لدار الكتب ، فاستنسخ نسخة منها ، وقرأها مع بعض أفاضل دمشق ، منهم الدكتور حسنى سبح والسيد رشدى الحكيم وخليل مردم بك ؛ واستظهروا بعض تصحيحات لما وجدوه فى هذه النسخة من تحريف .

وبقيت بعد ذلك مملوءة بالأغلاط كثيرة الجمل والألفاظ التى تشبه الألغاز حتى لا يخلو سطر منها من وقفات تستدعى الجهد الشديد فى تصحيحها . فعُرض على لجنة التأليف نشره ، فوافقت على ذلك ، وعهدت إلى كاتب هذه السطور والأستاذ أحمد الزين بتصحيحه ؛ وقد بذلنا معا جهداً كبيرا فى تصحيح المحرّف من ألفاظه ، وتفسير غريبه ، وشرح المشكل من عباراته ، وتكميل الناقص من جمله ، وضبط الملتبس من كلماته ، والتعريف بكثير ممن ورد ذكرهم فيه من العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة ، وهذا هو جهدنا نقدّمه للقراء .

ومع هذا فربما نكون قد أخطأنا الصواب أو أغفلنا بعض المحرف ، وقد أثبتنا ألفاظه المحرفة فى حواشى صفحاته . ويلاحظ أننا فى أكثر الأحيان نثبت اللفظ المحرف وحده غير منبهين على أنه محرّف اتكالا على فهم القارئ ، وفى بعض الأحيان ننبه على أنه تحريف وأن صوابه ما أثبتنا ؛ كما يلاحظ أننا

قسمنا كل ليلة من ليالى هذا الجزء إلى موضوعات ، مثبتين فى أول كل موضوع رقما يدلّ عليه .

فنحن ننشر الجزء الأول من الـكتاب اعتمادا على نسخة طوب قبو سراى وحدها ، حتى إذا وصلنا إلى الجزء الثانى أمكننا الانتفاع بنسخة ميلانو .

ولعلنا بهـذا النشر نحسن إلى أبى حيان بالتعريف بقيمته ، والإشادة بذكره ، بعد أن أساء إليه الزمان ، فأماته فى حياته ، وأخمد اسمه بعد وفاته ؛ كما نحسن إلى عصره فنلقى عليه بعض الضوء ، وقد اكتنفه الظلام ، وعفت على آثاره الأيام ، والسلام .

أحمد أمين

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو حيّانَ التوحيديّ : نجا من آفات الدنيا من كان من العارفين ووصَلَ إلى خيرات الآخرة من كان من الزاهدين ، وظَفِر بالفوز والنعيم مَن قطَع طمعَه من الخَلق أجمعين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلّى الله على نبيّه وعلى آله الطاهرين .

(١) أمّا بعد ، فإنّى أقول منبّهًا لنفسى ، ولمن كان من أبناء جنسى : من لم يُطِعْ ناصحَه بقبول ما يَسـمع منه ، ولم يُمَلِّكْ صديقَه كلَّه[1] فيما يمثّله له ، ولم يَنْقَدْ لِبيَانِه[2] فيما يُرِيغُه[3] إليه ويُطلِعه عليه ؛ ولم يَرَ أنّ عقل العالِم الرشيد ، فوق عقلِ المتعلّمِ البليد ؛ وأنّ رأىَ المجرِّب البصير ، مقدَّمٌ على رأى الغُمْرِ[4] الغرير فقد خَسِر حظَّه فى العاجل ، ولعلّه أيضا يَخسَر حَظَّه فى الآجل ؛ فإنّ مصالح الدنيا معقودةٌ بمَراشِـد الآخرة ، وكلّيّاتِ الحِسِّ فى هذا العالَم ، فى مقابـلة موجودات العقل فى ذلك العالَم ؛ وظاهرُ ما يُرَى بالعِيان مُفْضٍ إلى باطنِ ما يَصْـدُق عنه الخَبَر ؛ وبالجملة ، الدّاران متّفقتان فى الخير المغتبَطِ به ، والشرِّ المندومِ عليـه ؛ وإنّما يختلفان بالعمل المتقدِّم فى إحداهما ، والجزاء المتأخّر فى الأخرى ؛ وأنا أعوذ بالله المَلِكِ الحقِّ الجبّارِ العزيزِ الـكريمِ الماجدِ أن أجهل حظّى ، وأعمَى عن

(١) كله : مفعول لـ « يملّك » ، يريد بهذه العبارة تمام الطاعة لصديقه حتى كأن صديقه مالك له كله يتصرف فيه كيف يشاء .
(٢) فى الأصل « ولم ينفذ لسانه » .
(٣) يريغه : يريده ويطلبه .
(٤) الغمر بالفتح والضم : من لم يجرب الأمور ؛ والجاهل الأبله .

رُشْدى ، وألْقِيَ بيدى إلى التَّهْلُكة ، وأتجانَفَ[١] إلى مايسوءنى أوّلا ولا يسرُّنى آخِرا ؛ هذا وأنا فى ذَيل الكهولة وبادئةِ الشيخوخة ، وفى حالِ مَنْ إنْ لم تَهدِه التجارب فيما سلف من أيّامِه ، فى حالَى سَفَره ومُقامِه ؛ وفقرِه وغِنائه ، وشِدّته ورخائه ، وسَرّائه وضرّائه ، وخِيفَتِه ورجائه ؛ فقد أُنقطع الطمعُ من فلاحِه ووقع اليأسُ مِن تدَارُكِه وأستصلاحِه ؛ فإلى الله أفزعُ من كلّ رَيْثٍ وعَجَل وعليه أتوكّل فى كل سؤل وأمل ، وإيّاه أستعين فى كلّ قول وعمل .

(٢) قد فهمتُ أيّها الشيخ[٢] — حَفِظ الله رُوحَك ، ووَكّلَ السلامةَ بك ، وأفرَغَ الكرامة عليك ، وعَصَبَ كلّ خير بحالك ، وحَشَد كلّ نعمةٍ فى رِحابك ورَحِم هذه الجماعةَ الهائلة — مِن أبناء الرجاء والأمل — بعنايتك ، ولا قطَعَك من عادة الإحسان إليهم ، ولا ثَنَى طَرْفَك عن الرّقّة لهم ، ولا زهّدك فى أصطناع حالِيهم وعاطِلِهم ، ولا رَغِب بك عن قبول حقّهم لبعض باطِلِهم ، ولا ثقّل عليك إدناء قريبِهم و بعيدِهم ، و إنالةَ مستحِقّهم وغيرِ مستحِقّهم أكثرَ مما فى نفوسهم وأقصى ما تقدر عليه من مواساتهم ، من بِشْرٍ تبديه ، وجاهٍ تبذُله ، ووعدٍ تقدّمه ، وضمانٍ تؤكّده ، وهَشاشةٍ تَمزُجها ببشاشة ، وتبسّمٍ تخلطه بفُكاهة فإنّ هذه كلّها زكاةُ المروءة ، ورِباطُ النّعمة ، وشهادةٌ بالمَحْتِد[٣] الزّكىّ والعِرْق الطيّب والمَنشأ المحمود ، والعادةِ المَرْضيّة ؛ وهى مؤذِنةٌ بأنّ المِنْحة راهنة[٤] ، والمَوْهِبةَ قاطنة ، والشكرَ مكسوب ، والأجرَ مذخور ، ورضوانَ الله

---

(١) « وأتجافى » ، وهو تحريف . والتجانف إلى الشيء : الميل إليه .

(٢) يريد بالشيخ أبا الوفا المهندس ، وهو الذى وصل أبا حيان بالوزير أبى عبد الله العارض كما يفهم مما يأتى .

(٣) « بالمجد » .

(٤) راهنة : دائمة .

واقع ؛ وأسأل الله بعد هذا كلّه ألاّ يُسْهِم[1] وجهى عندك ، ولا يَزِلّ قدمى فى خدمتك ، ولا يُزِيغنى[2] إلى ما يقطع مادّةَ إحسانِك وعائدةَ رأيك ونافعَ[3] نيّتِك وجميلَ معتقَدِك ، بمنّه ولطفِه .

فهمت جميعَ ما قلته لى بالأمس فهما بليغا ، ووعيتُه وَعْيًا تامًّا ؛ وبان لى الرُّشْدُ فى جملتِه وتفصيله ، والصلاحُ فى طرفيه ووسطه ، والغنيمةُ فى ظاهره وباطنه ، والشفقةُ من أوّله إلى آخره . وأنا أعيده ههنا بالقلم ، وأرسُمُه بالخطّ وأقيّده باللفظ ، حتّى يكون اعترافى به أرْسَى وأثْبَت ، وشهادتى على نفسى أقوَى وأوْكَد ، ونُكُولى عنه أبعَدُ وأصعَب ، وحُكْمُكَ بهِ لى وعلىّ أمضَى وأنفَذ .

(٣) قلتَ لى — أدام الله تعالى توفيقَك فى كلّ قولٍ وفعل ، وفى كلّ رأىٍ ونظر — : إنّك تعلم يا أبا حيّانَ أنّك انكفأتَ من الرّىّ[4] إلى بغداد فى آخر سنة سبعين[5] بعد فوتِ مأمولِك من ذى الكفايتين[6] — نضّر الله وجهه — عابسا على ابن عبّاد[7] مَغيظا منه ، مقروحَ الكبد ، لما نالك به من الحِرمان

(١) السهوم : تغير الوجه وعبوسه من الهم ؛ وكنى به عن تغير الحال .
(٢) يزيغنى : يميلنى .
(٣) « ويافع » .
(٤) الرى : مدينة فارسية قديمة كانت قصبة بلاد الجبال ، وكان اسمها الفارسى راغة ومنه أخذ اسمها العربى ، وهى الآن أطلال على مسافة خمسة كيلو مترات من طهران .
(٥) أى وثلثمائة .
(٦) ذو الكفايتين : لقب لأبى الفتح على بن أبى الفضل محمد المعروف بابن العميد . ويعنون بالكفايتين كفاية السيف وكفاية القلم ، وقد قام مقام أبيه ابن العميد ، واستوزر لركن الدولة البويهى ، ثم لما تولى عضد الدولة نكبه وقتله سنة ٣٦٦ هـ .
(٧) ابن عباد ، هو الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن أبى الحسن عباد ، ولد سنة ست وعشرين وثلاثمائة ، وتوفى سنة خمس وثمانين وثلاثمائة بالرى ، وكان وزيرا لمؤيد الدولة أبى =

المُرّ ، والصدّ (١) القبيح ، واللقاء الـكريه ، والجفاء الفاحش ، والقَدْع (٢) المؤلم والمعامَلةِ السيِّئة ، والتغافلِ عن الثواب على الخدمة ، وحبسِ الأجرةِ على النَّسْخ والوِراقة ، والتجهُّم المتوالى عند كلّ لحظةٍ ولفظة .

وذكرتَ فى الجملة شقاء اتّصـل بك فى سَفَرك ذلك ، وعناء نال منك فى عُرْضِ (٣) أحوالِك ؛ ولَعَمرى إنّ السَّفَر فَعول لهذا كلِّه ولأكثر منه ؛ فأرعيتك بصرى ، وأعرتك سمعى ، وساهمتُك فى جميع ما وقرته فى أُذُنى بالجزع والتوجُّع والاستفظاع (٤) والتفجُّع ؛ وضَمِنتُ لك تلافىَ ذلك كلِّه بحاقِّ (٥) الشـفقة وخالصِ الضمير ، ووعدتُك صلاحَ الحال عن ثبات النيّة ، وصحّةِ العقيدة ، وقلتُ : أنا أرعى حقّك القديمَ حين التقينا (بأرّجان (٦)) ، وأنا على باب (ابن شاهَوَيْه (٧)) الفقيه ، وعَهْدَك الحديثَ حين اجتمعنا بمدينة السلام سـنة ثمان وخمسين ؛ وأُوصِلُك إلى الأستاذ أبى عبد الله العارض (٨) — أدام الله تأييده — وأخطب

= منصور بويه الديلمى ، ثم وزر لأخيــه فخر الدولة أبى الحسن على ، وهو أول من لقب بالصاحب من الوزراء ، لأنه صحب مؤيد الدولة بن بويه منذ الصبا .

(١) « والقصد » .

(٢) القدع بالمهملة : المنع والزجر . وبالذال المعجمة : الشتم . والمعنى يستقيم على كلا الوجهين .

(٣) « فى عرض أحوالك » أى فى أكثرها . وعرض الشىء أكثره ومعظمه .

(٤) « والاستقطاع » .

(٥) حاق الشفقة : أى صادقها وكاملها .

(٦) أرجان : مدينة بين فارس وخوزستان ، وهى من كور الأهواز ، وتعرف الآن باسم « بابهان »

(٧) ابن شاهويه هو أبو بكر محمد بن أحمد بن على بن شاهويه الفارسى الفقيه الشافعى تولى القضاء ببلاد فارس ، وتوفى سنة ثنتين وستين وثلاثمائة بنيسابور .

(٨) أبو عبد الله العارض ، هو — فى رأينا — أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان كان وزيرا لصمصام الدولة بن عضد الدولة من سنة ٣٧٢ إلى سـنة ٣٧٥ والعارض لقب له وهو كما فى الأنساب للسمعانى « من يعرّف العسكر ويحفظ أرزاقهم ويوصلها إليهم ، ويعرض العسكر على الملك إذا احتيج إلى ذلك » والظاهر أنه لقب بهذا إما لأنه تولى هذا العمل قبل أن يتولى الوزارة ، أو كان هذا لقبا لأسرته (راجع الأدلة على هذا الرأى فى المقدمة) .

لك قبولا منه ، وتخفيفَ الإذن عليك ، وامتلاء الطَّرْف بك ، ونَيْلَ الحظوة بخدمتك وملازَمتك ؛ وفعلتُ ذلك كلَّه حتى استكتَبَك (كتابَ الحيوان) لأبي عثمان الجاحظ ، لعنايتك به ، وتوفُّرِك على تصحيحه ، ثم حَضنتُ[1] لك هذه الحالَ إلى يومنا هذا ؛ وهو الوزير العظيم الذى افتقرت الدولة إلى نظره وأمرِه ونهيه ، وإلى أن يكون هو المُبْرِمَ والناقض ، والرافعَ والواضع ، والكافىَ والوافى ، والمقرِّبَ لخَدَمِها ونصحائها ، والمزحزحَ لحسدتها وأعدائها ؛ والراعىَ لرعيّتها ودَهْمائها ، والناهضَ بأثقالها وأعبائها ، أعانه الله على ما تولّاه ، وكفاه المهمّ فى دنياه وأُخراه ، بمنّه وقدرتِه .

نعم ورتّبت ذلك كلّه ، ولَم أقطع عنك عادتى معك فى الأسترسال والأنبساط ، والبر والمواساة ، والمساعدة والمواتاة[2] ، والتعصّب والمحاماة .

أفكان من حقّى عليك فى هذه الأسباب التى ذكرتُها ، وفى أخواتها التى تركتُها كراهةَ الإطالة بها أنّك تخلو بالوزير — أدام الله أيّامه — ليالىَ متتابعةً ومختلفة ، فتحدّثُه بما تحبّ وتريد ، وتُلقِى إليه ما تشاء وتختار ، وتكتبُ إليه الرُّقعةَ بعد الرُّقعة ؛ ولعلّك فى عُرْض ذلك تعدو طَوْرَك بالتّشدُّق[3] وتجوزُ حَدّك بالأستحقار ، وتتطاولُ إلى ما ليس لك ، وتغلَط فى نفسك ، وتَنسَى زَلّةَ العالِم ، وسَقطةَ المتحرّى ، وخَجلةَ الواثق ؛ هذا وأنت غِرٌّ لا هيئة لك فى لقاء الكُبَراء ، ومحاورةِ الوزراء ؛ وهذه حالٌ تحتاج فيها إلى عادة غيرِ عادتك ، وإلى

---

(١) « حضنت لك هذه الحال » ، أى كفلتها لك وحفظتها عليك .

(٢) المواتاة : الموافقة .

(٣) التشدق ، هو التوسع فى الكلام من غير احتياط واحتراز ، وهو أيضا استهزاء الرجل بالناس يلوى شدقه بهم وعليهم .

البارق ، وسلوتُ عن قربك بقلب معرِض وعزم حيّ ؛ إلا أن تُطلِعنى طِلْعَ[1] جميع ما تحاورتما وتجاذبتما هُدْبَ الحديث عليه ، وتصرفتما فى هزله وجدّه ، وخيره وشرّه ، وطيّبه وخبيثه ، وباديه ومكتومه ؛ حتى كأنى كنتُ شاهدا معكما ورقيبا عليكما ، أو متوسطا بينكما ، ومتى لم تفعل هذا ، فانتظر عُقبى استيحاشى منك ، وتوقَّعْ قلّة غُفولى عنك ، وكأنى بك وقد أصبحتَ حَرّانَ حيرانَ يا أبا حيّان ، تأكل أصبعك أسفا ، وتَزْدَرِدُ ريقك لهفا ، على ما فاتك من الحَوْطة لنفسك ، والنظر فى يومك لغدك ، والأخذ بالوثيقة فى أمرك ، أتظنّن بغرارتك[2] وغَمارتك[3] ، وذَهابك فى فُسُولَتك[4] التى اكتسبتَها بمخالطة الصوفية والغرباء والمجتدين الأدنياء الأردياء ؛ أنك تقدر على مثل هذه الحال ، وأنامُ منك على حسن الظن بك ، والثقة بصَدَرِك ووردك ، وأطمئن إلى حَكّك وجَرْدِك وأتعامى عن حرّك وبردك ؛ هيهات ؛ رَقدتَ فحَلَمْتَ ، فخيرا رأيت وخيرا يكون

على هذا الحدّ كان مَقْطع كلامك فى مَوجِدتك ، وإلى ههنا بلغ فَيْضُ عَتبِك ولائمتك ؛ وفى دون ذلك تنبيه للنائم ، وإيقاظٌ للساهى ، وتقويمٌ لمن يقبل التقويم ؛ وقد قال الأوّل :

ألا إنما[5] يكفى الفتى عند زَيغه مِن الأَوَدِ[6] البادى ثِقافُ المقوّمِ

فقلت لك : أنا سامع مطيع ، وخادمٌ شكور ، لا أشترى سخطك بكلّ

(١) يقال : « أطلعته طلع أمرى » بكسر الطاء ، أى أبثثته سرى .
(٢) الغرارة : الغفلة .
(٣) الغمارة : الجهل والبلاهة .
(٤) الفسولة : الضعف والخسة وقلة المروءة .
(٥) «أيما» بالياء . (٦) الأود : العوج . والثقاف : ما تسوى به الرماح .

صفراء[١] وبيضاء فى الدنيا ؛ ولا أنفِر من التزام[٢] الذنب والاعتراف بالتقصير ؛ ومِثلى يهفو ويَجْمَح ، ومِثلك يعفو ويصفح ؛ وأنت مولىً وأنا عبد ، وأنت آمرٌ وأنا مؤتمِر ، وأنت ممثَّلٌ وأنا ممثل ، وأنت مصطنِع وأنا صنيعَةٌ ، وأنت منشِّئٌ وأنا مُنَشَّأ ، وأنت أوّل وأنا آخِر ، وأنت مأمول وأنا آمِلٌ ، ومتى لم تغفر لى الذنب البِكْر ، والجنايةَ العَذْراء ، والبادرةَ النادرة ؛ فقد أَعْنَتّنى على ما كان منّى ، وَدَلَّلْتَ على مَلَلِك لى ؛ وأنّك كنت مترصِّدًا لهذه الهفوة ومعتقدًا فى مقابلتها هذه الجفوة ؛ وكرمُك يأبى عليك هذا ، ومُثولى بين يديك خِدمةً لك يحظُره عليك .

هذا وأنا أفعل ما طالبتَنى به مِنْ سَرْدِ جميع ذلك ، إلّا أنّ الخوض فيه على البديهة فى هذه الساعة يشُقّ ويصعُب بعقِب ما جرى من التفاوض ، فإن أذِنْتَ جمعتُه كلَّه فى رسالة تشتمل على الدقيق والجليل ، والحلوِ والمُرّ ، والطرىّ والعاسى[٣] ، والمحبوب والمكروه ؛ فكان مِنْ جوابك لى : افعَلْ . وَنِعم ما قلتَ وهو أَحَبُّ إلىّ وأقربُ إلى إرادتى ، وَأَحْصَرُ لما أريغُ[٤] منه ، وأدخَلُ فى الحجّة عليك ولك ؛ وأغسَلُ للوسخ الذى بينى وبينَك ، وأزهَرُ للسّراج الذى طَفِئَ عنّى وعنك ، وأجذَبُ لعِنان الحجّة إن كانت لك ، وأنطَقُ عن العذر إن أتّضح بقولك ؛ وإذا عزمتَ فتوكّل على الله ؛ وليكن الحديثُ على تباعد أطرافِه ، وأختلافِ فنونه مشروحا ، والإسناد عاليًا متّصلا ، والمَتْنُ تامًّا بيّنا ،

(١) يريد بالصفراء الذهب ، وبالبيضاء الفضة .
(٢) « إكرام » .
(٣) العاسى : اليابس .

من الحجا ، ودَرْيُهُ (١) بالتمييز ؛ ونَسْجُه بالرِّقّة ، والحجا فى غاية النشاط (٢) وبهذا البَوْن يقع التباين ويتّسعُ التأويل ، ويجول الذّهن ، وتَتَمطّى (٣) الدعوى ، ويُفزَعُ إلى البرهان ، ويُبرأ من الشبهة ، ويُعثَر بما أشبه الحجّةَ وليس بحجّة ؛ فاحذر هذا النّعت ورِوادفَه ، واتّق هذا الحُكم وقَوائفَه (٤) ؛ ولا تعشَق اللّفظ دون المعنى ولا تهو المعنى دون اللفظ ؛ وكن من أصحاب البلاغة والإنشاء فى جانب ، فإن صناعتهم يُفتقَر فيها أشياء يؤاخذ بها غيرُهم ، ولستَ منهم ، فلا تتشبّه بهم ، ولا تجرِ على مثالهم ، ولا تنسُج على منوالِهم ، ولا تدخل فى غِمارِهم ، ولا تكثّر ببياضك سوادَهم ، ولا تقابل بفكاهتك براعتهم ، ولا تجذب بيدك رِشاءهم ، ولا تحاول بباعك مطاولتهم (٥) واعرف قدرَك تَسلَمْ ، والزم حدَّك تأمن ؛ فليس الكَوْدَن (٦) من العتيق فى شىء ، ولا الفقيرُ من الغنىّ على شىء ؛ أما سمعتَ قول الناس : ليس الشامىُّ للعراقىّ (٧) بصاحب ، ولا الكردىّ من الجندىّ بساخر ، فإن طال (٨) فلا تُبَلْ ، وإن تشعَّبَ فلا تكترث ، فإن الإشباع فى الرواية أشفَى للغليل ، والشرحَ (٩) للحال أبلغُ إلى الغاية ، وأظفرُ بالمراد ، وأجرَى على العادة .

فكتبت : (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ) ، أقول أيّها الشيخ — عطَفَ الله (٥)

(١) دريه ، أى درياته وعلمه .
(٢) الظاهر أن هنا كلاما سقط من الناسخ .
(٣) تتمطى : تتطاول .
(٤) قوائفه ، أى توابعه . يقال : قاف أثره إذا تبعه
(٥) « مطاوعتهم » .
(٦) الكودن : الفرس الهجين والبرذون . والعتيق من الأفراس : الكريم الرائع منها .
(٧) يشير بهذه الجملة إلى ما وقع بين الشام والعراق من العداوة أيام على ومعاوية وما ذلك .
(٨) طال ، أى الكلام .
(٩) « والسرج » .

قلبك عليّ ، وألمك الإحسان إليّ – فى جوابِ جميع ما قلتَه واجداً عليّ وعاتبا ، وقابضا ، وباسطا ، ومرشدا ، وناصحا ؛ ما يُعْرَف الحقّ فيه ، ويَستبينُ الصوابُ منه ، غيرَ خائنٍ لك ، ولا جانحٍ إلى مخالَفتك ، ولا مُريغٍ[١] للباطل معك ، ولا جاحدٍ لأياديك القديمة والحديثة ، ولا منكِرٍ لنعمتك الكافية الشافية ، ولا غاطٍ[٢] على فواضلك المجتمعة والمتفرقة ، ولا تاركٍ لشيء هو على من أجل شيء هو لى ، ولا معرض عن شيء هو لى بسبب شيء هو عليّ ؛ بل أجهِّز دِقَّه وجِلَّه إليك حتى تراه بِسِدِّه[٣] وغُباره ، وأجلوه عليك حتى تلحظه بردائه وإزارِه . كأنى لم أسمع قولَ الأوّل :

« والكفر[٤] مَخبَثةٌ لنفس المنعِمِ » « والشكر مَبعثةٌ لنفس المفضِلِ »

أأنا أَدَعُك واجداً عليّ ، وأرقد وأنت ماقِتٌ لى ، وأجد حِسَّ نعمة أنت وهبتَها إليّ ، وألذّ عيشاً أنت أذقتنى حلاوتَه . أأنسى أياديَك وهى طوقُ رقبتى ، ونُجاةَ عينى ، وحشوُ نفسى ، وراحةُ حِلمى ، وزادُ حياتى ، ومادّة روحى ؟ هيهات ، هذا بعيد من القياس ، وغيرُ معهود بين أحرار الناس ؛ الذين لهم اُهتِمام بصون أغراضهم ، وحرصٌ على إكرام أنفسهم ؛ قد عَبِقوا[٥] بفوائح الفتوّة ، وعَلِقوا بحبائل المروءة ، وشدَوْا[٦] من الحكمة أشرفَ الأبواب ؛ واعْتَزَوْا من الأدب

(١) المريغ : المريد .

(٢) غطى على الشيء بتخفيف الطاء : كغطى عليه بتشديدها .

(٣) السِّد : الصحيح من الكلام وكنى بالغبار عما يثور حول الكلام من اعتراض ونحوه ، ومنه قولهم : « كلام لا غبار عليه » .

(٤) هذا الشطر عجز بيت لعنترة العبسى وصدره :

نبئت عمرا غير شاكر نعمتى

(٥) « عتقوا بفرائح » .

(٦) شدوا : أخذوا . يقال : شدا من العلم شيئا إذا أخذه كأنه ساقه أو جمعه ، وفى الأصل « شذوا » بالمعجمة .

إلى أعز حَرم(١) ؛ وحازوا شرفا بعد شرف ، وانحازوا عن نَطَف بعد نَطَف(٢) ونظروا إلى الدنيا بعين بصيرة ، وعَزَفوا(٣) أنفسهم عن زهراتها بتجربة صادقة .

فأول ما أبدؤك به أنّى ظننتُ ظنا لا كيقين أنّ شيئاً مّما كنتُ فيه مع الوزير — أدام الله أيّامه ، وقَصَم أعداءه — ليس مما يهمّك ، ولا هو مما يقْرَعُ سمعَك سماعُك له ؛ وحسبتُ أيضاً أنّنى إن بدأتُ بشئ منه رَذَلْتَنى عليه وتنقّصتنى به ، وزَرَيتَ علىّ فيه ؛ وأنّك ربّما قلت : لم بدأتَ بما لم أسئلك عنه ولم أرخِّص لك فيه ، هلّا كظمتَ على جِرّتِك(٤) ، وطويتَ مابين جنبيك وما علىّ ممّا يدور بين الصاحب وخادمه والرؤساء ، والناظرين فى أمور الدهماء(٥) والمتصفحين لأحوال العامّة والخاصّة ، ولهم أسرار وعيوبٌ لا يقف عليها أقرب الناس إليهم ، وأعزُّ الناس عليهم ، وأنت أيضا فلَم تسألنى عنه ، فكان فى تقديرى أنّك قد عرفتَ وصولى فى وقت دون وقت ، وأنّك قد حَملتَ أمرى على الخدمة التى ليس للعلم بها فائدة ، ولا فى الإعراض عنها فائتة .

وإذْ جرى الأمر على غير ما كان فى حسابى وتَلَبَّسَ(٦) بظنى ، فإنّي أهدى ذلك كلَّه بغَثاثته وسَمانته ، وحلاوته ومرارته ، ورِقّته وخَثارته فى هذا المكان ؛ ثمّ أنت أبصَرُ بعد ذلك فى كتمانه وإفشائه ، وحفظِه وإضاعته وستره(٧) وإشاعته ؛ ووالله ما أرَى هذا أمراً صعْباً إذا وصل إلى مرادِك

(١) « خدم » .
(٢) النطف بالتحريك : العيب والفساد .
(٣) « عرفوا » وعزف عن الشيء : أعرض عنه وزهد فيه .
(٤) « جريك » ، وجرة البعير معروفة ، شبه بها الحديث المختزن يفشيه صاحبه .
(٥) « الذبهما » والدهماء : جماعة الناس .
(٦) « ولكبس » .
(٧) « ولدبره وأشكر عنه » .

ولا كُلفةً شاقّةً إذا أكسبنى مَرضاتَك ؛ وإن كان ذلك يمرّ بأشياء كثيرةٍ ومختلفةٍ ، متعصّية غريبةٍ ، منها ما يَشِيط(١) به الدم المحقون ، ويُنزَع من أجلِه الرُّوح العزيز ، ويُستصغَر معه الصَّلْب ، ولا يُقنَع فيه بالعـذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ؛ وإن كان فيها أيضا غيرُ ذلك ممّا يُضحِك السِّنّ ، ويُفكِّه النفس ، ويدعو إلى الرشاد ، ويدُلّ على النُّصح ، ويؤكِّد الحُرْمة ، ويَعقِد الذِّمام ، ويَنشُر الحكمة ، ويشرِّف الهمّة ، ويَلقَح العقل ، ويزيد فى الفهم والأدب ويفتح بابَ اليُمْن والبركة ، ويُنفِّق بضاعةَ أهل العلم فى السوق الكاسدة ، ويوقظ العيون الناعسة ، ويَبُلّ الشَّنَّ(٢) المتغضِّف ، ويُندِّى الطِّين المترشِّف ؛ ويكون سبباً قويا على حُسن الحال وطلبِ العيش ، فإن هذه العاجلةَ محبوبة ، والرَّفاهيةَ مطلوبة ، والمكانةَ عند الوزراء بكلّ حولٍ وقوّةٍ مخطوبة ، والدنيا حلوةٌ خَضِرة وعَذْبةٌ نَضِرة ، ومن شفّ(٣) أملُه شَقّ عملُه ؛ ومن اشتدّ إلحاحُه ، توالَى غدوُّه ورَواحُه ، ومَن أسَرَه رجاؤه ، طال عناؤه ، وعَظُم بلاؤه ؛ ومن ألتهب طمعُه وحرصُه ، ظهر عجزُه ونقصُه .

وفى الجملة :

من لم يكن لله متّهِماً ... لم يُمْسِ محتاجًا إلى أحدِ

(٦) ولا بدّ من فتًى يعينُ على الدّهر ، ويُغنى عن كرام الناس فضلا عن لئامهم ، ويذلِّل قَعودَ الصبر ، ويُجِمّ راحلةَ الأمل ، ويُحلِي مُرّ اليأس ؛ والعُزلة محمودةٌ

---

(١) يشيط : يذهب هدرا .

(٢) « السن بالسين المهملة » . والشن بالمعجمة : القربة الخلق . والمتغضف ، أى المتكسر المتغضن من اليبوسة .

(٣) شف أمله : زاد ، ويجوز أن يفسر بمعنى أسقمه الأمل وأضناه لعلوه وبعد مناله .

إلاّ أنّها محتاجة إلى الكفاية ، والقناعة مَزّة [١] فَكِهة ولكنّها فقيرة إلى البلغة وصيانةُ النفس حسنة إلاّ أنّها كُلفة مُحرجة إن لم تكن لها أداةٌ تُجِدُّها [٢] وفاشية [٣] تَمُدّها ، وتركُ خدمة السلطان غيرُ الممكن ولا يستطاع إلاّ بدِينٍ متين ، ورغبةٍ فى الآخرة شديدة ، وفِطامٍ عن دار الدنيا صعب ، ولسانٍ بالحلو والحامض يَلَغ .

قال ابن السمّاك [٤] : لولا ثلاثٌ لم يقع حَيْف ، ولم يُسَلّ سيف ، لقمةٌ أسوَغ من لقمة ، ووجه أصبَحُ من وجه ، وسِلْكٌ [٥] « أنعَمُ من سِلْك » ، وليس كلُّ أحد له هذه القوّة ، ولا فيه هذه المُنّة [٦] والإنسان بَشَر ، وبنيتُه متهافتة وطينتُه منتثرة ، وله عادةٌ طالبة ، وحاجةٌ هاتكة ، ونفسٌ جَموح ، وعينٌ طموح ؛ وعقلٌ طفيف [٧] ، ورأى ضعيف ، يهفو لأوّل ريح ، ويستخيلُ [٨] لأوّل بارق ؛ هذا إذا تخلّص من قُرَناء السوء ، وسلم من سوارق [٩] العقل ، وكان له سلطان على نفسه ، وقَهْرٌ [١٠] لشهواته ، وقَمْعٌ لهوائجه [١١] وقبولٌ من ناصحه ، وتهيّؤٌ

(١) « مرة » والمزّة : الخمرة اللذيذة الطعم .

(٢) تجدها ، أى تجددها .

(٣) الفاشية : ما انتشر من المال . وفى الأصل « غاشية » .

(٤) « ابن السائل » ، وهو تحريف وابن السماك هو أبو العباس محمد بن صبيح الكوفى الزاهد الواعظ المشهور لقى جماعة من الصدر الأول وأخذ عنهم وقدم من بغداد زمن هرون الرشيد وتوفى سنة ثلاث وثمانين ومائة بالكوفة .

(٥) السلك : الخيط . وكنى به عن الثوب لأنه من الخيوط .

(٦) « المقة » . والمنة بضم الميم : القوة .

(٧) الطفيف الناقص والقليل .

(٨) فى الأصل : « ويستحيل » بالحاء ، وهو تصحيف . ويستخيل لأول بارق ؛ أى يخال المطر عند أول بارق .

(٩) يريد بسوارق العقل : الشهوات التى تذهب به وتجعله فى حكم غير الموجود كأنها تسرقه . والذى فى الأصل : « سرادق » ؛ وهو تصحيف .

(١٠) « وفهم » .

(١١) لهوائجه ، أى لما يهيج به من النزعات والمطامع .

فى سعيه ، وتبوُّءٍ فى مَعَانِ[1] حَظِّه ، وأُتمامٌ بسعادته ، وأستبصارٌ فى طلب ما عند ربّه ، وأستنصافٌ من هواه المُضِلِّ لعقله المرشِد ، هذا قليلٌ وصعب ولو قلتُ : معدومٌ أو مُحال فى هذا الزمن العسير والدهر الفاسد ، لما خفتُ عائقاً يعوقنى ، ولا حسودا يردّ قولى . قال ابن السَّمَّاك : الله المستعان على ألسُنٍ تَصِف وقلوبٍ تَعترف ، وأعمالٍ تختلف . وقال معاوية لأبى بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث — ورآه لا يَلِى له عملا ، ولم يَقبل منه نائلا — : يا ابن أخى ، هى الدنيا ، فإمّا أن تَرضَع معنا ؛ وإمّا أن تَرتدِع عنّا . وربّما قال بعض المتكلّفين قد قال بعض السلف : ليس خيرَكم مَن تركَ الدنيا للآخرة ، ولا مَن تركَ الآخرة للدنيا ولكنّ خيرَكم مَن أخذ من هذه وهذه .) وهذا كلام مقبول الظاهر موقوفُ الباطن . وربما قال آخَرُ من المتقدمين : (أعمل لآخرتك كأنّك تموت غدا ، وأعمل لدنياك كأنّك تعيش أبدا) . وهذا أيضا كلامٌ منمّق ، لا يَرجع إلى معنًى محقّق ؛ أين هو من قول المسيح — عليه السلام — حين قال : الدنيا والآخرة كالمشرق والمغرب متى بَعُدَ أحدكم من أحدهما قَرُب من الآخَر ؛ ومتى قَرُب من أحدهما بَعُد من الآخَر . وأين هو من قول الآخَر : الدنيا والآخرة ضَرّتان ، متى أرضيتَ إحداهما أسخطتَ الأخرى ، ومتى أسخطتَ إحداهما أرضيتَ الأخرى .

وهذا لأنّ الإنسان صغيرُ الحجم ، ضعيفُ الحول ، لا يستطيع أن يجمع بين شهواته وأخذِ حظوظ بدنه وإدراكِ إرادته ، و بين السعى فى طلب المنزلة عند ربّه بأداء فرائضه ، والقيامِ بوظائفه ، والثباتِ على حدود أمره ونهيه ، فإن صَفُق

---

(١) المعان : المباءة والمنزل .

وجهُه وقال : نَعمل تارة لهذه الدار وتارة لتلك الدار ، فهذا المذبذب الّذى لا هو من هذه ولا من هذه ؛ ومن تخَنَّثَ [١] و تَلَيَّثَ لم يكن رجلاً ولا امرأة ، ولا يكون أبا ولا أما ؛ وهذا كما نرى .

ونرجع فنقول : ونعوذ بالله من الفقر خاصّة إذا لم يكن لصاحبه عِياذٌ من التقوى ، ولا عِمادٌ من الصبر ، ولا دِعامةٌ [٢] من الأَنَفة ، ولا اصطبارٌ على المرارة .

وقد بُلينا بهذا الدهر الخالى من الدّيّانين الذين يُصلِحون [٣] أنفسهم ويُصلِحون غيرَهم بفضل صلاحهم ، الخاوى من الكرام الذين كانوا يتّسعون فى أحوالهم ، ويوسّعون على غيرهم مِن سَعَتِهم ، وكانوا يهتمّون بذخائر الشكر المعجَّل فى الدنيا ، يَحرِصون [٤] على ودائع الأجر المؤجّلِ فى الأخرى ؛ ويتلذّذون بالثناء ، ويهتزّون للدعاء ؛ وتَملِكهم الأريحيّةُ عند مسئلة المحتاج ، وتعتريهم الهِزّةُ معها والابتهاج ؛ وذلك لعشقهم الثناء الباقى ؛ والصنيعَ الواقى ؛ ويرون الغنيمةَ فى الغرامة ، والرِّبحَ فى البذل ، والحظَّ فى الإيثار ، والزيادةَ فى النقص ؛ أعنى بالزيادة . الخَلَفَ المنتظَرَ من الله ؛ وبالنقص : العطاء ؛ ورأيتُ الناس يعيبون ابن العميد حين قال : أنا أعجب من جهل الشاعر الذى قال :

أنت للمالِ إذا أمسكتَه   فإذا أنفقتَه فالمالُ لك

قال : ولو كان هذا صحيحاً كان لا ينبغى أن يُكْتَسبَ المال ، لأنّه ليس فى ترك

---

(١) فى الأصل : « تخنث » ؛ وهو تصحيف . ويريد بالتخنث والتليث : اللين والتشدد تشبها بالمخنثين والليوث .
(٢) « دماثة » . والدعامة : العماد .
(٣) « لا يصلحون » : وقوله « لا » زيادة من الناسخ .
(٤) « يخوضون » .

كسبه أكثرُ من إخراجه بالإنفاق . هـذا لقولهم [1] بحكمته وعقلِه وتحصيله وصوابُ الجاهل لا يُستحسَن كما يُستقبَح خطأ العاقل ؛ نعم ، وكانوا إذا وَلُوا عَدَلوا ، وإذا مَلَكوا أفضَلوا [2] ، وإذا أعطَوا أجزَلوا ، وإذا سُئلوا أجابوا وإذا جادوا أطابوا ، وإذا عالوا [3] صبروا ، وإذا نالوا [4] شكروا ؛ وإذا أنفقوا واسَوا ، وإذا امتُحِنوا تأسَّوا ؛ وكانوا يرجعون إلى نقائبَ ميمونة ، وإلى ضرائبَ [5] مأمونة ؛ وإلى ديانات قويّة ، وأماناتٍ ثخينة [6] ؛ وكان لهم مع الله أسرار طاهرة ، وعلانيةٌ مقبولة ؛ ومع عباد الله معاملةٌ جميلة ، ورحمةٌ واسعة ومَنْدِلَةٌ فاشية ؛ وكانت تجارتُهم فى العلم والحكمة ، وعادتهم جارية على الضِّيافة والتَّكرِمة ؛ وكانت شِيمتُهم الصفح والمغفرة ورِبحُهم [7] من هذه الأحوال النجاةَ والكرامةَ فى الأُولى والعاقبة ؛ وكانوا إذا تلاقَوا تواصَوا بالخير ، وتناهَوا عن الشرّ ؛ وتَنافَسوا فى اتّخاذ الصنائع ، وادّخار البضائع (أعنى صنائعَ الشكر ، وبضائعَ الأجر) فذهب هـذا كلُّه ، وتاه [8] أهلُه ؛ وأصبح الدِّين وقد أُخلِق لَبُوسُه ، وأُوحِشَ مأنوسُه ، وأُقتُلِع مغروسُه ؛ وصار المنكَر معروفا ، والمعروفُ منكَرا ، وعاد كلُّ شيء إلى كدِرِه وخاثِره ، وفاسدِه وضائرِه ؛ وحَصَل الأمرُ

(١) هـذا لقولهم ، أى عيب الناس لابن العميد فى كلامه السابق ، لما يصفونه به من الحكمة والعقل الخ .

(٢) أفضلوا : أنعموا .

(٣) فى الأصل « اعتزلوا » . وعالوا : افتقروا ، من العيلة بفتح أوله .

(٤) « قالوا » .

(٥) الضرائب : الطبائع والسجايا ، الواحدة ضريبة .

(٦) ثخينة : قوية كما يقال فى عكس ذلك : هو رقيق الدين ، أى ضعيفه .

(٧) « وزكم » .

عَلَى أن يقالَ : فلانٌ خفيفُ الرُّوح ، وفلان حسَنُ الوجه ، وفلان ظريفُ الجملة ، حلوُ الشمائل ، ظاهرُ الكَيْس ، قويُّ الدَّسْت(١) فى الشِّطْرَنْج ، حَسَنُ اللّعب فى النَّرْد ، جَيِّدٌ فى الاستخراج ، مدبِّرٌ(٢) للأموال ، بَذولٌ للجَهْد ، معروفٌ بالاستقصاء لا يُغضِى عن دانق ، ولا يتغافل عن قيراط ؛ إلى غير ذلك مما يأنَفُ العالِمُ من تكثيره ، والكاتبُ من تسطيره .

وهذه كلُّها كنايات عن الظلم والتجديف(٣) ، والخساسة والجهل وقلّةِ الدِّين وحبِّ الفساد ، وليس فيها شىء مما قدّمنا وصفَه عن القوم الذين اجتهدوا أن يكونوا خلفاء الله على عباد الله بالرأفة والرِّقّةِ والرحمة والاصطناعِ والعدلِ والمعروف .

وأرجعُ عن هذه الشَّكيّة الطويلة اللاّذعة والبليّةِ العامّةِ الشاملة ؛ إلى عينِ ما رسمتَ لى ذِكرَه ، وكلّفتنى إعادتَه ؛ عائذا بالله فى صَرف الأذى عنّى وسَوْقِ الخير إلىّ ؛ ولائذا بكرمك الّذى رِشْتَنى(٤) به إلى الساعة ، وكفيتَنى به مؤونةَ الخِدمة لغيرك من هذه الجماعة ؛ والأعمالُ بخواتيمها ، والصُّدورُ بأعجازها ؛ وأنت أولى الناس بالصَّفح والتجاوُزِ عنّى إذا عرفتَ براءتى فى كلّ ما يتعلّق بى من ذمامك ؛ ويجب علىّ من الحقّ فى مودّتك ، والاعتصامِ بحبلك والانتجاع(٥) من عُشْبك ، والارتغاء(٦) من لبَنِك .

(١) الدست : الحيلة ، وهو أيضا ما يكون فيه الغلب فى الشطرنج ؛ تقول : « الدست لى والدست على » .
(٢) « مثير » .
(٣) التجديف : الكفر بنعمة الله . وفى الأصل : والتخويف .
(٤) راشه يريشه : جعل له ريشا . شبه ما بذله له من المعروف بالريش للطائر .
(٥) الانتجاع : طلب المعروف .
(٦) فى الأصل « الارتقاء » بالقاف ؛ وهو تصحيف . والارتغاء : أخذ رغوة اللبن واحتساؤها .

الليلة الأولى

وصلتُ أيّها الشيخ — أطال الله حياتك — أوّل ليلة إلى مجلس الوزير — أعزّ الله نصرَه ، وشدّ بالعصمة والتوفيق أزْرَه — فأمَرَنى بالجلوس ، و بسَطَ لى وجهَه الّذى ما أعتراه منذ خُلِق العُبوس ؛ ولَطَّفَ كلامَه الّذى ما تَبدّل منذ كان لا فى الهَزْل ولا فى الجِدّ ، ولا فى الغضب ولا فى الرضا . (١)

ثم قال بلسانه الذّليق[1] ، ولفظِه الانيق : قد سألتُ عنك مرّاتٍ شيخَنا أبا الوفاء ، فذَكر أنّك مراعٍ لأمر البِيمارِسْتان من جهته ، وأنا أرْبَأُ بك عن ذلك ، ولَعلّى أعرّضك لشىء أنْبَهَ من هذا وأجدَى ، ولذلك فقد تاقت نفسى إلى حضورك للمحادثة والتأنيس ، ولأتعرّفَ[2] منك أشياءَ كثيرةً مختلفةً تَرَدّدُ فى نفسى على مَرّ الزمان ، لا أحصيها لك فى هذا الوقت ، لـكنّى أنثُرها فى المجلس بعد المجلس على قدر ما يَسنح ويَعرِض ، فأجبْنى عن ذلك كلّه باسترسال وسكونِ بال ؛ بملء فيك ، وجَمّ خاطرِك ، وحاضرِ عِلمِك ؛ ودَعْ عنك تفنُّنَ البَغداديِّين[3] . . . .[4] مع عفوِ لفظِك ، وزائدِ رأيِك ، ورِبْع[5] ذِهنِك ؛ ولا تَجبُنْ جُبْنَ الضُّعفاء ، ولا تتأطّرْ[6] تأطُّرَ الأغبياء ؛ وأجزِم إذا قلت ، وبالِغ إذا وصفت ؛ وأصدُق إذا أسندْت ، وأفصل إذا حَكَمْت ، إلاّ إذا عَرَض لك

---

(١) اللسان الذليق : الحاد البليغ .
(٢) « ولا تفرق » .
(٣) يريد بتفنن البغداديين : استطرادهم فى الـكلام وخروجهم فيه من فن إلى فن .
(٤) هنا كلمة مطموسة بالأصل لا تمكن قراءتها .
(٥) ربع ذهنك ، أى فضلته .
(٦) التأطر : التحبس والتثنى ، شبه به وقوف الغبي وتردده فى جواب ما يسأل عنه .

ما يوجب توقُّفا أو تهاديا(١) ؛ وما أحسنَ ما قال الأوّل :

لا تَقْدَحُ الظِّنَّةُ فى حُكْمِهِ   شيمتُه عدلٌ وإنصافُ
يَمضِى إذا لم تَلْقَه شبهةٌ   وفى اعتراضِ الشكِّ وَقّافُ

وقد قال الأوّل :

أُبالى البلاءَ وإنّى امرؤٌ   إذا ما تبيَّنتُ لَم أَرْتَبِ(٢)

وكن على بصيرة أنّى سأستدِلّ ممّا أسمعه منك فى جوابك عمّا أسألك عنه على صدقك وخلافه ، وعلى تحريفك وقِرافِه(٣) .

(٢) فقلتُ قبلُ : كلُّ شيء أريد أن أجاب إليه يكون ناصيرى على ما يراد منّى فإنّى إن مُنِعْتُه نَكَلْتُ ، وإن نَكَلْتُ قَلَّ إفصاحى عما أطالَب به وخفَتُ الكَساد ، وقد طَمِعْتُ بالنَّفاق(٤) وانقلبتُ بالخيبة ، وقد عقدتُ خِنْصَرِى على المسألة . فقال — حَرَس الله رُوحَه — : قل — عافاك الله — ما بدا لك ، فأنت مجاب إليه ما دمتَ ضامنا لبلوغ إرادتِنا منك ، وإصابةِ غرضنا بك .

قلت : يُؤذَن لى فى كاف المخاطَبة ، وتاءِ المواجَهة ، حتّى أتخلّص من مزاحمة الكناية ومضايقة التعريض ، وأركبَ جَدَد(٥) القول مِنْ غير تَقيّة(٦) ولا تَحاش

(١) التهادى : المشى الرفيق فى تمايل .
(٢) فى الأصل « ارتئب » ؛ وهو تحريف .
(٣) قرافه ، أى ارتكابه . يقال : قارف الذنب واقترفه ، إذا خالطه .
(٤) النفاق ضد الكساد .
(٥) الجدد بالتحريك : ما استوى من الأرض لا وعث فيه ولا جبل ولا أكمة ، شبه به القول الذى لا عوج فيه ولا التواء .
(٦) « بقية » .

ولا مُحاوَبة(١) ولا انْحِياش(٢) .

(٣) قال : لك ذلك ، وأنت المأذون فيه ، وكذلك غيرُك ، وما فى كاف المخاطَبة وتاءِ المواجَهة ؟ إن الله تعالى — على علوّ شأنه ، وبَسْطةِ مُلْكه ، وقدرتِه على جميع خلقه — يواجَه بالتاء والكاف ، ولو كان فى الكناية بالهاء رِفعةٌ وجلالةٌ وقَدْر ورتبة وتقديس وتمجيد لكان الله أحقَّ بذلك ومقدَّما فيه ، وكذلك رسولُه صلّى الله عليه وسلّم والأنبياء قبله — عليهم السلام — وأصحابُه — رضى الله عنهم — والتابعون لهم بإحسان — رحمة الله عليهم — وهكذا الخلفاء ، فقد كان يقال للخليفة : يا أمير المؤمنين أعزّك الله ، ويا عُمرُ أصلحك الله ؛ وما عاب هذا أحد ، وما أَنِف منه حسيب ولا نسيب ، ولا أباه كبيرٌ(٣) ولا شريف ؛ وإنّى لأعجب من قوم يرغبون عن هذا وشبهه ، ويحسَبون(٤) أن فى ذلك ضَعةً أو نقيصةً أو حَطًّا أو زراية ، وأظن أنّ ذلك لعجزهم وفُسُولتِهم(٥) ، وانخزالهم(٦) وقلّتهم وضُؤولتهم ، وما يجدونه من الفضاضة فى أنفسهم ، وأن هذا التكلُّف والتجبُّرَ يمحوان عنهم ذلك النقص ، وذلك النقص يَنتفِى بهذا الصَّلَف ؛ هيهات ، لا تكون الرياسة حتّى تصفو من شوائب الخُيَلاء ، ومن مَقابح الزَّهْو والكبرياء .

(٤) فقلتُ : أيّها الوزير ، قد خالطتُ العلماء ، وخدمت الكبراء وتصفّحتُ أحوال الناس فى أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم ، فما سمعتُ هذا المعنى من أحد على

(١) لعله : مواربة .
(٢) الانحياش : الانقباض .
(٣) « كثير » .
(٤) « يخشون » .
(٥) الفسولة : الخسة والضعف .
(٦) انخزالهم ، أى انقطاعهم وتخلفهم عن طلب المعالى .

هذه السّياقة الحسنة والحجّةِ الشافية والبلاغِ المبين؛ وقد قال بعض السلف الصالح: « ما تَعاظمَ أحد على مَن دونَه إلاّ بقدر ما تَصاغرَ لِمَنْ فوقَه » . والتصاغر دواء النفس، وسجيّةُ أهل البصيرة فى الدنيا والدين؛ ولذلك قال ابن السمّاك[1] للرشيد — وقد عَجِب من رقّته وحُسنِ إصاخته لموعظته و بليغِ قبوله لقوله وسرعةِ دمعته على وجنته — : « يا أميرالمؤمنين، لَتواضُعُك فى شرفك أشرَفُ من شرفك، و إنى أظنّ أنّ دمعتَك هذه قد أطفأتْ أوديةً من النار وجعلتْها بردا وسلاما » .

قال[2] : هذا باب مُفترَقٌ فيه، ورَجَعْنا إلى الحديث [فإنه شهىّ، سيّما إذا كان من خطرات[3] العقل] قد خُدِم بالصواب فى نَغْمةٍ ناغِمة، وحروف متقاومة؛ ولفظٍ عَذْب، ومَأْخَذٍ سهل؛ ومعرفة بالوصل والقطع، ووفاء بالنثر والسّجْع؛ وتباعُدٍ من التكلّف الجافى، وتقارُبٍ فى التلطُّف الخافى، قاتل الله ذا الرُّمّة[4] حيث يقول:

لها بَشَرٌ مِثلُ الحرير ومَنْطِقٌ رَخِيمُ الحواشى لا هُراءٌ[5] ولا نَزْرُ

وكنتُ أُنشِد أيّام الصِّبا هذا[6] بالذال، وكان ذلك من سوء تلقين المعلِّم؛ وبالعراق رُدَّ علىّ وقيل: هو بالزاى؛ وقد أجاد القَطامىّ[7] أيضا وتغزّل فى قوله:

---

(١) انظر التعريف بابن السماك رقم ٤ صفحة ١٤ .

(٢) قال، أى الوزير .

(٣) عبارة الأصل « خاصة سيما إذا كان من طيران العقل » .

(٤) ذو الرمة، هو غيلان بن عقبة بن نهيس أحد فحول الشعراء الأمويين، توفى سنة سبع عشرة ومائة عن أربعين سنة .

(٥) رخيم الحواشى : ناعمها . والهراء : المنطق الكثير، والنزر : القليل .

(٦) هذا، أى قوله فى البيت السابق : « نزر » .

(٧) القطامى لقب غلب على عمير بن شييم التغلبى من بنى جشم بن بكر، وهو شاعر إسلامى مقل، وكان نصرانيا .

فهنّ(١) ينبذن من قول يُصِبْن به   مواقعَ الماء من ذى الغلّةِ الصادى

قلتُ : ولهذا قال خالد بن صفوان حين قيل له : أتَمَلّ الحديث ؟ قال : إنما يُمَلّ العتيق(٢) ، والحديث معشوق الحِسّ بمعونة العقل ، ولهذا يُولَع به الصبيان والنساء ، فقال : وأىّ معونة لهؤلاء من العقل ولا عقل لهم ؟ قلتُ : ههنا عقلٌ بالقوّة وعقلٌ بالفعل ، ولهم أحدهما وهو العقل بالقوّة ، وههنا عقلٌ متوسّط بين القوّة والفعل مُزْمِع(٣) ، فإذا برز فهو بالفعل ، ثم إذا أُستمرّ(٤) العقل بلغ الأُفُق ؛ ولفرط الحاجة إلى الحديث ما وضع(٥) فيه الباطل ، وخُلِط بالمُحال ووُصِل بما يُعجب ويُضحِك ولا يَؤول إلى تحصيل وتحقيق ، مثل (هزار أفسان(٦)) وكلّ ما دخل فى جنسه من ضروب الخُرافات ؛ والحِسُّ شديدُ اللّهَج(٧) بالحادث والمُحْدَث والحديث ، لأنّه قريب العهد بالكون ، وله نصيب من الطّرافة . ولهذا قال بعض السَّلَف(٨) : « حادثوا هذه النفوس فإنها سريعة الدُّثُور » ، كأنّه أراد أصْقُلوها وأَجلُوا الصَّدَأ عنها ، وأعيدوها قابلةً لودائع الخير ، فإنها إذا دَثَرَتْ — أى صَدِئت ، أى تغطّت ؛ ومنه الدِّثار الّذى فوق الشِّعار — لم يُنتفَع بها ؛

(١) « فهل » .
(٢) العتيق : القديم .
(٣) استعار الإزماع هنا لمعنى التهيؤ والاستعداد للظهور .
(٤) استمر ، أى قوى واستحكم ، من المرة بكسر الميم وتشديد الراء ، وهى القوة .
(٥) ما وضع ، أى وضع ، فـ«ما» هنا زائدة ، وهو تعبير شائع الاستعمال فى كلام المؤلف .
(٦) فى الأصل « حسبان » ؛ وهو تحريف . وهزار أفسان كتاب فى الخرافات نقل ابن النديم معنى هذا الاسم ألف خرافة . ويستفاد مما ذكره من السبب فى تأليفه أنه أصل (لكتاب ألف ليلة وليلة) المعروف ، فقد ذكر أن بعض الملوك كان إذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد ، فتزوج بجارية من أولاد الملوك ممن لهن عقل ودراية يقال لها « شهرزاد » فلما حصلت معه ابتدأت تحدثه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ، ويسألها فى الليلة الثانية عن تمام الحديث إلى أن أتى عليها ألف ليلة الخ .
(٧) « الكهج » .
(٨) يروى هذا الحديث عن الحسن .

والتعجُّب كلُّه مَنوطٌ بالحادث ؛ وأما التعظيم والإجلال فهما لكلِّ ما قَدُم : إمّا بالزمان ، وإمّا بالدهر ؛ ومثال ما يقدُم بالزمان الذهب والياقوت وما شابههما من الجواهر الّتى بَعُد العهدُ بمبادئها ، وسيمتدّ العهد جدا إلى نهاياتها ؛ وأمّا ما قَدُم بالدهر ، فكالعقل والنفسِ والطبيعة ؛ فأمّا الفَلَكُ وأجرامُه المزدهِرةُ فى المعانقة العجيبة ، ومَنَاطِقِه الخفيّة ، فقد أخذتْ من الدهر صورةً إلهيّــة ، وأحدثتْ فيما سلف منها صورةً زمانيّة .

(٦) فقال : بقِيَ أن يتّصل به[1] نعتُ العتيق والخَلَق ، فكان من الجواب أنّ العتيق يقال على وجهين : فأحدُهما يشار به إلى الكرم والحُسْن والعظمة ، وهذا موجودٌ فى قول العرب : « البيت العتيق » ؛ والآخَرُ يشار به إلى قِدَم من الزمان مجهول . فأمّا قولهم : « عبد عتيق » ، فهو داخل فى المعنى الأوّل ، لأنّهُ أُكرِمَ بالعتق ، وارتفعَ عن العبوديّة ، فهو كريم . وكذلك « وجه عتيق » لأنّه أعتقته الطبيعةُ من الدّمامة والقبح . وكذلك « فرس عتيق » .

وأمّا قولُهم : « هذا شىء خَلَق » ، فهو مضمَّن معنيين : أحدُهما يشار به إلى أنّ مادّته بالية[2] ؛ والآخر أنّ نهايةَ زمانه قريبــة . وكان ابنُ عبّاد قال لكاتبه مرّة — أعنى ابن حسولة[3] — فى شىء جرى ... : « نَعَم ، العالَمُ عتيق ولكن ليس بقديم » أى لو كان قديما لكان لا أوّل له ، ولَمّا كان عتيقا كان له أوّل ، ومن أجل هذا الاعتقاد وصفوا الله تعالى بأنّه قديم ، واستحسَنوا هذا الإطلاق . وقد سألتُ العلماء البُصَراء عن هــذا الإطلاق ، فقالوا : ما وجدنا

(١) به ، أى بالحديث الذى سبق الكلام فيه .
(٢) « سايلة » ؛ وفيه تحريف وقلب .
(٣) فى الأصل « ابن حسول » ، وقد جاء اسمه فى معجم الأدباء : أبا القاسم بن حسولة ، ومرة يسميه : أبا القاسم الحسولى ، وذكر فى بعض المواضع أنه كان يعرض الأوراق على الصاحب ابن عباد ، فالظاهر أنه هو المراد .

هذا فى كتاب الله — عز وجلّ — ولا كلامِ نبيّه — صلى الله عليه وسلّم — ولا فى حديث الصحابة والتابعين . وسألت أبا[١] سعيد السِّيرافىَّ الإمامَ : هل تعرف العرب أنّ معنى القديم ما لا أوّل له ؟ فقال : هذا ما صح عندنا عنهم ولا سبق إلىّ وهمنا هذا منهم ، إلاّ أنهم يقولون : « هذا شىء قديم » « و بنيان قديم » و يسرّحون[٢] وهْمَهم فى زمانٍ مجهولِ المبدأ .

فقال : قد مرّ فى كلامك شىء يجب البحث عنه ، ما الفرق بين الحادث والمُحْدَث والحديث ؛ فكان من الجواب أنّ الحادث ما يُلحَظ نفسُه [والمُحْدَث ما يلحظ[٣]] مع تعلُّقٍ بالذى كان عنه محدَثا . والحديث كالمتوسّط بينهما مع تعلّقٍ بالزمان ومن كان منه . (٧)

وههنا شىء آخَر ، وهو الحَدَثان والحِدْثان ؛ فأما الأول فكأنه لما هو[٤] مضارِعٌ للحادث ، وأما الحِدْثان فكأنه اسم للزمان فقط ، لأنه يقال : « كان كذا وكذا فى حِدْثان ما وَلِى الأمير » ، أى فى أوّل زمانه ، وعلى هذا يدور أمْرُ[٥] الحدث والأحداث والحادثات والحوادث . « وفلان حِدْثُ مُلُوكٍ » كله من ديوان واحد وواد[٦] واحد وسَبْك واحد . قال : « ما الفرق بين حَدُث وحَدَث » ؟ قلتُ : لا فرق بينهما إلا من جهة أنّ حَدُث تابع لقَدُم ، لأنه يقال : أخَذَه ما قدُم[٧] وما حَدُث ؛ فإذا قيل لإنسان : حَدِّث يا هذا . فكأنه قيل له :

(١) فى الأصل « أنا » ؛ وهو تحريف . وأبو سعيد السيرافى هو الحسن بن عبد الله ابن المرزبان السيرافى النحوى المعروف ؛ سكن بغداد وتولى القضاء بها ، وكان من أعلم الناس بنحو البصريين ، وتوفى سنة ثمان وستين وثلاثمائة .

(٢) « ويشرحون » ؛ بالشين .

(٣) هذه العبارة ساقطة من الأصل والسياق يقتضيها .

(٤) لما هو ، أى موضوع لما هو .

(٥) وردت هذه الكلمة فى الأصل بعد قوله : « الحدث » ؛ كما أن راءها كتبت فى الأصل «نوناً» . واستقامة الكلام تقتضى ما أثبتنا .

(٦) فى الأصل « وهو » ولا معنى له .

(٧) « أخذه ما قدم وما حدث » ، أى أخذته الهموم والأفكار القديمة والحديثة .

صِلْ شيئا بالزمان يكون به فى الحال ، لا تقدُّمَ له من قبل .

ثم رجعتُ فقلت . ولفوائد الحديث ماصنّف (أبو زيد)(١) رسالة لطيفةَ الحجم في المَنظَر ، شريفةَ الفوائد فى المَخبَر ، تَجمع أصنافَ ما يُقتبَس من العلم والحكمة والتجربه فى الأخبار والأحاديث ، وقد أحصاها واستقصاها وأفاد بها ، وهى حاضرة . فقال احمِلْها وأكتبها ، ولا تَمِلْ إلى البخل بها على عادة أصحابنا الغِثاث . قلتُ : السمع والطاعة .

ثم رَويتُ أنّ عبد الملك بنَ مروانَ قال لبعض جلسائه : قد قضيتُ الوطر من كلّ شيء إلاّ من محادثة الإخوان فى الليالى الزُّهْر ، على التّلال(٢) العُفْر(٣) .

وأحسن من هذا ما قال عمر بن عبد العزيز قال : والله إنّى لأشترى [المحادثة](٤) من عُبيد الله(٥) بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود بألف دينار من بيت مال المسلمين . فقيل : يا أمير المؤمنين ، أتقول هذا مع تحرّيك وشدّة تحفّظك وتنزّهك ؟ فقال : أين يُذهَب بكم ؟ والله إنى لأعود برأيه ونصحه وهدايته على بيت مال المسلمين بألوفٍ وألوفِ دنانيرَ ، إنّ فى المحادَثة تلقيحا للعقول ، وترويحا للقلب ، وتسريحا للهمّ ، وتنقيحا للأدب .

---

(١) الراجح أنه يريد أبا زيد احمد بن سهل البلخى كان من المتكلمين الفلاسفة الأدباء وكان يقال له « جاحظ خراسان » ألف كتبا كثيرة منها كتاب فضيلة علم الأخبار وكتاب النوادر فى فنون شتى ولعل أحد هذين الكتابين هو الذى يشير إليه أبو حيان ، وكان أبو حيان يعجب به وقد قال فيه : « انه لم يتقدم له شبيه فى الأعصر الأول ولا يظن أنه يوجد له نظير فى مستأنف الدهر » ، مات سنة ٣٢٢ عن سبع أو ثمان وثمانين سنة .

(٢) فى الأصل « الكلال » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى . وفى رواية « على الكثبان » ؛ وهو بضم الكاف بمعنى التلال كما أثبتنا .

(٣) فى الأصل « العفر » بالقاف ؛ وهو تصحيف .

(٤) هذه الكلمة أو مايفيد معناها ساقطة من الأصل .

(٥) هو أحد الفقهاء السبعة كان إماما عالما وكان أعمى قال البخارى إنه مات سنة ٩٤ وهذا لا يتفق وخلافة عمر بن عبد العزيز وقال ابن المدينى سنة ٩٩ وهذا متفق مع هذه القصة .

قال : صدق هذا الإمام فى هذا الوصف ، إن فيه [١] هذا كلَّه .

قلتُ : وسمعتُ أبا سعيد [٢] السيرافىَّ يقول : سمعتُ ابن السَّرّاج [٣] يقول : دخلنا على ابن الرومىّ [٤] فى مرضه الذى قضى فيه ، فأنشدَنا قوله [٥] :

ولقد سئمتُ مآربى فكأنَّ أطيَبَها خبيثُ
إلاّ [٦] الحديثَ فإنّه مِثلُ اسمِه أبدا حديثُ

وقال سليمان بن عبد الملك : « قد ركبنا الفارهَ [٧] ، وتبطّنّا الحَسْناء ، ولبسنا اللّيّن ، وأكلنا الطيّب حتى أجَمْناه [٨] ، وما أنا اليوم [إلى شىء] [٩] أحوجُ منّى إلى جليس يضع عنى مؤونة التحفّظ ويحدّثُنى بما لا يَمجّه السمع ، ويَطرَب إليه القلب » . وهذا أيضا حقٌّ وصواب ، لأنّ النفس تَمَلُّ ، كما أنّ البدن يَكِلُّ ؛ وكما أن البدن إذا كلّ طلب الراحة ، كذلك النفس إذا مَلّت طلبت الرَّوْح [١٠] وكما لا بد للبدن أن يستمدّ [١١] ويستفيد بالجَمام [١٢] الذاهب بالحركة الجالبة

(١) فيه ، أى فى الحديث .
(٢) انظر التعريف بأبى سعيد السيرافى فى الحاشية رقم ١ صفحة ٢٥ .
(٣) هو أبو بكر محمد بن السرى بن سهل النحوى المعروف بابن السراج ، أخذ الأدب عن أبى العباس المبرد ، وأخذ عنه جماعة : منهم أبو سعيد السيرافى ؛ وله التصانيف المشهورة فى النحو وتوفى سنة ست عشرة وثلاثمائة .
(٤) هو أبو الحسن على بن العباس بن جريج المعروف بابن الرومى الشاعر المعروف . ولد سنة إحدى وعشرين ومائتين ببغداد ، وتوفى سنة ثلاث وثمانين ومائتين . وقيل غير ذلك .
(٥) ورد من هذا اللفظ فى الأصل القاف والواو وحدهما .
(٦) « بلا » .
(٧) فى الأصل « القاره » بالقاف ؛ وهو تصحيف . والفاره من الدواب : النشيط الحاد القوى .
(٨) أجمناه ، أى كرهناه ومللناه من المداومة عليه .
(٩) لم ترد هذه التكملة التى بين مربعين فى الأصل ؛ وقد أثبتناها عن (عيون الأخبار) .
(١٠) الروح بفتح الراء : الراحة .
(١١) « يستند » .
(١٢) الجمام بفتح الجيم : الراحة .

للنَّصَب والضجر ، كذلك لابدّ للنفس من أن تطلب الرَّوْح عند تكاثُف المَلَل الداعى إلى الحرج[١] فإن البدن كثيفُ النفس ، ولهذا يُرَى بالعين ، كما أن النفس لطيفة البدن ، ولهذا لا توجد إلاّ بالعقل ؛ والنفس صفاء البدن ، والبدن كَدَرُ النفس . فقال : أحسنتَ فى هذه الروايات على هذه التوشيحات وأعجبنى[٢] ترحُّمُك على شيخك أبى سعيد ، فما كلّ أحد يَسمح[٣] بهذا فى مثل هذا المقام ، وما كل أحد يأبه لهذا الفعل ؛ هات مُلحة الوَداع حتى نفترق عنها ، ثم نأخذ ليلة أخرى فى شجون الحديث .

(٨) قلت : حدَّثنا ابن سيف الكاتب الراوية ، قال : رأيت جَحْظة[٤] قد دعا بنّاء ليبنى له حائطا ، فحضر[٥] ، فلمّا أمسَى أقتضى البنّاء الأجرة ، فتَمَاكَسا[٦] وذلك أنّ الرجل طلب عشرين درهما ؛ فقال جحظة : إنما عملتَ يا هذا نصفَ يوم وتطلب عشرين درهما ؟ قال : أنت لا تدرى ، إنّى قد بنيت لك حائطا يَبقى مائة سنة ؛ فبينما هما كذلك وَجَب الحائطُ وسقط ؛ فقال جحظة : هذا عملك الحَسَن ؟ قال : فأردتَ أن يبقى ألف سنة ؟ قال : لا ، ولكن كان يبقى إلى أن تستوفِىَ أجرتك . فضحك — أضحك الله سنّه —

(١) « الجرح » .
(٢) يلاحظ أنه لم يرد فى هذه النسخة عند ذكر أبى سعيد السيراف قوله — رحمه الله — فلعله قد سقط من الناسخ هناك .
(٣) « كسمح » .
(٤) هو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك الشاعر المعروف ، كان من ظرفاء عصره وكان صاحب فنون ونوادر ، ولد سنة أربع وعشرين ومائتين من الهجرة ، وتوفى سنة ست وعشرين وثلاثمائة . وقيل سنة أربع وعشرين وثلاثمائة بواسط ، ودفن ببغداد .
(٥) فى الأصل « وحضر بنا » وبنا لا معنى لها .
(٦) تماكسا ، أى تشاحا فى الأجرة ؛ يقال : ماكسه فى البيع ونحوه : إذا شاحه فيه واستحطه الثمن واستنقصه إياه .

الليلة الثانية

ثم حضرتُ ليلةً أخرى ، فقال : أوّل ما أسألك عنه حديثُ أبي سليمان[١] (١)
المنطقيّ كيف كان كلامُه فينا ، وكيف كان رضاه عنّا ورجاؤه[٢] بنا ، فقد بلغني أنّك جارُه ومعاشره ، ولصيقه وملازمه وقافي خطوِه وأثرِه ، وحافظُ غاية خبرِه .

فقلتُ : والله أيّها الوَزِير ، ما أعرِف اليوم ببغداد — وهي الرّقعة الفسيحة الجامعة ، والعَرْصة[٣] العريضة الغاصّة — إنسانا أشكَرَ لك ، وأحسَنَ ثناءً عليك ، وأذهَبَ في طريق العبوديّة معك ، منه ؛ ولقد سَكَرَ[٤] الآذان وملأ البقاع بالدعاء الصالح ، رَفَعه الله إليه ، والثناء الطيّب أشاعه الله ؛ وقد عمل رسالةً في وصفك ذكر فيها ما آتاك الله وفضّلك به من شرفِ أعراقِك ، وكرمِ أخلاقِك وعلوّ همّتك ، وصدقِ حَدْسِك وصوابِ رأيِك ، و بَرَكة نظرك ، وظهورِ غَنائك ، وخِصب فِنائك ، ومحبّة أوليائك ، وكَمد أعدائك ، وصَباحة وجهك ، وفصاحة لسانك[٥] ، ونُبْلِ حَسَبِك[٦] ، وطهارةِ غَيبِك[٧] ، ويُمن نقيبتك ، ومحمود

(١) أبو سليمان هو محمد بن طاهر بن بهرام المنطقي السجستاني أكبر علماء بغداد في عصر أبي حيان في المنطق والحكمة والفلسفة كان مجلسه حافلا بالعلماء والحكماء واسع الاطلاع في الفلسفة اليونانية وكان به عور وبرص يمنعانه من غشيان مجالس الأمراء والوزراء وهو أكبر شيوخ أبي حيان في الفلسفة مات على أغلب الظن في السنوات العشر الأخيرة من القرن الرابع الهجري .

(٢) ورجاؤه بنا ، أي رجاؤه المعقود بنا . وفي الأصل : « وأرجاؤه » والألف زيادة من الناسخ .

(٣) العرصة : الساحة الواسعة .

(٤) سكر الآذان : ملأها . وفي الأصل : « شكر » بالشين ؛ وهو تحريف .

(٥) في الأصل : « رخم لسانك » وقوله : « رخم » من زيادات النساخ إذ لا معنى لها ولا تستقيم مع السياق .

(٦) « وتقلحسك » .

(٧) « عيبك » .

شيمتك ، ودقيقِ ما أودَع الله فيك ، وجليلِ ما نشر الله عنك ، وغريبِ ما يُرَى منك ، وبديع ما يُنتَظر لك من المراتب العليّة ، والخيرات الواسعة والدولة الوادعة ، وهى تصل إلى مجلسكم فى غد أو بعده — إن شاء الله — وكان هذا منه [قياما] (١) بالواجب ، فإنك نَعَشْتَ روحه وكان خَفَت ، وبصّرته وكان عَشِى ؛ وأنبتَّ جناحه وكان قد حُصّ (٢) ، بالرسم الذى وصل إليـه لأنه كان قَنِط منه وهو قَنوطٌ ، وسمعتُه يقول مرارا : من يذكرنى وقد مضى المَلِك (٣) — رضوان الله عليه — ومن يَخلُفه فى مصلحتى ، ويجرى على عادته معى ؟ ومن يَسأل عنّى ، ويهتمّ بحالى ؟ هيهات ، فُقِد والله بالأمس من (٤) يطول تلفّتُنا إليه ويدوم تلهُّفُنا عليه * إنّ الزمان بمِثلِهِ لَبخيل * كان والله شمسَ المعالى وغرة الزمن وحامل الأثقال ، وملتقَى (٥) القُفَّال ، ومحقِّقَ الأقوال والأفعال ، ومجرى لُجُمِ (٦) الأحوال على غاية الـكمال ؛ كان والله فوق المتمنَّى ، وأعلى من أن يَلحق به نظير ، أو يوجدَ له مماثل ؛ لذّتُه لمْحٌ (٧) فى تهذيب الأمور ، وهواه وقفٌ على صلاح مَن فى إصلاحه صلاح ونفى من فى نفيه تطهير ؛ ولولا أن عمر الفتى الأَرْيَحِيّ قصير ، لـكنّا لا نُبْتَلى بفقدِه ، ولا نتحرّق على فَوْت ما كان لنا بحياته ؛ الدنيا ظَلوم ، والإنسان فيها مظلوم .

(١) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضى إثباتها .

(٢) يقال : « حص الريش والشعر » ، إذا انتثرا . وكنى بحص الجناح عن الفقر ، وبنباته عن الغنى .

(٣) الظاهر أنه يريد بالملك « عضد الدولة » البويهى .

(٤) عبارة الأصل « مر بطول تلقيننا » وهى محرفة فى جميع ألفاظها .

(٥) فى الأصل « ومكتنى الأقفال » ؛ وهو تحريف . والقفال : المسافرون ، سموا بذلك تفاؤلا بقفولهم إلى أوطانهم ، أى رجوعهم إليها .

(٦) استعمل اللجم فى معنى الخيل مجازا . وفى الأصل : « لحاء » ؛ وهو تحريف .

(٧) اللمح ، النظر الخفيف . والمراد بهذا اللفظ وصفه بالفطنة والألمعية حتى إنه لينظر إلى الأمور نظرا خفيفا فيكفيه ذلك عن التأمل والإمعان .

فلمّا وصل إليه ذلك الرّسم — وهو مائة دينار — وحاجتُه ماسّة إلى رغيف ، وحَوْلُه وقوّتُه قد عجزا [(١)] عن أجرة مسكنه ، وعن وجه غَدائه وعَشائه عاش .

ومما زاد فى حديث الرسم أنّه وصل إليه مع العذر الجميل ، وَالوعدِ العريض الطويل ؛ وَلو رأيته وَهو يترفّل وَيتحنّك [(٢)] لعجبتَ . فقال : سررتَنى لسروره بما كان منّى ، وَإن عشتُ كففتُ الزمان عن ضيمه ، وَفللتُ [(٣)] عنه حدَّ نابه ، ولولا الضّمانة [(٤)] مانعة [(٥)] عن نفسه ،وَمُتَمنّع معها بنفسه ؛ لَغَشِىَ هذا المجلس فيكم [(٦)] فاستأنَس وَآنَس ، وَلكنّه على حال لا محتَمل له عليها ، ولا صبر عليه معها ؛ أتحفظ ما قال البديهىّ فيه ؟ قلت : نعم ، قال : أنشِدنيه ، فرويتُ :

أبو سليمانَ عالِمٌ فَطِن ... ما هو فى عِلمِه بمنتقَصِ
لكن تطيّرتُ عند رؤيتِهِ ... من عَوَرٍ مُوحِشٍ ومن بَرَصِ
وبأُبنِهِ مِثلُ ما بوالده ... وَهذه قِصّة من القصصِ

فقال : قاتله الله ، فلقد أوجَع وبالَغ ، وَلم يحفَظ ذمام العِلم ، وَلم يقض حق (٢)
الفتوّة . حدّثنى عن درجته فى العلم والحكمة ، وَعرّفنى محلّه فيهما من محلّ أصحابنا

---

(١) ورد فى الأصل بعد قوله « عجزا » تاء وكاف وميم ؛ ولم نتبين الصواب فى هذه الحروف الثلاثة ؛ ولعلها زيادة من الناسخ .

(٢) يترفل ، أى يجر ذيله ويتبختر . ويتحنك ، أى يدير العمامة من تحت حنكه . كنى بالترفل والتحنك عن السرور والابتهاج بما وصل إليه من صلة الوزير .

(٣) « قلت » .

(٤) الضمانة : العاهة فى الجسد . وفى الأصل : « الجمانة » ؛ وهو تحريف .

(٥) مانعة عن نفسه ، أى أن هذه العاهة مانعة لنا عن مجالسته . ومتمنع معها بنفسه أى أنه هو ممتنع بنفسه مع هذه العاهة عن مجالستنا .

(٦) « بكم » .

ابن زرعة (١) وابن الخمار (٢) وابن السمح (٣) والقومسى (٤) ومسكويه (٥) ونظيف (٦) ويحيى بن عدى (٧) وعيسى بن علىّ (٨). فقلتُ : وصف هؤلاء أمر متعذّر ، وباب من الكُلْفة شاقّ ؛ وليس مثلى من جَسَر عليه ، و بلغ الصواب منه ؛ و إنما يصفهم من نال درجةَ كلّ واحد منهم ، وأشرف بعد ذلك عليهم ؛ فعرف حاصلَهم وغائبَهم ، وموجودَهم ومفقودَهم . فقال : هذا تحايُلٌ لا أرضاه لك ، وَلا أُسْلِمه فى يدك ، وَلا أحتمله منك ؛ ولم أطلب إليك أن تعرّفهم (٩) بما هو معلوم الله منهم ، وَمُوهَبُه (١٠) لهم ، وَمَسُوقُهُ إليهم ، وَمخلوعُه عليهم ، على الحدّ الذى لا مزيد فيه وَلا نقص ؛ إنما أردتُ أن تذكر من كلّ

(١) ابن زرعة ، هو أبو على عيسى بن إسحق بن زرعة عالم نصرانى من علماء بغداد برز فى المنطق والفلسفة ، ونقل عدة مصنفات إلى العربية ، وتوفى كما روى القفطى سنة ٣٩٨ .
(٢) ابن الخمار ، هو أبو الخير الحسن بن سوار ، كان كذلك نصرانيا طبيبا فيلسوفا نقل كتبا كثيرة من السريانية إلى العربية .
(٣) ابن السمح ، هو أبو على بن السمح من مناطقة بغداد ؛ مات سنة ٤١٨ .
(٤) القومسى ، هو أبو بكر القومسى المتفلسف . قال أبو حيان : إنه كتب لنصر الدولة عامين .
(٥) مسكويه ، هو أبو على أحمد بن محمد مسكويه الخازن ، كان عارفا بالفلسفة ، ألف كتاب تهذيب الأخلاق وتجارب الأمم ، وكان قيما على خزانة كتب ابن العميد ثم قيما على خزانة كتب عضد الدولة ثم اختص ببهاء الدولة البويهى وعظم عنده شأنه ومات سنة ٤٢١ .
(٦) نظيف ، هو القس نظيف النفس الرومى ، كان عالما جيد النقل من اليونانى إلى العربى وكان من أفاضل الأطباء ، وعينه عضد الدولة فى البيمارستان الذى أنشأه ببغداد .
(٧) يحيى بن عدى أبو زكريا ، كان نصرانيا منطقيا ، أخذ الفلسفة عن أبى نصر الفارابى وبشر بن متى ؛ وله مؤلفات كثيرة ، مات سنة ٣٦٤ .
(٨) عيسى بن على ، هو أبو القاسم عيسى بن الوزير الكبير على بن عيسى الجراح ، كان عيسى عالما فاضلا ، قرأ المنطق على يحيى بن عدى ، كما درس الفقه والأدب على علماء عصره ، وعمل فى ديوان الرسائل ؛ ومات ببغداد سنة ٣٩١ . وقد نقل عنه أبو حيان كثيرا من أقواله فى الحكمة فى المقابسات .
(٩) « تعنفهم » .
(١٠) موهبه لهم ؛ أى ما أعده الله لهم ؛ يقال : أوهبت له الشىء ، إذا أعددته له .

وَاجد ما لاح منه لعينيك ، وَتجلّى لبصيرتك ، وَصار له به صورةٌ فى نفسك ؛ فأكثر وَصف الواصفين للأشياء على هذا يجرى ، وَإلى هذا القدر ينتهى .

فقلتُ : إذا قنع منى بهذا ، فإنى أخدُم بما[١] عندى ، وَأبلغ فيه أقصى جهدى . أما شيخنا أبو سليمان فإنه أدقّهم نَظَرا ، وَأقعَرُهم غَوْصا ، وأصفاهم فِكْرا ، وأظفرهم بالدّرر ، وأوقفُهم على الغُرر ؛ مع تقطع فى العبارة ، ولكنهِ ناشئة من[٢] العُجْمة وقلّة نظرٍ فى الكتب ، وفرط استبداد بالخاطر ، وحُسن استنباط للعويص ، وجرأة على تفسير الرمز ، وبخلٍ بما عنده من هذا الكنز .

وأما ابن زرعة فهو حَسَن الترجمة ، صحيحُ النقل ، كثيرُ الرجوع إلى الكتب ، محمودُ النقل إلى العربيّة ، جيّد الوفاء بكلّ ما جلّ من الفلسفة ؛ ليس له فى دقيقها منفذ[٣] ، ولا له من لغزها مأخذ ، ولولا توزّع[٤] فكره فى التجارة ، ومحبّتُه[٥] فى الربح ، وحرصُه على الجَمع ؛ وشدّتُه على المنع ؛ لكانت قريحته تستجيب له ، وغائمته[٦] تَدِرُّ عليه ؛ ولكنّه مبدَّد مندَّد ، وحبُّ الدنيا يُعمِى ويُصِمّ .

وأمّا ابن الخمار ففصيح ، سَبْط الكلام ، مديدُ النَّفَس ، طويلُ العِنان مَرْضىُّ النقل ، كثير التدقيق ، لكنه يخلط الدُّرّة بالبعْرة[٧] ويُفسد السمين بالغَثّ ، ويَرقَع الجديد بالرّثّ ؛ ويشين[٨] جميع ذلك بالزَّهْو والصَّلَف ، ويزيد

(١) فى الأصل « جا » ؛ وهو تحريف .
(٢) « مع » .
(٣) « منبذا » .
(٤) « تورع » .
(٥) « ونخبته » .
(٦) فى الأصل « وغايته تندو » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين . والغائمة السحابة .
(٧) « البقرة » .
(٨) « ويشن » .

فى الرقم (١) والسّوم ، فما يجديه (٢) من الفضل يرتجعه بالنقص ؛ وما يعطيه باللطف يستردّه بالعنف ؛ وما يصفيه بالصواب ، يكدّره بالإعجاب . ومع هذا يُصرَع (٣) فى كل شهر مرّة أو مرّتين .

وأمّا ابن السمح ، فلا ينزل بفنائهم ، ولا يسقى من إنائهم ؛ لأنه دونهم فى الحفظ والنقل والنظر والجدَل ، وهو بالمتّبع (٤) أشبه ، وإلى طريقة الدعىّ أقرب ، والذى يحطّه عن مراتبهم شيئان : أحدهما بلادةُ فهمه ، والآخر حرصُه على كسبه ؛ فهو مستفرَغ مُخ (٥) البال مأسور العقل ، يأخذ الدانق (٦) والقيراط والحبّة والطَّسُّوج والفلْس بالصرف والوزن والتطفيف ؛ والقلبُ متى لم يُنَقَّ من دنس الدنيا لم يَعبَق بفوائح الحكمة ، ولم يتفوّح (٧) بردْع الفلسفة ، ولم يَقبل شعاعَ الأخلاق الطاهرة المُفضية إلى سعادة الآخرة .

وأما القُومَسىّ أبو بكر ، فهو رجل حسنُ البلاغة ، حلوُ الكناية ، كثيرُ الفِقَر العجيبة ، جمّاعة للكتب الغريبة ؛ محمود العناية فى التصحيح والإصلاح والقراءة ، كثير التردّد (٨) فى الدراسة ؛ إلاّ أنّه غيرُ نصيح فى الحكمة ؛ لأنّ

---

(١) يزيد فى الرقم ، أى يزيد فى حديثه ويكذب . ويريد بالزيادة فى السوم : المغالاة ، وأصل السوم فى المبايعة عرض السلعة للبيع .

(٢) فى الأصل « يبديه » وسياق العبارة يقتضى ما أثبتنا بدليل مقابلته بقوله بعد « يرتجعه » الخ .

(٣) « يصرح » بالحاء .

(٤) « بالمسبع » .

(٥) مخ البال ، أى خالصه .

(٦) الدانق : سدس الدرهم . والقيراط : نصف دانق . والحبة : وزن شعيرتين . والطسوج : ربع الدانق .

(٧) فى الأصل « ولم يتفرخ بربع » ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما يرجحه قوله قبل : « لم يعبق بفوائح » . وردع الطيب : أثره فى الثوب والبدن .

(٨) « التبرد » .

قريحته ترابيّة ، وفكرته سحابيّة ؛ فهو كالمقلّد بين المحققين ، والتابعِ للمتقدّمين ؛ مع حبّ للدنيا شديد ، وحسد لأهل الفضل عتيد .

وأما مِسْكَوَيه ، ففقير بين أغنياء ، وعَيِيٌّ[1] بين أبيناء[2] ، لأنّه شاذّ ، وأنا أعطيتُه في هذه الأيّام (صفوَ الشرح لإيساغوجي) وقاطيغورياس ، من تصنيف صديقِنا بالرّيّ . قال : ومن هو ؟ قلت : أبو القاسم الكاتب غلامُ أبي الحسن العامريّ ، وصحّحه معي ؛ وهو[3] الآن لائذ بابن الخمّار ، وربما شاهد أبا سليمان وليس له فراغ ، ولكنه محسّ[4] في هذا الوقت للحَسْرة التي لحقتْه فيما فاته من قبل .

فقال : يا عجبا لرجل صحب ابن العميد أبا الفضل ورأى من كان عنده وهذا حظّه ! قلتُ : قد كان هذا ، ولكنّه كان مشغولا بطلب الكيمياء مع أبي الطيّب الكيميائيّ الرازيّ ، مملوكَ[5] الهمّة في طلبه والحرصِ على إصابته مفتونا[6] بكُتُب أبي زكرياء ، وجابر بن حيّان ؛ ومع هذا كان إليه خدمةُ صاحبه في خِزانة كُتُبه ؛ هـذا مع تقطيع الوقت في حاجاتِه[7] الضروريّة والشهوية ؛ والعمر قصير ، والساعاتُ طائرة ، والحركات دائمة[8] والفُرص بُروق تأتلق[9] ، والأوطار في عرضها تجتمع وتفترق ، والنفوسُ على فواتها تذوب

(١) وردت هذه الكلمة في الأصل مهملة الحرفين الأخيرين من النقط .
(٢) « أنبياء » .
(٣) في الأصل « وهو الآن لا يكيلين الخار » . وما أثبتناه عن معجم الأدباء في ترجمة ابن مسكويه .
(٤) « محب في هذا الوقت للحيرة » وهو تحريف في كلتا الكلمتين .
(٥) « المملوك » .
(٦) « مقترنا » .
(٧) « في الحاجات به » . وفي هـذه الكلمة حروف زائدة من الناسخ ؛ والسياق يقتضي ما أثبتنا .
(٨) « قائمة » .
(٩) « تكثلق » .

وتحترق ؛ ولقد قطن العامرىُّ[1] الرَّىّ خمس سنين جُمْعَة[2] ودرس وأملى وصنّف وروَى فما أخذ مسكويه عنه كلمة واحدة ، ولا وعى مسألة ، حتى كأنّه بينه و بينه سَدّ ؛ ولقد تجرّع على هذا التوانى الصابَ والعلقم ، ومضغ بفمه حنظل الندامة فى نفسه ، وسمع بأذنه قوارعَ الملامة من أصـدقائه حين لم ينفع ذلك كلّه . و بعدُ فهو ذكىّ حَسَن الشِّعر نقىُّ اللفظ ، وإن بقى فساه يتوسط هذا الحديث ، وما أرى ذلك مع كلفه بالـكيمياء ، و إنفاق زمانه وكدّ بدنه[3] وقلبه فى خدمة السلطان ، واحتراقه فى البخل بالدانق والقيراط والـكِسرة والخرقة ؛ نعوذ بالله مِن مدحِ الجود باللسان ، و إيثارِ الشّحّ بالفعل ، وتمجيد الـكرم بالقول ومفارَقته بالعمل ؛ وهذا هو الشقاء المصبوب على هامة من بُلِىَ به ، والبلاء المعصوب[4] بناصية من غلب عليه .

وأما عيسى بن علىّ ، فله الذَّرْع الواسع والصَّدْر الرحيب فى العبارة ، حجّة فى النقل والترجمة ، والتصرّفِ فى فنون اللغات ، وضُروبِ المعانى والعبارات ؛ وَقد تصفّح مالم يتصفّح كثير من هذه الجماعة ، وقلّب بخزائن الـكبراء وَالسادات ، وَأُعين[5] بالعمر الطويل وَالفَراغ المديد ؛ ولـكنّه مع هذا الفضل الـكثير بخيل

---

(١) العامرى ، هو أبو الحسن محمد بن يوسف العامرى ، فيلسوف معاصر لابن سينا وكانت بينهما مباحثات فى الفلسفة ، ومن جملة كتب ابن سينا كتاب الأجوبة لسؤالات سأله عنها أبو الحسن العامرى ، ويقول أبو حيان فى المقابسات إنه كان من أعلام عصره وكان متبحرا فى الفلسفة اليونانية منكبا على كتب أرسطو وله على بعضها شروح ؛ وقد اتصل بابن العميد وقرآ معاً عدة كتب ، وتوفى نحو سنة ٣٨٠ .

(٢) جمعة ، أى مجموعة .

(٣) « وكذبكنه » .

(٤) « المنصوب » بالنون .

(٥) « وأمين » .

بكلمة واحدة ، وَنصيح[1] على وَرقة فارغة ، لسودائه الغالبة عليه ، ومزاجه المتشيِّط[2] بها .

وَأمّا نظيف ، فإنه متوسّط ، لا يسفل[3] عن أقلّهم حظّا وَلا يعلو على أكثرهم نصيبا ؛ ويدُه في الطب أطوَل ، وَلسانُه في المجالس أجوَل ؛ وَمعه رفق وَحذق في الجدَل .

وَأمّا يحيى بن عديّ ، فإنّه كان شيخا ليّن العريكة فروقة[4] ، مشوّه[5] الترجمة ، رديء العبارة ، لكنه كان متأتّيا[6] في تخريج المختلفة[7] وقد برع في مجلسه أكثر هذه الجماعة ، ولم يكن يلوذ[8] بالإلهيّات ، كان ينبهر[9] فيها وَيَضِلّ في بِساطها ، وَيَستعجم عليه ما جلّ ، فضلا عما دَقّ منها ؛ وَكان مباركَ المجلس .

فقال : ما قصرتَ في وَصف هذه الطائفة ، وَتقريب البغية التى كانت داخلة[10] في نفسى منهم .

حدّثنى عن مذاهبهم في النفس وما يقولون فيها ؛ و إلى أين ينتهون من

---

(١) نصيح على ورقة فارغة ، أى أنه بلغ من شدة بخله بعلمه أنه لا يستطيع أحد أن يخدعه حتى فى ورقة فارغة يأخذها منه . وهم يصفون البخيل بالنصح على ماله ، لأنه لا ينخدع عنه فيجود به . أو لعله شحيح .

(٢) المتشيط : الملتهب . وبها ، أى بسبب السوداء .

(٣) « لا يسلل » .

(٤) الفروقة : الشديد الفزع .

(٥) فى الأصل : « موشى » وفيه قلب وتحريف .

(٦) متأتيا ، أى مترفقا متلطفا .

(٧) فى تخريج المختلفة ، أى المسائل المختلفة .

(٨) « يكون » .

(٩) الانبهار : تتابع النفس واطراده من التعب والإعياء .

(١٠) وردت هذه الكلمة فى الأصل مؤخرة عن هذا الموضع ؛ والسياق يقتضى إثباتها هنا .

يقينهم بشأنها، وكيف ثقتهم ببقائها بعد فَناء أبدانها؟ فقلت: علمتَ أنّى لا أجد[١] ما أريد من حديث النفس عنـد أصحابنا الباقين ، أعنى أبا الوفاء علىَّ بن يحيى السامرىّ والمعرّىّ والقُومِسىّ والصوفىّ وغلامَ زحلَ[٢] والصاغانىّ، وكذلك غيرهم أعنى ابن عبـدان وابن يعقوب وابن لالا وابن بُكُش[٣] وابن قوسين[٤] والحرّانىّ ، لأن هؤلاء ليسوا يحرثون هذه الأرض ، ولا يَرقُمون هـذا البَزّ ولا يجهّزون هذا المتاع ولا يتعاملون به ؛ هـذا ينظر فى المرض والصحة والداء والدواء ، وهـذا يعتبر الشمس والقمر ، وليس فيهم من يذكر كلمة فى النفس والعقل والإلٰه ، حتى كأنّه محظور عليهم ، أو قبيح عندهم .

وقلتُ : إنّ هؤلاء القوم — أعنى الطائفة الأولى — متفقون فى الاعتراف بأنها جوهر باقٍ خالد ؛ فأما اليقين فما الحكم به لهم ، لأنهم لو كانوا على ذلك — أعنى واجدين لليقين ذائقين لحلاوته — لما كدحوا للدنيـا التى تزول عنهم ويزولون عنها مضطرّين ؛ فلو أنهم كانوا على ثلج[٥] من النفس ، ويقظة من العقل ، واستبصارٍ من القلب ، وسكون من البرهان ، لما تعجّلوا هـذه اللّذّات المنقوصـة ، والأوطار الفاضحة ، والشهوات الخسيسـة ، مع التّبِعات الكثيرة والأوزار الثقيلة ؛ ولا عجب فإنه إذا كانت الرّكاكة[٦] العائقة تمنع الإنسان

(١) هنا فى الأصل راء وجيم بعد قوله « لا » ولعلهما زيادة من الناسخ .

(٢) غلام زحل : لقب لأبى القاسم عبيد الله بن الحسن كان منجما حاذقا ، توفى سنة ٣٧٦ .

(٣) فى الأصل « بكس » بالسين . وقد ورد اسمه فى أخبار الحكماء للقفطى بالشين .

(٤) ابن قوسين : طبيب مشهور فى زمانه ، كان يهوديا وأسلم ، وعمل مقالة فى الرد على اليهود .

(٥) ثلج النفس : راحتها واطمئنانها وسكونها إلى الشىء .

(٦) الركاكة : الضعف . أو لعل صوابه : « الزمانة » إذ الركاكة كثيرا ما تستعمل فى ضعف العقل والرأى . والمراد هنا ما يخص البدن ، كما يقتضيه سياق ما يأتى .

من العَدْو والسَّفر ، ومن سرعة الخَطْو ، لأن الحركة قد بطلت بالرّ كاكة الداخلة عليه فى أعضائه وآلاته ، فأىُّ عجب من أن تكون النفس التى أستعبدتْها الشهوات الغالبة[1] ، والعقيدة الرديئة ، والأفعال القبيحة مَعُوقةً ممنوعةً من الصعود إلى مَعانق الفَلَك ومَخارق النجوم وعالَمِ الرُّوح ومَقصد الصدق ومقامِ الأمن ومحلّ الكرامة ومَرادِ الخُلْد و بلد الأبد ومَعانِ[2] السرمد .

قال : هذا كلام تامّ ؛ وسأسألك بعد هذا عن النفس وما تَحفظ عنهم فيها لكن تَمِّم لى ما كنّا فيه ، كيف عِلمُ أبى سليمان بالنجوم وأحكامها ؟ قلتُ : لا يتجاوز التقويم . ثم قال : فما تقول فى الأحكام ؟ قلت : أنشدت منذ أيّام : (٤)

علم النجوم على العقول وبال ... وطِلاب حقّ لا يُنال محالُ

وقلتُ أيضا : علم الأحكام لا يجوز فى الحكمة أن يكون مدركا مكشوفا مخاطَبا به معروفا ؛ ولا يجوز أن يكون مقنوطا منه مطّرَحا مجهولا ؛ بل الحكمة توجب أن يتوسّط هذا الفنُّ بين الإصابة والخطأ حتّى لا يُستغنَى عن اللِّياذ[3] بالله أبدا ، ولا يقع اليأس من قِبَله أبدا ؛ وعلى هذا سخّر الله الإنسان وقيّضه[4] وخيَّره بين الأمور وفوّضه ؛ ومَنَع[5] من الثقة والطمأنينة إلا فى معرفته وتوحيده وتقديسه وتمجيده ، والرجوع إليه ؛ انظر إلى حديث الطب فإنّ عنده الصناعة توسّطت الصواب والخطأ ، لتكون الحكمة سارية فيها ، واللطف معهوداً بها ؛ لأن الطب كما يبرأ به العليل ، قد يَهلِك معه العليل ؛ فليس بسببٍ أن بعض

(١) « الغالية » .
(٢) المعان : المنزل .
(٣) « الكيام » .
(٤) فى الأصل : « وقيض له » ، واللام زيادة من الناسخ .
(٥) ورد فى الأصل قبل هذه الكلمة « حاء وياء » ولم نتبين الصواب فيهما ؛ ولعلهما من زيادات النساخ لاستقامة الكلام بدونهما .

المدبِّرين بالطب هلك لا ينبغى أن يُنظَر فى الطب ؛ وليس بسببِ أن بعض المرضى برأ بالطب وجب أن يعوَّل عليه ؛ انظر إلى هذا التوسط فى هذه الحال ليكون التدبير الإلٰهىّ والأمرُ الرُّبوبىُّ نافذَين فى هذه الخلائق بوساطة ما بينه و بينها ؛ ولتكون المصلحة بالغة غايتها ؛ وهذه سياسة دار الفَناء ، الجامعةِ لسكَّانها على البأساء والنعماء ؛ وهكذا ، فانظر إلى حديث البحر وركوبِ البأس المتيقَّن فيه ، وجَوْب الطول والعرض وإصابة الربح ، وطلب العلم ، كيف توَسَّطَ بين السلامة والعَطَب ، والنجاةِ والهَلَكة ، فلو استمرّت السلامة حتى لا يوجد من يَغرَق ويَهلِك ، لكان فى ذلك مَفسَدة عامّة ؛ ولو استمرّت الهلكة حتى لا يوجد من يَسلم وينجو ، لكان فى ذلك مفسدة عامّة ؛ فالحكمة إذاً ما توَسَّط هذا الأمرُ حتى يشكر اللهَ من ينجو ، و يُسلِمَ نفسه لله من يهلك . قلت : و بعد هذا فهذا العلم[1] عويص غامض عميق ، وقد فُقِد العلماء به ، الملهَمون فيه ؛ ومعوَّل أهلِه على الحَدْس والظَّنّ ، وعلى بعض التجارب القديمة التى تَكذِب مرّة وتَصْدُق مرّة ؛ و بالصدق يعبِّر الإنسان ، وَبالكذب يعرى من فوائده ؛ فالنقص قد دخلَه ، والخلل قد شمِلَه ؛ وليس يجب أن يوهَب له زمانٌ عزيز ، فوراءه ما هو أهمُّ منه وأجدرُ ، وَأرشد وأهدَى .

(٥) قال : هذا حسن ، حدِّثنى بالذى أفدتَ اليوم . قلت : قال أبو سليمان : العلم صورة المعلوم فى نفس العالِم ، وأنفُس العلماء عالمةٌ بالفعل ، وأنفُسُ المتعلِّمين عالمة[2] بالقوة . والتعليم هو إبراز ما بالقوّة إلى الفعل . والتعلّم هو بروز ما هو بالقوة إلى الفعل . والنفس الفلكيّة عالمةٌ بالفعل ، وَالنفس الجزئية عالمة بالقوّة ؛ وكلّ

(١) يريد علم النجوم وأحكامها .
(٢) فى الأصل : « علامة » .

نفس جزئيّة تكون أكثرَ معلوما وأحكَمَ مصنوعا فهى أقرب إلى النفس الفلكية تشبّها بها ، وتصيّرا لها[١] .

قال : هذا فى الحُسن نهاية ، وقد أكتهل الليل ، وهذا يحتاج إلى بدء (١
زمان ، وتفريغ قلب ، وإصغاء جديد . هات خاتمة المجلس . قلت له : قرأنا يوم الجمعة على أبى عبيد الله المرزبانىّ لعبد الله بن مُصْعَب :

إذا أستمتعتُ منك بلحظ طرفى حَيِى نصفى وَمات عليك نصفى
تلذّذُ مقلتى وَيذوب جسمى وعيشى منك مقرون بحتفى
فلو أبصرتنى وَالليل داج وخدّى قد تَوسّطَ بطن كفّى
ودمعى يستهلّ من المآقى إذاً لرأيتَ مابى فوق وَصفى

وَانصرفتُ .

الليلة الثالثة

قال لى ليلة أخرى : حدّثنى أبو الوفاء عنك حديثَ الخراسانىّ ، فأريد أن أسمعه منك . قال : كنت قائما عشية على زَنْبرية[٢] الجسر فى [الجانب] الشرقى والحاجّ يدخلون ، وجمالُهم قد سدت عرض الجسر — أنتظر جوازَها وخفّةَ الطريق منها ، فرأيت شيخا من أهل خُراسان ذَكَر لى أنّه من أهل سَنْجان[٣] واقفا خلفَ الجمال يسوقها ، ويحفظ الرحال الّتى عليها ، حتى نظر إلى الجانب الغربى

(١) يقال : تصير أباه : إذا نزع إليه فى شبهه به .
(٢) فى الأصل زبيرة والزنبريتان هما السفينتان اللتان فى الجسر فى الجانب الشرقى من بغداد يعبر عليهما السالكون كما فى عيون الأنبا ١٧٩/١ .
(٣) فى الأصل : « سحاب » ؛ ولم نجد هذا الاسم فيما راجعناه من الكتب المؤلفة فى أسماء البلاد . وسنجان : قرية بمرو .

فرأى الجذع عليه ابنُ بقيّة — وكان وزيرا صلبه الملِك لذنوب كانت له — فقال : لا إله إلا الله ، ما أعجب أمور الدنيا وما أقلّ المفكّر فى عِبَرها وغِيَرِها ، عضد الدولة تحت الأرض وعدوّه فوق الأرض ! .

قال : هكذا حدّثنى أبو الوفاء ، ولذلك أستأذنتُ فى دفنه ، وكان كلام الشيخ سببا فى ذلك .

(٢) قال : بلغنى أن أبا سليمان يزور فى أيام الجمعة رسلَ سجستان لَمًّا [١] ويظلّ عندهم طاعما ناعما ، ويأنس بأنك معه ، فمن يحضر [٢] ذلك المكان ؟ فقلت : جماعة ؛ وآخِر من كان فى هذا الأسبوع الماضى أبن جَبَلة الكاتب ، وابن برمويه [٣] ، وابن الناظر [٤] أبومنصور وأخوه ، وأبوسليمان وبندار [٥] المغنّى [٦] وغزال الراقص ، وعَلَم [٧] وراء الستارة . فقال : ما الذى حفظت من حديث [٨] عنهم ، وما يجوز أن يُلْقَى إلينا منهم ؟ فقلت : سمعت أشياء ، ولست أحبّ أن أسِمَ نفسى بنقل الحديث وإعادةِ الأحوال فأكون غامزا وساعيا ومفسدا . قال : معاذ الله مِن هذا ، إنّما تدلّ على رشد وخير ، وتُضِل [٩] عن غىّ وسُوء ، وهذا يَلزم كلّ من آثر الصلاح الخاصّ والعامّ لنفسه وللناس ، وأعتقد الشفقة ، وحَثَّ على قبول النصيحة ؛ والنبىّ

---

(١) اللم : الجمع ؛ يريد أنه يزورهم مجتمعين .

(٢) « يخطر » .

(٣) فى الأصل : « ابن زمويه » ، وقد ورد ذكر ابن برمويه فى كتاب ذيل تجارب الأمم ؛ وهو الحسن بن برمويه ، كان كاتبا لوالدة صمصام الدولة وكان ممن تآمروا على الإيقاع بابن سعدان وقتله ، ثم استوزر ابن برمويه لصمصام الدولة مشتركا فى الوزارة مع أبى القاسم عبد العزيز بن يوسف .

(٤) فى الأصل : « ابن المناظر » ، وهو من رجال صمصام الدولة .

(٥) فى الأصل : « يكدان » ؛ وهو تحريف .

(٦) « المفكى » .

(٧) علم : اسم جارية .

(٨) فى الأصل : « حديثنا » والنون والألف زيادة من الناسخ .

(٩) « تصل » .

صلّى الله عليه وسلّم قد سمع مثل هذا وسأل عنه ، وكذلك الخلفاء بعده ، وكلّ أحد محتاج إلى معرفة الأحوال إذا رجع إلى مرتبة عالية أو محطوطة . فقلتُ وجدتُ ابن برمويه[١] يذكر أشياء هي متعلّقة بجانبك ، ويرى أنّها لو لم تكن لكان مجلسُك أشرف ، ودولتك أعزّ ، وأيّامُك أدْوَم ، ووليُّك أحمد ، وعدوُّك أكمَد . قال[٢] : ماهذا الاسترسالُ كلُّه [إلى] ابن شاهويه[٣] ؟ وما هذا الكَلَف ببهرام[٤] ؟ وما هذا التعصّب لابن مكيخا[٥] ؟ وماهذا السكون إلى ابن طاهر[٦] ؟ وما هذا التعويل على ابن عبدان[٧] ؟ وما من هؤلاء أحد إلّا يَرِيش[٨] عدوّه ويَبْريه ويُضلّ صاحبه ويغْويه[٩] . أما ابن شاهويه فشيخُ إزراء[١٠] وصاحب مَخرَقة[١١]

(١) « زمويه » .
(٢) قال ، أي ابن برمويه المحدث عنه .
(٣) ابن شاهويه هذا هو غير ابن شاهويه الفقيه الذى مر ذكره فى مقدمة الكتاب . أما هذا فكان عاملا كبيرا من عمال صمصام الدولة ، قام بالدعوة له ببيان حتى أذعنت له سنة ٣٧٤ ، ثم غضب عليه صمصام الدولة وحبسه مع ابن سعدان ، ثم نجا من القتل بأعجوبة ، ثم عفى عنه سنة ٣٧٥ .
(٤) هو أبو سعيد بهرام بن أردشير ، كان من رجالات صمصام الدولة ، وكان صديقاً لابن سعدان . يقول ابن سعدان فى وصفه : « إنى أرى حديثه آنق من المنى إذا أدركت والدنيا إذا ملكت ، وإن تمازجنا بالعقل والروح والرأى والتدبير ... ليزيد على حال توأمين تراكضا فى رحم وتراضعا من ثدى ونوغيا فى مهد » . وقد قبض عليه مع ابن سعدان وقتل معه سنة ٣٧٥ .
(٥) فى الأصل « ابن مكيخاج » والجيم زائدة ، وما أثبتناه عن ذيل تجارب الأمم وقد كان أبو على بن مكيخا صاحب ديوان الخزائن لعضد الدولة كما عمل من بعده لصمصام الدولة .
(٦) هو أبو عبد الله بن طاهر ، كان نائبا عن أبى نصر سابور كما كان من رجالات صمصام الدولة قتل سنة ٣٨٠ .
(٧) « ابن عمان » .
(٨) يريش عدوه الخ كناية عن تقويته للعدو وإعانته على النكاية ، وأصله من راش السهم يريشه إذا ألزق به الريش ليكون أسرع إلى الهدف .
(٩) فى الأصل : « يصل صاحبه ويقويه » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين .
(١٠) الإزراء : الغش والتلبيس . يقال : أزرى به إذا أدخل عليه أمرا يريد أن يلبسه عليه .
(١١) المخرقة : الحمق والكذب .

بين اللذائذ » همُّه أن يتحسّى دَنّ الشراب فى نَفَس أو نَفَسين ، ثم يسقط كالجِذع اليابس لا لسان ولا إنسان .

وأما ابن طاهر فرجل يدّعى للناس أنّه لولا مكانته وكفايته وحَسَبه ورأيه ومشورته لكانت هذه الوزارة سرابا ، وهذه المملكة خرابا ؛ هذا مع الشر[١] الذى فى طبعه وعادته ؛ فإن جرى خيرٌ انتحله ، وزعم أنه من نتائج رأيه[٢] ؛ وإن وقع شرٌّ عصبه برأس صاحبه ، وادّعى أنه استبدّ[٣] به ؛ ومع هذا فهو يعيب[٤] هذه المُراءاة .

وما أدرى كيف اُستكفِىَ[٥] هذه الجماعة حوله ؟ وكيف يُظاهَر[٦] هو بها ويسكن إليها ؟ وما فيهم إلّا من وَكْدُه الرجس والإفساد والأَخْذُ بالمصانعة وإغراء الأولياء بما يعود بالوبال على البرىء والسقيم وعلى الزكىّ والظّنين[٧] ؛ هؤلاء سباع ضارية ، وكلاب عاوية ؛ وعقاربُ لسّاعة ، وأفاعٍ نهّاشة ، وقى الله هذا الإنسان الحرَّ[٨] المباركَ الكريمَ الرحيم ، فإنه شريف النفس طاهر الطّوِيّة[٩] ، ليّنُ العريكة ، كثيرُ الديانة ، وهذه أخلاق لا تصلح اليوم مع الناس ، قال الشاعر[١٠] :

ومن لا يَذُدْ عن حوضه بسلاحه يهــدَّمْ ومن لا يظلم الناسَ يُظلمِ

وقال :

ومن لا يَذُدْ عن حوضه الناسَ أو يكن له جانب يشتدّ إنْ لان جانبُ

(١) « السر » .
(٢) « بتابع زلته » .
(٣) « أسيد » .
(٤) فى الأصل : « عيب لهذه » .
(٥) « استكفيت » والتاء زيادة من الناسخ .
(٦) يظاهر : يعاون .
(٧) الزكى : الطاهر النقى . والظنين : المتهم .
(٨) « الحير » .
(٩) « ظاهر الخوية » .
(١٠) الشاعر زهير بن أبى سلمى .

وكذبٍ ظاهر، كثيرُ الإيهام، شديدُ التمويه، لا يرجع إلى وُدٍّ صادق، ولا إلى عَقد صحيح وعهدٍ محفوظ؛ وإنّما كان الماضى يقرّبه لغرض كان له فيه من جهة هؤلاء الخُرَّبين القرامطة، وكان أيضا مذموم[1] الهيئة، فكان لاينبس[2] إلا بما يقوّيه ويحرسُ حاله، واليوم هو رَخِىُّ اللَّبَب[3]، جاذب لكلّ سبب؛ وليس هناك كفاية ولا صيانة[4] ولا ديانة ولا مروءة؛ وبعد، فهو مشئوم نَكِد، ثقيل الرُّوح، شديد البُهْت[5] قوله الإفساد وعادته تأجيل[6] المَهْنأ والشماتةُ بالعاثر[7] والتشفى من المنكوب.

وأمّا بَهْرام فرجل مجوسىّ معجَب ذميم، لا يعرف الوفاء ولا يرجع إلى حفاظ، غرضه[8] أن يتبجّح فى الدنيا بجاهه، ولا يبالى أين صار بعاقبته؛ وهو يَحُضُّ[9] مع ذلك عليه فى كلّ ماهو مديره ومدبّره.

وأما ابن مكيخا، فرجل نصرانىّ أرعنُ خسيس، ماجاء يوما بخير قطّ لا فى رأى ولا فى عمل ولا فى توسّط؛ وأصحابنا يلقّبونه بقفًا وهو « منهمك[10] (٢)

(١) مذموما بالهيئة.
(٢) ينبس: يتكلم.
(٣) رخى اللبب، أى متسع الحال. وهو مجاز؛ وأصل اللبب مايشد من سيور السرج فى اللبة من صدر الدابة ليمنع استئخار الرحل.
(٤) « صناعة ».
(٥) البهت: الكذب والباطل.
(٦) فى الأصل: « تعجيل » وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا. والمهنأ مصدر ميمى
(٧) « بالثار »؛ وهو تصحيف.
(٨) « عرضه ».
(٩) يحض مع ذلك الخ، أى يغرى الناس بالوزير ويفسد قلوبهم عليه.
(١٠) وردت هذه العبارة فى الأصل محرفة الحروف، مهمل أكثرها من النقط؛ وما أثبتناه أقرب إلى الرسم الوارد فى الأصل، كما أن سياق الكلام الآتى يقتضيه.

يَطَأُ حوضَــه المستوردون وتَغْشَه شوائبُ لا تبقى عليها النقائب[١]

وما ضاع قولهم : لا تكن حلوا فتؤكل ، ولا مُرّا فتُعاف . ليس الحَذَرُ يقى[٢] فكيف التهوُّر ، أهْهنا الحَىّ تُسحَبُ كلّ يوم ، وطوارقُ تُتوقّع كلّ ليلة ! والتوكّل والاستسلام يليقان[٣] بأهل الدّين فى طلب الآخرة ؛ فأمّا أصحاب الدنيا وأربابُ المراتب ، فيجب أن يدَعوا الهوينا جانبا ، ويشمّروا للنفع والضّر ؛ والخير والشرّ ويكون ضُرُّهم أكثر ، وشرُّهم أغلب ؛ ورَهَبوت خير من رَحَموت .

ولهذا قال الأعرابى :

أنا الغلام الأعسَرْ الخيرُ فىّ والشّرْ
والشرّ فىّ أكثرْ

وهذا معنى بديع ، ولم يُرِد أنّ البداءة بالشرّ خير من الخير ، وإنما أراد أنّى أتّقى بالشر ، وإذا أقبل الشرّ قلتُ له : مرحبا ، وأدفع الشرّ ولو بالشر ، والحديد بالحديد يُفْلَح[٤] . وقد قال الآخر[٥] :

وفى الشّر نجاة حيـ ـن لا ينجيك إحسانُ

وقال ابن دارة :

إذا كنت يوما طالب القومِ فاُطّرِحْ مقالتهم وأذهب بهم كلّ مذهبِ
وقاربْ بذى حلم وباعِدْ بجاهل جَلوبٍ عليك الشرّ من كلّ مجلَبِ
فإن حَدِبوا[٦] فاُقعَسْ وإن هم تقاعَسوا ليستمسكوا ممّا يريدون فاُحْدَبِ

(١) شوائب ، أى عيوب تخالط أخلاقه . والنقائب : السجايا والأخلاق ، الواحدة نقيبة .
(٢) فى الأصل « ليت الحذر وقى » وقوله بعد « فكيف » الخ يقتضى ما أثبتنا .
(٣) « يلتقيان » ؛ وهو تحريف .
(٤) يفلح : يشق .
(٥) فى الأصل : « نجاة لك » وقوله « لك » زيادة من الناسخ .
(٦) حدبوا : من الحدب بالتحريك ، وهو خروج الظهر ودخول الصدر والبطن . والقعس بالتحريك : عكسه .

وإن حلبوا خِلقين(١) فاحلُب ثلاثة   وإن ركبوا يوما لك الشر فاركبِ

وقال الحجاج بن يوسف أبو محمد — وهو من رجالات العرب وقد قهر العجم بالدهاء والزكانة — « لو أخذتُ من الناس مائة ألف ، كان أرضى عنّى من أن أفرّق فيهم مائة ألف » . كان الناس بالأمس مزمومين(٢) مخطومين ، يقوم كل واحد بنفسه على نفسه ، ويَتّهِم غَدَهُ لما جناه فى أمسه ؛ لأن المَلِك السعيد ساسهم ، وقوّم زيغهم ، وقلّم أظفارهم ؛ وشغلهم بالحاجة عن البطر والأشَر ، وبالكفاية عن القلق والضجر ؛ وتقدّم(٣) إليهم بترك الخوض فيما لا مرجوع له بخير ؛ وكانوا لا يشكرون الله على نعمته عليهم به ، وإحسانِه إليهم بمكانه ، فسُلِبوه فتَنَفَّسَ خناقُهم ، واتسع نِطاقُهم ، فامتطى كلٌّ واحد هواه ، ويوشِك أن يقع فى مَهْواة .

قال : وههنا أشياء أخرى غير هذه ، ولكن من يسمع ويَقبل ؟ ومع هذا فالأمور صائرةٌ إلى مصايرها ، كما أنها صادرة عن مصادرها .

فقال له ابن جبلة : ما عندى إلا أن الوزير — أبقاه الله — عارفٌ بهم ومستبطِن لأمرهم ؛ مع العشرة القديمة ، والملابَسة المتصلة ، والخبرة الواقعة ؛ ولكن [لا بدّ](٤) لمن كان فى محلّه ورفعته من جماعةٍ يقرّبهم ، ويَرجع إليهم ويَسمع منهم ، وينظر بأعينهم ، ويُصغِى بآذانهم ، ويتناول بأيديهم . فقال له مجاوبا : إن كان عارفا(٥) بهم ، ومستبطنا لأمرهم ، وخبيرا بشأنهم ؛ فلِمَ سلّطهم وبسَطَهم ، وحدّد أنيابهم ، وقوّى أسنانهم ، وفتح أشداقهم ، وطوّل أعناقهم

(١) الخلف : الضرع .
(٢) فى الأصل « مرموقين محطوطين » ؛ وهو تحريف . وسياق الكلام الآتى بعد يقتضى ما أثبتنا . ومزمومين مخطومين ، من الزمام والخطام .
(٣) تقدم إليه بكذا أمره به .
(٤) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل ولا تستقيم العبارة بدونها .
(٥) « فارقا بهم مشكبطنا » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين .

وقطّع أرباقهم ؛ وأبطرهم فأسكرهم ، حتى صاروا يجهلون أقدارهم ، وينسون ما كانوا فيه من القلّة والذلّة ؟ هلاّ[١] رتّبَ كلّ واحد منهم فيما تظهر به كفايتُه ولا يرفعه إلى ما يظن معه الظنّ الفاسد ، وَلِمَ يضحك فى وجوههم ، ويغضِى[٢] على جناياتهم ؟ أما بلغه أنّ ابن يوسف قال[٣] : تشبّثه بابن شاهويه لأنّه قد أعدّه للهرب إلى القرامطة إن دَهَمه أمر ؟ وأنسُه ببهرام إنما هو لاستمداد[٤] الفساد منه وتقـديمُه لابن طاهر للسرقة على يده ، وفرحُه بابن مكيخا[٥] للسـخرية به وتقريبُه لابن الحجّاج للسّخف ، ولَهَجُه بابن هرون للهُزء واللّعب .

قال له ابن جبلة : من أراد أن يحسّن القبيحَ عنـد رضاه ، ويقبّح الحَسَن عند سُخْطه فَعَل ، ولا يخلو أحد تهبّ ريحه[٦] ، ويعلو شأنه ، وينفُذُ أمره ونهيه من حاسد وقارِف[٧] ، ومُدخل ومُرجِف ، على هذه الأمور بُنيت الدار ، وعليها جرت الأقدار ، إن كنت تنكر هذا الرهط ، فاعرف له[٨] الرهط الآخر ؛ فإنّك تعرف بذلك حُسن اختياره وجميل انتقائه ومحمودَ رأيه .

قال : من هم ؟ . قال : أبو الوفاء المهندس ، وابن زرعة المتفلسف ، وابن عبيد الكاتب ، ومسكويه ، والأهوازىّ والسجدى فأين[٩] هؤلاء الغامطة[١٠] ؟

(١) « على » .
(٢) « يقضى » .
(٣) « ظال » .
(٤) « الاستبداد » .
(٥) « ابن مكينجاج » .
(٦) تهب ريحه : كناية عن نهوض الحظ وقيام الدولة .
(٧) قارف ، أى كاذب ظالم . والمدخل : العائب ، من الدخل بالتحريك وسكون الخاء بمعنى العيب .
(٨) له ، أى الوزير .
(٩) « فالآن » .
(١٠) الغامطة : الذين لايشكرون النعمة . ويشير بهذا الوصف إلى الجماعة المتقدم ذكرهم وهم ابن شاهويه وبهرام الخ . يريد أين هؤلاء من هؤلاء .

قومٌ همُّهم أن يأكلوا رغيفا ويشربوا قدحا ، لا همُّ ممن يُقتبَس من علمهم ولاهم[1] يتكلفون له نصحا ، وهيبته[2] تعوقهم عن ذكر شيء فى الدولة من تلقائهم إلا أن يكون شيء يتعلّق بهم على معنى خاصّ ؛ فهو ينود[3] هكذا وهكذا حتى يبلغ منهم ما قَدر عليه .

فلما سمع الوزير هذا كلّه قال : سألقى إليك فى جواب هذه المسألة ما تخدمنى به إن لاقيتَهم فى مجلس آخر على وجه يُخفِى[4] أنك له ملقَن مُحمَّل كأنك ساهٍ عنه غيرُ حافل به ؛ وقد تقطّع الليل ، ويُحتاج فى هذا الحديث إلى أستئناف زمان ، بعد أستيفاء جِمام ؛ ثم أنشدتُ قول الشاعر :

إنى لأصفح عن قومى وألبَسُهم   على الضغائن حتى تبرأ المِئَرُ

ثم قال : ما المئر ؟ قلت : هى الضغائن التى ذكرها فى حشو البيت ، واحدها مِئْرَةٌ ، كأنه أراد وألبَسُهم على الضغائن [حتى تبرأ الضغائن[5]] فرجع من لفظ إلى لفظ ضرورةَ القافية لمّا كان معناهما واحدا ؛ قال : لمن هذا البيت ؟ قلتُ : لا أحفظ أسمَ شاعره ، ولكن أحفظ معه أبياتا . قال : هاتها ؛ فأنشدتُ أوّل ذلك :

يأيُّها الرجل المُزْجِى أذيَّتَه[6]   هل أنت عن قولك العوراء مزدجرُ

إنى إذا عُدَّ مِبْطاءٌ[7] إلى أمدٍ   لا يستطيع حِضارى[8] المقرف البَطِرُ

(١) « لا هو » .
(٢) « عتقهم » .
(٣) ينود : يتحرك ويتمايل . والمراد انه يلوّح هكذا وهكذا بالكلام .
(٤) « الخفى » .
(٥) هذه العبارة التى بين مربعين ساقطة من الأصل ، ولا يستقيم الكلام بدونها ، فان قوله : « وألبسهم على الضغائن » من لفظ البيت ، فلا يصح أن يقال فيه : « كأنه أراد » .
(٦) « أدبته » .
(٧) « مد ميطاء » .
(٨) الحضار ، بكسر الحاء والمحاضرة : المغالبة فى الحضر بضمها ، وهو العدو السريع. =

لاقى قناتىَ مِصْرارا عَشَوْزَنَةً[١] لا قادح قد تبغَّاها ولا خوَرُ
إنى لأصفح عن قومى وألبَسُهم على الضغائن حتى تبرأ المِئرُ

قال: اُكتبها. قلت: أفعلُ، وانصرفتُ، فما أعاد علىّ بعد ذلك شيئا مما كان.

الليلة الرابعة

(١) قال لى بعد ذلك فى ليلة أخرى: كيف رضاك عن أبى الوفاء[٢]؟ قلت: أرضى رضًا بأتمّ شكر وأحمدِ ثناء؛ أخذ بيدى، ونظر فى معاشى، ونشّطنى وبشّرنى، ورعى عهدى، ثم ختم هذا كلّه بالنعمة الكبرى، وقلّدنى بها القلادة الحسنى، وشملنى بهذه الخدمة، وأذاقنى حلاوة هذه المزيّة، وأوجهنى عند نظرائى.

قال: هات شيئا من الغَزَل. فأنشدته:

كلانا سواء فى الهوى غير أنّها تجلّدُ أحيانا وما بى تجلّدُ

= والمقرف من الخيل: ما أمه عربية وأبوه أعجمى. والبطر بكسر الطاء: من البطر بالتحريك؛ وهو هنا بمعنى التحير والدهش والانبهار. يريد أنه يتحير ويدهش حين يسابق أسرع منه فيقصر عن مسابقته بسبب ذلك. ويقال للبعير القطوف إذا جارى بعيراً واسع الخطو فقصرت خطاه عن مباراته: «قد أبطره ذرعه» أى حمله على أكثر من طوقه.

(١) ورد هذا البيت فى الأصل هكذا:

لاقى قناتى مصرارا عسورته لا قارح قد تبيناها ولا خور

وفى بعض ألفاظه تحريف ظاهر. ومصرارا، أى ذات صرير، أى صوت. والعرب يصفون القناة الجيدة بأنها تصوّت عند غمرها، كما يدل على ذلك بيت عمرو بن كلثوم الآتى. والعشوزنة: الصلبة الشديدة الغليظة، قال عمرو بن كلثوم يصف قناة:

عَشَوْزَنَةً إذا غُمِزت أرَنّتْ تشجّ قفا المثقّف والجبينا

والقادح: أكال يقع فى الشجر. والصدع فى العود.

(٢) يريد أبا الوفاء المهندس، وهو محمود بن محمد بن يحيى بن إسماعيل بن العباس، مولده بيوزجان من بلاد نيسابور سنة ٣٢٨، وانتقل إلى العراق سنة ٣٤٨، وكان إماماً فى الحساب والهندسة والجبر والفلك؛ توفى سنة ٣٨٧ كما فى ابن الأثير أوسنة ٣٨٨ كما فى تاريخ الحكماء. وهو الذى ألف أبو حيان له هذا الكتاب.

تخاف وعيد الكاشحين وإنما جنونى عليها [حين] أنْهَى وأبْعَدُ

ثمّ قال : غالب ظنّى أن نصرا غلامَ خواشاذه[1] ما هرب من فِنائى إلا برأيك (٢)
وتجسيرك ؛ فإنّ ذلك عبد ، ولا جرأة له على مثل هذا النُّدود والشُّذوذ ، فقد قال لى القائل : إنّك من خُلصانِه .

فقلت : والله الذى لا إله إلاّ هو ما كان بينى وبينه ما يقتضى هذا الأنس وهذا الاسترسال ، إنما كنا نلتقى على زَنبرية[2] باب الجسر بالمشايا وعند البيمارِستان وعلى باب أبى الوفاء ؛ وإنما ركنت إليه لمرقَّعتِه[3] وتاسومته عند ما كنت رأيتُه عند صاحبه بالرّىّ سنة تسع وستين وهو متوجه إلى قابوس وجرجان ، فى المذلّة الدائمة والحال المربوطة[4] ؛ ولو نَبَس لى بحرف من هذا[5] ، أو كنت أشعر بأقلّ شىء منه ، لكنت أقوله لأبى الوفاء قضاء لحقّه ، ووفاء بما له فى عنقى من مننه وخوفا من هذا الظنّ بى ، وقصورا عن اللائمة لى .

قال : أفما تعرف أحدا تسأله عنه ممن كان يخالطه ويباسطه ؟ قلت : ما رأيته إلا وحده ؛ وكم كان زمان التلاقى ؟ كان أقلّ من شهر ، أفى هذا القدر يتوكّد الأنس وترتفع الحشمة وتستحكم الثقة ويقع الاسترسال والتشاور ؟

---

(١) خواشاذه هو أبو نصر خواشاذه كان فارسيا من كبار رجال شرف الدولة البويهى وكان سفيرا فى الاتفاق وعقد الصلح بين شرف الدولة وصمصام الدولة .

(٢) انظر تفسير هذا اللفظ فى الحاشية رقم ٢ صفحة ٤١ .

(٣) المرقعة : من لبس الصوفية ، لما فيها من الرقع . والتاسومة : كلمة شائعة الاستعمال عند العامة فى نوع من النعال البالية يلبسه الفقراء ؛ ولم نجدها فيما راجعناه من كتب اللغة ، كما أنها لم ترد فيما بين أيدينا من الكتب المؤلفة فى الألفاظ العامية والدخيلة .

(٤) لعله يريد بالمربوطة فى هذا الموضع ، الواقفة عند حد من الفاقة لا تنتقل عنه .

(٥) من هذا ، أى من أمر هربه .

هذا بعيد . قال : هذا المتخلِّفُ[١] كنتُ قد قرّبتُه ورتّبتُه ، ووعدته ومنّيته ؛ وتقدمت إلى أبي الوفاء بالإقبال عليه ، والإحسان إليـه ، وإذكارى بأمره فى الوقت بعد الوقت ، حتى أزيده نباهة وتقديما ، فترك هذا كلّه وطوى الأرضَ كأنّه هارب من حبس ، أو خائف من عذاب . ويقال فى الأثر : إن بعض الصِّفيحيّين[٢] قال : لله قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل ، ما أكثر من يفرّ من هذه الكرامة ، ويَقوى — على تَرَفٍ جَمّ — على الهوان ، ويصبر على البلاء ، ويَقلَق فى العافيـة ! إنّ السجايا لمختلفة ، وإنّ الطباع لمتعادية ؛ قَلّما يُرَى شخصان يتشاكلان فى الظاهر إلاّ يتباينان فى الباطن .

قلتُ : كذلك هو .

(٣) قال : حدِّثني لِمَ امتنعتَ من النفوذ مع ابن موسى إلى الجبـل فيما رسَمْنا له أن يتوجّه فيه ؟ ولقد أطلتُ التعجّب من هذا وكرّرتُه على أبي الوفاء .

فقلتُ : منعنى من ذلك ثلاثة أشياء : أحدها أن ابن موسى لم يكن من شكلى « ولا أشدّ للضدّ »[٣] هُونا[٤] من مصاحَبة الضِّدّ[٥] ، لأنّه سَوداوىّ وجَمْد . والآخَر أنّه قيل : ينبغى أن تكون عينا عليه ، وأنا لو قررت لك الحديث لما رأيتَه [لائقا[٦]] بحالى ، فكيف إذا قُرِنتُ برجل باطلىّ[٧] لو مرّ بوهمه أسرى

(١) يريد بالمتخلف : هذا الغلام الآبق ، لتخلفه عن متابعة مولاه .

(٢) الصفيحيون : نسبة إلى الصفيح ، وهو من أسماء السماء ، يريد المتعبدين المتعلقة قلوبهم بالعالم العلوى .

(٣) وردت هذه العبارة التى بين هاتين العلامتين فى الأصل محرفة لا معنى لها وما أثبتناه هو أقرب الحروف إلى الرسم الوارد فى الأصل ، كما أن سياق الكلام يقتضيه .

(٤) الهون : الذل والهوان .

(٥) « الصك » .

(٦) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل ، ولعله يريد أنه لو اكتفى بنقل حقيقة الحديث لما كان ذلك لائقا بحاله لما فى هذا العمل من وصفه بالسعاية والوشاية .

(٧) يريد بالباطلى أنه يأخذ بالشبهات والظنون الباطلة .

لدَهْدَهَنِي(١) من أعلى جبل فى الطريق . والآخَرَ أنّى كنت أفِدِ مع هذا كله على أبن عبّاد — وهو رجل أساء إلىّ وأوحشنى ، وحاول على لسان صاحبه أبن شاهويه أن أنقلب إليه ثانيا ؛ وكنت أكره ذلك ، وما كنتُ(٢) آمَنُ ما يكون منه ومنّى ، والجنون(٣) المطاع ، مهروب منه بالطباع .

وبعد ، فليس لى [حَاجَةٌ] (٤) فى مثـل هذه الخدمة ، لأن صدر العمر خلا منّى عاريا من هذه الأحوال ، وكان وسطه أضعفَ حَملا ، وأبعدَ من القيام به والقيام عليه .

فقال : ما كان عندى هذا كلّه .

قال : إنّى أريد أن أسألك عن أبن عبّاد فقد أنتجعتَه وخبرتَه وحضرتَ (٤)
مجلسه ، وعن أخلاقه ومذْهبـه وعادته ، وعن علمه و بلاغته ، وغالبِ ما هو عليه ، ومغلوب ما لديه ؛ فما أظنّ أنّى أجد مثلك فى الخبر عنـه ، والوصف له ، على أنّى قد شاهدته بهَمَذان لَمّا وافى ، ولـكنّى لم أَعْجُمْه ، لأن اللُّبثَ كان قليلا ، والشغلَ كان عظيما ، والعائقَ كان واقعا .

فقلت : إنّى رجل مظلوم من(٥) جهته ، وعاتبٌ عليه فى معاملتى ، وشديدُ الغيظ لحرمانى ، وإن وصفتُه أَرْبَيْتُ(٦) منتصِفا(٧) ، وانتصفتُ منه مسرِفا(٨) ،

(١) دهدهه : دحرجه .
(٢) « وما أكتب » .
(٣) « والجـكوت » .
(٤) موضع هذا اللفظ فى الأصل حروف مطموسة تتعذر قراءتها ، وسياق الـكلام يقتضى ما أثبتنا أو ما يفيد معناه .
(٥) « أمر » .
(٦) أربيت : زدت .
(٧) ورد فى الأصل بعد هذه الـكلمة لام وميم ؛ ولعلهما من زيادات النساخ ، لاستقامة الـكلام بدونهما .
(٨) « مشترفا » ، وقد ورد بعد هذه الكلمة فى الأصل حاء وياء ؛ ولعلهما من زيادات النساخ .

فلو كنتُ معتدل الحال بين الرضا والغضب ، أو عاريا منهما جملة ، كان الوصف أصدق ، والصدق به أخلق ؛ على أنى عملت رسالة فى أخلاقه وأخلاق ابن العميد أودعتها نفسى الغزير ، ولفظى الطويلَ والقصير ، وهى فى المسوّدة ولا جسارة لى على تحريرها ، فإنّ جانبه مَهيب ، ولمكره دبيب ، وقد قال الشاعر :

إلى أن يَغيبَ[1] المرء يُرجَى ويُتَّقَى ولا يَعلم الإنسانُ ما فى المغيَّبِ

قال : دع هذا كلَّه ، وأنسخ لى الرسالة من المسوّدة ، ولا يمنعنَّك ذاك فإنّ العين لا ترمقُها والأذنَ لا تسمعها واليدَ لا تنسخها .

وبعد ، فما سألتك إلا وصفه بما جُبِل عليه ، أو بما كسب[2] هو بيديه من خير وشرّ ؛ وهذا غير منكر ولا مكروه ، لأمر الله تعالى ، فإنّه مع علمه الواسع ، وكرمِه السابغ ، يصف المحسن والمسيء ، ويُثنى على هذا ويَنْثُو[3] على ذاك ؛ فاذكر لى من أمره ما خفىّ اللفظ به وسبق الخاطرُ إليه وحضر السببُ له .

قلت : إنّ الرجل كثيرُ المحفوظ حاضرُ الجواب فصيحُ اللسان ؛ قد نَتَف من كل أدب خفيفٍ أشياء ، وأخَذَ من كلّ فنّ أطرافا ؛ والغالب عليه كلام المتكلّمين المعتزِلة ، وكتابته مهجّنة بطرائقهم ، ومناظرَته مشوبة[4] بعبارة الكتّاب ؛ وهو شديد التعصّب على أهل الحكمة والناظرين فى أجزائها كالهندسة والطّبّ والتنجيم والموسيقِى والمنطق والعَدد ؛ وليس [عنده][5] بالجزء

(١) يغيب ، أى يموت . وفى الأصل « يعيش » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى .
(٢) « كتب » بالتاء .
(٣) « ينثو على ذلك » ، أى يخبر عنه بذنوبه ، يقال : « نثا على فلان ذنوبه » ، إذا أخبر بها عنه وأشاعها .
(٤) كذا فى معجم الأدباء . والذى فى الأصل : « مسترقة » .
(٥) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى الأصل ؛ ومكانها كلمة مطموسة تتعذر قراءتها .

الإلهى خبر ، ولا له فيه عين[1] ولا أثر ؛ وهو حَسَن القيام بالعروض والقوافى ؛ و يقول الشّعر ، وليس بذاك ؛ وفى بديهته غزارة . وَأما رويّته[2] فخوّارة ؛ وَطالِعهُ الجوزاء ، وَالشّعْرَى قريبة منه ؛ ويتشيّع لمذهب أبى حنيفة ومقالةِ الزّيديّة ، ولا يرجع إلى الرقّة والرأفة والرحمة ، والناس كلُّهم محجمون عنه ، لجرأته وسلاطته واقتدارِه و بسطتِه ؛ شديد العقاب طفيفُ الثواب ، طويلُ العِتاب ؛ بذىء اللسان ؛ يُعطِى كثيرا قليلا (أعنى يعطى الكثيرَ القليل) ، مغلوبٌ بحرارة الرأس ، سريعُ الغضب ، بعيــد الفيْئة[3] قريبُ الطِّيَرة ، حسودٌ حقودٌ حديد ، وحسدُه وقفٌ على أهل الفضل ، وحِقْدُه سارٍ إلى أهل الكفاية ؛ أمّا الكتّاب والمتصرّفون فيخافون سطوته ، وأمّا المنتجعون[4] فيخافون جفوته ؛ وقد قَتَل خَلْقا ، وأهلك ناسا ، وَنَفَى أمّة ، نخوةً وتعنُّتا وتجبُّرا وزَهْوا ؛ وهو مع هذا يخدعه الصبىّ ، ويَخلُبه الغبىّ ؛ لأنّ المَدخَل عليــه واسع ، والمأتَى إليه سهل ؛ وذلك بأن يقــال : مولانا يتقدّم بأن أُعارَ شيئا من كلامه ، ورسائلِ منثورِه ومنظومِه ؛ فمــا جُبْتُ الأرض إليه[5] من فَرْغَانةَ ومصرَ وتفليسَ إلاّ لأستفيد كلامَه وأفْصُحَ به ، وأتعلّم البلاغةَ منه ؛ لكأنّما رسائل مولانا سُوَر قرآن ، وفِقَرُه فيها آيات فرقان ؛ واحتجاجُه من ابتدائها إلى انتهائهــا برهان فوقَ برهان ؛ فسبحان من جَمَع العالَمَ فى واحد ، وأبرز جميع قدرتِه فى شخص .

---

(١) « جبن ولا إبر » .

(٢) كذا فى معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٧٦ الطبعة الأولى . والذى فى الأصل : «بديهته» ولا يستقيم مع العبارة السابقة .

(٣) « النية » . والتصحيح عن معجم ياقوت . والفيئة : الرجعة .

(٤) « المنكبخون » .

(٥) « إلا من فرغانة » وقوله « إلا » زيادة من الناسخ .

فيلين عند ذلك ويذوب ، ويَلهَى عن كلّ مهمّ له ، ويَنسى كلّ فريضة عليه ويتقدم إلى الخازن[١] بأن يُخرج إليه رسائله مع الورَق[٢] والوَرِق ويسهّل[٣] له الإذنَ عليه ، والوصولَ إليه ، والتمكّنَ من مجلسه ؛ فهٰذا هٰذا .

ثم يعمَل فى أوقات كالعيد والفَصْل شِعرا ، ويدفعه إلى أبى عيسى بن المنجّم ، ويقول : قد نحلتُك هذه القصيدة ، امدحنى بها فى جملة الشعراء ، وكن الثالث من الهَمَج[٤] المُنْشدين[٥] . فيفعل أبو عيسى — وهو بغدادىّ محكّك[٦] قد شاخ على الخدائع وتحنّك — ويُنشِد ، فيقول له عند سماعه شِعرَه فى نفسه ووصْفَه بلسانه ، ومدْحَه من تجبيره : أعِدْ يا أبا عيسى ، فإنّك — والله — مُجيد زِهْ يا أبا عيسى والله ، قد صفا ذِهنُك ، وزادت قريحتُك ، وتنقّحتْ قوافيك ؛ ليس هذا من الطِّراز الأوّل حين أنشدتَنا فى العيد الماضى ، مجالسُنا تُخرّج الناس وتَهَب لهم الذكاء ، وتزيد لهم الفطنة ، وتحوّل الكَوْدَنَ[٧] عَتيقا ، والمحمَّرَ[٨] جَوادا ؛ ثم لا يصرفه عن مجلسه إلاّ بجائزة سنيّه ؛ وعطيّة هنيّه ؛ ويغيظ الجماعة من الشعراء وغيرهم ، لأنّهم يعلمون أن أبا عيسى لا يَقرِض مِصْراعا ولا يَزِنُ بيتا ولا يذوق عَرُوضا .

قال يوما : من فى الدار ؟ فقيل له : أبو القاسم الكاتبِ وابن ثابت ؛ فعَمِل

(١) « الحازق » .
(٢) يريد بأحد الورقين : الدراهم المضروبة ، وهو بفتح الراء وكسرها .
(٣) كذا فى معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٧٧ الطبعة الأولى . والذى فى الأصل : «ويهلم» ؛ وهو تحريف لا معنى له .
(٤) « المهج » ، وفى حروفه قلب .
(٥) « المفسدين » وما أثبتناه عن معجم الأدباء .
(٦) محكك ، أى مجرب مدرب .
(٧) الكودن : الفرس الهجين . والعتيق : عكسه .
(٨) المحمّر : الفرس الهجين .

فى الحال بيتين ، وقال لإنسان بين يديه : إذا أذنتُ لهذين فأدخُلْ بعدهما بساعة وقل : « قد قلتُ[١] بيتين ، فإن رسمتَ لى إنشادَهما أنشدتُ » وأزعم أنك بُدِهْتَ بهما ، ولا تجزع من تأفُّفى بك ، ولا تفزع من نُكْرى عليك ، ودفعَ البيتين إليه ، وأمره بالخروج إلى الصحن ؛ وأذن للرّجلين حتى وَصلا ؛ فلما جلسا وأنسا[٢] دخل الآخر[٣] على تَفيئتهما[٤] ، ووقف للخدمة ، وأخذ يتلمّظُ يُرِى أنّه يَقرِض شِعرا ؛ ثم قال : يا مولانا ، قد حضرنى بيتان ، فإن أنت أذنتَ لى أنشدتُ . قال : أنت إنسان أخرَقُ سخيف ، لا تقول شيئا فيه خير ، اِكفنى أمرَكَ وشعرَكَ . قال : يامولانا ، هى بديهتى ، فإن نَكِرْتَنى[٥] ظلمتَنى ؛ وعلى كلّ حال فأسمع ، فإن كانا بارعَين و إلاّ فعامِلْنى بما تحبّ[٦] قال : أنت لجوج ، هاتِ . فأنشد :

يا أيّها الصاحب تاجَ العلا لا تجعلنّى نُهْزَةَ الشامتِ

بمُلحدٍ يُكنَى أبا قاسم ومُجْبَر[٧] يُعزَى إلى ثابتِ

قال : قاتلك الله ، لقد أحسنتَ وأنت مسىء . قال لى أبو القاسم : فكدتُ أتفقّأ غيظا ، لأنّى علمت أنه من فَعَلاته المعروفة ؛ وكان ذلك الجاهل لا يَقرِض

(١) ورد فى الأصل بعد قوله : « قلت » جيم وميم وهما زيادة من الناسخ ، لاستقامة الكلام بدونهما ، ولأنهما لم يردا فى معجم الأدباء . ويلاحظ أن فى هذه النسخة كثيرا من الحروف الزائدة .

(٢) كذا فى معجم الأدباء . والذى فى الأصل : « موانسا » ؛ وهو تحريف .

(٣) « الأحر » وما أثبتناه عن معجم الأدباء .

(٤) « تفياتهما » ؛ وهو تحريف . « ودخل على تفيئتهما » ، أى على أثرهما . وتفيئة الشيء : حينه وزمنه .

(٥) « تكسرتنى » ؛ وهو تحريف . وفى معجم الأدباء « كسرتنى » .

(٦) « يجب » .

(٧) «مجبر» بفتح الباء ، أى منسوب إلى مذهب الجبرية بالتحريك ، وهم فرقة يقولون : ليس للعبد قدرة ، وإن الحركات الإرادية بمثابة الرعدة والرعشة .

بيتنا . ثم حدّثنى الخادمُ الحديثَ بنصّه .

والذى غلّطه فى نفسه وحمَلَه على الإعجاب بفضله والاستبداد برأيه ، أنّه لم يُجْبَهْ قطُّ بتخطئة ، ولا قوبل بتسوئة ؛ ولا قيل له : أخطأتَ أو قصّرتَ أو لحنتَ أو غَلِطتَ أو أخللْتَ ، لأنّه نشأ على أن يقال : أصاب سيّدُنا ، وصدَقَ مولانا ، ولله دَرُّه ، ولله بَلاؤه ، ما رأينا مِثلَه ، ولا سمعنا مَن يقارِبه ، مَن (أبنُ عبدِ كان) مضافا إليه ؟ ومَن (أبنُ ثوابةَ) مَقيسا عليه ؟ ومن (إبراهيم بن العباس) الصُّولىُّ [إذا جُمِع بينهما] ؟ مَن (صريع الغوانى) مَنْ (أشجَع السُّلمىّ) إذا سَلَكَ طريقهما ، ومَتَحَ برشائهما ، وقَدَح بزَنْدِهما ؟ قد استدرك مولانا على (الخليل) فى العَروض ، وعلى (أبى عمرو بن العَلاء) فى اللّغة وعلى (أبى يوسف) فى القضاء ، وعلى (الإسكافىّ) فى الموازَنة ، وعلى (أبن نُوبختَ) فى الآراء والدّيانات ، وعلى (أبن مُجاهد) فى القراءات ؛ وعلى (أبن جرير) فى التفسير ، وعلى (أرسطوطاليسَ) فى المنطق ، وعلى (الكِنْدىّ) فى الجزء[1] ، وعلى (أبن سيرين) فى العبارة ، وعلى (أبى العَيْناء) فى البديهة ، وعلى (أبن أبى خالد) فى الخطّ ، وعلى (الجاحظ) فى الحيوان ، وعلى (سهل بن هرون) فى الفِقَر ، وعلى (يوحنّا) فى الطبّ ؛ وعلى (أبن رَبَن)[2] فى الفردوس ، وعلى (عيسى بن دَأْب) فى الرواية ، وعلى (الواقدىّ) فى الحفظ ، وعلى (النّجار) فى البَدَل[3] ، وعلى (ابن ثوابة) فى التفقّه[4] ، وعلى (السَّرِىّ السَّقَطىّ) فى الخَطَرات والوساوس ، وعلى (مُزَبِّد)[5]

---

(١) يريد الجزء الذى لا يتجزأ ، وهو ما يسمى بالجوهر الفرد .

(٢) « ابن ربن » هو على بن ربن كان طبيبا مشهورا ، ألف كتابا اسمه فردوس الحكمة ، وكان يهوديا ثم أسلم على يد المعتصم .

(٣) البدل : اسم كتاب فى الكلام لأبى عبد الله الحسين بن محمد النجار .

(٤) فى معجم الأدباء « وعلى بنى ثوابة فى التفقية » .

(٥) هو أبو إسحاق مزبد المدنى اشتهر بنوادره المضحكة وبسرعة خاطره ولطيف ملحه .

فى النوادر ، وعلى (أبى الحسَن العَروضىّ) فى استخراج المعمَّى ، وعلى (بنى بَرْمَكَ) فى الجود ، وعلى (ذِى الرياستين) فى التدبير ، وعلى (سَطِيح) فى الكهانة ، وعلى (ابن المحيّا خالدِ بنِ سنان العَبْسىّ) فى دعواه[١] ؛ هو والله أولى بقول (أبى شريح أوس بن حَجَر التميمىّ) فى (فَضالَة بن كَلْدة) :

الألمعىُّ الّذى يظنّ بك الظنّ * كأنْ قد رأى وقد سمعا

قد يَسبِق المدحُ إلى من [لا[٢]] يستحقّه ، ويصير المال إلى من لا يليق به أن يكون مَيِّلا[٣] حتى إذا وجد من كان لذلك مستحقا مُنِحَه ووُفِّر عليه .

فتراه عند هذا الهَذَر وأشباهِه يتلوّى ويتبسّم ، ويطير فرحا ويتقسّم ويقول : ولا كذا[٤] ؛ ثمرةُ السَّبْق لهم ، وقصَّرْنا أن نَلحقهم ، أو نَقْفُوَ أثَرَهم ونشقّ غُبارَهم أو نَرِدَ غِمارَهم . وهو فى كل ذلك يتشاكى ويتحايل ، ويَلوِى شِدْقَه ، ويبتلع رِيقَه ، ويَرُدُّ كالآخذ ، ويأخذ كالمتمنِّع ، ويَغضَب فى عَرْض الرضا ، ويرضى فى لَبُوس الغضب ، ويتهالك ويتمالك ، ويتقابل[٥] ويتمايل ؛ ويحاكى المومسات ، ويَخرُج فى أصحاب السماجات ؛ ومع هذا كلِّه يظنّ أن هذا خافٍ على نُقّادِ الأخلاق وجَهابذة الأحوال ، والذين قد فرَّغهم الله لتتبُّع

---

(١) خالد بن سنان رووا أنه كان نبيا وكان فى زمن الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام وكان بأرض عبس . ولم نجد فيما بين أيدينا من الكتب من لقبه بابن المحيا ، وقد وردت كنيته فى معجم الأدباء بأبى الحياة .

(٢) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى الأصل ؛ والسياق يقتضيها .

(٣) « ميتا » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى . والميِّل ، ذو المال .

(٤) « ولا كذا » : كلمة ظاهرها الرغبة فى الاقتصاد فى المدح ، وباطنها الحث على الإكثار منه .

(٥) « ويتقابل » ، أى تتقابل أجزاؤه بعضها ببعض ، وذلك إذا استوى فى مجلسه ولم يمل إلى ناحية .

وقال ابن المرزبان : هو كثير السرقة ، سيّئ الإتفاق ، ردىء القلب والعكس ، فَرُوقَةٌ[1] في إيراده ، هزيمته قبل هُجومه[2] . [وإحجامُه[3]] أظهرُ مِن إقدامِه . وقال الصابى : هو مجتهِد غيرُ موفَّق ، وفاضل غيرُ منطَّق[4] ولو خَطا كان أسرع له ، كما أنّه لمّا عَدا كان أبطأ عليــه ؛ وطباع[5] الجبليّ مخالِف لطباع العراقيّ ، يثب[6] مقارِبا فيقع بعيدا ، ويتطاول صاعدا فيتقاعسُ قعيدا .

وقال علىّ بن جعفر : مَّم كانت الطبائع[7] ! هو يَكذِب نفسَه بحسن الظن في البلاغة ، وطباعُه تَصْدُق عنه بالتخلّف ، فهو يشين اللفظ ويحيل المعنى ، فأما شينه اللفظ فبالجفوة والغلظة والإخلال والفجاجة ؛ وأمّا إحالتــه فبالإبعاد عن حَوْمة القصيد والإرادة ؛ والعجب أنه يحفظ الطِّمّ والرِّمّ[8] من النثر والنظم ؛ ثم إذا ادّعاهما يقع دونهما سقوطا ، أو يتجاوزهما فُروطا[9] ؛ هــذا مع الـكبر الممقوت والتشيّع الظاهر ، والدعوى العارية من البيِّنة العادلة .

(٦) وما أحسن ما كتب به أحمد بن إسماعيل بن الخصيب إلى آخَر : الـكِبْر — أعزّك الله — مَعرِض يستوى فيه النّبيــه ذِكرا ، والخامل قَدْرا ، ليس

(١) الفروقة : الشديد الفرق بالتحريك ، وهو الفزع .
(٢) « محجومه » .
(٣) موضع هذه الـكلمة فى الأصل حروف مطموسة تتعذر قراءتها ، والسياق يقتضى ما أثبتنا أو إثبات ما يفيد معناه .
(٤) غير منطق ، أى غير بليغ النطق .
(٥) الطباع : الطبع ، يستعمل مفردا كما هنا وجمعا .
(٦) « بنسته » .
(٧) يتعجب بهذه العبارة من أصل الطبائع التى تخالف صاحبها فتصدق عنه إذا كذب نفسه ، كما يدل على ذلك سياق الـكلام الآتى .
(٨) الطم والرم : العدد الـكثير . يقال : جاء بالطم والرم . والطم فى الأصل : الماء الـكثير ، أو ما ساقه الماء من غثاء . والرم : الثرى . والذى فى الأصل « الـكظم وأكرم » وهو تحريف فى كلتا الـكلمتين .
(٩) الفروط : التقدم . وفى الأصل : « قروطا » وهو تصحيف .

أمامه حاجب يمنعه ، ولا دونه حاجز يَحظُره ؛ والناس أشدّ تحفّظا على الرئيس المحظوظ ، وأكثر أجتلاء لأفعاله ، وتتبّعا لمعايبه ، وتصفّحا لأخلاقه ، وتنقيرا[١] عن خصاله منهم عن خامل لا يُعبَأ به ، وساقطٍ لا يُكترَث له ؛ فيسيرُ عيب الجليل[٢] يقدَح فيه ، وصغير الذنب يَكبر منه ، وقليل الذمّ يُسرِع إليه ؛ ولابن هندو فى هذا المعنى :

العيب فى الرجلِ المذكورِ مذكورُ والعيب فى الخاملِ المستورِ مستورُ
كَفُوفَةٍ[٣] الظُّفْرِ تَخفى من مهانتها ومثلها فى سواد العين مشهورُ

وقال الزّهيرى : قد نَجَم بأصبهان ابنٌ لعبّادٍ فى غاية الرقاعة والوقاحة والخلاعة وإن كان له يوم ، فسيَشقى به قوم ، سمعته يقول هذا سنة أثنتين وخمسين فى مجلسٍ من الفقهاء .

وقال ابن حبيب : قال بعض الحكماء : إن للنفس أمراضا كأمراض البدن إلا أن فضل أمراض النفس على أمراض البدن فى الشرّ والضرر كفضل النفس على البدن فى الخير ؛ وصاحبنا[٤] يعنى — ابن عبّاد — مريض عندنا ، صحيح عند نفسه ، زَيْف بنقدنا ، جيّد بنقده ؛ ولو قامت[٥] السُّوق على ساقها ، وتَناصَفَ المتعاملون فيها ، ولم يقع إكراه فى أخذٍ ولا إعطاء ، عُرِف البَهْرَج[٦] الذى

---

(١) « وتنكيرا » ؛ بالكاف .

(٢) « الخليل » .

(٣) « فوقة » ، وهو تصحيف . والفوف بفاءين : البياض الذى يكون فى الأظفار الواحدة فوفة .

(٤) موضع هذه الكلمة فى الأصل حروف مطموسة لم يظهر منها غير الواو والصاد والألف .

(٥) « قالت » ، واللام زيادة من الناسخ .

(٦) « التهزيج » . والبهرج : الردىء .

أبلغ من ابن يوسف[١] ، وأغزرُ وأحفظُ وأروى وأجمّ ركيّة ، وأعذبُ مَوْرِدا ، وأبعدُ من التفاوت ؛ وليس ابن يوسف من ابن عبّاد في شيء .

فأما ابن العميد فإني سمعت ابن الجمل يقول : سمعت ابن ثوابة يقول : أوّل من أفسد الكلام أبو الفضل ، لأنه تخيّل مذهبَ الجاحظ وظنّ أنّه إن تبعه لحقه ، وإن تلاه أدركه ، فوقع بعيدا من الجاحظ ، قريبا من نفسه ؛ ألا يعلم أبو الفضل أنّ مذهب الجاحظ مدبَّر بأشياء لا تلتقي عند كلّ إنسان ولا تجتمع في صدر كلّ أحد : بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق[٢] والمنافسة والبلوغ ؛ وهذه مفاتحُ قلّما يملكها واحد ، وسواها[٣] مَغالقُ قلّما ينفكّ منها واحد .

وأمّا ابنُه ذو الكفايتين ، فلو عاش كان أبلغ من أبيه ، كما كان أشعرَ منه ؛ ولقد تشبّه بالجاحظ فافتضح في مكاتبته لإخوانه ، ومجانته في كلامه ومسائله لمعلّمه التي دلّتنا على سرقته وغارته[٤] وسوء تأتّيه[٥] ، في تستّره وتغطّيه ؛ ومن شاء حمّق نفسه ؛ وكان مع هذا أشدّ الناس ادّعاء لكل غريبة ، وأبعدَ الناس من كلّ قريبة ؛ وهو نَزْر[٦] المعاني ، شديدُ الكَلَف باللفظ ؛ وكان أحسَدَ

---

(١) ابن يوسف الذي يريده هو أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف أحد أعيان الكتاب في دولة بني بويه ، تقلد ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه ، وتقلد الوزارة بعده دفعات لأولاده ، وهو الذي دس لابن سعدان عند صمصام الدولة حتى سجنه ثم قتله . وفي الجزء الثاني من اليتيمة نماذج من رسائله .

(٢) يريد بالعشق هنا : رغبته وميله إلى ما يزاوله من صناعة الكتابة

(٣) « ووباها » .

(٤) « وغارفته » .

(٥) « تأليه » .

(٦) « يزور » .

الناس لمن خطَّ بالقلم ، أو بَلغ باللّسان ، أو فَلَج(١) فى المناظرة ، أو [فَكِه(٢)] بالنادرة ، أو أغرَبَ فى جواب ، أو أتّسع فى خطاب ؛ ولقد لقِىَ الناسُ منه الدواهىَ لهذه الأخلاق الخبيثة ؛ وقد ذكرتُ ذلك فى الرسالة ، وإذا بُيِّضتْ وقفتَ(٣) عليها من أوّلها إلى آخرها إن شاء الله ؛ وأنصرفتُ .

الليلة الخامسة

قال لى ليلة أخرى : ألا تتمّ ما كنّا به بدأْنا . قلت : بلى . (١)

فأما أبو إسحاق(٤) فإنّه أحَبّ(٥) الناس للطريقة المستقيمة ، وأمضاهم على المَحَجّة الوُسطى ، وإنما يُنقَم عليه قِلّةُ نصيبه من النحو ؛ وليس أبن عبّاد فى النحو بذاك ؛ ولا كان أيضا أبن العميد إلاّ ضعيفا ؛ وكان يذهب عنه الشىء اليسير . وأبو إسحاق معانيه فلسفيّة ، وطِباعُه عراقيّة ، وعادته محمودة ؛ لا يَثِبُ ولا يَرْسُب ، ولا يَكِلُّ ولا يَكْهَمُ(٦) ، ولا يَلتفت وهو متوجّه ، ولا يتوجّه وهو ملتفِت . وقال(٧) لنا : إمامى أبنُ عبد كان(٨) ، وهو قد أَوْفَى عليه ، وإن كان

(١) فلج : فاز على خصمه وظفر به .

(٢) موضع هذه الكلمة فى الأصل حروف مطموسة تتعذر قراءتها ؛ وما أثبتناه أقرب إلى ما ظهر من حروفها .

(٣) « ووقفت » . والواو زيادة من الناسخ .

(٤) يريد بأبى إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى كان كاتب الإنشاء ببغداد عن الخليفة وعن عز الدولة البويهى ، وتقلد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ ونقم عليه عضد الدولة مكاتبات صدرت منه ، فلما ملك عضد الدولة أراد قتله فشفعوا فيه فأطلقه ، وألف له كتاب « التاجى » فى أخبار بنى بويه ، وأريد على الإسلام فأبى وظل على دين الصابئة إلى أن مات سنة ٣٨٤ كما روى ابن خلكان . وقال ابن النديم إنه مات قبل سنة ٣٨٠ .

(٥) « جم » وسياق العبارة الآتية بعد يقتضى ما أثبتنا .

(٦) يكهم : يضعف .

(٧) وقال ، أى أبو اسحاق الصابى .

(٨) « ابن عبد كان » هو محمد بن عبد كان ، كان كاتبا للدولة الطولونية ، وكان بليغا مترسلا فصيحا ، وله ديوان رسائل .

الرأى وقضيّة العقل ، لكان معلّما فى مصطبة على شارع ، أو فى دار ؛ فإنّه يخرّج الإنسان بتفيهُقِه وتشادُقِه ، وأُستحقاره وأُستكباره ، و إعادته وإبدائه ، وهذه أشكال تُعجب الصبيان ولا تنفّرهم من المعلّمين ، ويكون فرحُهم بها سببا للملازمة والحرصِ على التعلّم والحفظ والرواية والدراسة .

(٤) قال : هذا قدرٌ كافٍ إلى أن تبيّض الرسالة ؛ هات مُلْحَةَ الوَداع . قلتُ : قال أبو العيناء : قال أبو دعلج : قال المهدىّ : بايع ؛ قلتُ : أبايعكم [علام ؟ قال[١]] : على ما بويع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوم صِفّين . قال كريز أبو سيّار المسمعىّ : إن رسول الله صلى الله عليه وسلّم لم يدرك صِفّين ، إنما كانت صِفّين بين علىّ ومعاوية . فقال دوست بن رباط الفُقَيمىّ أبو شعيب : قد علم الأميرُ هذا ، ولكن أَحَبَّ التسهيل على الناس ، وأنصرفتُ .

الليلة السادسة

(١) ثم حضرتُه ليلةً أخرى فأول ما فاتحَ به المجلسَ أن قال: أتفضّل العرب على العجم أم العجم على العرب ؟

قلتُ : الأمم عند العلماء أربع : الروم ، والعرب ، وفارس ، والهند ؛ وثلاث من هؤلاء عجم ، وصَعْبٌ أن يقال : العرب وحدها أفضلُ من هؤلاء الثلاثة ، مع جوامع ما لها ، وتفاريقِ ما عندها . قال: إنّما أُريد بهذا الفُرْسَ . فقلتُ : قبل أن أحكم بشىء من تلقاء نفسى، أروى كلاما لابن المقفّع ، وهو أصيلٌ فى الفُرْس عريق فى العجم ، مفضّل بين أهل الفضل ؛ وهو صاحب (اليتيمة) القائل :

(١) ما بين المربعين لم يرد بالأصل ؛ والسياق يقتضيه .

تركتُ أصحابَ الرسائل بعد هذا الكتاب فى فضحاض من الكلام . قال : هات على بركة الله وعونه . قلتُ : قال شَبيبُ بن شَبّة : إنّا لوقوفٌ فى عرصة المِرْبَد — وهو مَوْقف الأشراف ومجتمع الناس وقد حضر أعيان المصر — إذ طلع أبن المقفّع ، فما فينا أحد إلاّ هَشّ له ، وأرتاح إلى مُساءلته ، وسررنا بطلعته ؛ فقال : ما يَقِفُكم على مُتون دوابّكم فى هذا الموضع ؟ فوالله لو بعث الخليفةُ إلى أهل الأرض يبتغى مثلكم ما أصاب أحدا سواكم ، فهل لكم فى دار ابن برثن فى ظلّ ممدود ، وواقيةٍ من الشمس ، واستقبال من الشّمال ، وترويحٍ للدّوابّ والغلمان ، ونتمهّد الأرض فإنّها خير بساط وأوطؤه ، ويَسمع بعضنا من بعض فهو أمَدّ للمجلس ، وأدَرُّ للحديث . فسارعنا إلى ذلك ، ونزلنا عن دوابنا فى دار ابن برثن نتنسّم الشّمال ، إذ أقبل علينا أبن المقفّع ، فقال : أىّ الأمم أعقل ؟ فظننا أنه يريد الفُرْس ، فقلنا : فارسُ أعقل الأمم ، نقصد مقاربته ، ونتوخّى مصانعته . فقال : كلاّ ، ليس ذلك لها ولا فيها ، هم قوم عُلّموا فتعلّموا ، ومُثّل لهم فامتثلوا وأقتدوا[(١)] وبُدئوا بأمر فصاروا إلى أتّباعه ، ليس لهم أستنباط ولا أستخراج . فقلنا له : الرُّوم . فقال : ليس ذلك عندها ، بل لهم أبدانٌ وثيقة وهم أصحاب بناء[(٢)] وهندسة ، لا يعرفون سواها ، ولا يحسنون غيرَها .

قلنا : فالصّين . قال : أصحاب أثاثٍ وصنعة ، لا فكر لها ولا رويّة . قلنا : فالتُّرْك . قال : سِباع للهِراش . قلنا : فالهند . قال : أصحاب وهم ومخرقة[(٣)] وشَعْبَذة وحيلة . قلنا : فالزِّنْجُ . قال : بهائمُ هاملة[(٤)] . فرددنا الأمرَ إليه . قال : العرب .

(١) « وامتدوا » .
(٢) « بقاء » ، وهو تحريف .
(٣) فى الأصل : « الحرق » . والشعبذة والشعوذة : واحد ، وهى أُخَذ كالسحر ترى الشىء بغير ما عليه أصله فى رأى العين .
(٤) هاملة ، أى مهملة . وفى الأصل : « هائلة » .

فللفُرْس السياسة والآداب والحدود والرسوم؛ وللرُّوم العلم والحكمة؛ وللهند الفِكْر والرويّة والخفّة[١] والسِّحْر والأناة؛ وللتُّرْك الشجاعة والإقدام؛ وللزَّنج الصبر والكدّ والفرح؛ وللعرب النَّجْدة والقِرَى والوفاء والبلاء والجود والذِّمام والخَطابة والبيان.

ثم إنّ هذه الفضائل المذكورة، فى هذه الأمم المشهورة، ليست لكلّ واحد من أفرادها، بل هى الشائعة بينها؛ ثم فى جملتها[٢] مَن هو عارٍ من جميعها، وموسوم بأضدادها، يعنى أنه لا تخلو الفُرْس من جاهل بالسياسة، خالٍ من الأدب، داخلٍ فى الرَّعاع والهَمَج؛ وكذلك العرب لا تخلو من جَبانٍ جاهلٍ طَيّاش بخيلٍ عيّ[٣] وكذلك الهند والرُّوم وغيرُهم؛ فعلى هذا إذا قوبل أهلُ الفضل والكمال من الرُّوم بأهل الفضل والكمال من الفُرْس، تلاقَوا على صراط مستقيم، ولم يكن بينهم تفاوُتٌ إلاّ فى مقادير الفضل وحدودِ الكمال، وتلك لا تخصّ[٤] بل تَلُمّ. وكذلك إذا قوبل أهلُ النقص والرذيلة من أمّة بأهل النقص والخساسة من أمّة أخرى، تلاقَوا على نَهْج واحد، ولم يقع بينهم [تفاوُت[٥]] إلاّ فى الأقدار والحدود؛ وتلك لا يُلتفَت إليها، ولا يعارُ[٦] عليها؛ فقد بان بهذا الكشف أنّ الأمم كلّها تقاسمت الفضائل والنقائص بأضطرار الفِطْرة، وأختيار الفكرة. ولم يكن بعد ذلك إلاّ ما يتنازعه الناس بينهم بالنسبة الترابيّة، والعادة المنشئيّة

(١) فى الأصل: « الفقة »، ولم نجد من معانيها ما يناسب السياق. ولعل صوابه ما أثبتنا. ويريد بالخفة: الشعوذة، فإنها خفة فى اليد. وقد سبق وصف الهنود بذلك.
(٢) « أجلتها ».
(٣) « غبي ».
(٤) فى الأصل: « يحصل بل تسلم » ومعنى الكلمتين لا يناسب السياق. ويريد أنها لا تخص أمة دون أمة، بل تجمع الأمم كلها.
(٥) موضع هذه الكلمة حروف مطموسة فى الأصل تتعذر قراءتها.
(٦) يعار: يعاب.

والهوى الغالب من النَّفْس الغضبيّة ، والنّزاع الهائج من القوّة الشهويّة .

وهاهنا شيء آخَر ، وهو أصل كبير لا يجوز أن يخلو كلامُنا من الدلالة عليه والإيماء إليه .

[وهو أنّ[1]] كلّ أمّة لها زمان على ضدها[2] ، وهذا بيّن مكشوف إذا أرسلت وهمك فى دولة يونان والإسكندر ، لمَّا غَلَبَ وساس ومَلَك ورأس وفتَق ورَتَق ورَسَم ودَبَّر وأمر ، وحَثّ وزجر ، ومحا وسطّر ، وفعل وأخبر ؛ وكذلك إذا عطفت إلى حديث كسرى أنو شروَانَ وجدت هذه الأحوال بأعيانها ، وإن كانت فى غُلْف غيرِ غُلْف الأوّل ، ومَعارِضَ غير مَعارض المتقدّم ؛ ولهذا قال أبو مسلم صاحبُ الدولة حين قيل له : أى الناس وجدتَهم أشجع ؟ فقال : كل قوم فى إقبال دولتِهم شجعان . وقد صدق ؛ وعلى هذا كلّ أمّة فى مبدإ سعادتها أفضلُ وأنجدُ وأشجعُ وأمجدُ وأسخى وأجوَدُ وأخطَبُ وأنطَقُ وأرْأى وأصدَق ؛ وهـذا الاعتبار ينساق من شىء عامّ لجميع الأمم ، إلى شىء شاملٍ لأمّة أمة إلى شىء حاوٍ لطائفةٍ طائفة ، إلى شىء غالبٍ على قبيلةٍ قبيلة ، إلى شىء معتادٍ فى بيتٍ بيت ، إلى شىء خاصّ بشخصٍ شخص وإنسانٍ إنسان ؛ وهذا التحوّل من أمّة إلى أمّة ، يشير[3] إلى فيض جود الله تعالى على[4] جميع بريّته وخليقتِه بحسب استجابتهم لقبوله ، واستمدادهم على تطاول الدهر فى نيل ذلك من فضله ومن رَقِىَ إلى هذه الرَّبْوة بعين لا قَذًى بها ، أبصر الحقّ عِيانا بلا مِرْية ، وأخبر

(١) هذه التكملة التى بين مربعين لم ترد فى الأصل ؛ والسياق يقتضيها .

(٢) ضدها ، أى لها زمان تكون لها فيه الدولة والغلبة على عدوها . وفى الأصل : « ضد هذا » وقوله : « ذا » زيادة من الناسخ كما يدل عليه سياق الكلام الآتى .

(٣) « وهو يشير » . والظاهر أن قوله « وهو » زيادة من الناسخ .

(٤) « إلى » .

عنه بلا [فرية[١]] ؛ ومتى صدق نظرك فى مبادئ الأحوال وأوائل الأمور وضح لك هذا كلّه كالنهار إذا متَع[٢] ، وأستنار كالقمر إذا طلع ؛ ولم يَبق حينئذ ريب فى عرفان الحقّ وحصولِ الصواب ، إلاّ ما يَلْتاث بالهوى ، ويَسْمُج بالتعصّب ، ويَجلِب اللَّجاج ، ويخرج إلى المَحْك[٣] ؛ فهنالك يطيحُ[٤] المعنى ويضلّ المراد ، فإذا آثرت أن تعرف صحة هـذا الحكم وصوابَ هذا الرأى ، فاسمع ما أرويه : قال إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ : انصرف العبّاس بن مِرْداس السُّلَمىُّ من مكّة فقال : « يا بنى سُلَيم ، إنى رأيت أمرا ، وسيكون خيرا ، رأيتُ بنى عبد المطلب كأنّ قُدودَهم الرّماح الرُّدَيْنِيَّة[٥] ، وكأن وجوهَهم بدورُ الدُّجُنَّة وكأن عمائمَهم فوق الرجال ألوِية ، وكأنَّ مَنطقَهم مطَرُ الوَبْل على المَحْل ؛ وإن الله إذا أراد ثمراً[٦] غَرَس له غَرْسا ، وإنَّ أولئك غَرْسُ الله ؛ فترقّبوا ثمرتَه وتَوَكَّفوا[٧] غيْثه ، وتفيَّئوا ظِلالَه ، واستبشروا بنعمة الله عليكم به » . ولقد قرَع العبّاس بهذا الكلام باب الغيب ، وشَعَر بالمستور ، وأحَسّ بالخافى ، وأطلع عقلَه على المستتر ، وأهتدى بلطف هاجِسِه إلى الأمر المُزْمَع ، والحادثِ المتوقَّع ؛ وهذا شىء فاشٍ فى العرب ، لطول وحْدَتِها ، وصفاء فكرتها ، وجَوْدةِ بِنْيَتِها وأعتدالِ هيئتها ، وصحّةِ فِطْرَتِها ، وخَلاء ذَرْعِها ، وأتّقادِ طبعِها ، وسَعَةِ لغتها وتصاريفِ كلامِها فى أسمائها وأفعالها وحروفها ، وجَوَلانِها فى اشتقاقاتها ، ومآخذِها

(١) هنا كلمة مطموسة الحروف فى الأصل تتعذر قراءتها . واستقامة الكلام تقتضى ما أثبتنا أو ما يفيد هذا المعنى .

(٢) متع النهار : ارتفع وبلغ غاية ارتفاعه قبل الزوال .

(٣) المحك : المنازعة والتمادى فى اللجاج .

(٤) « يطبخ » .

(٥) الرماح الردينية : نسبة الى ردينة ، وهى امرأة من العرب كانت تقوم الرماح .

(٦) « أمرا » .

(٧) الحرفان الأولان من هذه الكلمة فى الأصل مطموسان تتعذر قراءتهما ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا . ومعنى « توكفوا غيثه » ارتقبوه وانتظروه .

البديعةِ فى أستعاراتها ، وغرائبِ تصرّفها فى أختصاراتها ، ولطفِ كناياتها فى مقابلة تصريحاتها ، وفنون تبحبُحها[١] فى أكناف مقاصدها ، وعجيب مقاربتها[٢] فى حركات لفظها ؛ وهذا وأضعافه مسلَّم لهم ، وموفَّر عليهم ، ومعروفٌ فيهم ومنسوبٌ إليهم ، مع الشجاعة والنَّجدة والذِّمام[٣] والضِّيافة والفِطْنة والخَطابة والحَمِيّة والأَنَفة والحِفاظ والوفاء ، والبذل والسَّخاء ، والتّهالُك فى حب الثناء والنَّكَل[٤] الشديد عن الذم والهجاء ؛ إلى غير ذلك مما خُصَّت به فى جاهليّتها قبل الإسلام ، مما لا سبيل إلى دفعه وجحوده ، والبُهْتِ فيه ، والمكابرة عليه ؛ وقد سمعنا لغاتٍ كثيرةً — وإن لم نستوعبها — من جميع الأمم ، كلغة أصحابنا العجم والروم والهند والترك وخُوارَزم وصِقْلاب وأندلس والزَّنج ، فما وجدنا لشىء من هذه اللغات نصوعَ[٥] العربيّة ، أعنى الفُرَج التى فى كلماتها ، والفضاء الذى نجده بين حروفها ، والمسافةَ التى بين مخارجها ، والمعادَلة التى نذوقها فى أمثلتها ، والمساواةَ التى لا تُجحَد فى أبنيتها ؛ وإذا شئتَ أن تعرف حقيقة هذا القول ، وصحة هذا الحكم ، فأَلحظ عرض[٦] اللغات الذى هو بين أشدّها تلابسا وتداخُلا ، وترادُفا وتعاظُلا[٧] وتعسُّرا وتعوُّصا[٨] ، وإلى ما بعدها مما هو أسلس حروفا ، وأرقّ

(١) تبحبحها ، أى اتساعها .
(٢) « مقاربها » .
(٣) « والتمام » .
(٤) النكل بالتحريك : لغة فى النكول ، أى النكوص عن الشىء والتنحى عنه .
(٥) وردت هذه الكلمة فى الأصل مطموسة الحرفين الأولين ، ولم يظهر منها غير الواو والعين .
(٦) « غرض » .
(٧) تعاظل الكلام : تراكبه وتوالى بعضه فوق بعض . وكان زهير لا يعاظل بين الكلام أى لا يكرره .
(٨) فى الأصل : « وتقوضا » بالقاف والضاد ؛ ولم نجد من معانى التقوض ما يناسب السياق ، ولعل صوابه ما أثبتنا كما يدل عليه عطفه على التعسر ، إذ مؤدى الكلمتين واحد .

لفظا ، وأخفُّ اسما ؛ وألطفُ أوزانا(١) ، وأحضَرُ(٢) عِيانا ؛ وأحلى مَخرَجا وأجلى منهجا(٣) وأعلى(٤) مَدرَجا ؛ وأعدلُ عَدلا ، وأوضحُ فضلا ، وأصحّ وصلا إلى أن تنزِل(٥) إلى لغة بعد لغة ، ثم تنتهى إلى العربية ، فإنّك تحكم بأن المبدأ الذى أشرنا إليه فى العوائص والأغماض ، سَرَى(٦) قليلا قليلا حتى وقف على العربية فى الإفصاح والإيماض .

وهذا شىء يجده(٧) كلّ من كان صحيحَ البِنية ، بريئا من الآفة ، متنزّها عن الهوى والعصبيّة ، محبا للإنصاف فى الخُصومة(٨) ، متحرّيا للحقّ فى الحكومة ، غير مسترقّ(٩) بالتقليد ، ولا مخدوع بالإلف ، ولا مسخّر(١٠) بالعادة ، وإنّى لأعجب كثيرا ممّن يرجع إلى فضل واسع ، وعلمٍ جامع ؛ وعقل سديد ، وأدب كثير ، إذا أبى هذا الذى وصفتُه ، وأنكر ما ذكرتُه ؛ وأعجب أيضاً فضلَ عجبٍ من الجَيْهانىّ(١١) فى كتابه وهو يسبّ العرب ، ويتناول (٣)

(١) « أوراقا » .
(٢) فى الأصل : « وأخطر » ومعناه لا يناسب السياق . ويريد بقوله : أحضر عيانا : أنها شديدة الظهور .
(٣) « منهجكم » .
(٤) « ولعلا » .
(٥) « تترك » .
(٦) « سترى » ؛ والتاء زيادة من الناسخ .
(٧) لم يظهر من هذه الكلمة فى الأصل غير الدال والهاء . وسياق الكلام يقتضى إثباتها على هذا الوجه .
(٨) « الخصوصية » .
(٩) فى الأصل : « مستفرغا » . ولعل صوابه ما أثبتنا .
(١٠) « مستخزنا » .
(١١) الجيهانى : نسبة إلى جَيهان مدينة بخراسان . وقد شهر بهذه النسبة اثنان : أحدهما أبو عبد الله أحمد بن محمد بن نصر وزير السامانية ببخارى ، كان أديباً فاضلا له من الكتب كتاب آيين نامه وكتب أخرى ؛ وجيهانى آخر اسمه محمد بن أحمد كان كذلك وزيرا للسامانيين . =

أعراضَها ويحطّ من أقدارها ، ويقول : يأكلون اليرابيع والضِّباب والجُرْذان والحيَّات ويتعاورون [١] ويتساورون ، وَيتهاجَون ويتفاحشون ، وكأنّهم قد سُلخوا من فضائل البَشَر ، ولبسوا أُهُبَ الخنازير . قال : ولهذا كان كسرى يسمِّى ملِك العرب : « سَكَان شاه » ، أى ملِك الكلاب . قال : وهذا [٢] لشدّة شبههم بالكلاب وجِرائها ، والذئاب وأَطْلائها [٣] وكلاما كثيرا من هذا الصَّوب أرفع قدره عن مِثله ، وإن كان يضع من نفسه بفضل قوله . أتراه لا يعلم لو نزل [٤] ذلك القفرَ وتلك الجزيرة وذلك المكان الخاوى وتلك الفَيافىَ والمَوامىَ ، كلُّ كسرى كان فى الفُرس ، وكلُّ قيصرَ كان فى الروم ، وكلُّ بَلْهُوَرَ [٥] كان بالهند ، وكلُّ يقفورَ كان بخراسان ، وكلُّ خاقانَ كان بالتُّرك وكلُّ أخشادَ [٦] كان بفَرْغانة وكلُّ صَبَهْبُذ [٧] كان من أسكنانَ [٨] وأَرْدُوان

= قال فيه ياقوت : كان أديبا فاضلا شهما جسورا . وقد ترجم لكليهما ياقوت . وقال ابن النديم فى الأخير : إنه من رؤساء المتكلمين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الزندقة ويصنفون فى نصرة الأثينية . والظاهر أن الأخير هو المراد هنا .

(١) يتعاورون ، أى يذكر بعضهم عورة بعض .

(٢) « ولهذا » ؛ واللام زيادة من الناسخ .

(٣) أطلاؤها : أولادها .

(٤) فى الأصل : « كوثر » وبعد الراء حرف مطموس يشبه أن يكون « لاما » .

(٥) بلهور: لقب لكل عظيم من ملوك الهند ، مثل به سيبويه فى كتابه ، وفسره السيرافى .

(٦) أخشاد وأخشيد لقب كان لملوك فرغانة ، ولهذا لقب الرضى بالله العباسى محمد بن طغج صاحب مصر والشام بالأخشيد ، لأنه كان فرغانيا . وفرغانة مدينة وكورة واسعة وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان .

(٧) فى الأصل : « شبه » بالشين ؛ وفيه تحريف ونقص حرفين إذ لم نجده بالمعنى المناسب فيما راجعناه من معجمات اللغتين العربية والفارسية ، ولعل صوابه ما أثبتنا ، فقد ورد فى شفاء الغليل أن صبهبذ معناه الأمير ؛ وهو معرب ورد فى شعر جرير . وفى كتاب الألفاظ الفارسية المعربة أن سپهبد بالفارسية معناه قائد العسكر وهو مركب من كلمتين « سپه » أى عسكر و « بد » أى صاحب .

(٨) لعله « أشكيشان » كما فى معجم البلدان ، وهى من قرى أصبهان . وأردوان : ويقال فيه : أردوال ، بلدة صغيرة بين واسط والجبل وبلاد خوزستان .

ما كانوا يَعْدُون هذه الأحوال لأنّ من جاعَ أكل ما وجد ، وَطعِم ما لَحِق[١] ، وَشَرِب ما قدَر عليه ، حبّاللحياة ، وطلباً للبقاء ، وجزعا من الموت ، وهَرَبا من الفَناء . أترى أنو شروان إذا وقع إلى فيافى بنى أسد وَبَرّ (وَبار[٢]) وسُفوحِ طِيبة[٣] ، ورَملِ يَبْرِين وساحةِ هَبير[٤] ، وجاع وعَطِش وعَرِىَ ، أما كان يأكل اليَرْبوعَ والجُرْذان ؛ وما كان يَشرب بَوْلَ الجمل وماء البئر ، وما أسَنَ فى تلك الوَهَدات ؟ أو ما كان يلبس البُرْجُدَ[٥] والخَميصة[٦] وَالسَّمِلَ[٧] من الثياب وَما هو دونه وَأخشَن ؟ بلى وَالله ، وَيأكل حشراتِ الأرض وَنباتَ الجبال ، وَكلَّ ما حَمض وَمَرّ ، وخبُث وضَرّ ، هذا جَهْلٌ من قائله ، وحَيْفٌ مِن منتحِله ؛ على أن العرب — رحمك الله — أحسنُ الناس حالا وعيشا إذا جادتهم السماء ، وصدقَتْهم الأنْواء[٨] ؛ وأزدانت الأرض ، فهُدِّلت الثمار ، وأطّردت الأودية ، وكثر اللّبَن والأقِط[٩] والجُبن واللّحم والرُّطَب والتّمر والقمح ، وقامت لهم الأسواق ، وطابت

(١) « بالحق » .

(٢) وبار : أرض واسعة ببلاد اليمن زهاء ثلثمائة فرسخ فى مثلها ، وهى ما بين الشحر إلى تخوم صنعاء .

(٣) طيبة : بلدة عند زرود . ويريد سفوح الجبال التى هناك .

(٤) الهبير : رمل قرب زرود بطريق مكة . وفى الأصل : « هيبر » بتقديم الياء على الباء ولم نجده فيما راجعناه من الكتب .

(٥) البرجد : كساء غليظ من صوف أحمر . وقال بعضهم : هو كساء ضخم مخطط يصلح للخباء وغيره .

(٦) الخميصة : كساء أسود مربع له علمان .

(٧) السمل من الثياب : الخلق البالى .

(٨) الأنواء : الأمطار ؛ الواحد نوء . وأصل النوء سقوط نجم فى المغرب وطلوع نجم بحياله من ساعته فى المشرق ، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى هذه الأنواء .

(٩) الأقط : شىء يتخذ من المخيض الغنمى يطبخ ثم يترك حتى يمصل . وقيل : من اللبن الحليب .

المرَابع وفشا الخِصْب ، وتَوَالَى النِّتاج، واُتّصلت المِيرة ، وصدق المصاب[١] وأَرْفغ[٢] المنتجِع ، وتلاقت القبائل على المَحاضر[٣] ، وتقَاوَلوا[٤] وتضايفوا ، وتعاقدوا وتعاهدوا ، وتزاوروا وتناشدوا ؛ وعقدوا الذِّمَم ، ونطقوا بالحِكَم ؛ وقرَوا الطُّرّاق ووَصَلوا العُفاة ، وزَوَّدوا السابلة ، وأرشَدوا الضُّلّال ، وقاموا بالحَمالات[٥] وفَكُّوا الأَسْرَى ، وتداعَوا[٦] الجَفَلى ، وتعافَوا النَّقَرى ، وتنافَسوا فى أفعال المعروف ؛ هذا وهم فى مساقط رءوسهم ، بين جبالهم ورمالهم ، ومناشئ آبائهم وأجدادهم ، ومَوالدِ أهلهم وأولادهم ، على جاهليّتهم الأولى والثانية ، وقد رأيتَ حين هبّت ريحُهم وأشرقتْ دولتهم بالدعوة ، وانتشرت دعوتهم بالملّة ، وعزّت ملّتهم بالنبوّة ، وغَلبتْ نبوّتهم بالشريعة ، ورسختْ شريعتهم بالخلافة ، ونُضِّرَتْ خلافتهم بالسياسة الدينيّة والدّنيويّة ، كيف تحوّلتْ جميع محاسن الأمم إليهم وكيف وقعَتْ فضائل الأجيال عليهم من غيرِ أن طلبوها وكَدَحوا[٧] فى حيازتها أو تعِبوا فى نَيلها ، بل جاءتهم[٨] هذه المناقبُ والمَفاخِر ، وهذه النوادرُ من المآثر عفوا[٩] ، وقَطَنتْ بين أطناب بيوتهم سَهوا رَهْوا[١٠] ؛ وهكذا يكون كلُّ شىء

(١) المصاب : المقصد . يريد المكان الذى يقصدونه للانتجاع ، من صاب يصوب إذا قصد .

(٢) أرفغ له المعاش : وسّعه .

(٣) المحاضر : المناهل ، لحضور القبائل واجتماعها عليها ، الواحد محضر بفتح الميم والضاد .

(٤) « وتغازلوا » بالغين والزاى ؛ وهو تصحيف .

(٥) الحمالات بفتح الحاء : الديات والغرامات يحملها قوم عن قوم .

(٦) تداعوا الجفلى ، أى دعا بعضهم بعضا إلى الطعام دعوة عامة لا تخصيص فيها . والنقرى : الدعوة الخاصة ، قال طرفة : (نحن فى المشتاة ندعو الجفلى * لا ترى الآدب فينا ينتقر) وتعافوا أى كرهوا ، من عاف الشىء يعافه .

(٧) « وقدحوا » بالقاف .

(٨) « جلتهم » .

(٩) « حفوا » ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

(١٠) سهوا رهوا ، أى عفوا بلا مشقة . يقال : أتاه هذا الأمر سهوا رهوا ، أى فى سهولة ورفق .

تولاه الله بتوفيقه ، وساقه إلى أهله بتأييده ، وحلّى مستحقّيه باختياره ؛ ولا غالب لأمر الله ، ولا مبدّل لحُكم الله ، ولذلك قال الله تعالى : (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) . ولله في خَلْقه أسرار ، تتصرّف بها دوائرُ الليل والنهار ، وتُذلّلها مجارى الأقدار ، حتى يُنتهَى بمحبوبها ومكروهها إلى القرار .

عزّ إلٰها معبودا ، وجلّ ربّا محمودا مقصودا . وبعد ، فالّذى لا شكّ فيه من وصف العرَب ، ولا جاحدَ له من حالها ، أنه ليسَ على وجه الأرض جيلٌ من الناس ينزلون القَفْر ، ويَنتجعون السحابَ والقَطْر ؛ ويعالجون الإبلَ والخيل والغنم وغيرَها ، ويستبدّون فى مصالحهم بكلّ ما عزّ وهان ، وبكلّ ما قلّ وكَثُر ، وبكل ما سَهُل وعَسُر ؛ ويرجون الخير من السماء فى صَوْبها[1] ، ومن الأرض فى نباتها ؛ مع مراعاة الأوان بعد الأوان ، وثقةً بالحال بعد الحال وتبصرةً فيما يُفعَل ويُجتنَب ؛ ما للعرب فيما قدّمْنا وصفَه ، وكرّرنا شرحَه من علمهم بالخِصْب والجَدْب ، واللِّين والقسوة ، والحرّ والبَرْد ، والرياح المختلفة والسحائبِ الكاذبة ، والمَخايلِ الصادقة ، والأنواء المحمودةِ والمذمومة ، والأسبابِ الغريبةِ العجيبة .

وهذا لأنّهم مع توحُّشهم مستأنسون ، وفى بواديهم حاضرون ، فقد اجتمع لهم من عادات الحاضرة أحسنُ العادات ، ومن أخلاق البادية أطهرُ الأخلاق .

وهذا المعنى على هذا النَّظْم قد عدمه أصحاب المُدُن وأربابُ الحَضَر ، لأن الدناءة والرِّقّة والكَيْس والهَيْنَ والخَلابةَ والخداعَ والحيلة والمكر والخِبّ تغلّب

(١) « صوتها » بالتاء ؛ وهو تصحيف .

على هؤلاء وتَمَلّكهم ، لأن مدارَ أمرهم على المعاملات السيِّئة ، والكذب فى الحِسّ[١] ، والخلفِ فى الوعد .

(٤) والعرَب قد قدَّسها الله عن هذا الباب بأسره ، وجَبَلها على أشرف الأخلاق بقدرته ؛ ولهذا تجد أحدهم وهو فى بَتٍّ[٢] حافيا حاسرا يذكر الكرم ، ويفتخر بالمحمدة ، وينتحل النّجدة ، ويحتمل الكَلّ[٣] ، ويضحك فى وجه الضيف ويستقبله بالبِشر ، ويقول : * أحدِّثه إن الحديث من القِرى * ثمّ لا يقنع ببثّ العُرف وفعلِ الخير والصبرِ على النوائب حتى يَحُضَّ الصغير والكبير على ذلك ويدعوَ إليه ، ويستنهضه نحوَه ، ويكلّفه مجهودَه وعفوَه .

وقد قيل لرجل منهم فى يوم شاتٍ وهو يمشى فى سَمِلٍ[٤] : أما تجد البَرْدَ يا أخا العرب ؟ فقال : أمشى الخَيْزَلَى[٥] ويكفينى حَسَبى . والفارسىُّ لا يُحسِن هذا النَّمط ، ولا يذوق هذا المعنى ولا يَحلُم بهذه اللّطيفة ؛ وكذلك الرومىُّ والهندىُّ وغيرُهما من جميع العَجَم .

(٥) وممّا يدلّ على تحضُّرهم فى باديتهم ، وتبدِّيهم فى تحضُّرهم ، وتَحلّيهم بأشرف أحوال الأمرين ، أسواقهم التى لهم فى الجاهليّة ، مثل دُومَة[٦] الجَنْدَل بقُرى

(١) فى الأصل : « الحسة » والتاء زيادة من الناسخ .
(٢) فى الأصل : « بيت » والياء زيادة من الناسخ . والبت : كساء غليظ من صوف أو وبر .
(٣) الكل : الضعيف ؛ يقال هو يحمل الكل ، أى يمون الضعفاء الذين لا يستطيعون الكسب ويقوم بأمرهم .
(٤) السمل من الثياب : الخلق البالى .
(٥) « الخترلى » وهو تصحيف . والخيزلى : مشية فيها تثاقل وانفكاك ، كالخوزلى .
(٦) دومة الجندل : حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلى طىء وبينها وبين دمشق سبع مراحل ، وكانت منازل لكنانة من كلب .

كلب(١) وهى النصف بين العراق والشأم ، كان ينزلها الناسُ أوّل يوم من شهر ربيع الأول ، فيقيمون أسواقَهم بالبيع والشراء ، والأخذ والعطاء ؛ وكان يعشّرهم أُكَيْدِر(٢) دُومة ، وربمـا غَلَبَتْ على السوق كلب فيعشّرهم(٣) بعضُ رؤساء كلب ؛ فيقوم سُوقُهم إلى آخر الشهر ، ثم ينتقلون إلى سُوق هَجَر(٤) ، وهو المشَقَّر(٥) في شهر ربيع(٦) الآخِر ، فتقوم أسواقهم ؛ وكان يعشّرهم المنذر بن ساوَى أحدُ بنى عبد الله بن دَارِم ، ثم يرتحلون نحو عُمان(٧) ، فتقوم سوقهم بديار دَبا(٨) ، ثم بصحار(٩) ، ثمّ يرتحلون فينزلون إرَم(١٠) ، وقرى الشِّحر(١١) فتقوم أسواقهم أيّاما ، ثم يرتحلون فينزلون عَدَن أَبْيَنَ ، ومن سوق عَدَنَ تُشتَرى اللطائم(١٢) وأنواعُ الطِّيب ، ولم يكن فى الأرض أكثر طِيبا ، ولا أحذق صنّاعا للطِّيب مِن عَدَن ؛ ثم يرتحلون فينزلون الرابية من حضرموت ، ومنهم من

(١) فى الأصل : « كليب » والياء زيادة من الناسخ .

(٢) أكيدر ، هو صاحب دومة الجندل .

(٣) يعشرهم ، أى يأخذ منهم العشر .

(٤) مدينة هجر : قاعدة البحرين . وقيل : ناحية البحرين كلها هجر . قال ياقوت : وهو الصواب .

(٥) المشقر : حصن بالبحرين قديم كان لعبد القيس يلى حصنا لهم آخر يقال له : الصفا قبل مدينة هجر .

(٦) ذكر صاحب بلوغ الأرب أن هذه السوق كانت تقوم فى أول يوم من جمادى الآخرة .

(٧) عمان : كورة عربية على ساحل البحر ، وهى فى شرقى هجر .

(٨) فى الأصل : « بدها » وهو تحريف . قال ياقوت : « دبا سوق من أسواق العرب بعمان ، وهى مدينة قديمة مشهورة لها ذكر فى أيام العرب وأخبارها وأشعارها ، وكانت قديمة قصبة عمان » .

(٩) صحار : بلدة بعمان كانت فيما مضى قصبة هذه الكورة ، وهى على البحر وتلى الجبل .

(١٠) إرم : فلاة قرب عدن كما فى كتاب صفة جزيرة العرب .

(١١) الشحر : صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن بين عدن وعمان .

(١٢) اللطائم : نوافج المسك ، أى سرره ، الواحد لطيمة .

يجوزها و يَرِد صنعاء ، فتقوم أسواقهم بها ، ومنها كانت تُجلَب آلة الخَرْز والأَدَمُ والبُرود ، وكانت تُجلَب إليها من معافر[١] ، وهى مَعدِن البُرُود والحِبَر[٢] ثم يرتحلون إلى عُكاظ وذى المجاز فى الأشهر الحرم ، فتقوم أسواقهم بها ، فيتناشدون ويتحاجّون ويتحادّون ، ومن له أسير يسعى فى فدائه ، ومن له حكومة أرتفع إلى الذى يقوم بأمر الحكومة من بنى تميم ، وكان آخرهم الأقرع بن حابس ؛ ثم يقفون بعرفة ، ويقضون ما عليهم من مناسكهم ؛ ثم يتوجهون إلى أوطانهم .

وهذه الأسواق كانت تقوم طول السنة ، فيحضرها مَن قَرُب من العَرَب ومَن بَعُد . هذا حديثهم ، وهم هَمَل لا عزّ لهم إلا بالسؤدد ، ولا مَعقِل لهم إلاّ السّيف ، ولا حصون إلاّ الخيل ، ولا فخر إلاّ بالبلاغة .

ثم لمّا ملكوا الدُّور والقصور والجنان والأودية والأنهار والمعادن والقِلاع (٦)
والمُدُن والبلدان والسهل والجبل والبرّ والبحر ، لم يقعدوا عن شأوِ[٣] من تقدّم بآلاف سنين ، ولم يَعجزوا عن شىء كان لهم ؛ بل أَبَرُّوا عليهم وزادوا ، وأغربوا وأفادوا ؛ وهذا الحُكم ظاهر معروف ، وحاضر مكشوف ؛ ليس إلى ردّه سبيل ولا لجاحده[٤] ومنكِرِه دليل .

فليستحْيِ الجيهانى[٥] بعد هذا البيان والكشف والإيضاح ، بالإنصاف من القَذَع والسَّفَه اللّذين حَشا بهما كتابه ، وليرفع نفسه عما يَشين العقل ، ولا تقبله حُكّام العدل ؛ وصاحب العِلم الرصين ، والأدبِ المكين ؛ لا يسلّط

(١) فى الأصل : « معافير » والياء زيادة من الناسخ . ومعافر : مخلاف باليمن تنسب إليه الثياب المعافرية .

(٢) فى الأصل : « والحير » ؛ وهو تصحيف .

(٣) وردت هذه الكلمة فى الأصل هكذا : شا « و » والصواب ما أثبتنا .

(٤) « مجاحدة » ؛ وهو تحريف

(٥) فى الأصل : « الجانى » .

خصمه على عِرضه بلسانه ، ولا يستدعى مُرّ الجواب بتعرضه و يَرضَى بالميسور فى غالب أمره ؛ فإنّ العصبيّة فى الحق ربّما خذلتْ صاحبها وأسلمتْه ؛ وأبدت عورتَه ، واجتلبت مساءته[1] ؛ فكيف إذا كانت فى الباطل ونعوذ بالله أن نكون لفضل أمّة من الأمم جاحدين ، كما نعوذ به أن نكون بنقص أمّة من الأمم جاهلين . فإنّ جاحد الحقّ يدلّ من نفسه على مهانة ، وجاهل النقص يدل من نفسه على قصور ؛ فهذا هذا ؛ وفى الجملة المسلَّمة ، والدعوة المُرسَلة ، أنّ أهل البَرّ وأصحابَ الصَّحارى الذين وِطاؤهم الأرض ، وغِطاؤهم السماء ، هم فى العدد أكثر وعلى بَسيط الأرض أجوَل ، ومن الترفُّه والرفاهية أبعَد ، وبالحول والقوّة أعلَق وإلى الفكرة والفطنة أفْزَع[2] ، وعلى المصالح والمنافع أوقَع ، ومن المَخازى آنَف والقبائح أعْيَف ؛ وهذا للدّواعى الظاهرة ، والحاجات[3] الضروريّة ، والعلائق الحاضّة[4] على الأُلفة والمودّة ، والشدائد المؤذية ، والعوارض اللّازبة[5] ؛ ولهذا يقال : عيبُ الغِنى أنّه يورث البلادة ، وفضيلة الفقر أنّه يبعث الحيلة ؛ وهذا معنًى كريم ، لا يُقرّ به إلا كلُّ نَقّاب عليم .

(٧) وقال الجيهانىّ أيضا : ممّا يدل على شرفنا وتقدُّمنا وعزّنا وعلوّ مكاننا ، أنّ الله أفاض علينا النِّعَم ، ووسّع لدينا القِسَم وبوّأنا الجِنانَ والأرياف ، ونعّمنا وأترَفَنا . ولم يَفعل هذا بالعَرَب ، بل أشقاهم[6] وعذّبهم ، وضيّق عليهم وحرَمَهم ،

---

(١) « ماته » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى الأصل : « أفرع » .
(٣) فى الأصل : « والى الحاجات » وقوله « إلى » زيادة من الناسخ .
(٤) فى الأصل : « الحاضرة » والراء زيادة من الناسخ .
(٥) اللازبة ، أى الثابتة الشديدة .
(٦) « سقاهم » .

وجَمَعَهم فى جزيرة حَرِجة ، ورُقْعة صغيرة ، وسقام(١) بأرنَقَ ضاحٍ ؛ وبهذا يُعلَمَ أنّ المخصوص بالنعمة والمقصودَ بالكرامة فوق المقصود بالإهانة .

فأطال هذا البابَ بما ظَنّ أنّه قد ظَفِر بشيء لا جواب عنه ، ولا مقابل له ؛ ولو كان الأمر كما قال لما خفى على غيره وتجلَّى له ، بل قد خصت العرب بعد هذا بأشياء تطول حَسْرةُ(٢) من فاتته عليها ، ولا يفيد ألتفاتُه بالغيظ إليها ؛ وقد دلّ كلامُه على أنّه جاهل بالنعمة ، غافلٌ عمّا هو سرُّ الحكمة .

وعنده أنّ الجاهل إذا لبس الثوب الناعم ، وأكل الخبزَ الحُوّارَى(٣) وركِب الجواد ، وتقلّب على الحَشيّة ، وشَرِب الرحيق ، وباشَرَ الحسناء ، هو أشرف من العالِم إذا لبس الأطمار ، وطَعِم العُشْب ، وشَرِب الماء القَراح ، وتَوَسَّد الأرض ، وقنع باليسير ورخِيّ العيش ، وسلا عن الفُضول ؛ هذا خطأ من الرأى ، ومردود من الحُكم ، عند الله تعالى أوّلا ، ثم عند جميع أهل الفضل والحِجا ، وأصحابِ التّقى والنُّهَى ؛ وعلى طريقته أيضا أن البصير أشرفُ من الأعمى ، والغنيّ أفضل من الفقير .

ألا يَعلم أنّ المدار على العقل الّذى مَن حُرِمه فهو أنقص من كلّ فقير ، وعلى الدّين الذى من عَرِيَ منه فهو أسوأ حالاً من كلّ موسر ؛ ونعمة الله على ضربين : أحد الضربين عمّ به عبادَه ، وغمر بفضله خليقتَه ، بَدْءا بلا أستحقاق وذلك أنّه خَلَق ورَزَق وكفل وحفظ ونَعَش وكَلأ وحرس وأمهَل وأفضل ووَهَب وأجزل ؛ وهذا هو العدل المخلوطُ بالإحسان ، والتسويةُ المعمومة بالتفضّل

(١) وردت هذه الكلمة فى الأصل ساقطا منها الحرف الأخير ، وهو القاف ، وأرنق ، أى أكدر من رنق الماء من باب نصر وفرح إذا كدر . وضاح ، أى متعرض للشمس .
(٢) « حره » .
(٣) الحوارى : لباب الدقيق وخالصه .

والقدرةُ المشتملةُ على الحكمة ؛ والضرب الثانى هو الذى يُستحَقّ بالعمل والاجتهاد والسعى والارتياد ، والاختبار والاعتقاد ؛ ليكون جزاء وثوابا ، ولهذا حُرِم العاصىَ المخالِف ، وأنال الطائعَ الموافق ؛ فقد بان الآن أنّ المدار ليس بالجنان والترفُّه ، ولا بالذهب والفضّة ، ولا الوَبَرِ والمَدَر .

وقد مرّ[1] هذا الكلام كلّه فليَسكُن من الجَيهانىّ جأشُه ، وليفارقْه طيشُه ؛ وليعلمْ أنّ من أنصف أعطَى بيده ، وسلّم الفضلَ لأهله ؛ فإنّ التواضع للحقّ رفعة والترفع بالباطل ضَعة[2] .

(٨) وههنا بقيّة ينبغى أن يُتبصَّر فيها ؛ من عَرف النقص البحت ، والنقصَ المشوبَ بالزيادة ؛ والفضلَ الصِّرف ، والفضلَ الممزوجَ بالنقيصة لم يَجحد بالهوى المَغوِى فضلاً ، ولم يَدّعِ للعصبيّة المُرْدِيةِ شرفاً ، ولم يُنكِر بالحسد مزيّة ؛ والخَلق كلُّهم فى نعم الله تعالى مشتركون ، وفى أياديه مغموسون و بمواهبه متفاضلون ، وعلى قدرته متصرّفون ؛ و إلى مشيئته صائرون ، وعن حكمته مخبِرون ، ولآلائه ذاكرون ، ولنَعْمائه شاكرون ، ولأياديه ناشرون ، وعلى أختلاف قضائه صابرون ، ولثوابه بالحسنات مستحقّون ، ولعقابه بالسّيئات مستوجبون ، ولعفوه برحمته منتظرون ، والله خبيرٌ بما يعملون ، و بصير بما يُسِرّون وما يُعلِنون مع الجماعة ، وأبو سليمان يقول : العَرَب[3] أذهَبُ مع صفو العقل ؛ ولذلك هم[4] بذكر المحاسن أبْدَه ، وعن أضدادها أنْزَه . ولو كانت رَوِيّتُهم فى وزنِ بديهتهم ، كان الكمال ؛ ولكن لمّا عزّ الكمالُ فيهم ، عزّ

(١) « وقدم » .
(٢) « صنعة » .
(٣) « كقرب » .
(٤) فى الأصل : « لهم » واللام زيادة من الناسخ .

أيضا(١) فى غيرهم من الأمم ، فالأمم كلّها شَرْعٌ واحد فى عدم الكمال إلاّ أنّهم متفاضلون بعد هذا فيما نالوه بالخِلْقة الأولى ، وبالاختيار الثانى ؛ واختلفتْ أبصارهم فى هذا الموضع ، فأمّا ما مُنِعه الإنسانُ فى الأوّل فلا عَتْب عليه فيه ، لأنّه لا يقال للأعمى : لِمَ لا تكون بصيرا ، ولا يقال للطويل : لِمَ لا تكون قصيرا وقد يقال للقصير : سَدِّد طَرْفَك ، وأَكحُل عينَك ، ومُدَّ(٢) ناظرَك ؛ كما يقال للطويل : تَطامَنْ ، فى هذا الزُّقاق حتى تَدخل ، وتَقاصَرْ حتى تصِل ؛ وأما ما لم يُمنَعه الإنسانُ فى الأوّل ، بل أُعطِيَه ووُهِب له ، فهو فيه مطالَبٌ بما عليه وله كما أنّه مطالَب بما له وعليه .

وقال الجَيهانىُّ أيضا : ليس للعرب كتاب إقليدس ولا المجسطىّ ولا الموسيقى (٩) ولا كتاب الفلاحة ، ولا الطّبّ ولا العلاج ، ولا ما يجرِى فى مصالح الأبدان ، ويدخل فى خواصّ الأنفس .

فليَعلَمِ الجَيهانىُّ أنّ هذا كلَّه لهم بنوعٍ إلٰهىّ لا بنوع بَشَرىّ ، كما أنّ هذا كلَّه لغيرهم بنوعٍ بَشرىّ لا بنوعٍ إلٰهىّ ، وأعنى بالإلٰهىّ والبَشرىّ الطّباعىّ والصناعىّ ؛ على أن إلٰهىّ(٣) هؤلاء قد مازجه بشرىُّ هؤلاء ، وبَشرىّ هؤلاء قد شابَهُ إلٰهىُّ هؤلاء ؛ ولو علم هذا الزارى لَعَلِم أن المجسطى وما ذكره ليس للفُرس أيضا ، وما عندى أنّه مُكابِر فيَدّعىَ هذا لهم . فإن قال : هو لليونان ، ويونانُ من العَجَم ، والفُرسُ من العَجَم ، فأنا أُخرِج(٤) هذه الفضيلة من العَجَم إلى العَجَم فهذا منه حَيْفٌ على نفسِه ، وشهادةٌ على نقصِه ؛ لأنّه لو فاخر يونانَ لم يستطع أن

(١) رسمت هذه العبارة فى الأصل هكذا : « عزا يصا » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى الأصل : « وقد » بالقاف ؛ وهو تحريف وما أثبتناه أولى بالسياق .
(٣) فى الأصل : « للعى » ؛ وهو تحريف .
(٤) فى الأصل : « أجرح » ؛ وهو تصحيف .

يدّعيَ هذا للفُرس ، ولا يمكنه أن يقول : نحن أيضا عَجَم ، وفضيلتكم فى هـذه الكتب والصناعة متّصلةٌ بنـا ، وراجعةٌ إلينا . ومتى قال جُبِهَ[1] بالمكروه وقوبل بالقَذْع[2] ، وقيل له : صه ، [3] كما يقـال للجاهل — إن لم تقل له : « اخسأ » ، كما يقال — فى كل[4] الأحاديث ، وإن أغفلتُه[5] ظلمتُ نفسى ؛ ومن حابى خصمَه غُلِب .

(١٠) قال القـاضى أبو حامد المَرْوَرُّوذِيّ[6] : لو كانت الفضائل كلُّها بِعِقْدِها وسِمْطِها ، ونظمِها ونثرها ، مجموعةً للفُرس ، ومصـبوبةً على أرؤسهم ، ومعلَّقةً بآذانهم ، وطالعةً من جِباهِهم ؛ لكان لا ينبغى أن يذكروا شأنَها ، وأن يَخرَسوا عن دِقّها وجِلّها ، مع نيكهم الأمهات والأخوات والبنات فإن هذا شىء كريهٌ بالطباع ، وضعيف بالسَّماع ، ومردود عنـد كل ذى فِطرة سليمة ، ومستبشع فى نفس كل من له جِبِلّة[7] معتدلة . قال : ومن تمـام طغيانهم ، وشدّة بهتانهم ، أنّهم زعموا أن هذا بإذن من الله تعالى ، وبشريعة أتت من عند الله ، والله تعالى حرّم الخبائثَ من المطعومات فـكيف حَلَّلَ[8] الخبائث من المنكوحات ؟

(١) لم يظهر من هذه الكلمة فى الأصل غير الباء والهاء والسياق يقتضى ما أثبتنا .
(٢) القذع : الشتم والرمى بالفحش وسوء القول .
(٣) فى الأصل : « تأكل » وهى زيادة لا معنى لها .
(٤) فى « كل » وهو تحريف لا يستقيم معناه .
(٥) « أعقلته » بالعين والقاف ؛ وهو تصحيف .
(٦) هو القاضى أبو حامد أحمد بن بشر البصرى المروروذى ، كان عالما بفنون العلوم الدينية والأدبية . قال فيه أبو حيان : « كان بحرا يتدفق حفظا للسير ، وقياما بالأخبار ، واستنباطا للمعانى ، وثباتا على الجدل وصبرا فى الخصام » . وكان يقول فيه : « إنه أنبل من رأيته فى عمرى » . توفى سنة ٣٦٢ .
(٧) « لـكيم » ؛ وهو تحريف لا معنى له ، وسياق الكلام يقتضى إثبات ما يفيد معنى الجبلة كما أثبتنا وإن كان بعيداً من الرسم الموجود فى الأصل .
(٨) « على » .

قال : وكذَب القوم ، لم يكن زَرادشت نبيًا ، ولو كان نبيًا لذكره الله تعالى فى عرض الأنبياء الّذين نوّه بأسمائهم وردّد ذكرهم فى كتابه ، ولذلك قال النبى صلّى الله علَيه وسلم : « سُنّوا بهم سُنّةَ أهل الكتاب » لأنّه لا كتاب لهم من عند الله منزّل على مُبلِّغ عنه . وإنّما هو خرافة خدعهم بها زرادشتُ بقوّة المَلِك الّذى قَبِل ذلك منه وحَمَلَ الناسَ عليه طوعا وكَرها ، وتَرغيبا وترهيبا ؛ وكيف يبعث الله نبيا يدعو إلى إلٰهين أثنين ؟ وهذا مستحيل بالعقل ، وما خلق الله العقلَ إلاّ ليشهد بالحق للمُحِقّ والباطل للمُبطِل ؛ ولو كان شرعا لكان ذلك شائعا عند أهل الكتابين ، أعنى اليهودَ والنصارى ؛ وكذلك عند الصابئين ، وهم كانوا أكثر الناس عنايةً بالأديان والبحث عنها ، والتوصّل إلى معرفة حقائقها ، ليكونوا من دينهم على ثقة ؛ فكيف صارت النصارى تَعرف عيسى ، واليهود تعرف موسى ؛ ومحمدٌ — صلى الله عليه وسلم — يذكرهما ويذكر غيرَهما ، كداود وسليمان ويحيى وزكريّا ، وغيرَ هؤلاء ، ولا يَذكر زرادشتَ بالنبوّة وأنّه جاء من عند الله تعالى بالصدق والحق كما جاء موسى وعيسى . . . . . .[1] لكنّى بُعثتُ ناسخا لكلّ شريعة ، ومجدِّدا لشريعة خصّنى الله بها من بين العرب .

قال : وهذا بيانٌ نافع فى كذبهم ؛ وإنما جاءوا إلى وَهْمِي فرقعوه ، وإلى حرامٍ بالعقل فأباحوه ، وإلى خَبيثٍ بالطبع فارتكبوه وإلى قبيحٍ فى العادة فاستحسَنوه .

وقد وجدنا فى البهائم ما إذا أُنزِيَ الفحلُ منها على أمّه لم يطاوِع ، وإذا أُكرِه وخُدِع وعَرَف غضب على أهله ونَدَّ عنهم ، وشَرَّرَ عليهم ؛ فما تقول فى خُلُق لا ترضاه البهيمة ، ولا تطاوِعه[2] فيه الطبيعة ، بل يأباه حسّه مع كُلُولِه[3]

(١) يلاحظ أن موضع هذه النقط كلام ساقط من الأصل فيما يظهر لنا .
(٢) تطاوعه ، أى تطاوع الفحل .
(٣) وردت هذه الكلمة فى الأصل هكذا : « ككوكه » ؛ وهو تحريف .

وتبرُد شهوتُه مع اشتعالها ، ويرضاه هؤلاء القومُ مع عُجْبِهم بعقولهم ، وكِبْرِهم في أنفسهم .

ولو كان زرادشت أقام لهم على هذه الخَصلة اللّئيمة والفَعْلة الذميمة كلّ آية وكلّ برهان ، ونثر عليهم نجومَ السماء ، وأطلَعَ لهم الشمس من المغرب ، وفتّت لهم الجبال ، وغَيّض لهم البحار ، وأراهم الثّريّا تمشى على الأرض تخترق السِّكَك وتشهد له بالصدق ، لكان من الواجب بالعقل وبالغَيْرَة وبالحَمِيّة وبالأَنَفة وبالتقزّز وبالتعزّز ألاّ يجيبوه إلى ذلك ، ويشكّوا في كل آية يرون منه ، ويقتلوه ، ويُنَكّلوا به .

ولكن بمثل هذا العقل قبلوا من مَزْدَكَ ما قبلوه مرّة ، ولو عاملوا زرادشت بما عاملوا به مزدكَ ما كان الأمر إلا واحدا ، ولا كان الحقّ إلا منصورا ، ولا كان الباطلُ إلا مقهورا ، ولكن اتّفق على مزدكَ ملِك عاقل فوَضَع باطله ، واتفق لزرادشتَ ملِك ركيك فرَفَع باطله ؛ وما نَزَع الله عنهم المُلك إلاّ بالحق ، كما قال تعالى : (فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ) . ثم قال : وبعدُ ، فكلّ شيء خارج من الحكمة الإلٰهيّة والعقليّة والطبيعيّة فهو ساقطٌ بَهْرَج ، ومردودٌ مرذول ، إذا فعله جاهل عُذِر بالجهل ، وإذا أتاه عالم عُذِل للعِلم .

قال : وكانت العرب بهذا الخُلُق الذميم ، وهذا الفعل اللئيم ، لو فعلته أعذَرَ ، لأنّهم أشدّ غُلْمة من غيرهم وأكثرُ تهيّجا ، وأقوى على البِضاع ، وأوثَبُ على النساء يدلّك على هذا غزَلُهُم وعشقُهم ونظمُهم ونثرهم وفراغُهم وشهوتُهم ، وتراهم مع هذه الدواعى والبواعث لم يستحسنوا هذا ولم يفعلوه ، ولو أكرههم على هذا مكرِه ودعاهم إليه داع لما أطاعوه ، ولذلك لم يَنتجِمْ منهم ناجم بالحيلة

فدعا إلى هذا ؛ ولو كان لكان أوّلَ مَنْ دُقّ رأسُه بالعَمَد ، وبُعِج بطنُه بالخَنْجر ؛ وما منعهم من هذا إلاّ الأنفس الكريمة ، والطباع المعتدلة ، والشكائم الشديدة ، والأرواح العيِّفة ، والعادات الرضيّة ، والضرائب الطيّبة ؛ وكان وأْدُ البنات عندهم أنفَى للمعاير ، وأطرَدَ للقبائح من هذا الّذى استحسنه زرادشت وقَبل منه الفُرس ، وهم يدّعون الحُكم والعِلم والحَزم والعزم ، ولفرط جهلهم وغلبة شهوتهم غفَلوا عمّا يجوز أن يكون الله سبحانه مبيحا له أو حاظرا ، أو مطلِقا أو مانعا ، أو محلّلا أو محرّما ؛ هيهات ما كلّف اللهُ أهلَ العقل القيامَ بالدّين والتّصفّحَ للحقّ[1] من الباطل إلاّ لما شرّفهم به فى العاجل ، وعرّضهم له فى الآجل ؛ والعاقبة للمتّقين .

قال أبو الحسن الأنصارىّ[2] — وكان حاضرا — الهند أوضح عذرا فى هذا الحديث لأنّهم جعلوه من باب القُربة فى بيوت الأصنام ، و بلغوا مرادَهم بهذه الخديعة ، ولم ينسبوا إلى الله شيئا منه ، ولا استجازوا الكذبَ عليه ، ولا علّقوه أيضا على نبىّ من عند الله ، بل رأوه صوابا بالوضْع[3] ثم طابت أنفسهم من هذا الفعل بالمران والعادة . و بعد ؛ فعقولهم مدخولة ، والبارع منهم قليل ، وهم إلى الإفْك[4] والوهم والسّحر أميَل ، وفى أبوابها أدخَل ؛ ثم قال أبو الحسن : انظر إلى جهل زرادشت فى هذا الحُكم و إلى ضعف عقول الفُرس فى قبولهم منه هذا

---

(١) « بالحق » بالباء ، والسياق يقتضى اللام كما أثبتنا .

(٢) كذا بالأصل ولعله الأنطاكى ، فإنّا لم نجد فيما بين أيدينا من الكتب من يلقب بالأنصارى . وأبو الحسن الأنطاكى هو أبو القاسم على بن أحمد أصله من أنطاكية ونزل بغداد، وكان مهندسا حاسبا له مشاركة فى علوم الأوائل مع فصاحة لسانه وعذوبة بيانه . مات ببغداد سنة ٣٧٦ .

(٣) « لوضع » ولعل صوابه ما أثبتنا .

(٤) « الفكر » ؛ وهو خطأ من الناسخ .

الفعل ، وخيّرْ بينها و بين عقول العرب ، فإنّهم قالوا : « اغتربوا لا تُضْوُوا(١) » . وأستفاض هذا منهم حتى سُمِعَ من صاحب الشريعة صلّى الله عليه وسلّم ، وذلك أنّ الضَّوَى مكروه ؛ والعرب قالت هذا بالإلهام ، لقرائحهم الصافية ، وأذهانهم الواقدة ، وطينتهم الحرّة ، وأعراقهم الكريمة ، وعاداتهم السليمة : و إنّما شعروا بهذا لأن الضوَى الواصلَ إلى الأبدان هو سارٍ في العقول ، ولكن الفُرس عن هذا السرّ غافلون ، ولا يفطن لهذا وأمثالِهِ إلا الألمعيّون الأحوذيّون(٢) ؛ ثم قال : أنشد الأصمعيُّ عن العرب قولَ قائلهم في مدح صاحب له :

فتًى لم تلده بنتُ عمٍّ قريبـــةٌ فيَضوَى وقد يَضوَى رَديدُ الأقاربِ

قال : وقالت العرب : « أضواه حقَّه » : إذا نقصه . قال : وقال آخَر لولده : والله لقد كفيتك الضُّؤولة ، وأخترتُ لك الخؤولة .

وقال أيضا : العرب تقول : « ليس أضوى من القرائب ، ولا أنجبَ من الغرائب » وقال الشاعر :

أنذرتُ من كان بعيدَ الهمّ تزويجَ أولادِ بنـــاتِ العمّ
ليس بناجٍ من ضَوًى أو سُقمِ وأنت إن أطعمتَه لا يَنمِى

وقال الأسديّ يفتخر :

ولستُ(٣) بضاويٍّ تموج عظامُه ولادته في خالد بعـــد خالد
تردَّد(٤) حتى عمّه خال أمه إلى نسب أدنى من السر واحد

(١) اغتربوا لا تضووا ، أى تزوجوا فى بعاد الأنساب لا فى الأقارب لئلا تضوى أولادكم أى تنحف وتضعف .
(٢) الأحوذى : الحاذق المشمر للأمور القاهر لها لا يشذ عليه شيء . وفى الأساس : « رجل أحوذى » : يسوق الأمور أحسن مساق لعلمه بها .
(٣) فى الأصل : « وكنت » ، وهو تحريف ؛ ومقام الفخر يقتضى ما أثبتنا .
(٤) فى الأصل : « تردده » والهاء زيادة من الناسخ .

ثم قال : والعرب لم تُرِد بهذا إلا نقص الذهن والعقل ، لأنّها لو أرادت نقصان الجسم لكانت مخطئة ، لأنّهم يريدون سَمانة الجسم مع السلامة والصلابة .
ثم قال : وعلى هذا طباع الأرض ، ولذلك يقال : إذا كثرت المؤتفكات[١] زكت الأرض ، لأنّ الرياح إذا اختلفتْ حوّلتْ تراب أرضٍ إلى أرض ، وإذا كان الأغتراب يؤثّر من التراب إلى التراب ، فبالحرِيّ[٢] أن يؤثّر[٣] الإنسان فى الإنسان بالاغتراب ، لأن الإنسان أيضا من التراب .

قال أبو حامد : فما ظنّك بقوم يجهلون آثار الطبيعة ، وأسرار الشريعة[٤] ؟ ما أذلّهم الله باطلا ، ولا سلبهم مُلكَهم ظالما ، ولا ضربهم بالخِزى والمهانة إلاّ جزاءً على سيرتهم القبيحة ، وكذبِهم على الله بالجرأة والمكابَرة ، وما الله بظلام للعبيد .

(١١ فلما بلغ القول مداه قال[٥] : لله[٦] [دَرُّ][٧] هذا النَّفَس الطويل والنَّفْث الغزير ! لقد كنتُ قَرِما إلى هذا النوع من الكلام ، ففرِّغ نفسَك لرسمه فى جزء لأنظر فيه ، وأُشربَ النفسَ حلاوته ، وأستنتجَ العقيمَ منه ؛ فإنّ الكلام إذا مرّ بالسمع حلّق ، وإذا شارَفَه البصر بالقراءة من كتاب أسَفّ ؛ والمحلّق بعيد المَنال ، والمُسِفّ حاضر العين ، والمسموع إذا لم يملكه الحفظ

(١) المؤتفكات : الرياح التى تقلب الأرض ؛ أو التى تختلف مهابها .
(٢) فى الأصل : « فيه لجرى » وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .
(٣) فى الأصل : « يوحش » ؛ وهو تحريف .
(٤) ورد فى الأصل بعد قوله : « الشريعة » قوله « من الشريعة » وهى زيادة من الناسخ لا تتسق مع الكلام .
(٥) أى الوزير .
(٦) « الله » والألف زيادة من الناسخ .
(٧) موضع هذه الكلمة فى الأصل حرفان مطموسان ؛ وسياق الجملة يقتضى ما أثبتنا .

تذكّرَ منه الشيء بعد الشيء بالوهم الذى لا أنعقاد له ، والخيالِ الّذى لا معرّج عليه . فقلتُ : أفعل سامعا مطيعا — إن شاء الله — .

الليلة السابعة

(١) ولما عدتُ إليه فى مجلس آخر ، قال : سمعتُ صياحك اليوم فى الدار مع ابن عبيد ، ففيم كنتما ؟ قلتُ : كان يذكر أن كتابة الحساب أنفعُ وأفضل وأعلق بالمُلك ، والسلطان إليه أحوَج ، وهو بها أغنَى مِن كتابة البلاغة والإنشاء والتحرير ، فإذا الكتابة الأولى جِدّ ، والأخرى هزل ؛ ألا ترى أنّ التشادُق والتفيهُق والكذبَ والخداعَ فيها أكثر ؛ وليس كذلك الحسابُ والتحصيل والاستدراك والتفصيل . قال : وبعد هذا فتلك صناعة معروفة بالمبدأ ، موصولة بالغاية ، حاضرة الجدوَى ، سريعة المنفعة ؛ والبلاغة زَخرفة وحيلة ، وهى شبيهة بالسّراب ، كما أن الأخرى شبيهة بالماء . قال : ومن خساسة البلاغة أنّ أصحابها يُسترقَعون ويُستحمَقون ؛ وكان الكتّاب قديما فى دُور الخلفاء ومجالس الوزراء يقولون : اللهم إنا نعوذ بك من رَقاعة المنشئين ، وحماقةِ المعلّمين ، وركاكةِ النحويّين ، والمنشئُ والمعلّمُ والنحويُّ إخوة وإن كانوا لعَلّات ؛ والآفة تشملهم والعادة تجمعهم ، والنقص يغمرهم ، وإن اختلفت منازلهم ، وتباينتْ أحوالهم
قال : ولو لم يكن من صنعة الإنشاء إلا أنّ المملكةَ العريضة الواسعة يُكتفَى فيها بمنشئٍ واحد ، ولا يُكتفَى فيها بمائة كاتِب حساب ....[1] وإذا كانت الحاجةُ إلى هذه أمسّ ، كانت الأخرى فى نفسها أخسّ ؛ وبعد ، فصالح أحوال

(١) لم يرد جواب « لو » للعلم به ، أى لكفى كتابة الحساب فخرا على كتابة الإنشاء ، أو ما يفيد هذا المعنى .

العامّة والخاصّة معلّقة بالحساب ؛ على هذه الجَدِيلة[1] والوتيرة يجرى الصغار والكبار والعِلْيَة والسِّفْلة ، وما زال أهل الحزم والتجارب يحثّون أولادهم ومن لهم به عناية على تعلّم الحساب ، ويقولون لهم : هو سلّة الخبز . وهذا كلام مستفيض ؛ ومن عبّر عما فى نفسه بلفظ ملحونٍ أو محرّف أو موضوع غيرَ موضعِه وأفهم غيرَه ، وبلغ به إرادته ، وأبلغ غيرَه ، فقد كَفَى ؛ والزائد على الكفاية فضل والفضل يُستغنَى عنه كثيرا ، والأصل يُفتقَر إليه شديدا ، قال : ومن آفات هذه الكتابة أن أصحابها يُقرَفون بالريبة ، ويُرمَون بالآفة ، كآل الحسن بن[2] وهب وآل ابن ثَوَابة . قال : هذه ملحمة منكَرة ؛ فما كان من الجواب ؟

(٢) قلتُ : ما قام من مجلسه إلا بعد الذلّ والقَماءة ، وهكذا يكون حال من عاب القمر بالكلَف ، والشمسَ بالكسوف ، وأنتحل الباطل ونصر المبطِل ، وأبطل الحقّ وزرى على المحقّ . قلت : أيها الرجل ، قولك هذا كان يسلَّم لو كان الإنشاء والتحرير والبلاغة بائنةً من صناعة الحساب والتحصيل والاستدراك وعمل الجماعة وعقد المؤامرة[3] . فأمّا وهى متّصلة بها وداخلة فى جملتها ومشتملة عليها وحاوية لها ، فكيف يطّرد حُكْمُك وتسلم دعواك ؟ ألا[4] تعلم أن أعمال

---

(١) الجديلة : الشاكلة ؛ يقال : عمل على جديلته ، أى على شاكلته .

(٢) يشير بهذه العبارة إلى ما فعله الواثق بالله مع الحسن بن وهب كاتبه ، فقد حبسه وأغرمه أربعة عشر ألف دينار ، كما حبس كتابا آخرين وقبض منهم أموالا جمة ، وذلك فى سنة تسع وعشرين ومائتين . وإلى نكبة أبى الهيثم بن ثوابة سنة ثلاث وثلاثمائة ، فقد حبس حتى مات فى حبسه بالكوفة بعد أن أخذ منه إسحاق بن عمران أموالا جزيلة لنفسه وللسلطان . ويقال : إنه احتال على قتله خشية أن يقر عليه بما أخذ منه .

(٣) المؤامرة : عمل تجمع فيه الأوامر الخارجة فى مدة أيام الطمع ، ويوقع السلطان فى آخره بإجازة ذلك ؛ وقد تعمل المؤامرة فى كل ديوان تجمع جميع ما يحتاج إليه من استئمار واستدعاء توقيع .

(٤) فى الأصل : « الا أن تعلم » « وأن » زيادة من الناسخ .

الدواوين التى ينفرد أصحابها فيها بعمل الحساب فقيرة إلى إنشاء الكتب فى فنون مايصنفونه ويتعاطَونه ؛ بل لاسبيل لهم إلى العمل إلاّ بعد تَقدِمة هذه الكتب التى مدارها على الإفهام البليغ والبيانِ المكشوف والاُحتجاجِ الواضح ، وذلك يوجد من الكاتب المنشئ الذى عِبتَه وعَضضته[١] ، وهذه الدواوين معروفة ، والأعمال فيها موصوفة ؛ وأنا أحصيها لك كى تعلم أنّك غالط وعن الصواب فيها منحرف .

فنها ديوان الجيش ، وديوان بيت المال ، وديوان التوقيع والدار ، وديوان الخاتَم ، وديوان الفَضّ[٢] ، وديوان النَّقد والعيار ودُورُ الضَّرب ، وديوان المَظالم وديوان الشرطة والأحداث ؛ هذا إلى توابع هذه الدواوين مثل باب العين[٣] والمؤامرات ، وباب النوادر[٤] والتواريخ ، وإدارة الكتب ومجالس الديوان وقَبْل وبَعد ، كما[٥] يلزم كاتب الحساب أن يعرف وجوهَ الأموال[٦] حتى إذا جباها وحصّلها عمل الحساب أعماله فيها ، فلا يُمْكنه[٧] أن يَجْبِيَ[٨] إلاّ بالكتب البليغة والحججِ اللازمة واللطائف المستعملة ، ومن تلك الوجوه الفَىء ، وهو أرض العَنْوة وأرضُ الصلح وإحياء الأرض والقطائعُ والصفايا والمقاسَمة والوضائع

(١) يقال : عضه بلسانه ، إذا تناوله بمكروه الكلام .

(٢) فى الأصل : « الفص » بالصاد المهملة ؛ وهو تصحيف ، والمراد بالفض : فض الكتب المختومة .

(٣) يريد بالعين : خراج العين ، وهو مايقرر على البساتين والشجريات والكروم والمقاثئ ويستخرج على حكم الضريبة عند إدراك كل صنف . وكان هذا فى البلاد الشامية . انظر الجزء الثامن من نهاية الأرب ص ٢٦١ طبع دار الكتب المصرية .

(٤) لعل صوابه : « التقادير » أى تقادير ما تخرجه الأرض من غلة .

(٥) « فا » .

(٦) فى الأصل : « الأعمال » وهو خطأ من الناسخ ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه قوله بعد : « حتى إذا جباها » .

(٧) فى الأصل : « فيمكنه » . والسياق يقتضى زيادة « لا » النافية .

(٨) « يجىء » .

وجزيةُ رءوس أهل الذمّة وصدَقاتُ الإبل والبقر والغنم وأخماسُ الغنائم والمعادن والركاز(١) والمالِ المدفون ، وما يخرج من البحر وما يؤخذ من التجار إذا مرّوا بالعاشر(٢) واللُّقَطة والضالّة وميراث من لا وارث له ومال(٣) الصدقة ؛ إلى غير ذلك من الأمور المحتاجة إلى المكاتبات البالغة على الرسوم المعتادة والعادات الجارية ، كعهد يُنشأ فى إصلاح البريد وتقسيط الشرب ، وكتاب فى العمارة وإعادة ما نقصَ منها ، وفى(٤) حَزْرِ الغَلّة(٥) والدّياس(٦) ، وفى الدّوالى والدواليب والفرّافات ، وفى القلب والقسمة ، وفى تقدير الخُضَر(٧) المبكّرة وفى المساحة وفى الطراز(٨) ، وفى الجوالى(٩) ، وفى قبض فرائض الصدقات ، وفى أفتتاح الخَراجات ، إلى غير ذلك من كُتُب(١٠) المحاسبين .

فإن قلت : « هذا كلّه مستغنًى عنه » كابرتَ وبهَتَّ ، لأن مدار المال ودُروره ، وزيادتَه ووفورَه على هذه الدواوين التى إما أن يكون حظّ البلاغة فيها أكثر ، وإمّا أن يكون أثر الحساب فيها أظهر ، وإما أن يتكافآ ؛ فعلى جميع الأحوال لا يكون الكاتب كاملا ، ولا لأسمه مستحقا ، إلا بعد أن يَنهض

(١) الركاز ، هو دفين الجاهلية من الأموال .
(٢) العاشر ، هو الذى يأخذ منهم عشر ما معهم .
(٣) « وفى مال » .
(٤) فى الأصل « فى » بسقوط واو العطف ؛ والسياق يقتضى إثباتها .
(٥) فى الأصل « حرز العلم » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين لايستقيم معناه ؛ والصواب ما أثبتنا . والحزر : التقدير بالظن .
(٦) دياس الحنطة : دراستها .
(٧) « الحصر » .
(٨) الطراز : مقسم الماء فى النهر كما ذكره صاحب مفاتيح العلوم فى الكلام على مصطلح كتّاب ديوان الماء . ثم قال : وتسمى مقاسم المياه فى بلاد ما وراء النهر : الدرقات والمزرقات .
(٩) يريد بالجوالى : مال الجوالى ، وهو الجزية المضروبة على أهل الذمة ، والجوالى هم الذين جلوا عن أوطانهم .
(١٠) « كسوة » .

بهذه الأثقال ، ويجمع إليها أصولا من الفقه مخاوطة (١) بفروعها ، وآيات من القرآن مضمومةً إلى سمته(٢) فيها ، وأخبارا كثيرة مختلفة فى فنون شتّى لتكون عُدّة عند الحاجة إليها ، مع الأمثال السائرة والأبيات النادرة ؛ والفِقَر البديعة ؛ والتجارب المعهودة ، والمجالس المشهودة ، مع خطّ كتبر مسبوك ، ولفظٍ كوشيٍ محُوك ؛ ولهذا عزّ الكامل فى هذه الصناعة ، حتى قال أصحابنا : ما نظنّ أنّه اُجتمع هذا كله إلاّ لجعفر بن يحيى فإن كتابته كانت سواديّة ، و بلاغته سَحبانيّة ، وسياستَه يونانيّة ، وآدابه عربية(٣) ، وشمائلَه عراقيّة ؛ أفلا ترى كيف غرِق الحساب فى غِمار هذه الأبواب ؟ ثم اعلم أن البليغ مُشْتَمِلٍ بلاغتَه من العقل ، ومأخذه فيها من التمييز الصحيح ، وليس كذلك الحسابُ فى متناوَلِه [فلو(٤)] ظنّ ظانٌّ بأن مدار المُلك على الحساب — [فهو(٤)] صحيح — ولكن بعد بلاغة المنشئ ، لأن السلطان يأمر وَينهَى و يلاطِف و يخاطِب ويحتجّ و ينصف و يوعِد و يعد ويَضمن و يمنّى و يعلّق الأمل و يؤكّد الرجاء و يحسم المادّة الضارّة و يذيق الرعيّة حلاوة العدل و يجنّبهم مرارة الجور ، ثم يجبى ، فإذا جبى اُحتاج إلى الحساب حتى يكون بالحاصل عالما ، ثمّ يتقدّم بتوزيع ذلك على الحسّاب حتّى يكون من الغلط آمنا ، فانظر إلى المنزلتين كيف اُختلفتا ؟ وكيف حصلت المزيّة لإحداهما ؛ ولو أنصفتَ لعلمتَ أنّ الصناعة جامعة بين الأمرين ، أعنى الحساب والبلاغة ؛ والإنسان لا يأتى إلى صناعة فيشقّها نصفين و يُشرّف(٥) أحد النصفين على الآخر .

(١) « مخطوطة » .
(٢) إلى سمته فيها ، أى إلى تبحره فى فهمها .
(٣) « عقلية » .
(٤) هاتان الكلمتان اللتان تحت هذا الرقم ليستا بالأصل ؛ والسياق يقتضى إثباتهما أو إثبات ما يؤدّى معناهما .
(٥) « يسرف » .

وأما قولك : « إحدى الصناعتين هزلٌ والأخرى جِدّ » فبئسما سوّلَتْ لك نفسك على البلاغة ، هى الجِدّ ، وهى الجامعة لثمرات العقل ، لأنّها تُحِقّ الحقّ وتُبطِل الباطل على ما يجب أن يكون الأمرُ عليـه ؛ ثم تحقيق الباطل و إبطال الحقّ لأغراض تختلف ، وأغراض تأتلف ، وأمورٍ لا تخلو أحوال هذه الدنيا منها من خير وشرّ ، و إباء و إذعان ، وطاعةٍ وعصيان ، وعدلٍ وعدول[1] ، وكفر و إيمان ، والحاجة تدعو إلى صانع البلاغة وواضعِ الحكمة وصاحبِ البيان والخَطابة ؛ وهذا هو حدّ العقل والآخَر حدّ العمل .

وأما قولك : « الإنشاء صناعة مجهولة المبدإ ، والحساب معروف المبدإ » فقد خَرِفتَ[2] ، لأنّ مبدأها من العقل ، وممرّها على اللفظ ، وقرارها فى الخطّ ؛ وأنت إذا قلتَ هذا دَللتَ من نفسك على أنَّه ليس لك [ما] [3] تبصر[4] به هذا المبدأ الشريف وهذا الأوّل اللطيف .

وأما قولك : « والبلاغة زخرفة وهى شبيهة بالسراب » فقد أوضحنا لك فيه ما كفى ، فإن لم يكف فأنت محتاج إلى بيّنة أخرى .

وأما قولك : « إن أصحابها يُسترقَعون » فهذا شَنعٌ من القول ، ولو عرفتَ الصِّدق[5] فيه لم تَنبِس به ولم تنطق بحرف منـه ، فإن فيه زِرايةً على السلف الصالح والصدر الأوّل ، ولو وجب أن يُسترقَع البليغ إذا كان عاقلا ، لوجب أن يُستعقَل العَيِىّ[6] إذا كان أحمق ؛ وهذا خُلف .

(١) يريد بالعدول : الجور ، من عدل عن الطريق عدولا إذا نكب عنه وانحرف .
(٢) « صدقت » .
(٣) هذه الـكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضيها .
(٤) « تنصر » .
(٥) « الصرف » .
(٦) « الغبى » .

وأما قولك : « المنشئ والمعلم والنحوي إخوة فى الركاكة » فما يتعلم الناس إلا من المعلم والعالم والنحوي وإن ندر منهم واحد قليل البضاعة من الحق .

وأما قولك : « إن المملكة تكتفى بمنشئ واحد » فقد صدقت ، وذلك أن هذا الواحد فى قوته يفى بآحاد كثيرة ، وهؤلاء الآحادُ ليس فى جميعهم وفاء بهذا الواحد ، وهذا عليك لا لك . لكن بقى أن تفهم أنك محتاج إلى الأساكفة أكثر مما تحتاج إلى العطارين ، ولا يدل هذا على أن الإسكاف أشرفُ من العطار ، والعطارُ دون الإسكاف ؛ والأطباء أقل من الخياطين ، ونحن إليهم أحوج ، ولا يدل على أن الطبيب دون الخياط .

وأمّا قولك : « ما زال الناس يحثون أولادهم على تعلم الحساب ويقولون : « هو سلّة الخبز » فهو كما قلتَ ، لأن الحاجة إليه عامّة للكبار والصغار ؛ وأشرف الصناعات يَحتاج إليها أشرفُ الناس ، وأشرف الناس الملِك ، فهو محتاج إلى البليغ والمنشئ والمحرِّر ، لأنه لسانه الذى به يَنطِق ، وعينُه التى بها يُبصِر ، وعَيبتُه التى منها يَستخرج الرأى ويَستبصر فى الأمر ، ولأنه بهذه الخاصّة لا يجوز أن يكون له شريك ، لأنه حامل الأسرار ، والمحدِّث بالمكنونات ، والمُفضَى إليه ببنات الصدور .

وأما قولك : « من عبّر عما فى نفسه بلفظ ملحون أو محرّف وأفهمَ غيرَه فقد كفى » فكيف يصح هذا الحكم ويُقبَل هذا الرأى ؟ والكلام يتغيّر المراد فيه باختلاف الإعراب ، كما يتغيّر الحكم فيه باختلاف الأسماء ، وكما يتغيّر المفهوم باختلاف الأفعال ؛ وكما ينقلب المعنى باختلاف الحروف ؛ ولقد قال رجل بالرَّىّ كان نبيلا فى حاله جليلا فى مرتبته عظيما عند نفسه : « اُقعد حتى تتغذّى بنا » . وهو يريد : « حتى تتغذى معنا » ؛ فانظر إلى هذا المُحال الذى ركبه بلفظه

وإلى المراد الذى جانَبَه بجهله ؛ ولهذا نظائر غيرُ خافية عليك ولا ساقطةٍ دونك وكفى بالبلاغة شرفاً أنّك لم تستطع تهجينَها إلاّ بالبلاغة ، ولم تهتد إلى الكلام عليها إلا بقوّتها ؛ فانظر كيف وجدتَ فى أستقلالها بنفسهــا ما يُقِلّها ويُقِلّ غيرَها ؛ وهذا أمر بديع وشأنٌ عجيب .

وأمّا قولك : « ومن آفاتها أنّ أصحابها يُقْرَفون بالريبة ويُنالون بالعيب » فهذا ما لا يستحقّ الجواب ، وما يضرّ الشمسَ نُباحُ الكلاب ؛ وصيانة اللّسانِ عن هذا النوع أحسن ؛ قال الله تعـالى : (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) ؛ وقال عمر بن الخطّاب — رضى الله عنه — لو كان المرء أقومَ من قِدْحٍ لوُجِد له غامز . وآل أبنِ وهب وأبن ثوابة كانوا أنبل وأفضل وأعقل من أن يُظنّ بهم ما لا يُظنّ بخساس العبيد وسفهاء الناس وداصة[1] الرعيّة وسِفْلةِ العامّة ؛ على أنّا ما سمعنا هذا إلاّ فى مجلس أبن عبّاد ، منه وممّن كان يَخبِط[2] فى هواه ، ويتحرّى بمثل هذه الأحاديث رضاه ؛ وحسدُه لهم فى صناعتهم يبعثه على هــذه الأكاذيب عليهم ؛ فالعجب أنه يظن أن كذبه على غيره ينفى الصدق عن نفسه ؛ ولو نزّه[3] لسانَه ومجلسَه ومذهبه وأبوّتَه لكان أولى به وأزينَ له ، ولـكن النعمةُ والقدرة إذا عَدِمتا عقلا سائسا وحزما حارسا ودينا متينا وطريقا قويما أوْرَدَتا ولم تُصدِرا وخَذَلتا ولم تَنصُرا ؛ ونعوذ بالله من نعمة تَحُورُ بلاء ، ومرحبا ببلاء يورِث يقظة ويكون تمحيصا لما نقص من التقصير ؛ ولـكن مَن هذا الّذى يَشرَب فلا يَسكَر ولا يَنتَمل ؟ ومن هذا الّذى اذا سَكِر عَقَل ؟ ومن هذا الّذى إذا صحا لا يعتقب من شرابه خُمارا يصدّع الراس ويمكّن الوَسواس ؟

(١) الداصة : الخساس الجبناء . واللصوص أيضا .
(٢) فى الأصل : « يحط » ؛ وهو تصحيف .
(٣) كذا .

فقال : هذه جملة قامعة لمن أدّعى دعواه أو نحا مَنحاه ؛ وأنّى لك هـذا ؟ لِمَ لا تُداخِلُ صاحبَ ديوان ولِمَ تَرضَى لنفسـك بهذا اللَّبوس ؟ فقلتُ : « أنا رجلٌ حبُّ السـلامة غالبٌ علىّ ، والقناعةُ بالطفيف محبوبة عندى » . فقال : كنيتَ عن الـكسل بحبّ السلامة ، وعن الفُسُولة بالرضـا باليسير . قلتُ : إذا كنتُ لا أصِلُ إلى السـلامة إلاّ بالفُسولة ، ولا أتحكّم الراحة إلّا بالـكسل ، فمرحبا بهما .

فقال : لكلّ إنسان رأىٌ وأختيار وعادة ومَنشأ ومألوف وقُرَناء متى زُحزِح عنها قَلِق ، ومتى أُرِيغَ[1] على سواها فَرِق ؛ أظنّ أنّه قد نصَف الّليل . قلتُ : لعلّه . قال : فى الدَّعَة ؛ قد خبأتُ لك مسألة ، وسألقيها عليك بعدَها — إن شاء الله تعالى — وانصرفتُ .

الليلة الثامنة

(١) وقال لى مرّة أخرى : أوْصَلَ وهبُ بن يعيش الرقّىُّ[2] اليهودىّ رسالةً يقول فى عُرْضها بعد التقريظ الطويل العريض : إن هنـا طريقا فى إدراك الفلسفة مذلَّلةً مسلوكةً مختصَرة فسيحة ، ليس على سالـكها كدٌّ ولا شَقٌّ فى بلوغ ما يريد من الحـكمة ونيلِ ما يطلب من السعادة وتحصيل الفوز فى العاقبة ؛ وإنّ أصحابنا طوّلوا وهوّلوا وطرحوا الشوك فى الطريق ، ومَنَعوا من الجواز عليه غشًا منهم وبخلا ولؤمَ طباع وقلّةَ نصح وإتعابا للطالب وحسـدا للراغب ، وذلك أنّهم أتّخذوا المنطق والهندسة وما دخل فيهما معيشةً ومكسبةً ، ومأكلة ومشربة ، فصار ذلك

(١) « أريع » .
(٢) ورد هذا الاسم فى المقابسات ؛ وكان أبو حيان يسأله فى مسائل فلسفية .

كسُور من حديد لطُلّاب الحكمة والمحبّين للحقيقة والمتصفّحين لأثناء العالم وكلاما هذا معناه ، وإلى هذا يرجع مغزاه .

فكان من الجواب : قد عرفتُ مذهب ابن يعيش فى هذا الباب ، وهو جارى ، وكتب هذه الرسالة على هذا الطراز بالأمس إلى المَلِك السعيد سنة سبعين[1] ، وتقرّب بها ، ونعتُه بالمسألة والتفقّد له ، فإنّه شديد الفقر ، ظاهرُ الخَصاصة ، لاصق بالدَّقْعاء[2] ؛ وللّذى قاله وادّعاه ، وقصده وانتحاه ، وجه واضح وحجّة ظاهرة ؛ وللّذى قاله أصحابنا — أعنى مخالفيه — وجهٌ أيضا وتأويل وللقولين أنصار وحُماة ، وحَفَظَة ورُعاة .

قال : هاتِ — على بركة الله — فإنّى أحب أن أسمع فى هذا الخَطْب[3] كلَّ ما فيه وأكثرَ ما يتّصل به ؛ فكان من الجواب أن ابن يعيشَ يريد بهذه الخطبة أنّ عمر الإنسان قصير ، وعِلمَ العالم كثير ، وسِرّه[4] مغمور ؛ وكيف لا يكون كذلك وهو ذو صفائح مركّبة بالوَضْع[5] المحكَم ، وذو نضائدَ مزيّنة بالتأليف المعجب المتقَن ؛ والإنسان الباحث عنه وعمّا يحتويه ذو قوًى متقاصرة ، وموانعَ معترِضة ، ودواعٍ ضعيفة ، وإنه مع هذه الأحوال منتبه بالحِسّ ، حالمٌ بالعقل ، عاشقٌ[6] للشاهد ، ذاهل عن الغائب ، مستأنسٌ بالوطن الّذى ألِفه ونشأ فيه ، مستوحشٌ من بلد لم يسافر إليه ولم يُلِمّ به وإن كان صَدَر عنه[7] ، فليس له بذلك معرفة باقية ولا ثقةٌ تامّة ؛ وإن الأولى بهذا الإنسان

(١) يعنى بعد الثلاثمائة .
(٢) الدقعاء : الأرض لا نبات بها . والتراب . وهذه العبارة كناية عن الفقر الشديد .
(٣) الخطب : الشأن .
(٤) « وشره » .
(٥) « بالوصف » .
(٦) « ما شق » .
(٧) عنه ، أى عن البلد .

المنعوتِ بهذا الضّعف والعجز أن يلتمس مسلكا إلى سعادته ونجاته قريبا ويعتصمَ بأسهل الأسباب على قدر جهدِه وطَوْقِه ؛ وإن أقرب الطرق وأسهلَ الأسباب هو فى معرفة الطبيعة والنفس والعقل والإلٰه تعالى ، فإنه متى عرف هذه الجملةَ بالتفصيل ، وأطّلع على هذا التفصيل بالجملة ، فقد فاز الفوز الأكبر ونال المُلك الأعظم ، وكُفِيَ مؤونة عظيمة فى قراءة الكتب الكبار ذوات الورق الكثير ، مع العناء المتّصل فى الدرس والتصحيح والنَّصَب فى المسألة والجواب ، والتنقير عن الحق والصواب ؛ وهذا الذى قاله ابن يعيشَ ليس بحَيْف ولا خارجٍ عن حَوْمة الحق ، وإن كان الأمر فيه أيضا صعبا وشاقا وهائلا وعاملا ، ولكن ليس لكلّ أحد هذه القوّةُ الفائضة ، وهذه الخصوصيّةُ الناهضة ؛ وهذا الأستبصارُ الحَسَن ، وهذا الطبع الوقّاد ، والذهنُ المُنقاد ، والقريحةُ الصافية والأستبانةُ والتأمّل ، لأن هذه القوّة إلٰهيّة ، فإن لم تكن إلٰهيّة فهى مَلَكية ؛ وإن لم تكن مَلَكية فهى فى أُفُق البشريّة ؛ وليس يوجد صاحبُ هذا النعت إلاّ فى الشاذّ النادر ، وفى دهرٍ مديدٍ بين أُمّة جمّةِ العَدَد ؛ والفائقُ من كلّ شىء والبائن من كلّ صنف عزيزٌ فى هذا العالَم الوحشىّ ، كما أن الردىء والفاسدَ معدوم فى هذا العالَم الإلٰهىّ ، ويمكن أن يقال بالمثل الأدنى : إن من يتكلّم بالإعراب والصحّة ولا يَلحَن ولا يخطئ ويجرى على السليقة الجيدة والضريبةِ السليمة ، قليل أو عزيز ، وإنّ الحاجة شديدة لمن عدم هذه السجيّة وهذا المنشأ إلى أن يتعلّم النحو ويقف على أحكامه ، ويجرىَ على مناهجه ، ويفىَ بشروطه فى أسماء العرب وأفعالها وحروفها وموضوعاتها ومستعمَلاتها ومهمَلاتها ؛ ومتى أُتفق[١] إنسانٌ بهذه الحلية[٢] وعلى هذا النِّجار ، فلعَمرى إنّه غنىّ عن تطويل

(١) اتفق إنسان ، أى وجد بطريق الاتفاق ، أى الصدفة .

(٢) لعله « الجبلة »

النحويّين كما يَستغنى قارض الشّعر بالطبع عن علم العَروض ، وهكذا يَستغنى صاحبُ تلك القوّة التى أشار إليها ابن يعيشَ عن ذلك ، ولكن أين ذاك الفرد والشاذّ والنادر ؟ فإن حضر فما تفعل معه إلاّ أن تقلّده وتأخذَ عنه وتتبعَه .

وإنّما المدار على أن تكون أنت بهذا الكمال حائزاً لهذه الغاية ، ولا سبيل لك إليها من تِلقاء نفسك ، وإنما هو شىء يأتى من تلقاء غيرك ، فإذن بالضرورة وبالواجب ينبغى أن تخطوَ على آثار المنطقيّين والطبيعيّين والمهندسين بالزحف والعَناء والتكلّف والدُّءوب حتى تصير متشبّها بذلك الرجل الفاضل والواحد الكامل والبديع النادر ؛ فقد بان من هذا القَدْر صوابُ ما أشار إليه ابن يعيش وانكشف أيضا وجهُ ماحثّ عليه مخالفوه ؛ ولا عيب على المنقوص أن يطلب الزيادة ببذل المجهود ، وإن الكامل مربوط بما مُنِح من العطيّة من غير طلب .

وأمّا قوله فى صدر كلامه : « إن القوم صدّوا عن الطريق وطرحوا الشوك فيه ، واتّخذوا نشر الحكمة فخّا للمَثالة[1] العاجلة » ، فما أبعَد ، بل قارب الحقّ فإن مَتّى[2] كان يُملِى ورقةً بدرهم مقتدريّ وهو سكرانُ لا يعقل ، و يتهكّم ، وعنده أنه فى ربح ، وهو من الأخسرين أعمالا ، الأسفلين أحوالا .

(٢) ثم إنّى أيّها الشيخ — أحياك الله لأهل العلم وأحيَى بك طالبيه — ذكرتُ للوزير مناظَرةً جرت فى مجلس الوزير أبى الفتح [الفضل بن[4]] جعفر بن الفرات بين أبى سعيد السيرافىّ وأبى بِشْر[5] متّى واختصرتُها ؛ فقال لى : اكتب هذه

---

(١) المثالة : حسن الحال ؛ ومنه قولهم : كلما زدت مثالة ، زادك الله رعالة ؛ والرعالة : الحمق .

(٢) « منى » .

(٣) انظر التعريف بأبى سعيد السيرافى فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٥ من هذا الجزء .

(٤) هاتان الكلمتان لم تردا بالأصل وقد أثبتناهما عن معجم ياقوت . وأبو الفتح هذا كان وزير المقتدر الخليفة العباسى سنة عشرين وثلاثمائة .

(٥) موضع هذا الاسم حروف مطموسة فى الأصل ؛ وقد أثبتناه هكذا نقلا عن المقابسات وأخذا من الكلام الآتى . وأبو بشر متّى ، هو ابن يونس القُنّائى من أهل دَيْر قُنّى . كان=

المناظرة على التمام فإنّ شيئاً يجرى فى ذلك المجلس النبيه بين هذين الشيخين بحضرة أولئك الأعلام ينبغى أن يُغتنَم سماعُه، وتُوعَى فوائده، ولا يُتهاوَنَ بشىء منه. فكتبتُ[١]: حدّثنى أبو سعيد بلُمَع من هذه القصّة. فأما على بن عيسى الشيخ الصالح فإنّه رواها مشروحة.

لما انعقد المجلس سنة ستّ وعشرين وثلاثمائة، قال الوزير ابن الفرات للجماعة — وفيهم الخالدىّ وابن الأخشاد والكتبىّ وابن أبى بشر وابن رَباح وابن كعب وأبو عمرو قدامة بن جعفر والزهرىّ وعلى بن عيسى الجرّاح وابن فراس وابن رشيد وابن عبد العزيز الهاشمى وابن يحيى العلوىّ ورسول ابن طغج من مصر والمرزبانىّ صاحب آل سامان[٢] —: ألا[٣] ينتدب منكم إنسان لمناظرة متّى فى حديث المنطق، فإنه يقول: لا سبيل إلى معرفة الحقّ من الباطل والصدق من الكذب والخير من الشرّ والحجّة من الشبهة والشك من اليقين إلا بما حويناه[٤] من المنطق وملكناه من القيام به، واستفدناه من واضعه على مراتبه وحدوده، فاطلعنا عليه من جهة اسمه على حقائقه. فأحجم القوم وأطرقوا. قال ابن الفرات: والله إن فيكم لَمَنْ يفى بكلامه ومناظرته وكسر ما يذهب إليه وإنى لأعُدّكم فى العلم بحارا، وللدّين وأهلِه أنصارا، وللحق وطُلّابه منارا؛ فما هذا الترامز والتغامزُ اللّذان[٥] تَجِلّون عنهما؟ فرفع أبو سعيد السيرافىّ رأسه فقال: أعذِر أيّها الوزير، فإن العلمَ المصون فى الصدر غيرُ العلم المعروض فى هذا

= نصرانيا عالما بالمنطق، وإليه انتهت رآسة المنطقيين فى زمنه، نزل بغداد بعد سنة عشرين وثلاثمائة، وكانت وفاته فى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة.

(١) «وكنت».
(٢) «ساسان».
(٣) «أن ينتدب».
(٤) «جربناه».
(٥) فى الأصل: «اللذين».

المجلس على الأسماع المُصِيخة (١) والعيون المحدِقة والعقول الحادّة (٢) والألباب الناقدَة ؛ لأن هذا يستصحب الهيبة ، والهيبة مَكسَرة ، ويجتلب الحياء ، والحياء مَغلَبة ؛ وليس البِراز فى معركة خاصّة كالمِصاع (٣) فى بقعة عامّة .

فقال ابن الفرات : أنت لها يا أبا سعيد ، فاعتذارك عن غيرك يوجب عليك الانتصار لنفسك ، والانتصار فى نفسك راجع إلى الجماعة بفضلك .

فقال أبو سعيد : مخالفة الوزير فيما رسَمه هُجْنة ، والاحتجاز عن رأيه إخلاد إلى التقصير ؛ ونعوذ بالله من زَلّة القدَم ، وإياه نسأل حُسنَ المعونة فى الحرب والسِّلْم ؛ ثم واجه متّى [فقال (٤)] : حدِّثنى عن المنطق ما تَعنِى [به] ؟ فإنا إذا فهمنا مرادَك فيه كان كلامُنا معك فى قبول صوابه وردِّ خطئه على سَنَنٍ مَرْضىّ وطريقة معروفة .

قال متّى : أعنى به أنّه آلة من آلات الكلام يُعرَف بها صحيح الكلام من سقيمه ، وفاسدُ المعنى من صالحه ، كالميزان ، فإنّى أعرف به الرُّجْحان من النقصان ، والشائل (٥) من الجانح .

فقال أبو سعيد : أخطأتَ ، لأن صحيح الكلام من سقيمه يُعرَف بالنظم المألوف والإعراب المعروف إذا كنّا نتكلّم بالعربيّة ؛ وفاسد المعنى من صالحه يُعرَف بالعقل إذا كنّا نبحث بالعقل ؛ وهَبْكَ عرفتَ الراجح من الناقص من

(١) « المطنبة » .

(٢) فى الأصل : « الجامة » وهو تحريف . وفى معجم الأدباء ترجمة أبى سعيد السيرافى : الجامدة ؛ وهو تحريف أيضا لا يستقيم به المعنى ، ولعل صوابه ما أثبتنا .

(٣) المصاع : من صاع الشجاع أقرانه : إذا حمل عليهم ففرق جمعهم .

(٤) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى الأصل .

(٥) فى الأصل : « والسائل » بالسين المهملة ؛ وهو تصحيف . والشائل : المرتفع . والجانح : المائل .

طريق الوزن ، فمن لكَ(١) بمعرفة الموزون أيّما(٢) هو حديد أو ذهب أو شَبَه(٣) [أو رَصاص](٤) ؟ فأراك بعد معرفة الوزن فقيرا إلى معرفة جوهر الموزون وإلى معرفة قيمته وسائر صفاته التى يطول عَدُّها ؛ فعلى هـذا لم ينفعك الوزن الذى كان عليه اعتمادك ، وفى تحقيقه كان اجتهادُك ، إلاّ نفعا يسيرا من وجه واحد ، وبقيتْ عليك وجوه ، فأنت(٥) كما قال الأوّل(٦) :

* حفظتَ شيئا وغابت عنك أشياء *

وبعد ، فقد ذهب عليك شىء هاهنا ، ليس كلُّ ما فى الدنيا يوزَن ، بل فيها ما يوزن ، وفيها ما يُكال ، وفيها ما يُذْرَع ، وفيها ما يُمسَح و [فيها ما](٧) يُحزَر وهذا وإن كان هكذا فى الأجسام المرئيّة ، فإنّه على ذلك أيضا فى المعقولات المقرّرة ؛ والإحساسات(٨) ظلال العقول تحكيها بالتقريب والتبعيد ، مع الشبه المحفوظ والمماثَلة الظاهرة . ودع هذا ؛ إذا كان المنطقُ وَضَعَه(٩) رجل من يونانَ على لغة أهلها واصطلاحهم عليها وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها ، فمن أين يلزم التُّرْكَ والهندَ والفُرسَ والعرب أن ينظروا فيـه ويتخذوه قاضيا وحَكَما لهم وعليهم ، ما شهد لهم به قبلوه ، وما أنكره رفضوه ؟

(١) « من ذلك » .
(٢) «إنما» .
(٣) الشبه بالتحريك : النحاس الأصفر .
(٤) الكلمة التى بين مربعين عن ياقوت .
(٥) فى الأصل : « قال » ؛ وهو تحريف .
(٦) هو أبو نواس ؛ وأول البيت : فقل لمن يدّعى فى العلم فلسفة * حفظت شيئا الخ .
(٧) لم ترد هـذه الكلمة التى بين مربعين فى الأصل ؛ وقد أثبتناها عن المقابسات لأبى حيان .
(٨) « والاحتباس ظلال العقول تحكيها » .
(٩) « وصفه » .

قال متّى : إنما لزم ذلك لأن المنطق يَبحث[1] عن الأغراض المعقولة والمعانى المدرَكة ، وتصفّح للخواطر السانحة والسوانح الهاجسة ؛ والناس فى المعقولات سواء ألا ترى أنّ أربعةً وأربعة [ثمانية] سواء عند جميع الأمم ، وكذلك ما أشبهه .

قال أبو سعيد : لو كانت المطلوبات بالعقل والمذكوراتُ باللفظ ترجع مَعَ شُعَبها المختلفة وطرائقها المتباينة إلى هذه الرتبة البيّنة فى أربعة وأربعة وأنّهما ثمانية ، زال الاختلاف وحضر الاتفاق ، ولكن ليس الأمر هكذا ، ولقد موّهت بهذا المثال ، ولكم عادة بمثل هذا التمويه ؛ ولكن مع هذا أيضا إذا كانت الأغراض المعقولة والمعانى المدرَكة لا يوصل إليها إلا[2] باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف ، أفليس قد لزمت الحاجة إلى معرفة اللغة ؟ قال : نعم . قال : أخطأتَ ، قل فى هذا الموضع : بلى . قال : بلى ، أنا أقلّدك فى مثل هذا . قال : انت إذاً لست تدعونا إلى علم المنطق ، إنما تدعو إلى تعلم اللغة اليونانيّة وأنت لا تعرف لغة يونانَ ، فكيف صرتَ تدعونا إلى لغة لا تفى بها ؟ وقد عَفَتْ منذ زمان طويل ، وباد أهلُها ، وانقرض القومُ الّذين كانوا يتفاوضون بها ، ويتفاهمون أغراضهم بتصاريفها ؛ على أنّك تَنقُل من السريانية ، فما تقول فى معان متحوّلة[3] بالنقل من لغة يونانَ إلى لغةٍ أخرى سريانيّة ، ثم مِن هذه إلى أخرى عربية ؟

قال متّى : يونان وإن بادت مع لغتها ، فإن الترجمة حفظت الأغراض ، وأدّت المعانى ، وأخلصت الحقائق .

---

(١) « يحث » .

(٢) ورد فى الأصل بعد قوله : « إلا » جيم وألف وذال ، وهى زيادة من الناسخ . والصواب حذفها .

(٣) « مملوكة » .

المخالِفة ، وأنّهم لو أرادوا أن يخطئوا لما قدَروا ، ولو قَصَدوا أن يكذبوا ما أستطاعوا وأنّ السكينــة نزلت عليهم ، والحقّ تكفّل بهم ، والخطأ تبرّأ منهم ؛ والفضائلَ لصقت بأصولهم وفروعهم ، والرذائل بعدتْ من جواهرهم وعروقِهم ؛ وهذا جهلٌ ممّن يظنّه بهم ، وعنادٌ ممن يدّعيه لهم ؛ بل كانوا كغيرهم من الأمم يصيبون فى أشياء ويخطئون فى أشيــاء ، ويعلمون أشياء ويجهلون أشياء ، ويَصدُقون فى أمور ويَكذِبون فى أمور ، ويُحسِنون فى أحوال ويسيئون فى أحوال ؛ وليس واضع المنطق يونانُ بأسرها ، إنما هو رجل منهم ، وقد أخذ عمّن قبله كما أخذ عنه مَن بعده ؛ وليس هو حجّةً على هذا الخَلق الـكثير والجمّ الغفير ، وله مخالِفون منهم ومن غيرهم ؛ ومع هــذا فالأُختلاف فى الرأى والنظر والبحث والمسألة والجواب سِنْخٌ[(١)] وطبيعة ، فـكيف يجوز أن يأتىَ رجل بشىء يرفع به هذا الخلاف أو يحلحله أو يؤثّر فيه ؟ [هيهات[(٢)]] هذا محال ، ولقــد بقىَ العالَم بعد منطقه على ما كان عليه قبل منطقه ؛ فأمسح وجهك بالسلوة عن شىء لا يستطاع لأنّه منعقد بالفِطرة والطباع ؛ وأنت لو فرّغتَ بالك وصرفتَ عنايتك إلى معرفة هذه اللّغة التى تَحاورنا بها ، وتَجارينا فيهــا ، وتدارس أصحابك بمفهومِ أهلها وتشرح كتبَ يونانَ بعادة أصحابها ، لعلمتَ أنّك غنىّ عن [معانى[(٣)] يونان كما أنك غنىّ عن لغة] يونان .

وهاهنا مسألة ، تقول : إن الناس عقولهم مختلفة ، وأنصباؤهم منها متفاوتة . قال : نعم . قال : وهذا الأُختلاف والتفاوتُ بالطبيعة أو بالأكتساب ؟ قال : بالطبيعة . قال : فـكيف يجوز أن يكون هاهنا شىء يرتفع به هذا الأُختلاف

(١) السنخ : الأصل . وقد وردت هذه الـكلمة فى الأصل مهملة الحروف من النقط .
(٢) الـكلمة التى بين مربعين عن معجم الأدباء .
(٣) لم ترد هذه العبارة التى بين مربعين فى الأصل . وقد أثبتناها عن المقابسات ص ٣

قال أبو سعيد : إذا سلّمنا لك أنّ الترجمة صدقتْ وما كذبتْ ، وقوّمتْ وما حرّفتْ ، ووَزنتْ [١] وما جزَفت ، وأنها [ما] [٢] ألتاثت ولا حافَت ، ولا نقصتْ ولا زادت ، ولا قدّمتْ ولا أخّرت، ولا أخلّت بمعنى الخاصّ والعامّ ولا [بأخصّ الخاصّ [٣] ولا] بأعمّ العامّ — وإن كان هذا لا يكون ، وليس هو فى طبائع اللغات ولا فى مقادير المعانى — فكأنك تقول : لا حجة إلا عقول يونان ، ولا برهان إلا ما وضعوه ، ولا حقيقة إلاّ ما أبرزوه .

قال متّى : لا ، ولكنّهم من بين الأمم أصحابُ عناية بالحكمة والبحث عن ظاهر هذا العالَم وباطنِه ، وعن كلّ ما يتّصل به وينفصل عنه ، و بفضل عنايتهم ظهر ما ظهر وأنتشر ما أنتشر وفشا ما فشا [ونشأ ما نشأ] من أنواع العلم وأصناف الصنائع ؛ ولم نجد هذا لغيرهم .

قال أبو سعيد : أخطأتَ وتعصّبت ومِلتَ مع الهوى ، فإنّ عِلمَ العالَم مبثوث فى العالَم بين جميع من فى العالَم ، ولهذا قال القائل :

العلم فى العالم مبثوث ونحوَه العاقل محثوث

وكذلك الصناعات مفضوضة على جميع مَن على جَدَدِ [٤] الأرض ؛ ولهذا غَلب علمٌ فى مكان دون عِلم ، وكثرتْ صناعة فى بقعة دون صناعة ؛ وهذا واضح والزيادة عليه مَشغَلة ؛ ومع هذا فإنما كان يصحّ قولك وتسلم دعواك لو كانت يونانُ معروفةً من بين جميع الأمم بالعصمة الغالبة ، والفِطْنة الظّاهرة ، والبِنية

(١) فى الأصل : « ووريت وما حزفت » ، وهو تصحيف فى كلتا الكلمتين . يقال جزف فلان الشيء ، أى باعه أو اشتراه جزافا بلا كيل ولا وزن .
(٢) هذه الكلمة التى بين مربعين لم ترد فى الأصل .
(٣) هذه العبارة التى بين مربعين لم ترد فى الأصل ؛ وقد أثبتناها عن المقابسات .
(٤) الجدد بالتحريك : ما استوى من الأرض . وفى الأصل « جديد » ولم نجد من معانيه ما يناسب السياق .

الطبيعيّ والتفاوت الأصليّ ؟ قال متّى : هذا قد مرّ فى جملة كلامك آنفا . قال أبو سعيد : فهل وصلتَه بجواب قاطع و بيانٍ ناصع ؟ ودَع هذا ؛ أسألك عن حرف واحد ، وهو دائر فى كلام العرب ، ومعانيه متميّزة عند أهل العقل ؛ فاُستخرج أنت معانيَه من ناحية منطق أرسطاطاليس الّذى تُدِلّ به وتُباهِى بتفخيمه ، وهو (الواو) ما أحكامه ؟ وكيف مواقعه ؟ وهل هو على وجه أو وجوه ؟ فبُهِت متّى وقال : هذا نحو ، والنحو لم أنظر فيه ، لأنه لا حاجة بالمنطقىّ إليه ، وبالنحوىّ حاجة شديدة إلى المنطق ، لأنّ المنطق يبحث عن المعنى(١) [والنحو يبحث(٢) عن اللفظ] ، فإن مرّ المنطقىّ باللفظ فبالعَرَض ، وإن عَثَر النحوىُّ بالمعنى فبالعَرَض والمعنى أشرف من اللفظ ، واللفظ أوضع من المعنى .

فقال أبو سعيد : أخطأتَ ، لأن الكلام(٣) والنطق واللغة واللفظ والإفصاح والإعراب والإبانة والحديث والإخبار والاُستخبار(٤) والعَرْض [والتّمنّى(٥)] والنهى والحضّ والدعاء والنداء والطلب كلُّها من واد واحد بالمشاكلة والمماثلة ، ألا ترى أنّ رجلا لو قال : « نطق زيد بالحقّ ولكن ما تكلّم بالحق ، وتكلّم بالفُحش ولكن ما قال الفُحش ، وأعرب عن نفسه ولكن ما أفصح ، وأبان المراد ولكن ما أوضَح ، أو فاهَ بحاجته ولكن ما لَفَظ ، أو أخبَر ولكن ما أنبأ » ، لكان فى جميع هذا محرّفا ومناقِضا وواضعا للكلام فى غير حقّه ، ومستعمِلا اللّفظ على غير

(١) فى الأصل : « اللفظ » ؛ وهو تبديل من الناسخ لا يستقيم به المعنى .
(٢) لم ترد هذه العبارة التى بين مربعين فى الأصل ، وقد أثبتناها عن المقابسات ، إذ لا يستقيم الكلام بدونها .
(٣) فى المقابسات : « لأن النحو والمنطق » .
(٤) الظاهر أن فى قوله « والاستخبار » تبديلا من الناسخ صوابه « والإنباء » بدليل قوله فى التمثيل الآتى « أو أخبر ولكن ما أنبأ »
(٥) الكلمة التى بين مربعين عن معجم الأدباء .

شهادة [من] عقله(١) وعقلِ غيره ؛ والنحو منطق ولكنه مسلوخ من العربية والمنطق نحو، ولكنه مفهوم باللغة، وإنما الخلاف بين اللفظ والمعنى أن اللفظ طبيعيّ والمعنى عقليّ ؛ ولهذا كان اللفظ بائدا على الزمان، لأن الزمان يقفو أثر الطبيعة [بأثر آخر(٢) من الطبيعة] ولهذا كان المعنى ثابتا على الزمان، لأن مستملَى المعنى عقل، والعقل إلهيّ ؛ ومادّة اللفظ طينيّة، وكلّ طينيّ متهافت ؛ وقد بقيتَ أنت بلا اسم لصناعتك التى تنتحلها، وآلتك التى تُزْهَى بها، إلا أنْ تستعير من العربيّة لها أسما فتُعار، ويسلَّم لك ذلك بمقدار ؛ وإذا لم يكن لك بدّ من قليل هذه اللغة من أجل الترجمة(٣) فلا بدّ لك أيضا من كثيرها من أجل تحقيق الترجمة واجتلاب الثّقة والتوقّى من الخلّة اللاحقة.

فقال متّى : يكفينى من لغتكم هذه الاسم والفعل والحرف، فإنى أتبلّغ بهذا القدر إلى أغراض قد هذّبتْها لى يونان.

قال [أبو سعيد] : أخطأت، لأنك فى هذا الاسم والفعل والحرف فقير إلى وصفها وبنائِها على الترتيب الواقع فى غرائز أهلها ؛ وكذلك أنت محتاج بعد هذا إلى حركات هذه الأسماء والأفعال والحروف، فإن الخطأ والتحريف فى الحركات كالخطأ والفساد فى المتحرّكات، وهذا باب [أنت(٤) وأصحابُك ورهطُك عنه فى غفلة ؛ على أنّ هاهنا سرًّا ما عَلِق] بك، ولا أسفر لعقلك ؛ وهو أن تعلم أن لغة من اللغات لا تُطابِق(٥) لغةً أخرى من جميع جهاتها بحدود

---

(١) « وغفلة ».
(٢) العبارة التى بين مربعين عن المقابسات ومعجم الأدباء.
(٣) « التجربة ».
(٤) هذا الكلام الذى بين هذين المربعين لم يرد فى الأصل ؛ وقد أثبتناه عن المقابسات.
(٥) « تناطق ».

صفاتها ، فى أسمائها وأفعالها وحروفها وتأليفها وتقديمها وتأخيرها ، واستعارتها وتحقيقها ، وتشديدها وتخفيفها ، وسعتها وضيقها ونظمها ونثرها وسجعها ، ووزنها وميلها ، وغير ذلك مما يطول ذكره ؛ وما أظنّ أحدا يدفع هذا الحكم أو يشكّ فى صوابه ممن يرجع إلى مُسْكة من عقل أو نصيبٍ من إنصاف ، فمن أين يجب أن تَثِق بشىء تُرجِم لك على هذا الوصف ؟ بل أنت إلى تعرّف اللغة العربيّة أحوجُ منك إلى تعرّف المعانى اليونانيّة ؛ على أنّ المعانىَ لا تكون يونانيّة ولا هنديّة ، كما أنّ اللغات تكون فارسيّة وعربيّة وتركيّة ؛ ومع هذا فإنّك تزعم أن المعانىَ حاصلة بالعقل والفحص والفكر ، فلم يبق إلاّ أحكام اللغة ، فلِمَ تُزرى على العربيّة وأنت تشرح كتب أرسطوطاليس بها ، مع جهلك بحقيقتها ؟

وحدّثنى عن قائل قال لك : حالى فى معرفة الحقائق والتصفح لها [والبحثِ عنها[1]] حالُ قومٍ كانوا قبل واضع المنطق ، أنظر كما نظروا ، وأتدبّر كما تدبّروا ، لأنّ اللغة قد عرفتُها بالمنشأ والوراثة ، والمعانى نقّرتُ عنها بالنظر والرأى والاعتقاب والاجتهاد . ماتقول له ؟ أتقول : إنّه لا يصحّ له هذا الحُكم ولا يستتبّ هذا الأمر ، لأنه لا يعرف هذه الموجودات من الطريق التى عرفتَها أنت ؟ ولعلّك تفرح بتقليده لك — وإن كان على باطل — أكثرَ ممّا تفرح باستبداده وإن كان على حقّ ؛ وهذا هو الجهل المبين ، والحُكم المَشين[2] .

ومع هذا ، فحدّثنى عن الواو ما حكمه ؟ فإنى أريد أن أبيّن أنّ تفخيمك للمنطق لا يغنى عنك شيئا ، وأنت تجهل حرفا واحدا فى اللغة التى تدعو بها إلى

(١) هذه العبارة التى بين مربعين لم ترد فى الأصل ؛ وقد أثبتناها عن معجم الأدباء لياقوت والمقابسات للمؤلف .

(٢) فى رواية أخرى « غير المستبين » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

حكمة يونان ، ومَن جهل حرفا أمكن أن يجهل حروفا ، ومن جهل حروفا جاز أن يجهل اللغة بكمالها ، فإن كان لا يجهلها كلّها ولكن يجهل بعضها ، فلعلّه يجهل ما يَحتاج إليه ، ولا ينفعه فيه علم ما لا يَحتاج إليه . وهذه رتبة العامّة أو رتبة من هو فوق العامة بقدر يسير ؛ فلِمَ يتأبّى على هذا ويتكبّر ، ويَتوهّم أنه من الخاصّة وخاصّةِ الخاصّة ، وأنه يعرف سرّ الكلام وغامض الحكمة وخفىّ القياس وصحيحَ البرهان ؟

وإنما سألتك عن معانى حرف واحد ، فكيف لو نثرتُ عليك الحروف كلّها ، وطالبتُك بمعانيها ومواضعها التى لها بالحق ، والّتى لها بالتجوّز ؛ سمعتكم تقولون : إن « فى » لا يعرف النحويّون مواقعها ، وإنما يقولون : هى « للوعاء » كما [يقولون] : « إن الباء للإلصاق » ؛ وإن « فى » تقال على وجوه : يقال « الشيء فى الإناء » « والإناء فى المكان » « والسائس [فى السياسة] » والسياسة فى السائس » .

أترى أن هذا التشقيق هو من عقول يونان ومن ناحية لغتها ؟ ولا يجوز أن يُعقَل هذا بعقول الهند والترك والعرب ؟ فهذا جهلٌ بن كلّ من يدّعيه ، وخطَلٌ من القول الّذى أفاض فيه ؛ النحوىُّ إذا قال « فى » للوعاء[١] فقد أفصح فى الجملة عن المعنى الصحيح ، وكَنَى مع ذلك عن الوجوه التى تظهر بالتفصيل ؛ ومثل هذا كثير ، وهو كافٍ فى موضع التَّكْنِيَة[٢] .

فقال ابن الفرات : أيّها الشيخ الموفّق ، أجبه بالبيان عن مواقع « الواو »

(١) فى الأصل : « للوما » وما أثبتناه عن المقابسات ص ٢٧ إذ به يستقيم الكلام .
(٢) فى الأصل : « التبكيت » وفى المصادر الأخرى « السكت » ؛ وفى كلا اللفظين تحريف لا يستقيم به المعنى ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا .

حتى تكون أشدَّ فى إحكامه ، وحقّق عند الجماعة ما هو عاجز عنه ، ومع هذا فهو مشنّع(١) به .

فقال أبو سعيد : للواو وجوه ومواقع : منها معنى العطف فى قولك : « أكرمت زيدا وعَمرا » ومنها القسم فى قولك : « والله لقد كان كذا وكذا » ومنها الاستئناف فى قولك : « خرجتُ وزيد قائم » لأن الكلام بعدَه ابتداء وخبر ومنها معنى رُبَّ التى هى للتقليل نحو قولهم(٢) : * وقاتِمِ الأعماق خاوى المُختَرَق * ومنها أن تكون أصلية فى الأسم ، كقولك : واصِلٌ واقِدٌ وافِدٌ ، وفى الفعل كذلك ، كقولك : وَجِل يَوْجَل ؛ ومنها أن تكون مقحَمة نحو قول الله عزّ وجل . (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ) ، أى ناديناه ؛ ومِثْلُه قول الشاعر(٣) :

* فلما أجزنا ساحةَ الحيِّ وانتحَى * المعنى : انتحَى بنا ؛ ومنها معنى الحال فى قوله عز وجل : (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً) أى يكلّم الناس فى حال كهولته ؛ ومنها أن تكون بمعنى حرف الجرّ ، كقولك : استوى الماء والخشبةَ أى مع الخشبة .

فقال ابن الفرات : [لمتّى] : يا أبا بشر : أكان هذا فى نحوك(٤) .

ثم قال أبو سعيد : دع هذا ، هاهنا مسألة علاقتها بالمعنى العقلىّ أكثرُ من علاقتها بالشكل اللّفظى ، ما تقول فى قول القائل : « زيد أفضل الإخوة » ؟

(١) فى الأصل والمقابسات « متشبع » . وفى معجم ياقوت « متشيع » . وفى كلا اللفظين تصحيف .

(٢) هذا الشطر من شعر رؤبة بن العجاج .

(٣) هذا الشطر صدر بيت لامرئ القيس ، وعجزه :

بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل .

(٤) فى المقابسات « فى منطقك » ؛ وهى أنسب .

قال : صحيح . قال : فما [تقول[١] إن قال « زيد أفضلُ إخوته » ؟ قال : صحيح . قال : فما] الفرق بينهما [مع الصِّحَّة[٢]] فبَلَحَ[٣] وجَنَح وغصّ بريقه .

فقال أبو سعيد : أفتيتَ على غير بصيرة ولا استبانة ؛ المسألة الأولى جوابُك عنها صحيح وإن كنتَ غافلا عن وجه صحّتها ؛ والمسألة الثانية جوابُك عنها غيرُ صحيح وإن كنت أيضا ذاهلا عن وجه بطلانها .

قال متّى . بيِّن لى ما هذا التهجين ؟

قال أبو سعيد : إذا حضرتَ الحَلْقة[٤] استفدتَ ، ليس هذا مكان التدريس هو مجلس إزالة التلبيس ، مَع من عادته التمويه والتشبيه ؛ والجماعة تعلم أنّك أخطأتَ ، فلِمَ تدّعى أن النحويّ إنما ينظر فى اللفظ دون المعنى ، والمنطقيّ ينظر فى المعنى لا فى اللفظ ؟ هذا كان يصحّ لو أنّ المنطقيّ كان يسكت ويجيل[٥] فكرَه فى المعانى ، ويرتّب ما يريد بالوهم السانح والخاطرِ العارض والحَدْس الطارئ ؛ فأمّا وهو يريغ أن يبرّز[٦] ما صحّ له بالاعتبار والتصفّح إلى المتعلّم والمُناظِر ، فلابدّ له من اللفظ الّذى يشتمل على مراده ، ويكون طِباقا لغرضه ، وموافقا لقصده[٧] .

قال ابن الفرات لأبى سعيد : تَمِّمْ لنا كلامك فى شرح المسألة حتى تكون الفائدة ظاهرةً لأهل المجلس ، والتبكيتُ عاملا فى نفس أبى بشر .

---

(١) هذه العبارة الموضوعة بين مربعين ساقطة من الأصل . وقد أثبتناها عن المقابسات وبها يستقيم المعنى .
(٢) هذه العبارة التى بين مربعين لم ترد فى الأصل . وقد أثبتناها عن المقابسات .
(٣) بلح : أعيي وعجز . وجنح ، أى مال .
(٤) « المختلفة » .
(٥) « ويجيد »
(٦) « يزن » .
(٧) « لضده » .

فقال : ما أكرهُ من إيضاح الجواب عن هـذه المسألة إلاّ مَلَلَ الوزير ؛ فإن الكلام إذا طال مُلّ .

فقال ابن الفرات : ما رغبتُ فى سماع كلامك و بينى و بين المَلَلِ عَلاقة ؛ فأما الجماعة فحرصُها على ذلك ظاهر .

فقال أبو سعيد : إذا قلت : « زيد أفضل إخوتِه » لم يجز ، وإذا قلت : « زيدأفضل الإخوة » جاز ؛ والفصل بينهما أن إخوة زيد هم غيرُ زيد ، وزيدٌ خارج عن جملتهم . والدليل على ذلك أنه لو سأل سائل فقال : « من إخوة زيد » . لم يجز أن تقول : زيد وعمرو و بكر وخالد [و إنما [١] تقول : بكر وعمرو وخالد] ولا يدخل زيدٌ فى جملتهم ، فإذا كان زيد خارجا عن إخوته صار غيرهم ، فلم يجز أن تقول : أفضل إخوته ، كما لم يجز أن تقول : « إن حمارك أفرهُ [٢] البغال » لأن الحمير غير البغال ، كما أن زيدا غيرُ إخوته ، فإذا قلت : « زيد خير الإخوة » جاز ، لأنّه أحد الإخوة ، والاسم يقع عليه وعلى غيره ، فهو بعض الإخوة ، ألا ترى أنه لو قيل : « مَن الإخوة » ؟ عددتَه فيهم ، فقلتَ : « زيد وعمرو و بكر وخالد » فيكون بمنزلة قولك : « حمارك أفرهُ الحمير » لأنه داخل تحت الاسم الواقع على الحمير . فلما كان على ما وصفنا جاز أن يضاف إلى واحد منكور يدل على الجنس ، فتقول : « زيد أفضل رجل » و« حمارك أفرهُ حمار » فيدلّ « رجل » على الجنس كما دلّ الرجال ؛ وكما فى « عشرين درهما ومائة درهم » .

فقال ابن الفرات : ما بعد هذا البيان مزيد ، ولقد جلّ علم النحو عندى بهذا الاعتبار وهذا الإسفار .

---

(١) هذه العبارة التى بين مربّعين لم ترد فى الأصل . وقد أثبتناها عن المقابسات إذ بها يستقيم الكلام .

(٢) فى المقابسات « أفضل » ؛ والمعنى عليها يستقيم أيضا .

فقال أبو سعيد : معانى النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته ، و بين وضع الحروف فى مواضعها المقتضية لها ، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخّى الصواب فى ذلك وتجنّب الخطأ من ذلك ، و إن زاغ شىء عن هذا النعت فإنه لا يخلو من أن يكون سائغا بالاُستعمال النادر والتأويل البعيد ، أو مردودا لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم . فأما ما يتعلّق باختلاف لغات القبائل فذلك شىء مسلّم لهم ومأخوذ عنهم ، وكلّ ذلك محصور بالتتبع والرواية والسماع والقياس المطّرد على الأصل المعروف من غير تحريف ، و إنما دخل العُجب على المنطقيّين لظنهم أن المعانىَ لا تُعرَف ولا تُستوضَح إلا بطريقهم ونظرهم وتكلّفهم ، فترجموا لغةً هم فيها[١] ضعفاء ناقصون . وجعلوا تلك الترجمة صناعة ، وادّعَوا على النحويين أنهم مع اللفظ لا مع المعنى .

ثم أقبل أبو سعيد على متّى فقال : أما تعرف[٢] يا أبا بشر أن الكلام اسم واقع على أشياء قد ائتلفتْ بمراتب ، وتقول[٣] بالمثل : هذا ثوب والثوب اسم يقع على أشياء بها صار ثوبا ، لأنّه نُسجَ بعد أن غزل ، فسَداتُه لا تكفى دون لُحْمتِه ولُحْمتُه لا تكفى دون سَداته ، ثم تأليفه[٤] كنسجه ، و بلاغتُه كقِصارته[٥] ورقّةُ سِلْكِه كرِقّة لفظه ، وغِلَظُ غزله ككثافة حروفه ، ومجموع هذا كلّه ثوب ، ولكن بعد تقدمة كلّ ما يُحتاج إليه فيه .

قال ابن الفرات : سله يا أبا سعيد عن مسألة أخرى ، فإن هذا كلّما توالى

(١) عبارة الأصل : « فترجموا لغتهم فهما » ؛ وهو تحريف .
(٢) رواية المقابسات : « ألا تعلم » والمعنى عليه يستقيم أيضا .
(٣) عبارة المقابسات : « مثال ذلك أن تقول » والمعنى يستقيم عليه أيضا .
(٤) كذا فى المقابسات . والذى فى الأصل : « بالنقل » ؛ وهو تحريف .
(٥) فى الأصل : « لنضارته » ؛ وهو تحريف .

عليه بأن أنقطاعُه ، وأنخفض أرتفاعه ، فى المنطق الّذى ينصره ، والحقّ الذى [لا(١)] يُبصره .

قال أبو سعيد : ما تقول فى رجل يقول : « لهذا علىّ درهم غير قيراط ؛ ولهذا الآخر علىّ درهم غيرُ قيراط » . قال : مالى علم بهذا النّمط . قال : لست نازعا عنك حتى يصحّ عند الحاضرين أنّك صاحب مخرقة وزَرْق(٢) ، هاهنا ما هو أخفّ من هذا ، قال رجل لصاحبه : « بكم الثوبان المصبوغان » ، وقال آخَر : « بكم ثوبان مصبوغان » وقال آخر : « بكم ثوبان مصبوغين » بيّن هذه المعانى التى تضمّنها لفظٌ لفظ .

قال متّى : لو نثرتُ أنا أيضا عليك من مسائل المنطق أشياء لكان حالك كحالى .

قال [أبو سعيد] : أخطأت ، لأنك إذا سألتنى عن شىء أنظر فيه ، فإن كان له علاقة بالمعنى وصحّ لفظُه على العادة الجارية أجبتُ ، ثمّ لا أبالى أن يكون موافقا أو مخالفا ، وإن كان غير متعلّق بالمعنى رددتُه عليك ، وإن كان متّصلا باللفظ ولكن على وَضْعٍ لكم فى الفساد على ما حشوتم به كتبَكم رددتُه أيضا لأنه لا سبيل إلى إحداث لغة فى لغة مقرّرة بين أهلها .

ما وجدنا لكم إلاّ ما أستعرتم من لغة العرب [كالسبب والآلة(٣)] والسّلْب والإيجاب والموضوع والمحمول والكون والفساد والمهمَل والمحصور وأمثلة لا تنفع ولا تُجدِى ، وهى إلى العِىّ أقرَب ، وفى الفهاهة أذهَب .

(١) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى الأصل . وقد أثبتناها عن المقابسات .

(٢) يريد بالزرق : الخداع كما يستفاد من كتب اللغة فقد ورد فى اللسان ومستدرك التاج « رجل زراق » ، أى خداع . ولم يذكر فى هذين الكتابين فعله ولا مصدره .

(٣) الزيادة التى بين مربعين عن المقابسات ومعجم الأدباء .

ثم أنتم هؤلاء فى منطقكم على نقص ظاهر ، لأنكم لا تفُون[١] بالكتب ولاهى مشروحة ، فتدّعون الشِّعر ولاتعرفونه[٢] وتذكرون[٣] الخَطابة وأنتم عنها فى منقطَع التراب ؛ وقد سمعتُ قائلكم يقول : الحاجة ماسّة إلى كتاب البرهان . فإن كان كما قال فلِمَ قُطِـع الزمانُ بما قبله من الكتب ، وإن كانت الحاجة قد مسّت إلى ما قبل البرهان ، فهى أيضا ماسّة إلى ما بعد البرهان ، وإلاّ فلِمَ صُنِّف مالا يُحتاج إليه ويُستغنى عنه . هذا كلّه تخليط وزَرْق وتهويل ورعد وبرق .

وإنما بودّكم[٤] أن تَشغَلوا جاهلا ، وتستذلّوا عزيزا ؟ وغايتكم أن تهوّلوا بالجنس والنوع والخاصّة والفصل والعَرَض والشخص ، وتقولوا : الهَليّـة[٥] والأَيْنيّة والماهيّة والكيفيّة والكَمّيّة والذاتيّة والعَرَضيّة والجوهريّة والهَيُوليّة والصورية والأَيْسية[٦] واللَّيسيّة والنفسـيّة ؟ ثم تتطاولون[٧] فتقولون : « جئنا بالسِّحْر » فى قولنا : « لا » فى شىء من « ب » و « ج » فى بعض « ب » ، ف « لا » فى بعض « ج » و « لا » فى كلّ « ب » و « ج » فى كل « ب » فإذن «لا» فى كل «ج»[٨] ؛ هذا بطريق الخُلف ، وهذا بطريق الأُختصاص .

---

(١) كذا فى المقابسات . والذى فى الأصل : « تقولون » ؛ وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : « تذكرونه » ؛ وما أثبتناه عن المقابسات .

(٣) فى المقابسات « وتدعون » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٤) فى الأصل : « قولكم » ؛ وهو تحريف .

(٥) الهلية والأينية : نسبة إلى « هل » و « أين » الاستفهاميتين ؛ والنسبة فى الألفاظ التى بعدها معروفة .

(٦) الأيسية والليسية : الإثبات والنفى .

(٧) فى المقابسات : « يتمطون » أى بتشديد الطاء .

(٨) كذا فى الأصل ، ولعل صحة العبارة : لا « ا » فى شىء من « ب » و « ج » فى بعض « ب » ف « ا » إذن لا فى « ج » و « ا » لا فى كل « ب » و « ج » فى بعض « ب » ف « ا » إذن ليس فى « ج » كما يقتضيه علم المنطق .

وهذه كلُّها خُرافات وتُرَّهات، ومغالق وشبكات؛ ومن جاد عقله وحَسُن تمييزه ولَطُف نظره وثقُب رأيه وأنارت نفسُه أستغنى عن هـذا كلّه — بعون الله وفضله — وجُودةُ العقل وحُسنُ التمييز ولُطف النظر وثُقوب الرأى و إنارةُ النفس من منائح الله المنيّة، ومواهبِه السنيّة، يختصّ بها من يشاء من عباده وما أعرف لأستطالتكم بالمنطق وجها، وهذا الناشئ أبو العباس قد نَقَض عليكم وتتبع طريقتكم، و بيّن خطأكم، وأبرز ضَعفَكم، ولم تقدروا إلى اليوم أن تردّوا عليه [كلمة واحدة[1]] ممـا قال، وما زدتم[2] على قولكم: لم يعرف غرضنا ولا وقف على مرادنا، وإنّما تكلّم على وهم. وهذا منكم تَحاجُزٌ ونُكول ورضًى بالعجز وكُلول، وكلُّ ما ذكرتم فى الموجودات فعليكم فيه[3] أعتراض هذا قولكم فى «يَفعل و ينفعل» لم تستوضحوا فيهما مراتبَهما ومواقعَهما، ولم تقِفوا على مَقاسِمهما، لأنّكم قنِعتم فيهما بوقوع الفعل من «يَفعل» وقبول الفعل من «يَنفعل»، ومن وراء ذلك غاياتٌ خفيتْ عليكم، ومعارفُ ذهبتْ عنكم وهذا حالكم فى الإضافة.

فأما البدل ووجوهه، والمعرفةُ وأقسامُها، والنكرة ومراتبها، وغير ذلك مما يطول ذكره، فليس لكم فيه مقال و [لا] مجال.

وأنت إذا قلتَ لإنسان. «كن منطقيا»، فإنما تريد: كن عقليّا أو عاقلا أو أعقِل ما تقول[4] لأنّ أصحـابك يزعمون أن النّطق هو العقل؛ وهذا قولٌ مدخول، لأن النطق على وجوه أنتم عنها فى سَهو.

---

(١) العبارة التى بين مربعين عن المقابسات.
(٢) فى الأصل: «زدتكم» والكاف زيادة من الناسخ.
(٣) «عليه».
(٤) «مايكون».

وإذا قال لك آخر: «كن نحويّا لغويّا فصيحا» فإنما يريد: افهم عن نفسك ما تقول، ثم رُمْ أنْ يَفهم عنك غيرُك.

وقدّر اللفظَ على المعنى فلا يَفضُل عنه، وقدّر المعنى على اللفظ فلا ينقص منه؛ هذا إذا كنتَ فى تحقيق شىء على ما هو به. فأمّا إذا حاولتَ فَرْش المعنى وبَسْطَ المراد فاجْلُ اللفظ بالروادف الموضّحة والأشباه المقرّبة، والاستعارات المُمتعة، وبيّن[1] المعانىَ بالبلاغة، أعنى لوّحْ منها لشىء حتى لا تصاب إلا بالبحث عنها والشّوق إليها، لأن المطلوب إذا ظُفِر به على هذا الوجه عزّ وحلا، وكَرُم وعلا؛ واشرح منها شيئا حتّى لا يمكن أن يُمترى [فيه] أو يُتعَبَ فى فهمه أو يُعرّجَ عنه لأغتماضه؛ فهذا المذهب يكون جامعا لحقائق الأشباه ولأشباه الحقائق؛ وهذا بابٌ إن أستقصيتُه خرج عن نَمَط ما نحن عليه فى هذا المجلس؛ على أنّى لا أدرى أيؤثّر فيك ما أقول أو لا؟

ثم قال: حدّثنا هل فصلتم [قطُّ] بالمنطق بين مختلفَين، أو رفعتم الخلافَ بين أثنين؛ أتُراك بقوّة المنطق وبرهانِه اعتقدتَ أن الله ثالثُ ثلاثة، وأن الواحد أكثرُ من واحد، وأن الذى هو أكثر من واحد هو واحد، وأن الشرع ما تذهب إليه، والحقّ ما تقوله[2]؟ هيهات، هاهنا أمور ترتفع عن دعوى أصحابِك وهذيانِهم، وتدِقّ عن عقولهم وأذهانِهم.

ودَعْ هذا، هاهنا مسألة قد أُوقعتْ خلافا، فارفع ذلك الخلاف بمنطقك.

قال قائل: «لفلانٍ مِن الحائط إلى الحائط» ما الحكم فيه؟ وما قَدْرُ المشهود به لفلان؟ فقد قال ناس: له الحائطان معا وما بينهما. وقال آخرون:

(١) فى معجم الأدباء: «وسدد».

(٢) «ما هو له».

له [النصف من كلٍّ منهما . وقال آخرون[1] : له] أحدهما . هات الآن آيتك الباهرة ، ومعجزتك القاهرة ، وأنّى لك بهما ، وهذا قد بان بغير نظرِك ونظرِ أصحابك .

ودع هذا أيضا ؛ قال قائل : « مِن الكلام ما هو مستقيم حَسَن ، ومنه ماهو مستقيم محال ، ومنه ما هو مستقيم قبيح ، ومنه ما هو محال كذب ، ومنه ما هو خطأ » . فسّر هذه الجملة . واعترض عليه عالمٌ آخرُ ، فاحكم أنت بين هذا القائل والمعترض وأرِنا قوّةَ صناعتك التى تميّز [بها] بين الخطأ والصواب ، و بين الحقّ والباطل ؟ فإن قلتَ : كيف أحكم بين اثنين أحدهما قد سمعتُ مقالتَه ، والآخرُ لم أحصّل اعتراضَه ؟ قيـل لك : استخرج بنظرك الاعتراض إن كان ما قاله محتملا له ، ثم أوضح الحقّ منهما ، لأن الأصل مسـموع لك ، حاصلٌ عندك وما يصحّ به أو يَرِدُ عليه يجب أن يظهر منك ، فلا تتعاسَرْ[2] علينا ، فإن هذا لا يخفى على [أحد[3] من] الجماعة .

فقد بان الآن أنّ مركّب اللفظ لا يَحُوز مبسوط العقل ؛ والمعـانى معقولة ولها اتّصال شديد و بساطة تامّة ؛ وليس فى قوّة اللفظ من أىّ لغة كان أن يَملك ذلك المبسوط و يحيطَ به ، ويَنصِبَ عليه سُورا ، ولا يَدَعُ شيئا مِن داخلِه أن يخرج ، ولا شيئا من خارجه أن يَدخل ، خوفا من الاختلاط الجالبِ للفساد ، أعنى أنّ ذلك يَخلِط الحقّ بالباطل ، ويشبّه الباطلَ بالحقّ ؛ وهذا الذى وقع الصحيحُ منه فى الأوّل قَبلَ وضع المنطق ، وقد عاد ذلك الصحيح فى الثانى بعد[4] المنطق ؛

(١) التكملة التى بين مربعين لم ترد فى الأصل ؛ وقد أثبتناها عن المقابسات .
(٢) « تتقلّش » .
(٣) كذا فى المقابسات . والذى فى الأصل : « على من حضرته » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به معنى الجملة .
(٤) فى المقابسات « بهذا » .

وأنت لو عرفتَ تصرُّف العلماء والفقهاء فى مسائلهم ، ووقفتَ على غَوْرِهم فى نظرِهم وغَوْصِهم فى استنباطهم ، وحُسْنِ تأويلِهم لِمَا يَرِدُ عليهم ، وسَعةِ تشقيقهم للوجوه المحتمَلة والكنايات المفيدة والجهاتِ القريبة والبعيدة ، لحقَّرْتَ نفسَك ، وأزدريتَ أصحابَك ، ولَكان ماذهبوا إليه وتابعوا عليه أقلَّ فى عينك من السُّها عند القمر ، ومن الحصا عند الجبل . أليس الكِنْدىُّ وهو عَلَمٌ فى أصحابك يقول[1] فى جواب مسألة « هذا[2] من باب عدّ » . فعدَّ الوجوه بحسب الأستطاعة على طريق الإمكان من ناحية الوهم بلا ترتيب ، حتّى وضعوا له مسائلَ من هذا الشكل وغالطوه بها وأرَوْه أنّها من الفلسفة الداخلة ، فذهب عليه ذلك الوضع ، فاعتقد فيه أنّه [صحيح وهو[3]] مريض العقل فاسد المزاج حائلُ الغريزة مشوَّشُ اللُّب .

قالوا له : أخبرنا عن أُصْطِكاكِ[4] الأجرام ، وتَضاغُط الأركان ؟ هل يدخل فى باب وجوب الإمكان ؟ أو يخرج من باب الفُقْدان إلى ما يَخفَى عن الأذهان ؟

وقالوا له أيضا : ما نسبة الحركات الطبيعيّة إلى الصُّوَر الهَيُولانيّة ؟ وهل هى ملابسة للكِيان فى حدود النظر والبيان ، أو مزايلةٌ لَه مزايَلة على غاية الإحكام ؟

وقالوا له : ما تأثير فِقْدان الوِجدان فى عدم الإمكان عند أمتناع الواجب من وجوبه فى ظاهرِ مالا وجوب له لاستحالته فى إمكان أصله ؟ وعلى هذا فقد حُفظ جوابُه عن جميع هذا على غاية الرَّكاكة والضّعف [والفساد] والفسالة

(١) فى الأصل : « يقولون » ، والواو والنون زيادة من الناسخ .

(٢) فى الأصل : « عدم » ، وفى بعض المصادر الأخرى « عدة » وهى غير واضحة المعنى فى كلتا الروايتين ؛ ولعلّ الصواب ما أثبتنا .

(٣) لم ترد هذه العبارة التى بين مربعين فى الأصل .

(٤) فى الأصل : « استفصائك » ؛ وهو تحريف .

والسُّخف . ولولا التوقّي من التطويل لسردتُ ذلك كلَّه ، ولقد مرّ بي في خَطِّه : التفاوت في تلاشي الأشياء غيرُ مُحاطٍ به ، لأنّه يلاقي الاختلاف في الأصول والاتفاقَ في الفروع ؛ وكلُّ ما يكون على هذا النّهج فالنَّكِرة تُزاحِم عليه المعرفة ، والمعرفةُ تُناقِض النَّكِرة ، على أنّ النَّكِرة والمعرفةَ من باب الألبِسةِ العاريةِ مِن ملابس الأسرار الإلهيَّة ، لا من باب الإلهيَّة العارضةِ في أحوال البشرية .

ولقد حدثنا أصحابُنا الصابئون عنه بما يُضحِك الثَّكْلَى ويُشْمِت العدوّ ويغُمّ الصَّدِيق ، وما وَرِث هذا كلَّه إلاّ من بركات يونانَ وفوائد الفلسفة والمنطق ونسأل الله عصمةً وتوفيقا نهتدي بهما إلى القول الراجع إلى التحصيل ، والفعلِ الجاري على التعديل ، إنّه سميع مجيب .

هذا آخرُ ما كتبتُ عن عليّ بن عيسى الرّمّاني الشيخِ الصالحِ بإملائه . وكان أبو سعيد قد رَوَي لُمَعا من هذه القصّة .

وكان يقول : لم أحفظ عن نفسي كلّ ما قلتُ ، ولكن كتب ذلك أقوامٌ حَضروا في ألواحٍ كانت معهم ومحابرُ أيضا ؛ وقد اُختلّ عليّ كثير منه .

قال علي بن عيسى : وتقوّض المجلس وأهلُه يتعجّبون من جأش أبي سعيد الثابت ولسانِه المتصرف ووجهِه المتهلّل وفوائدِه المتتابعة .

وقال الوزير ابن الفرات : عينُ الله عليك أيّها الشيخ ، فقد نَدَّيْت أكبادا وأقررتَ عيونا ، وبيّضتَ وجوها ، وحُكتَ طِرازا لا يبليه الزمان ، ولا يتطرّق إليه الحدثان .

قلت لعلي بن عيسى : وكم كانت سِنُّ أبي سعيد[1] في ذلك الوقت ؟

(١) في الأصل : « علي بن عيسى » ؛ وهو خطأ من الناسخ .

قال : مولده سنة ثمانين ومائتين ، وكان له يومَ المُناظَرة أربعون سنة ، وقد عَبِث الشَّيب بلَهازمه[١] مع السَّمْت والوَقَار والدِّين والجِدّ ، وهذا شِعار أهل الفضل والتقدّم ، وقلّ من تظاهر به أو تحلّى بحليته إلا جلّ فى العيون وعظم فى النفوس ، وأحبّته القلوب ، وجرت بمدحه الألسنة .

وقلت لعلىّ بن عيسى : أما كان أبو علىّ[٢] الفَسَوىُّ النحوىُّ حاضرَ المجلس ؟ قال : لا ، كان غائبا ، وحُدِّث بما كان ، فكان يكتم الحَسَد لأبى سعيد على ما فاز به من هذا الخَبَر المشهور ، والثناء المذكور .

فقال لى الوزير[٣] عند منقطَع هذا الحديث : ذكَّرتنى شيئا قد دار فى (٣)
نفسى مرارا ، وأحببت أن أقف على واضِحه ؛ أين أبو سعيد من أبى علىّ ، وأين علىّ بنُ عيسى منهما ، وأين ابنُ المراغىّ أيضا من الجماعة ؟ وكذلك المَرْزُبانىّ وابن شاذان وابن الورّاق وابن حَيّويه ؟

فكان من الجواب ، أبو سعيد أجمَعُ لشمل العلم ، وأنظَمُ لمذاهب العرَب وأدخَلُ فى كلّ باب ، وأخرَجُ من كلّ طريق ، وألزَمُ للجادّة الوسطى فى الدِّين والخُلُق ، وأروَى فى الحديث ، وأقضَى فى الأحكام ، وأفقهُ فى الفتوى ، وأحضَرُ بركةً على المختلفة ، وأظهَرُ أثرا فى المقتبسة . ولقد كتب إليه نوح بن نصر — وكان من أدباء ملوك آل سامان — سنة أربعين[٤] كتابا خاطبه فيه بالإمام

(١) اللهازم : جمع لِهزمة بكسر اللام ، وهى مجتمع اللحم بين الماضغ والأذن ؛ أو هى العظم الناتئ فى اللحية تحت الأذن ، وهما لهزمتان ؛ ويريد هنا الشعر النابت عليهما .

(٢) أبو على الفسوى ، هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان بن أبان الفارسى النحوى ، ولد بمدينة فسا سنة ثمان وثمانين ومائتين ، وكان إمام وقته فى علم النحو وله فيه كثير من المؤلفات الوافية النافعة ، وتوفى فى سنة سبع وسبعين وثلاثمائة .

(٣) يريد الوزير أبا عبد الله العارض .

(٤) أى وثلاثمائة .

وسأله عن مسائلَ تزيد على أربعمائة مسألة ، الغالب عليها الحروف ، وباقى ذلك أمثال مصنوعة على العرب شَكَّ فيها فسأل عنها ؛ وكان هذا الكتاب مقرونا بكتاب الوزير البَلْعَمِىّ خاطبه فيه بإمام المسلمين ، ضمّنه مسائل فى القرآن وأمثالا للعرب مشكِلة .

وكتب إليه المَرْزُبان بن محمد مَلِكُ الدَّيْلَمِ مِن أَذْرِبيجانَ كتابا خاطبه فيه بشيخ الإسلام ، سأله عن مائة وعشرين مسألة ، أكثرها فى القرآن ، وباقى ذلك فى الروايات عن النبى صلّى الله عليه وسلّم وعن أصحابه رضوان الله عليهم .

وكتب إليه أبن حِنْزَابة من مصر كتابا خاطبه فيه بالشيخ الجليل ، وسأله فيه عن ثلاثمائة كلمة من فنون الحديث المروىّ عن النبىّ صلّى الله عليه وسلم وعن السلف .

وقال لى الدارقُطْنىّ سنة سبعين : أنا جمعتُ ذلك لأبن حِنزَابة على طريق المعونة .

وكتب إليه أبو جعفر مَلِكُ سجستان على يد شيخِنا أبى سليمان كتابا يخاطبه فيه بالشيخ الفَرْد ، سأله عن سبعين مسألة فى القرآن ، ومائةِ كلمة فى العربية وثلاثمائة بيت من الشعر ، هكذا حدّثنى به أبو سليمان ؛ وأربعين مسألة فى الأحكام وثلاثين مسألة فى الأصول على طريق المتكلّمين .

قال لى الوزير : وهذه المسائل والجواب عنها عندك ؟ قلتُ : نعم . قال : فى كم تقع ؟ قلتُ : لعلّها تقع فى ألف وخمسمائة ورقة ، لأنّ أكثرها فى الظهور . قال : ما أحوَجَنا إلى النظر فيها والأستمتاع بها والأستفادة منها ! وأين الفراغ وأين السكون ؟ ونحن كلّ يوم نُدفَع إلى طامّةٍ تُنسِى ما سلف ، وتُوعِد بالداهية

اللّهم هذه ناصيتى بيدك ، فتولّنى بالعصمة ، وأخصصنى بالسلامة ، وأجعل عقباىَ إلى الحسنى .

ثم قال : صل حديثك .

قلت : وأما أبو علىّ[١] فأشدّ تفرّدا بالكتاب[٢] وأشدُّ إكبابا عليه ، وأبعَدُ من كلّ ما عداه ممّا هو عِلمُ الكوفيّين ، وما تَجاوَزَ فى اللّغة كُتُبَ أبى زيد ، وأطرافا ممّا لغيره ؛ وهو متّقِد بالغيظ على أبى سعيد ، وبالحسد له ، كيف تمّ له تفسيرُ كتاب سيبويه من أوّله إلى آخره بغريبه وأمثاله وشواهده وأبياته (ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاء) ، لأنّ هذا شىء ما تمّ للمبرّد ولا للزّجاج ولا لابن السّرّاج ولا لابن درستويه مع سعة علمهم ، وفيضِ كلامهم .

ولأبى علىّ أطراف من الكلام فى مسائلَ أجاد فيها ولم يَأْتَلِ ، ولكنه قعد على الكتاب[٣] على النّظم المعروف .

وحدّثنى أصحابُنا أن أبا علىّ اشترى شرحَ أبى سعيد فى الاهواز فى توجّهه إلى بغداد سنة ثمان وستين — لاحقا بالخدمة المرسومة به ، والنّدامة[٤] الموقوفة عليه — بألفى درهم ؛ وهذا حديث مشهور ، وإن كان أصحابُه يأبَون الإقرار به إلاّ من زعم أنّه أراد النقض عليه ، وإظهارَ الخطأ فيه .

وقد كان الملِك السعيد — رضى الله عنه — همّ بالجمع بينهما فلم يُقضَ له ذلك ، لأنّ أبا سعيد مات فى رجب سنة ثمان وستّين وثلاثمائة .

---

(١) يريد أبا على الفسوىّ السابق ذكره .

(٢) يريد بالكتاب كتاب سيبويه .

(٣) يريد بالكتاب كتاب سيبويه . يقول : إنه اقتصر على دراسته على الطريقة المعروفة .

(٤) الندامة ، أى المنادمة على الشراب ، بدليل ما يأتى بعد فى سطر (١) من صفحة ١٣٢ .

وأبو عليّ يشرب ويتخالع ويفارق هَدْىَ أهل العلم وطريقةَ الربانيين[1] وعادةَ المتنسِّكين .

وأبو سعيد يصوم الدهر ، ولا يصلّى إلّا فى الجماعة ، ويقيم على مذهب أبى حنيفة ، ويلى القضاء سنين ، ويتألّه[2] ويتحرّج ، وغيرُه بمَعزِل عن هذا ؛ ولولا الإبقاء على حُرْمة العِلم ، لكان القلم يجرى بما هو خافٍ ويخبر بما هو مُجَمْجَم[3] ولكنّ الأخذ بحكم المروءة أولى ، والإعراض عما يجلب اللائمة أحرَى .

وكان أبو سعيد حَسَنَ الخطّ ، ولقد أراده الصَّيْمَرِىُّ أبو جعفر على الإنشاء والتحرير فاستعفَى وقال : هذا أمر يُحتاج فيه إلى دُرْبة وأنا عارٍ منها ، وإلى سياسةٍ وأنا غريب فيها * ومِن العَناء رياضةُ الهَرِمِ *

وحدّثنا النَّصْرِى[4] أبو عبد الله — وكان يكتب النوبة للمهلّبىّ — بحديث مفنّد[5] لأبى سعيد هذا موضعه ، قال : كنتُ أخطّ بين يدى الصَّيْمَرِىّ أبى جعفر محمد بن أحمد بن محمّد ، فالتمسنى يوما لأن أجيب ابن العميد أبا الفضل عن كتاب فلم يجدنى ، وكان أبو سعيد السيرافىّ بحضرته ؛ فظنّ[6] أنّه بفضل عِلمه أقومُ بالجواب من غيره ، فتقدّم إليه أن يكتب ويجيب ، فأطال فى عمل نسخة كثُر فيها الضرب والإصلاح ، ثم أخذ يحرّر ، والصَّيْمَرِىُّ يقرأ ما يكتبه ، فوجده مخالفا

---

(١) الربانى : المتألّه العارف بالله . وفى الأصل : « الديانين » ولم نجده فى كتب اللغة بهذا المعنى .

(٢) يتأله ، أى يتعبد ويتنسك .

(٣) مجمجم : من جمجم الكلام فى نفسه إذا لم يبينه يريد به المستتر الخافى .

(٤) كذا فى معجم الأدباء لياقوت ج ٨ ص ١٨٣ طبع الحلبى . والذى فى الأصل : البقرى ؛ وهو تحريف .

(٥) « معد » .

(٦) كذا فى معجم الأدباء لياقوت ج ٨ ص ١٨٣ طبع الحلبى . والذى فى الأصل : « فبان » .

لجارى العادة لفظا ، مباينا لما يريده[١] ترتيبا .

قال : ودخلت فى تلك الحال ، فتمثَّل الصَّيْمَرِىُّ بقول الشاعر :

يا بارىَ القوسِ بَرْيا ليس يُصلِحه   لا تَظلِم القوسَ ، أعطِ القوسَ باريها

ثم قال لأبى سعيد : خفِّفْ عليك أيّها الشيخ وادفع الكتاب إلى أبى عبد الله تلميذك ليجيب عنه ، فخجل من هذا القول ، فلمّا ابتدأتُ الجواب من غير نسخة تحيّر منّى أبو سعيد ، ثم قال : أيّها الأستاذ ، ليس بمستنكرٍ ما كان منّى ، ولا بمستكثَرٍ ما كان منك ، إنّ مال الفَىْء لا يصحّ فى بيت المال إلاّ بين مستخرِج[٢] وجَهْبَذٍ ، والكتّاب جَهابذةُ الكلام ، والعلماء مستخرجوه . فتبسّم الصَّيْمَرِىُّ وأعجبه ما سمع ، وقال : على كلّ حال ما أخليتَنا من فائدة .

وكان أبو سعيد بعيدَ القَرِين ، لأنّه كان يُقرَأ عليه القرآنُ والفقهُ والشروطُ والفرائض والنحو واللغة والعَروض والقوافى والحسابُ والهندسة والحديث والأخبار وهو فى كل هذا إمّا فى الغاية وإمّا فى الوسط .

وأما على بن عيسى[٣] فعالى الرتبة فى النحو واللغة والكلام والعَروض والمنطق ، وعِيبَ به ، إلا أنّه لم يَسلُك طريقَ واضع المنطق ، بل أفردَ صناعة ، وأظهرَ براعة ، وقد عمل فى القرآن كتابا نفيسا ، هذا مع الدِّين الثخين ، والعقل الرزين .

وأمّا ابن المراغىّ[٤] فلا يَلحَق بهؤلاء ، مع براعة اللفظ ، وسعة الحِفظ ، وعزّة

(١) فى معجم الأدباء : « لمأثورة » .

(٢) مستخرج الأموال ، أى جابيها ومحصّلها . والجهبذ : الناقد العارف بالجيد والردىء .

(٣) يريد بعلى بن عيسى أبا الحسن الرمانى وهو إمام فى العربية ، كان علامة فى الأدب ، إماما فى النحو ، بصيرا بالمقالات ، معتزليا ، مات سنة ٣٨٤ .

(٤) ابن المراغى هو أبو الفتح محمد بن جعفر الهمدانى وكان معلما فى دولة أبى منصور ، وكان حافظا نحويا بليغا إخباريا فى نهاية الشرف والحرية ؛ وله من الكتب كتاب البهجة على مثال كتاب الكامل .

النفس ، وبلل[١] الريق ، وغزارة النَّفْث ، وكثرة الرواية ؛ ومن نظر فى كتاب البهجة له عرف ما أقول ، واعتقد فوق ما أصف ، ونَحَلَ[٢] أكثر مما أبذُل .

وأما المرزُبانىّ[٣] وأبن شاذان وأبن القِرْمِسِينىّ وأبن حَيَّوَيْه[٤] فهم رواة وحَمَلة ليس لهم فى ذلك نَقْطٌ ولا إعجام ، ولا إسراج ولا إلجام .

(٤) فقال : فصِلْ حديثك [عن[٥]] هؤلاء بحديث أصحابنا الشعراء ، صف لى جماعتهم ، واُذكر لى بضاعتهم ، وما خصّ كلَّ واحد منهم . قلتُ : لست من الشعر والشعراء فى شىء ، وأكره أن أخطو على دَحْض[٦] ، وأحتسىَ غير محض . قال : دع هذا القول ، فما خُضْنا فى شىء إلى هذا الوقت إلاّ على غاية ما كان فى النفس ، ونهاية ما أفاد من الأنس ، فكان من الوصف :

أمّا السَّلاَمىّ[٧] فهو حلو الكلام ، متّسق النظام ، كأنّما يَبسِم عن ثغر الغمام خفىُّ السرقة ، لطيفُ الأخذ ، واسع المذهب ، لطيف المَغارس ، جميلُ الملابس ؛ لكلامِه لَيْطَةٌ[٨] بالقلب ، وعبثٌ بالرُّوح ، وبَرْدٌ على الكبِد .

---

(١) بلل الريق : كناية عن الاتساع فى الكلام .

(٢) « نحل » الخ أى أضاف إليه من الفضائل أكثر مما أبذل فى وصفه .

(٣) المرزبانى ، هو أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى ، أصله من خراسان ، كان من الأدباء الاخباريين المصنفين ، وله كتب كثيرة فى الأدب والتاريخ عدّها صاحب الفهرست وقال : إنه كان صادق اللهجة ، واسع المعرفة بالروايات ، كثير السماع ، ومات سنة ٣٧٨ .

(٤) ابن حيويه ، هو محمد بن حيويه بن المؤمل ، عالم نحوى من أهل همذان مات سنة ٣٧٢ .

(٥) لم ترد هذه الكلمة فى صل .

(٦) على دحض ، أى على مزلقة ومزلّة للأقدام .

(٧) السلامى : من أشعر أهل العراق ، عربى الأصل من بنى مخزوم ، ولد بكرخ بغداد سنة ٣٣٦ واتصل بالصاحب بن عباد وعضد الدولة البويهى ومدحهما ، وقد روى له صاحب اليتيمة كثيرا من شعره ، مات سنة ٣٩٤ .

(٨) ليطة بالقلب ، أى التصاق به وتعلق .

وأمّا الحاتميّ (١) فغليظ اللفظ ، كثير العُقَد ، يحبّ أن يكون بدويا قُحًّا ، وهو لم يَتِمّ حَضَريًا ؛ غزيرُ المحفوظ ، جامعٌ بين النظم والنثر ، على تشابهٍ بينهما في الجفوة (٢) وقلّة السّلاسة ، والبعدِ من المَسْلوك ، بادي العورة فيما يقول ، لكأنّما يُبرِز ما يُخفي ، ويكدّر ما يُصفي ، له سَكْرة في القول إذا أفاق منها خُمِر (٣) وإذا خُمِر سَدِر (٤) ؛ يتطاول شاخصا ، فيتضاءل متقاعِسا ؛ إذا صدق فهو مَهِين ، وإذا كَذَب فهو مَشِين .

وأما ابن جَلَبات (٥) فمجنون الشّعر ، متفاوت اللّفظ ، قليل البديع ، واسع الحيلة ، كثير الزّوَق (٦) ، قصير الرِّشاء (٧) ، كثير الغُثاء (٨) ؛ غَرّهُ نَفاقُه (٩) ونَفَّقَهُ نِفاقُه .

(١) هو محمد بن الحسين الحاتمي ، مدح الخليفة القادر بالله ؛ وله الرسالة الحاتمية التي شرح فيها ما جرى بينه وبين المتنبي ، مات سنة ٣٨٨ .

(٢) عبارة الأصل : « على تشابه بينهما في الهوة وقلة السياسة والبعد من الشكوك » ؛ وفي هذا الكلام تحريف لا يستقيم به المعنى في ثلاثة ألفاظ ؛ وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا .

(٣) خمر ، أي أصيب بالخمار ، وهو ألم في الرأس وصداع يعقبان السكر . والكلام هنا على طريق الاستعارة .

(٤) سدر : تحير . أو لم يبال ما صنع ولم يهتم . وكلا التفسيرين يستقيم به المعنى .

(٥) في الأصل : «ابن الحليات» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا . وهو أبو القاسم علي بن جلبات ، ذكره صاحب اليتيمة في الجزء الثاني ص ٢٧٠ وروى شيئاً من شعره .

(٦) في الأصل : « الرزق » ؛ وهو تحريف . وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا ، فانه بصدد الكلام في الشعر لا في الرزق . والزوق بالتحريك : جمع زاووق ، وهو ما يحسن به الشيء ويزين ، والمراد هنا ما يحسّن به الشعر تحسينا ظاهريا . والزاووق في الأصل : الزئبق ، وكان يدخل في التصاوير ، ولذلك قالوا لكل مزين : مزوق .

(٧) الرشاء : الحبل الذي يستقى به ، والمراد هنا قصر باعه في الشعر وقصوره عن الإطالة .

(٨) الغثاء في الأصل : البالي من ورق الشجر المخالط زبد السيل . ويريد به هنا ما لا فائدة فيه ، ولا يعتد به .

(٩) النفاق بفتح النون : الرواج . ونفّقه بتشديد الفاء : روّجه . والمراد رواج شعره وانتشاره بين الناس ، وعبارة الأصل : « عزّه بفاقة ونفقه بفاقة » وفي كلتا الجملتين تصحيف . هذا إلى أنهما على هذا الوضع لا يستقيم بهما السجع الذي يريده المؤلف كما يظهر .

وأمّا الخالع (١) فأديب الشّعر ، صحيحُ النَّحت ، كثيرُ البديع ، مستوى (٢) الطريقة ، متشابهُ الصّناعة ، بعيدٌ من طَفْرة التعثّر ، قريبٌ من فرصة التخيّر ؛ كان ذو الكفايتين يقدّمه بالرّىّ ، ويقبله على النَّشْر والطىّ .

وأمّا مَسْكُويه (٣) فلطيف اللفظ ، رَطْبُ الأطراف ، رقيق الحواشى ، سهلُ المأخذ ، قليلُ السَّكْب ، بطىء السَّبْك ؛ مشهورُ المعانى ، كثير التوانى ؛ شديدُ التوقّى ، ضعيفُ الترقّى ؛ يَرِد أكثرَ ممّا يَصدُر ، ويتطاولُ جُهده ثم يَقصُر ؛ ويطير بعيدا ويقع قريبا ، ويَسقِى من قبل أن يَغرِس ، ويَمتَح (٤) من قبل أن يُميه ؛ وله بعد ذلك مآخذُ كَشَدْوٍ (٥) من الفلسفة ، وتأتٍّ (٦) فى الخدمة ، وقيامٍ برسوم النِّدامة (٧) ؛ وسُنّة (٨) فى البخل ، وغرائبُ من الكذب ؛ وهو حائل (٩) العقل لشَغفه بالكيمياء .

وأمّا ابن نُباتة (١٠) فشاعر الوقت ، لا يَدفَع ما أقول إلا حاسد أو جاهل

(١) هو أبو على الحسن بن على الخالع شاعر من شعراء الوزير أبى نصر سابور بن أزدشير وهو من شعراء اليتيمة .

(٢) فى الأصل : « مستوسق » ، وهو تحريف . وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا كما يقتضيه قوله بعد : « متشابه » الخ .

(٣) انظر التعريف به فى ص ٣٢ رقم ٥ .

(٤) متح الدلو ومتح بها : استخرجها من البئر عند الاستقاء ، وأماه الحافر إماهة : بلغ الماء واستخرجه من الأرض . والكلام كله جار على طريق الاستعارة ، يشير بهذه العبارة والتى قبلها إلى أنه يقدم ما حقّه التأخير والعكس .

(٥) شدا شدوا ، أخذ طرفا من العلم والأدب .

(٦) التأتى : التلطف .

(٧) الندامة بكسر النون : حرفة المنادمة على الشراب .

(٨) « وثيقة » .

(٩) حائل العقل ، أى متغير متحول من الاستواء إلى العوج .

(١٠) ابن نباتة السعدى ، هو عبد العزيز بن محمد بن نباتة من شعراء سيف الدولة بن حمدان ، واتصل كذلك بابن العميد ومدحه ؛ ولد سنة ٣٢٧ ومات ببغداد سنة ٤٠٥ .

أو معانِد ، قد لَحِق عصابةَ (سيف الدولة) وعَدَا معهم ووراءهم ، حَسَنُ الحَذْوِ على مثال سكّان البادية ، لطيفُ الأُتمام بهم ، خفىُّ المَغاص فى واديهم ، ظاهرُ الإطلال على ناديهم ؛ هذا مع شُعْبة من الجنون وطائفٍ من الوَسْواس .

وأمّا ابن حجّاج[(١)] فليس من هذه الزُّمْرة بشىء ، لأنّه سخيفُ الطريقة بعيدٌ من الجِدّ ، قريعٌ فى الهزل ؛ ليس للعقل من شِعره مَنال[(٢)] ، ولا له فى قرْضه[(٣)] مِثال ؛ على أنّه قويم اللفظ ، سهلُ الكلام ، وشمائله نائيَةٌ بالوَقار عن عادته الجارية فى الخَسار ؛ وهو شريك ابن سُكَّرة فى هذه الغَرامة[(٤)] ؛ وإذا جَدّ أفْتَى ، وإذا هَزَل حَكَى الأفْعى .

وله مع ذى الكفايتين مناظَرة طيّبة . قال : ما هى ؟ قلتُ : لما ورد ذو الكفايتين سنة أربع وستين وهزم الأتراك مع أفتَكين[(٥)] ، وكان من الحديث ما هو مشهور ، سأل عن ابن حجاج — وكان متشوقا له لِمَا كان يُقرَأ عليه مِن قَوافيه[(٦)] ، فأحَبّ أن يلقاه ، لأنّه ليس الخبر كالمعايَنة ، والمسموع والمبصَر كالأنثى والذكر ؛ يَنزِع كلٌّ واحد منهما إلى تمامه ؛ فلمّا حضره أبو عبد الله أحتبسَه للطعام ، وسمع كلامَه ، وشاهَدَ سَمْتَه ، واستَحلَى شمائله ، فقام

---

(١) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج ، شاعر ماجن فى شعره مشهور ، اتصل بالوزير المهلبي وسابور بن أزدشير وعضد الدولة وابن عباد وابن العميد ، لشعره منتخبات فى اليتيمة وفى المتحف البريطانى وفى مكتبة باريس ؛ وقد مات سنة ٣٩١ .

(٢) « مثال » .

(٣) « عرضته » .

(٤) الغرامة : الخسران .

(٥) فى الأصل : « الوركين » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن الكامل لابن الأثير وغيره .

(٦) فى الأصل : « من فيه » بسقوط القاف والواو والألف ؛ ولعل الصواب ما أثبتنا إذ به يستقيم الكلام .

من مجلسه ؛ فلمّا خلا به قال : يا أبا عبد الله ، لقد والله تُهتُ[١] عجبا منك ، فأمّا عَجَبي بك فقد تقدّم ؛ لقد كنت أَفْلِي ديوانَك ، فأتمنّى لقاءك ، وأقول : مَن صاحب هذا الكلام ، أطْيَشُ طائش ، وأخفُّ خفيف ، وأغرَمُ غارم ؛ وكيف يجالَس من يكون في هـذا الإهاب ؟ وكيف يقارَب من ينسلخ من ملابس الكتّاب وأصحابِ الآداب ؛ حتّى شاهدتُك الآن ، فتهالكتُ على وقارك وسكونِ أطرافِك ، وسكوت لفظِك ، وتناسُبِ حركاتِك ، وفرطِ حيائك وناضرِ ماء وجهك ، وتعادُلِ كُلّك[٢] وبعضِك ؛ وإنك لمن عجائب خَلْقِ الله وطُرَفِ عباده[٣] ؛ والله ما يصدِّق واحد أنّك صاحب ديوانِك ، وأنّ ذلك الديوان لك ، مع هذا التنافى الّذى بين شِعرِك وبينَك في جِدّك . فقال أبو عبد الله : أيها الأستاذ ، وكان عجبي منك دون عجبك منى ، لو تقارعنا على هذا لفلجت عليك بالتعجب منك . قال : لأنى قلت : إذا ورد الأستاذ فسألقَى منه خُلُقا جافيا وفَظّا[٤] غليظا وصاحب رواسير[٥] وآكِل كوامخ[٦] وجبليّا دَيْلميّا متكائبا متعاظما ، حتى رأيتُك الآن وأنت ألطف من الهواء ، وأرقُّ من الماء ، وأغزلُ من جميل[٧] بن مَعمَر ، وأعذَبُ من الحياة ، وأرزَنُ من الطَّوْد ، وأغزَرُ من

(١) تهت ، أى تحيرت .
(٢) في الأصل : « نجلك » ؛ وهو تحريف .
(٣) في الأصل من هذه الكلمة العين والباء ، ورسمت اماء بعيدة عنها .
(٤) « وعفطا » .
(٥) في الأصل : « رواصير » .
(٦) الكوامخ : جمع كامخ بفتح الميم ، وهو إدام يؤتدم به يقال له : المرّىّ ، ويقاله : هو الردىء منه ؛ وقيل : هو خبز بخلّ معرّب « كامه » بالفارسية ؛ وخصه بعضهم بالمخللات التى تستعمل لتشهّى الطعام .
(٧) جميل بن معمر ، هو المعروف بجميل بثينة العذرى .

البحر ، وأبهى من القمر ، وأندَى من الغَيث ، وأشجعُ من اللّيث ، وأنطقُ من سَحْبان ، وأندَى من الغَمام ، وأنفَذُ من السّهام ، وأكبَرُ من جميع الأنام .

فقال أبو الفتح وتبسّم : هذا أيضا من ودائع[1] فضلِك ، و بواعثِ تفضّلك . ووصَلَه وصرَفَه .

قال[2] : لم يكن هذا الحديث عندى .

وأما بشر بن هارون فليس من هـذه الطبقة فى شىء ، لـكنه يَقرُص فيحزُ[3] ويَشَمُّ فيهزّ ، و يجرح فيُجهِز ؛ والمَدْهُوُّون[4] منه كثير ؛ « وأصحابنا[5] يستحسنون قول ابن الحجاج فى الوزير حين يقول :

لله دَرُّ الحسين من قمر رُدّت إليه وزارة الشمس

فقال : إن قبلتُ هذا منهم خفتُ أن يقال : مادح نفسه يقرئك السلام ؛ وما أصنع بهذا البيت وهو مضموم إلى كلّ بيت سخيف فى القصيدة » .

(٥) ثم قال : وجب أن نصف قبل هذا عصابة العلماء ، فلِم تركنا ذكرهم ونحن لا نخـلو فى حديثهم من غُرَّة لائحة ، وفائدة نافعة ، وصوابٍ زائد فى العقل وفضيلة على الأدب ، وحِلمٍ يُزدان به فى وقت الحاجة ، وحكمةٍ يستعان بها فى داهِمَة ؛ ورأى يكون مَقيلا للتمييز عند تهجيرنا به .

(١) من ودائع فضلك ، أى من فضلك الذى تودعه لدينا فنحفظه لك ونؤديه إليك جزاء وفاقا .

(٢) قال ، أى الوزير أبو عبد الله العارض .

(٣) فى الأصل : « يقرض فيخز » ، وهو تصحيف فى كلتا الـكلمتين . ويريد بهذه العبارة والعبارتين اللتين بعدها أن أثره بالغ غايته فى الهجاء .

(٤) المدهوون ، أى المبتلون بالدواهى منه .

(٥) الظاهر أن هـذا الـكلام الذى بين هاتين العلامتين مؤخر عن موضعه وموضعه الـكلام فى ابن حجاج السابق ذكره إذ لا مناسبة بينه وبين ما هنا .

قلتُ : أما أبو عبد الله الجُعَل[١] فقد شاهدتَه . قال : صدقتَ ، ولكن لم أقف على مذهبه ودُخْلتِه وسيرته فى اعتقاده .

قلتُ : كان الرجل ملتهب الخاطر ، واسعَ أطراف الكلام ، مع غثاثة اللفظ ، وكان يرجع إلى قوّة عجيبة فى التدريس ، وطول نَفَس فى الإملاء ، مع ضيق صدر عند لقاء الخصم ومُعارَكةِ القِرْن ، بعيد العهد بالمِصاع والدفاع والوِقاع ؛ وكان سببُ هذا الجبن والخَوَر قلّةَ الضَّراوة على هذه الأحوال ؛ ولقد خَزِىَ فى مَشاهد عظيمة .

وأمّا يقينه فكان ضعيفا ؛ وأما سيرته فكانت واقفةً على حبّ الرياسة وبذل المال والجاه إذا حضرا ، مع تعصّب شديد لمن قدّمه وأحبّه ، وإنحاء مفرط على من عاداه ، وكان خَوضُه فى الدوَل والولايات — ولهذا رغب عنه[٢] الواسطىّ وكان أخا ورع ودين — وقال[٣] : هذا منفّر[٤] عن الدين والمذهب ، ودافع[٥] للناس عن القول بالحق ، وطارح للشبهة فى القلوب .

وكان يجهر بهذا وأشباهه ، ولكن كان جاه الرجل لا يُنتقَص بهذا القدر وركنُه لا يتخلخل على هذا الهَدّ ، لأسباب انعقدت له ، وأصحاب ذبّوا عنه .

وأما ابن المَلّاح فشيخ حسن المعرفة بالمذهب ، شديد التوقّى ، محمود القناعة

(١) فى الأصل « جفل » ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا . والجعل ، هو أبو عبد الله الحسين بن علىّ ، أصله من البصرة وبها ولد سنة ٣٠٨ وانتهت إليه الرياسة فى علم الكلام فى عصره ، وكان كذلك فقيها ، وله كتب فى الكلام وكتب فى الفقه ، من أشهر كتبه فى الكلام كتاب نقض كلام الراوندى ونقض كلام الرازى . مات ببغداد سنة ٣٩٩ .

(٢) « فيه » .

(٣) وقال ، أى الواسطى .

(٤) « منفر » .

(٥) « ونافع » .

ظاهر الرضا ؛ تَدُلُّ(١) سيرته الجميلة على أنه حَسَن العقيدة .

وأما ابن المعلّم(٢) فحَسَن اللّسان والجَدَل ، صبور على الخصم ، كثيرُ الحيلة ظنينُ(٣) السرّ ، جميل العلانية .

وأمّا أبو إسحق النصيبي فدقيق الكلام ، يشكّ فى النبوّات كلّها ، وقد سمعتُ منه فيها شُبَهًا ، ولُغَتَه(٤) معقّدة ، وله أدب واسع ؛ ولقد أضلّ بهمذان كاتبَ فخر الدولة أبنَ المرزبان . وحمله على قلّة الاكتراث بظلم الرعيّة ، وأراه أنه لا حرج عليه فى غَبْنِهِم لأنهم بهائم ، وما خرج من الجبل حتى أُفتضح .

وأما ابن خيران(٥) فشيخ لا يعدو الفقه ، وفيه سلامة .

وأما الدّارَكى(٦) فقد اتخذَ الشهادة مكسبَة ، وهو يأكل الدنيا بالدين ، ويغلب عليه اللّواط ، ولا يرجع إلى ثقة وأمانة ؛ ولقد تهتّك بنَيْسابورَ قديما ، وببغداد حديثا ؛ هذا مع القَدامة والوخامة ؛ ولقد نَدّ بجُعْلٍ(٧) غلام ، وهو اليوم قاضى الرى . وأبن عبّاد يَكنُفه ويقرّبه ليكون داعية له ونائبا عنه ، وليس له أصل وهو من سواد همذان ، وأبوه كان فلاّحا ، ولقد رأيتُه ، إلا أنّه يأتى لابن عباد فى سَمْتِه ولزوم ناموسه حتى خفّ عليه ، وهو اليوم قارون ؛ وقد علت رتبته فى

---

(١) « يدل » .

(٢) ابن المعلّم ، هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان ، انتهت إليه رياسة الشيعة الإمامية فى الفقه والكلام والآثار ولد سنة ٣٣٨ .

(٣) ظنين ، أى متهم .

(٤) « ولقبه » .

(٥) هو أبو على الحسين بن صالح بن خيران ، أحد فقهاء عصره ، ألف فى الفقه كتاب « اللطيف » وكتاب « المقدمات » .

(٦) لعله يريد أبا القاسم الدارکى ، نسبة إلى دارك ، قرية فى أصفهان ، أحد فقهاء الشافعية وهو بغدادى ، أقام بنيسابور مدة ، وانتهى التدريس إليه ببغداد ، وأخذ عنه عامة شيوخها ؛ مات سنة ٣٧٥ .

(٧) فى الأصل : « ندر » ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا . وند : هرب .

الكلام حتى لا مزيد عليها ، إلا أنه مع ذلك نَغِلُ[1] الباطن ، خبيث الخبء ، قليل اليقين ؛ وذلك أن الطريقة التي قد لزموها وسلكوها لا تفضى بهم إلا إلى الشك والارتياب ، لأن الدِّين لم يأت بكَمٍّ وكَيْفٍ فى كلّ باب ، ولهذا كان لأصحاب الحديث أنصارِ الأثر ، مزية على أصحاب الكلام وأهل النظر ؛ والقلبُ الخالى من الشبهة أسلم من الصدر المحشوّ بالشكّ والريبة ، ولم يأت الجَدَل بخير قطّ . وقد قيل : من طلب الدين بالكلام ألْحَد ، ومن تتبع غرائب الحديث كُذِب ، ومن طلب المال بالكيمياء أفتقر . وما شاعت هذه الوصيّة جُزافا ، بل بعد تجربة كرّرها الزمان ، وتطاولت عليها الأيام ؛ يتكلم أحدهم فى مائة مسألة ويورد مائة حجّة ثم لا ترى عنده خشوعا ولا رقة ، ولا تقوى ولا دَمعة ؛ وإن كثيرا من الذين لا يكتبون ولا يقرءون ولا يحتجّون ولا يناظرون ولا يُكرَمون[2] ولا يفضّلون خيرٌ من هذه الطائفة وألينُ جانبا ، وأخشع قلبا ، وأتقى لله عزّ وجلّ ، وأذكَرُ للمَعاد ، وأيقن بالثواب والعقاب ، وأقلق من الهفوة ، وألوَذُ[3] بالله من صغير الذنب ، وأرجع إلى الله بالتوبة ؛ ولم أر متكلّما فى مدّة عمره بكى خشية ، أو دمعت عينُه خوفا ، أو أقلَع عن كبيرة رغبة ؛ يتناظرون مستهزئين ويتحاسدون متعصّبين ، ويتلاقَون متخادعين ، ويصنّفون متحاملين ؛ جذّ الله عروقهم ، وأستأصل شأفتهم ، وأراح العباد والبلاد منهم ؛ فقد عظمت البلوى بهم ، وعظمت آفتهم على صغار الناس وكبارهم ؛ ودَبَّ داؤهم ، وعسر دواؤهم ؛ وأرجو ألا أخرج من الدنيا حتى أرى بنيانهم متضعضِعا ، وساكنه متجعجِعا[4] .

(١) « ثعل » . والنغل : الفاسد السيء .

(٢) « يلزمون ولا يتفضلون » .

(٣) هذه الكلمة مطموسة بالأصل .

(٤) متجعجعا ، أى ضاربا بنفسه الأرض من وجع .

قال : فما تقول فى ابن الباقلّانى ؟ [١] . قلتُ :

فما شَرُّ[٢] الثلاثة أمّ عمرو　　بصاحبك الّذى لا تصبَحِينا

يزعم أنه ينصر السنّة ويُفحِم المعتزلة وينشر الرواية ؛ وهو فى أضعاف ذلك على مذهب الخُرَّمية ، وطرائق الملحِدة . قال : والله إن هذا لمن المصائب الكبار والمِحَن الغلاظ ، والأمراض التى ليس لها علاج .

ثم قال : إنّ الليل قد ولّى ، والنعاس قد طرق العين عابثا ؛ والرأى أن نستجمّ لننشَط ، ونستريح لنتعب ؛ وإذا حضرت فى الليلة القابلة أخذنا فى حديث الخلق والخُلق — إن شاء الله — وأنا أزوِّدك هذا الإعلام ليكون باعثاً لك على أخذ العَتاد بعد اختياره فى صدرك ، وتَحِيلَ الحالَ به عند خوضك وفيضك ولا تجبنْ جبن الضعفاء ، ولكن قُلْ واتّسع مجاهرا بما عندك ، منفقا ممّا معك .

وانصرفتُ .

الليلة التاسعة

وعدتُ ليلة أخرى فقال : فاتحةُ الحديث معك ، فهاتِ ما عندك . فكان (١)
من الجواب : أن أخلاق أصناف الحيوان الكثيرة مؤتلِفةٌ فى نوع الإنسان ، وذلك أن الإنسان صفوُ الجنس الذى هو الحيوان ، والحيوان كَدَرُ النوع الذى هو الإنسان والإنسان صفو الشخص الذى هو واحد من النوع ، وما كان صفوا ومُصاصا[٣] بهذا النظر انتظم فيه من كلّ ضرب من الحيوان خُلُق وخُلقان وأكثر ،

(١) ابن الباقلانى ، هو القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى أحد أعلام المتكلمين ، ومن أكبر أنصار مذهب الأشعرى ، ومؤلف كتاب « إعجاز القرآن » مات سنة ٤٠٣ .

(٢) البيت لعمرو بن كلثوم ؛ وهو هنا على طريق المثل .

(٣) المصاص : العصارة .

وظهر ذلك عليه وبطن[١] أيضا بالأقل والأكثر والأغلب والأضعف ، كالكُمُون الذى فى طباع السبع والفأرة ، والثباتِ الذى فى طباع الذئب ، والتحرّز الذى فى طباع الجاسوس من بنات الليل ، والحذر الذى فى طباع الخنزير ، والتقدم الذى فى طباع الفيل أمام قطيعه تمثُّلا بصاحب المقدّمة .

وكذلك ضد ذلك فى الخنزير تمثُّلا بصاحب الساقة ، وكالحراسة التى فى طباع الكلب ، وكأوْب الطير إلى أوكارها التى تراها كالمعاقل وغيرها بالدَّغَل[٢] والأشَبِ والغِياض .

ولهذا قال بعض الحكماء : خذ من الخنزير بُكورَه فى الحوائج ، ومن الكلب نُصحَه لأهله ، ومن الهرّة لطفَ نَفْسها عند المسألة .

وقالت الترك : ينبغى للقائد العظيم أن يكون فيه عشر خصال من ضروب الحيوان : سخاء الديك ، وتحنّن الدجاجة ، ونجدةُ الأسد ، وحَملة الخنزير وروَغانُ الثعلب ، وصبرُ الكلب ، وحراسةُ الكرْكىّ ، وحذر الغراب ، وغارة الذئب ، وسِمن بعروا[٣] ، وهى دابة بخراسان تسمن على التعب والشقاء .

ولما وُهِب الإنسان الفطرة[٤] ، وأُعِين بالفكرة ؛ ورُفِد بالعقل ، جمع هذه الخصال وما هو أكثر منها لنفسه وفى نفسه ، وبسبب هذه المزية الظاهرة فَضَل جميع الحيوان حتى صار يبلغ منها مراده بالتسخير[٥] والإعْمال واستخراج المنافع منها وإدراكِ الحاجات بها ؛ وهذه المزية التى له مستفادة بالعقل ، لأن العقل ينبوع العلم ، والطبيعة ينبوع الصناعات ، والفكرُ بينهما مستملٍ منهما ومؤدٍّ بعضها

(١) « وبطن » .
(٢) الدغل والأشب : الشجر الكثير الملتف بعضه ببعض .
(٣) كذا ورد اسم هذه الدابة فى الأصل . ولم نجده فيما بين أيدينا من الكتب .
(٤) « الفكرة » .
(٥) « بالتنجير والاقبال » .

إلى بعض بالفيض الإمكانى والتوزيع الإنسانى ؛ فصوابُ بديهةِ الفكرة من سلامة العقل ، وصوابُ روّية الفكرة من صحّة الطباع ، وصحّةُ الطباع من موافقة المزاج ، وموافقة المزاج بالمَدَد(١) الاتفاق والاتفاقِ النيبيّ ؛ أعنى بهذا أن وجه الحادث المجهول عندنا أتفاق ، ووجه الحادث المعلوم عند الله عزّ وجلّ غيب ؛ فلو ظهر هذا الغيب لبطل الاتفاق ، ولو بطل الاتفاق لارتفع الغيب .

فانقسمت الأحداث [بين ما هو](٢) على جَديلة(٣) واحدة معروفة ، وبين نادر لا يدوم العهد به ، فدلّ ما ظهر وأستمرّ على ما جاد به ووَهَب ، ودلّ ما غاب وأستتر على ما تفرّد به وغَلَب .

ولما كان الحيوان كلُّه يَعمل صنائعَه بالإلهام على وتيرة قائمة ، وكان الإنسان يتصرّف فيها بالأختيار ، صحّ(٤) له من الإلهام نصيب حتى يكون رِفدًا له فى أختياره ، وكذلك يكون النحل أيضا ، صحّ له من الأختيار قسط فى إلهامه حتى يكون ذلك مُعيناً له فى اضطراره ، إلاّ أن نصيب الإنسان من الإلهام أقلّ كما أن قسط سائر الحيوان من الاختيار أَنْزَر(٥) ؛ وثمرة أختيار الإنسان إذا كان مُعاناً بالإلهام أشرف وأدوَمُ وأَجْدَى(٦) وأنفع وأبقى وأرفع من ثمرة غيره من الحيوان إذا كان مرفوداً بالأختيار ، لأن قوّة الأختيار فى الحيوان كالحُلم كما أن قوة الإلهام فى الإنسان كالظلّ .

ومراتب الإنسان فى العلم ثلاث تظهر فى ثلاثة أنفس ، فأحدهم مُلْهَم

(١) « الندد » .
(٢) هذه التكملة التى بين مربعين ساقطة من الأصل ، والسياق يقتضيها .
(٣) الجديلة : الشاكلة يقال : هم على جديلة واحدة ، أى على شاكلة واحدة .
(٤) « وصح » .
(٥) « أكثر » .
(٦) « وأحدّ » .

فيتعلّم[١] ويعمل ، ويصير مبدأً للمقتبسين منه ، المقتدين به ، الآخذين عنه ، الحاذين على مثاله ، المارّين على غِراره ، القافين على آثاره ؛ وواحد يتعلّم ولا يُلهَم فهو يماثل الأوّل فى الدرجة الثانية ، أعنى التعلّم ؛ وواحد يتعلّم ويُلهَم ، فتجتمع له هاتان الخَلّتان ، فيصير بقليل ما يتعلّم مُكثِرًا للعمل والسلم بقوّة ما يُلهَم ويعود بكثرة ما يلهم مصفّيًا لكل ما يتعلّم ويعمل .

والكلام فى هذه المواضع ربّما جَمَح فلم يمكن كفّه ، فينبغى أن يضح العذر إذا عرض تفاوُتٌ فى الترتيب ، ودخل الخَلَلُ من ناحية التقريب .

وقال أبو سليمان لنا فى هذه الأيام : [الإنسان[٢]] بين طبيعته وهى عليه وبين نفسه وهى له ، كالمنتهَب المتوزَّع ، فإن استمد من العقل نورَه وشعاعَه قوِىَ ما هو له من النفس ، وضَعُف ما هو عليه من الطبيعة [وإلا فقد قَوِىَ ما هو عليه[٣] من الطبيعة] وضَعُف ما هو له من النفس .

وحَكى لنا فقال : كان للحكماء الأوّلين مَثَلٌ يضربونه ويكتبونه فى هَيَاكِلِهم ومتعبَّداتهم وهو : « المَلَك الموكَّل بالدنيا يقول : إنّ هٰهنا خيراً وهٰهنا شرا ، وهٰهنا ما ليس بخير ولا شر ، فمن عرف هذه الثلاثة حقّ معرفتها تخلّص منّى ، ونجا سليما ، وبقى كريمًا ، وملك نعيما عظيما » .

ومن لم يعرفها قتلتُه شرّ قِتلة ، وذلك أنى لا أقتله قتلا وحِيًّا[٤] يستريح به منّى ، ولكن أقتله أوّلاً فأوّلاً فى زمان طويل ، بحَسَرات على فَوْتِ مأمول

(١) فى الأصل : « فيلهم » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا بدليل قوله بعد فى القسم الثانى « فهو يماثل الأول فى الدرجة الثانية أعنى التعلم » .
(٢) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضيها .
(٣) « له » .
(٤) وحيّا ، أى سريعاً .

بعد مأمول ، و بلايا يكون بها كالمغلول المكبول .

قال(١) : هذا كلام شريف فى أعلى ذروة الحكمة ، لكنّك خلّيتَ يدَك من طُرَف الحَديث فى الخُلُق . قلتُ : إذا طاب الحديث باُسترسال السجيّة ووقوع الطُّمأنينة لهَا الإنسانُ عن مباديه ، وسال مع الخاطر الّذى يستهويه ، ولِتحفُّظ الإنسان فى قوله وعمله من الخَطَل والزَّلَلِ حَدٌّ إذا بلغه كلَّ الخاطر واُختلّ .

ثم نعود فنقول : أخلاق الإنسان مقسومة على أنفُسه الثلاث : أعنى النفسَ الناطقة ، والنفسَ الغضبيّة ، والنفسَ الشهوانيّة ، وسماتُ هذه الأخلاق مختلِفة بعَرْض واسع .

ويمكن أن يقال فى نعتها على مذهب التقريب : إنها بين المحمودة و بين المذمومة ، و بين المشوبة بالحمد والذمّ ، و بين الخارجة منهما . فمن أخلاق النفس الناطقة — إذا صفت —(٢) البحث عن الإنسان ثم عن العالَم ، لأنّه إذا عَرف الإنسانَ فقد عَرف العالَم الصغير ، و إذا عَرف العالَم فقد عَرف الإنسانَ الكبير ، و إذا عَرَفَ العالَمَين عرف الإله الّذى بجُودِه وُجِد ما وُجِد ، وبقدرته ثبَت ما ثبَت ، و بحكمته ترتّب ما ترتب ؛ و بمجموع هذا كلّه دام ما دام .

بهذا البحث يتبيّن له ما تشتمل عليه القوة الغضبية والقوّة الشهويّة فإن توابع هاتين القوّتين أكثر ، لأنّهما بالتركيب أظهر ، وفى(٣) الكثرة أدخَل وعن الوحدة أخرَج ؛ فإذا ساسَتْهما الناطقة حذَفتْ زوائدها ، ونفَتْ فواضِلَهُما

(١) قال ، أى الوزير .
(٢) « صفت » .
(٣) « وعن » .

ووَفّتْ نواقصهما ، وذيّلت قَوالِصَهما[١] أعنى إذا رأت غُلْمةً فى الشهويّة أخمدتْ نارَها ، وإذا وجدت السَّرَفَ[٢] فى الغضبيّة قصّرت عِنانها[٣] ؛ فحينئذ يقومان على الصراط المستقيم ، فيعود السَّفَه حِلْما أو تحالُما ، والحسد غِبْطةً أو تغابُطا والغضبُ كظْما أو تكاظُما ، والغيُّ رُشْدًا أو تَراشُدا ، والطيشُ أناةً أو تآنيا[٤] وصرّفتْ هذه الكوامنَ فى المَكامِن — إذا سارت سَوْرَتُها ، وثارت ثَوْرَتُها — على مناهج الصواب ، تارةً بالعظة واللُّطف ، وتارةً بالزّجر والعُنف وتارةً بالأَنَفة وكِبر النفس ، وتارةً بإشعار[٥] الحذر ، وتارةً بعلوّ الهمة ؛ وهناك يصير العفو عند القادر ألذّ من الانتقام ، والعَفافُ عند المائج ألذّ من قضاء الوطر ، والقناعةُ عند المحتاج أشرفَ من الإسفاف ، والصَّداقةُ عند الموتور آثَرَ من العداوة ، والمداراة عند المُحْفَظَ[٦] أطيبَ من المماراة .

وفى الجملة ، الخُلُق الحَسَن[٧] مشتقّ من الخَلْق ، فكما لا سبيل إلى تبديل الخَلْق كذلك لا قدرة على تحويل الخُلُق ، لكنّ الحضّ[٨] على إصلاح الخُلُق وتهذيب النفس لم يقع من الحكماء بالعَبَث والتجزيف ، بل لمنفعة عظيمة موجودة ظاهرة ، ومثاله أن الحبشىّ يتدلّك بالماء والغَسول لا ليستفيد[٩] بياضا ، ولكن

---

(١) ذيلت قوالصهما ، أى طولت ما قصر وتقبض منهما .
(٢) « الشرف » .
(٣) « عنلانها » .
(٤) « ثانيا » .
(٥) « باشعا والحذر » .
(٦) « التحفظ » .
(٧) الظاهر أن قوله « الحسن » زيادة من الناسخ . فسياق الجملة يقتضى أنه يريد الخلق الحسن وغيره .
(٨) « لكرا نحص » .
(٩) « يستعيذ » .

ليستفيد نقاء شبيها[1] بالبياض ؛ ويقال للمِهْذار : « اُكْفُفْ » لا ليكفّ[2] عن النطق ، ولكن ليؤْثِرَ الصمت .

ويقال للموتور : « لا تحقد » لا ليزول عنه ما حَنِق[3] عليه ، ولكن ليتكلّف الصبر ويتناسى الجزاء على هذا أبدا .

وقد تقرّر بالحكمة الباحثة عن الإنسان وطرائق ما به وفيه أن أحواله مختلفة ، أعني أن كل ما يدور عليه ويحور إليه[4] مقابل بالضدّ[5] أو شبيهٍ بالضدّ كالحياة والموت ، والنوم واليَقظة ، والحَسَن والقبيح ، والصواب والخطأ ، والخير والشر ، والرجاء والخوف ، والعدل والجور ، والشجاعة والجُبْن ، والسخاء والبخل ، والحلم والسَّفَه ، والطَّيْش والوَقار ، والعلم والجهل ، والمعرفة والنَّكِرة والعقل والحُمْق ، والصحة والمرض ، والاُعتدال والانحراف ، والعفّة والفجور والتنبّه والغفلة ، والذِّكر والنسيان ، والذكاء والبلادة ، والغبطة والحسادة والدماثة والكزَازَة[6] ، والحق والباطل ، والغيّ والرُّشد ، والبيان والحَصَر والثقة والاُرتياب ، والطّمأنينة والتُّهَمة ، والحرَكة والسكون ، والشكّ واليقين والخَلاعة والوَقار ، والتوقّي والتهوُّر ، والإلف والمَلَل ، والصدق والكذب والإخلاص والنفاق ، والإحسان والإساءة ، والنصح والغش ، والمدح والذم وعلى هذا الجرّ والسَّحْب[7] ؛ ولعل هذه الصفات بلا آخر ولا انقطاع .

(١) « تشبيها » .
(٢) « لتكتفي عنه » .
(٣) « طبق » .
(٤) « ويجوز عليه » .
(٥) « بالصدأ » .
(٦) « الكرارة » بالمهملتين .
(٧) « الجراء والسجب » .

فما ينبغي أن يُعنى الإنسانُ المحبُّ للتبصرة ، المؤثِرُ للتذكرة ، الجامع للنافع له ، النافي[1] للضارّ به في هذه الأحوال التي وصفناها بأسمائها معرّفةً — ما استطاع — باجتلاب[2] محمودها واجتناب مذمومها ، وتمييزه مما يكمن[3] فيه أو تقليله ، أو إطفاء جمرته ، أو اجتناء ثمرته ، والطريق إلى هذا التمييز واضح قريب ، كأن[4] تنظر إلى الحياة والموت فتعلم أنّ هذين ليسا من الأخلاق ولا ممّا يعالَج بالاجتهاد ، و إلى النوم واليَقَظة فتعلم أنّهما ضروريّان للبدن من وجه ، وغيرُ ضروريّين من وجه ، فتَنْفِي[5] منهما ما خرج عن حدّ الضرورة وتُسلِم البدن ما دخل في حدّ الضرورة ؛ ولا يكثرنّ[6] الإنسانُ نومَه ولا سهرَه ، ولكن يطلب العدل بينهما بقدر جهده .

فأمّا الحسَن والقبيح فلا بدّ له من البحث اللطيف عنهما حتى لا يجور[7] فيرى القبيحَ حَسَنا والحسنَ قبيحا ، فيأتي القبيحَ على أنه حَسَن ، و يَرفُض الحسَنَ على أنّه قبيح ؛ ومَناشئ الحسَن والقبيح كثيرة : منها طبيعيّ ، ومنها بالعادة ، ومنها بالشرع ، ومنها بالعقل ، ومنها بالشهوة ، فإذا أُعتبر هذه المناشئ صدِّق الصادق منها وكُذِّب الكاذب ، وكان أُستحسانُه على قَدْر ذلك ومثال ذلك الكِبْر فإنه مَعِيب بالنظر الأوّل ، لكنّه حَسَنٌ في موضعه بالعلّة[8] الداعية إليه ، والحال الموجبة له .

(١) « النافي » .
(٢) « باجتلاب » متعلق بـ « يعنى » .
(٣) « يكمن » .
(٤) « كأنك » .
(٥) « فيستعمل » .
(٦) « يكون » .
(٧) « يجوز » .
(٨) « بالقلبة » .

وأما الصواب والخطأ فأمران عارضان للأقوال والأفعال والآراء ، وليسا بخُلُقين محضين ، ولكنهما موكولان إلى نور العقل ، فما أشرَقَ[1] عليه العقل بنوره فهو صواب ، وما أفَل[2] عنه العقل بنوره فهو خطأ .

وأما الخير والشرّ فهما فى العموم والشُّمول ليسا بدون الصواب والخطأ لهما مناط بكلّ شىء ، ويغلِبان على الأفعال ، وإن كان أحدُهما عدَما للآخَر .

وأمّا الرجاء والخوف فهما عَرَضان للقلب بأسباب بادية وخافية ، ولا يدخلان فى باب الخُلُق من كل وجه [ولا يخرجان أيضا بكل وجه] وهما كالمِبادِين للإنسان قد أُستُصلِح لهما ، ورُبِط قِوامُه بغلبتهما وضَعْفِهما .

وأما العدل والجَوْر فقد يكونان خُلُقَين بالفِطْرة ، ويكونان فِعْلين بالفِكرة وجانباهما بالفِعْل[3] ألصق ، وإلى الاكتساب أقرب .

وأما الشجاعة والجبن فهما خُلُقان متصلان بالخَلْق ، ولهذا يعزّ على الشجاع أن يتحوّل جبانا ، ويتعذرُ على الجبان أن يصير شجاعا ، وكذلك طرفاهما داخلان فى الخُلُق أعنى التهوّرَ والتوقّى[4] .

وأمّا السخاء والبخل فهما خُلُقان محضان أو قريبان من المَحْض ، ولهذا تعلّقَ الحمد والذم بهما وبأصحابهما ، والمدح والهجو سريا[5] إليهما واتصلا بهما ؛

(١) « أشرف » .
(٢) « أقل » .
(٣) « بالعقل » .
(٤) فى الأصل : « والجبن » ؛ وما أثبتناه هو المناسب لقوله : « وكذلك طرفاهما إذ الجبن لا يكون طرفا للجبن ، ويدل على صحة ما أثبتنا ذكره التوقى بجانب التهور فيما سبق فى ص ١٤٩ س ١٤ .
(٥) « ريا » .

وقد يندم السخىّ على بذله كثيرا خوفا من الإملاق ، فلا يستطيع ذلك إذا أخذته الأريحيّة ، وحرّكته اللّوذعيّة ؛ وقد يلوم البخيل نفسه كثيرا إذا سلقته الألسنة الحداد ، وجُبه[١] بالتوبيخ ، وشمخ[٢] عند رؤيته الأنفُ ، وغُضّنَ[٣] الجبين وأُولِمَ[٤] بالعذل وقوبل ؛ ومع ذلك فلا يَرْشَح إلا على بطء وكُلْفة وتضجُّر ؛ والكلام فى هذين الخُلُقين طويل ، لأنهما أدخل فى تلاقى الناس وتعاطيهم فى عِشرتهم ومعاملتهم .

وأما الحِلم والسَّفه فهما أيضا خُلُقان ، والأخلاق تابعة لِلمزاج فى الأصل ، ولذلك قلنا : إن الخُلُق ابنُ الخَلْق ، والولد شبيهٌ بوالده ؛ وفى الجملة ، كل ما يمكن أن يقال فيه للإنسان « لا تفعل هذا » ، « وأقلل من هذا وكف عنه » فإنه فى باب الأفعال أدخَل ، وكل ما لم يَجُزْ أن يقال ذلك فيه فهو فى باب الأخلاق أدخَل ، ثم لبعض هذا نسبة إلى الخُلُق أو الخَلْق ، إما ظاهرة غالبة وإما خفية ضعيفة .

وأما الطَّيْش والوَقار فهما يختلطان بالحلم والسَّفه ويجريان معهما ؛ فليس ينبغى أن يُنشَر الكلامُ ويطولَ الشرح .

وأما الجهل والعلم فليسا[٥] من الأخلاق ولا من الخَلْق وإنما[٦] يَبرزان من صاحب الأخلاق والخَلْق للمزاج أثرين قويّين[٧] واحدها عَدَم

(١) « وجبه » .
(٢) « وسبح » .
(٣) « وعض » .
(٤) فى الأصل « واكيل بالعذل وقوتل » .
(٥) « فليا » .
(٦) فى الأصل : « وإنما كانا يبرزان » .
(٧) « أثر قوىّ » .

والآخر وجدان ، والعدم(١) لا يكون أعدمَ من عدم ، والوِجدان يكون أبينَ من وجدان .

وأما المعرفة والنكرة فهما فى جوار العلم وضدّه ، ولكنهما أعلق بالحِسّ وألصق بالنفسَيْن، أى الشَّهْوِيّة والغضبيّة .

وأمّا العقل والحُمق فليسا من الخُلُق ، والكلام فى تفسير العقل مشهور(٢) ، وعدمه الحمق .

وأما الصحة والمرض فليسا أيضا من الأخلاق ، ولكنهما يوجدان فى الإنسان بواسطة النفس ، إما فى البدن ، وإما فى العقل ، ولذلك يقال : أمراض البدن ، وأمراض النفس ، [وصحة البدن] (٣) وصحة النفس .

وأما الاعتدال والانحراف فهما يدخلان فى الخُلُق بوجه ، ويخلصان منه بوجه ، ويعمّان أعراض البدن وأعراضَ النفس ، ويوصَف بهما الإنسان ، على أن الانحراف المطلَق لا يوجد ، والاعتدال المطلق لا يوجد ، ولكنْ كلاهما بالإضافة . وأما العفة والفجور فخُلُقان لهما جَمْرة(٤) وهُمُود ، والحاجة تمسّ إلى العدل فى استعمال العفة ونَفْى(٥) الفجور ، وإذا قويت العفّة حالت عصمة ، وإذا غلب الفجور صار عدوانا .

وأما التنبّه والغفلة فقريبان من الخُلُق ويغلبان على الإنسان ، إلا أن فرط التنبّه موصولٌ بالوَحْى ، وفرطَ الغفلة موصول بالبهيمية .

---

(١) « والعدو » .
(٢) « يستمر به » .
(٣) لم ترد هذه العبارة التى بين مربعين فى الأصل ؛ والسياق يقتضى إثباتها .
(٤) « حمرة » بالمهملة .
(٥) « وتقى » .

وأما الذكر والنسيان فليسا بخُلُقين محضَين، ومنشؤهما بالمزاج، وأحدهما من علائق النفس العالمة، والآخر من علائق النفس البهيمية.

[وأما الذكاء والبلادة[1]] فهما خُلُقان، ونعتهما كنعت الذِّكر والنسيان، إلا أن هذين[2] يَعرِضان فى الحين[3] بعد الحين، والأخريان[4] كالراسخَين فى الطينة.

وأما الغِبطة والحسد فخلقان رُسِم الأول منهما بأن تمنى لنفسك ما أُوتيَه صاحبُك [ورُسِم الثانى بأن تمنى زوال ما أُوتِيَه صاحبُك][5] وإن لم يصل إليك. ورسوم هذه الأخلاق أسهل من تحديدها، لكنّا تركنا ذلك، لأنّ الكلام الذى كان يجرى، هو على مذهب الخدمة.

على أن مراتب هذه الأخلاق مختلفة، فيبعد أن يعمّها حد واحد، وإنما اختلفت منازلها لأنها[6] تارة تصفو بقوة النفس الناطقة، وتارة تكدر بالقوّتين الأخرَيَيْن؛ ولبعضها حِدّة بالزيادة، ولبعضها كَلّة بالنقص، فلم يكن التحديد يُفَصِّل[7] كلّ ذاك، فلم نعرج[8] على شىء عجزْنا عنه قبل أخذنا فيه. ونُتمّ بقيّة ما عَلِق بهذه الجملة، فنقول:

وأما الدماثة والكَزَازة فخلُقان محضان تابعان للمزاج، ثم المِران يزيدهما قوّة وضَعفا؛ وهما للنعت أقرب، كالسهولة والعسر؛ ولذلك يقال: « ما أدْمَثَ

(١) لم ترد هذه العبارة التى بين مربعين فى الأصل.
(٢) هذين، أى الذكر والنسيان.
(٣) « الجبن بعد الجبن ».
(٤) الأخريان، أى الذكاء والبلادة. وفى الأصل « والأوليان ».
(٥) هذه العبارة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل؛ والسياق يقتضى إثباتها.
(٦) « لأن ».
(٧) « بنقص ».
(٨) « يمرح ».

هذه الأرض » ، أى ما أرخاها وألينَها ؛ وفى المَثَل : « دَمِّثْ لجَنْبِك قبل النوم[1] مضطجَعا » .

وأما الحق والباطل فليسا من الخُلُق ولا الخَلْق فى شىء ، وهما من نتائج المعرفة والنكرة ، لأنّك تعرف الحق وتنكر الباطل ، وذلك لأغراض تتبعهما ، ولواحقَ تلتبس بهما .

وأما الغَىّ والرُّشْد فليسا من الخُلُق ، لكنهما من علائق الأفعال الحميدة والذميمة ؛ وللرأى والعقل[2] فيهما مدخل قوىّ وحظّ تامّ .

وأما البيان والحَصَر فليس بينهما وبين الخُلُق علاقة ، وإنما يتبعان المِزاج ويزيد فيهما وينقصُ الجهدُ والتوانى والطلب والقُصور .

وأمّا الثقة والارتياب فخلُقان يغلبان ينفعان ويضرّان ويُحمدان ويُذمّان ألا ترى[3] أنه يقال : لا تثق بكلّ أحد ، « ولا تَرْتَبْ بكلّ إنسان » وهكذا الطُّمأنينة والتُّهَمَة ، لأنهما فى طيهما .

وأما الحركة والسكون فليسا[4] من حديث الخُلُق فى شىء لأنّهما عامّان[5] لجميع الأحوال سواء كان العمل مباشرا أم كان معتقَداً ؛ وفى الحركة والسكون كلامٌ واسع ، وذلك أن هٰهنا حركةً إلٰهيّةً ، وحركةً عقليّة ، وحركةً نفسيّة ، وحركةً طبيعيّة ، وحركة بدنية ، وحركة فلكيّة ، وحركة كوكبيّة ، وحركةً

(١) فى الأصل « الترب » . وهذا صدر بيت ، وعجزه :
* لا تسلكن طريقاً غير مأمون *
(٢) « والعقد » .
(٣) « إلا أن ترى » .
(٤) « فليا » .
(٥) « علمان » .

كأنها سكون . فأما السكون فهو ضرب واحد ، لأنه فى مقابلة كلّ حركة ذكرناها . فإذا اعتُبرتْ هذه المقابلةُ فى كلّ مقابَل لُحِظ الأنقسام فى السكون ، كما وُجد الأنقسام فى الحركة .

والحركة أوضح برهان على كلّ موجود حِسّىّ ، والسكونُ أقوى دليل على كلّ موجودٍ عقلىّ ؛ وهذا القَدر كافٍ فى هذا الموضع .

وأما الشّكّ واليقين ، فمن علائق النفس الناطقة ، ولهذا لا يقال فى الحيوان الذى لا ينطق : له يقين وشك .

وأما الخلاعة والوقار ، فقد تقدّم البحث عنهما[١] .

وأمّا التوقّى والتهوّر ، فهما خُلُقان فى جميع الحيوان ، ويَغلبان على نوع الإنسان ، لأنّ العقل يُبطل[٢] أحدهما[٣] ، والحسّ[٤] يَغلب الآخَر[٥] .

وأما الإلف والمَلَل فخُلُقان محضان ، يُذَمّان ويُحمَدان على قدر المألوف والمملول ، وإن كان جَرَيان العادة قد وَفَّر الحمد على الإلف ، والذم على المَلَل .

وقد مُدِح زيد فقيل : هو أَلوف . وذُمّ عَمرٌو فقيل : هو مَلُول .

وأما الصّدق والكذب ، فمن علائق النفس الناقصة والكاملة ؛ وقد يكونان[٦] [راسخَين[٧]] فيُلحَقان بالخُلُق ، إلا أن الصدق ممدوح ، والكذبَ

(١) يلاحظ أنه لم يرد فيما سبق ذكر الخلاعة والوقار ، ولا ما يفيد معناها .
(٢) « تظل » .
(٣) يريد بقوله « أحدهما » : التهور .
(٤) « والحسن » .
(٥) يريد بقوله : « الآخر » التوقى .
(٦) « يكرّان » .
(٧) هذه الكلمة التى بين مربعين أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل ، والسياق يقتضى إثباتها كما يرشد إليه ما يأتى بعد فى صفحة ١٥٧ فى الكلام على الإحسان والإساءة : « فاذا رسخ اعتيادهما استحالا خلقين » .

مذموم ، هذا فى النظر الأول ، وقد يَعرِض ما يوجب المصير إلى الكذب لِيُنجى به ؛ فهما إذن بعد الحقيقة الأُولى وقفٌ على الإضافة ؛ وقد وجدنا مَن كَذَب لينتفِع ، ولم نجد مَن صَدَق ليكتسب الضرر .

وأمّا الإخلاص والنفاق ، فهما يُلحقان بالخُلُق ، ولكنّهما يَصدُران عن عقيدة القلب وضميرِ النفس .

وأما الإحسان والإساءة ، فهما يعمّان الأفعال والأقوال ، فإذا رَسَخ اُعتيادُهما استحالا خُلُقين .

وأما النُّصح والغِشّ ، فهما خُلُقان ، وطَرَفاهما يتعلّقان بالخَلق .

وكذلك الطَّمع واليأس ، والحبّ والبغض ، واللَّهَج والسُّلُوّ ، وما شاكل هذا الباب .

ولم يَجرِ هذا كلُّه فى المذاكَرة بالحضرة ، ولكن رأيتُ من تمام الرسالة أن أضمّ هذا كلّه إلى حَوْمَتِه[1] ، وأبلغَ الممكنَ من مقتضاه فى تتمّته .

وقال[2] لى : هاتِ الوَداع ، فإنّ الليل قد همّ بالإقلاع .

قلتُ : قال أبو سعيد الذهبىُّ الطبيب : لو علم الّذى يَحمِل الباذنجان أنّ على ظهره باذِنجانًا لَصَالَ على الثِّيران[3] .

فضحِك — أضحَكَ اللهُ سِنَّه ، وحقَّق فى كلّ خير ظنّه — وقال : إن كنتَ تحفظ فى غرائب أخلاق الحيوان شيئا فاُذكره إذا حضرتَ ، فقد مرّ فى أخلاق الإنسان ما يَكفى مجلسَ الإمتاع والمؤانسة ، فإذا ضُمّ هذا إلى ذاك كان للانسان فيه تبصّر كافٍ ، وتذكُّر شافٍ . وصَدَق — صدّق الله قولَه —

(١) « حرمته » .
(٢) وقال ، أى الوزير .
(٣) « النيران » .

لأن الإنسان أشرفُ الحيوان ، وإنما كان هكذا لأنه حاز جميعَ قوى الحيوان ثم زاد عليه بما ليس لشيء منه ، فصار ربًّا له سائسا ، ومصرّفا له حارسا ، ونظر إلى ما سُخِّر له منه فاعتبر ، وقاد[١] نفسَه إلى حَسَن ما رأى ، وعزفها عن[٢] قبيح ما وَجَد ، ولم يَجُزْ فى الحكمة أن يُحرَم الإنسانُ هذا مع ما فيه من المواهب السنيّة ؛ والمنائح المنية ، فإن قال قائل : فالملائكة إذن قد حُرِمتْ هذه الفضيلة ، فليعلم هذا القائلُ أن المَلَك لما خُلِق كاملا لم يكلَّف أن يَكمُل ويتكامَل ويَستكمل ، فصار كل شىء يطلبه ويتوقّاه سببا إلى كماله المُعَدّ له وغايتِه المقصودة .
فإن زاد فقال : فهلا خُلق[٣] كاملا ؟ فليعلم أن كلامه على طريق الجَدَل ، لا على طريق البحث عن العِلَل ، لأنّه قد جهل أنّه بالحكمة وجَب أن يكون الأمر مقسوما بين ما يحوز الكمال بالجِبِلّة[٤] ، وبين ما يَكسِب الكمالَ بالقصد .

ولمّا وَجَب هذا بالحكمة سَرَتْ إليه القدرة ، وساح به الجود ، وأشتملت عليه المشيئة ، وأحاطت به الحكمة ، وشاعت فيه الربوبيّة .

وههنا زيادةٌ فى شرح الخُلُق يتم بها الكلام ؛ فليس من الرأى أن يقع الإخلال بذكرها ، لأنّها مكشوفة ظاهرة ، وهى أنّ الإنسان إذا غلبت الحرارةُ عليه فى مزاج القلب يكون شجاعا بذّالا[٥] ملتهبا ، سريعَ الحركة والغضب قليلَ الحقد ، زكىّ الخاطر ، حسن الإدراك .

وإذا غلبت عليه البُرودة يكون بليدا ، غليظَ الطباع ، ثقيلَ الرُّوح .

---

(١) « وعاد » .
(٢) « من » .
(٣) خلق ، أى الإنسان .
(٤) « بالحيلة » .
(٥) « دالا » .

وإذا غلبت عليه الرطوبة يكون ليّن الجانب، سمحَ النفس، سهلَ التقبّل كثيرَ النسيان.

وإذا غلبتْ عليه اليُبوسة يكون صابرا، ثابتَ الرأى، صعبَ القبول يضبط ويحتدّ[(١)]، ويُمسِك وَيبخل؛ وهذا النعت على هذا التنزيل — وإن كان مفهوما — فأسرار الإنسان فى أخلاقه كثيرة وخفيّة[(٢)]، وفيها بدائع لا تكاد تنتهى، وعجائبُ لا تنقضى؛ وقد قال الأوّل:

كلُّ أمرىءٍ راجعٌ يوما لشيمتِه ... وإن تخلّقَ أخلاقا إلى حِينِ

وقال آخر:

إرْجِعْ إلى خِيمِكَ المعروفِ دَيْدَنُهُ ... إنّ التخلّق يأتى دُونَه الخُلُقُ

ولولا أن النزوع عن الخلُق شاقٌ لما قالوا: تخلّق فلان.

وقد قيل أيضا: «وخالقِ الناسَ بخلُقٍ حسَن»، وعلى هذا يجرى أمرُ الضريبة والطبيعة والنّحيتَة والغريزَة والنّحيزَة والسّجيّة والشّيمة، وربما قيل: الطبيعة أيضا، ثم العادة تاليةٌ لهذه كلّها، أو زائدة فيما نقص فيها، ومُوقِدَة لما خَمَد منها.

الليلة العاشرة

ولما عُدتُ فى الليلة الأخرى ونَمِمتُ بهذه الفضيلة، تفضّل وقال: ما فى العلم شىء إلاّ إذا بُدِىء بالكلام فيه اتّصل وتسلسل حتّى لا يوجد له مَقطَع ولا منفذ ثم قرأتُ عليه نوادرَ الحيوان، وغرائبَ ما كنتُ سمعتهُ ووجدتُه، فزاد عجبا

(١) «ويحقد».
(٢) «وحقيقة».

وأنا أرويه فى هذا المكان حتى يكون تذكرةً وفائدة — إن شاء الله تعالى .

يقال : إن أسنان الرجل أثنتان وثلاثون سنا .

وأسنان المرأة ثلاثون سنا .

وأسنان الخَصىّ ثمانٌ وعشرون سِنًا .

وأسنان البقر أربعٌ وعشرون سنا .

وأسنان الشاة إحدى وعشرون سنا .

وأسنان التَّيْس ثلاث وعشرون .

وأسنان العنز تسع عشرة سنا .

الذى ذكر من أصناف الحيوان أنه يكتسب معاشه ليلا : البُومة والوَطواط .

ومن الحيوان الوحشىّ ما يستأنس سريعا : الفيل

ويحكى أن الحيوان الذى أسنانُه قليلة عمره قصير ، والذى أسنانه كثيرة عمره طويل .

الفيلُ إذا وُلد نبتتْ أسنانُه فى الحال ، فأمّا أسنانه الكبار وأنيابه الكبار فتظهر إذا شَبّ وكبِر .

قلب جميع الحيوان موضوعٌ فى الوسط من الصدر ما خلا الإنسان ، فإن قلبه مائل إلى الجانب الأيسر .

الأفعَى تبيض فى رحمها ، ثم يصير هناك حيوانا .

الشعر المولود مع الإنسان شعرُ الرأس والأشفار والحاجبين .

وأول ما ينبت بعد ذلك شعر العانة وشعر الإبطين وشعرُ اللحية :

(إن خُصى الإنسانُ قبل أحتلامه لم ينبت فى جسده الشعر الذى يتأخّر نباته ، وإن خُصى بعد أحتلامه فإن ذلك الشعر يزول ، ما خلا شعر العانة فإنّه يَبقى .

شعر الحاجبين ربما طال عند الكِبَر .

وشعر الأشفار لا يطول .

للأرانب فى داخل أشداقها شعر ، وكذلك تحت أرجلها .

القنفذ فى فيه خمس أسنان فى عمقه .

والبرّية منها تَسْفَد قائمة وظهر الأنثى لاصق بظهر الذكر .

الرجال يشتاقون إلى الجماع فى الشتاء ، والنساء فى الصيف .

الخنزير إذا تمت له من ولادته ثمانية أشهر ينزو على الأنثى .

الكلبة تحمل وتبقى ستين يوما ويوما ، وهذا أطول ما يكون ، ولا تضع قبل أن يتم حملها ستين يوما ، فإن وضعت قبل ذلك فإنها لا تربّى ولا يبقى لها ولد .

الفيل الذكر ينزو إذا تمت له خمس سنين ، وزمان هياجه ونزوه أيام الربيع والأنثى تحمل سنتين ، ولا تضع إلا واحدا .

إذا باض الطائر وما كان من أصنافه يخرج من البيضة الطرف العريض ثم يرق بعد ذلك .

كل ما كان من البيض مستطيلا محدّد الطرف فهو يفرخ الإناث وما كان مستديرا عريض الأطراف يفرخ الذكور .

وجُرّب من إناث الطير أنها إذا لم تجلس على البيض[1] تمرض .

القَبْج[2] إذا هاج ووقفت الأنثى قبالة الذكر ، وهبت الريح من ناحية الذكر مقبلة إلى ناحيتها حملت من ساعتها .

---

(١) « الطير » .

(٢) القبج : الكِرْوان .

الحمامة إذا نُتِفَت ريشة من ريشها احتبس بيضها أكثر مما لها بالطبع .

مبدأ خَلق الفَرخ من بياض البيضة ، وغِذاؤه من الصُّفرة ، فإذا خرج فَرخان كان أحدهما أكبرَ جثَّةً من الآخَر ، والذكر منهما من البيضة الأولى ومن الثانية الأنثى .

الفاخِتة[1] تعيش أربعين عاما .

والحَجَل[2] يعيش عشرين عاما .

الرخَمَة تُفرخ على صخور مشرفة عالية لا ينالها أحد ، ولا توجد رَخَمة وفراخها إلا فى القَرْط[3] .

العُقاب يجلس على البيض ثلاثين يوما ، وكذلك كلُّ طائر عظيم الجثّة مِثل الإوزّ وما أشبهه ، والمتوسط الجثّة يجلس على البيض عشرين يوما ، كالحِدَأة والبُزاة وما أشبه ذلك .

إناث الغِرْبان تجلس على البيض جلوسا دائما ، والذكر يأتيها بالطعم حينئذ .

الحَجَل تَسَل عُشَّين يجلس الذكر على واحد ، والأنثى على واحد .

الطاوس يعيش خمسا وعشرين سنة ، وفى هذه المدة تنتهى ألوانُ ريشِه . ويحضُن بيضَه ثلاثين يوما . قيل : وربّما أكثرَ قليلا ، ويبيض فى كلّ سنة مرّة واحدة ، وعدد بيضه أثنتى عشرة بيضة ، ويُلقى ريشَه فى زمن الخريف وبعدَه قليلا ، وذلك حين يُلقِى الشجرُ ورقَه ، فإذا بدا أوّلُ الشجر وظهرتْ فروعه ، ونبت ورقُه بدأ ريشُه يَنبُت .

---

(١) الفاختة : ضرب من الحمام المطوّق .

(٢) الحجل : طائر على قدر الحمام كالقطا أحمر المنقار والرجلين ، ويسمى دجاج البر ؛ وهو صنفان : نجدى وتهامى ؛ فالنجدى أخضر اللون أحمر الرجلين ؛ والتهامى فيه بياض وخضرة .

(٣) القرط : الجبل الصغير أو رأس الأكمة .

الدُّلْفِين (١) له لبن ، ويُرضِع ، ويَحمِل عشرة أشهر ، وتلد فى الصَّيفِ ولا تلد فى زمانٍ آخر ألبتّة ، وربّما غاب تحت الموج فى الماء ثلاثين يوما لايظهر ؛ وهو محبّ لخُرثِه يأكله .

الجَمَل الذَّكَرُ يكره قُربَ الفَرَس ويقاتله إذا تمكّن منه .

الشاة إن مُطرتْ بعد نَزْوِها أنتَقَض حَملُها .

الغَنَم إذا أُنْزِيتْ والريحُ جَنوبٌ تضع أولادَها إناثا ؛ وإن كانت العُروق الّتى تحت ألسُن الكِباش الفُحُول بيضا فإنّ إناث الغَنَم تضع حُمْلانا بِيضا ، وإن كانت العروق سُودا فإنّها تضع حُمْلانا سُودا . وإن كانت لونين تكون مختلفة ؛ وإن كانت شُقْرا خرجتْ شُقْرا .

الغَنَم إذا هاجت المُسِنّة منها أوّلا فالسنة ذاتُ خِصْب ، وإن هاجت الفتيّةُ أوّلا فالسنة رديئةٌ على الغَنَم .

الكلْبُ السَّلوقىُّ [ينزو (٢)] إذا تم له ثمانية أشهر ، والأنثى منها تحمل ستين يوما ، وربما زادت يوما أو يومين ، وجراؤها عُمْىٌ (٣) اثنين وعشرين يوما . ومنها ما تحمل ثلاثة أشهر وتكون جراؤها عميا سبعة عشر يوما .

إناث الكلاب تَطْمَث فى كلّ سبعة أيام وتبول جالسة ، ومنها ما ترفع رِجلَها عند البول .

ذكور الكلاب ترفع أرجلها للبول إذا تمت لها من ولادتها ثمانية أشهر وبعضها فى ستة أشهر .

---

(١) الدلفين من دواب البحر ، اشتهر بأنه ينجى الغريق ؛ وصفته كالزق للنفوخ وله رأس صغير جدا ، ولا يؤذى أحدا ، وهو كثير بأواخر نيل مصر .

(٢) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل ، والسياق يقتضيها .

(٣) « على » .

ذكور الكلاب السَّلوقيّة تعيش عشر سنين، وإناثها اثنتى عشرة سنة، ومن أجناسها ما تعيش عشرين سنة، وإناثها كلّها أطول أعمارًا من الذكور.

قال أوميروس الشاعر: إن كلب إديوس هلك وهو ابن عشرين سنة.

وليس تُلقى الكلابُ شيئا من أسنانها سوى النابين، فإذا تمّ للكلب أربعة أشهر أبقاهما.

البقر تُلقى أسنانها لسنتين، وإذا كثر نزْوُ الذكور منها وحملُ الإناث يكون ذلك علامةَ شتاء وجُودِ أمطار وخصب، وإناثُها تَطمَث.

إناث الخيل تضع أولادها فى أحد عشر شهرا، أو فى الثانى عشر.

الحيّات رَغِبَةٌ نَهِمة، قليلة شرب الماء، لأنها لا تضبط أنفسها، وإذا شمت الشراب فإنها تشتاق إليه جدًّا.

الأسد إذا بال رفع رجله كما يرفع الكلب.

البقر تشتهى شرب الماء الصافى النقى، والخيل على الضد فإنها تشرب مثل الجمال الماء الكَدِر الغليظ.

الغنم فى الخريف تشرب الماء الذى تصيبه ريح الشمال، وذلك الوقت أوفق لها.

الدُّرّاج إذا هبّت الريح شمالًا تتزاوج (١) وتَخصِب، وإن كانت جنوبا ساءت حالها ومرضت.

السمك الذى يأوى إلى الشطوط من ناحية البرّ ألذّ من الذى يأوى اللُّجَج وما كان منها مستطيلَ الجثة فهو يُخصب فى الصّيف وهبوب الشمال؛ والعريض

(١) «تتراوح».

الجثة على ضد ذلك ، وأكثر ما يصاد السمك قبل طلوع الشمس لكلَبه على الرعى ، وطلب الطُّعْم .

والسمك الجاسى الجلد يخصب فى السنة المطيرة ، لأن ماء البحر يحلو فيها .

الكلب له ثلاثة أمراض : الكَلَب ، والذُّبَحَةُ[١] — وهو القاتل لها — والنِّقْرِس .

والداء الذى يقال له الكَلَب يعرض للجمال أيضا ، فإذا كَلِب الجمل نَحِرَ ولم يؤكل لحمه .

الخيل إذا ألقت حوافرها وقت تَنْصُل[٢] نبت لها حافر آخرُ عاجلا ، لأن نباته يطلع مع نصول الحافر .

وعلامة ذلك اختلاج الخصية اليمنى .

ويعرض للخيل داء شبيه بالكَلَب ، وعلامته استرخاء آذانها إلى ناحية أعرافها ، وامتناعها من العَلَف ، وليس لهذا الداء علاج إلا التسكين .

لا يكون فى بلد الهند خنزير . لا أنيسٌ[٣] ولا برىّ ، وفى أرض تُعرف بكذا يجزّ البقر كما يجز الغنَم ، وفى أرض النُّوبة تولَد الكباش نابتة[٤] القرون .

وإناث الكلاب السَّلوقيّة أسرع إلى الأدب من الذكور .

جميع أجناس الحيوان إناثها أقل جرأة وأجزع ، ما خلا الذئبة ، فإنها أصعب خُلُقا وأجرأ من الذكور .

العُقاب والتِّنّين يتقاتلان ، والعقاب تأكل الحيّات حيثما وجدتها .

(١) « والدبلة » .

(٢) نصول الحوافر : خروجها من مواضعها .

(٣) « إلا أنس ولا برى » .

(٤) « ناتئة » .

الغُداف[1] يخطف بيض البُومة نصف النهار فيأكله ، لأنّ البومة لا تبصر بصرًا حادًّا فى ذلك الوقت . فإذا كان الليل شدّت البُومة على بيض الغُداف فأكلته.

بين العنكبوت و بين الحِرْذَوْن[2] شرٌّ ، لأن الحرذون يأكل العنكبوت .

عصفور الشّوك يقاتل الحمار ، لأن الحمار إذا مرّ بالشوك أفسد عشه ، فإذا نهق بالقرب منه وقع بيضه ، و إن كان فيه فراخ خرجت منه ، فلهذه العلة يطير هذا العصفور حول الحمار و ينقره .

الغراب يعادى الثور والحمار و ينقرهما .

والحيّة تعادى الخنزير وابن عرس ، لأنهما يأكلان الحيّة حيث وجداها .

الغُداف مصادق للثعلب ، والثعلب مصادق للحيّة ، « والسبب[3] فى عداوة العصفور للحمار أن معاش العصفور من بزر الشوك وفيه يبيض ، وهو وكره ، والحمار يرعى ذلك الشوك إذا كان رَطْبا » .

البقر يكون فى الجبال إذا ضلّت بقرة تبعتها الأخرى ، ولذلك الرعاة إذا لم يجدوا بقرة واحدة وعدموها طلبوا سائر البقر وفقدوها من ساعتهم .

الخيل إذا ضلت الأنثى منها أو هلكت ولها ولد فإن إناث الخيل ترضعه وتربّيه ، وذلك أن جنس الخيل فى طباعها حُبّ أولادها .

الأيايل تُلقِى قرونها فى أماكن عَسِرَة صعبة ، لا تُرْتَقى لئلا تؤخذ ؛ ولذلك قيل فى المثل : حيث تلقى الأيايل قرونها ، فإذا ألقتها توقّت أن تظهر إلى أن تنبت ، كأنها قد ألقت سلاحها . وقيل : إنه لم يعاين أحد القرن الأيسر من قرنيها ، لأن فيه منفعة عظيمة .

(١) الغداف : غراب كبير يكون ضخم الجناحين .
(٢) الحرذون : دويبة شبيهة بالضب ؛ وقيل : ذكر الضب .
(٣) يلاحظ أنه قد سبق ما يفيد معنى هذه العبارة التى بين هاتين العلامتين .

وإذا وضعت أولادها أكلتْ مشائمها من ساعتها ، ولا يمكن أخذها لأنها تأكلها من قبل أن تقع على الأرض .

والأُيَّلَةُ تصاد بالصَّفير والغِناء ، ويفعل ذلك رجلان أحدهما يغنّى ويصفّر ، والآخر يرشقها بالسهام ، فلإصغائها[1] إلى الصفير والغناء لا تحذر السهام .

ويقال إن الأُيَّلَ إذا كانت أذناه قائمتين فهو يسمع كل شىء ولا يخفى عليه ما يراد به ، وإن كانتا مسترخيتين خفى ذلك [عليه] .

الفهد إذا أكل العشبة التى تسمى خانقة[2] الفهود يطلب زبل الإنسان فيأكله ويتعالج به .

ابن عرس إذا قاتل الحيّة أكل السَّذاب مخالفة للحيّة .

اللقالق إذا خرجت من قتال بعضها بعضا تضع على الجرح صعترًا بريا .

يقال إن ذكور العصافير تبقى سنة فقط ، والدليل على ذلك — أنها من قبل أطواقها التى فى أعناقها — لا تظهر فى الربيع ، بل بعد ذلك بأيام ، لأنها لا تُبقى شيئا من الذكور التى كانت من العام الماضى ، فأما إناثها فهى أطول أعمارا .

إذا دنا الصيّاد من عش القَبْج تخرج الأنثى من بين يديه وتطمعه فى صيدها حتى تهرب فراخها ، ثم تطير وتدعو فراخها إليها .

وإناث القبج تبيض خمس عشرة بيضة ، والذكر منها يطلب موضع بيض أنثاه فيدحرجه — مخافة أن تقعد عليه وتشتغل عنه — فيفسده ، وهى تحتال أبدا فى الهرب منه وتُخفى موضع عُشها ، فتبيض فى أماكن خفيّة ، ومتى[3] قصدها

(١) « ملاصقا لها » .
(٢) « خانقة » .
(٣) « ومن » .

قامت عنه وأطمعت فى نفسها حتى تبعد عن أماكن بيضها ، فإذا بعد طارت ثم أحتالت فى الرجوع إليه .

الهدهد يعمل عشه من زبل الإنسان ، فلذلك رائحته كريهة .

العقاب تصيد منذ حين الغداة إلى وقت الرواح ، فأما من أوان الرّواح[1] إلى أن يترحل النهار فهى قاعدة فى مكانها لا تتحرك .

ومنقار العقاب الأعلى ينشأ ويعظم ويتعقّف حتى يكون ذلك سببَ هلاكها لأنّها لا تنال به الطُّعم ، فإذا فضلتْ للعُقاب فضلةٌ من طُعمه وضعها فى عُشّه لحاجة فراخه إليها .

أصناف الطير الدقّقة المخالب لا تجلس على الصخر إلا فى القَرْط ، لأنّ خشونة الصخر مخالفةٌ لتعقّف مخالبها .

النحل تعمل عُشّها فى زمانين : فى الربيع والخريف . والعسل الذى تعمله فى الربيع أشدُّ بياضا وأجوَدُ من الذى تعمله فى الخريف

وأضعف العسل يكون أبدا فى أعلى الإناء ، والنقىّ الطيّب فى أسفله .

الأسد عظامه جاسية جدا ، وإن دُلِكتْ بعضُ عظامه ببعض خرجت منها نار كما تخرج من الحجارة .

الحيوان الذى له شعر [فى أشفار[2] عينيه] ليس فى أشفار عينيه شعر إلا الشعر الأعلى .

والنعامة لهـا أشفار فى الجفنين الأعلى والأسفل .

(١) « الصبح » وهو تبديل وقع من الناسخ يناقض ما قبله .

(٢) هذه التكملة التى بين مربعين لم ترد فى الأصل ؛ والسياق يقتضيها .

القنفذ تبيض خمس بيضات ، وليس هو بيضا بالحقيقة ، بل هو على صورة البَيض ، يُشبه الشحم .

قلبُ كلّ حيوان طرَفه حادّ ، وهو أصلب من سائر جسده ، وهو موضوع فى وسط الصدر سوى الإنسان ، فإنه مائل فيه إلى الناحية اليسرى ، لأنه يكون بإزاء[١] الجانب[٢] الأيسر فيعادل الناحية اليمنى ، فإن اليسرى من الإنسان أكثر بردا .

وليس فى قلوب جميع الحيوان عظم إلّا فى الخيل ، وفى جنس من البقر ، فإن فى قلب هذين عظما دون غيرهما من الحيوان .

وكل حيوان له قلبٌ كبيرٌ يكون جزوعا .

الكلاب المندية تتولّد من كلب وسبع شبيه بالكلب .

والحمار حيوان بارد ، ولذلك لا يكون الوحشىّ منها [إلّا[٣]] فى المكان البارد .

ذكور البغال لا تشمّ أبوال إناثها كسائر ذوات الحافر .

بَيض الطير فيه لونان : بياض وصُفرة .

وبيض السمك فيه لون واحد .

إذا كانت الريح جنوبا كان المولود أنثى ، لأن الجنوب إذا هبّت رَطّبت وإذا أشملتْ كان المولود ذكرا .

عيون جميع الصبيان ساعة ولادتهم شُهْل[٤] ، ثم تنتقل إلى الطباع الغالبة عليها .

---

(١) « بإناء » .

(٢) « الخبائث » .

(٣) هذه الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضيها .

(٤) شهل : من الشهلة بضم الشين ، وهو أن يشوب سواد العين زرقة ؛ وقيل أن تشوب الحدقة حمرة وليست خطوطا .

وعيون جميع الحيوان لون واحد ، كالبقر فإن عيونها سود . وعيون البشر(١) ألوان كثيرة .

صاحب العين الناتئة(٢) لا يُبصِر ما بعد عنه بصرا جيّدا ، والغائرة تُبصِر ما بَعُد عنها ، لأنّ حركتها لا تتفرّق ولا تتبدّد .

الفهد ربما نكح الذّبّ فيتولّد بينهما سَبُع مختلِف المنظر ، لا يتناول الناس ويصيد الكلاب ويأكلها ويَستخفى فى البحر ، فإذا مرّ به أُيّلٌ مفاجأةً وثب عليه وأنشب(٣) مخالبه فى أكتافه ومصّ دمه حتى يضعف الأيّل(٤) ويسقط فيجتمع عليه هذا الصنف من السباع فيأكله ، فإن اُجتاز بها أسد نهضت عنه وتركت الفريسة له تقرّبا إليه .

بأرض يونان مِعزَى جعدة الصوف ، يقال لها : المعزَى البريّة ، فإذا أصابت قرونُها شيئا من قُضبان الكرم لم يَنبت ورقُه ولا ثمره ، بل يجفّ مكانه ويسقط ما عليه من الورق والثمر .

السُّلَحْفاة تخرج من البحر إلى الرمل فتَبيض فيه ، حتى إذا بلغ أوانه وخرج أولادها ، فما كان ناظرًا إلى ناحية البحر كان بحريا ، وما كان وجهه إلى ناحية البرّ كان برّيا .

والسّلاحف تمتنع من الذّكران ، فيأتيها بعود يحمله فى فمه ، ويدنو منها ، فإذا رأت ذلك العود سكنت له .

وما كان من السلاحف بحريّا فخرَج إلى البر وأصابه حرّ الشمس لم يستطع

(١) « السر » .
(٢) « الثانية » .
(٣) « وأنبت » .
(٤) الإبل .

الرجوع إلى البحر وبقي حتى هلك . وما كان بريّا فوقع إلى ناحية البحر تَلِف ولم يستطع الرجوع إلى البرّ وهلك .

الثعلب يهيّئ عُشّه ووَكْرَه ذا سبعة أجحرة ، فإذا[١] طرقته الكلاب وغيرُها مما يتخوّف [في جحر[٢]] خرج من غيره .

وإذا قارب الزرع أن يُسنبِل[٣] دخل الثعلب فيه وتمعّك فرحا به ، فيفسد ذلك الزرع ، ولذلك سمّى أُحتراقُ[٤] الشعر : داء الثعلب ، لأنه[٥] يُسقِطه كما يُذهب ورق السنبلة والشوكة .

القنفذ يعمِد إلى الكرمة فيحرّكها فيقع منها العنب ، فيتمرّغ فيـه حتى يملأ شوكه ويعود إلى عُشه ، فإذا بصرت به جراؤه أطافت به تلتقط ذلك الحب من شوكه وتأكله .

الذئب إذا هُيِّئَ من مِعاهُ وَتَرٌ وهيِّئ من مِعَى الشاة وَتَر ، ثم عُلِّقا بآلات الملاهي ، ثم ضرب بهما ، صوّت المعمول من الذئب ، وخَرِس الوتر المعمولُ من الشاة .

وكلّ شاة يتناول الذئب من لحمها يكون لحمها حلوا لذيذا ، وكل جزّة صوف تُهيَّأ من الشاة التي قد تناول الذئب منها قَمِل الثوب المعمول منها مِنْ قِبَل سُمّ[٦] أسنانه .

الكلب إذا مَرِض أكلَ حَلْفاء رَطْبةً .

(١) « كما إذا » .
(٢) هذه التكملة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضيها .
(٣) « يسيل » .
(٤) « اختراق » .
(٥) « لأنه » أي داء الثعلب ؛ « يسقطه » ، أي يسقط الشعر .
(٦) « شم » .

والأُيَّلُ إذا مرض أكل حيّة .

والضّبع إذا مرض أكل كلبا .

الأسد إذا أكل كلبا فإنه يكون قد ضرس فيزول ذلك .

الرخمة إذا ضعف بصرها بقرتْ مرارة إنسان

الأعنز البرّية [تألف[1]] حيتانا بحرية ، وتدع الجبال وتسلك طريقا بعيدا حتى تأتى البحر لمكان تلك الحيتان ، فلما عَرف ذلك الملاّحون سَلَخوا جلود تلك الأعنز ، ودنوا[2] بها من شاطئ البحر على ظهورهم ، فإذا نظرت[3] تلك الحيتان إليها خرجتْ مسرعة إليها فيصيدها الملاّحون .

ليس من السباع شيء صُلْبه عَظْم واحد بلا خَرَز إلا الأسدَ والضبع .

من ربط على بدنه سِناً[4] من أسنان الذئب ولبسه لم يَخف الذئاب .

والفَرس الذى يُعلّق عليه شيء من أسنان الذئب يكون سريعَ الجرى .

المعزى البرّية تكون صُلبة القرون ، تأوى أطراف الجبال وما كان مُشرفا من الصخور على أودية ، فإن بصرت بالصياد ألقت أنفسها من تلك الصخور لتقيها بقرونها ، فإن سقطت على غيرها هلكت ، وفى قرونها خرزات مستديرات على قدر ما يكون عددُ سنيها[5] .

والعجب أنها تحفظ إناثها عند الكِبَر وتتعهّدها بالمطعم والمشرب تحمله على أفواهها .

---

(١) فى الأصل : « الأعنز البرية حيتانا » بسقوط كلمة « تألف » أو ما يفيد معناها .

(٢) « وذبوا » .

(٣) [ظهرت] .

(٤) « شيئا » .

(٥) « سنوها » .

المعزى البرّيّة إذا صيد شيء من سِخالها تبعته ورضيت بالعبودية مع ولدها وفى أطراف قرونها جِحَرة تتنفّس منها ، فإن سُدّتْ هلكتْ مكانها .

الوَرَشان[١] يتحرّز بأن يضع ورق الغار فى عُشّه .

والحِدَأة تضع فى عُشها ورق العُليق تتحرّز به .

الخطّاف يضع فى عشه قضيبَ كَرَفْس .

التُّدْرُج[٢] يضع فى عُشه سرَطانا نهريّا .

جميع السباع والدوابّ عند المشى تقدّم اليد اليمنى والرجلَ اليسرى .

لا تكون الزرافة إلا فى أرض قليلة الماء .

إذا همّ أصحاب الخيل أن يُنْزُو[٣] حمارا على فرس جَزُّوا عُرفها فتقرّ[٤] حينئذ وتذلّ لكَدْم[٥] الحمار لها .

بيونانَ ثيران لها أربعة قرون لا تَرضى بمجامعة البقر ، بل تجامع إناثَ الخيل ، ويتولد بينهما خيول عجيبة المنظر .

الجاموس لا ينام أصلا وإن أرخى عينيه إرخاء يسيرًا ، لكنّه ساهرٌ الليل والنهار .

الجمل إذا وَقَع على الناقة وَقْعَ الضراب سُتِرَ عن الرجال ، فإن نظر إليه رجل غَضِب .

قالت الروم : إن السِّنَّوْر يتولّد من مجامَعة الفهد لبعض السباع .

(١) الورشان : طائر شبه الحمام ، وهو نوبى وحجازى ، والنوبىّ أشجاها صوتا .
(٢) التدرج : طائر كالدراج حسن الصوت يغرد فى البساتين .
(٣) « يشتروا » .
(٤) « فيفرّ » وهو تحريف .
(٥) « لكرم » . والكدم : العض .

[لا ينام(١)] البوم إلا إغفاءة(٢) .

ومن العجب أن السِّنَّوْرَ يكون صافيَ العين كثيرَ البَريق عند امتلاء الهلال وينقص ذلك الصفاء(٣) والبريق عند نقصان الهلال .

الأفعى إذا جامعها الذكر وأسمه الأُفْعُوان تحوّلت إليـه ، فإن ظفرتْ به أكلتْ رأسَه من شدّة عِشقها له .

ذَكر العقرب اسمه عُقرُبان ، أسوَد صغير ، سريع المشى ، جادّ(٤) الذهاب .

الجِرْذَوْن(٥) تفسيره بالعربية الذى يخرج من الزعفران .

التمساح لا يكون إلا فى النيـل ونهرٍ بأرض الهند يقال له : الرّسِيس ويبيض كبيض الإوَزّ ، وربمـا يُولَد منه حَرَاذِينُ صغار ، ثم يكبر حتى يبلغ طوله عشر أذرع ، ويزداد طولًا كلمـا أزدادت سِنُو حياته .

وسنّه اليسرى نافعة لحمّى النافض .

وذُكر أنّه يجامع ستّين مرّة فى حركة واحدة ومحلّ واحد .

الحمار الوحشىّ يتولد بين الفرس والفيل ، وله قرن يَنبت من أنفه كأنّه سيف ، وإن ضرب شجرةً قطعها وبه يقاتل الفيل ويبعج(٦) بطنه بقرنه ، ولم يُعايَن من هذا الجنس أنثى قط .

فى البحر حوت يقال له : البوس ، يتولّد من الصاعقة إذا كانت فى البحر

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضيها .
(٢) « أغطاه » .
(٣) « السفا » .
(٤) « حادّ » .
(٥) لم نجد فى كتب اللغة التى بين أيدينا ما يفيـد أن لفظ الجرذون غير عربى ولا أن تفسيره بالعربية ما ذكره المؤلف ، كما أننا لم نجد ذلك فيما بين أيدينا من الكتب المؤلفة فى الحيوان .
(٦) « وينفخ » .

وإن وُضع ذلك الحوت بين اثنين فأكلا منه تحابّا ولا يحقد أحد على صاحبه، ويتآخيان أحسن الإخاء.

كلب الماء أبدا ذنَبه على ظهره واقع مع انطباق والتواء، يرعى نبات الأرض، وهو شديد الجزع من النار، فإذا كان الليل خرج الصيادون بأيديهم شعل النار، فيأتون مجثَمها، وتلك لا تتحرّك لجزعها من النار حتى تؤخذ، وإن كان منها ذكر لم يجامع أنثى قطّ، وإذا أرادت الجامعة فإنها تجتمع وتَجلد[1] فتفرخ.

وإن أخذ منها صياد بشبكة واحدا وثبت كلُّها حتى تدخل الشبكة آبية فراقَ بعضها بعضا.

ومن لبس جوربا من جلودها وبه نِقْرس انتفع به جدا.

وإذا ابتُلي إنسان برُعاف ثم أخذ قطعة من جلدها، ثم أُنقد في ابن وأُشتمّه أنقطع ذلك الرُّعاف.

اليرابيع إذا اجتمعت في موضع ارتفع رئيس لها حتى يكون في موضع مشرف أو على صخرة أو تلّ ينظر منه إلى الطريق من كل ناحية، فإن رأى أحدا مقبلا أو سَبُعا صَرّ[2] بأسنانه وصوّت، فإذا سمعتْه انصرفت عن الموضع إلى جِحَرتها فإذا أغفل ذلك وعاينت البقية سبعا أو راجلا قبل أن يراه ذلك الرئيس انصرفت إليه وقتلته لتضييعه أو غفلته.

وإذا كان حسنَ الرَّصْد مضت اليرابيع فقطعت أطرأ ما يكون من الخضرة وأطيب العشب فحملته بأفواهها حتى تأتيه تحية وتكرمة.

---

(١) في الأصل «وتغلد وتفرح» والمراد بالجلد هنا جلد عميرة.

(٢) «سر».

وإذا كانت فى جحَرتها خرج الرئيس أوّلا فيبصر الطريق ، فإن لم ير أحدا صرّ بأسنانه وصوت لها لتخرج فترعى .

فى البحر حوت يقال له : موفى ، ضعيف الجسد ، قليل القوة ، إذا جاع خرج إلى الشاطئ فاستلقى على الرمل فأقام شوكة فى رأسه ، فإذا نظر إليه حوت آخر جاء مسرعا ليأكله يظن[١] أنه ميت ، فيُدخل بطنَه تلك الشوكةَ فيقتله بها ويأكله .

وإذا ألقى الملاّح صِنَارته ولقيت ذلك الحوت رَمَى مكانَه بتلك الشوكة الحادّة يدَ الملاّح فتَخدَر ويَطرَح أداة صيده .

فإذا رأى الحوت أن الصّنارة داخلت أضلاعه غلبت الظلمة على بصره ومات من ساعته .

وفى جلد هذا الحوت عجب ، وهو أن الصاعقة لا تدنو من جلده ، والملاّحون يغطّون سُفُنَهم به عندما يتبيّنون[٢] الصواعق ووقوع المطر ، ويدنو هذا الحوت إلى طرف مقدّم السفينة فيمسك بطرفه[٣] اللطيف ، فلو اجتمعت الرياح كلها بأشد هبوبها لم تستطع تحريك تلك السفينة ، فمن أخذ من جلدها وسمّر به شراع السفينة لم يخف على سفينته[٤] غرقا .

السريع الحُضْر أربعة : النَّمِر والحَريش[٥] وعنز الجبل وكباشها .

عدوّ الحيات أربعة : القنفذ والفيل والأيّل والعَقْعَق .

(١) « فظن » .
(٢) وردت هذه الكلمة فى الأصل هكذا : « سون » .
(٣) بطرفه ، أى طرف مقدّم السفينة . واللطيف : الدقيق .
(٤) « لسفينتها » .
(٥) الحريش : دابة صغيرة فى جرم الجدى ساكنة جدا ، غير أن لها من قوة الجسم وسرعة الحركة ما يعجز القناص ؛ ولها فى وسط رأسها قرن واحد مصمت مستقيم تناطح به .

الجبان اثنان : الأرنب والأُيَّلُ .

ذو الزهو ثلاثة : الفرس والديك والطاوس .

ذو حدّة السمع ثلاثة : الذئب والحمار والخُلْد (١) .

القادر فى التزاوج ثلاثة : العصفور والحمام والعَقعَق (٢) .

ذو الشهوة ثلاثة : العصفور والثور والباشَقُ (٣) .

المتحارس بالليل اثنان : الكُركىّ والبط .

نافى فراخه ثلاثة : النعام والغُداف والعُقاب .

محب الظلمة ثلاثة : البوم والخفّاش والخُلْد .

ذو حدّة البصر ثلاثة : العقاب والظبى والباشق .

من أخذ لسان ضبع ومر به بين الكلاب لم تكلب عليه .

من مر بمكان كثير الضباع فأخذ بيده أصلا من أصول عنب الحيّة هربت منه . وعِنَب الحيّة هو الحنظل .

وذكر الحُبارَى يقال له : الخَرَب .

إذا أراد إنسان أن يتزوّج امرأة فلينظر إلى أبيها وأخيها فإنها بعِيانه (٤) وبين يديه أحدهما .

---

(١) الخلد : دويبة تحت الأرض ؛ وهى ضرب من الجرذان .

(٢) العقعق : طائر على قدر الحمامة وعلى شكل الغراب ، وجناحاه أكبر من جناحى الحمامة ، ذو لونين : أبيض وأسود ، طويل الذنب .

(٣) الباشق : ضرب من بزاة الصيد ، وهو طائر خفيف الحمل شديد الملع ، يأنس حيناً ويستوحش حيناً .

(٤) الواو فى قوله « وبين يديه » واو الحال ، أى كأنه يعاينها حال كون أحدهما ماثلا بين يديه يعاينه . وفى الأصل : « بعيانه وبين يديه بأحدهما » .

من الحيوان ما لا يشبه الولدُ الوالدَ كالدببة والنحل والدَّبْر (١) .

أما الدببة فتضع أولادَها توائمَ لا صور لها حين تولد ، غير أن أمَّها تهيِّئ ، وتسوّيها بلحسها إيّاها بألسنتها ... (٢)

وأما الدَّبْر فإنها تلد دودا يتصوّر بعد ذلك .

الضفادع والغيالم (٤) والسرطانات لا ضرر عليها فى ماء ولا يبس ، لكنهما عندها سيّان لا تهلك فى برّ ولا تُخنَق فى بحر .

كلُّ ما أكل اللحمَ فهو ذو أسنان قواطعَ صِلاب ، وأعناقٍ قصارٍ شداد ، ومخالبَ وأظفارٍ حداد ، ومناقيرَ معقّفةٍ جذّابة .

للأسد ثلاث طبائع : الأولى منها أنه إذا مَشَى فشمّ ريح الصّيادين عَفّى على آثاره بذَنَبه لكيلا يتبعهَ الصيّادون ويقفوا عليه فى عَرينه فيتصيّدوه .

والثانية أن اللبؤة تلد شِبْلها ميّتا ، فلا تزال تحرسه حتى يأتىَ أبوه فى اليوم الثالث فينفخ فى مَنْخِره فيبعثه .

والثالثة أنه يفتح عينيه إذا نام وهما يقظتان .

ومن تمسّح بشحم كُلَى الأسد ومشى بين السباع لم يخفْها ولم تَقْرَبه ؛ وإن افترس (٥) الأسدُ الفريسةَ ولم يأكلها مَيّز أن ريحها منتِنة جدا .

وأصناف الحيوان التى تَلَغ الدمَ بألسنتها : الكلابُ والسنانير .

---

(١) « الدبن » . والدبر : الزنابير .

(٢) « سورها » .

(٣) الظاهر أن هنا كلاما سقط من الناسخ ، إذ كان مقتضى السياق أن يتحدث عن النحل بعد الدببة .

(٤) الغيالم : ذكور السلاحف ، الواحد غيلم بفتح أوله .

(٥) « وإن لم يفترس » .

الأُسْد : تضع أولادها غيرَ منفتِحة العيون ، و إنمـا تنفتح بعد ذلك .

وأما الأسَدُ[١] خاصّة فليس له من جنسه قرين ، ولا يَرَى شيئا من السِّباع كفؤا له فيصحبَه ، ولا يَقرب شيئا من بقايا فريسته بالأمس ولو جهده الجوع ويُهِرُّ[٢] زئيرُه كثيرا من الحيوان الذى هو أعظم منه جسما وقوّة .

و إنمـا تلد اللَّبُؤة واحدا و يخرق[٣] بطن أمّه بأظفاره و يخرج منه .

الثعلب إذا جاع فلم يَقدِر على صَـيدٍ عَمَد إلى أرض شديدة الحرّ و إلى موضع الطير[٤] إذا حَمِيَ ، فاستلق على ظهره ونظر إلى فوق ، ثم اختلس نَفَسه وأخذَ به داخلا حتى ينتفخ انتفاخا شديدا فيحسَبُه الطير قد مات ، فيقع عليه ليأ كلَ منه كما يأ كل الجيفة ، فإذا اجتمع الطير انتفض سريعا وقبض على ما وَجَد فأ كله ، لأنه ذو خِبّ[٥] ومكر ، كذلك طبيعته إن أصابه ضرر فأثّر فيه آثارا وكَلَم فيه كُلُومًا أخذ من صمغ شجرة تدعى قَنْطُوريا[٦] فأبرأها به .

القرد أهيأ الحيوان لقبول التعليم ، وهو لعوب غضوب سريع الحِسّ ، لا يكون فى بلد كثير السباع ، عـدوّ لجميع الحيوان ، مليح الإهاب ، نَهُوشٌ خطوف ، إلا أنه إذا شبِـع نام فى غاره ثلاثةَ أيّام ، فإذا خرج صاح بصوت

---

(١) يفيد قوله : « وأما الأسد خاصة » الخ أن هنا كلاما قبل ذلك فى أصناف الحيوان الذى له قرين من جنسه ، وسقط هذا الـكلام من الناسخ .

(٢) يهرّ ، أى يجعلها تصوت من الفزع والخوف .

(٣) « ويحرو » .

(٤) « البير » .

(٥) الخب بكسر الخاء وتشديد الباء : الخداع والمـكر .

(٦) كذا فى الأصل . والذى فى ابن البيطار : قنطوريون ؛ وهو صنفان : كبير وصغير ، فالـكبير له ورق شبيه بورق الجوز أخضر مثل ورق الـكرنب ؛ وله ساق شبيهة بساق الحمّاض طولها ذراعان أو ثلاث . وله شعب كثيرة من أصل واحد ، عليها رءوس شبيهة بالخشخاش الخ وهذا هو المراد هنا .

عالٍ تخرج منه رائحة طيّبة ، فيجتمع إليه الحيوان لحسن صوته .

ومن أراد ختْله[١] فليتمسّح بشحم الضبع ويدخل عليه فى غارِه ، فإنه لا يمتنع ؛ خفيفُ الجِرم ، حديدُ الشدّ[٢] يَقْظان .

دابة يقال لها بالفارسية (در باست) إذا طلبه القانص[٣] أستلقى لظهره وأراه أنه لا خُصية له ، كأنه قد علِم ما يُطلَب منه .

خُلِق الجبانُ من الحيوان الخائفِ سريعَ الحُضْر سريعَ الحركة ، وجُعل الصّنف الجرىء العادى بطىء الحُضْر[٤] مبلّدا .

الضبع مخالفة[٥] لجميع أجناس الحيوان ، وذلك أنها تصير مرّة ضبعا ذكرا ومرّة أنثى ، تُلْقَح أحيانا كالذكر ، وتقبل اللّقاح أحيانا كالأنثى .

وطبيعتها أنّها إذا رأت الكلب فى ليلة مقمرة مشت على الآثار ووطئتْ ظلّه[٦] فوقع .

« ومن قتل ضبعا وأخذ لسانها ومرّ بين الكلاب لم تَكلَب[٧] عليه ، ولم تَعرِض له .

ومن مرّ بمكان كثير الضباع فأخذ بيده أصلا من حنظل ، أسكتَها عنه وهربتْ منه » .

(١) « قتله » .
(٢) « السر » .
(٣) « القابض » .
(٤) « الحذر » .
(٥) مخالف .
(٦) عبارة حياة الحيوان : الضبع إذا وطئت ظل الكلب فى القمر وهو على سطح وقع الكلب فأكلته .
(٧) يلاحظ أنه قد سبق ما يفيد معنى هذا الكلام الذى بين هاتين العلامتين فى ص ١٧٧ س ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

القنفذ عدوّ الحيّات ، إذا قبض على حيّة تركها تضطرب على شوكه حتى تموت ، فإذا ماتت قطّعها قِطَعا .

الدبّ يقتل[1] الثور ، والغالب عليه الانجحار فى مغارته[2]

الفيل ليس له شهوة السِّفاد[3] ، فإذا أراد الولدَ أتى رياضا وجِنانا[4] فيها اللُّفّاح[5] هو وإناثه فهيّج له اللفّاح برائحته وقوّة حرارته شهوته فتسافدت ، فإذا ولدتْ ولدت قائمة ، لأنّ أوصالها ليست مواتيةً كأوصال الّتى تلد باركة ورابضة غير أنّها تلد فى المـاء حذَراً على دَغْفَلِها أن يموت إذا وقع على الأرض ، فلذلك تدخل ساحل البحر حتى يبلغ الماء بطنَها فتضع ولدها على الماء كالفِراش الوثير والذّكر فى ذلك يحرسها وولَدَها من الحيّة .

ما أشدّ عداوةَ الفيل للحيّة ؛ حيثما أصاب الفيلُ الحيّة وطئها وقتلَها .

وإن هو سقط على جَنْبه لم يستطع القيامَ ، إنما نومُه إذا اتّكأ على شجرة .

ومن هناك — لمّا عَرَف أهلُ تلك البلاد[6] كيف نومُه — يأتون الشجرةَ فينشرونها بالمِنشار ، فإذا أتاها الفيل واتّكأ عليها وقَعَا على الأرض معا ، وحينئذ يشتدّ صياحُه بصوت رفيع ، ويجتمع إليـه لذلك فِيَلةٌ كثيرة تحاول معاونتَه على النهوض والانبعاث ، فلا تقدر على ذلك ، فتصيح جماعتُها بصوت واحد جزَعا من ضَعف حيلتها وعجزها حتى يأتى الفيلُ الذى هو فى الجسم أصغر ، وفى

---

(١) فى الأصل : « يصار » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه ما يأتى فى ص ١٨٥ سطر ١٢ و ١٣ .

(٢) « مغادرته » .

(٣) « الفساد » .

(٤) « وحصانا » .

(٥) « اللقاح » بالقاف .

(٦) تلك البلاد ، أى التى تكون فيها الفيلة .

الحيلة أكبر منها ، فيُدخل مِشْفَرَه[١] تحت الفيل الساقط ، وتفعلُ كفعله جميعا في إدخال مشافيرها[٢] تحتــه حتى تَدْعَمه فينبعث ، وإنما كُوّن رأسُ الفيل في عنق قصير ، وكوّن له بدلَ العنق الطويل المشفرُ الطويل ليَكتفى به من الضيق ؛ وبه يتناول طعامَه وشرابَه .

وخُلقتْ قوائمُهُ غيرُ منفصلة ، لـكنّها كالأساطين المصمَتة والسّوارِى الوثيقة لتحمِلَ الـكثيرَ الثقيل ؛ ورُبطتْ بعراقيبَ صغارٍ غيرِ منحنية ولا منثنيــة على الأوصال ، لـكنّ عظامَه مفرَغة إفراغا .

تطول أعمارُها إلى ثلاثمائة سنة ؛ غيرأنّ الجُرْذان والبقّ تَعلَق بالفِيَلة فتؤذيها .

السَّمَنْدَل[٣] : دابّة لا تخاف النار ، لأنّها لا تحرِقها ، وإن دخلت أخْدُوداً متأجّجاً مضطرما بالنار لم تَحفِل بذلك ، وصارت النار التى تُبيد الأجسامَ مَبعَثا لهذه الدابّة المَهينة الحقيرة ، تستلذّ التقلّب فيها استلذاذ القلب بالهواء البسيط وهبوب أرواحه[٤] الطيّبة ؛ ونضارة جلدها وتنقيته بالنار ، فيزداد بالنار حسنَ لون .

الأرْنَبُ من طباعها الجُبن والخوف ، وهى كثيرة الولادة .

الـكلب ذو فحص واقتفاء للأثر ، وبشَمّه يَسترشد[٥] ويَهتــدى ويَستدلّ إذا شمّ المَوْلَى عرَفَه إن كان له أو لغيره .

ومن طباعه الترضّى والبصبصة والمشاشة[٦] لمن عرفه .

---

(١) « منقره » .
(٢) « مناقيرها » .
(٣) الســمندل : دابة دون الثعلب خلنجية اللون ، حمراء العين ، ذات ذنب طويل . وقيل : طائر .
(٤) « وأرواح هبوبه » .
(٥) « يستزيد » .
(٦) « والحشاشة » .

ليس فى الحيوان أشدّ حبا لصاحبه منـه ، فإن أشار له[1] على صيد وثب ناصبا رأسـه رافعا ذنَبه مستعدًّا كالفارس البطل والشجاع النّجد ، مع نشاطه فى الطلب وهو يعلم أن الصيد ليس بحاضر ، لـكنّ ذلك منه حسن طاعة .

فأما حب بعض جراء الكلاب لبعض إذا كان أخاه لأمّ ولأب فما قد عُهد وشوهِد ، وذلك أنه حيث كان يُطرح لها الطعامُ فى الوسط، فلا يخطف واحد منها ذلك ، لـكنها تتعاطاه بينها بسكون وتمكين بعضها لبعض ، غيرَ مستأثرة به ولا محاربة عليه .

الفَرَس من طباعه الزَّهو والحرارة وشهوة الإناث للسِّفاد . وإن وَطِئ الفرس أثرَ وطء الذئب ارتعد وخرج الدخان من جسده كلّه .

الذئب إذا رأى الإنسان مبطئا خَطوَه وهو ساكنٌ سكت عنّه ، فإن رآه خاف وجبُن اجترأ[2] وحمل عليه وكَبَسه .

وليس كلُّ ذئب يعدو ، ولـكن هو الذى يكون ضاريا ؛ وفيـه خَلّتان : إحـداهما أن يكون منفرداً يمشى وحده ، والأخرى حدّةُ شَمِّه ، إن خفِيَ عليه مكانُ الغنم أتى مكانا وعوى صوتين[3] أو ثلاثة ، ثم سكت منصِتا لأصواتَ الـكلاب التى مع الغنم ونباحِها حين سمعتْ عُواءه[4] ، فإذا سمع نباحَ الـكلاب شـدّ[5] مسرِعا نحوها ، قاصدا إليها ؛ فإذا قرب من الغنم مالَ إلى ناحية أخرى خالية من تَحرّس[6] الـكلاب فاختطف ما أمكنه خطفُهُ من الغنم .

---

(١) عبارة الأصل : « وضع أشلاءه » والـكلمة الأولى زيادة من النـاسخ ، وفى الثانية تحريف .

(٢) « واجترأ » .

(٣) « ثوتين » .

(٤) « عداه » .

(٥) « مدّ » .

(٦) « محرمن » .

حمار الوحش إذا ولدتْ الأنثى الأولادَ الذكور جاء الفحلُ فانتزع خُصَى تلك الذكور وقطعها بأسنانه لكيلا(١) تُصَادَ أو تُشارِكه فى طَروقَةٍ(٢) ، إلاّ أنّ الأنثى ربّما وَضعتْ ولدها فى مكانٍ غامضٍ حتى يشتدّ جسمُه وتَصلُب حوافره ، ويَقوَى بالشدّ على النّجاة من الفحل ، ولهذا السبب يَقِلّ منها الفحول .

الحَرِيش(٣) دابّة صغيرة فى جرم الجَدى ساكنةٌ جدا ، غير أن لها من قوّة الجسم وسرعة الحُضْر ما يُعجِز القَنّاصَ(٤) عنها ، ثم لها فى وسط رأسها قرن واحد منتصِب مستقيم ، به تُناطح جميعَ الحيوان فلا يغلبها شىء .

اِحتَل لصيدها بأن تعرِض لها فتاةً عذْراء وضيئةً ، فإذا رأتها وَثبتْ إلى حِجْرِها كأنّها تريد الرضاع ، وهذه محبّة فيها طبيعية ثابتة ، فإذا هى صارت فى حِجر الفتاة أرضعتْها من ثديها على غير حضور اللّبن فيها حتى تصير كالنّشوان من الخمر والوَسْنان من النوم ، فيأتيها القَنّاص(٥) على تلك الحال فيشدّ من وَثاقها على سكون منها بهذه الحيلة .

الايّلُ عدوّ الحيّات إن قربتْ منه حيّة فانْجحرتْ فى صَدْع صَفا مَلأَ الايّلُ فاه من الغَدير أو من حيثُ وَجد فدفَعه فى ذلك الصَّدْع ، ثم اجتذب الحيّة إليه بالقوّة حتى يقتلها ، وإن كانت فوق أنزَلَها ، وكذلك إن كانت أسفلَ ، فإن كان جائعا أكل ما أصاب منها ، وإن لم يكن به جوع قَتَلها وتركها فصارت الحيّات ذوات السّم الزُّعاف المُميت لكل من أصابه أو خالط بدنه

(١) يريد بقوله «لكيلا تصاد» أنها إذا خصيت قويت على الجرى فلا يقوى الصيادون على اصطيادها .

(٢) يريد بالطروقة : الأتان التى يطرقها الفحل .

(٣) « الحرس » .

(٤) « القياس » .

(٥) « الناس » .

غذاء هذه الأيايل ، ويكون ملائما لها لذيذا عندها .

وإن دخّن البيت الّذى فيه الحيّات بدخان حريق قرن الأيّل فرّت منه كلّها خوفا .

على أن الأيّل نفسه جبان شديد الرعب ، إذا أكل الحية بدأ بذنبها حتى ينتهىَ إلى رأسها ، ثم يقطعه بأسنانه ، وأكبرُ[١] من ذلك [أنه] يتعلّق برءوسها وتبقى فى الهواء . وتكثُر فيه المِرّة[٢] ويَعطَش عطشا شديدا فيعوج إلى غدير الماء .

الغزال ، يقال : ليس فى الحيوان أبصر من الظّباء ؛ ويقال لها باليونانية النّظّارة والمُبصِرة .

الثور دابّة عَمولٌ كدُودٌ مقدّرٌ جسمُه بقدر قوّته . من طبيعته كثرةُ المنىّ وتوقّدُ شهوة السِّفاد ، إن لم يُخْص لم يذّلّل للعمل ولم يَسكُن ولم يصحّ جسمُه لأنّ الغُلْمَة تحلّ[٣] جسمَ تنحِله ، والخِصاء يَقْطَع ذلك كلّه . وبينه وبين الذّبّ[٤] عداوةٌ شديدة .

أعنزُ[٥] الجبل وكباشُه وهى الأَرْواء والتّياتِل هذا جنس متمرّد فى الجبال سريع الحُضْر فى الشواهق والتوقُّل[٦] فيها[٧] وطبيعتُها أنْ تلد توائمَ .

(١) أى وأكبر مما مرّ من دلائل جبنه أنه لا يقطع رءوسها بأسنانه كما سبق ، بل يتعلق بها فلا يأكلها خوفا ولا يلقيها من فيه فتبقى رءوسها معلقة فى الهواء . هذا ما يلوح لنا من معنى هذه العبارة .

(٢) المرة : خلط من أخلاط البدن ، وهى الصفراء .

(٣) « تدخل » .

(٤) « الذئب » .

(٥) « أنعج » . ولم نجد هذا الجمع فى كتب اللغة .

(٦) التوقل : الصعود .

(٧) « فى الما » .

قد يوجد من البهائم ما لا يَحيل ، فأما أنثى الخيل إذا كانت حاملا فوَطِئتْ أثرَ الذئب بحافرها أجهضتْ حملَها .

الحمارُ في طبيعته معرفة صوت الإنسان الذي أعتاد استماعَه وإيناسه ، لا يضلّ عن طريق سَلَكه مرّة ولا يخطئه ، إذا ضلّ راكبُه الطريقَ هداه وحمله على المَحَجّة .

وأمّا حِدّة السمع ، فليس فى البهائم فيما يُذكَر أحدٌ سمعا منه .

اليامُورة[1] دابّة وحشيــة نافرة ، لها قرنان طويلان ، كأنهما منْشاران تَنشُر بهما الشجر ؛ إذا عَطِشتْ وردت الفرات وعليه غَياطِل[2] وغِياض ملتفّةٌ أشجارُها تفرّعت من أغصانها غصونٌ طوال دقاق مشتّبكة ، فإذا شربت ريّها وأرادت الصَّدَر أشتهت الاستتار[3] والعَدْوَ بين تلك الأشجار «ولجَّت[4] هناك» فعلق قرْناها بتلك الغصون اللَّدْنة المتينة ، وكلّما عالجتْها لتُفلِت أزدادت أرتباطا فإذا ضَجرتْ مما وقعت فيه عجّت جزعا ، وسَمِع القُنّاص صوتَها فأتَوْها فقتلُوها .

الجَمَل : حقود ، يرتصد مِن ضارِبِه الفرصة والخَلْوة لينتقمَ منه ؛ فإذا أصاب ذلك لم يستبقِ صاحبَــه ، فأما ظهرُه فذو سَنام مقبّب يكون لكثرة الحَمل وأحتمال الثِّقْل ، وأوصالُ ركبته وعراقيبُــه كبارٌ صلاب ، وأوتارها وعروقُها متينة شديدة ، وعَصَبه وثيق لم يشــتد[5] بضغط ألتحام مفاصله وأتصالها ولم يسترخ مطويّا[6] ، لكنها هُيِّئتْ على الاعتدال[7] ليهون عليــه بذلك البُروكُ

(١) « التامورة » .

(٢) الغياطل : الكثير الملتف من الشجر والنبات .

(٣) « الانتيار » .

(٤) وردت هذه العبارة فى الأصل مؤخرة عن هذا الوضع ؛ والسياق يقتضى وضعها هنا .

(٥) « لم يستبد » .

(٦) « مطريا » .

(٧) فى الأصل « الاقتدار » ؛ وهو تحريف ؛ والمراد بالاعتدال هنا أن أعصابه ليست شديدة ولا مسترخية ، بل هى بين ذلك .

والنهوضُ بحمله ، مع تسهيل الأرتقاء عليه فى ذلك .

البغال : نوعٌ هَجِين قد أُنبئنا أنه لا يَلِد ، إلاّ أنّه أهدَى للطريق(١) للناس وأثبت حفظا .

الثيران وكلُّ ذى قرن لا يأخذه الفُوُاق .

وأما سباع الطير وآكلات اللحم منها فصِلاب الأظفار ، حُجْنُ(٢) المَناقير ذات حدّة وقوّة ، قويّةُ الأجنحة .

والنواهض(٣) التى فيها القوادم أكثر طيرا .

الديكُ صَلِف فى طبيعته ، غير أنّ له مع ذلك إيقاظا للنائم بصياحه فى آناء الليل ، والتبشيرَ بإقبال الصبح وطلوعِ الشمس ، يؤنس السيارات فى السَّفَر(٤) بصياحه فى الّليل ، ويحرّضهم على السير ، مع إيقاظه الفلاّحين لعملهم ، والصّنّاعَ لصناعتهم ، وإذا سمع المرضى صوتَه داخَلَهم من(٥) ذلك رَوْحٌ وخفّة من مرضهم .

الطاوس يحبّ الزينـة ، غيرُ عفيف الطبيعة ، يدعوه زهوه وحرصُه على التزيّن إلى نشْر ذنبه وعَقدِه كالطاق لتراه الأنثى بحسن زينته .

الـكراكىّ تتحارس(٦) بالّليـل ؛ ويجعل الحارس منهـا يتردد فى المحلة ويهتف بصوت يسمع محذّرا(٧) ، فإذا قضى نوبتَه أستراح وأعقبه الذى كان مستريحا نائبا عنـه حتى تقضى كلُّها ما يلزمها من الحراسة ، فإذا طارت لم تَطِر

(١) أهدى للطريق للناس ، أى أكثر هداية — لراكبه من الناس — إلى طريقه .
(٢) حجن المناقير ، أى معوجتها ، الواحد أحجن ، والأنثى حجناء .
(٣) النواهض : فراخ العقبان التى وفرت أجنحتها وقويت على الطيران ، الواحد ناهض . وفى الأصل : « والمناهض » ولم نجده فيما راجعناه من كتب اللغة .
(٤) « يؤنس فى السفر والسيارات لصياحه » .
(٥) « مع » .
(٦) « تتحارين » .
(٧) « محددا » .

متقطعةً ، لكنّها تطير نَسَقا غير مشتّتة ، يَقدُمها واحد منها كالرأس والهادى لها حتى تتلوه كلّها لازمةً صفّها ، ثم يعقبه بعده آخَر متقدِّم حتى يصير المتقدم الأوّل متأخرا فى آخرها ، وتقتسم كرامة المتقدم كلُّها بالسويّة ؛ وفيها ما يبعد سفرُه وينتقل عن مصيفه إذا هجم الشتاء .

البط له يقظة حارسة تدل على حدة حسّه .

الجراد معروف الحال .

العقاب تطلب عين[1] الماء ، فإذا أصابتها تحلّق طائرةً إلى حر الشمس وهو موضع دورانها فيحترق ريشها وما كان من جناح ، ثم تغوص فى تلك العين فإذا هى قد عادت شابّة[2] « وتذهب ظلمة عينيها »[3] .

وأما الطريح[4] فيقيّض الله له طائرا يقال له : قاس[5] فيضمّه إليه ولا يدعه يهلك ، ولكنّه يقوّيا ويربّيه مع أفراخه .

وأجنحة العِقْبان مفصّلة شِبْه رِيشها .

وبصرها قوىٌّ بعيد تحت الشّعاع المستنير .

ويقال : إنها أبصر الطير .

الحَجَل يأتى أعشاش نظرائه فيسرق بيضها ثم يحضُنها ، فإذا تحرّكتْ الفراخُ وطارت لحقتْ بأمّهاتها .

البُوم مأواه ومحلّه الخراب ، يوافقه الّليل ، لأنّه بالليل بصير وبالنهار كَلِيل ، مع حبّه التوحّد والخلوةَ بنفسه ، وبينه وبين الغِربان عداوة ما تنقضى .

(١) « من » .
(٢) « مثابة » .
(٣) وردت هذه العبارة فى الأصل قبل هذا الموضع .
(٤) يريد بالطريح : الملقى الذى لا يقدر على الطيران لضعفه من المرض ونحوه .
(٥) لم نجد اسم هذا الطائر فيما راجعناه من الكتب .

النَّسر يتّخذ وَكْرَه فى المكان العالى المرتفع ، وعليه يقع وفيه ينام كالراصد ، إما فى ذِروة الجبل أو فى وسطِه من شظاياه[(١)] وثناياه وموضع المَنَعة .

وإذا حملتْ زوجتُه مضى إلى الهند فأخذ من هناك حجرا كهيئة الجَوزة إذا حُرِّكَ سُمع به صوتُ حَجرٍ آخَرَ — يتحرّك فى وسطه[(٢)] — كصوت الجَرس ، فإن عسرتْ على زوجته الولادةُ جَعلتْ ذلك الحجر تحتها وعَلتْ عليه فيذهب عنها العُسْر .

قال : ورأيت مرّة أنثى من جنس الطير مات زوجها فامتنعت من الطعام والنوم ليالى[(٣)] كثيرة صارت فيها كالنائحة الباكية على زوجها بتنفُّسِ الصعداء وزَفَراتِ الحُزن لا تَلقُط أيّاما متتابعةً شيئا .

البُزاة من طبيعتها أن تداوىَ أنفسها وفراخَها فلا تموت ، لأنّها تَستعمل فى بعض المرض والداء[(٤)] نِبْتَةً تعرفها وتعرف طبّها ... « ومنه ماينقص ويزيد[(٥)] » .

النعام : لا يَعُول أفراخه إلا أيّاما يسيرة ، ثم يُدحِضُها[(٦)] ويطردها من عنده إنكارا لها .

الغُداف لايبيض ولا يُفرخ من سفاد ، فإذا أفرخت أُنثاه فراخا لم يزُقّها[(٧)] ولم يُطعمْها ، إلا [أنّ[(٨)]] البقّ والبعوضَ يقع عليها لزهومتها ونتن لحمها ، فتفتح

(١) شظايا الجبل : قطع ضخام تتقلع من عرضه ولم تنفصل انفصالا تاما ، تشبيها لها بالشظايا المعروفة . وثناياه : العقبات فيه .
(٢) « صوته » .
(٣) « ليال » .
(٤) « والدائبتة » .
(٥) لم يتضح لنا وجه الاتصال بين هذه العبارة وما قبلها ؟ فلعل هنا كلاما سقط من الناسخ .
(٦) يدحضها : يدفعها .
(٧) « يدقها » .
(٨) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؟ والسياق يقتضى إثباتها .

أفواهَها وتَبلع ما دخل فيها من ذلك البقّ ، فهو يمسكها و يقوّيها .

أنحاء طَيَران الطير مختلفة كاختلاف الطير ، بعضها يطير قريبا من الأرض كالبط وما أشبهه ، و بعضها يرتفع ، غير أنّه لا يُبعد ، كالحمام والغِرْبان ، و بعضها يحلّق تحليقا ، كالعُقاب والصُّقور[١] والأجادِل والبُزاة .

وما كان من الطير بدنه أعظم من جناحه فهو قريب الطيران من الأرض ، لسرعة إحْناء أجنحته واضطراره إلى الوقوع على الأرض .

البيضانيّ[٢] والأَبْغث[٣] : هـذا طائر يحِبُّ ولده ، فإذا تحرّكت فراخه ودَرَجتْ ضَربتْ وجهه بأجنحتها فيدعوه المَحْكُ والغضب المطبوعان فيه إلى قتلها ، فإذا ماتت اكتأب عليها الأبوان وأقاما عليها شِبهَ المأتم ثلاثة أيّام ، ثم إن الأمّ فى اليوم الثالث تشقّ جَنْبَها حتّى يَقطُر دمُها على تلك الفراخ ، فيصير ذلك نشوراً لها بعد موتها .

مالك الحزين[٤] يَنشُل الحيتانَ من الماء فيأكلها وهى طعامه ؛ لا يُحسِن السباحة ، فإن أخطأه انتشالٌ لجاع طرحَ نفسه على شاطئ النهر فى بعض ضحضاحه ، فإذا اجتمعت إليه السمك الصغار لتأكله أسرع [لأكل[٥]] ما يؤكل منه .

من الطير ما يَلقَح من هبوب الريح ، لا يحتاج إلى تزاوُج ولا إلى سِفاد .

---

(١) « والسنور » .

(٢) كذا ورد هذا اللفظ فى الأصل ؛ ولم نجده فيما راجعناه من كتب اللغة والكتب المؤلفة فى الحيوان .

(٣) وردت هذه الكلمة فى الأصل مهملة الحروف من النقط ؛ والصواب إثباتها على هذا الوجه . والأبغث : طائر من طير الماء كلون الرماد ، طويل العنق ؛ وسمى أبغث لبغثته ، وهى بياض إلى الخضرة ، وهو من شرار الطير .

(٤) مالك الحزين : من طير الماء ، وهو البلشون ، طويل العنق والرجلين .

(٥) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها لم ترد فى الأصل .

والخفّاش له خصيتان كَخُصَى الحيوان ، وله أربع قوائم وأسنان حداد كأسنان ذوات الأربع ، يُرضِع ولدَه من اللبن إرضاعا ، وجلدُه أملس .

العَقْعق لا يأوى تحتَ سقف ولا يستظِلّ به ، ولكنه يهىّء وَكْرَه فى المواضع المشرِفة العاليـة والعَرَاء الـكاشِف وجهَ الهواء الفسيح ؛ وطبيعته الزّنا وخيانة الزوج ، فإذا باضت الأنثى بيضها حضّنته بوَرَق الدُّلْب وغطّته كيـلا يقربه الخفّاش ، فإن مسّه مَرِق[١] البيضُ من ساعتِه وفَسَد .

النحل يلد من غير لِقاح الذكور .

الحية إذا هَرِمتْ وكلّ بصرها واسترخى جلدها دخلت فى صَدع صفاة ضيّق أو جُحْر ضاغط يعسر عليها النفوذ فيه حتى ينسلخ عنها جلدها فتأتى عين المـاء فتنغمس فيها حتى يقوى لحمها وينعصب ، فإذا هى فعلت ذلك عادت شابّة كما كانت . فإذا أرادت أن تضىء[٢] عينها أكلت الرازِيانج الرطب فاشتفت عيناها واحتد بصرها ، وإن ضُرِبتْ ضربة بقصبة استرخت فلم تستطع الفِرارَ ، فإن ثنيتَها وَثَبتْ وسعتْ هاربة .

إن أُنقِـع الحَسَكُ[٣] فى الماء ثم نُضح ذلك الماء بين يدى جُحر الحيّة فرت من هناك .

وإن وُضِـع فى جُحْرها أصل حِمَّصٍ رَطْب فرّت أيضا .

وإن رأت الحيّة إنسانا عُريانا استحيتْ منه ولم تقرَبْه .

وإن رأته كاسيا[٤] حملتْ عليه بجرأة شديدة ؛ وما أشدّ طلبها لثأرها ؛ وإن شُدخ رأسُها ماتت من ساعتها .

(١) مرق البيض : صار ماء وفسد . وفى الأصل : مرت .
(٢) « تفنى » .
(٣) الحسك محركا : نبات له ثمرة شائكة مدحرجة تعلق بأصواف الغنم .
(٤) « كابسا » .

السَّمْسِمَة ، وهي حيّة حمراء برّاقة ، إذا كبرتْ وأصابها وجعُ العين وكَمِدتْ[١] التمست حائطا مُقابل المَشرق ، فإذا تبدَّت الشمس أحدّت إليها بصرها قدرَ ساعة فإذا دخل شُعاع الشمس عينَها كشط عنها العَمَى والإظلام ، ولا تزال تفعل ذلك سبعة أيّام حتّى يتجدّد بصرُها تامًّا .

الأفعَى تُزاوج دابّةً بحريّة ، تأتى الأفعى شفيرَ البحر فتصوّت ، وصوتها مُهيِّجٌ لتلك الدابّة البحريّة .

من أحرق عَقربا طَرَدَ برائحة حريقِها عقاربَ ذلك البيت .

فأما حُمة العقرب فهى جوفاء كهيئة المِزمار معقّفة الرأس مكوّنة للّدغ ، فإذا ضَربتْ شيئاً تحركتْ فخرج سمها وجرى فى حُمتِها وسَرَى فى المَلْدُوغ .

الإناث من بنات عِرسٍ إنما تَلقَح من أفواهها وتلد من آذانها .

من عادة هذا الجنس أن يسرق ما وَجد من حلىّ الذهب والفضة ، ويَخبَؤه فى جِحَرته ، فإن وَجد أيضا فى البيت حُبوبا[٢] خلط بعضها ببعض ، كأنّ عمله عملُ الطباخين فى خلط التوابل .

الفار الفارسىّ أطيَبُ رِيحا من كلّ طِيب .

وإن أخذ إنسان جرذا فربطه فى بيت فرّت منه الجُرْذان كلُّها .

وإن وُضع فى جُحر الجرذ البرىّ ورقُ الدِّفْلَى[٣] ماتت الجرذان .

---

(١) كمدت عينها ، أى ذهب صفاؤها ، من الكمدة ، وهى تغير اللون وذهاب صفائه .

(٢) « جنوبا » .

(٣) الدفلى ، نبت مر الطعم جدا ، وهو برى ونهرى ، فورق البرى كورق الحقاء بل أرق ، وقضبانه طوال منبسطة على الأرض ، وعند الورق شوك ، والنهرى ينبت فى شطوط الأنهار ، وشوكه خفى ، وورقه كورق الخلاف وورق اللوز ، عريض ، وزهره كله كالورد الأحمر ، وحمله يشبه الخرنوب .

الدودة الهنديّة هى دودة القزّ ، لها فى رأسها قرنان ، ثم تتحوّل بيضة ثم تتصوّر فى هيئة أخرى ، ذات جناحَين عريضَين منتصِبَين ، وصناعتُها دِمَقْس الحرير .

النمل عَمول مواظب ، فإذا جَمعَ الحبَّ قطّعه كيلا يَنبت إذا أصابه النَّدَى والبِلّة ، ويخرِجُه ويبسطُه عند فم الجُحر ، فإذا يَبِس أدخله .

ومن جرّب طبائع النمل أدرَكَ عِلمَ أزمان المطر والصَّحْو .

من أراد أن يقتل النمل فليدقّ الكِبريت والحَبَق[1] ويذرّها فى جحَرَته ولا يولَد مِن تَزاوُج[2] ، ولكنه يخرج منه شىء قليل صغير فيقع فى الأرض فيصير بيضا ، ثم يتصوّر من البيض بالهيئة التى تُرى ، وإذا شمّت الورد موّتت وأجنحتها مُدمَجة لاصقة بها .

البقّ والبعوض لا نِتاج لهما ، وإنما تُنْجَل[3] من عَفَن الماء ووسخِه ونَتْنِه .

ومن وضع غُصنَ العنب فى موضع تحت سريره لم يقربْهُ بقّ ولا بعوض .

ومن أراد ألاّ يتأذّى بالبراغيث فليَحفِر فى وسط البيت حُفرة ويملأها دم تيس فإن البراغيث تجتمع هنالك .

وإن وَضع فى الحفرة ورقَ دِفْلَى ماتت البراغيث .

الخُلْد غيرُ ذى عينَين ، دائم الحَفْر فى غير نفع ؛ وطعامُه من أصول النبت وعروقِه الذاهبةِ فى الأرض ، فهو يصيب ذلك فى خلال حَفْرِه .

يقال : إنّ فى بلد كذا نهرا ماؤه فى البحر منحدرا إليه على حال طبيعته

(١) الحبق محركة : نبات طيب الرائحة ، حديد الطعم ، وورقه كورق الخلاف ، منه سهلى ومنه جبلى ، وهو الذى يقال له : الفوتنج . وقال أبو حنيفة : إنه يشبه الريحانة التى تسمى النمّام ، ويكثر نباته على الماء ، وهو أنواع كثيرة .

(٢) « يراوح » .

(٣) تنجل ، أى تولد .

ولذلك يصحب السفن متلذذا بأصوات الناس ، فإذا رأى الحوت الأعظم يريد الاحتكاكَ بها وكسرَها ، وثَب الزامور ودخل أذنَه ، فلا يزال زامرا فيها حتى يفرّ الحوت إلى الساحل يطلب خَزَفا أو صخرة ، فإذا أصاب ذلك لا يزال يَضرب به رأسَه حتى يموت .

وركّاب السفينة يحبّونه ويُطعمونه ويتفقّدونه ، ليدوم إلفُه لهم وصحبتُه لسفينتهم ، ويَسلَموا به من ضرر السّمك العادى .

وإذا ألقَوا شبكةً ليصطادوا السمك فوقع فيها الزامور خلّوه حيًّا وأخذوه[1] وأعتقوا لكرامته أصناف السمك الواقع فى الشبكة أحياء .

***

وإنى [قرأت[2]] هذا الفصل على الوزير — كبت الله كلَّ شانىء له — فى ليلتين ، فتعجّب وقال : ما أوسع رحمةَ الله ؛ وما أكثر جُندَ الله ؛ وما أغربَ صُنعَ الله . قلتُ : نعم ؛ وما أغفَل الإنسانَ عن حقّ الله الّذى له هذا المُلك المبسوط[3] ، وهذا الفلَك المربوط ؛ وهذه العجائب التى تصعد[4] فوق العقول التامّة بالاعتبار والاختبارِ بعد الاختبار ؛ وإنما بثّ اللهُ تعالى هذا الخَلْق فى عالَمه على هذه الأخلاق المختلفة والخِلَق المتباينة ، ليكون للإنسان المشرّف[5] بالعقل طريقٌ إلى تَعرُّفِ خالقِها ، وبيانٌ لصحّة توحيده له بما يشهد من أعاجيبها ،

(١) عبارة الأصل « وأخذوا أصناف السمك » ، وقوله : « وأخذوا » واقعة فى غير موقعها ، وقد أثبتناها فى الوضع اللائق بها لاستقامة الكلام بذلك .

(٢) عبارة الأصل « وأن هذا الفصل على الوزير كتب الله » ، وفيها نقص وتحريف كما هو ظاهر .

(٣) المسبوط .

(٤) « تصعد » .

(٥) المشرف .

ستّ ساعات ، وفى الستّ الثانية يَحتبس ماؤه فى يَنْبوعه ويُرى جوفُه ناضبا[١] قد يَبِس .

ونهرا آخرَ يجرى فى كلّ سبع سنين نهر كبريت ، ولا يكون فيه سمك ، لأنْ ماءه يتغيّر فى كلّ يوم ثلاثَ مرّات ، ويَنبعث[٢] منه شِبه ثور ليس له رأس .

وأهل الشأم إذا أرادوا أخذَه ألقوه فى سفينة ، ولا يستطيعون قطعَه بفأس ولا كسرَه بحجر ، إنما يؤتَى بالماء المُنتِن ودم الحيض فيُخلَطان جميعا ثم يُنضَحان عليه ، فإذا وقعا عليه تحلّل وتكتّل كُتَلا[٣] صِغارا ، وتُستعمَل فى أشياء يُنتفَع بها .

عين النار تنبع منها نارٌ تضىء بالليل للسيّارات فلا تَطْفَأ[٤] ولا تَحتاج إلى شىء يمسكها ، لكنّها محفوظة بالحجارة ؛ إن حَمَل إنسانٌ منها شُعلةَ قَبَسٍ إلى موضع لم توقد .

البحر الميّت يقال له ذلك لأنه يموت فيه كلّ حىّ .

السَّرَطان ينسلخ جلده فى السنة سبعَ مرّات ، ويتّخذ بجُحْرِه بابين : أحدهما شارعٌ إلى الماء ، والآخَر إلى اليُبْس ؛ وإذا سُلخ جلده سَدّ عليه الشارعَ إلى الماء لكيلا يَدخل السمكُ فيأكلَه ؛ إلا أنّه يدع الّذى إلى اليبس مفتوحا فتصيبه الريح وما يَنْفَعُ لَحْمَه ويَمصِه ، فإذا اشتدّ لحمه وعادَ إلى حاله فتحَ ذلك المسدود وسَلَك فى الماء وطلب طعمَه وما يقيم حياته .

الزامور حوت صغير الجسم إلفٌ لأصوات الناس ، مستأنِسٌ باستماعها

(١) « ناصبا » .
(٢) « ينبع » .
(٣) « وتكيل كيلا » .
(٤) « يطفئها » .

ونَيلٌ لرضوانه بما يتزوّد من عِبَره الّتي يجد فيها ، وليكون له موقظٌ منها ، وداعٍ حادٍ[(١)] إلى طاعة مَن أبداها وأبرزها ، وخلطها وأفرَدَها .

فقال : قد كنتَ قلتَ : إنّه يجرى كلامٌ فى النّفس منذ ليالٍ ، فهل لك فى ذلك ؟ .

قلتُ : أشدّ الميل[(٢)] وأوحاه ، لكن بشرط أن أحكِىَ ما عندى ، وأروىَ ما حصّلتُ من هذه العصابة بسماعى وسؤالى . فقال : نستأنف[(٣)] الخوض فى ذلك — إن شاء الله — فإن النَّعْسة[(٤)] قد حَدّثت العين ، فأنا كما قال :

قد جَعل النُّعاسُ يَغْرَنْدِينى[(٥)] أدفعُــه عنّى ويَسْرَنْدِينى

أنشِدْنى أبياتا ودِّعنى بها ، ولتكن من سَراةِ[(٦)] نَجْد ، ليُشتمّ منها رِيحُ الشِّيحِ والقَيْصُوم .

فأنشدتُه لأعرابىّ قديم :

مُطِرْنا فلمّا أن رَوِينا تهادرت شَقَاشِقُ منها رائبٌ وحليبُ[(٧)]
ورامت[(٨)] رجالٌ من رجالٍ ظُلامةً وعادت ذُحولٌ بيننا وذُنوبُ[(٩)]

---

(١) « صام » .
(٢) « الثل » .
(٣) « نستأذن » .
(٤) « النفس » .
(٥) يغرنديني ويسرنديني ، يريد أن النعاس يغلبه ويعلوه . وفى الأصل : « يعرنديني » بالعين المهملة . ولم يرد فى اللسان قائل هذا الشعر .
(٦) « سرارة » .
(٧) تهادرت : أى تساقطت . والشقاشق : جمع شقشقة ، وهى جرة البعير معروفة ، وكنى بتهادر الشقاشق عن الخصومة بين القوم وتنمر بعضهم لبعض . يقول : لما أخصبت أرضنا تنمر بعضنا لبعض وتهيأ كل فريق منا لمحاربة فريق ، كما يدل على ذلك البيت الذى يليه .
(٨) « رانت » .
(٩) الذحول : جمع ذحل بفتح الذال ، وهو الثأر .

ونَصَّتْ رِكابٌ للصَّبا فتروّحت — لمنْ بما هاج الحبيبَ حبيبُ[(١)]
وطِثْن[(٢)] فِناء الحيّ حتّى كأنه — رَجا[(٣)] مَنْهلٍ من كَرّهِنَّ نَخِيب
بَنِى عمّنا لا تعجلوا ينضب الثّرى — غَليلا ويَشْفِي المُسْرِفِينَ طبيبُ[(٤)]
فلو قد تولّى النبت وامْتِيرت القُرى — وحُنّت رِكابُ الحيّ حين تؤوب[(٥)]
وصار[(٦)] عَيُوفَ الخُودِ وهي كريمةٌ — على أهلها — ذو جِدَّتَين قَشيبُ[(٧)]
وصار الذى فى أنفِه خُنْزُوانَةٌ[(٨)] — يُنادَى إلى داعِى الرَّدَى فيجيب
أولئـك أيّامٌ تُبيِّنُ ما الفتى — أكابٍ[(٩)] سُكَيْتٌ[(١٠)] أم أشَمُّ نجيبُ

فعجب وقال : هذا جَنَى غَرْسٍ قد جُذَّ أصلُه ، ونزيحُ قَلِيبٍ قد غار مَدُّهُ وجَزْرُه ، وانصرفت .

---

(١) ونصّت ركاب للصبا ، أى رفعت أعناقها لريح الصبا تستروحها . وفى الأصل : « ونضت » ؛ وهو تحريف .

(٢) « وطبن » .

(٣) رجا البئر : ناحيته . وفى الأصل : « وحا » ، وهو تحريف . والنخيب : المنخوب ، أى المنزوع الجوف . وفى الأصل : « يجيب » . شبه فناء الحى وقد وطئته هذه الركائب بجانب منهل منخوب الجوف مهدم من كثرة ما تطؤه أقدام الورّاد .

(٤) نضوب الثرى : كناية عن التقاطع بين القوم ، قال جرير :

فلا توبسوا بينى وبينكم الثرى — فإن الذى بينى وبينكمُ مثرى

(٥) امتيرت القرى : انتجعت وطلبت منها الميرة .

(٦) صاره يصوره ، أى ضمّه إليه وأماله نحوه . يشير إلى حلول الجدب وإرخاص الفقر أقدار العلية ، فيستطيع من له ثوبين أن يضم إليه أكرم العقائل الكريمة على قومها بما له من يسير غنى وإن اتضع نسبه .

(٧) « مشيب » .

(٨) الخنزوانة : الكبر .

(٩) « أكان » .

(١٠) السكيت : الذى يجىء آخر خيل الحلبة .

الليلة الثالثة عشرة[١]

(م) فلما حضرتُ ليلةً أخرى قال : هاتِ . قلتُ : إن الكلام فى النفس صعب ، والباحثون عن غيبها وشهادتهـا وأثرها وتأثّرها فى أطراف متناوحة[٢] وللنظر فيهم مَجال ، وللوهم عليهم سلطان ، وكلٌّ قد قال ما عنـده بقدر قوّته وحظِه ، وأنا آتى بما أحفظه وأرويه[٣] ، والرأى بعد ذلك إلى العقل الناصح والبرهان الواضح .

قال بعض الفلاسـفة : إذا تصفّحنا أمرَ النفس لحظناها[٤] تفعل بذاتها من غير حاجة إلى البدن ، لأن الإنسان إذا تصوّر بالعقل شيئا فإنّه لا يتصوّره بآلة كما يتصور الألوان بالعين والروائح بالأنف ، فإن الجزء الذى فيه النَّفْس من البدن لا يسخن ولا يبرد ولا يسـتحيل من جهة [إلى[٥]] أخرى عند تصوّره بالعقل ، فيظنّ الظانّ منّا أنّ النفس لا[٦] تفعل بالبدن ، لأنّ هذه الأمور ليست بجسم ولا أعراض جسميّة .

وقد تعرف النفس أيضا الآنَ من الزمان والوحْدةَ واليقظةَ ، وليس لأحد أن يقول : إن النفس تعرف هذه الأشياء بحسّ من الإحساس ، ففِعل النفس

---

(١) يلاحظ أننا ذكرنا فى الليلة السابقة أنها الليلة الحادية عشرة ، والصواب أنهما ليلتان الحادية عشرة والثانية عشرة ، كما يتبين ذلك من قوله : « فى ص ١٩٥ س ١٠ : « وإنى قرأت هـذا الفصل على الوزير كبت الله كل شانئ له فى ليلتين » ولهذا جعلنا هذه الليلة الثالثة عشرة .

(٢) متناوحة ، أى متقابلة .

(٣) « وأرومه » .

(٤) « لحقناها » .

(٥) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضى إثباتها .

(٦) فى الأصل : « إنما » والتعليل الآتى بعد يقتضى أداة النفى كما أثبتنا .

إذن يفارق البدن ، وتأليف البرهان أن يكون على أن يقال : للنفس أفعال تخصّها خلوٌ من البدن ، مِثل التصور بالعقل ، وكلُّ ما له فعل يخصّه دون البدن فإنه لا يَفسد بفساد البدن عند المفارقة .

وقال أيضا : وجدنا الناس متّفقين على أن النفس لا تموت ، وذلك أنّهم يتصدّقون عن موتاهم ، فلولا أنّهم يتصورون أن النفس لا تموت ، ولكنّها تنتقل من حال إلى أخرى إما إلى خير و إما إلى شر ؛ ما كانوا يستغفرون لهم ، وما كانوا يتصدقون على موتاهم ويزورون قبورهم .

وقال أيضا : النفس لا تموت ، لأنها أشبه بالأمر الإلهى من البدن ، إذ كان يدبّر البدن ويرأسه .

والله جلّ وعزّ المدبّر لجميع الأشياء ، والرئيسُ لها . والبدن أشبهُ شيء بالشيء الميّت من النفس إذ كان البدن إنما يحيا بالنفس .

وقال أيضا : النفس قابلة للأضداد ، فهى جوهر ، فالفائدة أن النفس جوهر .

وقال : النفس ليست بهَيُولَى ، فلو كانت هَيُولى لكانت قابلةً للعِظَمَ ، فليست النفس إذًا بهَيُولَى .

وقال : ليست النفس بجسم ، لأن النفس نافذة فى جميع أجزاء الجسم الذى له نفْس ، والجسم لا ينفذ فى جميع أجزاء الجسم[1] ؛ ولا هَيُولى ، لأن النفس لو كانت هيولى لكانت قابلة للمقادير والعِظَمَ[2] ، وفائدة هذا أن النفس جوهر على طريق الضرورة .

(١) « النفس » .
(٢) يلاحظ أن هذا الكلام مكرر مع ماسبق من قوله : النفس ليست بهولى الخ .

وقال آخر : حركةُ كلّ متحرّك تنقسم قسمين : أحدهما من داخل ، وهو قسمان : قسم كالطبيعة التى لا تسكن البتّة ، كحركة النار مادامت نارا ، وقسمٌ هو كحركة(١) النفس تهيج أحيانا وتسكن أحيانا ، وكحركة جسد الإنسان التى تسكن إذا خرجتْ نفسه وصار جيفة .

والقسم الآخَر من خارج ، وهو قسمان : أحدهما يُدفع دفعا كما يُدفع السهم ويُطلَق عن القوس ، والآخَر يُجَرُّ جرًّا كما تُجَرّ العَجَلة والجيفة .

وقال : فنقول : ليس يَخفى أنّ جسدنا ليس مدفوعا دَفْعا ولا مجرورا جرًّا و[لمّا](٢) كان كلّ مدفوع أو مجرور متحرّك من خارج متحرّكا لا محالة من داخل ، فالجسد إذَنْ متحرّك من داخل أضطرارا .

وقال : إن كان جسدنا متحرّكا من داخل ، وكان كلّ متحرّك من داخل إمّا متحرّكا حركةً طبيعيّة لا تسكن ، وإما نفسيّة تَسكن .

فليس(٣) يَخفَى أنّ حركة جسد الإنسان ليست بدائمة لا تسكن ، بل ساكنةً [لا(٤)] تدوم ، وكانت حركةُ كلّ ما سكنتْ حركتُه فلم تدم ليست حركةً طبيعيّة لا تسكن ، بل نفسيّةً من قِبَل نفس تحرّكه وتحسّسه .

وقال : إن كانت النفس هى التى تُحيي الإنسان وتحرّكه ، وكان كلّ محرّك يحرّك غيره حيًّا قائما موجودا ، فالنفس إذًا حيّةٌ قائمة موجودة .

وقال أيضا : النفس جوهر لا عَرَض ، وحَدّ الجوهر أنه قابل للأضداد من غير تغيّر ، وهـذا لازم للنّفس ، لأنّها تَقبَل العلم والجهل ، والبِرّ والفُجور

(١) « حركة » .
(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل .
(٣) فى الأصل : « وقال ليس » ؛ والظاهر أن قوله : « وقال » زيادة من الناسخ .
(٤) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل .

والشجاعة والجبن ، والعفّة وضدّها ، وهذه أشياء أضدادٌ ، من غير أن تتغيّر فى ذاتها ، فإذا كانت النفس قابلةً لحدّ الجوهر ، وكان كلُّ قابل لحدّ الجوهر جوهرا فالنفس إذًا جوهر .

وقال : قد استبان أن النفس هى المحيية المحرّكة للجسد الّذى هو الجوهر و [لما] كان كلُّ مُحْيٍ محرّكٍ للجوهر جوهرا فالنّفس إذاً جوهر .

وقال : لا سبيل أن يكون المُحْيِا المحرّكُ جوهرا ويكون المحيِي المحرّكُ غيرَ جوهر ، فإذا كانت هى المحيية المحركة للجسد ، وكان لايمكن أن يكون المحيِي المحرّك للموجود غيرَ موجود ، فالنفس إذاً لا يمكن [أن تكون[1]] غير موجودة .

وقال : إن كانت النفس بها قُوَى وحياةُ الجسد ، فيمتنع أن يكون قوامها بالجسد ، بل بذاتها التى قامت بها حياة الجسد .

وقال : إن كانت النفس قائمة بذاتها التى قامت بها حياة الجسد ، فما كان قائما بذاته فهو جوهر ، فالنفس إذا جوهر .

وقد أملى علينا أبو سليمان كلاما فى حديث النفس هذا موضعه ، ولا عذر فى الإمساك عن ذكره ليكون مضموما إلى غيره ، وإن كان كلُّ هذا لم يجرِ على وجهه بحضرة الوزير — أبقاه الله ومد فى عمره — لكن الخوض فى الشىء بالقلم مخالفٌ للإفاضة باللسان ، لأن القلم أطولُ عِنانا من اللسان ، وإفضاء[2] اللّسان أحرَجُ من إفضاء القلم ، والغرض كلُّه الإفادة ، فليس يكثر الطويل .

قال : ينبغى أن نعرف باليقظة التامّة أن فينا شيئا ليس بجسم له مَدّات ثلاث : أعنى الطول والعرض والسّمْك ، ولا بجزءٍ من جسم ولا عَرَض من

---

(١) هذه العبارة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل . والسياق يقتضى إثباتها .

(٢) « وقضا » .

الأعراض ، ولا حاجة به إلى قوّة جسميّة ، لـكنّه جوهر مبسوط غيرُ مُدرَك بِحِسّ[١] من الإحساس . ولمّا وجدنا فينا شيئا غيرَ الجسم وضدّ أجزائه بحدّته وخاصّته ، ورأينا له أحوالا تُباين أحوال الجسم حتّى لا تُشارِكَ فى شىء منهـا وكذلك وجدنا مباينته للأعراض ، ثم رأينا منه هذه المباينةَ للأجسام والأعراض إنّما هى من حيث كانت الأجسام أجساما والأعراض أعراضا ؛ قضينا أنّ ها هنا شيئا ليس بجسم ولا جزء من الجسم ، ولا هو عَرَض ، ولذلك لا يَقبل التغيّر ولا الحيلولة ، ووجدنا هذا الشىء أيضا[٢] يطّلع على جميع الأشياء بالسواء ولا يناله فتور ولا ملال ، ويتضحُ هذا بشىء أقوله : كلّ جسم له صورة فإنّه لا يَقْبَل صورةً أخرى من جنس صورته الأولى البتة إلاّ بعد مفارقتـه الصورةَ الأولى ، مثال ذلك أنّ الجسم إذا قبل صورةً أو شكلا كالتثليث ، فليس يقبل شكلا آخر من التربيع والتدوير إلاّ بعد مفارقة الشكل الأول . وكذلك إذا قبل نقشا أو مثالا فهذا حاله ، وإن بقِيَ فيه من رسمِ الصُّورة الاولى شىء لا يَقبل الصورة الأخرى[٣] على النظم الصحيح ، بل تُنقَش فيه الصورتان ، ولا تتمّ واحدة منهما ، وهذا يطّرد فى الشَّمَع[٤] وفى الفضة وغيرها إذا قبل صورة نَقْش فى الخاتَم ؛ ونحن نجد النفس تقبل الصوَرَ كلّها على التمام والنظام من غير نقص ولا عجز ، وهذه الخاصّة ضدٌّ لخاصّة الجسم ، ولهذا[٥] يزداد الإنسان بصيرةً كلّما نظر و بحث وارتأى وكَشَف .

(١) « يحسن » .

(٢) هذه الـكلمة وردت فى الأصل فى غير موضعها اللائق بها من العبارة ؛ والسياق يقتضى وضعها فى هذا الموضع .

(٣) « الأولى » .

(٤) « السمع » .

(٥) « ولماما » .

ويتضح أيضا عن كَثَب[١] أن النفس ليست بعَرَض ، لأنّ العَرَض لا يوجد إلاّ فى غيره ، فهو محمول لا حامل وليس هو قِوَاما ، وهـذا الجوهر الموصوف بهذه الصفات هو الحامل لما لما أن تَحْمِلَ ، وليس له شبه من الجِسم ولا من العَرَض .

وكان يقول : إذا صدق النظر ، وكان الناظر عاريا من الهوى ، وصحّ طلبُه للحق بالعشق الغالب ، فإنه لايخفى عليه الفرق بين النفس المحرّكة للبدن ، و بين البدن المتحرّك بالنفس .

قال : ولمّا عرضت الشبهة لقوم قصر نظرهم ، ولم يكن لهم لحظ ولا اُطّلاع فظنّوا أنّ الرباط الّذى بين النفس والبدن إذا اُنحلّ فقد بَطَلاَ جميعا .

وهذا ظنٌّ فيه عَسْف ، لأنّهما لم يكونا فى حالِ الأرتباط على شكل واحد وصورةٍ واحدة ، أعنى أنّهما تَبايَنا[٢] فى تصاحُبِهما وتَصاحَبَا فى تَبايُنِهما[٣] .

ألا تَرَى أنّ البدن كان قِوامُه ونظامُه وتمامُه بالنفس ؟ هذا ظاهر .

وليس هذا حُكْمَ النَّفْس فى شأنها مع البدن ، لأنّها واصلَتْه فى الأوّل عند مسقط النطفة ، فما زالت تربّيــه وتغذّيه وتُحْييه وتُسَوّيه حتّى بلغ البدنُ إلى ما تَرَى ، ووُجِد الإنسانُ بها ، لأنّ النفس وحدها ليست بإنسان ، والبدن وحدَه ليس بإنسان ، بل الإنسان بهما إنسان ، فإذًا الإنسانُ نصيبُه من النفس أكثرُ من نصيبه من البدن .

وهذه الـكثرة توجَد فى الأوّل من ناحيةِ شرفِ النفس فى جوهرها ، وتوجَد فى الثانى من جهة صاحب النفس الذى هو الإنسان بما يستفيده من المعارف

(١) « ونصبح أيضا عن كسب » .
(٢) « تثابتا » .
(٣) « تثابتهما » .

الصحيحة ، ويضمّه إلى الأفعال الواجبة الصالحة ، فأمر المعارف الصحيحة معرفةُ الله الواحدِ الحقّ باليقينِ الخالص ، وأمرُ الأفعال الواجبةِ الصالحةِ العبادةُ له والرضوانُ عنه .

وغايةُ المعرفة الاتّصالُ بالمعروف ، وغايةُ الأفعال الواجبة الفوزُ بالنعيم والخلودُ في جِوار الله ، وهذا هو الصّراطُ المستقيم الذى دعا إلى الجَواز عليه كلٌّ من رجع إلى بصيرة وآوَى إلى حُسْن سيرة .

فأمّا مَن هو عن هذا كلّه عَمٍ[1] وعمّا يجب عليه ساهٍ ، فهو فى قَطيع النَّعَم ، وإن كان متقلّبا فى أصناف النِّعَم .

(٢) وكان يقول كثيرا : الناس أصناف فى عقولهم : فصِنفٌ عقولُهم مغمورة بشهواتهم ، فهم لا يُبصِرون بها إلّا حظوظَهم المعجَّلة ، فلذلك يكدّون[2] فى طلبها ونَيلِها ، ويستعينون بكلّ وُسْع وطاقة على الظَّفَر .

وصِنف عقولُهم منتبهة[3] ، لكنّها مخلوطة بسُبات[4] الجهل ، فهم يحرِصون على الخيرِ واكتسابه ، ويخطئون كثيرا ، وذلك أنّهم لم يَكمُلوا فى جِبِلّتِهم الأولى وهذا نَعتٌ موجود فى العبّاد الجَهَلة والعلماء الفَجَرة ، كما أنّ النَّعتَ الأوّل موجودٌ فى طالبِى الدُّنيا بكل حِيلة ومَحالة .

وصِنفٌ عقولُهم ذكيّةٌ ملتهبة ، لكنّها عَمِيَة عن الآجلة ، فهى تدأب فى نَيْل الحُظوظ بالعلم والمعرفة والوصايا اللّطيفة والسُّمعة الربّانيّة ، وهذا نعت موجود فى العلماء الّذين لم تثلج صدورهم بالعلم ، ولا حَقَّ عندهم الحقّ اليقين ؛ وقصّروا

---

(١) « عميم » .
(٢) « يكسبون » .
(٣) « متبه » .
(٤) « بسيئات » .

بن حال أبناء الدنيا الذين يَشهَرون فى طلبها السيوف الحداد ، و يطيلون إلى نَيلها سواعدَ الشِّداد[١] فهم بالكيد والحيلة يسعَون فى طلب اللذة وفى طلب الراحة[٢] .

وصنف عقولهم مضيئة بما فاء عليها من عند الله تعالى باللطف الخفىّ ، الأصطفاء السنىّ ، والأجتباء الزكى ، فهم يحلمون بالدنيا ويستيقظون بالآخرة ؛ تراهم حضورا وهم غُيَّب ، وأشياعا وهم متباينون .

وكل صنف من هؤلاء مراتبهم مختلفة ، و إن كان الوصف قد جمعهم باللفظ .

وهذا كما تقولُ : « الملوك ساسةٌ ، ولكل واحد منهم خاصّة » ؛ وكما يقولون : « هؤلاء شعراء ولكلّ واحد منهم بحر » ؛ « وهؤلاء بلغاء ولكل واحد منهم أسلوب » وكما تقول : « علماء ، ولكلّ واحد منهم مذهب » .

وعلى هذا أبو سليمان — حفظه الله — إذا أخذ فى هذا الطريق أطرَب ، لسعة صدره بالحكمة ، وفيض صوبه من المعرفة ، وصحة طبيعته بالفطرة .

وقال : إنَّا بعدَ هذا المجلس تركنا صنفًا لم نرسُمه بالذكر ، ولم نعرض له[٣] بالاستيفاء ، وهم الهمج الرّعاع الذين إن قلت : « لا عقول لهم » كنت صادقا ، وَإن قلت : « لهم أشياء شبيهة بالعقول » كنت صادقا ؛ إلا أنهم فى العدد ، من جهة النسبة العنصريّة والجبلّة الطينيّة والفِطرة الإنسيّة ، وفى كونهم فى هذه الدار عمارة لها ومصالح لأهلها ؛ ولذلك قال بعض الحكماء : « لا تسبوا الغوغاء فإنهم يُخرجون الغريق ويُطفئون الحريق ويُؤنسون الطريق ويَشهدون السُّوق » .

فضحك — أضحك الله ثغره ، وأطال عمره ، وأصلح شأنه وأمره — فقال :

(١) « السداء » .
(٢) « البرحة » .
(٣) « عليه » .

وكالإشارة فى الحُلْم ، وليست حلما ولا أتباعا فى الحقيقة ، لأن هٰذين نعتان محمودان فى عالم السيلان والتبدّل ، جاريان على التخيل والتجوّز بزوائد لا ثبات لها ونواقص لا مبالاة بها ، رُوحانيّة فى رُوحانيّة ، كما يقال : « هذا صفوُ هذا » ؛ و « هذا صفوُ الصّفو » ومن لحظ هذه السكيفية[(١)] وبُوشِر صدرُه بهذه الحقيقة أستغنى عن رسوم محدودة بألِفٍ ولام ، وحقائقَ مكنونة فى عرض الكلام ؛ وإذا جهلنا أشياء هى لأهل الأُنْسِ[(٢)] بلُغات قد فُطِروا عليها ، وعبارات أُنِسوا بها ، كيف نجد السّبيل إلى الإفصاح والإشارة إليها .

فهذا باب واضح ، والطمع فى نيله نازح ؛ وإذا كان المَنال صعبا[(٣)] فى الموضع الذى عمدنا إليه ، فكيف يكون حالنا فى البحث عما فى حيّز الالوهيّة وبحبوحة الرُّبوبيّة ، ولا كون هناك ولا ما نِسبتُه للكون ؛ وأقوى ما فى أيدينا أن نتعلّل بالوجود ، فالموجودِ والوِجدان والجود ، وهذه كلُّها غليظة بالإضافة إلينا وفوق الدقيقة بالإضافة إلى أعيانها .

فعَلَى هذا ، الصمتُ أوجَدُ للمراد من النُّطق ، والتسليمُ أظفَرُ بالبِغية من البحث .

قال البخارىّ[(٤)] : فشىء كهذا[(٥)] بدقيقه وإشكاله ، وغموضه وخفائه ، كيف يَظهر على جِبِلّة بَشَريّة وبنية طينيّة وكَمّيّة مادّيّة وكيفيّة عنصريّة ؟ .

فقال : ياهذا ، إنما يشعّ من هذه السكينة على قدر ما أستودع صاحبُها من

(١) « السكفّة » .
(٢) يريد الأنس بمعرفة الله . وفى الأصل « أندلس » .
(٣) « صدقا » .
(٤) البخارى ، هو أبو العباس البخارى تلميذ أبى سليمان المنطق وصديقه ، كثير السؤال والمجادلة له ، كما يتبين مما حكاه أبو حيان عنه فى المقابسات .
(٥) « فشا هذا » .

قد جرى فى حديث النفس أكثر مما كان فى النفس ، وفيه بلاغ إلى وقت ، وأظن الليل قد تمطّى[1] بصلبه ، وناء بكلكله ؛ وانصرفت .

الليلة الرابعة عشرة

ومرّ بعد ذلك فى عرض السَّمَر : ما تقلّد امرؤ قلادةً أفضلَ من سكينة . (١) فقال : ذكّرتَنى شيئا كنتُ مهتمّا به قديما ، والآن قرعتَ إلىّ بابه ؛ ما السكينة؟ فإنى أرى أصحابنا يردّدون هذا الاسم ولا يبسطون القول فيه . فكان من الجواب :

سألت أبا سليمان عن السكينة ماهى ؟ فقال : السكائن كثيرة : طبيعيّة ، ونفسيّة وعقليّة ، وإلهيّة . ومجموعة من هذه بأنصباء مختلفة ، ومقادير متفاوتة ومتباعدة .

والسكينة الطبيعيّة اعتدال المزاج بتصالح الأُسْطُقُسّات ، تحدث به لصاحبه شارةٌ تسمّى الوقار ، ويكون للعقل فيها أثر باد ، وهو زينة الرُّواء المقبول .

والسكينة النفسية مماثلة الرّويّة للبديهة ، ومواطأة البديهة للرويّة ، وقصد الغاية بالهيئة المتناسبة ، يَحدث بها لصاحبها سَمْتٌ ظاهر ورُنُوٌّ دائم وإطراقٌ لا وُجومَ[2] معه ، وغَيبة لا غفلة معها ، وشهامة[3] لا طيش فيها .

والسكينة العقليّة حُسن قبول الاستفاضة بنسبة تامة إلى الإفاضة ؛ ومعنى هذا أن القابل مستغرَق بقوّة المقبول منه ، وبهذه الحال يحدث لصاحبها هدى يشتمل على وزن الفِكر فى طلب الحقّ مع سكون الأطراف فى أنواع الحركات .

والسكينة الإلهيّة لا عبارة عنها على التحديد ، لأنها كالحُلْم فى الانتباه

---

(١) يشير إلى قول امرئ القيس يخاطب الليل :

فقلت له لمّا تمطّى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

كنى بذلك عن طول الليل .

(٢) « وجوه » .

(٣) « وشهادة » .

نور العقل ، وقبسِ النفس ، وهبـة الطبيعة ، وصحّة المزاج ، وحسن الأختيار وأعتدال الأفعال ، وصلاح العادة ، وصحة الفكرة ، وصواب القول ، وطهارة السرّ ومساواته للعلانية ، وغلبتِه بالتوحّد ، وأنتظام كلّ صادر منه ووارد عليه .

وهاهنا تمّحى الجِبِلّة البَشَريّة ، وتتبدّد الجِبِلّة الطّينيّة ، وتَبيد الـكَمّيّة المادّيّة وتعفو الـكيفيّة[1] المنصريّة ، ويكون السلطان والولاية والتصريف والسياسة كلُّها لتلك السكينة التى قدّمْنا وصفنا لها ، واشتدّ وجدُنا بها ، وطال شوقنا إليها ودام تحديقنا نحوها ، وأتصل رُنُوّنا إليها ، وتناهت نَجْوانا بذِكْرها .

وهذا هو الخَلع الّذى سمعتَ بذكره ، واللّباس الذى سألتَ عنه ، أعنى خَلع ما أنت منه إنسان ، ولِبسَ ما أنت به مَلَك . [ألله] المستَغاثُ منكم ، ما أشدّ بلواى بكم ، لِمَ تتحرّكون إلا إلى ما لا سكون لـكم فيه ؟ ولِمَ تسألون عمّا لا أطلاع لـكم عليه ؟ سلوا ربّكم أعيناً بصيرة ، وآذاناً واعية ، وصدوراً طاهرة ، وقوّة متتابعة ، فإنكم إذا مُنِحتموها هُديتم لها ، وإذا حُرِمتموها قُطِعتم دونها ، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله .

قال البخارى : وقد تركنا يا سيّدنا حديث السكينة المجموعة من هذه الجملة بأنصباء مختلفة .

فقال : لا عجب أن يُنشأ العالَمُ بكلّ ما فيه فى هذه الحومة[2] التى لُذْنا بها وحاوَلْنا الوصولَ إليها ؛ وأىّ شىء أعجبَ[3] فى هذا المقام ، رسم أو قوام ، أو ثبات أو دوام ، إلّا[4] له نصيب من عناية الله تعالى الـكريم .

---

(١) « الـكمية » .
(٢) « الحرمة » .
(٣) عبارة الأصل : « أعجب له » ، ويلوح أن قوله « له » زيادة من الناسخ .
(٤) عبارة الأصل : « إلا ما له » وقوله : « ما » زيادة من الناسخ .

نعم ، والسكينة المجموعةُ من كلّ ما سلف القول فيه تَقاسَمَها نوع الإنسان بالزيادة والنقصان ، والغُموض والبيان ، والقلّة والكثرة ، والضّعف والقوّة ، وهذا يتبيّن بأن تَقسِم الطيشَ والحدّة والعجلة والخفّة على أصحابها ، فتجدُ التفاوتَ ظاهراً .

وكذلك إذا قسمت الهدوء والقَرار والسكون والوَقار على أهلها ، فإنك تجد التباينَ مكشوفاً والاختلافَ ظاهراً .

ثم قال : أما السكينة الّتى هى فى أعلى المراتب فهى لأشخاص هم فوق البَشَر ، وليس لهم نسبة من الخلق إلا الخلقة الحسّيّة والعِشرة البَشَريّة ، وإلّا فهم فى ذِرْوة عالية ، ومحلّة إلٰهيّة .

قال : وأمّا السكينة التى تلى هذه فهى للأنبياء على اختلاف حظوظهم منها لأنّها مرتبات تنقسم بين المنام واليقظة انقساماً متفاوتاً بالعرض الحامل للصّدق وللشبيه بالصدق ، وللحقّ وللقُرْب من الحق ، وللصحيح والتالى للصحيح ، ثم يختلف بيانهم عن[1] ذلك بالتعريض والإيضاح ، والكناية والإفصاح ، والتشبيه والاستعارة .

قال : فأمّا السكينة التى تتلو هذه فهى التى تظهر على طائفة تَخلُف الأنبياء ، وذلك أنّ بقايا قُوامهم يرثها الّذين صحِبوهم ، واستضاءوا بنورهم ، وفهموا عنهم ، ولُقّنوا منهم ، ودخلوا فى زُمْرَتهم ، وحاكوهم فى الشّمائل والأخلاق ، وسلكوا منهاجهم فى القياد والسياق ، وصَلحُوا سفراء بين الأبعدين ، كما كانوا سُجَراء[2] للأقربين ، وهم الّذين يفسّرون الغامض ، ويوضِحون المشكل ، ويَبسُطون المطوىّ ، ويشرحون المكنىّ ، ويُبرزون المراد والمعنى ، ويوطّدون الأساس ،

(١) « مابهم على » .
(٢) « سحراً » . والسجراء : الأصدقاء الأصفياء .

ويرفعون الالتباس ، وينفون الوَحشة ويحدثون الإيناس .

وأما السكينة الباقية فهى مفضوضة على أتباع هؤلاء بالسّهام العُلوية ، والمقادير العَدلية ، والمناسيب العقليّة ، من غير جَوْر ولا حَيْف ، ولا انحراف ولا ميل .

فقال البخاريّ : أهى — أعنى السكينة — فى معنى فاعلة أو مفعولة ؟ فقال : الفضاء أعرض [1] مما تظن ، وإن كان فى غاية العَرض ؛ والذِّروة أعلى من أن ترام وإن كان الإنسان يطلبها بالبسط والقبض .

هى بوجه فى معنى فاعلة إذا شعرت بتأثيرها ، وبوجه آخَر فى معنى مفعولة إذا شعرت بتأثرها .

وبوجه آخر ، ليست من هذين القبيلين فى شىء إذا لحظتها فى معانيها قبل تأثيرها وتأثرها ، وأنت تعتبر حد الفاعل والمفعول من شكل اللفظ ووزن الترتيب ، بشائع العادة وقائم العُرف ، والسكينة وراء هذا كلِّه بالحق والواجب والصحة والتّمام فإنها صراط الله للمخصوصين بالاستقامة عليه ، فإذا شهدتَ المخصوصَ بها كانت عبارتك عن الملحوظ منها مشاكِلةً لعبارتك عن أخلاق رضيّة وأحوال مرضيّة ، وإذا شهدتَ ذلك المعنى من معانى الحق كانت عبارتك متلجلجةً لا نظام لها ولا تَعادُل ولا اتساق على العادة الجارية والحال الطارئة ؛ فأحَقُّ ما ينبغى لطالب الحكمة واللائذ بهذه الحومة أن يبحث وينظر ، ويكشف وينقّر ، ويستقصى وَيسْبُرُ [2] ويسأل ويستبصر ؛ حتى إذا بلغ هذه الآفاق ، وشهد هذه الأعلام ، ووَجد الصَّواب الذى لا شَوْبَ فيه ، وصادف اليقين الذى لا ريب معه ، وعرف الاستبانة التى تغنى عن البيان ، وذاق المعنى الذى هو فوق العِيان ، أمسك وانتهى ، ووقف واستغنى

(١) « الفضا أغض » .
(٢) « ويصبر » .

لا لمَرَضِ ظلام غَشيَه ، ولـكن لسلطانِ شُعاعِ مَلَـكه ؛ لأن ذلك النور محيط بكل شىء دونه ، ومستَوْلٍ على كلّ شىء تحته .

وكان يقول فى هذا الفنّ إذا جدَّ به الـكلام وبدا منه المـكتوم وشرد عنه الخاطر ما لا يُوعَى بحفظ ، ولا يُروى بلفظ .

وإنما كان أصحابنا ينتظرون منثورَه بهذه الحروف لفظا لينظموا منه شذرا وعقدا ، وكانوا إذا تلاقوا اشتركوا فى تقويم ذلك كلّه ، وتعاونوا على تحبيره ، وتصادقوا [على] مفهومهم منه ، وتجنّبوا المنازَعة والشغَب عليه ، وأخذوا بالعفو والممكن منه ، لئلاّ يفوتهم المعنى ، ولا يتحيّرون فى المنتهى .

وسأله الأندلسى فى هذا المجلس عن الأمم وأحوالها ، ونقصها[1] وكمالها ؛ فقال : (٢)
اشتركت الأمم فى جميع الخيرات والشرور ، وفى جميع المعانى والأمور : اشتراكا أتى على أول التفاوت ووسطِه وآخره ، ثم استبدّت كلُّ أمة بقوالب ليست لأختها ، واشتراكهم فيها كالأصول واستبدادهم كالفروع ، وفيما اشتركوا فيـه المحمود والمذموم .

ولم يَجُزْ فى الحـكمة الإلهيّة غيرُ هذه القسمة ، لأن الاشتراك لو سبق بلا تفاوت لم يكن اشتراكا ، والتقاسمَ لو عَرِى من الاتفاق لم يكن تقاسُما ، فصار ما من أجْلِه يفترقون ، به يجتمعون ، وما من أجله ينتظمون ، به ينتثرون .

فعلى هذا اشتركوا فى الأخلاق واللّغات ، والعقائد والصناعات ، وجرّ المنافع ودفع المَضارّ ، مع اختلافِهم فيها بنوع ونوع .

ألا ترى أنّ لغة الهند غيرُ لغة الروم ، وكذلك الصناعةُ والعقيدةُ وما يجرى مجراها ، إلا أنّهم مع هذه الأصول والقواعد تقاسَموا أشياء بين الفطرة والتّنبيه ،

(١) « ونقصها » .

وبين الأختيار والتقدمة ، فصار الأستنباط والغوص والتنقير والبحث والأستكشاف والأستقصاء والفِكْر [ليونان(١)] والوهم والحَدْس والظن والحيلة والتحيّل والشعبذة [للهند(١)] والحصافة(٢) واللفظ والأستعارة والإيجاز والأتساع والتصريف والسّحر باللسان للعَرَب ؛ والروِيّة والأدب والسياسة والأمن والترتيب والرسوم والعبوديّة والرُّبوبيّة للفُرس .

فأمّا التُّرك فلها الشجاعة . والعرب تشاركها إما بالزيادة وإما بالمساواة ؛ وليس للترك بعد هذا حظٌّ ولا دراية إلاّ بقسط من الظلّ من الشخص .

والعرب مع منطقها البارع لها المزيّة المعروفة على الترك بَعْدُ [فى(٣)] السياسة وإن كانت قاصرةً ؛ وأمّا الزِّنج والسودان فغلبت عليها الفُسولة وشاكلت البهائمَ الضعيفة ، كما شاكلت التركُ السِّباعَ القويّة .

قيل له : إن أبا زيد قد عمل كتابا فى أخلاق الأمم . قال : قد رأيته وقرأتُه وقد أفاد ، وكلّ من تكلم على(٤) طريقة الحكماء الّذين يتوخّون من الأمور لُبابَها ، ويصرفون عنها قشورها ، فله السابقة والتقدُّم على من يخبط كفلان وفلان .

ومن جَحَد بلاغة العرب فى الخطابة وجَوَلانَها كلَّ مجال وتَميُّزها باللسان فقد كابَرَ ، ومن أنكر تقدُّم يونان فى إثارة المعانى من أماكنها وإقامة الصناعات بأسرها ، وبحثها عن العالم الأعلى والأوسط والأسفل فقد بَهَت .

ومن دفع مزيّة الفُرس فى سياستها وتدبيراتها وترتيب الخاصّة والعامّة بحقّ مالَها وعليها فقد عاند .

---

(١) يلوح لنا أن هاتين الكلمتين اللتين بين مربعين ساقطتان من الأصل كما يدل على ذلك ما يأتى بعد من قوله : « ومن أنكر تقدم يونان فى إثارة المعانى » الخ كما يدل عليه أيضاً كلام سبق فى المفاضلة بين العرب وغيرهم من الأمم فى أوائل هذا الجزء .

(٢) « والحصملة » .

(٣) كلمة « فى » زيادة منا يدل عليها المعنى .

(٤) فى الأصل «غير طريقة» .

وهكذا مَنْ دفع ما للهند ، فليس من شخص و إن كان زريًا قميئا إلاّ وفيه سِرٌّ كامِنٌ لايَشْرَكه فيه أحد ، و إذا كان هذا فى شخص على ما قلنا ، فكيف إذا نظرتَ إلى ما يحويه النوع . وهكذا إذا أرتقيتَ إلى الجنس ، وهذا لأن عَرْض الجنس أوسعُ من عَرْض النوع ، كما أن عَرْض النوع أوسعُ من عَرْض الشخص ، وليس دون الشخص تحت ، كما أنه ليس فوق الجنس فوق(١) . وأما (٣)
انقسام هذه الثلاثة على هذا فليكون فضاء العالم غاصًّا بالطَّرَف والوسطِ والأفق وليكون سَحًّا بالغا من المَصدر إلى المَورد .

وعلى هذا لولا الجنس لم يُوجد نوعٌ ، ولولا النوع لم يوجَد شخص .

وكذلك العكس .

قال أبو سعيد الطبيب : ألِلعالم العُلْوىّ أجناس وأنواع وأشخاص ؟ قال : كيف يخلو العالَم العُلْوىُّ من هذا التقسيم ، و إنما هذا الذى لحقنا فى العالَم السُّفلى حكايةُ ذلك العالَم العلوىّ حَذوَ النعل بالنعل والقُذّة بالقُذّة . فقال له مستزيدا : فهل فى البسائط الإلٰهية أجناس وأنواع وأشخاص ؟ فقال : لا ، إلا أنّ يَتخِذ شىءٌ من هنالك قرارَه فى معارض العالَم السُّفلىّ بقوّة العالم العُلْوىّ ، وذلك كالبرق إذا خَطَف ، والنسيم إذا لطف .

قال : فهل ينال البسائط نقصٌ بالإخبار بالأجزاء المركبة عنها كما ينال المركّباتِ كالٌّ بالأجزاء البسيطة عنها ؟

فقال ، لا ، لأنّ ماعلا يؤثّر ولا يَقبل التأثير ؛ وما سَفُل يتأثّر . ألا ترَى أنّ ماعلا من الكواكب لايتّصل بشىء دونه ، وما سفل منها يتصل بما علا عنه .

وقال له أيضا : إذا قلنا : الرُّوحانيّات ، فماذا ينبغى أن يُلحظ منها؟ فقال : (٤

---

(١) « تحت » .

الروحانيات على أقسام ؛ فقسم منها متبدِّد فى المركّبات من الحيوان والجماد ، وقسم منها مكتنِفٌ للحيوان والجماد ، وبحسَب هذا الاكتناف هو أبسَط وألطف من القسم الأوّل المتبدِّد ؛ وقسمٌ منها فوق القسم المكتنِف ، وهو الّذى منه مادّة المحيط ؛ وقسم آخَرُ فوق هذا الممتدّ ، ثم فوق هذا ما لايملكه وَهم ، ولا يُدركه فهم ؛ وذلك أنه فى جناب القدس وحيثُ لا مَرَامَ لشىء من قُوَى الجنّ والإنس .

(٥) وسألتُ أبا سليمان فقلت : إنّ علىّ بن عيسى الرمّانىّ ذَكر أن التمكين من القبيح قبيح ، لأن التمكين من الحَسَن حَسَن . فلو كان التمكين من القبيح قبيحا مع كونه من الحَسَن حَسَنا كان حَسَنا قبيحا ؛ وهذا تناقض ؛ كيف صحّة هذا الّذى أومأ إليه ؟

فقال : أخطأت[1] ، لأن التمكين وحدَه اسمٌ مجرَّد لشىء محدَّد ، والأسماء المحدَّدة دلالتُها على الأعيان لا على صفات الأعيان أو ما يكون من الأعيان أو ما يكون فى الأعيان .

والتمكين معتبَرًا بما يضاف إليه ويناط به ، فإن كان من القبيح فهو قبيح لأنّه علّة القبيح ، وإن كان من الحَسَن فهو حَسَن لأنه سببُ الحَسَن .

وهذا كما تقول : هذا الدرهم نافع أو ضارّ ؟ فيقال : إن صرفتَه فيما ينبغى فهو نافع ، وإن أنفقتَه فيما لا ينبغى فهو ضارّ ، وكذلك السّيف فى الآلات ، وكذلك اللّفظ فى الكَلِمات ، والإضافة قوّة إلٰهيّة سرت فى الأشياء سريانا غريزيا قاهرا متملكا قاسرا ، فلا جرم لا ترى حسيّا أو عقليّا أو وهميّا أو ظنيّا أو علميّا أو عرفيّا أو عمليّا أو حُلْميّا أو يَقَظيا إلا والتصاريف سارية فيها ، والإضافة حاكمة عليها .

وهذا لأن الأشياء بأسرها مصيرها إلى الله الحقّ ، لأنّ مصدرها من الله

(١) « أخطأ » .

الحقّ ، فالإضافة لازمة ، والنسبة قائمة ، والمشابَهة موجودة . ولولا إضافة بعضنا إلى بعض ما اجتمعنا ولا افترقنا ، ولولا الإضافة بيننا الغالبة علينا ما تفاهمنا ولا تعاوناّ .

قال : إذا كنّا بالتضايُف نتوالَى ، فبأىّ شىء بعده نتعَادَى[1] ؟ قال : هذا أيضا بالإضافة ، لأن الإضافة ظلّ ، والشخص بالظلّ يأتلف ، وبالظلّ يختلف .

وقال : ويزيدك بيانا أنّ العَـدَم والوجود شاملان لنا ، سائران فينا فبالوجود نتصادق ، وبالعَدَم نتفارق .

وسأل[2] مرّة عن الطّرَب على الغناء والضرب وما أشبههما . (٦)

فـكان من الجواب : قيل لسُقْراط فيما ترجمه أبو عثمان الدمشقىّ . لِمَ طَرِب الإنسان على الغناء والضرب ؟ فقال : لأنّ نفسه مشغولةٌ بتدبير الزمان من داخل ومن خارج ، وبهذا الشغل هى محجوبة عن خاصّ مالَها

فإذا سمعت الغِناء انكشف عنها بعضُ ذلك الحجاب ، فَحَنّت إلى خاصّ مالَها من المِثالات الشريفة والسعادات الرُّوحانيّة من بعد ذلك العالَم ، لأن ذلك وطنُها بالحقّ .

فأمّا هذا العالَم فإنّها غريبة فيـه ، والإنسان تابع لنفسه ، وليست النفس تابعة للإنسان ، لأنّ الإنسان بالنفس إنسان ، وليست النفس نفسا بالإنسان ، فإذا طربت النفس — أعنى حنّت ولَحَظت الرُّوحَ الّذى لَها — تحرّكت وخفّت فارتاحت واهتزّت .

ولهذا يطرح الإنسان ثوبه عنه ، وربّما مزّقه كأنّه يريد أن ينسلّ من إهابه

(١) « تنقاد » .

(٢) سأل ، أى الوزير .

أنّه لا بدن له ، فيكون له عَرَض ، والعرَض كلُّه للممكن بالنعت الذى سلف من الكثرة والقلّة والمساواة .

ولهذا تعلّقت التكاليف به فى ظاهر الحال وبادئ الأمر وعارض الشان ، وأستولى الوجودُ عليه بباطن الحال وخفىِّ الأمر وراتب[1] الشان . لكنّ هذا الفصل الّذى اشتمل على الظاهر والباطن ليس ينكشف للحسّ كما ينكشف للعقل .

ولمّا كنّا بالحسّ أكثر — وإن كنّا لا نخلو فى هذه الكثرة من آثار العقل — لزِمَنا الأعترافُ بعوائد الممكِن وعلائقِه ، والعمل عليه ، والرجوع إليه إذا أُمِرْنا أو نُهِينا أو ائتمَرْنا [أو انتهينا[2]] .

ولمّا ظهر لنا بإزاء هذا الّذى كنّا به أكثر أنّ لنا شبحا آخر نحن به أقلّ وهو العقل يشهد لنا بأنّ صورة الوجوب أستولت من مبدإ الأمر إلى منقطعه الّذى هو فى عَرَض الواجب إلى آخر الممتنِع .

وكما لزمنا الاعتراف الأوّل لنكون به عاملين ومستعملين ، ورافعين وواضعين ، ولائمين وملومين ، ونادمين ومُندِمين ؛ كذلك لزِمَنا الاعترافُ بسلطان الواجب الّذى لا سبيل إلى عزله ، ولا محيصَ عن الإقرار به ، ولا فكاك من أُطّرادِه بغير دافع أو مانع .

واتّصل كلامُ أبن يعيش على تقطُّعٍ فى عبارته الّتى ما كانت أداتُه تُواتيه فيها ، مع تدفُّق خواطره عليها ؛ فقال : الرؤيا ظِلّ اليَقَظة ، وهى واسطةٌ بين (٢

(١) « ورأيت » .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضيها .

الذى لَصِق به ، أو يُفلِت من حِصاره الّذى حُبِس فيه ، و يهرولَ إلى حبيبه الّذى قد تجلّى له و برز إليه .

إلاّ أنّ هذا المعنى على هذا التنضيد إنّما هو للفلاسفة الّذين لهم عناية بالنفس والإنسان وأحوالها .

وأمّا غيرهم فطرَبُهم شبيهٌ بما يعترى الطيرَ وغيرَها ، وانصرفتُ .

الليلة الخامسة عشرة

(١) وجرى مرّةً كلامٌ فى الممكن ، فحكيتُ عن ابن يعيش الرّقىّ فصلا سمعته يقوله ، لا بأس برسمه فى هذا الموضع ، فإنّ التشاور فى هذا الحرف دائم متّصل وينبغى لَنا أن نَبحث عنه بكلّ زَحْف وحَبْو(١) ، و بكلّ كدٍّ وعَفْو .

قال : الممكن شبيهٌ بالرؤيا لا بدنَ له يستقلّ به ، ولا طبيعة يتحيّز فيها .

ألا تَرى أنّ الرؤيا تنقسم على الأكثر والأقلّ والتساوى ، وكما أنّ الرؤيا ظِلٌّ من ظلال اليَقَظة ، والظلُّ يَنقُص و يزيد إذا قِيسَ إلى الشّخص ؛ كذلك الممكن ظِلٌّ من ظِلال الواجب ، فطَوْرا يزيد تشابها للواجب ، وطورا ينقص تَشاكُها للممتنِع ، وطورا يتساوى بالوسط .

قال : والواجب لا عَرَض له ، لأنّه حدٌّ واحد ، وله نصيب من الوَحدة بدليل أنّه لا تغيُّر له ولا حيلولة لا بالزّمان ولا بالمكان ولا بالحدثان ولا بالطبيعة ولا بالوهم ولا بالعقل ، بل العقل ينقاد له ، والطبيعة تُسلِم إليه ، والوهم يَفرَق منه وصورة الواجب لا يَحدُسها الظنّ ، ولا يتحكّم فيها تجويز ، ولا يتسلط عليها دامغ ولا ناسخ ، وهذا الحُكم يطّرد على الممتنِع ، لأنّه فى مقابلته على الضّدّ ، أعنى

(١) « حبو وزحف » .

اليَقَظة والنوم ، أعنى بين ظهور الحِسّ[١] بالحركة ، و بين خفائه بالسكون .

قال : والنوم واسطة بين الحيـاة والموت ، والموتُ واسطةٌ بين البقاء الّذى يتّصل بالشهود[٢] و بين البقاء الّذى يتصل بالخلود .

قال : وهذا نعتٌ على تسهيل اللفظ وتقريب المراد والتصوّر ؛ والثقةُ شوكُ القَتاد ، وأزدرادُ العَلْقَم والصاب ، للحواجز القائمة والموانع المتعرِضة من الإلف والمَنشأ وغير ذلك ممّا يطول تعديده ويشقّ أستقصاؤه .

فقال[٣] : هـذا كلامٌ ظريف ، وما خلتُ أنّ ابنَ يعيش مع فدامته[٤] ، ووَخامَتِه يسحب ذَيلَه فى هذا المـكان ، ويُجرى جوادَه بهذا العِنان .

قلتُ له : إنّ له مع هذه الحالِ مَرامىَ بعيدة ، ومَقاصدَ عاليــة ، وأطرافا من المعانى إذا اعتلقها دَلّ عليها ، إما بالبيان الشافى ، و إمّا بمـا يكون طريقا إلى الوَهم الصافى .

(٣) وقلتُ : لقد مرّ له اليومَ شىء جرى بينه وبين أبى الخير اليهودىّ أستُفيد[٥] منه .

قال : وما ذاك ؟ أُنثرْ علينا دُرَرَ هـذه الطائفة التى نميل إليها بالأعتقاد وإنْ كنّا نقع دونها بالأجتهاد ؛ ونسأل اللهَ أن يَرحم ضَعفَنا الذى منه بُدِئْنا[٦] ويبدّلَنا قوةً بها نجد قُربَنا فى آخرنا .

---

(١) « والحركة » .
(٢) « بالبنود » .
(٣) فقال ، أى الوزير .
(٤) « قدامته » بالقاف .
(٥) فى الأصل « ما استفيد » و « ما » زيادة من الناسخ .
(٦) « ورينا » . وبدئنا ، أى خلقنا .

قلت : ذكر أنّ العقل لا غَناء[١] له فى الأشياء التى تغلب عليها الحيلولة والسّيلان والتطوّل ، كما أنّ الحِسّ لا ينفذُ فى الأمور التى لا تطوّر لها بالحيلولة والتطوّل ، ولذلك عُرفت الحِكمةُ فى الكائنات الفاشيات[٢] ، وخفيت العِللُ والأسباب فى بُدُوّها وخُفْيتِها وتبدُّدها وتآلُفِها ، لكنّ هذا الفرق والخفاء مسلَّمان للقُدْرة المستعلية والمشيئة النافذة .

قال : ولهذا الترتيب سرٌّ[٣] به حَسُن هذا النعت ، وإليه أُنتهِىَ هذا البحث وذلك أنّ خَفاء ماخَفِىَ بحقّ الأوّل ألحِق ، وبدوّ ما بدا من نصيب أُطْلِق لِلّذى[٤] لا يحتمل غير هذا الثقل ، ولو خُفِّف عنه هذا لَحِق الإنسانُ البهائمَ ، ولو ثقُل عليه هذا لَحِقَ الملائكة ، فكان حينئذ لا يكون إنسانا ، وقد وجب فى الأصل أن يكون إنسانا كاملا بالنَّصَب والدَّأب ، ويَمتعِض من أن تكون صورةَ الإنسان عنده مُعارة ، لأنه فى الحقيقه حيوان غيرُ ناطق ، بل يجتهد بسعيه وكدحه أن يصير إنسانا فاضلاً ، ويكون فى فضله وكماله ملَكا ، أعنى بالمشاكهة الإراديّة لا بالمشاكهة النوعيّة .

قال : وغاية الحكمة منها للمباشرين لها أنّ المعرفة تَقِفُ على حَيْلولتها ولسيلانها فقط ، لا على تصفّح أجزائها ، لأنّ الترتيب فيها يستحيل مع الزمان .

ألا ترى أنّ الرقم على الماء لاصورة له ، لأن صفحة الماء لاثبات لها ، وكذلك الخطّ فى الهواء ، وكذلك الكائنات البائدات[٥] لا صورة لها ، لأنّها لا ثبات

(١) « عناه » .
(٢) « الفاسدات » .
(٣) « شربه » .
(٤) « الذى » .
(٥) « البارات » .

لها ، وأنت إذا وجدتَ شيئا لا ثبات له لم تضمّ إليه شيئا آخر لا ثبات له طمعا في وقوع الثبات بينهما ، هـذا ما لا يدين به وهم ، ولا ينقاد له ظنّ ؛ ولو ساغ هذا لساغ أن يُجمع بين ما له ثبات ، و بين ما له أيضاً ثبات ، فيَحدثَ هناك سَيَلانٌ وأستحالة .

(٤) وقال : وَصْفُ العقل بشهادة الحسّ ، كما يكون وصف الحِسّ بشهادة العقل إلا أن شهادة الحس للعقل شهادة العبد للمولى ، وشهادة العقل للحس شهادة المولى للعبد ؛ على أن هاتين الشهادتين لا يطّردان ولا يستمرّان ، لأن لـكل واحد من الحس والعقل تفرّدا بخاصّ مالَه ، ولذلك ما وُجد حيوانٌ لاعَقل له البتة ، ووُجد في مقابلته حيّ لا حسّ له .

ثم قال : بل العقل يحكم في الأشياء الرُّوحانية البسيطة الشريفة من جهة الصُّوَر الرفيعة ، والعلائقُ التي بين المعقولات والمحسوسات مانعت العقل ، والعاقل من خلّص[١] الباقيات الخالدات الدائمات القائمات الثابتات من حومة الـكائنات الفاسدات البائنات[٢] الذاهبات الحائلات الزائلات المائلات البائدات .

ودخل في هذا التلخيص ضربٌ من الشكّ والتمارى والخصومة والتعادى والتعنّت إلى أختلاف عظيم ، ووقفتُ عن الحُكم بعد اليقين .

(٥) وقال — أدام الله سعادته — ما السَّجيّة[٣] ؟ قلت : سمعتُ الأندلسيّ يقول: فلان يَمْشي على سجيّته[٣] ، أي طبعه[٣] .

(٦) قال : هل يقال : ظفِرتُ عليه ؟ قلتُ : قد قال شاعرهم .

وكانت قريش لو ظفِرنا عليهمُ شفاء لما في الصّدر والنقصُ ظاهرُ

(١) « في تخليص » .

(٢) « البائدات » .

(٣) وردت هذه الـكلمات الثلاث التي تحت هـذا الرقم في الأصل هكذا « البه » « حسه » . « لحفظه » . والتحريف فيها ظاهر .

قال : هذا حَسَن . قلتُ : الحروف التى تتعدّى إلى الأفعال ، والأفعالُ التى تتعدّى بالحروف ؛ يراعَى فيها السماعُ فقط لا القياس .

هذا كان مذهب إمامنا أبى سعيد ؛ وقد جاء أيضا « ظَفِر به » ؛ وجاء « سخِرتُ به ومنه » .

ومن لا اتِّساع له فى مذهب العرب يظنّ أن « سخِرتُ به » لايجوز وهو صحيح . حكاه أبو زيد .

قال : كيف يقال فى جَمَل به غُدّة ؟ فكان من الجواب : جَمَلٌ مُغِدّ . قال : فكيف يُجمع ؟ فكان الجواب بأنّه فى القياس ظاهر ، ولكن السَّماع قد كفى . قال الشاعر — وهو خِراش بنُ زُهير :

فَقَدْتُكمو[1] ولَحْظكمو إلينا ... بِبَطْنِ عُكاظَ كالإبِلِ الغِدادِ[2]
ضَرَبْناهمْ بِبَطْنِ عُكاظَ حَتّى ... تولَّوا طالِعِين مِنَ النِّجادِ

وقال — حرس الله نفسه — من لقبه[3] الخُرَسِيّ إلى أىّ شىء يُنسب ؟

فكان من الجواب : يقال : رجل خُراسانِىّ وخُرَسِىّ وخُراسِىّ، فنُسبت[4] إلى رجل نزلها[5] فاشتهرت به .

فقال : القَذال كيف يجمع ؟ فكان من الجواب أن فَعالاً وفِعالاً وفُعالاً وفعيلاً وفُعولاً أخوات تُجمعَ فى الأقلّ على أفعِلة ، يقال : حِمار وأحْمِرة ، وغُراب وأغْرِبة ، وقَذال وأقذِلة ، وعَمُود وأعمدة .

---

(١) فى اللسان مادة (غدد) : « عدمتكم ونظرتكم »

(٢) فى كتب اللغة مادة (غدد) أن غداداً جمع (غادّ) لا جمع سماعىّ (لمُغِيد) كما تفيده عبارة المؤلف .

(٣) « لمه » .

(٤) أى نسبت كورة خراسان إلى رجل اسمه خراسان ، كما فى كتب اللغة .

(٥) ورد فى الأصل بعد قوله « نزلها » هذه الكلمة : « سه » مهملة الحروف من النقط ؛ ولم نتبين الصواب فيها .

قال : نسيت[١] أسألك عن المسألة الأولى — أعنى الخُرَّمىّ — من أين لك تلك الفُتيا ؟

فكان من الجواب : قرأته على أبى سعيد الإمام فى شرحه كتابَ سيبويه .

قال : برَّدْتَ غليلى ، فإنَّ الحجَّة فى مثل هذا متى لم تكن بأهلها كانت متلجلجة .

قال : أنشِدْنى شيئاً نختِم به المجلسَ ، فقد مرَّت طرائف .

فأنشدتُه لعُمارةَ بن عَقيل فى بنت[٢] له :

حُبُّكِ يا ذاتَ الأُنَيْفِ الأَكْشَمِ[٣] حُبٌّ تَساقاه مُشاسُ[٤] أعظُمِى
ودَبَّ بين كَبِدى وَمَحْزِمى وَساطَهُ[٥] اللهُ بلَحْمِى ودَمِى
فليس بالمَذْقِ ولا المكتَّمِ ولا الذى إنْ يَتَقَادَمْ يُسْأَمِ
لقد نزلتِ من فؤادى — فاعلمى — منزلةَ الشىء المُحَبِّ المُكرَمِ

وانصرفتُ .

الليلة السادسة عشرة

(١) ثم عُدْتُ وقتاً آخر فقال : كنتَ حكيت لى أنّ العامرىّ صنَّف كتاباً عنونَه (بإنقاذ البَشَر من الجبر والقَدَر) ، فكيف هذا الكتاب ؟

فقلتُ : هذا الكتاب رأيتُه بخطّه عند صديقنا وتلميذه أبى القاسم الكاتب ولم أقرأه على العامرىّ ، ولكن سمعتُ أبا حاتم الرازى يقرؤه عليه ، وهو كتاب

(١) « لست » .
(٢) هذه الكلمة فى الأصل مهملة الحروف من النقط .
(٣) الأكشم : المقطوع ، يريد وصفها بصغر الأنف حتى كأنه قد قطع منه جزء .
(٤) المشاس : كل عظم لا مخ فيه .
(٥) ساطه : خلطه .

نفيس ، وطريقة الرجل قويّة ، ولكنه ما أنقذ البَشَر من الجَبْر والقَدَر ، لأن الجبر والقدر اقتسما جميع الباحثين عنهما والناظرين فيهما .

قال : لِمَ قيل الجبر والقَدَر ولِمَ يُقَل الإجبار .

فكان الجواب : أن الإجبار[١] لغة قوم ، والجبر لغة تميم ، يقال : جبر الله الخلق وأجبر الخلق ، وجبر بمعنى جبل ؛ واللام تعاقب الراء كثيراً .

قال : فتكلمْ فى هذا الباب بشىء يكون غيرَ ما قاله العامرىّ ، وانقد له إن كان الحق فيما ذهب إليه ودل عليه .

فكان من الجواب : أن من لحظ الحوادث والكوائن والصوادر والأواتى من معدن الإلٰهيات أقرّ بالجبر وعرّى نفسه من العقل والاختيار والتصرّف والتصريف ، لأن هذه وإن كانت ناشئةً من ناحية البَشَر ، فإنّ مَنشأها الأول إنّما هو من الدواعى والبواعث والصوارف والموانع التى تنسب إلى الله الحقّ ؛ فهذا هذا .

فأمّا من نظر إلى هذه الأحداث والكائنات والاختيارات والإرادات من ناحية المباشرين الكاسبين الفاعلين المحدثين اللائمين الملومين المكافَين ، فإنّه يعلّقها بهم ويُلْصِقها بِرِقابهم ، ويَرَى أنّ أحداً ما أُتِيَ إلَّا مِن قِبَل نفسه وبسوء اختياره وبشدّة تقصيره وإيثار شقائه ؛ والملحوظان صحيحان واللاحظان مصيبان ، لكنّ الاختلاف لا يرتفع بهذا القول والوصف ، لأنه ليس لكل أحد الوصولُ إلى هذه الغاية ، ولا لكلّ إنسان اطلاع إلى هذه النهاية .

فلما وقعت البينونة[٢] بين الناظرين بالطبع والنسبة لم يرتفع القال والقيل

(١) « من الإجبار » ، « ومن » زيادة من الناسخ .
(٢) « السوية » .

من ناحية القول والصِّفة ، فهذا هذا .

قال — أطال الله بقاءه — فما الفرق بين القضاء والقدَر ؟

فكان من الجواب : أن أبا سليمان قال : إنّ القضاء مصدرُه من العِلم السابق ، والقدَر مَوْرِدُه بالأجزاء الحادثة .

فقال : لم وَرَد فى الأثَر ؟ : « لا تخوضوا فى القدَر فإنّه سرّ الله الأكبر » .

فكان من الجواب : أن أبا سليمان قال لنا فى هذه الأيام . إن الناموس ينطق بما هو استصلاح عامّ ، ليكون النفع به شائعاً فى سكون النفس وطِيب القَلب ورَوْح الصدور .

فإن كان هذا هكذا فقد وَضَح أنّ حكمة هذا السرّ طَيّه ، لأنّ عجز الناظرين يُفضِى بِهم إلى الحَيرَة ، والحَيرَة مَضَلّة ، والمَضَلّة هَلَكة . وإذا كانت الراحة فى الجهل بالشىء ، كان التعب فى العلم بالشىء ، وكم علمٍ لو بدا لنا لكان فيه شقاء عيشنا ، وكم جهل لو ارتفع منّا لكان فيه هلاكُنا ؛ [والعلم] [(١)] والجهل مقسومان بيننا ومفضوضان علينا على قدر احتمال كلّ واحد منّا للّذى سبق إليه وعَلِق به ، ألا ترى أنّ علمَنا لو أحاط بموتنا متى يكون ؟ وعلى أىّ حال تحدثُ العلّة [(٢)] أو المحنة أو البلاء ؟ لكان ذلك مفسدةً لنا ، ومحنةً شديدةً علينا .

فانظر كيف زَوى الله الحكيمُ هذا العِلم عنا ، وجعل الخِيرة فيه لنا .

ألا ترى أيضاً أنّ جهلَنا لو غلب علينا فى جميع أمورنا لكان فسادُ ذلك فى عظم الفساد الأوّل ، والبلاء منه فى معرض البلاء المُتقدِّم ، فمَن هذا الّذى أشرفَ على هذا الغَيب المكنون والسرّ المخزون فيغفُلَ عن الشكر الخالص ، والاستسلام الحسَن ، والبراءةِ من كلّ حَوْل وقوّة .

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضيها .
(٢) فى الأصل : « أو العلة » ، « وأو » زيادة من الناسخ .

فالأستِمداد ممن له الخلق والأمر ، أعني الإبداء والتكليف ، والإظهار والتشريف ، والتقدير والتصريف .

قال : هذا فنٌّ حَسَن ، وأظنّك لو تصديتَ للقصص والكلام على الجميع[١] (٢)
لكان لك حظٌّ وافر من السامعين العاملين ، والخاضعين والحافظين .

فكان من الجواب : أن التصدّي للعامّة خُلوقة[٢] ، وطلب الرِّفعة بينهم ضعة ، والتشبّه بهم نقيصة ؛ وما تعرّض لهم أحد إلّا أعطاهم من نفسه وعِلمه وعقله ولُوثَتِه ونِفاقه وريائه أكثر ممّا يأخذ منهم من إجلالهم وقبولهم وعطائهم وبَذْلهم .

وليس يقف على القاصّ إلّا أحد ثلاثة .

إمّا رجل أبله ، فهو لا يدري ما يخرج من أمّ دِماغه .

وإمّا رجل عاقلٌ فهو يزدريه[٣] لتعرّضه لجهل الجهّال ، وإما له نسبة[٤] إلى الخاصة من وجه ، وإلى العامّة من وجه ، فهو يتذبذب عليه من الإنكار الجالب للهجر ، والأعتراف الجالب للوصل ، فالقاصّ[٥] حينئذ ينظر إلى تفريغ الزمان لمداراة هذه الطوائف ، وحينئذ ينسلخ من مهمّاته النفسيّة ، ولذّاته العقليّة ، وينقطع عن الأزدياد من الحكمة بمجالسَة أهل الحكمة ، إمّا مقتبِساً منهم ، وإمّا قابساً لهم ؛ وعلى ذلك فما رايت من انتصب للناس قد ملك إلّا درهما وإلّا ديناراً أو ثوباً ؛ ومناصَبةً شديدةً لمماثليه وعُداته .

قال : إن الليل قد دنا من فجره ، هاتِ مُلحَةَ الوَداع .

---

(١) يريد بالجميع ، العامّة .

(٢) يريد بالخلوقة هنا معنى التبذل والامتهان . يقال : خلق الثوب بتثليث اللام خلوقة وخلاقة : إذا بلى .

(٣) يزدان به .

(٤) ورد في الأصل بعد هذه الكلمة قوله : « له » وهي زيادة من الناسخ .

(٥) « فالعاص » .

قلتُ : قال يعقوب صاحب (إصلاح المنطق) :

دخل أعرابى الحمّام فزلق فأُنشجّ ، فأنشأ يقول :

وقالوا تَطَهَّرْ إنّهُ يَوْمُ جُمْعَــةٍ فرُحْتُ من الحمّام غيرَ مُطَهَّرِ
تَرَدَّيْتُ منه [شارِيًا] (١) شَجَّ مَفْرِقى بفَلْسَين إنِّى بئسَ ما كان مَتْجَرِى
وما يُحسِنُ الأعرابُ فى السُّوقِ مِشْيَةً فكيف ببَيْتٍ من رَخامٍ ومَرْمَرِ
يقول لى الأنباطُ إذْ أنا نازل (٢) « به لا بظَبْيٍ بالصَّرِيمَةِ أعفرِ » (٣)

وقال — حرس الله نفسَه — كنتُ أرْوِى قافية هذا البيت « أعفرا » ، وهذه فائدة كنتُ عنها فى ناحية ؛ وأنصرفت .

(٧) قد رأيتُ أيّها الشيخ — حاطك الله — عند بلوغى هذا الفصل أن أختمَ الجزء الأوّلَ بما أنتهى إليــه ، وأشفعَه بالجزء الثانى على سِياجِ ما سلف نظمُه ونثرُه ، غيرَ عائج على ترتيبٍ يحفظ صُورَة التصنيف على العادة الجارية لأهله ، وعذرى فى هذا واضح لمن طلبه ، لأنّ الحديث كان يَجرى على عَواهِنِه بحسب السانح والدّاعى .

وهذا الفنّ لاينتظم أبداً ، لأنّ الإنسان لا يَملك ماهو به وفيه ، وإنما يَملك ما هو له وإليه .

وهذا فصل يَحتاج إلى نَفَسٍ مَديد ، ورأيٍ يَصدُر عن تأييد وتسديد (٤) ؛ والسلام ، والحمد لله وحدَه ، وصلواتُه على سيدنا محمد النبى وآله الطاهرين ، وسلّم تسليما كثيرا إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

(١) هذه الكلمة أو مايفيد معناها ساقطة من الأصل ؛ وبقية البيت تقتضى ما أثبتنا .
(٢) « تارك » .
(٣) هذا مثل يضرب فى الشماتة بالرجل . يريدون أن المكروه ينزل به ولا ينزل بظبى أعفر ؛ كأنه من الخسة والهوان بحيث يفضّل عليه الظبى الأعفر .
(٤) فى نسخة ميلانو بعد قوله : «وتسديد» ما نصه : أنشئت هــذه الرسالة فى رجب سنة أربع وسبعين وثلاثمائة .

فهرست الأعلام

الواردة فى الجزء الأول من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدىّ

(ب)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

تم فهرست الأعلام

فهرست أسماء الأماكن

الواردة فى الجزء الأول من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدىّ

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(ف)

فهرست القبائل والأمم والفرق

الواردة فى الجزء الأول من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدىّ

(ن)

(هـ)

(ى)

فهرست أسماء الكتب

الواردة فى الجزء الأول من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدى

استدراك

اطلع صديقنا السيد محمد كرد على عَلَى تجارب الجزء الأول من كتاب الإمتاع والمؤانسة بعد أن مثلت للطبع ، فكتب عليها الملاحظات الآتية ، ونحن نسجّلها لحضرته مع شكرنا الجزيل له على هذه المعاونة العلمية القيّمة .

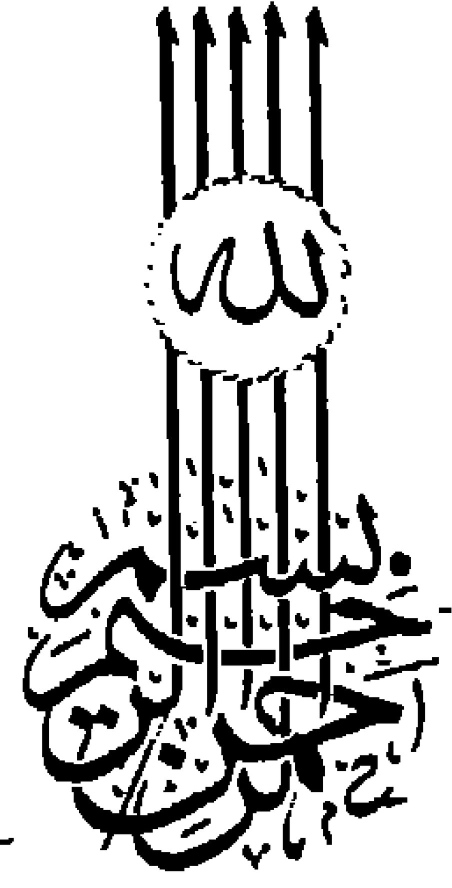
صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣	٨	أبعدُ	أبعدَ
٣	١٣	عابسا	عاتبا
١٠	٦	يُفْتَقَر	يُغْتَفَر
١٠	٨	بفكاهتك	بفهاهتك
١٢	٢	زهراتها	زهرتها
١٢	٩	وعيوب	وغيوب
١٣	٩	طلب	طيب
١٦	٩	يحرصون	ويحرصون
٢١	١	محاوبة	محاباة
٢٦	٩و١٠	والله إنى لأشترى المحادثة من عبيد الله	والله إنى لأشترى ليلة من ليالى عبيد الله
٣٥	٣	شاذٌ	شادٍ
٣٨	٣	السامِرىّ والمعرى	السَامَرّىّ والصَّيْمَرى ، (وقد ذكرنا هذا التصويب فى فهرست الأعلام أيضاً) .
٣٩	٤	مخارق النجوم	مخارف النجوم

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٩	١٥	عنده الصناعة	هذه الصناعة
٤٠	١٣	يعبّر	يَعْتَبِر
٤٠	١٩	النفس الفلكية	النفس الكلية
٤١	١	» »	» »
٤١	١٣	قال	قلت
٤٤	٦	تأجيل	تهجين
٥١	٨و٩	إلى قابوس وجرجان	إلى قابوس بجرجان
٥٧	١٤	أنه من فعلاته	أنها من فعلاته
٥٨	٤	يقال	يقال [له]
٦٨	١٦	ابن أبى طالب	أبو طالب
٧٠	١	فى دار	فى دارِ [لِتَانٍ] . (والتانى : الدهقان ؛ أو زعيم الإقليم)
٧٢	١٣	ويتجنّون به على الدناءة	ويتجنبون به الدناءة
٧٩	٩	يقفور	فُغْفور
٨٣	١٠	ويكفينى	ويدفئنى
٨٦	١١	المؤذية	المؤدّبة
٨٦	١٣	نَقّاب	نِقَات
٨٨	٢	والاختبار	والاختيار
٨٨	١٦	مع الجاعة وأبو سليمان يقول	وأبو سليمان يقول مع الجاعة
١٠٠	١١	وينصف	ويصنّف

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٠١	٩	خَرِفت	خَرَقْت
١٠٢	٢٠و٢١	تتغذّى	تَتَنَدّى
١١٣	١٥	بسادة	بعبارة
١٣٦	١١	يَدْفَع	[لا] يَدْفَع
١٥٨	١٥	بَذّالاً	نَزّالاً
١٩٦	٧	حدّثت العين	جذبت العين
١٩٧	٢٠ ح	ثوبين	ثوبان
٢٠٨	١٠	لم تتحركون	لم [لا] تتحركون
٢١٨	٤	والثقة شوك القتاد	و [دون] الثقة شوك القتاد
٢٢٠	٧	لا يطردان ولا يستمران	لا تطردان ولا تستمران
٢٢٣	١	قوية	قويمة

وقد تفضل نختم هذه الملاحظات بالجملة الآتية :

« هذا ما أردت تقييده ، ومن هذه الملاحظات ما يردّ عليه بأيسر سبيل ، ومنه ما هو من هنات مطبعية لا يخلو منها كتاب ، ومَنْ رأى النسخة الوحيدة التى جرى عليها الطبع من كتاب الإمتاع والمؤانسة يهنئْ الأستاذين ناشريه على ما وُفّقا له من تقويم غلطاته وسقطاته وتحريفاته ، والعصمة لله وحده » .


بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب
الإمتاع والمؤانسة

تأليف

أبي حيان التوحيدي

وهو مجموع مسامرات في فنون شتى
حاضر بها الوزير ابا عبد الله العارض في نحو أربعين ليلة

الجزء الثاني

صححه وضبطه وشرح غريبه

أحمد أمين و أحمد الزين

دار مكتبة الحياة
للطباعة والنشر والتوزيع

تنبيهان

١ — لم ننشر فهارس الموضوعات فى هذا الجزء وسابقه اعتماداً على أننا سننشر فهرساً عاماً للموضوعات كلها فى آخر الكتاب .

٢ — كان اعتمادنا فى الطبع على النسخة الكاملة الوحيدة المشار إليها فى الحواشى بحرف ا . وهناك قطع قليلة غير مرتبة الصفحات ولا كاملة الأجزاء ، تبلغ خمسى الكتاب تقريباً ، ومن ثم جعلناها نسخة إضافية ، وقد نجد فيها بعض الزيادات فنضعه بين مربعين من غير تنبيه عليه . فليلاحظ ذلك .

أحمد أمين

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) أيها الشَّيخُ — أطالَ اللهُ يدَكَ فى الخيرات ، وزادَ فى هِمَّتك رَغْبةً فى أصطناعِ المَكرُمات ، وأجراكَ على أحْسن العادات فى تقديم طُلَّاب العِلْم وأهْلِ البُيوتات — قد فرغْتُ فى الجزء الأول على مَارَسْتَ فى القيامِ به ، وشرَّفْتَنى بالخَوْض فيه ، وسَرَدْتُ فى حواشيه أعيانَ الأحاديث التى خَدَمْتُ بها مجلسَ الوزير ، ولم آلُ جُهْداً فى رِوايتها وتقويمها[١] ولَمْ[٢] أحْتَجْ إلى تَعْمِيةِ شىء منها ، بل زَبْرَجْتُ كثيرا منها بناصِعِ اللفظ ، مع شَرْحِ الغامِض وصِلةِ المَحْذوف وإتمام المَنْقوص ، وحَمَلْتُه إليكَ على يد (فائقٍ) الغلام ، وأنا حريصٌ على أنْ أُتْبِعه بالجُزْء الثانى ، وهو يَصِل إليكَ فى الأُسْبوع إن شاء الله تعالى .

(٢) وأنا أسألك ثانيةً على طريق التوكيد ، كما سألتك أوّلا على طريق الاقتراح ، أن تكون هذه الرسالةُ مَصُونةً عن عُيونِ الحاسدِين العَيّابِين ، بعيدةً عن تناوُلِ أيْدِى المفسدِين المنافِسين ؛ فليس كلُّ قائل يَسْلَم ، ولا كلُّ سامعٍ يُنْصِف ، ولا كلُّ مُتَوَسِّطٍ يُصْلح ، ولا كلُّ قادمٍ يُفسَحُ له فى المجلس عند القُدوم .

والبَلِيّة مضاعَفَةٌ من جهة النُّظَراءِ فى الصناعة ، وللحسد ثَوَرانٌ فى نفوسِ هذه الجماعة ؛ وقَلَّ من يَجْهَد جُهْدَه فى التقرب إلى رئيسٍ أو وزير ، إلا جَدَّ فى إبعاده من مَرامِه كلُّ صغير وكبير ؛ وهذا لأنَّ الزمانَ قد استحال عن المعهود ،

---

(١) هذه الكلمة مطموسة فى (أ) .

(٢) فى (أ) ولو لم أحتج ، وقوله : « لو » زيادة من الناسخ .

وجفا عن القيام بوظائف الديانات وعادات أهلِ المروءات ؛ لأمورٍ شَرْحُها يَطُول ؛ وقد كان الناس يتقلّبون فى بسيط[1] الشمس ؛ (أعْنى الدِّين) فغرُبَتْ عَنْهم ، فعاشوا بنور القمر ، (أعْنى المروءَة) فأَفل دُونهم ، فبَقوا فى ظُلُمات البرِّ والبحرِ ، (أعْنى الجهل وقلّة الحياء) فلا جرَمَ أعْضَل الدَّاء ، وأشْكلَ الدَّواء ، وغَلَبت الحَيْرة ، وفُقِد المُرْشِد ، وقَلَّ المُسترْشِد ؛ والله المُستعان .

وأَرْجع إلى ما هو الغرضُ مِنْ نسْخ ما تَقَدَّم فى الجزء الأوّل .

الليلة السابعة عشرة

(١) فلما عُدْتُ إلى المجلس قال : ما تَحْفظ فى تَفعال وتِفعال ، فقد اشْتَبَها ؟ وفَزِعتُ إلى ابْنِ عُبَيْد الكاتب فلم يكن عنده مَقْنَع ، وألقَيْتُ على مِسْكَوَيْه فلم يكن له فيها مَطْلَع ؛ وهذا دليلٌ على دُثور الأدب وبَوارِ العِلْم والإعراضِ عن الكَدْحِ فى طلبه . فقلتُ :

قال شيخنا أبو سعيد السِّيرافىُّ الإمامُ — نَضَّرَ اللهُ وَجهَه — : المصادِرُ كلُّها على تَفْعالٍ بفتح التاء ، وإنما تجىء تِفعالٌ فى الأسماء ، وليس بالكثير . قال : وذكر بعضُ أهل اللّغَة منها ستة عشر اسماً لا يوجَد غيرُها . قال : هاتِها .

قلتُ : منها التِّبْيان والتِّلْقاء ، ومرّ تِهواءٌ من اللّيل ؛ وتِبْراكُ[2] ، وتِعْشار[3] وتِرْباع ، وهى مواضع ؛ وتِمساح للدّابة المعروفة ؛ والتمساح الرَّجُلُ الكذّابُ أيضاً .

---

(١) كذا ورد هذا اللفظ فى كلا الأصلين ولعل المراد ببسيط الشمس ضوءها المنبسط .

(٢) فى كلتا النسختين « وتنزال » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن ياقوت . وتبراك : ماء لبنى العنبر وقيل موضع بحذاء تعشار .

(٣) فى كلتا النسختين « وتعشاء » ؛ وهو تحريف ؛ والتصويب عن ياقوت . وتعشار موضع بالدهناء .

وتِجفاف وتِمثال وتِمْراد[١] بيت الحَمام ، وتِلْفاق ، وهو ثوبان يُلفقان . وتِلْقام : سريعُ اللَّقْم .

ويقال : أتت الناقةُ على تِضْرابها ، أى على الوقت الذى ضَرَبَها الفَحْلُ فيه ، وتِضْراب كثيرُ الضَّرْب [وتِقْصار][٢] ، وهى المِخْنَقة ؛ وتِنْبال ، وهو القصير .

قال : هذا حَسَنٌ ، فما تقولُ فى تَذْكار ؟ فإنَّ الخوض فى هذا المثالِ إنما كان من أجْلِ هذا الحرْف ، فإنّ أصحابَنا كانوا فى مجلس الشَّراب ، فاُختلفوا فيه ؟

فقلتُ : هذا مَصْدَرٌ ، وهو مفتوح .

ثم قال : اِجْمَعْ لى حُروفاً نظائرَ لهذا من اللغة ، واشْرَحْ[٣] ما نَدَر منها ، وعَرَضَ الشَّكُّ لكثير من الناس فيها .

فقلتُ : السمعَ والطاعةَ مع الشَّرَفِ بالخدْمة .

(٢) وقال أيضاً : حدِّثْنى عن شىء هو أهمُّ من هذا لى وأخطَرُ على بالى ، إنى لا أزال أسمع من زيد بن رِفاعة قولاً ومذهباً لا عهد لى [به][٤] وكنايةً عما لا أحُقُّه ، وإشارةً إلى ما لا يتوضّح شىء منه ، يذكُرُ الحروف ويَذْكُرُ النُّقَط ، ويزْعُم أن الباء لم تُنْقَطْ من تحت واحدةً إلا بسبب ، والتاء لم تُنْقَطْ من فوقُ اثنتين إلّا لعلّة ، والألفَ لم تعْرَ إلا لغَرَض . وأشباه هذا ؛ وأشهَدُ[٥] منه فى عَرْض ذلك دَعْوَى يتعاظم بها ويتنفَّجُ[٦] بذِكْرِها ؛ فما حديثُه ؟ وما شأنُه ؟

(١) فى كتب اللغة أن التمراد هو بيت صغير فى بيت الحمام لبيضه .
(٢) لم ترد هذه الكلمة فى كلتا النسختين ، وقد أثبتناها عن كتب اللغة .
(٣) فى « ب » : « وتوخ » .
(٤) لم ترد هذه الكلمة فى (أ) .
(٥) « وأشهر » فى كلتا النسختين .
(٦) يتنفج : يفتخر بما ليس فيه . وفى كلتا النسختين « يتنفخ » .

وما دُخْلَتُهُ ؟ وما خَبَرُه ؟ فقد بلغنى أنك تغشاه وتَجْلس إليه ، وتُكْثِرُ عنده ، وتُوَرِّق له ، ولك معه نوادرُ مضحِكة ، ونوادرُ معجِبة . ومن طالت عِشرتُهُ لإنسانٍ صَدَقَتْ خِبْرَتُه به ، وانكشف أمرُه له ، وأمكنَ اطّلاعُه على مستكِنِّ رأيِه وخافِي مَذْهَبِه وعويصِ طريقته .

فقلتُ : أيُّها الوزير ، هو الذى تَعْرِفه قَبْلى قديمًا وحديثًا بالتربية والاختبار والاستخدام ، وله منكَ الأُخُوّةُ[1] القديمةُ والنِّسبةُ المعروفة .

قال : دَعْ هذا وصِفْه لى . قلتُ : هناك ذَكاءٌ غالبٌ ، وذِهْنٌ وَقّادٌ ، ويَقَظةٌ حاضرة ، وسَوانحُ متناصرة[2] ، ومتَّسَعٌ فى فُنونِ النَّظْمِ والنثرِ ، مع الكتابة البارعة فى الحساب والبلاغة ، وحفظِ أيام الناس ، وسماعٍ للمقالات ، وتبصّرٍ فى الآراء والدِّيانات ، وتصرُّفٍ فى كلّ فنّ : إمّا بالشدْوِ[3] المُوهِمِ ، وإمّا بالتَّبصّرِ المُفهِمِ ، وإما بالتّناهى المُفْحِمِ . فقال : فعَلَى هذا ما مذهبُه ؟ قلتُ : لا يُنسب إلى شىء ، ولا يُعْرَف برَهْط ، لجَيَشانه بكلّ شىء ، وغَليانِهِ[4] فى كل باب . ولاختلاف ما يبدو من بسْطَةِ تِبْيانه ، وسطوته بلسانه[5] ، وقد أقام بالبصرة زمانًا طويلاً ، وصادَفَ بها جماعةً جامعةً لأصناف العلْمِ وأنواعِ الصِّناعة ؛ منهم أبو سليمان محمدُ بنُ مَعْشر البِيسْتِيّ[6] ، ويُعْرَف بالمَقْدِسىّ ، وأبو الحسن على بن

(١) فى « ب » الآصرة . والآصرة ما عطفك على إنسان من ود أو رحم أو نحوها .

(٢) متناصرة ، أى ينصر بعضها بعضا .

(٣) بالشدو ، أى أخذ العلم وتلقيه .

(٤) فى كلتا النسختين « وعليائه » .

(٥) فى (أ) « بسلطانه » .

(٦) فى كلتا النسختين « ابن مسعر البستى » ، وهو تحريف والبيستىّ نسبة إلى بيستق من قرى الرىّ .

هارون الزَّنْجانيّ[(١)]، وأبو أحمد المِهرَجانيّ[(٢)] والعَوْفيّ وغيرهم، فصحِبَهم وخَدَمَهم؛ وكانت هذه العصابة قد تآلفَتْ[(٣)] بالعِشْرة، وتَصافتْ بالصّداقة، واجتمعتْ على القُدْس والطَّهارة والنصيحة، فوَضعوا بينهم مذهباً زعموا أنّهم قرّبوا به [الطريقَ] إلى الفَوْز برضوان الله والمصير[(٤)] إلى جنَّتِه، وذلك أنهم قالوا: الشريعة قد دُنِّستْ بالجَهالات، واختَلَطَتْ بالضّلالات؛ ولا سبيلَ إلى غَسْلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، [وذلك] لأنّها حاويةٌ للحِكمة الاعتقاديّة، والمصلحة الاجتهاديّة.

وزعموا أنه متى انتظَمت الفلسفةُ اليونانية والشريعةُ العربية فقد حصل الكمال؛ وصنّفوا خمسين رسالةً فى جميع أجزاء الفلسفة: عِلْميّها وعَمَليّها، وأفردوا لها فِهْرِستاً وسمَّوها رسائلَ إخوان الصَّفاء وخلّان الوفاء، وكتموا أسماءهم، وبَثُّوها فى الوَرّاقين، ولقَّنوها للناس، وادَّعَوا أنّهمْ ما فعلوا ذلك إلا ابتغاءَ وجهِ الله عزّ وجلّ وطلبَ رضوانِه ليخلِّصوا الناسَ من الآراءِ الفاسدة التى تضرّ النفوس، والعَقائدِ الخبيثةِ التى تضرّ أصحابَها، والأفعال المذمومةِ الّتى يَشْقَى بها أهلُها؛ وحَشَوْا هذه الرسائلَ بالكَلِم الدِّينيّة والأمثالِ الشرعيّة والحروفِ[(٥)] المُحْتَمَلَة والطُّرُق الموهِمة.

فقال: هل رأيتَ هذه الرسائل؟ قلتُ: قد رأيتُ جملةً منها، وهى مبْثوثةٌ من كلّ فنٍّ نُتَفا بلا إشباعٍ ولا كفاية، وفيها خُرافات وكِنايات وتلفيقات

(١) فى (ا) الريحانى.

(٢) المهرجانى: نسبة إلى مهرجان من قرى أسفرايين أو مهرجان قذق، وهو كورة، وفى كلتا النسختين «المهرجونى».

(٣) فى (ا): «بالفت».

(٤) كذا فى «ب»، والذى فى (ا) «والفوز» مكان قوله: «والمصير» وهو خطأ من الناسخ.

(٥) الحروف: الكلمات.

وتلزيقات ؛ وقد غَرَقَ الصَّوابُ فيها لغلبة الخطأ عليها ؛

(٣٧) وحملتُ عِدّةً منها إلى شيخنا أبى سليمان المنطقىّ السِّجِستانىّ (محمد بن بهْرَام)(١) وعرضْتُها عليه ونظر فيها أياما واختبرها طويلا ؛ ثم ردَّها علىّ وقال : تَعِبوا وما أغْنَوا ، ونَصِبوا وما أَجْدَوا ، وحامُوا وما وَرَدوا ، وغَنَّوا وما أطرَبوا ، ونَسَجوا فهَلهَلُوا ، ومَشَطوا ففَلْفَلوا(٢) ؛ ظنّوا ما لا يكون ولا يُمكن ولا يُستطاع ؛ ظنُّوا أنهمْ يمكنهم أن يدسُّوا الفلسفةَ — التى هى علْمُ النُّجومِ والأَفْلاكِ والمِجَسْطِى والمقَادِيرِ وآثارِ الطَّبيعة ، والموسيقِى التى هى مَعْرفة النَّغَم والإيقاعاتِ والنَّقَراتِ والأَوْزَان ، والمنطق الّذى هو أعتبارُ الأَقْوال بالإضافات والكَمِّيّات والكيفيّات — فى الشريعة ، وأن يَضُمّوا(٣) الشريعةَ للفلسفة .

وهذا مَرامٌ دونَه حَدَد(٤) ؛ وقد توفَّرَ على هذا قَبْلَ هؤلاء قوم كانوا أحدَّ أنيابًا ، وأحضَرَ أسبابًا ، وأعظَمَ أقْداراً ، وأرفَعَ أخْطاراً ، وأوْسَعَ قُوًى ، وأوْثَقَ عُرًا ، فلَمْ يَتِمّ لهمْ ما أرادُوه ، ولا بلَغوا منه ما أمَّلُوه ؛ وحَصَلوا على لُوثاتٍ قبيحة ، ولَطَخاتٍ فاضحة ، وألقابٍ مُوحِشة ، وعَواقبَ مُخْزِية ، وأوْزارٍ مُثقِلة .

فقال له البُخارىّ أبو العبّاس : ولِمَ ذلك أيها الشيخ ؟

قال : إنّ الشريعةَ مأخوذةٌ عن الله — عزّ وجلّ — بوَساطة السَّفير بينه و بين الخَلْق مِن طريقِ الوَحْى ، وبابِ المناجاة ، وشهادةِ الآيات ، وظهورِ المعجزات ، على ما يوجِبُه العقل تارةً ، ويُجوِّزُه تارةً ، لمصالحَ عامّةٍ مُتقَنة ، ومَراشدَ تامّةٍ

(١) فى كلتا النسختين : « ابن إبراهيم » .

(٢) فى (ا) : « تفلقوا » وفى (ب) : « فعلقوا » ؛ وهو تصحيف . وفلفلوا ، أى جعلوا الشعر شديد الجعودة . يقال : شعر مفلفل ، إذا كان كذلك .

(٣) فى (ب) : « يطبقوا » .

(٤) دونه حدد ، أى دفع ومنع .

مُبيَّنة ؛ وفى أثنائها ما لا سبيلَ إلى البحثِ عَنْه ، والغوْصِ فيه ؛ ولا بدَّ من التّسليم للداعى إليه ، والمنبِّهِ عليه ؛ وهناكَ يَسقُطُ (لِمَ) ويَبْطُلُ (كَيْفَ) ، ويَزُول (هَلّا) ويذهبُ (لوْ) و(لَيْتَ) فى الرِّيح ، لأنَّ هذه الموادَّ عنها مَحْسُومة ، واُعتراضات المعترِضين عليها مردودةٌ ، واُرتيابَ المُرتابين فيها ضارّ ، وسكونَ الساكنين إليها نافع ؛ وجُمْلَتُها مُشتمِلةٌ على الخير ، وتَفصيلُها موصولٌ بها على حُسن التّقبّل ، وهى متداوَلة بين متعلّق بظاهرٍ مكشوف ، ومُحتجّ بتأويلٍ معروفٍ ؛ وناصرٍ باللغة الشائعة ، وحامٍ بالجدَل المُبين ، وذابٍّ بالعمل الصالح ، وضاربٍ للمثل السائر ، وراجعٍ إلى البرهان الواضح ، ومتفقِّهٍ فى الحلال والحرَام ، ومُستنِدٍ إلى الأثر والخبَرِ المشهورَيْن بين أهلِ المِلّة ، وراجع إلى اتفاقِ الأمّة .

وأساسُها على الورَع والتّقْوى ، ومُنتهاها إلى العبادةِ وطلَبِ الزُّلْفَى .

ليس فيها حديثُ المُنجِّم فى تأثيراتِ الكواكِب وحركاتِ الأفلاكِ ومقاديرِ الأجرام ومطالِع الطّوالع ومغارب الغوارب .

ولا حديثُ تشاؤمِها وتيامُنِها ، وهُبوطِها وصُعودها ، ونَحْسِها وسَعْدها ، وظُهورِها واسْتِسْرارِها ، ورُجوعِها واستقامتِها ، وتربيعِها وتثليثِها ، وتسديسِها ومُقارنتِها .

ولا حديثُ صاحبِ الطبيعة الناظرِ فى آثارِها ، وأشكال الأُسْطُقُسّات ، بثبوتِها وافتراقها ، وتصريفها فى الأقاليم والمعادنِ والأبدان ، وما يتعلق بالحرارة والبرودة والرطوبة واليُبوسة ؛ وما الفاعل وما المُنفعل منها ؛ وكيف تمازُجُها وتَزاوُجُها ، وكيف تَنافُرُها وتَسايُرُها ؛ وإلى أين تَسْرِى قُواها ، وعلى أى شىء يَقِف مُنتهاها .

ولا فيها حديثُ المهندسِ الباحثِ عن مقادير الأشياء ونُقَطِها وخطوطِها وسُطوحِها وأجسامِها وأضلاعِها وزواياها ومقاطِعِها ، وما الكُرة ؟ وما الدائرة ؟ وما المُستقيم ؟ وما المُنحنى ؟

ويقولون : مُطرنا بنوْء المِجْدَح ، فهذا كما ترى ، والمِجْدَحُ : الدَّبَران .

ثم قال : ولقد اختلفت الأمّةُ ضروباً من الاختلاف فى الأصول والفروع ، وتنازَعوا فيها فُنوناً من التنازع فى الواضح والمُشكل من الأحكام ، والحلالِ والحرام ، والتفسير والتأويل ، والعِيان والخبر ، والعادةِ والاصطلاح ؛ فما فزعوا فى شىء من ذلك إلى منجّمٍ ولا طبيب ولا منطقىٍّ ولا مُهَنْدِسٍ ولا مُوسيقىٍّ ولا صاحب عزيمةٍ وشَعْبَذة وسِحْرٍ وكيمياء ، لأن الله تعالى تمّ الدين بنبيه صلّى الله عليه وسلم ، ولم يُحْوِجْه بعد البيان الوارد بالوَحْى إلى بيانٍ موضوعٍ بالرأى .

قال : وكما لم نجد فى هذه الأمّة من يَفْزَع إلى أصحاب الفلسفة فى شىء من دِينها ، فكذلك أمّة عيسى عليه السلام وهى النصارى ، وكذلك المجوس .

قال : ومما يَزيدك وُضوحاً ويُريكَ عجباً أنّ الأمّة اختلفتْ فى آرائها ومذاهبِها ومقالاتها فصارت أصْنافاً فيها وفِرَقاً ؛ كالمُرْجِئة والمعتزِلة والشِّيعة والسُّنِّيّة والخوارِج ، فما فزعتْ طائفةٌ من هذه الطوائف إلى الفلاسفة ، ولا حَقَّقتْ مَقالتها بشواهدهم وشهادتهم ، ولا اشتغلَتْ بطريقتهم ، ولا وَجَدَتْ عندهم ما لم يكن عندها بكتاب ربِّها وأثر نبيِّها .

وهكذا الفقهاء الذين اختلفوا فى الأحكام من الحلال والحرامِ منذ أيّامِ الصَّدْر الأوّل إلى يوْمنا هذا لم نَجِدْهم تَظاهروا بالفَلاسفة فاستنْصَروهم ، ولا قالوا لهم : أعينونا بما عندكم ؛ واشهدوا لنا أو علينا بما قِبَلَكُمْ .

قال : فأين الدِّينُ من الفلسفة ؟ وأين الشىء المأخوذُ بالوَحْىِ النّازل ، من الشىء المأخوذِ بالرّأى الزائل ؟

فإذ أَدَلُّوا بالعقل فالعقل مَوْهِبَةٌ من الله جلّ وعزّ لكلّ عبد ، ولكن بقَدْرِ

ولا فيها حديثُ المنطقىّ الباحثِ عن مراتب الأقوال ، ومَناسِب الأسماء والحروف والأفعال ؛ وكيف ارتباطُ بعضها ببعض على موضوع رجل من يونان حتى يَصحّ بزعمه الصدق ، ويُنبَذَ الـكَذِب .

وصاحبُ المنطق يرى أنّ الطبيبَ والمنجِّم والمهندِسَ وكل من فاهَ بلفظٍ وأمّ غرضاً فقراء إليه ، محتاجون إلى ما فى يديه .

قال : فعَلَى هذا كيف يَسُوغ لإخوان الصّفاء أن ينصبوا من تِلقاء أنفسهم دعوةً تَجمع حقائقَ الفلسفة فى طريق الشريعة ؟

على أن وراء هذه الطوائف جماعة أيضاً لهم مآخذُ من هذه الأغراض ، كصاحب العزيمة وصاحبِ الطِلّسْم وعابرِ الرؤيا ومدَّعِى السِّحْر وصاحبِ الكيمياء ومستعمِل الوَهْم .

قال : ولو كانت هذه جائزةً وممكنةً لكان الله تعالى نبّه عليها ، وكان صاحبُ الشريعة يُقوِّم شريعتَه بها ، ويكمّلها باستعمالها ، ويتلافى نقصَها بهذه الزيادة التى يجدها فى غيرِها ، أو يحضّ المتفلسفين على إيضاحها [بها] ويتقدم إليهم بإتمامها ، ويَفرِض عليهم القيامَ بكل ما يُذَبّ به عنها حسبَ طاقتهم فيها ، ولم يفعل ذلك بنفسه ، ولا وَكَله إلى غيره من خلفائه والقائمين بدينه ؛ بل نهى عن الخوْض فى هذه الأشياء ، وكرّه إلى الناس ذِكرَها ، وتوعّدهم عليها ، وقال : من أتى عرّافاً أو طارقاً (١) أو حازياً (٢) أو كاهناً أو منجِّماً يطلب غيب الله منه فقد حارب الله ، ومن حارب الله حُرِب ، ومن غالبه غُلِب ، حتى قال :

« لو أنّ الله حَبَسَ عن الناس القَطْرَ سبعَ سنينَ ثم أرسله لأصبحتْ طائفةٌ به كافرين » .

(١) الطارق : الذى يطرق الحصى مستخبرا إياه عن الغيب .

(٢) الحازى : الذى ينظر فى الأعضاء وفى خيلان الوجه يتكهن . ومنه قولهم : على الحازى وقعت ، أى على الخبير ؛ والحازى أيضاً : الذى يزجر الطير .

ما يُدْرك به ما يَعلوه ، كما لا يَخْفى به عليه ما يَتْلوه ، وليس كذلك الوحى ، فإنه على نوره المنتشِر ، وبيانِه الميسَّر .

قال : وبالجملة ، النبىُّ فَوْقَ الفَيْلَسُوف ، والفَيْلَسُوفُ دون النبىّ ؛ وعلى الفَيْلسوف أن يتّبع النبىّ ، وليس على النبىّ أن يَتّبع الفيْلَسُوف ، لأنّ النبىّ مبعوث ، والفيلسوفَ مبعوثٌ إليه .

قال : ولو كان العقلُ يُكتَفى به لم يكن للوحْى فائدةٌ ولا غناء ، على أن منازِل الناسِ متفاوِتةٌ فى العقل ، وأنصِباؤهم مختلفةٌ فيه ؛ فلو كنّا نَسْتغْنى عن الوحى بالعقْل كيف كنّا نَصْنَع ، وليس العقْل بأسْرِه لواحدٍ منّا ، وإنما هو لجميع الناس ، فإن قال قائل بالعبث والجهل : كلٌّ عاقل مَوْكُولٌ إلى قَدْرِ عقلِه ، وليس عليه أن يَسْتَفيد الزيادة مِنْ غيْرِه ، لأنّه مَكْفِىٌّ به ، وغيرُ مُطالَبٍ بما زاد عليه .

قيل له : كفاكَ تمادِيا فى هذا الرأى أنه ليس لك فيه موافِق ، ولا عليه مُطابِق ؛ ولو استقلّ إنسانٌ واحدٌ بعقلِه فى جميع حالاته فى دينه ودنياه لاستقلّ أيضاً بقوته فى جميع حاجاته فى دينه ودنياه ، ولكان وَحْدَه يفى بجميع الصِّناعات والمعارف ، وكان لا يحتاج إلى أحدٍ من نوعه وجِنْسه ؛ وهذا قَوْلٌ مَرْذُول ورأىٌ مَخْذول .

قال البخارىّ : وقد اختلفَتْ أيضاً دَرجاتُ النبوة بالوَحْى ، وإذا ساغ هذا الاختلاف فى الوَحْى ولم يكن ذلك ثالماً له ، ساغ أيضاً فى العقل ولم يكن مؤثِّراً فيه .

فقال : يا هٰذا ، اختلافُ درجات أصحاب الوَحْى لم يُخْرِجْهُمْ عن الثِّقة والطُّمأْنينة بمن اصطفاهم بالوَحْى ، وخصَّهُمْ بالمناجاة ، واجتباهم للرسالة ، وأكملَهم بما ألْبَسَهُمْ من شِعار النبوة ؛ وهذه الثِّقةُ والطُّمأْنينة مفقُودتان فى الناظرين بالعقول المختلفة ،

لأنهم على بُعْدٍ من الثِّقة والطُّمأنينة إلاّ فى الشىء القليل والنَّزْرِ اليَسير؛ وعَوارُ هٰذا الكلامِ ظاهِر، وخَطَلُ هٰذا المتكلِّم بَيِّن.

قال الوزير: أفما سمع شيئاً من هذا المقدسىُّ؟ قلتُ: بَلَى قد ألقيْتُ إليه هٰذا وما أشْبهه بالزِّيادة والنقصان، والتقديم والتأخير، فى أوقات كثيرة بحَضْرَةِ حَمْزَةَ الورّاق فى الورّاقين، فسَكتَ، وما رآنى أهلًا للجواب؛ لكن الحريرىّ غلام ابن طَرّارة هَيَّجه يوما فى الورّاقين بمثْل هٰذا الكلام، فاندفع فقال: الشريعة طِبُّ المَرضَى، والفلْسفةُ طِبّ الأصحّاء، والأنبياء يُطِبّون للمَرْضَى حتى لا يتزايَد مَرَضُهُمْ، وحتى يزولَ المرضُ بالعافية فقط. فأما الفلاسفة فإنهم يَحفظون الصِّحةَ على أصْحابها حتى لا يَعْتَرِيهمْ مَرَضٌ أصْلًا، فبين مدبّرِ المريض ومدبّرِ الصحيحِ فَرْقٌ ظاهر وأمْرٌ مكْشوف، لأن غاية مدبِّر المريض أن يَنْتَقِل به إلى الصحة، هذا إذا كان الدواء ناجعاً، والطَّبْعُ قابلا، والطبيب ناصحاً. وغايةُ مدبِّر الصحيحِ أن يحفظ الصحّة، وإذا حفِظَ الصحّة فقد أفادَهُ كَسْبَ الفضائل، وفرَّغه لها، وعَرَّضَه لاقتنائها؛ وصاحبُ هذه الحال فائزٌ بالسعادة العُظْمى، ومتبوِّئٌ الدرجةَ العُليا؛ وقد صار مستحقّا للحياة الإلٰهيّة؛ والحياةُ الإلٰهيةُ من الخُلودِ والدَّيْمومةِ والسَّرْمَدية. (٤)

فإنْ كَسَبَ من يَبرأ من المرضِ بطبِّ صاحبِه الفضائلَ أيضاً؛ فليست[1] تلك الفضائلُ من جِنْس هذه الفضائل، لأنّ إحداهما تقليديّة، والأخرى برهانيّة؛ وهذه مظْنونةٌ، وهذه مستيقَنة[2]، وهذه رُوحانيّة، وهذه جسميّة، وهذه دَهْرِيّة، وهذه زَمانيّة.

(١) فى ب «قلت»؛ وهو تحريف.
(٢) فى ب «مستقسمة»؛ وهو تحريف.

وقال أيضاً : إنما جَمَعْنا بين الفلسفة والشَّريعة لأن الفلسفة مُعْتَرِفَةٌ بالشريعة ، وإن كانت الشريعةُ جاحدةً لها ؛ وإنما جَمَعْنا أيضاً بينهما لأنّ الشريعة عامة ، والفلسفةَ خاصّة ، والعامّةُ قِوامُها بالخاصّة ، كما أن الخاصّةَ تَمامُها بالعامّة ؛ وهما متطابِقتان إحداهما على الأخرى ، لأنهما كالظِّهارة التى لا بدّ لها من البِطانة ، وكالبِطانة الّتى لا بدّ لها من الظِّهارة .

فقال له الحَرِيرىّ : أمّا قَوْلُك طِبُّ المَرْضَى وطبُّ الأصحّاء وما نَسَّقْتَ عليه كلامَكَ فمَثَلٌ لا يعبِّر به غيرُكَ[1] ومن كان فى مُشْكل ، لأنّ الطبيب عندنا الحاذقَ فى طِبّه هو الذى يَجمع بين الأَمْرَيْن ، أعنى أنّه يُبرِئُ المريضَ من مَرَضه ، ويَحفظُ الصَّحيحَ على صحّته ؛ فأما أن يكون ها هنا طبيبان يعالج أحدُهما الصحيح ، والآخَرُ يعالج المريض ، فهذا ما لم نَعْهَدْه نحن ولا أنت ؛ وهو شىءٌ خارجٌ عن العادة ، فمَثَلُك مردودٌ عليك ، وتشنيعُك فاضحٌ لك ، وكلٌّ أحد يَعلَمُ أن التدبير فى حفظ الصّحّة ودَفْعِ المرض — وإن كان بينهما فَرْق — واحد ، فالطِّبّ يجمعهما ، والطبيب الواحدُ يقوم بهما وبشرائطهما .

وأمّا قَوْلك فى الفصل الثانى : إنّ إحدى الفضيلتين تقليدية ، والأخرى برهانيّة ، فكلامٌ مدخول ، لأنّك غلطتَ على نفسك ؛ ألا تعلَم أن البرهانية هى الواردة بالوحى ، الناطمة للرُّشْد ، الداعيةُ إلى الخير ، الواعدةُ بحسْن المآب ؛ وأنّ التقليديّة هى المأخوذة من المقدِّمةِ والنتيجة ، والدعوى التى يُرْجَع فيها إلى من ليس بحجّة ، وإنما هو رجلٌ قال شيئاً فوافَقَه آخَرُ وخالَفَه آخَر ، فلا الموافِقُ له يَرجِعُ إلى الوَحْى ، ولا المخالف له يَستنِد إلى حَقّ ؛ والعَجَب أنّك جعلتَ الشريعةَ من باب الظنّ ، وهى بالوَحْى ، وجَعلتَ الفلسفةَ من باب اليقين ، وهى من الرأى .

(١) فى (أ) « عليه » .

وأمّا قولك : هذه رُوحانيّة — تَعْنِي الفلسفة — وهـذه جسميّة — تعني الشريعة — فزَخْرفة لا تستَحِقّ الجواب ، ولمثل هذا فَلْيَعْمل المُزخْرِفون ؛ على أنا لو قُلْنَا : بل الشريعة هي الرُّوحانية ، لأنها صَوْتُ الوحي ، والوحي من الله عزّ وجل ، والفلسفة هي الجسميّة ، لأنها برزَتْ من جهة رجل بأعتبار الأجسام والأعراض ، وما هذا شأنُه فهو بالجِسْم أشْبَه ، وعن لُطْفِ الرُّوحِ أبعَد [لَما أبعَـدْنا] .

وأما قولُك : الفلسفة خاصةٌ والشريعةُ عامة ، فكلام ساقط لا نُورَ عليه ، لأنّك تشير به إلى أن الشريعة يعتقدها قوم — وهم العامّة — والفلسفة يَنْتَحِلُها قوم — وهم الخاصة — فلِمَ جمَعْتم رسائلَ إخوان الصفاء ودعوتم الناسَ إلى الشريعة وهي لا تَلزم إلا للعامّة ، ولِمْ تقولوا للناس : مَن أحبَّ أن يكون من العامة فلْيَتحلّ بالشريعة ، فقد ناقَضْتُم ، لأنكم حَشَوْتُم مقَالتكم بآياتٍ من كتاب الله تزعمون بها أن الفلسفة مدلولٌ عليها بالشريعة ، ثم الشريعةَ مدلولٌ عليها بالمعرفة ، ثم هأنت تَذْكر أن هٰذه للخاصّة ؛ وتلك للعامّة ؛ فَلِمَ جَمعتُمْ بين مفترِقَيْنِ ، ومزّقتم بين مجتمِعَين ؛ هذا والله الجهْلُ المُبين ، والخُرْق المشين .

وأمّا قولك : إنّا[1] جمعنا بين الفلسفة والشريعة[2] لأنّ الفلسفة معترِفةٌ بالشريعة ، وإن كانت الشريعة جاحِدَةً للفلسفة ، فهذه مناقَضة أخرى[3] ، وإني أظُن أنّ حسّك كليل ، وعقلَك عَليل ، لأنّك قد أوْضَحْتَ عُذْرَ أصحاب الشريعة ، إذ جَحَدوا الفلسفة ، وذلك أن الشّريعة لا تَذْكرها ، ولا تحضّ على الدَّيْنُونة[4]

(١) في (ا) « إذا » وهو تحريف .
(٢) ورد بعدْ قوله : الشريعة في (ا) « وما » وهي زيادة من الناسخ لا معنى لها .
(٣) في (ا) « للأخرى » وهذان اللامان زيادة من الناسخ .
(٤) « النوبة » .

بها ؛ ومع ذلك فليس لهم علمٌ بأنّ الفلسفة قد حَثَّتْ على قبول الشريعة ، ونهت عن مخالفتها ، وسمّتها بالناموس الحافظ لصلاح العالم (١)

ثم قال الحريرىّ : حدِّثْنى أيها الشَّيخُ : على أىّ شريعةٍ دلّت الفلسفة ؟ أعَلى اليهوديّة ، أم على النصرانيّة ، أم على المجوسيّة ، أم على الإسلام ، أم ماعليه الصائبون ؟ فإنّ ها هنا من يتفلسف وهو نصرانىّ كابن زُرْعة وابنِ الخمّار وأمثالهما ، وها هنا من يتفلسف وهو يهودىّ ، كأبى الخير بن يعيش ، وها هنا من يتفلسف وهو مسلم ، كأبى سليمان والنُوشجانىّ وغيرِهما ، أفتقول إن الفلسفة أباحت لكل طائفة من هذه الطّوائف أن (٢) تدين بذلك الدين الذى نشأت عليه ؟ ودع هذا ليُخاطَبَ غيرُكَ ، فإنّك من أهْل الإسلام بالهَدْى والجِبِلّة والمَنشإ والوِراثة ؛ فما بالُنا لا نَرى واحدا منكم يقوم بأركان الدِّين ، ويتقيّد بالكتاب والسنّة يُراعى مَعالِمَ الفريضة ووظائفَ النافلة ؟ وأين كان الصَّدْر الأوّلُ من الفلسفة ؟ أعنى الصَّحابة ، وأين كان التابِعُون منها ؟ ولِمَ خَفِىَ هذا الأمرالعظيم — مع (٣) ما فيه من الفوزِ والنعيم — على الجماعة الأولى والثانية والثالثة إلى يومنا هذا وفيهم الفُقَهاء والزُّهّادُ والعُبّادُ وأصحابُ الوَرَع والتُّـقَى ، والناظرون فى الدّقيق ودقيق الدقيق وكلّ ما عاد بخَيْرٍ عاجل وثوابٍ آجِل ، هيهات (٤) لقد أسْرَرْتُم الحَسْوَ فى الأرتغاء (٥) وأستقيتم بلا دَلْو ولا رِشاء ، وَدَلَلْتُمْ على فُسولَتِكم وضعْفِ مُنّتِكم

(١) ورد فى (ا) بعد قوله : « العالم » قوله : « قبله » ولا معنى لها هنا .
(٢) فى (ا) « لمن تدين » ؛ وهو تحريف .
(٣) فى (ا) « على مع ما فيه » ؛ وقوله : « على » زيادة من الناسخ .
(٤) فى (ا) « ها هنا هيهات » ؛ وقوله : ها هنا زيادة من الناسخ .
(٥) الارتغاء : أخذ الرّغوة ، وهذا مثل يضرب لمن يظهر أمراً وهو يريد خلافه ، أو لمن يظهر طلب القليل وهو يريد الكثير ، وقد سئل الشعبى فى رجل قبل أم امرأته فقال : يُسرّ حسواً فى ارتغاء ، وقد حرمت عليه امرأته .

وأردتم أن تقيموا ما وَضَعه الله ، وتضعوا ما رفَعه الله ، والله لا يُغالَب ؛ بل هو غالبٌ على أمره ، فعَّال لما يُريد .

قد حاول هذا الكَيد خَلقٌ فى القديم والحديث ، فنكصوا على أعقابهم خائبين ، وكُبّوا لوجوههم خاسرين ؛ منهم أبو زيد البَلخىّ ؛ فإنه ادَّعى أنَّ الفلسفة مُقاوِدَة[1] للشّريعة ، والشريعةَ مشاكلة للفلسفة ، وأن إحداهما أُمٌّ والأخرى ظِئْر ، وأظهرَ مَذْهَبَ الزَّيْدِيَّة ، وأنْقاد لأمير خراسان الذى كتب له أن يعمل فى نشر الفَلسفة بشفاعة الشريعة ، ويدعو الناسَ إليها باللُّطْف والشفقة والرَّغْبَة ، فشتَّت اللهُ كلمتَه ، وقوَّض دِعامَتَه ، وحال بينه و بين إرادته ، ووَكَله إلى حَوْله وقوّته ، فلم يتمّ له من ذلك شىء .

وكذلك رامَ[2] أبو تمام النَّيْسابُورىّ ، وخدَم الطائفةَ المعروفة بالشِّيعيَّة ولجأ إلى مطرِّف بن محمد وزير مرداويج[3] الجيلى ليكونَ له به قوّة ، ويَنطقَ بما فى نَفْسِه من هذه الجملة ، فما زادته إلا صِغراً فى قَدْره ، ومَهانةً فى نَفْسه ، وتَوارياً فى بيته ؛ وهذا بعَيْنه قَصَدَ العامرىُّ فما زال مَطْروداً من صُقْع إلى صُقْع يُنْذَرُ دَمُه ويُرْتَصَدُ قتلُه ، فمرّةً يتحصّن بفِناء ابنِ العميد ، ومرّةً يَلجأُ إلى صاحب الجيْشِ بنَيسابور ، ومرّةً يتقرّبُ إلى العامّةِ بكُتُبٍ يصنِّفُها فى نُصْرَة الإسلام ، وهو على ذلك يُتَّهم ويُقْرَف بالإلحاد ؛ وبِقِدم العالَم والكلام فى الهيُولَى والصّورة والزّمانِ والمكان ، وما أشبه هذا من ضروب الهَذَيان الّتى

(١) مقاودة للشريعة ، أى مساوقة لها ؛ يريد أنها تسير معها فى قود واحد . وفى ب : « مقارنة » .

(٢) فى (ا) « أم »

(٣) فى كلتا النسختين : « ابن أحمر وزير مرداج » ؛ وهو تحريف .

ما أنزَل الله بها كتابَه ، ولا دعا إليها رَسولُه ، ولا أفاضتْ فيها أُمّتُه .

ومع ذلك يُناغى صاحبَ كلِّ بدعة ؛ ويجْلِسُ إليه كلٌّ منهم ؛ ويُلقى كلامَه إلى كلٍّ من أدّعى باطناً للظاهر وظاهراً للباطن .

وما عندى أنَّ الأئمة الذين[1] يأخُذُ عنهم ويقتبِس منهم ، كأرسْطوطاليس وسُقْراط وأفْلاطون ، رَهْطِ الكفر ذكروا فى كُتُبهم حديثَ الظّاهرِ والباطن ، وإنما هٰذا من نَسْج القدّاحين فى الإسلام ، الساترين على أنفسهم ماهمْ فيه من التُّهم ؛ وهذا بعَيْنِه دبَّرَه الهَجَرِيُّون[2] بالأمس ، وبهٰذا دَنْدَن[3] الناجمون بقَزْوِين وبثُّوا الدُّعاةَ فى أطراف الأرض ، وبَذلوا الرغائب وفتَنُوا[4] النفوس .

وقد سَمِعنا تأويلات هذه الطوائفِ لآياتِ القرآن فى قولِه عزّ وجلّ : (اِنْطَلِقوا إلَى ظِلٍّ ذِى ثَلَاثِ شُعَبٍ) وفى قوله تعالى : (بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذابُ) وفى قولِه تعالى : (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ) وفى قوله تعالى : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فى الآفَاقِ وفى أنْفُسِهِمْ حتّى يَتَبيَّنَ لهُمْ أنّهُ الْحَقُّ) إلى غيرِ ذلك مما يطول ويَعُول[5] فدعُونا[6] من التورية والحِيلة والإيهامِ والكناية عن شىءٍ لايتصل [بالإرادة ، والإرادةِ لشىء لا يتّصل] بالتصريح ، فالناسُ أنْقَدُ لأديانِهمْ وأحْرَصُ على الظَّفَرِ ببُغْيَتِهم[7] من الصَّيارِفَة لدَنانيرِهم ودَراهِمهم .

فلمّا أُنبَهِرَ المَقْدِسىُّ بما سمع وكاد يتفرى إهابه من الغَيْظ والعَجْز وقِلّة الحِيلة

(١) فى كلتا النسختين : « الدين » ، وهو تحريف .

(٢) فى كلتا النسختين « الهجون » .

(٣) يقال : دندن الذباب : إذا صوّت وطنّ . ودندن الرجلُ إذا نغّم ولم يُفهم منه كلام .

(٤) فى كلتا النسختين : « وقتلوا » .

(٥) يعول : من عال الشىء فلاناً إذا ثقل عليه وغلبه وأهمه .

(٦) فى كلتا النسختين : « قد عنونا » ؛ وهو تحريف .

(٧) فى (ا) « بنصيبهم » .

قال : الناسُ أعداء ما جهلوا ، ونَشْرُ الحِكْمَة فى غير أهْلِها يُورِثُ العَداوة ويطْرَحُ[١] الشحناء ويَقْدَحُ زَنْدَ الفِتْنَة .

ثم كَرَّ الحَرِيرِىُّ كَرَّ المُدِلِّ وعَطف عِطْفَةَ الواثق بالظفر ، فقال : يا أبا سُلَيْمان ، مَن هٰــذا الذى يُقِرُّ منكم أنَّ عَصَا مُوسَى انقلَبَتْ حَيَّة ، وأن البَحْرَ انْفَلَق ، وأنَّ يَداً خَرَجَتْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُــوء ، وأنَّ بَشَراً خُلِق من تراب ، وأنَّ آخرَ ولَدَتْه أُنثى من غير ذَكَر ، وأنَّ ناراً مُؤَجَّجَةً طُرِح فيها إنْسانٌ فصارَتْ له بَرْدًا وسَــلاما ، وأنَّ رَجُلًا ماتَ مائَةَ عام ثم بُعث فنَظَر إلى طعامه وشرابِه على حالَيْهما لم يتغيَّرا ، وأنَّ قبراً تفقَّأ عن ميِّتٍ حَيٍّ ، وأنَّ طيناً دُبِّرَ[٢] فنُفِخ فيــه فطار ، وأنَّ قمرا انشَقَّ ، وأنَّ جِذْعًا حَنَّ ، وأنَّ ذئباً تكلَّم ، وأنَّ ماء نَبَعَ من أصابعَ فرَوِى منه جَيْشٌ عظيم ، وأنَّ جَماعةً شَبِعَتْ من ثَرِيدةٍ فى قَدْر جِسْم قَطَاة ؟

وعلى هــذا ، إن كنتم تدْعُون إلى شَرِيعة من الشرائع التى فيهـا هــذه الخوارِق والبَدائع فاعْتَرِفوا بأنَّ هٰذه كلَّها صحيحة ثابتة كائِنة لا رَيْبَ فيها ولا مِرْية ، من غَيْر تأويل ولا تدليس ، ولا تَعْليــل ولا تَلْبيس ، وأَعْطُونا خَطَّــكم بأنَّ الطَّبائعَ تَفْعل هذا كلَّه ، والموادَّ تُوَاتِى له ، واللهَ تعالَى يَقْدر عليه ؛ ودَعُوا التَّوْرِيةَ والحِيلة والغِيلة[٣] والظاهرَ والباطن ، فإنّ الفلسفة لَيْسَتْ من جِنْس الشَّرِيعة ، ولا الشَّرِيعة من فَنِّ الفَلْسَفة ، وبينهما يَرْمى الرَّامى ويَهْمى الهَامى ؛ على أنَّا ما وَجَدْنا الدَّيَّانِين من المُتألِّهين من جميع الأدْيان يَذْكرون

(١) يطرح الشحناء ، أى يلقيها فى القلوب .
(٢) دبر ، أى صنع كهيئة الطير .
(٣) الغيلة : الخديعة .

ويتحلَّى بهما مُفْترقَين فى مكانين على حالين مُخْتلفين ، ويكونَ بالدِّين مُتَقرِّبا إلى الله تعالى ، على ما أوْضَحه له صاحبُ الشَّريعة عن الله تعالى ، ويكونَ بالحِكْمة مُتَصفِّحًا لقُدْرة الله تعالى فى هذا العالَم الجامِع للزِّينة الباهرة لكل عَين ، المُحَيِّرَة لكلّ عقل ، ولا يَهْدِم أحَدَهما بالآخَر . أعنى لا يَجْحَد ما ألْقَى إليه صاحِبُ الشَّريعة مُجْمَلًا ومُفَصَّلًا ، ولا يَغْفُل عمّا استَخْزَن الله تعالى هذا الخَلْقَ العظيمَ عَلَى ما ظَهَرَ بقُدْرته ، وأشتَمَل بحكمته ، واستَقَام بمشيئته ، وانتَظَم بإرادته واستَتَمّ بعلمه ؛ ولا يعْتَرِض عَلَى ما يَبْعُد فى عَقْله ورأْيه من الشَّريعة ، وبدائع آيات النُّبوّة بأحكام الفلسفة ، فإنَّ الفَلْسَفة مأْخُوذَة من العَقْل المقصور عَلَى الغاية ، والدِّيانةَ مأْخُوذة من الوَحْى الوارد من العِلْم[1] بالقُدْرَة .

قال : ولَعَمْرِى إنَّ هذا صعْب ، ولكنه جِمَاعُ الكلام ، وأَخْذُ المُستطاع ، وغايةُ ما عَرَض له الإنسانُ المؤيّد باللَّطائف ، المُزَاح بالعلل وبضُرُوب التَّكاليف .

قال : ومن فَضْل نعمةِ الله تعالى عَلَى هـذا الخلْقِ أنه نَهَجَ لهم سبيلين ونصَبَ لهم عَلَمين ، وأبانَ لهم نَجْدَين[2] ليصلوا إلى دار رِضوانه إما بسلوكهما وإما بسلوك أحدهما .

فقال له البخارى : فهلاّ دَلّ الله على الطريقين اللذَين رسمتَهما فى هذا المكان ؟

قال : دَلّ وبَيَّن ، ولكنك عَمٍ ، أما قال : (وَمَا يَعْقِلها إلّا الْعَالِمون) ؟ وفى فَحْوَى هذا وما يعلَمها إلّا العالمون ؟ فقد وصَل العقلَ بالعلم ، كما وصلَ العِلْمَ بالعَقل ، لأنّ كمال الإنسان بهما ، ألا ترى أن العاقل متى عُرِّىَ من العِلْم قلّ انتفاعُه بعقله ؟ كذلك العالِم متى خُلِّىَ من العقل بَطَل انتفاعُه بعلمه ، أما قال : (وَمَا يَتَذَكَّرُ

---

(١) فى كلتا النسختين : « العقل » .

(٢) بالسبيلين والعلمين والنجدين إلى العقل والعلم .

أنّ أصحاب شرائعهم قد دَعَوْا إلى الفَلْسَفة وأمروا بطَلَبها واقتِباسها من اليُونانيّين هذا موسى وعيسى وإبراهيم ودَاود وسليمان وزَكريّا ويَحْيى إلى محمد — صلى الله عليه وسلم — لم نحُقّ مَن يَعزو إليهم شيئاً من هذا الباب ، ويُعلّق عليهم هذا الحديث .

قال الوزير : ما عجبى مِن جميع هذا الكلام إلاّ من أبى سُليمانَ فى هذا الاستِحْقار والتّغضب ، والاحتشاد والتعصّب ؛ وهو رَجُل يُعرَف بالمَنْطِقىّ ، وهو من غِلْمان يَحيى بن عَدِىّ النّصْرانى ، ويَقْرأ عليه كُتب يُونان ، وتَفْسيرَ دقائِق كُتُبِهم بغاية البَيان .

(٥) فقلت : إنّ أبا سُلَيْمانَ يقول : إن الفلسفة حَقّ لكنّها ليست من الشّريعة فى شىء ، والشّريعة حَقّ لكنّها لَيْسَت من الفلسفة فى شىء ، وصاحبَ الشّريعة مَبْعُوث ، وصاحِب الفَلْسفة مَبْعُوث إليه ، وأحَدَهما مَخْصُوص بالوَحْى ، والآخرَ مَخْصوص ببَحْثه ، والأوّلَ مَكْفِىّ ، والثانىَ كادِح ، وهذا يقول : أُمِرْتُ وعُلّمْتُ ، وقيل لى ، وما أقول شيئاً من تِلْقاء نفسى ؛ وهذا يقول : رأيتُ ونَظَرت واستحسنتُ واستقبحت ؛ وهذا يقول : نورُ العقل أهْتَدِى به ؛ وهذا يقول : معى نور خَالِقِ الخَلْق أَمْشِى بضِيَائه ؛ وهذا يقول : قال الله تعالى ، وقال المَلَك ؛ وهذا يقول : قال أفْلاَطُن وسُقْراط ؛ ويُسْمَع من هذا ظاهرُ تنْزِيل ، وسائغُ تأويل ، وتحقيقُ سُنّة ، واتّفاقُ أُمّة ؛ ويُسمع من الآخر الهَيُولَى والصُّورة والطبيعة والأُسْطُقُسّ والذّاتىّ والعَرَضىّ والأيْسِىُّ واللّيْسِىّ ، وما شاكل هذا ممّا لا يُسمع من مُسْلِم ولا يَهودىّ ولا نَصْرَانىّ ولا مَجُوسىّ ولا مانَوِىّ .

ويقول أيضاً : من أرَاد أنْ يتَفَلْسَف فيجب عليه أن يُعْرِضَ بنظَره عن الدّيَانات ، ومَن اختار التّدَيُّن فيجب عليه أن يُعَرِّد[1] بعنايته عن الفلسفة

(١) يعرد : ينكب ويحيد .

إلا أولوا الألبابِ) ؟ أمَا قال : (فَاعتَبِرُوا يا أُولِي الأبْصَارِ) ؟ أمَا قال : (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآن) ؟ أمَا ذَمَّ قومًا حين قال : (يَعلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الحَيَاةِ الدُّنيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) ؟ أفما قال : (أَوَمَنْ كَانَ مَيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) ! أمَا قال : (وكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) ؟ أمَا قال : (إنَّ فى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) ؟ وكتاب الله عزّ وجل مُحيطٌ بهذا كلّه ، وإنما تقاد إلى طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بعد هذا فيما لا يناله عَقْلُك ، ولا يبْلغُهُ ذهْنُكَ ، ولَا يَعْلُو إلَيْهِ فِكرك ، فأمرِكَ باتّباعِه والتّسليمِ لهُ ، وإنما دخلت الآفةُ من قومٍ دَهْرِيِّينَ مُلْحِدِينَ رَكبُوا مطية الجَدلِ وَالْجهل ، ومالوا إلى الشَّغْبِ بالتعصُّبِ ، وقابلوا الأمور بتحسينهم وتقبيحهم وتهْجينهم ، وجهلوا أنّ وراء ذلك ما يَفوت ذَرْعَهُمْ ، ويتخلَّف عن لحاقهِ رأيُهُم ونَظَرُهم ، ويَعْمى دونَ كُنْهِهِ ذلك بَصَرُهم ؛ وهذه الطائفة معروفة ، منهم صالح بن عبد القدّوس ، وابن أبى العوجاء ، ومطرُ بن أبى الغيث ، وابن الرّاوَنْدِى ، والحصرىّ ، فإن هؤلاء طاحُوا فى أَوْدِيَةِ الضّلالة ، واسْتَجرُّوا إلى جهْلهم أصحابَ الخلاعَةِ والمجانة .

فقال البخارىّ : فما الذى تركتَ بهذا الوصف للّذين جمعوا بين الفلْسَفة والديانة ؛ ووصلوا هذه بهذه على طريق الظاهر والباطن ، والخفىّ والجلىّ ، والبادى والمكتوم ؟ قال : تركتُ لهم الطّويل العريض ، القومُ زعموا أن الفلْسَفة مُواطِئةٌ للشّرِيعَة ، والشّريعةَ مُوافِقةٌ للفلْسَفة ؛ ولا فَرْق بين قول القائل : قال النبيّ ، وقال الحكيم ، وأَنّ أفلاطُن ما وضعَ كِتابَ النّواميس إلا لنَعْلم كيف نقول ؟ و بأىّ

شيء نبحث ، وما الذى نُقَدِّم و نُؤخِّر ، وأن النُّبوة فرعٌ من فروع الفلسفة ، وأن الفلسفة أصلُ علم العالم ، وأنَّ النبيَّ محتاجٌ إلى تَتْميم ما يأتى به من جهة الحكيم ، والحكيمَ غنيٌّ عنه ؛ هذا وما أشبهه ؛ وأنَّ صاحبَ الدِّين له أن يُعَيِّنَ ويوَرِّىَ ويُشيرَ ويُكَنِّىَ حتى تتمّ المصلحةُ ، وتنتظمَ الكلمة ، وتتفقَ الجماعة ، وتثبتَ السُّنَّة ، وتحلوَ المعيشة ، وحتى قال قائل منهم : « أوائل الشريعة أمورٌ مُبْتَدعه ، ووسائطها سُنَنٌ مُتَّبَعه ، وأواخرها حُقُوقٌ منتزعه » وإنَّ هذا النَّعت من قولى : « إنَّ الشريعةَ إلهية ، والفلسفة بشرية » ، أعنى أنَّ تلك بالوحى ، وهذه بالعَقْل ، وأنَّ تلك موثوقٌ بها ومُطمَأنٌّ إليها ، وهذه مشكوكٌ فيها مضْطَرَبٌ عليها .

قال له البخاريّ : فلِمَ لَمْ ينهج صاحبُ الشَّريعة هذه الطريق ، وكان يزول هذا الخصام ، وينتفى هذا الظَّن ، وتَكسَدُ هذه السّوق ؟ فقال : إن صاحبَ الشَّريعة مسْتَغْرقٌ بالنور الإلهىّ ، فهو محبوس على ما يراه ويُبْصرُه ، ويجدُه وينظره ، لأنّه مأخوذ بما شَهِدَه بالعِيَان وأدْرَكه بالحِسّ وناله بوديعَة الصَّدر عن كل ما عداه ، فلهذا يدعو إلى اقتباس كماله الذى حصَل له ، ولا يسْعَد بدعوته إلا من وُفِّق لإجابته ، وأذْعَن لطاعته ، واهْتدى بكلمته ، والفلسفة كمال بشرىّ ، والدينُ كمالٌ إلهىّ ، والكمال الإلهىّ غنيٌّ عن الكمال البَشَرِىّ ، والكمال البشرى فقيرٌ إلى الكمال الإلهىّ ، فهذا هذا ، وما أمَرَ الله عزّ وجلّ بالاعتبار ، ولا حَثَّ على التدبّر ، ولا حَرَّكَ القلوب إلى الاستِنْبَاط ، ولا حَبَّبَ إلى القلوب البحثَ فى طَلَب المكنونات ، إلا ليكُونَ عِبادُه حُكماءَ ألِبّاءَ أتْقياءَ أذْكِياء ، ولا أمَرَ بالتّسليم ولا حظَرَ الغُلُوّ والإفْراطَ فى التَّعَمُّق إلا ليكونَ عِبادُه لاجئين إليه مُتَوكِّلين عَلَيْه ، مُعْتَصِمين به ، خائفين مِنه ، رَاجِينَ له ، يدعُونَه خَوْفا وطمعا ،

وَيَعْبُدُونَهُ رَغَبا ورَهَبا ، فبَيِّن مابيَّن حرصا على معرفته وعِبادَته ، وطاعته وخدمته ، وأَخْفَى ما أَخْفَى لتَدُوم حاجتُهم إليه ، ولا يَقَع الغِنَى عنه ، وبالحاجة يَقَعُ الخضُوعُ والتجرُّد ، وبالاستِغْناء يَعْرِضُ التَّجبُّر والتمرُّد ؛ وهذه أُمُورٌ جارِيةٌ بالعادة ، وثابتة بالسِّيرة الجائرة والعادلة ؛ ولا سبيل إلى دفعها وَرَفْعها وإنكارها وجَحْدها ، فلهذا لزم كلَّ من أدرَكَ بعقله شيئاً أن يتمِّمَ نقصه بما يجِدُه عِنْـدَ من أدرك ما أدرَكَ بِوَحْيٍ من رَبِّه .

وقال أيضاً : مما يُؤكِّدُ هـذه الجملة أنَّ الشَّريعةَ قدْ أَتَتْ عَلَى مَعْقُولٍ كثير ، بنورِ الوحْى المنير ، ولم تأتِ الفَلسفَةُ على شَىء من الوحى لا كثيرٍ ولا قليل :

قال : ولَيْسَ ليونانَ نَبِيٌّ يُعْرفُ ، ولا رسولٌ من قِبَـلِ الله صادق ، وإنما كانوا يَفزَعون إلى حُكَمائهم فى وضْع ناموسٍ يجمَع مصالحَ حياتهم ونظامَ عَيْشهم ومنافعَ أحْوالهم فى عاجِلَتِهم ، وكانت ملوكهم تُحِبُّ الحـكمة وتؤثرأهلَها ، وتقدِّم من تَحلَّى بجزءٍ من أجْزائها ، وكان ذلك الناموس يُعْمَلُ به ويُرْجَع إليه ، حتى إذا أبلاه الزمان ، وأخْلَقَه اللَّيْـلُ والنَّهار ، عادوا فوضعوا ناموسا آخَرَ جَديدا بزيادة شىء على ما تقدَّم أو نقصانٍ ، على حسب الأحوالِ الغالبة على الناس ، والمغلوبةِ بين الناس ، ولهذا لا يُقال : إن الإسكندر فى أيام مُلْـكه حين سار من المغرب إلى المشرق كانت شريعته كذا وكذا ، وكان يذكر نبيا يُقال له : فلان ، أو قال : أنا نبىّ ، ولقـد واقَعَ دَارًا وغَيره من الملوكِ على طريق الغَلَبة فى طَلَبِ المُلك ، وحيازةِ الديارِ وجباية الأموال والسَّبْى والغارة ، ولوكان للنبوة ذِكْرٌ وللنبىِّ حديثٌ لـكان ذلك مشهورا مذكورا ، ومؤرَّخا معروفا .

(٦) قال الوزير : هذا كلامٌ عجيبٌ ما سمعتُ مثلَه على هذا الشرح والتفصيل ، قلتُ :

إنّ شيخَنا أبا سُليمانَ غزيرُ البحر، واسع الصدر، لا يُغلَقُ عليه فى الأمور الرُّوحانية والأنباء الإلٰهية والأسرار الغيبيّة، وهو طويلُ الفكرة، كثير الوحدة، وقد أوتى مزاجا حسن الاعتدال، وخاطراً بعيدَ المَنال، ولسانا فسيح المجال، وطريقتُه هذه التى أُجتباها مكتنَفةٌ بمعارَضاتٍ واسعة، وعليها مَداخل لخصمائه، وليس يفى كلُّ أحدٍ بتلخيصه لها، لأنه قد أفرَزَ الشّريعةَ من الفلسفة، ثم حثّ على انتحالها معا، وهذا شبيهٌ بالمناقَضَة. وقد رأيتُ صاحبا لمحمد بن زكرياء فى هـذه الأيام ورد من الرّىّ يقال له: أبو غانم الطبيب يُشادُّه فى هذا الموضع ويُضايقُه، ويُلزمُه القولَ بما يُنكِره على الخصم، وإذا أَذِنتَ رَسَمْتُ كلامَهما فى ورقات. فقال الوزير: قد بان الغرضُ الذى رمى إليه، وتقليبُه بالجدل لا يزيدُه إلا إغلاقا، والقصدُ معروف، والوقوفُ عليه كافٍ، ومع هـذا فليتَ حظَّنا منه كان يتوفر بالتلاقى والاجتماع، لا بالرواية والسماع، هاتِ فائدة الوداع، فقد بلغتَ فى المؤانسة غايةَ الإمتاع.

(٧) قلت: أكره أن أختمَ مثلَ هذه الفِقَر الشريفة بما يشبه الهزلَ وينافى الجدّ، فإن أَذِنتَ رَوَيتُ ما يكون أساسا ودِعامة لما تقدّم. قال: هاتِ ما أحببتَ، فما عَهِدنا من رِوايتك إلا ما يشوّقنا إلى رؤيتك.

قلت: قال ابن المقفَّع: عَملُ الرّجلِ بما يَعلمُ أنه خطأٌ هوًى، والهوى آفةُ العفاف، وتركُهُ العملَ بما يَعلَمُ أنّه صوابٌ تَهاوُن، والتّهاوُن آفةُ الدّين، وإقدامُه على ما لا يَعلَمُ أصوابٌ هو أم خطأٌ لجَاج، واللّجاجُ آفةُ الرّأى.

فقال — حَرَس الله نفسَه —: ما أكثَرَ رَونَقَ هـذا الكلام! وما أعلى رُتبتَه فى كُنْه العقل! اُكتُبْه لنا، بل اُجمَع لى جُزْءا لطيفاً من هـذه الفِقَر، فإنّها تُرَوِّحُ العقلَ فى الفَيْنَة بعد الفَيْنة، فإنّ نورَ العقل ليس يَشيعُ فى كلٍّ

وقت ؛ بل يَشِعُّ مرَّةً ويَبرُق مرَّة ، فإذا شَعَّ عَمَّ نفعُه ، وإذا برَق خَصَّ نفعُه وإذا خَفِيَ بَطَلَ نفعُه . قلت : أفعلُ . فقال : إن كان معك شيء آخَرُ فاذكُرْه ،

(٨) فإنَّ الحديثَ الحَسَنَ لا يُمَلّ ، وما أَحْسَنَ ما قال خالدُ بنُ صَفْوان ، فإنه قيل له : أتمَلُّ الحَديث ؟ قال : إنّما يُمَلُّ العَتِيق . قال : صدق خالد : إنَّ الحديث لا يُمَلُّ من الزّمان[1] إلا فيما يليه[2] ، وإلّا فكيف يُمَلُّ فى أوّل زمانه وفاتحةِ أوانه ، وإنّما المَلَلُ يعْرِضُ بتكرُّر الزّمان وضَجَرِ الحِسِّ ونِزاعِ الطّبع إلى الجديد ، ولهذا قيل : لكلِّ جديدٍ لَذّة .

(٩) فحُكِيتُ أنّه لمّا تقلّد كِسرى أنوشِرْوان مملكتَه عكَفَ عَلَى الصَّبوحِ والغَبوق ، فكتب إليه وزيرُه رُقعةً يقول فيها : إنَّ فى إدمان المَلِك ضرراً على الرّعيّة ، والوجهُ تخفيفُ ذلك والنّظرُ فى أُمورِ المملكة . فوقَّع على ظهرِ الرُّقعة بالفارسيّة بما ترجمتُه : يا هذا ، إذا كانت سُبُلُنا آمِنة ، وسيرتُنا عادلة ، والدُّنيا باستقامتنا عامِرة ، وعُمّالُنا بالحق عاملة ، فلِمَ تمنعُ فَرحةً عاجلة ؟ .

قال : من حَدَّثك بهذا ؟ قلت : أبو سليمان شيخنا ، قال : فكيف كان رِضاه عن هذا المَلِك فى هذا القول ؟ فقلت : اعترَض فقال : أخطأَ من وجوه ، أحدُها أن الإدمانَ إفراط ، والإفراطُ مذموم ؛ والآخَرُ أنّه جَهِل أنّ أَمْنَ السّبيل وعَدْلَ السِّيرة وعمارةَ الدنيا والعملَ بالحقّ متى لم يُوَكَّل بها الطَّرْفُ السّاهر ولم تُحَطْ بالعناية التامّة ، ولم تُحفَظْ بالاهتمامِ الجالبِ لدوامِ النِّظام ، دَبَّ إليها النَّقصُ والنّقصُ بابٌ للانتقاض ، مُزَعزِعٌ للدِّعامة ، والآخَرُ أنّ الزّمان أعزُّ من أن

(١) من الزمان ، أى فى وقت من الزمان .

(٢) فى نسخة فاتحته . وفى نسخة ما تحته ؛ وهو تحريف فى كلتيهما ؛ وسياق الكلام الآتى بعد يقتضى ما أثبتنا .

يُبْذل فى الأكْل والشّرْب والتلذّذ والتّمتّع ، فإن فى تكميل النفس الناطقة باكتساب الرّشد لها وإبعاد الغىّ عنها ما يَسْتوعِب أضعافَ العمر ، فكيف إذا كان العُمُر قصيراً ، وكان مايدعو إليه الهوى كبيرا ؟! والآخَرُ أنّه ذهب عليه أنّ الخاصّة والعامّة إذا وقفتْ على استهتار المَلِك باللّذّات ، وانهماكه فى طلب الشهوات ، ازْدَرَتْه واستهانتْ به ، وحدّثتْ عنه بأخلاق الخنازير وعاداتِ الحَمير واستهانةُ الخاصّةِ والعامّةِ بالنّاظِرِ فى أمرها والقيّمِ بشأنها متى تكرّرَتْ عَلَى القلوب تَطَرّقَتْ إلى اللسان ، وانتشرتْ فى المحافل ، والتَفَتَ بها بعضُهم إلى بعض وهذه مَكْسَرةٌ للهيبة ، وقلّةُ الهيبة رافعةٌ للحشمة ، وارتفاعُ الحشمةِ باعثٌ على الوَثْبة ، والوَثْبةُ غيرُ مأمونةٍ من الملكة ؛ وما خلا المَلِكُ من طامعٍ راصدٍ قطّ وليس ينبغى للمَلِك الحازم أن يظنّ أنّه لا ضِدّ له ولا مُنازع ، وقد يَنْجُم الضدّ والمنازع من حيث لا يحتسب ، وما أكثرَ خَجَلَ الواثق ! وما أقلّ حَزْمَ الوامق ! وما أقلّ يقظةَ المائق[1] !

ثم قال : وعلى الضّدّ متى كان السائسُ ذا تحفُّظٍ وبحثٍ ، وتتبُّعٍ وحزمٍ وإكبابٍ على لَمّ الشَّعَثِ وتقويم الأَوَدِ وسَدّ الخَلَلِ وتعرُّفِ المجهولِ وتحقُّقِ المعلوم ورفعِ المنكر وبثّ المعروفِ ، احترستْ منه العامّة والخاصّة ، واستشْعَرت الهيبةَ ، والتزَمَتْ بينها النَّصَفَة ، وكُفِيتْ كثيرا من مُعاناتها ومراعاتها ، وإن كان للدّولة راصدٌ للغِرة يئسَ من نُفوذِ الحيلة فيها ، لأنّ اللّصّ إذا رأى مكانا حصينا وعَهِد عليه حُرّاسا لم يحدّث نفسه بالتعرض له ، وإنما يقصد قَصْرا فيه ثُلْمة ، وبابا إليه طريق ، والأعراض بالاسباب ، وإذا ضَعف السّبب ضَعُف العَرَض ، وإذا انقطع السّبب انقطع العَرَض .

(١) المائق : الأحمق الغرّ . وفى كلتا النسختين « الفائق » ؛ وهو تحريف .

فقال — أدام الله أيامه — : هذا كلامٌ كافٍ شافٍ . وقال بعد ذلك : حدِّثنى عما تسمعُ من العامة فى حديثنا .

(١٠) قلتُ : سمعتُ (بباب الطّاقِ) قوما يقولون : اجتمع الناس اليومَ على الشَّطِّ ، فلما نزل الوزير ليركبَ المركبَ صاحوا وضجوا وذكروا غلاء القوت وعَوزَ الطعام وتعذرَ الكسبِ وغَلَبَةَ الفقر وتهتُّكَ صاحبِ العِيال ، وأنّه أجابهم بجوابٍ مرٍّ مع قُطوب الوجه وإظهارِ التبرمِ بالاستغاثة : بعدُ لم تأكلوا النُّخالة .

فقال : والله ما قلتُ هذا ، ولا خَطَرَ لى على بال ، ولم أُقابِل عامّةً جاهلةً ضعيفةً جائعةً بمثل هذه الكلمةِ الخَشْناء ، وهذا يقولُه من طرح[1] الشَّرَّ وأحبَّ الفسادَ وقَصَدَ التَّشنيعَ عَلَيَّ والإيحاشَ منّى ، وهو هذا العدوُّ الكلب ، « يعنى ابنَ يوسف » كفانى الله شرَّه ، وشَغَله بنفسه ، ونكَّسَ كيدَه على رأسه ؛ والله لأنظرنَّ لها وللفقراء بمالٍ أُطلِقُه من الخِزانة ، وأرسمُ ببيعِ الخبزِ ثمانية بدرهم ، ويصلُ ذلك إلى الفقراء فى كل مَحَلّةٍ على ما يذكرُ شيخُها ، ويبيع الباقون على السِّعرِ الذى يُقوَّم لهم ، ويشتريه الغنىُّ الواجد ؛ ففعل ذلك — أحْسَنَ الله جزاءَه — على ما عرفتُ وشاهدتُ ، وأبلغتُه بنشرِ الدعاء له فى الجوامع والمجامع بطولِ البقاء ودوامِ العَلاء وكبْتِ الأعداء ونصْرِ الأولياء . ثم كتبتُ جزءا من الفِقَر على ما رَسَمَ من قَبل ، فلمَّا أوصلتُه إليه قال لى : اقرأ ، فقرأته عليه ، فقال : صِلْ هذا الجزء بجزءٍ آخرَ من حديثِ النبىِّ — صلى الله عليه وسلم — والصحابة وبجزءٍ من الشِّعرِ ، وبشىءٍ من معانى القرآن ، فإنه مقدَّمٌ على كل شىء بحسبِ ما رفعَ اللهُ من خطره ، وأحوجَ إلى فهمه ، وندَبَ إلى العملِ به ، وأثاب على التفكُّرِ فيه والتعجُّبِ منه .

(١) « طرح الشر » أى ألقاه فى القلوب ، وهذا تعبير قد سبق للمؤلف مثله فى صفحة ١٧ سطر ٢ ، مريدا به هذا المعنى .

وَعَظَ[١] رجلٌ من (جُهَينةَ) (عمرو بن ألعاص)في قصَّة ألحكومة ، فقال عمرو (١١)
له : ما أنت وذاك يا تيسَ جُهينة ؟ فوالله ما ينفعُك الحق ، ولا يضرُّك الباطل ، فاسكت فإنَّ الظِّلفَ لا يجرى مع الخفّ .

وقال بعض الحكماء : إنَّ المُدُن تُبنى على ألماء وألمرعَى وألمحتطَبِ والحَصانة .

وقال الشاعر :

لاح سُهيلٌ فى ألظلامِ ألدَّامِس كأنَّه نارٌ بكفِّ القابِسِ

قال ربيعةُ بن عامرِ بن مالك فى عمرو بن الإطنابة — حين دَفَعَ أُخته وأَخَذَ أخاه وكان أسيراً فى قومه ، وجَعَلَ دفعَ أخيهِ إليه صداقَ أُخته ، وهو ألذى تسمّيه العربُ ألمساهاةَ[٢] — : فقَدَ حَزْمىَ ألذى هُديتُ له ، وعَزْمى الذى أُرْشدتُ إليه . وقال الشاعر :

وساهَى بها عمرٌو وراعَى إفالَه[٣] فزُبْدٌ وتمْرٌ بعدَ ذاك كثيرُ

وكانت دِيَةُ العربىِّ مائةَ وَسْقٍ ، ودِيةُ الهَجين خمسين وَسْقاً ، وديةُ ألمولى عشرةَ أوسُق ؛ وكانت العربُ تجعلُ ديةَ المُعِمِّ ألمُخْوِلِ مائةَ بعيرٍ ، وَديةَ ألموْلى خمسةً وعشرين بعيراً .

---

(١) يلوح لنا أن هـذه الفقر الآتية قد قرأها المؤلف على الوزير فى ليلة أخرى غير الليلة السابعة عشرة السابقة وإن لم يرد فى الأصول ما يدلّ على ذلك ؛ وإذن فتكون هذه هى الليلة الثامنة عشرة ، والليلة الآتية بعد هى الليلة التاسعة عشرة ، إذ لا يعقل أن يطلب الوزير إلى المؤلف كتابة هذه الفقر فى ليلة فيكتبها ثم يقرؤها فى نفس الليلة أو لعله كتبها واكتفى بإرسالها إلى الوزير .

(٢) لعلهم سموا هذا النكاح بالمساهاة لما فيه من معنى المساهاة وهى المسامحة وترك الاستقصاء فى المعاشرة .

(٣) « الإفال » : صغار الإبل ، الواحد أفيل .

وقال جرير :

رأيتُ بنى نَبْهانَ أذنابَ طَيِّئٍ ... ولِلنَّاسِ أذنابٌ تُرَى وصدورُ

ترى شَرَطَ[١] المعزَى مُهورَ نسائِهم ... وفى شَرَطِ المِعزَى لهُنَّ مُهورُ

وقال خالدُ بنُ جعفرِ بن كِلاب[٢] :

بل كيف تَكْفرنى (هَوازنُ) بعدما ... أَعْتَقْتُهُمْ فتوالَدوا أحرارا

وقتلتُ رَبَّهُمُ زُهَيراً بعدما ... جَدَعَ الأُنوفَ وأكثرَ الأوتارا

وجَعلْتُ مَهْرَ نسائِهم ودياتِهِمْ ... عُقَلَ[٣] الملوكِ هَجائِناً وبِكارا

وقال جندلُ بنُ صَخْرٍ ، وكان عبدا :

وما فَكَّ رِقِّى ذَاتُ دَلٍّ خَدَلَّجٌ ... ولا ساقَ مالى صَدُقَةً وعُقولُ[٤]

ولكن نَمانِى كلُّ أبيضَ خِضْرِمٍ[٥] ... فأصبحتُ أدرِى اليومَ كيف أقولُ

وقَتَل الكلبىُّ عبدَ اللهِ بنَ الجَوشَنِ الغَطَفانىَّ بقتلِه ابنه الجرّاح بن عبد الله (روّاد) ، وكانوا عرضوا عليه الدِّيةَ ، فقال :

شَفَيْتُ بِرَوّادٍ غَلِيلاً وجدتُه ... على القلبِ منه مُسْتَسِرٌّ وظاهرُ

(١) « شرط المعزى » : صغارها .

(٢) كان من حديث هذا الشعر أن هوازن كانت لا ترى زهير بن جذيمة إلا ربا ، وكان يعشرهم فاذا كانت سوق عكاظ أتاها زهير بن جذيمة وأتته هوازن بالإتاوة ، فأتته عجوز مرة بنحى فيه سمن ، فذاقه فلم يرض طعمه ، فدفعها بقوس كانت فى يده ، فسقطت على الأرض ، فانكشفت ، فغضب قومها ، وآلى خالد بن جعفر أن يقتله ، فلم يزل يعد لذلك عدته حتى أمكنته الفرصة فقتله . فى حديث طويل ليس هنا موضع ذكره (انظره فى بلوغ الأرب ج ١) .

(٣) العقل : جمع عقال ، وهى الناقة الفتية الحسنة . والهجائن من الابل : البيض الكرائم .

(٤) الخدلج : المرأة الممتلئة الذراعين والساقين . والصدقة : المهر . والعقول : الديات ، واحده عقل .

(٥) «الخضرم» : السيد .

ألا ليتَ قبراً بين أُدمَى[1] وَمُطْرِقٍ ... يُحَدِّثه عنى الأحاديثَ خابرُ
وقالوا نَديه من أبيه ونفتدى ... فقلتُ: كريمٌ ما تَديه الأباعر
ألم تر أنَّ المالَ يذهبُ دَثْرُه[2] ... وتَغْبُرُ أقوالٌ وتَبقى المَعايرُ

أُدمَى وَمُطْرِق غَديران[3] بين فَدَك و بلاد طيٍّء .

سئلت ابنةُ الخُسِّ هل يَلقح البازِل ؟ قالت : نعمْ وهو رازِم ، أى وإن كان لا يقدِر على القيام من الضَّعف والهُزال . يقال : جملٌ بازلٌ[4] وناقةٌ بازلٌ ، ويقال : ضرَبه فبَرَكَه إذا أبْرَكهُ ، وتَبَرْكَع ، ويقال : شِمْ لى هذه الإبلَ ، أى أنظرْ لى خبرَها .

ويقال لوَلدِ كلِّ بهيمةٍ إذا ساء غِذاؤه : جَحِنٌ ومُحْثَلٌ وجَذِعٌ ، وكلُّ ما غُذِّىَ بغير أمِّه يقال له : عَجِىٌّ ، وكذلك الجَحِن[5] والوَغِلُ والسَّغِلُ كلُّه السَّيِّئُ الغذاء .

سئل النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن ضالَّة الإبلِ ، فقال : مالَكَ ولهـا ؟ معها حذاؤها[6] وسِقاؤها تَرِدُ المـاء وتأكلُ من الشَّجر حتى يأتيَها «ربُّها» .

سئل — عليه السّلام — عن ضالَّة الغنم ، فقال : هى لك أو لأخيكَ أو للذِّئب .

قيل له عليه السلام : فاللُّقَطَةُ ؟ قال : «تعرِّفُها سنة وتحصى وِكاءها ووِعاءها

(١) أدمى « بضم الهمزة وفتح الدال ، وسكنت للشعر » .
(٢) « المال الدثر » : الكثير الوافر و « تغبر أقوال » ، أى تبقى .
(٣) فى اللسان أن أدمى : أرض بظاهر اليمامة . وذكر ياقوت أقوالا كثيرة فى تعيين هذا الموضع منها ما يوافق ماورد فى اللسان . ومطرق : باليمامة أيضا .
(٤) البازل : الذى فطر نابه ، أى انشق بدخوله فى السنة التاسعة .
(٥) يلاحظ أن هذه الكلمة قد ذكرت فيما سبق .
(٦) يشير بقوله « معها حذاؤها » إلى أنها بعيدة المذهب قوية على المشى وقطع الأرض . تشبيها لها بالمسافر الذى معه حذاؤه وسقاؤه .

وعِفَاصها[1] وعَدَدَها ؛ فإن جاء صاحبها فأدِّها إليه» .

وقال أُبَيُّ بنُ كعبٍ : أصبتُ مائةَ دينارٍ على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : «احفظ عِفَاصَها ووِكاءها وعَدَدَها فإن جاء صاحبُها فأَخْبَرَكَ بعددها وعِفاصِها ووكائها فأدِّها إليه وإلا فعرِّفها سنة ، ثم استَمتِع بها» .

قال علىّ بن الحسن : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بقُفِّ النخلتين[2] قال له الأنصار : يا رسول الله ، هل لك فى السباق ؟ قال : نعم وهو يومئذ على النَّواضح[3] — وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير فى أُخْرَيات الناس ، وأُسامةُ بنُ زيدٍ على العَضْباء ناقةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى أوّلِ الناس — فقال : أين أُسامة ؟ فتنادى الناسُ حتى بلغ أُسامةَ الصَّوتُ ، فوَضَعَ السَّوطَ فى الناقة فأقبلتْ ، فلما دَنَتْ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ إخواننا من الأنصارِ قد أرادوا السِّباق فأَنِخْ ناقَتَك حتى ترعو ، ثم علِّق الخِطامَ ثم سابقْهم ؛ ففعلَ واستبقوا ، فسبقتْ ناقةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل أسامةُ يكبِّر ويقول : سبق رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ورسولُ الله يقول : سبَقَ أُسامةُ ، فلمّا أَكثرَ من ذلك قال له : أَقصِرْ يا أُسامةُ ، فإنَّ اخواننا من الأنصار فيهم حياءٌ وحَفيظة .

(١٢) قال : وليس لشىء من الحيوانِ سَنامٌ إلا البعير ، ولبعضِ البَخاتِيّ سَنامانِ ، ولبعضِ البقرِ شىءٌ صغيرٌ على موضعِ الكاهِل . والجمل يبول إلى خلفٍ ،

---

(١) العفاص : وعاء من جلد يضع فيه المسافر نفقته .

(٢) القف : ما ارتفع من الأرض . ولم نجده مضافا إلى النخلتين فيما راجعناه من الكتب فلعل فى هذا الاسم تحريفا .

(٣) النواضح : الإبل التى يستقى عليها .

وكذلك الأسد . وقضيبُ الجمل من عَصَبٍ ، وقضيبُ الإنسانِ من لحمٍ وغُضروفٍ ، وقضيبُ الذّئبِ والثعلبِ من عظمٍ ، وقضيبُ ذَكَرِ الأرانب مِن عظمٍ على صورة الثُّقْب كأنّه نصفُ أنبوبةٍ مشقوقة . وفى قلبِ الثّورِ عَظْم ، وربما وُجِد فى قلبِ الجملِ . والمرأةُ تَلِدُ من قُبُل ، والنّاقةُ من خَلْف . وزمانُ نَزْوِ الجمالِ فى (شَباط) . والإناثُ من الإبلِ تَحْمِلُ اثنَىْ عشر شهراً وتَضَعُ واحداً وتَلْقَحُ إذا بلغتْ ثلاثَ سِنين ، وكذلك الذَّكَر ، ثم تُقيم الأنثى سَنَةً ثم يُنزَى عليها .

وزعمَ صاحبُ المنطِق أنّ الجملَ لا يَنزُو على أُمِّه ، وإن اُضطُرَّ كرِهه .

قال : وقد كان رجلٌ فى الدّهرِ السّالفِ سَتَرَ الأمَّ بثوبٍ ثم أرسلَ بَكْراً عليها ، فلما عرَفَ ذلك لم يُتِمَّ وقطع ، وحَقَد على الجَمّالِ فقتَله .

قال : وقد كان لملِكٍ فَرَسٌ أنثى ، وكان لها أفلاء[1] ، فأراد أن تحمِلَ من أكرمِها ، فصَدّ عنها وكرِهها ، فلمّا سُتِرتْ وَثَبَ فركِبها ، فلمّا رُفِعَ الثّوْبُ ورآها هرَب ومرّ حُضْراً[2] حتى ألقى نفسَه فى بعض الأوْدِيةِ فهلك ... ...[3]

هذا كلامُ أميرِ المؤمنين علىٍّ بن أبى طالبٍ كرّم الله وجهه .

قال حُذيفَةُ : كُن فى الفتنةِ كابنِ اللّبون ، لا ظَهْرٌ فيُركَب ، ولا لبنٌ فيُحلَب .

(١٣) قال ديوجانس : إنّ المرأةَ تُلَقِّنُ الشّرَّ من المرأة ، كما أنّ الأفعَى تأخذ السمَّ من الأصِلّة .

(١) الأفلاء : جمع فلو بكسر الفاء ، وهو المهر الذى لم يبلغ الفطام .
(٢) الحضر بالضم : سرعة العدو .
(٣) ورد فى « ب » مكتوبا على هامشها عند موضع هذه النقط ما يفيد أنه قد سقط من النسخة ثلاث ورقات .

وقال فيثاغورس : إنّ كثيراً من النّاسِ يرَون ألعمى ألذى يَعرِضُ لِعينِ ألبدنِ فتأباه أنفسُهم ، فأمّا عمَى عينِ ألنّفسِ فإنهم لا يرَونه ولا تأباه أنفسُهم ، فلذلك لا يستحيون .

وقال أيضاً : كما أنّ ألذى يسلُك طريقًا لا يعرِفُه لا يدرِى إلى أىّ موضعٍ يؤدّيه ، كذلك ألذى يسمع كلاما لا يَعرِف ألغرضَ فيه لا يَربح منه إلّا التعب .

قيل لديوجانس : أيهما أوْلى ، طَلَبُ ألغِنَى ، أم طلَبُ ألحكمة ؟ فقال : للدّنيا الغِنَى ، وللآخرة ألحكمة .

وقيل له : متى تَطِيب ألدّنيا ؟ قال : إذا تفلسَف ملوكُها ومَلَك فلاسِفتُها .

(١٤) فقال الوزير — اسعده الله — عندى أنّ هذا الكلامَ مدخول ، لأن ألفلسفة لا تصحّ إلّا لمنْ رَفَضَ ألدّنيا وفرّغ نفسَه للدارِ الآخرة ، فكيف يكونُ ألملِك رافضاً للدّنيا وقاليا لها ، وهو محتاجٌ إلى سياسةِ أهلِها والقيامِ عليها باجتلابِ مصالحِها ونفى مفاسدِها ، وله أولياء يحتاج إلى تدبيرهم وإقامةِ أبنيتِهم وألتوسعةِ عليهم ومُوا كلتِهم ومشارَبتِهم ومُداراتهم والإشرافِ على سرِّهم وعلانيتِهم ، وألملِكُ أتعَبُ من ألطبيبِ الذى يجمعُ معالجةً كثيرةً بضروبِ ألأدويةِ المختلفةِ وألأغذيةِ المتباينة ؛ هذا وألطبيبُ فقيرٌ إلى تقديمِ ألنّظَرِ فى نفسِه وبدنِه ، ونَفْى ألأمراضِ وألأعراضِ عن ظاهرِه وباطنِه ، ومن كان هكذا ومن هو أكثرُ منه وأشدّ حاجةً وعَلاقةً كيف يستطيع أن يكون مَلِكا وحكيما ؟! ولعلّ قائلا يظنّ هذا ممكِنا ، ويكون المَلِك واعيًا فى ألحكمة بالدّعوى ، وقائما بالمُلْك على طريقِ الأوْلى ، وهذا إلى ألتياث ألأمرِ وأختلاله وأختلاطه فى المُلك وألفلسفةِ

[أقربُ منه إلى إحكام الأصلِ وإثباتِ الفرع . قال : ولهذا] لم نجد نحن فى الإسلام من نظر فى أمر الأمّة على الزّهد والتُّقَى وإيثار البِرّ والهدَى إلا عدداً قليلا، والمجوسُ تزعمُ أنّ الشريعةَ مُعرِّجةٌ عن المُلك ، أى الذى يأتى بها ليس له أن يُعَرِّج على المُلك ، بل له أن يَكِلَ المُلْكَ إلى من يَقُومُ به على أحكام الدِّين ، ولهذا قال مَلِكُنا الفاضل : الدِّين والمُلكُ أَخَوان، فالدينُ أسٌّ ، والمُلكُ حارس ، فما لا أُسَّ له فهو مهدوم ، وما لا حارس له فهو ضائع .

فقلت له : هذا باب إن توزّع[1] القولُ فيه طال ، وإنْ رُمِىَ بالقصدِ جاز ، وللأئمة كلامٌ كثيرٌ فى الإمامةِ والخلافةِ وما يجرى مجرَى النِّيابةِ عن صاحبِ الديانةِ على فنونٍ مختلفة ، وجُمَلٍ مُتعدِّدة ، إلّا أنّ النّاظرَ فى أحوالِ النّاسِ ينبغى أن يكون قائما بأحكام الشريعةِ ، حاملا للصّغيرِ والكبيرِ ، على طرائقها المعروفة ، لأنّ الشّريعة سياسة الله فى الخلق ، والمُلكَ سياسةُ الناس للنّاس ، على أنّ الشريعة متى خَلَتْ من السياسة كانت ناقصة ، والسياسةَ متى عَرِيَتْ من الشريعة كانت ناقصة ، والمَلِكُ مبعوث ، كما أنّ صاحبَ الدِّين مبعوث ، إلا أنّ أحدَ البَعثَين أخفَى من الآخَر ، والثانى أشهرُ من الأوّل[2] . قال — أطال الله بقاءه — كنتُ أُحبُّ أن أعلمَ من أين قلتَ : إن المَلِك مبعوث أيضا ؟ فإن هذه الكلمة ما ثبتتْ فى أذنى قطّ ، ولا خطرتْ لى على بال ؛ قلتُ : قال الله عزّ وجل فى تنزيله : (إنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً) . فعَجِبَ وقال : كأنّى لم أسمع بهذا قطّ .

ذُكِر للإسكندر سوءُ أحوالِ رؤساءِ مذهبِه لمّا كانَ أبوه احتاز أموالهم (١٥)
وسَلَبَ أحوالهم . فقال : يجب للآباء على الأبناء إزالةُ الذمّ عنهم ، [ومحوُ الإثم ،

(١) فى (ا) «تتوزع» .

(٢) فى كلتا النسختين : «والأول أشهر من الثانى» .

استعطافُ ٱلقلوبِ عليهم ، ونشرُ المحامدِ عنهم] ؛ وأمرَ بردِّ أموالهم عليهم ، وزاد فى الإحسان إليهم . وقال : قد بَلغَ من فَرْطِ شفقةِ ٱلآباء على ٱلأبناء أن يُسيئوا إلى أنفسهم لتكون ٱلإساءةُ سببًا للإحسان إلى أولادهم ، لأنهم يرَون أولادَهم كأنفسهم لأنهم من أنفُسِهم .

فقلت : أيها الوزير ، إنّى لأعجبُ من الإسكندرِ فى ٱلفعلِ ٱلرَّشيد وٱلقولِ السّديد ، فهذا ٱلمنصورُ أبو جعفر صاحبُ الشهامةِ والصّرامةِ أَخَذَ من وجوهِ ٱلعراقِ أموالا بخواتيمِ أصحابها وأفقرَهم ، وجعلَها فى خزائنه بعد أن كَتبَ على تلك ٱلخرائطِ والظّروفِ أسماء أهلها ، ثمّ وصّى المهدىَّ بردِّها على أصحابها بعد موته ، ووكّد ذلك عليه ، وقال : يا بُنىّ ، إنما أريدُ بهذا أن أُحبِّبَك إلى ٱلناس ، ففعل ٱلمهدىُّ ذلك ؛ فانتشرَ له ٱلصِّيتُ وكثرَ ٱلدعاء وعَجَّت الأصوات ، وقال الناس : هذا هو ٱلمهدىّ ٱلذى ورد فى الأثر . فقال : هذا عجب .

وقال سُقراط : ينبغى لمن علِم أنَّ البدَنَ هو شىء جُعِلَ نافعًا للنفس مثلَ الآلة لِلصانع أنْ يطلُبَ كلّ ما يصير البدنُ به أنفعَ وأوفَقَ لأفعال النفس التى هى فيه ، وأنْ يَهْرُبَ من كل ما يُصَيِّرُ البدنَ غيرَ نافعٍ ولا موافق لاستعمال النفس له .

قال أُوميرُوس : لا ينبغى لك أن تؤثِرَ عِلمَ شىء إذا عُيِّرْتَ به غَضِبْتَ ، فانك إذا فعلتَ هذا كنتَ أنت القاذف لنفسك .

وقال دِيوجانِس : مِن القبيح أن تتحرى فى أغذيةِ البدَن ما يصلُح له ولا يكون ضارًّا ، ولا تتحرّى فى غِذاء النَّفْس الذى هو العِلم لئلاّ يكون ضارًّا

وقال أيضًا : من القبيح أن يكونَ الملاّح لا يُطْلِق سفينته فى كلّ ريح ، ونحن نُطْلِقُ أنفسَنا فى غيرِ بحث ولا ٱختبار .

ذكر لنا أبو سليمان أن فيلسوفاً وَرَدَ مدينةً فيها فيلسوف، فوجَّه إليه المدنىُّ كأساً مَلآى، يُشير بها إلى أن الاستغناء عنه واقعٌ عنده، فطرَح القادمُ فى الكأسِ إبرةً، يُعلِمه أن معرفتَه تنفذُ فى معرفتِه.

وقال فيلسوفٌ يونانىّ: التقلّبُ فى الأمصار، والتوسُّطُ فى الجامع(1)، والتصرُّفُ فى الصّناعاتِ، واستماعُ فنونِ الأقوال، مما يزيد الإنسانَ بصيرةً وحكمةً وتجربةً ويقظةً ومعرفةً وعلماً.

قال الوزير: ما البصيرة؟ قلتُ: لَحْظُ النفس الأمورَ. قال: فما الحكمة؟ قلت: بلوغُ القاصية من ذلك اللحظ. قال: فما التجربة؟ قلتُ: كمالُ النفسِ بلِحاظ مالمّا. قال: هذا حسن.

قال أنكساغورس: كما أن الإناء إذا امتلأ بما يسعُه من الماء ثم تُجعل فيه زيادة على ذلك فاض وانصبّ، ولعله أن يَخرُج معه شىء آخر؛ كذلك الذهنُ ما أمكنه أن يَضبطه فإنه يَضْبطُه، وإن طُلِبَ [منه] ضبطُ شىء آخر أكثرَ من وُسْعِه تَحيّر، ولعلّ ذلك يُضيِّعُ عليه شيئاً مما كان الذهن ضابطاً له، وهذا كلام صحيح، وإنّى لأتعجَّب من أصحابنا إذ ظنّوا وقالوا: إنّ الإنسانَ يستطيعُ حِفظ جميع فنونِ العلمِ والقيامَ بها والإبقاء عليها، ولو كان هذا مقدوراً عليه [لوُجد، و] لو وُجِد لعُرِف، ولو عُرِف لذُكِر، وكيف يجوز هذا وقلبُ الإنسانِ مُضغة، وقوّتُه مقصورةٌ، وانبساطُه مُتناهٍ، واقتباسُه وحفظُه وتصوّره وذِكرُه محدودٌ؟ ولقد حدّثنى علىُّ بنُ المهدىّ الطبرىّ قال: قلتُ ببغداد لأبى بِشْر: لو نظرتَ فى شىء من الفقهِ مع هذه البراعةِ التى لك فى الكلام، ومع هذا

(1) فى كلتا النسختين: «والتوسط الجامع».

ألسان ألذى تَحيَّرفيه كلُّ خَصم . قال : أفعلُ ، قال . فكنتُ أقرأُ عليه بالنَّهارِ مع المختلفةِ الـكلامَ ، وكان يقرأ علىّ باللّيلِ شيئاً من ألفقهِ ، فلمّا كان بعد قليل أقصرَ عن ذلك ، فقلت له : ما ألسّبب ؟ قال : والله ما أحفظُ مسئلةً جليلةً فى ألفقهِ إلاَّ وَأنسَى مَسئلةً دقيقةً فى ألـكلام ، ولا حاجةَ لى فى زيادةِ شىء يكونُ سبباً لِنقصانِ شىء آخرَ منّى .

وسأل رجُلٌ آخرَ أن يُقرضَه مالا ، فوعده ثمّ غدر به ، فلامهُ النَّاسُ ، فقال : لأنْ يَحمرَّ وجهى مرّةً أحبُّ إلىّ من أن يصفرَّ مراراً كثيرة .

ووَلِىَ أريوس وِلايةً فقال له أصدقاؤه : الآن يظهرُ فضلُك . فقال : ليست الوِلايةُ تُظهرُ ألرّجلَ ، بل ألرّجلُ يُظهِر الولاية .

وقال دِيُوجانِس . ألدّنيا سوقُ المسافر ، فليس ينبغى للعاقِل أن يشترىَ منها شيئاً فوق الكفاف .

وقيل لاسطفانُس: مَنْ صَديقك ؟ قال : الذى إذا صِرْتُ إليه فى حاجةٍ وجدتُه أشدَّ مُسارعةً إلى قضائها منّى إلى طلبها .

وقال أفلاطون : إن للنفس لذَّتين : لذّةً لها مُجرّدةً عن الجسد ، ولذّةً مشارِكةً للجسد ، فأما التى تنفرد بها النفس فهى العِلمُ والحِـكمة ، وأما التى تُشارِك فيها البدنَ فالطعام والشراب وغيرُ ذلك .

وقيل لسُقْراط : كيف ينبغى أن تكون الدنيا عندنا ؟ قال : لا تستقبلوها بتَمَنٍّ لها ، ولا تُتْبعوها بتأسّف عليها ؛ فلا ذلك مُجْدٍ عليكم ، ولاهذا راجعٌ إليكم.

وقال سُقْراط : القُنْيَة[1] مخدومة ، ومن خدم غيرَ نفسه فليس [بحرّ] .

(١) فى كلتا النسختين : « القينة » ؛ وهو تحريف ؛ والقنية : ما يقتنى

وقال بعض ندماء الإسكندر له : إن فلاناً يسيء الثناء عليك ، فقال : أنا أعلم أن فلاناً ليس بشرِّير ، فينبغي أن يُنْظر هل ناله من ناحيتنا أمرٌ دعاه إلى ذلك ، فبَحَثَ عن حالِه فوجدَها رَثَّةً ، فأمر له بصلةٍ سنيَّة ، فبلغه بعد ذلك أنه يبسُط لسانه بالثناء عليه فى المحافل؛ فقال: أما ترون أن الأمر إلينا أن يقال فينا خيرٌ أو شرٌّ.

قيل لطيماثاوُس : لم صِرْتَ تسيء القول فى الناس؟ قال : لأنه ليس يمكننى أن أسيء إليهم بالفعل . وكان مرّة فى صحراء ، فقال له إنسان : ماأحسنَ هذه الصحراء ! قال : لو لم تَحْضُرْها أنت .

وقال غالوس : ما وجه الاهتمام بما إن لم يكن(١) أُجْزِئَ فَوْتُه ، وإن كان فالمنفعة به و بحضوره قليلة منقطعة .

وقال سُقْراط : ينبغى إذا وَعَظْتَ ألاّ تتشكَّل بشكل منتقمٍ من عدُوٍّ، ولكن بشكل من يُسْعِط أو يَكْوِى بعلاجه داء بصديق له ، و إذا وُعِظْتَ أيضاً بشيء فيه صلاحُك ، فينبغى أن تتشكّل بشكل المريض للطبيب .

ركب مقاريوس فى حاجة ، فمرّ بزِيمُوس وقد تعلّق به رجل يطالبه بمال اختدعه عنه وعليهما جماعةٌ من الناس ، وهو يسأله تنجيم ذلك المال عليــه نجوما ليؤدّيه ، ويتضرّعُ أشدَّ التضرُّع . فقال منقاروس : ماطَلِبَتُك عند هذا الرجل؟ فقال: أتانى نخدعنى بالزُّهد والنُّسُك عن مالى ، ووعدنى أن يملأ بيتى ذهباً من صنعته ، فلم أزل فى الاسترسال إلى ظاهره السليم حتى أفقرنى باطنه السقيم . فقال له مقاريوس : إنّ كلَّ مَنْ بَذَلَ شَيئاً إنمـا يَبْذله على قَدْرِ وُسْعِه ؛ وكان زِيمُوس أتاكَ على حالِه التى هو عليها ، ولم يكن ليتَّسِـع لأكْثرَ مِنْ ذلك القَوْل ؛ وأمّا عَمَلُ الذَّهب فبيِّن ظاهر ، لأنَّ فَقْرَهُ يَدُلُّ على عَجْزِه وضَعْفِه عنه ، ومن أمَّلَ الغِنَى عند الفقير

(١) يلاحظ أن قوله : «يكن» هنا تامـّة ، أى إن لم يوجد ؛ وكذلك قوله : «كان» الآتى.

فغايةُ مايُمْكِنُ أن يَبْلُغَه أن يَصيرَ مِثْلَه ؛ وآخِرُ ما يُؤَمِّلُ عند الفقير نَيْلُ الفَقْر . فقد أصَبْتَ ما كُنْتَ تُحِبُّ أن تَجِدَه عنـد زِيمُوس ؛ وهو حَظٌّ إن تَمَسَّكْتَ به لم يَغْلُ بما تَلِفَ مِنْ مالِك ، ولئن كان وَعَدَكَ أن يُفيدَك مالاً باطلاً فلقد أفادَكَ معدِناً حقّاً ، من غير قصدٍ إلى نفعك . ثم أقْبَلَ على زِيمُوس وقال له : ما أبعد شبه مَعْدِنِك من المَعادِنِ الطبيعيّة ! إنَّ المعادِنَ تَلفِظُ الذَّهَب ، ومَعْدِنَكَ هذا يَبْتَلِع الذهب ؛ ومنْ جاوَرَ مَعْدناً منها أغناه ، ومَنْ جاوَرَ مَعْدِنَكَ أفْقَرَه ؛ والمَعادِنُ الطّبيعيَّة تُثْمِرُ من غير قَوْل ، ومعدِنُك يقول مِنْ غير إثْمار . فقال زِيمُوس : أيُّها الفاضل ، لئن عِبْتَنى فلَسْتُ بأوّلِ حكيمٍ لقِىَ من النّاسِ الأذَى . فقال له : أَجَلْ ، ولا آخِرِهِمْ ولا أوْسَطِهِمْ ، لـكنَّك من الجُهّالِ الّذين لَقِىَ الناسُ مِنْهم الأذَى .

(١٦) فقال — أعْلى الله قولَه — : فهل لهذا الأمر — أعْني الكيمياء — مَرْجوع ؟ وهل له حقيقة ؟ وما تَحَفُّظُ عن هذه الطائفة ؟

فكان الجواب ، أمّا يَحْيى بنُ عَدِىّ — وهو أُستاذُ هذه الجماعة — فكان فِى إصْبَعِه خاتَم من فِضَّةٍ يَزْعُمُ أنَّ فِضّتَه عُمِلَتْ بين يديه ، وأنَّه شاهَدَ عَمَلَها عِياناً ، وأنه لا يَشُكُّ فى ذلك .

وأمَّا أصحابُه كابْنِ زُرْعَةَ وابْنِ الخَمّار ، فذَكروا أنّ ذلك تَمَّ عليه من فعلٍ لم يَفطِنْ له من بَعْضِ من اغْترّه من هؤلاء المُحْتالِينَ الخَدّاعين .

وأما شيخنا أبو سليمان فحصلتُ من جوابه على أنَّه ممكن ، ولم يَذكر سبب إمكانِه ولا دليلَ حقيقته .

وأما أبو زيد البَلْخِىّ — وهو سيّد أهل المَشْرِق فى أنواع الحكمة —

فذكرَ أنّه مُحالٌ ولا أصلَ له ، وأنّ حكمة الله تعالى لا توجبُ صحةَ هذا الأمر ، وأنّ صحّتَهُ مَفْسَدةٌ عامّة ، (وَاللهُ لا يُحِبُّ الفَسَادَ) .

وأمّا مِسْكَوَيه — وها هو بين يديك — فيزعُم أن الأمر حَقٌّ وصحيح ، والطبيعةُ لا تمنع من إعطائه ، ولكنّ الصناعةَ شاقّة ، والطّريقَ إلى إصابة المِقْدار عَسِرة ، وجمعَ الأسرارِ صَعْبٌ وبعيد ، ولكنه غير مُمْتَنِع ؛ فقد مضى عُمْرُه فى الإكباب على هذا بالرىّ أيام كان بناحية أبى الفضل (١) وأبى الفتح ابنه مع رَجُل يُعْرَفُ بأبى الطّيّب ، شاهَدْتُه ولم أحمد عَقْله ، فإنه كان صاحبَ وَسْوَاسٍ وكذبٍ وسَقَط ، وكان مخدوعاً فى أوّل أمره ، خادعاً فى آخر عُمره .

وأبينُ ما سمعتُه فى هذا الحديث أنَّ الطبيعة فوق الصناعة ، وأنّ الصناعة دون الطبيعة ، وأن الصّناعة تتشبَّه بالطبيعة ولا تكمل ، والطَّبيعةَ لا تتشبَّه بالصناعة وتكْمُل ، وأنَّ الطبيعة قوّة إلٰهيّة ساريةٌ فى الأشياء واصلةٌ إليها ، عاملةٌ فيها بقدر ما للأشياء من القبول والاستحالةِ والانفعال والمواتاةِ ، إما على التّمام ، وإما على النقصان . وقيل : إنَّ الطبيعة لا تسلك إلى إبراز ما فى المادّة أبْعَدَ الطرُق ، ولا تتركُ أقْرَبَ الطُّرُق ، فلما كانت المعادنُ هى التى تُعطى هذه الجواهرَ على قَدْرِ المُقابلات العُلويَّة والأشكال السماويّة والموادّ السُّفْليّة والكائنات الأرضيّة ، لم يَجُزْ أن تكون الصّناعة مُساويةً لها ، كما لم يَجُزْ أن تكون مُستعليةً عليها ، لأن الصناعة بشريَّةٌ مستخرَجةٌ من الطبيعة التى هىَ إلٰهيّة ، ولا سبيلَ لقُوّةٍ بَشَريّةٍ أن تنالَ قُوّةً إلٰهيَّةً بالمساواة ؛ فأما بالتشبيه والتقريب والتّلبيس ، فيُمكن أن يكون بالصّناعة شىء كأنّهُ ذَهَبٌ أو فضّة ، وليس هو فى

(١) يريد أبا الفضل بن العميد .

الحقيقة ، لا ذَهَبٌ ولا فِضَّة ؛ وإذا كان ظُهور القُطن بالطَّبيعة وظهورُ الثوْبِ بالصِّناعة فليس لهذه أن تَعْرِض لهذه ، [ولا لهذه أن تَعرِض لهذه] ؛ والأمور مَوْزُونة(١) ، والصناعات متناهية ؛ فإن ادُّعِيَ فى شىء من الصناعة مايزيد عليها حتى تكونَ كأنها الطبيعة ، احتيج إلى بُرْهانٍ واضح ، وإلى عِيان مصرَّح ، لأنَّا نعلم أنّه ما من صناعةٍ ولا علمٍ ولا سياسةٍ ولا نِحْلَةٍ ولا حالٍ إلا وقد حُمِل عليها ، وزِيدَ فيها وكُذِبَ من أجلها بما إذا طَلَبْتَ صحّته بالبرهان لم تجِد ، أو بالعِيان لم تقدِر .

(١٧) فأما أصحابُ النُّسُك ومن عُرِف بالعبادة والصَّلاح ؛ فقد ادُّعِيَ لهم أن الصُّفر يُصيَّر لهم ذهباً ، وشيئاً آخر يصيرُّ فضة ، وأن الله عزَّ وجلَّ يُزَلْزِلُ لهم الجبل ويُنْزِل لهم القَطْر ، ويُنبت لهم الأرض ، وغيرُ ذلك مما هو كالآيات للأنبياء الذين يأتون من قِبَل الله بالكُتُب والوصايا والأحكام والمواعظ والنصائح ، وربما يسمِّى كثيرٌ من الناس ما يَظهرُ للزُّهَّاد والعُبَّاد من هذا الضرب كرامات ولا يسمِّيها معجزات ، والحقائق لا تَنْقَلِبُ بالأسماء ، فإن المسمَّى بالكرامةِ هو المسمَّى بالمعجزة والآية .

والخَوضُ فى هذا الطَّرَفِ قديم ، وفَصْلُه فى الحقِّ شاقٌّ ، والتنازُعُ فيه قائم ، والظَّنّ يَعملُ عَمَلَه ، واليقين غيرُ مظفور به ، ولا موصولٍ إليه ؛ والطبيعةُ قد أُوْلِعت الناسَ بادِّعاء الغرائب ، وبَعَثَتْهُمْ على نُصْرتها بالوَفْق والخَرْق ، والتسهيل واللَّجاج ، والمواتاة والمَحْك ، ولله فى طيِّ هذا العالَمِ العُلوىّ أسرارٌ وخفايا وغُيوبٌ ومَكامنُ لا قوّة لأحد من البَشَر بالحِسِّ ولا بالعقل أن يحوم حولها ، أو يبلُغَ عُمْقَها ، أو يُدْرِكَ كُنْهَها ، ومن تَصَرَّفَ عَرَفَ ، ومن عَرَفَ سَلِمَ ، والسلام .

(١) كذا وردت هذه الكلمة فى كلتا النسختين .

وحكى لنا أبو سليمان أنَّ أرِسْطوطاليس كتب إلى رجل لم يُشَفِّعْهُ[١] فى رَجُل سأله الكلامَ له فى حاجة : إن كنتَ أرَدْتَ ولم تَقْدِرْ فمعذور ، وإن كنتَ قَدَرْتَ ولم تُرِدْ فسوف يجيء وقتٌ تريد ولا تقدر .

وقال بعض الحكماء : لا تُرَفِّهوا السِّفْلة فيعتادوا الكسَلَ والراحة ، ولا تجرِّئوهم فيطلُبوا السَّرَفَ والشَّغَبَ ، ولا تأذنوا لأولادِهم فى تعلُّمَ الأدب فيكونوا لرداءة أصولهم أذْهَنَ[٢] وأغْوَصَ ، وعلى التعلّم أصبَرَ ؛ ولا جرم فإنهم إذا سادُوا[٣] فى آخر الأمر خرَّبوا بُيُوتَ العِلْيَةِ أهل الفضائل .

(١٩) وقال فيلسوف : للنفس خَمْسُ قُوًى : الحسّ والوَهم والذِّهْن والاختبار والفكر .

فأما الحِسُّ فلَحاقُ الأشياء بلا فحص ، ولا يُحتاج فى ذلك اللَّحاقِ إلى شيء آخر ، إلا أن يكون ممنوعاً بمانع ، وذلك إذا وجد شيئاً أبيض حَكم بأنه أبيض بلا فِكْر ولا قياس .

وأما الوهم ، فإنه يقع على الأشياء بتوسُّط الحسِّ .

وأما الاختبار فيوافق الفكر ، كقولك : النفسُ لا تموت ، فهذا قولٌ اختبارِيٌّ بعد الفكْر ، فإن كان هذا هكذا فالاختبار ليس بقياس ، ولكنه أُفُقُ القياس.

وأما الذِّهن فإنه لا يهجم على أوائل الأشياء .

وقال آخر شبيهاً بهذا الكلام ، ولا بأسَ أن يكون مضموماً إليه ، ليكون شمل الفائدة أكثرَ نظاماً وأقْرَبَ مَراماً .

---

(١) يشفعه : يقبل شفاعته

(٢) أذهن ، أى أجود ذهناً ، وفى (ا) « أدهى » ، وفى ب « أذهب » ، وهو تصحيف فى كلتيهما .

(٣) فى كلتا النسختين : « صاروا » .

قال : ليس للحَواسّ والحركات فِعْلٌ دون أن تبعثها القوّة المميِّزة ، فلذلك لا يُحسُّ السَّكْرَان ولا النائم ، وكذلك أيضاً البهائم فإنها لا تصيحُ إلا بعد أن يَعْرض فى فِكْرها شىء ، ولا تتحرّكُ إلا بانبعاث القوّة المميّزة .

ولكل واحد من الحيوان ثلاثةُ أرواحٍ فى ثلاثة أعضاء رئيسة : نفسيّةٌ فى الدماغ ، وحيوانيّة فى القلب ، وطبيعيّة فى الكبد .

وفى كل واحد منها قوّةٌ مميِّزَةٌ بها يتم عَمَلُه ، فالتى فى الدّماغ هى العقل المميِّز الحارس للبدن ، ومنه يَنبعث الحِسُّ والحركة ، [والتى] فى القلب تنبعث منها الحرارة الغريزية فى جميع البدن ؛ وزعموا أن تلك الحرارة هى الرُّوح ؛ والّتى فى الكبد هى موضع الهَضْم والنضج ، وهى التى تنضج الطعام وتغيره وتحيله دماً وتوزِّعُ فى كلِّ عضو ما هو ملائمٌ له ، وبالجاذبة تَجْذِبُ ، وبالحابسة تَحبِس ، وبالهاضمة تَهضِم ، وبالدّافعة تَدفع .

فأما الدِّماغ فينقسم ثلاثة أقسام يَحْجُز بينها أَغْشِيَة ، أحدُها فى مقدَّمِ الرأس مَوْضع التخيُّل ، والثانى فى وسط الرأس مَوْضع العقْلِ والفِكْرِ والتميز ، والثالث فى مؤخَّر الرأس موضعُ الحفظِ والذِّكر والقبول ؛ فكلٌّ واحد مما ذكرنا يخدمُ الآخر ، وإن ضَعُفَ أحدُها ضَعُف لضَعْفه الآخَر ، وباعتدالهنَّ وسلامَتِهنّ قِوامُ البدَنِ والنَّفْس .

ولكلٍّ واحدٍ منها آلة بها يستعين على خِدْمةِ الآخر .

قال : فكما أن الرَّحَى إذا نقصتَ شيئاً منها أو زدتَ أفسد الطحن ؛ إمّا بزيادة أو نقصان ، كذلك سائرُ خَدَمه وآلاته .

وقال : الدِّماغ مَسكَن العَقْل ، وخَدَمُه الحسُّ والحركة ؛ والقلب مَسْكن

الحرارَة الغريزية ، وخَدَمُهُ العُروق الضَّوارِب ؛ والكَبِدُ مَسكن النُّضْج والهضم ، وخَدَمُها العُروقُ غيرُ الضَّوارب .

وقال : النار تُحرِق ، فإذا كانت موجودةً فالدُّخان والرَّماد موجودان ، والدُّخان رَمادٌ لطيف ، والرَّمادُ دخانٌ كثيف .

وقال أبو سليمان : ذكر بعضُ البحّاثين عن الإنسان أنَّه جامعٌ لكلِّ ما تفرَّقَ فى جميع الحيوان ، ثم زاد عليها وفُضِّل بثلاثِ خِصالٍ : بالعقل والنظر فى الأمور النافعة والضَّارّة ، وبالمنطق لإبراز ما استفاد من العقل بوساطة النظر ، وبالأيدى لإقامة الصِّناعاتِ وإبْرازِ الصُّوَر فيها مماثِلةً لما فى الطبيعة بقوّة النفس .

ولمَّا انتَظَم له هـذا كلُّه جَمعَ الحِيَلَ والطَّلَبَ والهَرَب والمَكايدَ والحذَر ، وهذا بَدَل السُّرْعة والخِفّة التى فى الحيوان ، واتخذ بيده السلاح مكان الناب والمِخْلَب والقَرْن ، واتَّخذ الجُنَن لتكون وقايةً من الآفات ، والعقْلُ يَنْبُوع العلم ، والطبيعة ينْبُوع الصِّناعات ، والفِكْرُ بينهما قابِلٌ منهما ، مُؤدٍّ من بعض إلى بعض ، فصوابُ بَديهة الفِكْر من صِحَّة العقل ، وصوابُ رَوِيّة الفِكر من صِحَّة الطباع .

(٢٠) وقال أبو العباس : الناسُ فى العِلم على ثلاثِ درجات ، فواحد يُلهَم فيُعَلِّمُ فيصير مَبْدأ ، والآخر يتعلّم ولا يُلهَم فهو يؤدِّى ماقد حَفِظ ، والآخَر يُجمع له بين أن يُلهَم وأن يتعلم . فيكون بقليل ما يتعلّم مُكثِراً بقوّة ما يُلهَمُ .

وقال: الإنسان بين طبيعته — وهىَ عليه — ونفسه — وهى له — منقسِمٌ؛ فإن اقتبَسَ من العَقْل قوّى نُورُه ما هو له من النَّفْس ، وأَضْعَفَ ما هو عليه من الطبيعة ، فإن لم يكن يَقْتَبِس بقِيَ حيرانَ أو مُتهوِّراً .

أَلْقَحَتْها ؛ فكم من وَلَدٍ يَنْمُو بينهما فى بطنٍ واحد .

وقال فيلسوف : إنَّ البعوضةَ تَحْيا ما جاعت وإذا شَبِعَتْ ماتت .

وقال ديوجانس : إن تَكُنْ مِلْحًا يُصْلِح ، فلا تكن ذُبابا يُفْسِد .

وقيل لديوجانس : مِن أين تأكل ؟ فقال : مِنْ حيث يأكل عبدٌ له رَبٌّ .

وقال ديوجانس : كُن كالعروس تُرِيد البيتَ خاليا .

قيل لأَرِسْطوطاليس : إنَّ فلانًا عاقِلٌ . قال : إذاً لا يفرح بالدنيا .

وقيل لفيثاغورس : ما أَمْلكَ فلانا لنفسه ! قال : إذاً لا تَصْرَعُهُ شهوَتُه ، ولا تَخْدَعُه لَذَّتُه .

وقيل لأسقلبيوس : فلانٌ له همَّة . قال إذاً لا يَرْضى لنَفْسه بدون القَدْر .

ومَدَح رجل ثيُودوروس على زُهْده فى المال قال : وما حاجتى إلى شىء البَخت يأتى به ، واللؤمُ يحفَظُه ، والنفقةُ تُبَدِّدُه ، إنْ قلَّ غَلَبَك الهمُّ بتكثيره ، وإن كَثُر تَمَسَّكَ فى حِفْظِه ، يَحْسُدُكَ من فاتَه ما عندك ، ويَخْدَعُكَ عنه من يَطْمَع فيه منك .

وقال سُقراط : ما أُحِبُّ أن تكون النفسُ عالمةً بكل ما اعِدَّ لها ؛ قيل : ولِمَ ؟ قال : لأنها لو عَلِمتْ طارت فَرَحاً ولم يُنْتَفَعْ بها .

وقال ديوجانس : القلبُ ذو لطافة ، والجسمُ ذو كَثافة ، والكثيفُ يَحفَظُ اللطيفَ كضَوْء المِصْباح فى القِنْديل .

وقال افلاطون : العِلمُ مِصباحُ النفس ، ينْفى عنها ظُلمةَ الجهل ، فما أمكنك أن تُضِيف إلى مِصباحِك مصباحَ غيرك فأَفعَلْ .

قال أبو سليمان : ما أَحسَنَ المِصباح إذا كان زجاجُه نقيًّا ، وضوءه ذكيًّا ، وزَيْتُه قوِيًّا ، وذُبالُه سَوِيًّا .

وقال سُقراط : الكلام اللطيفُ ، ينْبُو عن الفَهم الكثيف .

وحَكَى لنا أبو سليمان قال : قيل لفيلسوف : مابالُ المريض إذا داوَاهُ الطبيبُ ودَخل عليه فَرح به وقَبل منه وكافأه على ذلك ، والجاهلُ لا يفعَل ذلك بالعالم إذا عَلّمه وبَيَّنَ له ؟ فقال : لأنَّ المريضَ عالِمٌ بما عند الطبيب ، وليس الجاهِل كذلك ، لأنّه لا يَعْلمُ ما عند العالِم .

وقال دِيوجانس لصاحبه : أما [تعلَمَ] أنَّ الحمَامَ إذا كان سَمائيًّا كان أغْلى ثمنًا ، و إذا كان أَرْضِيًّا كان أقلَّ ثمنًا(١) .

قال — أبقاه الله — هذا مَثَلٌ فى غاية الحُسْن والوُضوح .

[وقال ديوجانس(٢) : المأكُول للبدن ، والمَوْهوب للمَعاد ، والمحفوظُ للعدوّ .

وقال فيلسوف : التهاونُ باليسير أساسٌ للوُقوع فى الكثير .

وقال أفلاطون : مَثَلُ الحكيم كَمَثَل النملة تَجمَع فى الصيف للشتاء ، وهو يَجمع فى الدنيا للآخرة .

وقال فيلسوف : من يصف الحكمةَ بلسانه ولم يتَحلَّ بها فى سرّه وجهره فهو فى المَثَل كرَجُل رُزِق ثوبًا فأخذ بطرَفه فلم يَلبَسه .

وقال السيد المسيح : إن أستطعتَ أن تجعلَ كنزَك حيث لا يأكله السُّوس ، ولا تدركه اللّصوص ، فافعل .]

قال فيلسوف : إذا نازعك إنسانٌ فلا تُجِبْهُ ، فإنَّ الكلمة الأولى أُنْثى وإجابتَها فَحْلُها ، وإن تركتَ إجابتَها بَتَرْتَها وقَطَعْتَ نَسْلَها ، وإن أجَبْتَها

(١) يلوح لنا أن فى هذه الفقرة نقصاً سقط من الناسخ فى كلتا النسختين .
(٢) آخر هذه الزيادة التى نقلناها عن ب بعض كلمات مطموسة لم نستطع تمييزها ، فلم نثبتها ، فانظرها فى هامش الورقة رقم ٢٠٤ من هذه النسخة .

قيل لسقراط : ما أحْسَنُ بالمرء أن يتعلَّمه فى صِغره ؟ قال : ما لا يَسعُه أن يَجْهَلَه فى كِبَرِه .

قال أبو سليمان : ومن هاهنا أخَذَ مَنْ قال : يَحْسُن بالمرء التعلُّم ما حَسُنَتْ به الحيـاة .

قيل لهوميروس : ما أصْبَرَكَ على عَيْبِ الناسِ لك ! قال : لأنَّا اُستوَيْنَا فى العَيْب ، فأنا عندهم مِثْلُهم عِنْدِى .

وقيل للإسكندر : أىّ شىء أنتَ به أسَرُّ ؟ . قال : قُوَّتى على مكافأة من أحْسَنَ إلىَّ بأحْسَنَ مِن إحسانه .

[وقال ديوجانس : إنّ إقبالك بالحديث على من لا يَفهم عنك بمنزلةِ من وَضع المائدةَ على مَقْبُرَةٍ] .

ورأى دَيُوجانِس رجلاً يأكل ويتذرَّع[1] ويُكْثِرُ ، فقال له : يا هذا ، ليست زيادة القوّة بكثرة الأكل ، وربمـا وَرَدَ على بَدنك من ذلك الضررُ العظيم ، ولكنَّ الزيادَة فى القوّة بجودة ما يقبل بدنُك منه على الملاءمة .

وقال ديوجانس : الذهبُ والفضّة فى الدار بمنزلة الشّمس والقمر فى العالَم .

قال أبو سليمان : هذا مليح ، ولـكن ينبغى أن تَبْقَى الشمس والقمر فإنهما يُكسفان فيكونان سبباً لفسادٍ كثير ، ويذوبان[2] ويُحْمَيان فيكونان ضارَّيْن

وقال أفلاطون : موت الرؤساء أصلحُ من رآسة السِّفْلة .

وقال : إذا بخل المَلِكُ بالمال كثر الإرجاف به

وقال سولون : العلمُ صغير فى الـكمّيّة ، كبيرٌ فى الـكيفيّة

(١) يتذرع ، يكثر ويفرط . (٢) ويذوبان ، أى الذهب والفضة .

وقال أبو سليمان : يعنى أن القليل منه إذا استعملتَه على وجهه كان له إِتاء ونفع فائض وَدَرٌّ سائحٌ ، وغايةٌ محمودةٌ ، وأثَرٌ باق . وهذه كلُّها كيفيّات من تلك الكمّيّة .

وقال أفلاطون : لا يَسُوسُ النفوسَ الكثيرةَ على الحقِّ والواجبِ من لا يُمْكِنُه أن يَسُوسَ نفسَه الواحدة .

وقال سُقْراط : النَّفس الفاضِلَةُ لا تَطغَى بالفَرَح، ولاتجزعُ من التَرَح ، لأنها تنظر فى كلِّ شىء كما هو ، لا تسلبُه ما هوَ له ولا تُضِيفُ إليه ما ليس منه ؛ والفرَحُ بالشىء إنما يكون بالنَّظَر فى محاسِنِ الشىء دون مساوئه ، والتَّرَحُ إنما يكون بالنظر فى مساوئ الشىء دون محاسِنه ؛ فإذا خَلَصَ النظرُ من شَوْبِ الغلط فيما يُنْظَر فيه انتفى الطُّغْيَان والجزع ، وحَصَلَ النظامُ وربع[1] .

قال دِيُوجانس : ينبغى للإنسان أن يَنظُر فى المرآة ، فإن كان كجْهه حَسناً أستَقْبَحَ أن يُضِيفَ إليه فِعلاً قبيحاً ، وإن كان وجهه قبيحاً وذلك أن يضيف قبيحاً إلى قبيح حتّى يتضاعَفَ القُبْح .

وقال إبقراط : منزلة لطافة القَلْب فى الأبدانِ بمنزلة لطافة الناظر فى الأجفان.

وقال : للقَلْب آفتان : وهما الغمُّ والهمُّ ، فالغمُّ يَعرِض منه النَّوْم ، والهمّ يعرض منه السَّهَر ، وذلك أن الهمّ فيه فكرٌ فى الخوْفِ مما سيكون ، فمنه يَغْلِبُ السَّهر ؛ والغمّ لا فكرَ فيه ، لأنّه إنما يحدُث لما قد مضى وكان .

وقال أفلاطون : من يصحب السلْطانَ فلا يَجْزَعْ من قسوته ، كما لا يَجْزَع الغَوّاصُ من مُلُوحة البَحْر .

قال أبو سليمان : هذا كلامٌ ضرُّه أكثرُ مِنْ نَفْعه ، وإنّما نفَّقه صاحبُه

(١) ربع ، أى ثبت ودام .

بالمِثال ، والمِثالُ يَسْتَجيب للحقّ كما يَسْتَجيب للباطل ، والمعوَّل على ما ثَبَت بالدّليل ، لا على ما يُدَّعَى بالتَّمثيل ، وقد يَجبُ أن يُجْتَنَبَ جانبُ السُّلطان بغاية لاستطاعة والإمكان ، إلا إذا كان الدهرُ سليما من الآفات الغالبة . فقال له الأندلسيّ : وما صورةُ الزمان الخالى من الآفات ؟ فقال : أن يكون الدينُ طَرِيًّا[1] ، الدولة مقبلة ، والخصْبُ عامًّا ، والعِلْم مطلوبا ، والحكمة مَرْغوبا فيها ، والأخلاق طاهرة ، والدعوة شاملة ، والقلوبُ سليمة ، والمعامَلات متكافئة ، والسياسة مغروسة ، والبصائر متقاربة . فقال . هذا لو صَحّ لارْتَفَعَ الكونُ والفساد اللذان وهما سوسُ هذا المكان ، فقال : غلطت يا أبا عبد الله ، فإن الكونَ والفسادَ يكونان على حاليهما ، ولكنّهما يقعان على مَعْلومَيْن للصورة الثابتة ، والسياسة العامّة الغالبة ، كأنك لا تحس بالفرق بين زمان خِصْب الأرض وجَدْبِها ؛ وكما أنّ للأرض خِصْبا وجَدْبا ؛ كذلك للأحوال والأديان وللدُّوَل صلاحٌ وفساد ، وإقبالٌ وإدبار ، وزيادةٌ ونُقصان ؛ ولو كان ما خِلْتَه لازما ، لكنّا لا نَتَمَنّى مَلِكا عادلا ، ولا سائساً فاضلا ، ولا ناظراً ناظما ، ولا مدبّراً عالماً ؛ وكان هذا لا يُعْرَف ولا يُعْهَد ، ويكون فى عُرْضِ المُحال كَوْنُه ووِجْدانُه ؛ وليس الأمر هكذا فقد عَهِدْنا مِثْلَ أبى جَعْفر بسجستان ، وكان والله بَصيراً خَبيراً ، عالماً حكيما ، يَقِظًا حَذِراً ، يَخْلُقُ ويَفْرِى ، ويَرِيشُ ويَبْرِى ، ويَكْسو ويُعْرِى ، ويُمْرِضُ ويُبْرِى ، وهكذا مِثْلُ أبى جَعْفَر بالأمسِ مَلِكُ العِراق فى حَزامَتِه وصَرامَتِه وقيامِه فى جميع أُمورِه ، بِنَظَرِه وتدبيره ؛ وكذلك قد عهد الناس قبلَنا مِثْلَ هذا ، فلِمَ يَقع التعَجُّبُ مِنْ شىء عليه مَدارُ الليل والنهار .

وقال ديوجانس لصاحب له : اُطْلُب فى حياتِكَ هذه العِلمَ والمالَ تَمْلِكْ بهما

(١) طريا : يريد غضًّا ناضرا .

الناس ، لأنك بين الخاصّة والعامّة ، فالخاصّة تعظّمك لفضلك ، والعامّة تعظّمك لمالك(١) .

وقال أفلاطون : إنَّ الله تعالى بقَدْر ما يُعْطِى من الحِكمَة يَمْنَع الرِّزْقَ ؛ قال أبو سليمان : لأنَّ العِلْمَ والمالَ كضرَّتَيْن قَلَّما يَجْتَمِعان ويَصْطَلِحان ، ولأنَّ حَظَّ الإنْسَان من المال إنما هو مِنْ قَبيل النَّفْس الشَّهَوِيَّة والسَّبُعيّة ، وحَظَّه من العِلْمِ إنما هو من قَبيل النَّفْسِ العاقِلة ، وهٰذان الحَظّان كالمتعانِدَيْن والضِّدَّين . قال : فيجب على الحصيف والمميِّز أن يعلم بأن العالِم أشرَفُ في سِنْخِه وعُنْصُرِه ، وأوّلِهِ وآخِرِه ، وسَفَرِه وحَضَرِه ، وشهادَتِه [ومَغيبِه(٢)] من ذى المال ؛ فإذا وُهِبَ له العِلْمُ فلا يَأْسَ على [المال الذى يُجْزِئُ منه اليسير ، ولا يُلْهِبْ نفسه على] فوْتِه حَسْرَةً وأسَفاً ؛ فالعِلْمُ مُدبِّر ، والمالُ مُدبَّر ؛ والعِلْمُ نَفْسِىّ ، والمالُ جَسَدِىّ ، والعِلْمُ أكثرُ خُصوصيَّةً بالإنسان من المال ، وآفات صاحب المال كثيرةٌ وسريعة ، لأنك لا ترَى عالماً سُرِق عِلْمُه وتُرِكَ فقيراً منه ؛ وقد رأيتَ جماعةً سُرِقَتْ أموالُهم ونُهِبتْ وأُخِذَتْ ، وبَقِىَ أصحابُها مُحتاجين لا حيلةَ لهم ؛ والعِلْمُ يزْكو على الإنفاق ، ويَصْحَب صاحبَه على الإمْلاق ؛ ويَهْدِى إلى القَناعة ، ويُسْبِلُ السِّتْرَ على الفاقة ؛ وما هكذا المال .

---

(١) عبارة « ب » فالخاصة تفضلك بما تعلم ، والعامة تعظمك بما تملك .
(٢) لم ترد هذه الكلمة فى كلا الأصلين .

الليلة الثامنة عشرة(١)

وقال مرّةً : تعالَ حتّى نجْعَلَ ليلَتنا هذه مُجونيّة ، ونأخذَ من الهَزْلِ بنصيب وافر ، فإنَّ الجِدَّ قد كدَّنا ، ونالَ مِن قُوانا ، وملأنا قبضاً وكَرْباً ، هاتِ ماعِنْدَكَ ، (١) قلتُ : قال حَسْنونُ المَجْنون بالكوفة يوماً — وقد اجتمع إليه المُجّان يَصف كلٌّ واحد منهم لذّات الدُّنيا — فقال : أمّا أنا فأصِفُ ماجَرَّبْتُه ؛ فقالوا : هات ؛ فقال : الأَمْنُ والعافية ، وصَفْعُ الصُّلْع الزُّرْق ، وحَكُّ الجرَب ، وأكلُ الرُّمان فى الصَّيف ، والطِّلاء فى كلِّ شهرين ، وإتيان النِّساءِ الرُّعْن والصبيانِ الزُّعْر(٢) ، والمَشْىُ بلا سَراويل بين يَدَىْ من لا تَحْتَشِمُه ، والعَرْبَدَة على الثقيل ، وقلّة خِلاف من تُحِبُّهُ [والتَّمَرُّسُ(٣) بالحُمْقَى] ومؤاخاةُ ذَوِى الوفاء ، وتَركُ معاشرة السِّفْلة

وقال الشاعر :

أَصْبَحْتُ من سُفْلِ الأنامِ . إذ بِعْتُ عِرْضِى بالطَّعامِ
أَصْبَحتُ صَفْعانًا(٤) لئيـ ـمَ النَّفسِ من قومٍ لئامِ
فِى أُسْتِ أُمِّ رَبَّاتِ الخِيا مِ ومن يَحِنُّ إلى الخِيـــامِ

---

(١) هذا العد حسبما هو وارد فى (ا) وقد سبق لنا استظهار غير ذلك فى الحاشية رقم ١ من صفحة ٢٧ فانظرها . ويلاحظ أن المؤلف قد أتى فى هذه الليلة ببعض من المجون الساقط والنوادر المبتذلة ، ولولا الأمانة العلمية والإخلاص للتاريخ لحذفنا أكثرها واكتفينا بما لطف ورق ولم ينب عنه الذوق . على أن المؤلف قد اعتذر عن ذلك فى آخر الليلة ص ٦٠ مستندا إلى أقوال بعض الصحابة

(٢) الزعر : جمع أزعر ، وهو الذى لا شعر له .

(٣) فى الأصل « والتمرى » ؛ وهو تحريف إذ لا يناسب معناه سياق ما يأتى بعد . والتمرس بالحمق الاحتكاك بهم لإظهار ما عندهم من الحماقة تفكها بهم .

(٤) صفعاناً ، أى يصفع من الناس لذلته وخسته .

نفسي تحنُّ إلى الهُلا م[1] الموتُ من دون الهُلامِ
مِن لَحْمِ جَدْيٍ راضِعٍ رَخْصِ[2] المفاصِلِ والعِظامِ
هـذا لأولاد الخطا يا والبغـايا والحَرامِ
حَيٌّ القُـدورَ الرّاسيا تِ وإن صَمِتْنَ عن الكَلامِ
وقِصاعَهُنَّ[3] إذا أتيـ نَكَ طافحاتٍ بالسَّلامِ
لَهفِي على سِكْباجَةٍ[4] تَشْفِي القُلوبَ من السَّقامِ
يا عاذلي أسْرَفْتَ في عَذْلِ الخَليعِ المُستهامِ
رَجُـلٌ يَعَضُّ إذا نصحـ تَ له على فأسِ اللِّجامِ[5]
دَعْ عَذْلَ من يَعْصِي العَذُو لَ ولا يُصِيخُ إلى المَلامِ
خَلَعَ العِـذارَ وراحَ في ثوب المَعاصي والأثامِ
شَيْخٌ يُصَـلِّي قاعِدًا ويَنيكُ عَشْراً مِن قِيامِ
ويَعـافُ نَيْكَ الغانيا تِ ويَشْتَهِي نَيْكَ الغُلامِ
وتَراهُ يُرْعَدُ حين يُذ كَرُ عنـده شَهْرُ الصِّيامِ
خوفاً من الشَّهْرِ المعـذِّ بِ نَفْسَه في كلِّ عامِ
سَلِسُ القِيـادِ إلى التَّصا بِي والمَلاهِي والحَرامِ
مَـن للمُروءةِ والفُتُـوَّة بعـد مَوْتي والنِّدامِ
مَـن للسَّماحِ وللرِّما حِ لَدَى الهَزاهِزِ والحُسامِ

(١) الهلام : مرق السكباج يبرّد ويصفّى من الدهن .
(٢) رخص المفاصل : ليّنها .
(٣) جعل ما في القصاع من الثريد واللحم كأنه تحية وتسليم على من تقبل عليه .
(٤) السكباجة : مرق يعمل من اللحم والخل ؛ وهو فارسي معرب .
(٥) فأس اللجام : الحديدة القائمة في حنك الدابة .

مَن لِلّواط وللحلا قِ[(١)] وللمُلِمّات العِظام

كان محمّدُ بنُ الحسن الجُرْجانىّ متقعّرا فى كلامه ، فدخَلَ الحمّامَ يوماً ، فقال للقيّم : أين الجُلَيْدَة التى تسلخُ بها الضّويطة[(٢)] من الإخْقيق ؟ قال : فصفع القيّم قفاه بجلدة النّوْرة وخرج هارباً ، فلما خرج من الحمّام وَجّه إلى صاحِبِ الشُّرْطة ، فأخذ القيّمَ وحَبَسَه ، فلما كان عِشاء ذلك اليوم كَتَبَ إليه القيّمُ رُقْعَةً يقول فيها : قد أبْرَمَنِي المَحْبوسون بالمَسْأَلةِ عن السَّبَبِ الذى حُبِستُ له ، فإمّا خَلّيْتني وإما عرّفْتَهم . فوَجّهَ مَنْ أطْلَقه ، وأُتصل الخبرُ بالفتح ، فحدَّثَ المتوكّلَ ، فقال : ينبغى أن يُغْنَى هـذا القيّمُ عن الخِدْمَةِ فى الحمّام . وأمَرَ له بمـائتى دينار .

قال[(٣)] : وكان بالبصرة مخنّثٌ يَجْمَع[(٤)] ويَتَعَشّق بعضَ المهالبة ، فلم يزل المخنّثُ به حتى أوقعه ، قال : فلَقِيتُه من غَدٍ فقلت له : كيف [كانت وقعة الجُفْرة[(٥)] عندكم البارحة ؟ فقال : لمـا تدانت] الأشخاص ، ورَقّ الكلام ، والتفّت الساقُ بالساق ،

(١) الحلاق : قلة شبع الأتان والمرأة من إتيانهما .

(٢) الضويطة : الحمأة فى أصل الحوض . والإخقيق : الشق فى الأرض . فلعله أراد الجليدة التى يزال بها الوسخ من الجسد (مجازا) . وفى كلتا النسختين « الطوطة من الاحقيق » ؛ وهو تصحيف ؛ إذ لم نجد له معنى يناسب السياق ؛ فلعل الصواب ما أثبتنا .

(٣) يلاحظ أنه قد سقط من الناسخ اسم القائل هنا إذ لم يسبق له ذكر .

(٤) أى يجمع بين المتعاشقين .

(٥) الجفرة : موضع بالبصرة كانت به وقعة سنة سبعين بين عبد الملك بن مروان ومصعب ابن الزبير ، وكان على جيش عبد الملك خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، وخليفة مصعب بن الزبير على البصرة عبد الله بن عبيد الله بن معمر التيمى ، ودامت هذه الوقعة أربعين يوماً ، وكان النصر فيها لأهل البصرة . وفى كلتا النسختين « الحفرانة » ؛ وهو تحريف . وفى الكلام تورية كما لا يخفى .

ولُطِّخ باطنُها بالبُزاق ، وقُرِعَ البَيْضُ(١) بالذُّكور ، وجعلت الرِّماح تَمُور(٢) ؛ صَبَرَ الكريمُ فلم يَجْزَع ، وسَلَّمَ طائعاً فلم يُخْدَع ؛ ثم انصرف القومُ على سِلْمٍ ، بأفضَلِ غُنْمٍ ؛ وشُفِيَت الصدور ، وسكنت حَرارةُ النفوس ، ومات كلُّ وَجْد ، وأُصيبَ مَقْتَلُ كلِّ هَجْر ، واتَّصل الحَبل ، وانعَقَدَ الوَصْل . قال : فلو كان أعَدَّ هذا الكلام لِمَشْتَلى قبلَ ذلك بدهر لكان قد أجاد .

وقال أبو فرعون الشاشيّ :

أنا أبو فِرْعَوْنَ فاعْرِفْ كُنْيَتِى حَلَّ أبو عَمْرَةَ وَسْطَ حُجْرَتِى
وحَلَّ نَسْجُ العنكبوتِ بُرْمَتِى أَعْشَبَ تَنُّورِى وقَلَّتْ حِنْطَتِى
وحالَفَ القَمْلُ زَماناً لِحْيَتِى وضَعُفَتْ مِن الهُزالِ ضَرْطَتى
وصار تُبَّانِى(٣) كَفافَ خُصْيَتِى أَيْرُ حِمارٍ فى حِرِ أُمِّ عِيشَتِى

[أبو عَمْرَة : صاحبُ شُرْطة المختارِ بنِ عُبَيْد ، كان لا ينزل بقوم إلا اجْتاحهمْ ، فصار مثلا لكلِّ شُؤْم وشرّ . ويقال أيضاً : إنّ أبا عَمْرة اسمُ الجُوع ، هكذا حدّثنى به أبو الحَسَن البَصرىّ] .

وأنْشَدَ بِشْرُ بنُ هارُونَ فى أبى طاهر :

أبا عَبْدِ الإلٰه وأنتَ حُرٌّ من الأحْرارِ مَنْزُوعُ القِلادَهْ

---

(١) يشير إلى قول مهلهل بن ربيعة :

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تقرع بالذكور

يريد الشاعر بالذكور : السيوف ، وبالبيض : التى تلبس على الرأس فى الحرب . وفى الكلام هنا تورية لا تخفى على ذى فهم .

(٢) تمور ، أى تضطرب .

(٣) التبان : سراويل صغير يستر العورة المغلظة . وكفاف الشىء : مثله . يقول : إن سراويله بمقدار خصيتيه ، يشير إلى فقره وقلة مقدرته على توسيع سراويله .

أعزّ الله القاضي ؛ قل له : ما رأيتَ ؟ يُعَرِّفه[١] ؛ فكفّ الرَّجُلُ ، وأخذَ بيَدِ ولدِه وانصرَف[٢]].

قال : وسمعتُ آخرَ يقول لشاطر[٣] : اُسكُتْ ، فإنَّ نهراً جرى فيه الماء لا بدّ أنْ يعودَ إليه . فقال له الآخَر : حتى يعود إليه الماء [تكون] قد ماتَتْ ضَفادِعُه .

ومن كلام الشُّطّار : أنا البَغْلُ الحَرُون ، والجَمَل الهائج ، أنا الفيل المُغْتَلِم لو كلّمني عدُوِّى لقَدْتُ شَعْر أنفِه إلى شعرِ اُستِه حتى يَشَمّ فُساءه ، كأنّه القُنْفُذَة .

وقال بعضُ القُصّاص : في النَّبيذ شيءٌ من الجنّة (الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى أذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ) والنبيذ يُذْهِبُ الحزَن .

قال[٤] وسمعتُ ماجنةً تقول : ضُرّ وسُرّ ، وقُدْ وازْقُدْ ، واطِّرِحْ واقتَرِحْ .

قال ابن أبي طاهر : دعا مُرَّةُ قوماً وأمر جاريتَه أن تبخِّرَهم ، فأدخلتْ يدها في ثوب بعضهم فوجدتْ أيْرَه قائما ، فجعلت تَمرُسُه وتلعَبُ به وأطالت ؛ فقال مولاها : أيْشٍ آخرُ هذا العُود ؟ أما اُحترَق ؟ قالت : يا مولاى ، هو عُقْدَة .

قال مَزْيَد : كان الرجل فيما مضى إذا عَشِقَ الجارية راسَلَها سنةً ، ثم رضِيَ أنْ يَمضَغَ العِلْكَ الّذى تَمضَغُه ، ثم إذا تلاقَيا تحدّثا وتَناشَدا الأشعار ، فصار الرجلُ اليومَ إذا عشِقَ الجارية لم يكن له هَمٌّ إلا أنْ يرْفعَ رِجلَها كأنّه أشهَدَ على نِكاحِها أبا هُرَيْرة .

(١) يعرفه ، أى يعرف ما رأى ، أى يذكر العلامات التى رآها فى هذا الموضع .

(٢) يلاحظ أن آخر هذه القصة وكثيراً من ألفاظها مطموس الحروف فى نسخة (ب) ؛ وهى التى وردت فيها وحدها ، فلتراجع فى هامش ورقة ٢١٠ من هذه النسخة .

(٣) الشاطر ، هو من أعيا أهله خبثا .

(٤) يلاحظ أنه لم يذكر هنا اسم القائل ؛ فلعله سقط من الناسخ إذ لم يسبق له ذكر .

سَــأَلْتُكَ بالإلهِ لتُخبِرَنّى أَجَهْلُكَ مُستَفادٌ أَمْ وِلادَهْ ؟
فإن يَكُ فيك مولوداً فعُــذْرٌ وإن يك حادِثاً لك باْستِفادَهْ
فوا عجباً يزيدُ النــاسُ فضلًا وأنتَ تَزيدُ نَقْصًا بالزِّيادهْ !

حَكى الصُّولى : حدَّثَنا ميمون بنُ مِهْرانَ قال : كانَ مَعنا مخنَّثٌ يلقَّب مِشْمِشَةَ — وكان أُمِّيًا — فـكَتب بحَضْرته رجُلٌ إلى صَديق له كتاباً ، فقال المخنّث : اُكتب إليه : مِشْمِشةُ يقْرأ عليك السلام ؛ فقال : قد فعلتُ — وما كان فعَــل — فقال : أرِنى ؛ فقال : هذا اُسمُك ؛ فقال : هيهات ، اسمى فى الـكتاب شِبْهُ داخلِ الأُذُن ، فعجِبْنا مِنْ جَوْدة تشْبيهه .

قال نضلة : مرَرْت بكنَّاسيْنِ أحدُهما فى البئرِ والآخرُ على رأْسِ البئر ، وإذا ضَجَّة ، فقال الذى فى البئر : ما الخبر ؟ فقال : قُبِضَ على علىِّ بن عيسى ؟ فقال : مَنْ أقعَدوا بدَله ؟ قال : ابنَ الفُرات ؛ قال : قاتلهم الله ، أخذوا المصْحفَ ووَضَعوا بدلَه الطّنْبور .

[كتب أبو العيناء إلى ابن مكرّم : قد أصبْتُ لك غلاماً من بنى ناعظ ، ثم من بنى ناشِرَة ، ثم من بنى نَهْد . فـكتب إليه : اُئْتِنا بمــا تعدنا إن كنتَ من الصادقين .

وقَدِمَ رجلٌ مع اُمرأة إلى القاضى ومعها طِفْلٌ ، فقالت : هذا اُبنهُ ، فقال الرجل : أعزّ الله القاضىَ ما أعرِفُه ؛ فقال القاضى : اِتّقِ الله فإنّ النبىَّ صلّى الله عليه وسلّم يقول : الولَدُ للفِراش ، وللعاهِرِ الحَجَر ، فهذا وأُمُّه على فراشك ؛ قال الرجل : ما تَنايَكْنا إلّا فى الأُست ، فمِن أين لى وَلَد ؟ فقالت المرأة :

قال ابن سيرين : كانوا يَعشَقون من غير ريبة ، فكان لا يُسْتَنْكَرُ من الرّجُل أن يجىء فيحدِّثَ أهْلَ البيت ثم يذْهَب . قال هشام : ولكنّهم لا يَرْضونَ اليَوْمَ إلاّ بالمواقَعة .

قال الأصمعىّ : قلتُ لأعرابىّ : هل تعرفون العشقَ بالبادية ؟ قال : نعم ، أيكون أحدٌ لا يَعْرفه . قلتُ : فما هو عندكم ؟ قال : القُبْلَة والضّمّة والشّمّة ، قلت : ليس هو هكذا عندنا . قال : وكيف هو ؟ قلت : أن يتخِذَ الرّجُلُ المَرْأَةَ فيُباضِعَها . فقال : قد خَرَجَ إلى طَلَب الوَلد .

قال بِشْرُ بنُ هارون :

إن أبا مُوسَى لَه لِحيَــةٌ تَدْخُلُ فى الجُحْرِ بلا إذْنِ
وصورةٌ فى العين مِثْلُ القذَى ونَغمـةٌ كالوَقْرِ فى الاذْن
كم صَفْعَةٍ صاحَتْ إلى صافِعٍ بالنّعل مِنْ أخْدَعِـه : خُذْنِى

وقال لنا أبو يوسف : قال جحظة : حضرتُ مجلساً فيه جماعةٌ من وُجوه الكُتّاب ، وعندنا قَيْنَةٌ مُحْسِنَةٌ حاضِرَةُ النادرة ، فقال لها بعضُهم : بحياتى عليك غنّى لى :

لستَ مِنّى ولستُ مِنْكَ فَدَعْنِى وامْضِ عَنِّى مُصَاحَبًا بِسَلاَمِ

فقالت : أهكذا كان أبُوكَ يغنّيك ؟ فأخْجَلَتْه .

اشترى مَدينىٌّ رُطَبًا ، فأخْرَج صاحِبُ الرُّطَب كَيْلَجَةً صغيرةً ليَكِيلَ بها ، فقال المدينىّ : والله لو كِلْتَ بها حَسَنات ما قَبِلْتُها .

سئل أبو عُمارةَ قاضى الكوفة : أىُّ بنيك أثقل ؟ قال : ما فيهم بَعْدَ الكبيرِ أثقَلُ من الصَّغير إلاّ الأوْسَط .

اجتَمَعَ جماعةٌ عند جامعٍ الصَّيْدَنانيّ ، فقال أحدهم : ليس للمخمور أنفعُ من سَلْحِه ، فقال جامع : أخذتَها واللهِ مِنْ فَمِي .

قال رجل لرؤبة : أتَهْمِزُ الخُرْأ ؟ قال : بإصْبَعِكَ يا بن الخبيثة .

وقفَ أعْرَابيٌّ على قوم يُسائلُهم ، فقال لأحَدِهِم : ما أسْمُك ؟ قال : مانع ؛ وقال للآخَر : ما أسْمُك ؟ قال : مُحْرِز ؛ وقال للآخَر : ما أسْمُك ؟ قال : حافظ ؛ قال : قبَّحكم الله ، ما أظن الأقفال إلا من أسمائِكمْ .

[من كلام العامّة : « مَنارةُ الإسكندريّة عندكَ خَشْخاشة فارغة] ......(١)

قال جَحْظة : قرأتُ على فصٍّ ماجِنَةٍ : ليلة عُرْسِي ؛ ثقبوا بالأيْرِ كُسِّي . وعلى فصٍّ ماجِنَةٍ أخرى ؛ السَّحْقُ أخفَى والنَّيْكُ أشْفَى .

وقال جُحا لأبي مسلم صاحب الدعوة : إني نَذَرْتُ إنْ رأيتُك أن آخُذَ منك ألفَ درهم . فقال : رأيت أصحاب النذور يُعْطون لا يأخُذون ، وأمرَ له بها(٢) .

قال السَّرِيّ : رأيت المُخنَّث الّذي يعرف بالغريب(٣) ، وإنسانٌ من العامة قد آذاه وطال ذلك ، فالتفتَ إليه وقال له : يا مشقوق ؛ نَعْلُك زائفة ، وقميصُك مَقْرُون الحاجبين ، وإزارُك صَدَفُ أزرق ، وأنت تَتَلاهَى بأولاد الملوك والأمراء . قال السَّرِيّ : فخجل العامّيّ ومَرّ ، فقلت له : فَسِّرْ لي هذا الغَريب . فقال : اِمْضِ إلى ثَعلَب . فقلت : ليس هذا من عَمَله ؛ فسِّرْهُ لي . قال : النعل الزائفة(٤) [للتي

---

(١) موضع هذه النقط في « ب » كلام مطموس لم نستطع قراءته . فليراجع في هامش ورقة ٢١١ من النسخة المذكورة .

(٢) في « ب » بألف درهم .

(٣) بالغريب ، أي بالغريب من الألفاظ . هذا مايظهر لنا من سياق القصة ، أو لعله لقبه .

(٤) لعل ذلك مأخوذ من زافت الحمامة تزوف إذا سحبت ذنبها على الأرض ونشرت جناحيها . والذي في كلتا النسختين : النعل الرافه ؛ ولم نجد له معنى فيما راجعناه من الكتب ؛ فلعل الصواب ما أثبتنا .

تجرُف الترابَ جَرْفاً ، والقميص المقرون ، هو الخلَقَ] الذى فى كَتِفيه رقعتان أجوَدُ منه ، فهما تُفْصِحانِ بَياناً ، والإزار صدفٌ أزرق ، أى مخرَّقٌ مُفتَّت .
فقلتُ : فقولُك : يامشقوق ؟ قال : قَطيعُ الظَّهْر .

قيل للشَّعبِىّ : أيجوز أن يصلَّى فى البِيعة ؟ قال : نعم . ويجوز أن يُخْرَأَ فيها .

وقال سعيد بنُ جُبَيْر : القُبْلَة رسولُ الجماع .

وقال الرشيد للجمّاز : كيف مائدة محمد بن يحيى ، يَعْنِى البَرْمكىّ . قال : شِبْرٌ فى شِبْر ؛ وصَحْفَتُه من قِشر الخَشْخاش ، وبين الرَّغيف والرغيفِ مَضْرِبُ كُرَة ؛ وبينَ اللَّوْن واللَّوْن فَتْرَةُ نَبِىّ . قال : فمن يحضُرها ؟ قال : الكِرامُ الكاتِبُون ؛ فضحك وقال : لَحاكَ اللهُ من رَجُل .

قال نَضْلة : دخَلْتُ ساقيةً فى الكَرْخ فتوَضَّأتُ ؛ فلما خرجتُ تعلَّق السَّقَّاء بى وقال : هاتِ قطعة ؛ فضَرَطتُ ضَرْطةً وقلتُ : خَلِّ الآنَ سبيلى فقد نقَضْتُ وُضوئى ؛ فضحك وخَلَّانى .

وَعدَ رجُلٌ بعضَ إخوانه أن يُهْدِىَ إليه بغلًا ؛ فطالَ مَطْلُهُ ، فأخذ قارورة وبالَ فيها وجاء إلى الطَّبيب وقال : انظر إلى هذا الماء ، هل يُهدِى إلىَّ بعضُ إخوانى بغلًا .

حدثنا ابنُ الخَلَّال البصرىّ قال : سمعتُ ابنَ اليعقوبىّ يقول : رأيتُ على باب المِرْبَد خالداً الكاتِبَ وهو ينادِى : يا مَعشَرَ الظُّرفاء ، والمتخلِّقين بالوَفاء ؛ أليس من العَجب العجيب ، والنادر الغريب ، أنّ شِعْرى يُزْنَى به ويُلاطُ منذ أربعين سنةً وأنا أطلب درهما فلا أُعْطَى ، ثم أنشأ يقول :

أُحْرَمُ منكمْ بما أقولُ وقد نالَ به العاشقونَ مَنْ عَشِقوا
صِرْتُ كأنّى ذُبالةٌ نُصِبَتْ تُضِىءُ للنّاس وهى تحترِقُ

وسمعتُ الماجِنَ المعروفَ بالغُراب يقول : ويلَكَ أيْش فى ذا ؟ لا تختلِط الحِنْطةُ بالشَّعير ، أو يُصْنَعُ الباذنجان قرْعاً ، أو يتحوَّل الفُجْلُ إلى الباقِلاء ، ويصير الخرْنوب إلى الأرَنْدَج(١) .

وسمعتُ دَجاجةَ المخنَّثَ يقول لآخَر : إنما أنتَ بيتٌ بلا باب ، وقدَمٌ بلا ساق ، وأعمى بلا عصا ، ونارٌ بلا حَطَب ، ونهرٌ بلا معْبَر ، وحائطٌ بلا سَقْف .

وشتَم آخرَ فقال : يارأسَ الأفعى ، ويا عَصا المُكارى ، ويابُرْنُسَ الجاثَليق(٢) ، يا كَوْدَنَ(٣) القَصّار ، يا بَيْرَمَ(٤) النجّار ؛ يا ناقوسَ النصارَى ؛ ياذَرور العيْن ، يا تَخْتَ(٥) الثياب ، يا طعْنَ الرُّمْحِ فى التُّرْس ؛ يا مغْرفَةَ القُدور ، ومِكْنَسةَ الدُّور ؛ لا تُبالِى أينَ وُضِعْت ؟ ولا أىَّ جُحْرٍ دخَلْت ؟ ولا فى أىِّ خانٍ نزَلْت ، ولا فى أىِّ حمّام عَمِلت ؛ إن لم تكن فى الكُوَّة مِتْرَساً فتح اللصوصُ البابَ ؛ يا رَحًى على رَحى ؛ ووِعاء فى وِعاء ، وغِطاء على غِطاء ، وداء بلا دواء ؛ وعمًى على عَمى ؛ وياجُهْدَ البَلاء ؛ ويا سَطْحًا بلا ميزاب ، ويا عوداً بلا مِضْراب ، ويا فماً بلا ناب ، ويا سِكِّيناً بلا نِصاب ، ويا رَعْداً بلا سَحاب ، ويا كُوَّةً بلا باب ؛ ويا قميصاً بلا مِئْزَر ، ويا جسْرًا بلا نَهَر ، ويا قرًّا على قُرّ ؛ ويا شطَّ الصَّراة(٦)

(١) هذه الكلمة مهملة الحروف من النقط فى الأصل ؛ وقد أثبتناها على هذا الوجه لاتفاق الخرنوب والأرندج فى اللون . والأرندج : الجلد الأسود ؛ وهو معرّب .

(٢) الجاثليق : من رؤساء النصارى ، معروف .

(٣) الكودن : البغل .

(٤) بيرم النجار : عتلته .

(٥) تخت الثياب : ما تصان فيه .

(٦) الصراة : نهر بالعراق .

ويا قَصْرًا بلا مِسناه[١] ويا وَرَق الـكَمَاه[٢] ، يا مَطْبخاً[٣] بلا أفواه[٤] ؛ يا ذَنَب الفار ، يا قِدْرًا بلا أبْزار ، يا رَأْسَ الطُّومار ، يا رسولا بلا أخْبار ؛ يا خَيْطَ البوَارِى[٥] ، يا رَحًى فى صَحارِى ، يا طاقاتٍ بلا سَوارِى .

دخل أبو نواس على عِنانَ جاريةِ الناطِفِىِّ فقال لها :

لو رَأى فى البَيْتِ جُحْرًا　　لنَزَا حتى يمـــوتا[٦]
أو رَأى فى البَيْت ثَقْبًا　　لَتحوَّلْ[٧] عَنْـكَبوتا

فأجابته :

زَوِّجوا هـذا بألفٍ　　وأظُنُّ الألْفَ تُوتَا
قَبْلَ أنْ يَنْقَلِبَ الدَّا　　ءُ فـلا يَأْتى ويُؤتَى

فقال — أدام اللهُ دَوْلتَه ، و بَسَطَ لَدَيْهِ نِعْمَتَه — قَدِّم هذا الفَنَّ على غيره ، وما ظننتُ أنّ هذا يَطَّرد فى مجلسٍ واحد ، وربما عِيبَ هذا النَّمطُ كلَّ العَيْب ، وذلِك ظُلْم ، لأن النفس تَحْتاج إلى بِشْر . وقد بَلغنى أنَّ ابْنَ عبّاس كان يقول فى مجلسه بعد الخَوْضِ فى الـكتاب والسُّنّة والفقه والمسائل : أَحْمِضُوا ، وما أراه أراد بذلك إلا لتعديل النفس لئلاّ يَلْحَقَها كَلالُ الجِدّ ، ولتَقْتَبِسَ نشاطاً فى المُسْتَأنَف ، ولتستَعِدَّ لقَبُول ما يَرِدُ عليها فتَسمَعَ ؛ والسلام .

---

(١) المسناة : المرقاة ، من السناء بالمد ، وهو العلوّ والرفعة .
(٢) الـكماة مخففة : الـكمأة بالهمز .
(٣) فى الأصل . « مصرحا » ؛ وهو تحريف .
(٤) الأفواه : التوابل .
(٥) البوارىّ بتشديد الياء : ضرب من الحصر تعمل من البردى معروفة بمصر إلى اليوم .
(٦) فى كتاب أخبار أبى نواس لابن منظور : اجتمع أبو نواس مع عنان فأقبل عليها وقال :
لو رأى فى السقف صدعا　　لنزا حتى يمـــوتا
(٧) كذا وردت هذه الكلمة فى الأصل . ولا يخفى أن تسكين الفعل لضرورة الشعر .

الليلة التاسعة عشرة

ورَسَم بجَمع كلماتٍ بَوارِع ، قِصارٍ جوامع ، فكتبتُ إليه أشياء كنتُ أسمعُها من أفواه أهل العلم والأدب على مَرِّ الأيام فى السَّفَرِ والحَضَر ، وفيها قَرْعٌ للحِسّ ، وتنبيهٌ للعقْل ، وإمْتاعٌ للرُّوح ، ومعونةٌ على استفادَة اليَقَظة ، وانتفاعٌ فى المقامات المختلفة ، وتمثُّلٌ للتجارب المخلَّفة ؛ وامتثالٌ للأحوالِ المُستأنَفة . (١)

من ذلك :

« الحمد لله » مِفْتاحُ المذاهب . البِرُّ يَسْتَعْبِد الحُرّ . القَناعَةُ عِزُّ المُعْسِر . الصَّدَقَةُ كَنْزُ المُوسِر . ما انقضَتْ ساعةٌ مِنْ أَمْسِك إلاَّ ببَضْعَةٍ مِن نَفْسِك . دِرْهَمٌ ينفع خيرٌ من دِينارٍ يضرّ . من سَرّه الفَساد ، ساءه المَعاد . الشقىُّ مَنْ جَمَع لغَيْره فضَنَّ على نَفْسه بخَيْره . زِدْ مِن طُولِ أمَلِك فى قِصَرِ عَمَلِك . لا يَغُرَّنَّكَ صِحَّةُ نَفْسِك ، وسلامَةُ أَمْسِك ، فَمُدَّةُ العمر قليلة ، وصحةُ النَّفْس مستحيلة . من لم يَعْتَبِر بالأيَّام ، لم يَنْزَجِرْ بالمَلام . من اُسْتَغْنَى بالله عن الناس ، أَمِنَ مِنْ عَوارِض الإفلاس . مَنْ ذَكَرَ المَنِيَّة ، نَسِيَ الأُمْنِيَّة . البخيلُ حارسُ نِعْمَته ، وخازنُ وَرثَته . لكلِّ امرىءٍ مِنْ دُنْياه ، ما يُعينهُ على عِمارَةِ أُخْراه . مَن اُرْتَدَى بالكَفاف ، اكْتَسَى بالعَفاف . لا تَخْدَعَنَّكَ الدّنيا بخَدائعها ، ولا تَفْتِنَنَّكَ بوَدائعها . رُبَّ حُجَّة ، تأتى على مُهْجَة ؛ ورُبَّ فُرْصَة ، تُؤدِّى إلى غُصَّة . كم مِنْ دَم ، سَفَكَه فَم . كم إنسان ، أهلَكَه لِسان . رُبَّ حَرْف ، أدّى إلى حَتْف . لا تُفْرِط ، فتَسْقُط . الزَمِ الصَّمْت ، وأَخْفِ الصَّوْت . مَن حَسُنَتْ مَساعِيه ، طابَتْ مَراعيه . مَن أَعَزَّ فَلْسه ، أَذَلَّ نَفْسَه . مَن طال

عُدْوَانُه ، زال سُلْطانُه . مَنْ لَمْ يَسْتَظْهِر باليَقَظَة ، لم يَنْتَفِع بالحَفَظة . مَن استَهْدَى الأَعْمَى عَمِىَ عن الهُدَى . من اغْتَرَّ بِمحالِه ، قَصَّرَ فى احتياله . زوال الدُّوَل ، باصطناع السَّفَل . من تَرَكَ ما يَعْنيه ، دُفِعَ إلى ما لاَ يَعْنيه . ظُلْمُ العُمَّال ، مِن ظُلْمَة الأعْمَال . مَن استشار الجاهل ضَلّ ، وَمَنْ جَهِلَ مَوْضِعَ قَدَمِهِ زَلّ . لا يَغُرَّنَّكَ طُولُ القامَة ، مع قِصَر الاُستقامة ، فإنّ الذَّرَّةَ مع صِغَرِها ، أنفعَ من الصَّخْرَة على كِبَرها . تَجَرَّعْ مِنْ عَدُوِّك الغُصَّة ، إن لم تَنَلْ منه الفُرْصة ، فإذا وجدتَها فانتهزْها قبل أن يَفوتك الدَّرَك ، أو يصيبَك الفلَك ، فإنّ الدّنيا دُوَلٌ تَبْنِيها الأَقْدار ، ويَهْدِمُها الليلُ والنّهار . من زَرَعَ الإِحَن ، حَصَدَ المِحَن . من بَعُدَ مَطْمَعُه ، قرُب مَصْرَعُه . الثَّعْلَبُ فى إقْبال جَدِّه ، يَغْلِبُ الأسَدَ فى استقبال شَدِّه . رُبَّ عطَب ، تحتَ طَلَب . اللِّسان ، رِقُّ الإنسان . من ثمرة الإحسان ، كَثْرَةُ الإخوان ، من سأل ما لاَ يَجِب ، أُجيب بما لا يُحِبّ ، وأنشدتُ :

وليس لنا عَيْبٌ سِوَى أنَّ جُودَنا ... أَضَرَّ بنا والبأسَ من كل جانبِ
فأَفْنَى النَّدَى أموالَنا غيرَ ظالمٍ ... وأَفْنَى الرَّدَى أعمارَنا غيرَ عائبِ
أبُونَا أبٌ لو كان للنَّاس كُلِّهمْ ... أبٌ مِثْلُهُ أغْنَاهُمْ بالمَناقب

(٢) قال حميد بن الصَّيْمَرِىّ لابنه : اِصحَب السُّلطانَ بشدّة التَّوَقِّ كما تَصْحَب السَّبُعَ الضَّارِىَ والفيلَ المُغْتَلِمَ والأفعى القاتِلة ؛ وأصحب الصَّديق بلين الجانب والتواضُع ؛ وأصحَب العدوّ بالإعذارِ إليه والحجّةِ فيما بينَك وبينه ؛ وأصحب العامّة بالبِرّ والبِشْر واللطفِ باللِّسان .

وَقَّع عبدُ الحميد الكاتبُ على ظهرِ كتاب : يا هـذا ، لو جعلتَ ما تحمله القراطيس مِن الكلام مالاً حَوَيت جَمالًا وحُزتَ كمالًا .

ووقَّع السَّفاحُ مرّة : ما أقبحَ بنا أن تكون الدنيا لنا وحاشيتنا خارجون منها ، فعجِّل أرزاقَهم ، وزِد فيها على قَدْرِ كلٍّ رجُل منهم إن شاء الله .

قال الحسنُ بنُ عليّ : عُنوانُ الشرَف ، حُسنُ الخَلَف .

وقال جعفر بن محمد — عليهما السلام — : إن لم تَجْفُ ، فقلّما تَصْفُو .

وقال أعرابي : النخلة جِذْعُها نَماء[١] ، وليفُها رِشاء ، وكَرَبُها[٢] صِلاء ، وسَعَفُها ضياء[٣] ، وحَمْلُها غِذاء .

وقال الأصمعي : سمعتُ كَسَّاحاً[٤] يقول لغلام له : ألم أضعْ إزارَك ، ألم أصنعْ عُودَ مِجرَفَتِك ؟ ألم أجعلْك كسَّاحاً على حِمارَين ؟

وُجِدَ كتابٌ باليمن فيه : أنا فلانةُ بنتُ فلان التُّبَّعيّ ، كنتُ آكُل البَقل الرَّطْب من الهند وأنا باليمن ، ثم جُعْنا حتى اشتَرَينا مَكُّوكَ[٥] بُرٍّ بمَكُّوكِ دُرّ ، مِنْ يوسفَ بنِ يعقوبَ بمصر ، فمن رآنا فلا يغترّ بالدُّنيا .

وقال عليُّ بنُ أبي طالب — كرَّم الله وجهه — لرجل من بنى تغْلِبَ يومَ صِفِّين : أآثَرْتُم مُعاوِيةَ ؟ فقال : ما آثَرْناه ، ولكنّا آثَرْنا القَسْبَ[٦] الأصفر ، والبُرَّ الأحمر ، والزَّيتَ الأخضر .

---

(١) فى الأصل : «ماء» ؛ والنون ساقطة من الناسخ .
(٢) الكرب : أصول السعف الغلاظ العراض .
(٣) يريد أن نار السعف يعلو لهيبها ويسطع ، فهى صالحة للاستضاءة دون الاصطلاء .
(٤) الكسّاح : الكنّاس ؛ ومن ينظف البئر والنهر ونحوهما
(٥) المكّوك : مكيال يسع صاعا ونصفاً أو نصف رطل إلى ثمان أواق .
(٦) القسب : التمر اليابس .

قيل للحسن بن علىٍّ — رضى الله عنه — لمّا صالح مُعاوية : ياعَارَ المؤمنين . فقال : العارُ خيرٌ من النارِ .

نظر الحَجَّاجُ يوْماً على المائدة إلى رجُل وَجَأَ عُنُقَ رجُل آخر ، فدعا بهما ، فقال للواجِىْ: عَلامَ صنَعْتَ ؟ فقال : غَصَّ بعَظْمٍ فخفْتُ أن يقْتُلَه ، فوجأتُ عنقه فألقاه ؛ فسأل الآخرَ فقال : صدَق ؛ فدعا بالطبَّاخ فقال له : أتدَع العِظامَ فى طعامِك حتى يغَصَّ بها ؟ فقال : إنَّ الطعام كثير ، وربما وَقع العَظْمُ فى المَرَق فلا يُزال . قال : تَصُب المَرَق على المَناخل . فكان يَفعل[1] .

قال سَلَمَة بنُ المُحبِّق[2] : شهدتُ فتحَ الأُبُلَّة ، فوقع فى سَهْمِى قِدْرُ نحاس ، فنَظرْتُ فإذا هى ذهبٌ فيها ثمانون ألف مثقال ، فكتبتُ فى ذلك إلى عُمَر ، فأجابَ بأن يُحلَّف سلَمَةُ بأنه أخذَها يومَ أَخَذَها وهى عنده ، فإن حلَف سُلِّمتْ إليه ، وإلا قُسِمتْ بين المسلمين ، قال : فحلفتُ فسُلِّمتْ إلىَّ ، فأصول أموالِنا اليومَ منها .

قال بعض الحكماء : لا يَصْبِر على المُروءةِ إلَّا ذو طبيعةٍ كريمة .

(٣)
. . . .

أصابَ عبدُ الرحمن بن مدين — وكان رجُلَ صِدْق بخراسان — مالًا عظيما فجهَّز سبعين مملوكا بدَوابِّهم وأسلِحتهم إلى هشام بنِ عبد الملك ، ثم أصبحوا معه

(١) عبارة الأصل : « نصيب المرق على المتاخر فكان نفعك » . وفيها تحريف ظاهر . والصواب ما أثبتنا .

(٢) فى الأصل : «سلمة بن المحبى» . وهو تحريف . والتصويب عن الإصابة والقاموس . وضبط فى القاموس بكسر الباء المشددة ، وفى الإصابة بفتحها .

(٣) موضع هذه النقط عبارة لابن السماك مهملة أكثر حروفها من النقط ، فلم نستطع تحقيق ألفاظها ، ونحن نثبتها هنا كما وردت فى النسخة المأخوذة بالتصوير الشمسى المحفوظة بدار الكتب المصرية (تحت رقم ١١٢١٥ ز) فى ص ٣٨٧ ونصها : « وقال ابن السماك لوخرج رجل فى طلب السهان إلى الكوفة الدنه والدارفى لعدوبه بقاياه كان خفيفا على إخوانه لعزبه »

يومَ الرَّحيل ، فلما اْستوى بهم الطريقُ نظَر إليهم فقال : ما ينْبغي لرجُل أن يتقرَّب بهؤلاء إلى غير الله . ثم قال : اْذهَبوا أنتمْ أحرارٌ ، وما معكم لكم .

وقال أعرابيٌّ : مَنْ قَبِلَ صِلتَك فقد باعَك مُروءتَه ، وأذَلَّ لقَدْرِك عِزَّه .

كتبَ زِيادُ بنُ عبدِ الله الحارثيّ إلى المهديّ :

أنا ناديتُ عَفْوَكَ من قريبٍ ... كما ناديْتُ سُخْطَكَ مِنْ بعيدِ
وإنْ عاقبْتَني فلسوءِ فِعلي ... وما ظَلَمتْ عُقوبةُ مُستَقيدِ
وإن تَصْفَحْ فإحسانٌ جَديدٌ ... عَطفْتَ به على شُكْرٍ جَديد

وقال رجل لحمد بن نحرير : أوْصِني ؛ فقال : اسْمَع ولا تتكلَّم ، وأعرِف ولا تُعرَّف ، وأجلسْ إلى غيْرك ولا تُجْلِسْه إليك .

وقال رجل لابن أسيد[1] القاضي : إنّ أمّي تريد أن توصِيَ فتحضُرَ وتكْتُبَ ؛ (٣)
فقال : وهل بلغتْ مَبْلغَ النِّساء ؟

ودخل صاحب المَظالِم بالبَصرَة على رجُلٍ مُبَرْسَمٍ[2] وعنده طبيبٌ يداويه ، فأقبَلَ على الطبيب وأهلِ المريض ، وقال : ليس دواءُ المُبَرْسَم إلا الموتُ حتى تَقِلَّ حرارَةُ صَدْره ، ثم حينئذ يعالَج بالأدوية الباردة حتى يَسْتَبِلَّ .

واْجتازَ به بائعُ دُرّاجٍ فقال : بكم تَبيعُ الدُّرّاجَة ؟ فقال : بدرْهم ؛ فقال له : أحسِنْ . قال : كذا بعْتُ . قال : نأخذُ منْك اثنتين بثلاثة . قال : هما لك . قال : يا غلامُ خُذْ منه ، فإنه يُسَهِّلُ البَيْع .

ودخل حَجّاج بنُ هارون على نجاحٍ الكاتب ، فذهب ليُقبِّل رأسَه ؛ فقال

(١) يلاحظ أن هذه الطرفة والست التي بعدها كان أليق بها جميعا باب المجون السابق .
(٢) مبرسم ، أي به برسام ، وهو علّة يهذي فيها .

له : لا تفعل ، فإن رأسى مملوء بالدُّهن ، فقال : والله لو أنَّ عليه ألفَ رِطْلٍ خَراء لقَبَّلْتُه .

قُدِّم لابن الحَسْحاس سِكْباجةٌ (١) فقال لصديق له : كلْ فإنها أُمُّ القِرى .

وعَزَّى ابنُ الحَسْحاس صديقاً له ماتت أبنَتُه ، فقال : من أنتَ حتى لا تموتَ أبنَتُك البَظْراء ! قد ماتَتْ عائشةُ بنتُ (٢) النبيِّ صلى الله عليه وسلم .

أخذ يعقوبُ بنُ الليثيِّ فى أوَّل أمرِه رجلًا فاستَصْفَاه ، ثم رآه بعدَ زمان ، فقال له : أبا فلان ، كيف أنتَ الساعة ؟ قال له : كما كنتَ أنتَ قديماً . قال وكيفَ كنتُ أنا ؟ قال : كما أنَا الساعة ؛ فأمر له بعشْرَة آلافِ دِرْهم .

(٤) قال ابن المُبارَك : إذا وُضِعَ الطعامُ فقد أُذِن للآكِل .

وقال عمرُ بنُ الخطّاب — رضى الله عنه — إنَّ العرَب لا تَصْلح ببلاد لا تَصْلح بها الإبلُ .

وقال إبراهيم بن السِّنْدِيّ : نظر رجلٌ من قُرَيش إلى صاحب له قد نامَ فى غَداةٍ مِنْ غَدوات الصَّيْف طيِّبَةِ النسيم ، فرَكَضَه برجله وقال : ما لَكَ تنامُ عن الدُّنيا فى أطيَب وَقتها ، نَمْ عنها فى أخْبَثِ حالاتها ، نَمْ فى نِصْف النهار لبُعْدِك عن الليلة الماضية والآتية ، ولأنها راحةٌ لما قبلَها من التَّعب ، وجِمامٌ لما بعدَها من العمَل ، نِمْتَ فى وقت الحوائج ، وتَنَبَّهتَ فى وَقت رُجوع الناس ؛ وقد جاء : "قِيلُوا فإنَّ الشَّياطين لا تَقِيل" .

---

(١) السكباجة : مرق يعمل من اللحم والخلّ .

(٢) يلاحظ أن قوله : « بنت النبي صلى الله عليه وسلم » هو موضع التفكهة بجهل هذا القائل وغفلته .

وقال إبراهيم بنُ السِّنْدِى أيقَظَتْ أعرابيَّـةٌ أولاداً لها صِغاراً قبْل الفَجر فى غَدَوات الرَّبيع وقالت : تنَسَّموا هـذه الأرْواح ، وأستنشِقوا هذا النسيم ، وتفهَّموا هذا النعيم ، فإنه يَشُدُّ من مُنَّتِكم .

ويقال فى الوَصْف : كأنه مِخْراكُ نار ، وكأنه الجأمُ[1] صَدًى .

وإذا وَصَفوه بالقِصَر قالوا : كأنه عُقْدَةُ رِشاً ، وأُبْنَةُ عَصَا . وإذا كان ضعيفاً قالوا : كأنَّهُ قطْعةُ زُبْد ، والمولَّدون يقولون : كأنه أُسْكُرُّجة[2]

قال بعض السَّلَفِ فى دُعائه : اللّهم لا أُحيطُ بنِعَمكَ على فأَعُدَّها ، ولا (٥
أَبْلغُ كُنْهَ واحدةٍ منها فأَحُدَّها .

دَعا عطاءٌ السِّنْدىّ فقال : أعوذُ بك من عذابك الواقع ، الّذى ليس له دافع ، وأسألُكَ من خيرك الواسع ، الّذى ليس له مانع .

ودعا بعض السلف : اللَّهم إنَّ قَلْبِى وناصِيَتِى بيدكَ لم تُمَلِّكنى منهما شيئاً ، وإذْ فَعَلْتَ ذلك فكُنْ أنْتَ وليَّهما ، فاْهدنا سواء السَّبيل .

ودعا بعضُ الصَّالحين : اللَّهم ما كان لى من خَيْرٍ فإنَّكَ قَضَيْتَه وَيَسَّرْتَه وهَدَيْتَه ، فلا حمْدَ لى عليه ؛ وما كان منِّى من سوءٍ فإنّكَ وَعَظْتَ وزَجَرْتَ ونَهَيْتَ فلا عُذْرَ لى فيه ولا حجَّة .

ودعا آخرُ : اللهمَّ إنِّى أعوذُ بك من سُلطان جائر ، ونديمٍ فاجر ، وصديق غادر ، وغريم ماكر ، وقريب مُناكر[3] ، وشريكٍ خائن ، وحليفٍ

(١) الجأم : إناء من فضة .
(٢) اسكرجة : صحفة صغيرة يوضع فيها الكامخ ، وهى فارسية .
(٣) مناكر ، أى محارب .

مائن ، وولدٍ جافٍ ، وخادم هافٍ ، وحاسد مُلافظ ، وجارٍ مُلاحظ ، ورفيقٍ كَسْلان ، وخليلٍ وَسْنان ، و (١) ضعيف ، ومَرْكُوبٍ قطوف (٢) ، وزوجةٍ مبذِّرة ، ودارٍ ضيِّقة .

قال المدائنيّ : قال بعض السَّلف لابنه : اشْحَذْ طَبْعَكَ بالعُيُونِ والفِقَر (٣) وإن قَلَّتْ ، فإن الشجرة لا يَشينُها قِلَّةُ الحَمْل إذا كان ثمرُها نافعاً ، وأُكْلُها ناجعاً .

(٦) وقيل للأَوْزاعى : ما كرامة الضيف ؟ قال : طلاقة الوجه .

قال مجاهد فى قول الله تعالى : (ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ) قال : قِيامُه عليهم بنفسه .

وقال عمر بن عبد العزيز : ليس من المُروءة أن تَسْتَخْدِمَ الضَّيف .

وقال إبراهيم بنُ الجُنيد : كان يقال : أَرْبَعٌ للشَّريف لا يَنْبَغى أن يأْنَف منهن وإن كان أميراً : قيامُه من مجلسه لأبيه ، وخِدْمَتُه لضَيْفه ، وخدْمَتُه للعالم يتعلمُ منه ، وإن سُئِلَ عمَّا لا يَعلم أن يقولَ : لا أَعْلَم .

حاتم كان يقول : العَجَلة من الشَّيطان إلا فى خمسة أشياء ، فإنَّها مِن السنَّة : إطعام الضَّيف إذا حَلَّ ، وتجهيزُ الميِّت ، وتَزْوِيج البِكْرِ (٤) ، وقضاء الدَّيْن ، والتوبةُ من الذَّنْب .

---

(١) هنا بياض بالأصل .
(٢) المركوب القطوف : الضيق الخطو .
(٣) أى بعيون الكلام البليغ وفقره .
(٤) فى رواية : « الكفء » .

وقال : من أطعمَ الضَّيفَ لحماً وخُبزَ حِنطَة وماءً بارداً فقد تمَّ الضيافة .

وقال حاتم : المُزَوِّر المُرائى إذا ضاف إنساناً حدَّثه بسخاوة إبراهيم الخليل ، وإذا ضافه إنسانٌ حدَّثه بزُهد عيسى بن مريم .

وقال ميمون بن ميمون : من ضافَ البخيلَ صامَت دابَّتُه ، واستغنى عن الكَنيف ، وأمِنَ التُّخَمة .

وقال بعض السلف الصالح : لأن أجْمَعَ إخوانى على صاعٍ من طَعامٍ أحَبُّ إلىَّ من عِتْقِ رَقَبة .

قال الأعمش : كان الربيعُ بنُ خَيْثم يَصْنَع لنا الخبيص[1] ويقدِّمه ويقول : اللهم اغفِر لأطيَبِهِمْ نفساً ، وأحسَنِهم خُلُقاً ، وأرْحَمِهِمْ جميعاً .

وقال أنَسُ بنُ مالِك : كل بيت لا يدخله الضَّيفُ لا تَدْخُلُه الملائكة .

ولمَّا قرأتُه على الوزير — بلَّغه الله آماله ، وزكَّى أعمالَه ، وخَفَّفَ عن قلبِه أثقالَه — قال : ما علِمتُ أن مثلَ هذا الحَجْمِ يَحْوِى هذه الوَصايا والمُلَح ؟. وهذه الكلماتُ الغُرَر ما فيها ما لا يجبُ أن يُحْفَظ ، والله لكأنها بستان فى زمان الخريف ، لكلِّ عَيْنٍ فيه منظَر ، ولكل يَدٍ منه مَقْطَف ، ولكل فَمٍ منه مَذاق . إذا فرغتَ فأضِفْ لى جزءاً أو جزءين أو ما ساعدَك عليه النشاط ، فإن موقعَها يَحْسُن ، وذِكْرَها يَجْمُل ، وأثَرَها يبقى ، وفائدَتَها تُرْوَى ، وعاقبتَها تُحمَد .

فقلتُ : السمعَ والطاعةَ .

---

(٢) الخبيص : طعام كان يصنع من التمر والسمن .

الليلة العشرون(١)

وقال لى مرّة [أخرى] : أكتب لى جزءاً من الأحاديث الفصيحة المفيدَة . فكتبتُ : قال مالكُ بنُ عُمارةَ اللّخْميّ . كنتُ أجالسُ فى ظِلِّ الكعْبة أيامَ المَوْسِمِ عبدَ الملك بنَ مرْوان وقَبيصةَ بنَ ذُؤَيْب وعُرْوَةَ بنَ الزُّبير ، وكنا نَخوضُ فى الفقْهِ مَرّةً ، وفى الذِّكْرِ مَرّةً ؛ وفى أشعار العرَبِ وآثارِ الناس مرّةً ؛ فكنتُ لا أجِدُ عند أحدٍ منهم ما أجِدُه عنْد عبد الملك بنِ مرْوان من الاتساع فى المعرفة والتصرُّفِ فى فُنون العلم والفصاحة والبلاغة ، وحُسْنِ استماعِه إذا حُدِّثَ ، وحلاوَةِ لَفْظه إذا حَدَّث ؛ نخلوتُ معه ذاتَ ليلة فقلتُ : والله إنى لمَسْرورٌ بك لما أشاهِدُه من كثْرة تصرُّفك وحُسن حَديثك ، وإقبالِك على جَليسك ؛ فقال : إنك إن تَعِش قليلا فستَرَى العيُونَ طامحة إلىّ والأعناقَ قاصدةً نحوى ، فلا عليك أن تُعمِل إلىّ رِكابَك . فلما أفْضَت إليه الخلافة شخَصْتُ أريدُه ، فوافيتُه يومَ جُمُعة وهو يخْطُب الناس ، فتصدَّيت له ، فلما وَقَعَتْ عينُه علىَّ بَسَرَ(٢) فى وجهى ، وأعرَضَ عنّى ، فقلت : لم يُثْبِتْنى معرفةً ولو(٣) عرَفنى ما أظهَر نُكرَة . لكنّنى لم أبْرَح مكانى حتى قُضِيَت الصلاة ودخل ، فلم ألبَث أن خرَج الحاجبُ إلىّ فقال : مالك بن عُمارة ، فقمت ، فأخذ بيَدى وأدْخلنى عليه ، فلما رآنى مدّ يدَه إلىّ وقال : إنّك تراءيْتَ لى فى موضع لم يجُزْ فيه إلا ما رأيتَ من الإعراض والانقباض ؛ فرحباً وأهْلاً [وسهْلاً] ،

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٧ من هذا الجزء .

(٢) فى (ا) « كمر » .

(٣) عبارة (ب) « أو عرفنى وأظهر » الخ .

كيف كنتَ بعدَنا ؟ وكيف كان مَسيرُكَ ؟ قلتُ : بخير ، وعَلَى ما يحبُّه أميرُ المؤمنين . قال : أتذكرُ ما كنتُ قلتُ لك ؟ قلتُ : نعم ، وهو الذى أعمَلَنى إليك ؛ فقال : واللهِ ما هو بميراثٍ أدَّعَيْناه ، [ولا أثَرٍ وَعَيْناه] ، ولكنى أُخبِرُك عن نفسى خِصالا سَمَتْ بها نفسى إلى الموضع الذى تَرَى ، ما لاحَيْتُ ذا وُدٍّ ولا ذا قَرَابة قطّ ، ولا شَمِتُّ بمصيبةِ عَدُوٍّ قطّ ، ولا أعرَضْتُ عن محدِّثٍ حتى يَنْتهى ، ولا قصدتُ كبيرةً من محارِمِ اللهِ متلذِّذًا بها وواثبًا عليها ، وكنتُ من قُرَيش فى بَيْتِها ، ومنْ بَيْتِها فى وَسَطه ، فكنتُ آمُلُ أنْ يَرْفع اللهُ منى ، وقد فَعَل ؛ يا غلام ، بَوِّئه منزلاً فى الدار . فأخَذَ الغلامُ بيَدى وقال : أنطَلِق إلى رَحْلك ؛ فكنتُ فى أخْفض حال ، وأنعم بال ؛ وكان يَسْمعُ كلامى وأسمعُ كلامَه ، فإذا حضَرَ عَشاؤه أو غَدَاؤه أتانى الغلامُ وقال : إن شئتَ صِرْتَ إلى أمير المؤمنين فإنه جالس ، فأمشى بلا حِذاء ولا رِداء فيَرْفَعُ مجْلِسى ، ويُقْبِلُ على محادَثتى ، ويسألُنى عن العِراق مرَّة ، وعن الحجاز مرَّة ، حتى مَضَتْ لى عشرون ليلة . فتغدَّيْتُ عنده يوماً ، فلمَّا تفَرّق الناسُ نَهَضْتُ للقيام ، فقال : على رِسْلِكَ أيُّها الرجل ، أىّ الأمرين أَحَبُّ إليك : المُقام عندنا ، ولك النَّصَفَة فى المعاشَرَة والمجالَسةِ مع المواساة ، أم الشُّخوص ولكَ الحِباء والكَرامة ؟ فقلتُ : فارَقْتُ أهلى ووَلَدى على أَنْ أَزُورَ أميرَ المؤمنين ، فإن أمرَنى اخترْتُ فِناءَه على الأهْل والوَلد ، قال : بل أرَى لك الرُّجوعَ إليهم ، فإنهم مُتَطلِّعون إلى رؤيتك ، فتجدِّدُ بهم عَهْدًا ويجدِّدون بك مِثلَه ، والخِيارُ فى زيارتنا والمقامِ فيهم إليك ، وقد أمَرْنا [لك] بعشرين ألفَ دينار ، وكَسَوْناك وحَمَلْناك ، أتَرانى مَلأْتُ يَدَكَ أبا نَصْر ؟ قلتُ : يا أميرَ المؤمنين ، أراكَ ذاكراً لما رَوَيْتُ[1] عن نَفْسك .

---

(١) فى الأصل : « ورثت » .

قال: أَجَلْ، ولا خيرَ فيمن يَنْسى إذا وَعَد؛ وَدِّعْ إذا شئتَ صَحِبَتْك السلامة.

قال الوزير: ما أحْلَى هـذا الحديث! هاتِ ما بعده، قلتُ: قال يحيى بن
(٢) أبى يَعلَى: لمّا قَدِمَ المالُ من ناحيةِ عمرَ بنِ عبد العزيز — رحمه الله — على أبى بكر بن حَزْم، قَسَمه بين الناس فى المدينة، فأصاب كلُّ إنسان خمسين دينارًا، فدَعَتْنى فاطمةُ بنت الحسين — عليه السلام — فقالت: اُكتُبْ، فكتبتُ: بسم الله الرحمن الرحيم، لعبدِ الله عمرَ أمير المؤمنين من فاطمة بنت الحسين سلامُ [الله] عليك، فإنّى أَحْمَدُ إليك اللهَ الذى لا إلهَ إلاّ هو، أمّا بعد، فأصلَحَ اللهُ أميرَ المؤمنين وأعانَه عَلَى ما تَوَلاّه، وعَصمَ به دِينَه، فإنَّ أميرَ المؤمنين كَتبَ إلى أبى بكر بن حَزْم أن يَقْسِمَ فينا مالاً من الكَتِيبة، ويتحرَّى بذلك ما كان يَصْنَع مَنْ قبلَه من الأئمّة الراشدين المهديِّين، وقد بلَغَنا ذلك، وقَسَمَ فينا، فوَصَل اللهُ أميرَ المؤمنين، وجزاه من والٍ خيرَ ما جَزى أحدًا من الوُلاة، فقد كانت أصابَتْنا جَفْوةٌ، واُحتَجْنا إلى أنْ يُعمَل فينا بالحقّ؛ فأُقسمُ باللهِ يا أميرَ المؤمنين لقد اُختَدَمَ من آلِ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مَن لا خادِمَ له، واُكتَسَى مَن كان عاريا، واُستَقرَّ مَن كان لا يَجِدُ ما يَسْتَقِرُّ [به]. وبعَثَتْ [إليه] رسولا.

قال يحيى: فحدَّثنى الرسولُ قال: قَدِمْتُ الشّامَ[1] عليه، فقرأ كتابَها وإنّه لَيَحْمَدُ اللهَ ويَشْكُره، فأمر لى بعَشَرة دنانير، وبعث إلى فاطمة خَمْسَمائة دينار، وقال: اُستَعينى بها على ما يَعْوزُك، وكتب إليها كتابا يَذْكُرُ فيه فَضْلَها وفَضْلَ أهْلِ بَيْتها، ويَذْكُر ما فَرَض اللهُ لهم من الحق.

(١) فى (١) «العراق»؛ وهو تبديل من الناسخ.

فرقّ الوزير عند هـذا الحديث وقال : أذْكَرتنى أمْرَ العَلَوِيّة ، وأخذ القلم ، واستمدّ من الدواة ، وكَتَب فى التَّذْكِرة شيئا ، ثم أرسـل إلى نقيب العَلَوِيّة العُمَرىّ فى اليوم الثانى بألف دينار ، حتى تُفَرَّقَ فى آل أبى طالب ، وقال لى : هذا من بركة الحديث .

(٣) ثم قال : كيف تَطَاوَلَ هؤلاء القومُ إلى هذا الأمْرِ مع بُعْدِهِم من رَحِمِ رسولِ الله صلى الله عليه [وآله] وسلم وقُرْبِ بنى هاشم منـه ؟ وكيف حدَّثتْهم أنفُسُهم بذلك ؟ إنَّ عَجَبى من هذا لا يَنْقَضى ، أيْنَ بنو أُميّة وبنو مَرْوَان من هٰذا الحديث مع أحوالهم المشهورة فى الدين والدنيا ؟

فقلت : أيُّها الوزير ، إذا حُقِّق النَّظر واستُشِفّ الأصل[١] لم يكن هذا[٢] عجيبا ، فإنَّ أعجازَ الأمور تاليةٌ لصدورها ، والأسافلَ تاليـةٌ لأعاليها ، ولا يزال الأمرُ خافياً حتى ينـكَشِفَ سبَبُه[٣] فيزول التعجُّب [منه] ، وإنما بَعُدَ هذا على كثير من الناس ، لأنّهم لم يعنَوا به وبتَعَرُّف أوائله والبَحثِ عن غوامِضِه ، ووَضْعِه فى مواضعه ، وذهبوا مَذْهَبَ التعصُّب .

قال : فما الذى خَفِىَ حتى إذا عُرِفَ سَـقَط التَّعجُّب ولَزِم التسليم ؟ فكان من الجواب : لا خِلافَ بين الرُّواة وأصحابِ التاريخ أن النبى صلى الله عليـه وسلم تُوُفِّى وعَتَّابُ بنُ أَسِيدٍ على مكّة ، وخالد بنُ سعيد على صَنْعاء ، وأبو سُفْيان ابن حَرْب على نَجْران ، وأبانُ بن سـعيد بن العاص على البحرين ، وسعيدُ ابن القِشْب الأَزْدِىّ حَلِيفُ بنى أميّة على جُرَش ونحوها ، والمهاجرُ بنُ أبى أميّة

(١) فى (ا) « الأمر » .
(٢) فى (ا) « لم يكن بعيدا عجيباً » .
(٣) فى (ا) « حتى تنكشف نفسه » ؛ وهو تحريف .

المَخْزوميُّ على كِنْدَةَ والصَّدِف ؛ وعمرو بنُ العاص على عُمان ، وعُثمان بن أبى العاص على الطائف . فإذا كان النبى — صلّى الله عليه وسلّم — أسَّسَ هذا الأساس ، وأظهرَ أمرَهُمْ لجميع الناس ؛ كيف لا يَقْوَى ظنُّهم ، ولا يَنْبَسِطُ رَجاؤهم ، ولا يَمتَدُّ(١) فى الولاية أمَلُهُم ؟ وفى مقابلةِ هذا ، كيف لا يَضْعُف طَمَعُ(٢) بنى هاشم ، ولا يَنقَبِض رَجاؤهم ، ولا يَقْصُر أمَلُهُمْ ؟ وهى الدنيا ، والدِّين عارِضٌ فيها ، والعاجلَة محبوبة ، وهذا وما أشْبَهَهُ حَدَّدَ أنيابَهُمْ ، وفَتَحَ أبوابَهم ؛ وأَتْرَعَ كَأْسَهُمْ ، وفَتَلَ أمْرَاسَهُمْ ، وَدَلائِلُ الأُمورِ تَسْبِق ، وتَباشيرُ الخَبرِ تُعرَف .

قال ابن الكلبى : حدَّثنى الحَكَمُ بنُ هِشام الثَّقفىُّ قال : مات عبيد الله ابنُ جَحْشٍ عن أمِّ حبيبةَ بنتِ أبى سُفْيان ، وكانت معه بأَرْضِ الحَبَشة ، فخطَبَها النبىُّ صَلَّى الله عليه وسلّم إلى النَّجاشىّ ، فدعا بالقُرَشيِّينَ فقال : مَنْ أَوْلاكُمْ بأمْرِ هذه المرأة ؟ فقال خالدُ بنُ سعيدِ بنِ العاص : أنا أَوْلاهم بها . قال : فزوِّج نبيَّكم . قال : فزَوَّجه ومَهَر عنه أربعمائة دينار ؛ فكانت أوّلَ امرأة مُهِرتْ أربعمائة دينار ؛ ثمّ حُمِلَتْ إلى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ومعها الحَكَم بنُ أبى العاص ، فجعل النبىُّ صلَّى اللهُ عليه وسلم يُكْثِر النظرَ إليه ، فقيل له : يارسولَ الله ، إنك لتُكثِر النَّظَرَ إلى هذا الشابّ . قال : أليس ابنَ المخزوميّة ؟ قالوا : بلى ؛ قال : إذا بَلَغ بنو هذا أربعينَ رجُلًا كان الأمرُ فيهم ، وكان مروانُ إذا جَرَى بينَه و بينَ مُعَاويةَ كلامٌ قال لمعاوية : واللهِ إنى لأبو عَشَرة ، وأخو عَشَرة ، وعَمُّ عَشَرة ، وما بقِى إلا عشرة حَتى يكونَ الأمرُ فىّ ؛ فيقول معاويةُ بنُ أبى سُفْيان : أخَذَها واللهِ من عَيْنٍ صافيةٍ .

(١) فى (أ) : « يحيذوا » ، وفى (ب) : « يحيد » ؛ وهو تصحيف فى كلتيهما .
(٢) فى (ب) : « أمل » .

فهذا — كما تَسْمَعُ — إن كان حقًّا فلا سبيل إلى رَدِّه ، وإن كان مُفْتَعَلا فقد صارَ داعيةً إلى الأمرِ الّذى وَقَعَ النزاعُ فيه ، وجالَ الخِصامُ عليه .

وهاهنا شىء آخر .

قال القَعْقاع بنُ عمرو : قلتُ لعليّ بن أبى طالب — عليه السلام — : ما حَمَلَكُمْ على خلافِ العباسِ بنِ عبد المطَّلب وَتَرْكِ رَأْيِه ؟ وهذا يَعْنِى به أنّ العباسَ كان قال لعليّ — عليه السلام — فى مرض النّبىّ صلّى الله عليه وسلم : قم بنا إليه لنَسْأَلَه عن هذا الأمر ، فإن كان لنا أشاعَهُ فى النّاس ، وإن كان فى غيرنا وَصَّى فينا ، وكان علىٌّ عليه السلام أَبَى على عمّه العباسِ ولم يُطاوِعْه — قال القعقاع : قال أمير المؤمنين علىّ بنُ أبى طالب — عليه السلام — فى جوابه لى : لو فَعَلْنا ذلك فجعلَها فى غَيْرنا بعد كلامِنا لم نَدْخُلْ فيها أبداً ، فأحببتُ أن أَكُفَّ ، فإنْ جَعَلَها فينا فهو الّذى نريد ، وإنْ جَعَلَها فى غَيرِنا كانَ رَجاءُ مَنْ طَلَبَ ذلك مِنّا مَمْدوداً ، ولم يَنْقَطِع مِنّا ولا من الناس . قال القَعْقاع : فكان الناسُ فى ذلك فرقتين : فرقةٌ تَحزَّب للعباس وتَدِين له ، وفِرْقةٌ تَحزَّب لِعَلِيّ وتدين له . فهذا وما أَشْبَهَه يُضْعِفُ نفوساً ، ويَرْفَعُ رُءوساً ؛ وبعد فهذا البيتُ خُصَّ بالأمرِ الأوّل ، أعنِى الدَّعْوَةَ والنبوّةَ والكتابَ العزيز ، فأما الدنيا فإنها تَزُول من قوم إلى قوم ، وقد رُؤِىَ[1] أبو سُفْيانَ صَخْرُ بن حَرْب وقد وقف على قبر حمزةَ بن عبد المطلب وهو يقول : رحمك الله يا أبا عُمارة ، لقد قاتلتَنا على أمرٍ صار إلينا .

---

(١) كذا فى ب وعبارة ا وقد روى أنه وقف أبو سفيان صخر بن حرب على قبر حمزة بن عبد المطلب وهو يقول .

فإن قال قائل : فقد وصل(١) هـذا الأمرُ بعد مدّةٍ إلى [آل] النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فالجواب : [صَدَقْتَ] ، ولـكن لمّا ضَعُفَ الدِّين وتَحلْحَلَ(٢) رُكْنُه وتداوَلَه الناسُ بالغلَبة والقهر ، فتطاوَلَ له ناسٌ من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعَجَمِ وبقُوّتِهم ونَهضَتِهم وعادَتِهم فى مساوَرَة المُلُوك ، وإزالة الدُّوَل ، وتناوُلِ العِزّ كيف كان ، وما وَصَلَ إلى أَهْلِ العدالة والطهارة والزُّهْدِ والعِبادة والوَرَع والأمانة ، ألا ترى أن الحالَ استحالت عجَما : كِسْرَوِيّةً وقَيْصَرِيّةً ، فأين هذا من حديثِ النبوّة الناطقة ، والإمامة الصادقة ؛ هذا الربيعُ — وهو حاجب المنصور — يَضرِب مَن شَمَّتَ الخليفةَ عند العَطْسة ، فيُشْكَى ذلك إلى أبى جَعْفرٍ المنصور ، فيقول : أصابَ الرجلُ السُّنّةَ وأخطأَ الأدب . وهذا هو الجهل ، كأنّه لا يَعْلَمُ أنّ السنّة أَشْرَفُ من الأدب ، بل الأدبُ كلّه فى السُّنّة ، وهى الجامعةُ للأَدَبِ النبوىّ والأمرِ الإلٰهى ، ولـكن لمـا غلبت عليهم العِزّة(٣) ، ودَخَلت النعرةُ فى آنافهم ، وظهرت الخُنْزُوانةُ(٤) بينَهُم ، سمَّوا آيينَ(٥) العَجَم أدبًا ، وقدّموه على السُّـنّة التى هى ثمرَةُ النبوّة ، هذا إلى غير ذلك من الأمور المعرُوفة ، والأحوال المتعالَمَة المتداوَلة التى لا وَجْهَ لذِكرها ، ولا فائدة لنشرها ، لأنها مقرَّرةٌ فى التاريخ ، ودائرةٌ فى عُرْضِ الحديث .

ولمـا كانت أوائلُ الأمور على ما شرَحْتُ ، وأواسِطُها على ما وَصَفْتُ ، كان من نتائجها هذه الفِتن والمذاهبُ ، والتعصّبُ والإفْرَاطُ ، وما تفاقمَ منها وزاد

(١) فى (ب) : « صار » .
(٢) تحلحل ركنه ، أى تزعزع وزال عن موضعه .
(٣) فى كلتا النسختين « الحريه » ؛ وهو تحريف .
(٤) الخنزوانة : الـكبر .
(٥) آيين العجم : عرفهم وعاداتهم ؛ وهى كلمة فارسية .

ونما وعلا وترَاقَى ، وضاقت الحِيلُ عن تَدارُكه وإصلاحه ، وصارت العامّةُ مع جَهْلِها،تجدُ قُوّةً من خاصّتها مع عِلْمها ، فسُفِكت الدِّماء ، واستُبيح الحريم ، وشُنَّت الغارات ، وخُرِّبت الديارات ، وكثُر الجِـدال ، وطال القِيلُ والقال ، وفَشَا الكذب والمُحال ، وأصبحَ طالبُ الحقِّ حَيْران ، ومحبُّ السلامة مَقْصُوداً بكلِّ لسانٍ وسِنان ، وصار الناسُ أحزاباً فى النِّحَل والأديان ، فهذا نُصَيْرِىّ[١] ، وهذا أشْجَعِىّ[٢] ، وهـذا جارُودِىّ[٣] ، وهذا قَطْعِىّ[٤] ، وهذا جُبّائىّ ، وهذا أشعَرِىّ[٥] ، وهذا خارجىّ ، وهذا شُعَيبِىّ[٦] ، وهذا قَرْمَطِىّ[٧] ، وهذا

(١) النصيرية : فرقة من غلاة الشيعة ، كانوا يؤلهون عليا ، وكان منهم ناس فى زمن على ابن أبى طالب فحَرَّقهم . وينسبون إلى رجل اسمه نصير .

(٢) كذا ورد هذا اللفظ فى (١) وحدها ؛ ولم نجد الأشجعيّة فيما راجعناه من الكتب المؤلفة فى الفرق .

(٣) الجارودية : فرقة من الزيدية نسبت إلى أبى الجارود زياد بن أبى زياد ، ويزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نص على إمامة علىّ بالوصف دون الاسم ، وكفّروا الصحابة لتركهم بيعة على .

(٤) القطعيــة ، ويقال لهم : الاثنا عشرية أيضا ، وذلك لدعواهم أن الإمام المنتظر هو الثانى عشر ، وهؤلاء يسوقون الإمامة من جعفر الصادق إلى ابنه موسى ، ويقطعون بموت موسى ، ويزعمون أن الإمام بعده سبط محمد بن الحسن الذى هو سبط على بن موسى الرضا .

(٥) الجبائية والأشعرية : فرقتان من المتكلمين ، أولاهما تنسب إلى أبى على الجبائى وكانت المعتزلة البصرية على مذهبه ، ثم انتقلوا بعده الى مذهب أبى هاشم ابنه ، وسموا بعد البهشمية ، وثانيتهما تنسب إلى أبى الحسن الأشعرى من أهل السنة .

(٦) الشعيبيّة : فرقة من الخوارج ينسبون إلى رجل منهم اسمه شعيب ، ويقولون فى القدر والاستطاعة والمشيئة قول الخازمية ، وهو موافق لقول أهل السنة فى ذلك .

(٧) القرامط والقرامطة : طائفة مشهورة من الزنادقة أتباع الفلاسفة من الفرس الذين يعتقدون نبوة زرادشت ومزدك ومانى ، وكانوا يبيحون المحرمات ، وكان ابتداء أمرهم فى سنة مائتين وثمان وسبعين . راجع عقد الجمان للعينى فى حوادث هذه السـنة . ومن هذه الطائفة أبو سـعيد الحسن بن بهرام الجنابى ، وهو الذى أظهر مذهبهم ، وكان دقاقا ، فنفى عن بلده جنابة ، فخرج إلى البحرين وأقام بها تاجرا ، وجعل يستميل العرب بها ويدعوهم إلى نحلته حتى استجاب له أهل البحرين وما والاها ، وقتل سنة إحدى وثلاثمائة ، ثم ولى الأمر بعده ابنه أبو طاهر سليمان ، فكان من قتله حجاج بيت الله الحرام ، وانقطاع طريق مكة فى أيامه =

راوَنْدِىٌّ(١) ، وهذا نَجّارِىٌّ(٢) ، وهذا زَعْفَرانىٌّ(٣) ، وهذا قَدَرِىٌّ(٤) ، وهذا جَبْرِىٌّ(٥) ، وهذا لفظىٌّ(٦) ، وهذا مستدْرِكىٌّ(٧) ، وهذا حارِثىٌّ(٨) ، وهذا رافِضِىٌّ ، ومن لا يُحصِى عَدَدَها إلّا اللهُ الذى لا يُعجِزُه شىء ؛ لا جرَمَ شمِتَ اليَهودُ والنَّصارَى والمجوسُ بالمسلمين ، وعابوا وتكلَّموا ، ووَجَدُوا آجُرًّا وجِصًّا فبَنَوا ، وسمعُوا فوق ما تَمَنَّوْا [فروَوْا]

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يزداد الأمر إلا صُعوبة ، ولا الناسُ إلا اتّباعَ هَوًى ، حتى تقومَ الساعةُ على شِرارِ النّاس » . وقال أيضاً : « بدأَ الإسلامُ غريبا ، وسيعود كما بدأ غريبًا ، فطوبى للغُرَباء من أُمَّتِى » .

= بسببه ، والتعدى فى الحرم وانتهاب الكعبة ونقله الحجر الأسود إلى القطيف والأحساء من أرض البحرين، ماقد اشتهر ذكره ، وقد بقى الحجر الأسود عندهم إحدى وعشرين سنة ، ثم رد ببذول بذلت لهم ، وقد استوفى الطبرى وابن الأثير وغيرهما أخبار هذه الطائفة فى كتبهم فارجع إليها ، وانظر معجم البلدان فى الكلام على « جنابة » بتشديد النون وتاج العروس « مادة جنب » .

(١) الراوندية هم أتباع الراوندى أبى الحسين أحمد بن يحيى بن اسحاق من أهل مرو سكن بغداد وكان من متكلمى المعتزلة ، ثم فارقهم وتزندق وألف فى الرد عليهم ؛ ومات سنة ٢٩٨ .

(٢) النجارية : أتباع الحسين بن محمد النجار ، وقد وافقوا أهل السنة فى أصول ، والقدرية فى أصول ، وانفردوا بأصول .

(٣) الزعفرانية : أتباع الزعفرانى الذى كان بالرى ، وهم فرقة من النجارية .

(٤) القدرية : فرقة تنفى القدر عن الله عز وجل وتقول إن العبد مخير فى أفعاله ، وليس للقدر دخل فيها .

(٥) الجبرية : فرقة تثبت القدر لله عز وجل وتقول : إن العبد مجبر على أفعاله ، وليس له اختيار فيها ، وإن أفعاله بمثابة الرعدة والرعشة .

(٦) كذا ورد هذا اللفظ فى كلتا النسختين ؛ ولم نجد فرقة بهذا الاسم ؛ فلعله يريد بها الظاهرية الذين يأخذون بظاهر اللفظ .

(٧) المستدركة : فرقة من النجارية يزعمون أنهم استدركوا ما خفى على أسلافهم .

(٨) الحارثية : فرقة من الإباضية ، ينسبون إلى حارث بن مزيد الإباضى ، وهم الذين قالوا فى باب القدر بمثل قول المعتزلة . وزعموا أيضاً أن الاستطاعة قبل الفعل ؛ وكفَّرهم سائر الإباضية فى ذلك .

وقلتُ لابن الجلّاء الزاهدِ بمكة سنةَ ثلاثٍ وخمسين وثلاثمائة : ما صفةُ هذا الغريب ؟ فقال لى : يا بُنيّ هو الذى يَفِرّ من مدينةٍ إلى مدينة ، ومِنْ قُلّةٍ إلى قُلّة ؛ [ومن بلدٍ إلى بلد]ومن برٍّ إلى بحر ، ومن بحر إلى برّ ، حتى يَسْلَمَ ، وأنّى له بالسلامة مع هٰـذه النيران التى قد طافَتْ بالشرق والغرب ، وأتت على الحَرْث والنَّسل ، فقدّمَتْ[١] كلَّ أفْوَه ، وأسكتَتْ كلَّ ناطق ، وحيّرَتْ كلَّ لبيب ، وأشرَقَتْ كلَّ شارِب ، وأَمَرّتْ على كلِّ طاعم ؛ وإنّ الفِكْر فى هذا الأمر لمُخْتَلسٌ لِلعَقْل[٢] وكارثٌ[٣] للنَّفْس ، ومُحرِقٌ للكَبِد .

فقال الوزير : والله إنّه لكذلك ، وقد نالَ منّى هذا الكلام ، وكَبُر علَيَّ هذا الخَطْبُ ، واللهُ المستعان .

ونظرتُ إليه وقد دَمَعتْ عيْنُه ورَقّ فؤادُه وهو — كما تَعلم — كثيرُ التّألّه ، شديدُ التَّوَقِّى ، يصومُ الأثنين والخميس ، فإذا كان أوّل رجب أصبَح صائماً إلى أولِ يومٍ مِنْ شوال ، وما رأيْنا وزيراً على هذا الدّأْب وبهذه العادة ، لا منافقا ولا مُخْلِصاً[٤] ، وقد قال الله تعالى : (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) تولّاه اللهُ أحسَنَ الوِلاية ، وكفاه أكملَ الكفاية ، إنّه قريب مجيب .

فلمّا رأيتُ دمْعَتَه قلتُ : أيها الوزير ، رُوِى عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حُرِّمت النارُ على عينٍ بكتْ من خَشْيَةِ اللهِ ، [وحُرِّمَت النارُ على عين سهرَتْ فى سبيل الله] وحُرِّمتِ النار على عَيْنٍ غَضَّتْ عن محارِمِ الله » ،

(١) قدّمت ، من الفدامة ، وهى العىّ .
(٢) فى (١) : « الأمر » .
(٣) كارث للنفس : من كرثه الغم إذا اشتد عليه .
(٤) فى ا : « ولا خاصا » ؛ وهو تحريف .

فقال — أحسنَ اللهُ توفيقَه — : هو الهلاكُ إن لم يُنقذ اللهُ بفضله ، ولم يتغمَّدْ بعَفوِه ؛ لو غرقتُ فى البحر كان(١) رجائى فى الخلاص منه أقوى من رجائى فى السلامة مما أنا فيه . قلتُ : إذا علم اللهُ من ضميرك هذه العقيدةَ ألبسَك ثوبَ عفوِه ، وحلّاك بشِعارِ عافيته وولايتِه ، وكفاكَ كيدَ أعدائك ، وعصب برءوسهم ما يريدونه بك (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ)

فقال : اجمع لى جزءاً من رقائق العُبّاد وكلامِهم اللطيف الحُلْو ، فإنّ مراميَهُمْ شريفة ، وسرائرَهم خالصة ، ومواعظَهُمْ رادعة ، وذاك — أظنُّ — للدِّين الغالبِ عليهم ، والتألُّهِ المؤثِّر فيهم ؛ فالصِّدق مَقْرونٌ بمَنْطِقِهم ، والحقُّ مَوْصولٌ بقصْدهم ، ولستُ أجِدُ هذا المعنى فى كلام الفلاسفة ، وذاك — أظنُّ أيضاً — لخوضهم فى حديثِ الطَّبائع والأفلاكِ والآثار وأحداث الزَّمان . قلتُ : أفعل ، فكتبتُ تمامَ ما تقدَّم به ، ثم كتبتُ بعدُ ورَقاتٍ فى حديث النُّسّاك .

(٤) قال عُتْبةُ بنُ المنذر السلميّ : سئل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أيّ الأجَلَين قَضَى موسى — عليه السلام — ؟ فقال : أكثرَهما وأوفاهُما ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنّ موسى — عليه السلام — لما أراد فراقَ شُعَيب أمرَ امرأتَه أن تَسْأَلَ أباها أن يُعطيَها مِن نَتاج غَنَمِه ما يعيشون به ، فأعطاها ما وَضَعَتْ غَنَمُه مِنْ قالبِ(٢) لونِ ذلك العامَ ، فلما وردت الحوضَ وقَفَ موسى بإزاء الحوض فلم تَصْدُرْ منها شاةٌ إلّا ضرَبَ جَنْبَها بعصاهُ ، فوضعت قَوالبَ ألوانٍ كلَّها ووضعَتْ اثنتين أو ثلاثةً كلَّ شاة ، ليس فيهنّ فَشُوشٌ(٣)

(١) فى (ا) : « كاف » ؛ وهو تحريف .
(٢) شاة قالب لون : إذا كانت على غير لون أمها .
(٣) الفشوش : الشاة التى ينفشّ لبنها من غير حسب .

ولاضَبوبٌ(١) ولاثَعولٌ(٢) ولا كَميشَةٌ(٣) تَفوتُ الكفَّ(٤) فإن افتتحتم الشامَ وجدتُم بها بقايا منها ، فاتَّخِذوها ، وهى السامريّة » .

قال جعفرُ بن أبى طالب للنَّجاشىِّ فى حديثٍ : بعث الله [تعالى] رسولا فينا نعرِف صِدْقَه وأَمانَته ، فدعانا إلى الله [لنوحِّدَه] ونعبدَه ونَخلعَ ما كُنّا نَعبُده ، وأمرَنا بصِدْقِ الحديث ، وأداءِ الأمانة ، وصلةِ الرَّحِمِ ، وحُسنِ الجوار ، والكفِّ عن المحارِم والدِّماء ، ونهانا عن الفواحِش وقولِ الزُّور ، وأكلِ مالِ اليتيم ، وقَذْفِ المُحْصَنات .

وقال صاحب التاريخ : وَلَدَتْ لعمر بن الخطاب — رضوان الله عليه — أُمُّ كلثوم بنتُ علىٍّ بن أبى طالب — عليه السلام — زَيْدًا ورُقَيّة ؛ وأُمُّ أُمِّ كلثوم فاطمة بنتُ النبىِّ صلى الله عليه وسلم .

قال أنَسُ بنُ مالك : صلّى الناسُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا تُوُفِّىَ أفْرَادًا لم يَؤُمَّهُمْ عليه أحد .

ولمّا بَلَغ رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثمانِ سِنِين ، هلك عبدُ المُطَّلِب ، وهو شَيْبَةُ أبو الحارث ، وذلك بعد الفيل بثمان سنين ، وتوفِّيت آمنةُ أمّه وهو ابنُ ستِّ سنين بالأَبْواء بين مكّة والمدينة ، كانت قَدِمَت به على أَخْواله من بنى عَدِىِّ بن النجّار تُزِيرُه إيّاهُم ، فماتت وهى راجعة إلى مكّة .

(١) فى القاموس : الضبوب : الدابة تبول وتعدو ؛ والشاة الضيقة الإحليل .
(٢) الثعول : الزائدة الأطباء ، وهى حلمات الضرع .
(٣) الكميشة من الشياه : الصغيرة الضرع التى انكمش ضرعها وتقلص .
(٤) فى (أ) : « بلون الكف » ؛ وهو تحريف . ووردت هذه الكلمة فى (ب) مطموسة الحروف تتعذر قراءتها . وتفوت الكف ، أى لا يمكن القبضُ على ضرعها بالكف لصغره .

الليلة الحادية والعشرون

(١) وسأل مرّة عن المُغَنِّى إذا راسله(١) آخر لِمَ يجب أن يكون أَلَذَّ وأَطْيَب، وأَحْلَى وأَعْذَب؟

فكان من الجواب: أنّ أبا سليمان قال فى جواب هذه المطالب ما يَمنع من اقتضاب قَوْلٍ وتكلُّفِ جواب، ذَكَرَ أنّ المسموع الواحدَ إنما هو بالحِسّ الواحد، وربما كان الحِسُّ الواحدُ أيضا غليظا أو كَدِرا، فلا يكون لنيله(٢) اللذّةَ به(٣) بَسْطٌ ونَشْوٌ ولَذاذَة(٤)، وكذلك [المسموعُ ربّما لم يكن فى غاية الصَّفاء على تمامِ الأداء بالتقطيع] الذى هو نَفَس فى الهواء، فلا تكون أيضا إنالتُه للذّة على التّمام والوفاء، فإذا ثُنِّىَ(٥) المسموعُ — أعْنِى تَوَحَّدَ(٦) النَّغَمُ بالنَّغَم — قَوِىَ الحِسُّ المُدْرِك، فنال مسموعين بالصناعة، ومسموعا واحدا بالطبيعة؛ والحِسّ لا يعشق المُواحَدة(٧) والمُناسَبة والاتّفاق إلّا بعد أن يجدها فى المركّب، كما أن العقلَ لا يعشق إلّا بعد أن ينالها فى فضاء البَسِيط(٨)؛ فكُلَّما قَوِىَ الحسُّ باستعماله، الْتَذَّ صاحبه بقوّته حتى كأنه يَسمع ما لم يَسمع بحِسٍّ أو أكثر، وكما أن الحسّ إذا كان كَلِيلا [كان الذى يناله كليلا]، كذلك الحسّ إذا كان قويّا كان ما يناله قويّا.

---

(١) راسله آخر، أى تابعه فى غنائه مساندة له.

(٢) فى كلتا النسختين: «فلا يكون نيله للذة»؛ وهو تحريف.

(٣) به أى بالمسموع.

(٤) فى كلتا النسختين: «وقسر وولاية» ولا معنى لهاتين اللفظتين هنا؛ فلعل صوابهما ما أثبتناه أو ما يفيد معنييهما.

(٥) فى كلتا النسختين: «فأذن الأنس المسموع»؛ وهو تحريف لا معنى له؛ ولعل صوابه ما أثبتنا أو ما يفيد معناه.

(٦) فى كلتا النسختين: «توجد»؛ وهو تصحيف.

(٧) فى (ب) «المؤاخذة» وفى (أ) «الواحدة»؛ وهو خطأ فى كلتيهما.

(٨) فى (أ) «بقاء النشيط»؛ وهو تحريف.

قال : هـذا كلُّه موهوبٌ للحسّ ، فما للعقل فى ذلك ؟ فإنّا نرى العاقلَ (٢)
تعتريه دَهْشةٌ وأرْيَحيَّة واهتزاز .

قلت : قد أتى على مجموع هذا ومعرفتِه أبو سليمان فى مذا كرتِه لأبن الخمَّار ، وذَكرَ أنّ مِن شأن العقْل التّسكون ، ومن شأن الحِسِّ التهيُّج ، ولهذا يوصف العاقل بالوَقار والسكينة ، ومَنْ دُونَه يوصَفُ بالطَّيْش والعجرَفة ، والإنسان ليس يَجِدُ العقْلَ وِجْدانًا فيلتذُّ به ، وإنما يَعرِفه إمَّا جُملةً وإمّا تفصيلا ؛ أعْني جُملةً بالرسم وتفصيلا بالحَدّ ، ومع ذلك يَشْتاقُ إلى العقل ، ويتمنّى أن يناله ضرْبًا من النَّيْل ويَجِدَه نوعا من الوِجدان ، فلما أبرزَتِ الطبيعةُ الموسيقِى فى عرضِ الصِّناعة بالآلات المهيَّأة ، وتحرّكتْ بالمناسَبات التّامّة والأشكال المتَّفقة أيضاً ، حَدَثَ الاعتدال الذى يُشعِر بالعقل وطُلوعِهِ وأنكشافِهِ وأنجلائه ، فبَهَرَ[١] الإحساس ، وبَثَّ الإيناس ، وشوَّقَ إلى عالَمَ الرُّوح والنّعيم ، وإلى محلِّ الشرف العميم ، وبعَثَ على كسْب الفضائل الحِسِّية والعقليَّة ، أعنى الشجاعةَ والجودَ والحِلْمَ والحكمةَ والصبرَ ، وهذه كلُّها جِماعُ الأسباب المكمِّلةِ للإنسان فى عاجِلَتِه وآجِلَتِه ؛ وبالواجب ما كان ذلك كذلك ، لأن الفضائل لا تُقْتَنَى إلا بالشَّوق إليها ، والحرص عليها ، والطَّلبِ لها ؛ والشوقُ والطلبُ والحِرْصُ لا تكون إلّا بمشَوِّقٍ وباعثٍ وداعٍ ، فلهـذا برَزَتِ الأريحيَّةُ والهِزّةُ ، والشوقُ والعزّة ؛ فالأريحيَّة للرُّوح ، والهِزّة للنفس ، والشوقُ للعقل ، والعِزّة للإنسان . ومما يجب أن يُعلَمَ أنَّ السَّمْع والبصرَ أخصُّ بالنفس من الإحساسات الباقية ، لأنهما خادِما النفسِ فى السرّ والعلانيـة ، ومؤنِساها فى الخَلْوة ، ومُمِدّاها فى النّوم واليَقَظة ؛ وليست هـذه الرتبةُ لشىء من الباقيات ، بل الباقيات آثارُها فى الجسد[٢] الذى هو مطيّة الإنسان ،

(١) فى كلتا النسختين « فقهر » وهو تحريف .
(٢) فى (أ) « فى الحد » ؛ وهو تحريف .

لكنّ الفرقَ بين السمعِ والبصرِ فى أبواب كثيرة : ألطفُها أنَّ أشكالَ المسموع مركّبةٌ فى بسيط ، وأشكالَ المبصَر مبسوطة فى مركّب .

قلت : وقد حكيتُ هذا لأبى زكرياء الصَّيْمَرِىّ فطَرِبَ وأرْتاحَ وقال : ما أبعدَ نظرَ هٰذا الرجل ! وما أرْقَ لحظَه ! وما أعزَّ جانبَه !

الليلة الثانية والعشرون

(١) وقال لى مرّة أخرى : ارْوِ لى شيئاً من كلامِ أبى الحسن العامرىّ ، فإنى أرى أصحابَنا يرذِّلونه ويُبذِيلونه ، فلا يرَوْن له فى هذه العُصْبة قدَما ، ولا يرفَعون له فى هٰذه الطائفة علَما .

فقلت : كان الرجل لكزَازته وغِلَظِ طِباعه وجَفاء خُلُقه يُنفِّر من نَفْسِه ، ويُغْرِى الناسَ بعِرْضه ، فإذا طُلِبَ منه الفنُّ الذى قد خُصَّ به وطُولِبَ بتحقيقه وُجِد على غاية الفَضْل .

فمن كلامه قوله : الطبيعة تتدرَّج فى فِعْلها من الكلّيّات البسيطة ، إلى الجزئيّات المركّبة ، والعقل يتدرَّج من الجزئيّات المركّبة ، إلى البسائط الكلّيّة ، والإحاطة بالمعانى البسيطة تحتاج إلى الإحاطة بالمعانى المركّبة ، ليُتوصَّل بتوسُّطها إلى استِثْباتها[1] ، والإحاطةُ بالمعانى المركّبة تحتاج إلى الإحاطة بالمعانى البسيطة ليُتوصَّل بتوسطها إلى تحقيق إثباتها[2] . وكما أن القوّة الحِسّيّة عاجزةٌ بطباعها عن استخلاص البسائط الأوائل ، بل تحتاج معها إلى القوّة العاقلة ،

(١) فى (ب) « أسباب إثباتها » وفى ا « إثبات اثباتها » وكلتا العبارتين غير ظاهرة المعنى ؛ فلعل الصواب ما أثبتنا .

(٢) فى ب «ما ينالها» وفى (ا) «مسابتها» وهو تحريف فى كلتيهما .

وإن قَوِيتْ لصار العقلُ فَضْلا — كذلك أيضا القوّة العاقلة لا تَقْوَى بذاتها على استثبات المركّبات إلا من جهة القوة الحسّاسة ، ولو قَوِيت عليه لصار الحسُّ فَضْلا [للعاقلة] .

قال : هذا كلامٌ بارعٌ من صَدْرٍ واسع ، وأحِبُّ أن تزيدَنى من نَمَطِه .
قلت : وقال أيضا : الكُلِّىُّ مُفْتقِرٌ إلى الجُزْئى لا لأن يصير بدَيْمُومته محفوظا [بل لأن يصيرَ بتوسُّطه موجودا ، والجزئى مُفتقر إلى الكلّىّ لا لأن يصير بتوسُّطه موجودا ، بل لأن يصير بديمومَتِه محفوظا] .

وقال : الحالُ فى جميع السُّبُل — أعنِى مَسالكَ الأشياء فى تَكَوُّنها[1] صناعيّةً كانت أو تدبيريّةً أو طبيعيّةً أو اتفاقيةً — واحدة ، مِثالُه أنّ الإنسان وإن الْتَذّ بالدَّسْتَنْبان[2] فلن يُعَدّ موسيقاراً إلّا إذا تحقّق بمبادئه الأُوَل التى هى الطّنينات وأنصاف الطّنينات ، وكذلك الإنسان وإن استطاب الحُلْوَ فلن يسمّى حَلْوانيًّا إلّا إذا عرَف بسائطَه وأُسْطُقُسّاته .

وقال : العلمُ لا يحيط بالشيء إلّا إذا عرَف مبادئَه القريبةَ والبعيدةَ والمتوسِّطة .

وقال : نتوصَّل إلى كُرِيّة القمر بما نراه من اختلاف أشكاله ، أعنى أنّا نراه فى الدَّوْرة الواحدةِ هلاليًّا مرّتين ومنصَّفا مرّتين وبَدراً مرّة واحدة ، وهذه الأشكال وإن كانت متقدّمةً عندنا فإن كونَه كُرِيًّا هو المتقدِّم بالذات .

وقال : ما هو أكثر تركيبا فالحسُّ أقوَى على إثباته ، وما هو أقلُّ تركيبا

(١) فى كلتا النسختين « بالتكون » بالباء ؛ والصواب ما أثبتنا كما يظهر لنا .
(٢) فى كلتا النسختين « الدستبان » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن كتاب الألفاظ الفارسية المعرّبة ، والدستنبان كلمة فارسية مركبة من كلمتين : دستان ، وهو من اصطلاحات أصحاب الموسيقى . وأصل معناه النغمة . وبان ، أى الذى يضرب به ؛ ويقال أيضا دستاوان ، وهو معرّب الأول .

فالعقْل أخْلَصُ إلى ذاته .

وقال : الأحداث — وهى الذواتُ الإبداعيَّةُ — الوقوفُ على إثباتها يغْنِى عن البحث عن ماهيّاتها .

وقال : كلُّ معنًى يُوجَدُ بوجودِهِ غيرُه لا يرتفع بارتفاع ذلك الذى هو غيرُه ، بل يرتفع غيرُه بارتفاعه ، فإنه أقدمُ ذاتا من غيره ، مثالُه الجنس لا يرتفع بارتفاعِ واحـدٍ من أنواعه ، والأنواعُ ترتفع بارتفاع الجنس ، وكذلك حالُ النَّوع مع الشخص ، فالجنس أقدم من النوع ، والنوعُ أقدَمُ من الشخص ، وأعنى بالجنس والنوع الطبيعيَّين لا المنْطِقيَّين .

وقال : معرفتنا أوّلا تتعلق بالأشخاص الجزئية ثم بتوسّطها ثبتت الأجناس فإذاً المتقدِّم بالذات غيرُ المتقدِّم إلينا .

وقال : مَسْـلَكُ العقل فى تعرُّف المعانى الطبيعية مقابِلٌ لمسلك الطبيعة فى إيجادها ، لأنّ الطبيعة[1] تتدرّج من الكلّيّات البسيطة إلى الجزئيّات المركّبة ، والعقل يتدرّج من الجزئيات المركّبة إلى البسائط الكلّيّـة .

قال أبو النضر نفيس : إنما كان هذا هكذا لأن الطبيعة متناولة من العقل والعقل مُناوِلٌ للطبيعة ، فوَجَبَ أن يختلف الأمران ، فإن قال قائل : فهلا تمّ الأمران معاً بواحدٍ منهما ، أَغْنِى الطبيعـة أو العقل ؟ فالجواب أنّ أحدَهما فى العُلْوِ ، والآخَرُ فى السُّفْلِ ، فليس للعالى أن يَهبِط ، ولا للسافل أن يَعْلو ؛ فلمّا كان هذا محالًا توَسّطَ بينهما — أعنى العالىَ والسافلَ — المناوَلةُ والتّناوُلُ حتى أتّصل الأوّلُ بالثانى ، وغصّ الفضاء بينهما بضروب الأفراد والأزواج ، وانتظم

(١) قد سبق ما يفيد هذا المعنى فى أول كلام أبى الحسن العامرى فانظره .

الكلّ فلم يكن فيه خَلَل ، ولا دونه مأتًى ، ولا وراءه متوهَّم .

وقال : الإنسان مركَّب من الأعضاء الآليّة بمنزلة[١] الرأسِ واليدَينِ والرِّجْلَين وغيرِها ، ثم كلٌّ واحد من هذه الأعضاء مركَّب من الأعضاء المتشابهة الأنواع بمنزلة[١] اللحمِ والعظمِ والعصَبِ والشُّرْيان ، ثم كل واحد من هذه الأعضاء مركَّب من الأخلاط الأربعة التى هى الدم والبلغم والمُرَّيّان ، ثم كلٌّ واحد من هـذه الأخلاط مركب من الأُسْطُقُسّات الأربع التى هى النار والهواء ، والأرضُ والماء ؛ ثم كلٌّ واحدٍ من هذه الأُسْطُقُسّات مركَّب من الهَيولى والصورة .

وقال : كما أن لكل عضو قوةً تخصه بتدبيرها ، كذلك لجميع البدن قوّةٌ أخرى ضامنةٌ لتدبيره .

قال : وقال الحكيم فى كتاب « السماء »[٢] : علّةُ الأنواع والأجناس ودوامُها هى الفلك المستقيم ، وعلة كون الأشخاص وتجدُّدِ حُدوثها هى الفَلَك المائل ، فأما الكلّيات المنطقية فإن طبيعتها هى القوة [القياسية المستنبَطة لها] عند تكوّن[٣] الحسّ على واحدٍ منها . قال أبو النضر نفيس : هذا حُكْمٌ بالوَهْم ، ورأْيٌ خرَجَ من الظّنّ ؛ الفَلكُ المستقيم والفَلَكُ المائل هما بنوع الوَحدة ونِسْبَةِ الاتّفاق[٤] ، فليس لأحدهما اختصاص بالأنواع والأجناس ، ولا بتجدُّدُ الأشخاص ، والدليل على هذا أن قالبًا[٥] لو قُلِبَ[٦] قالَبه ذلك لم يكن له عنه انفصال . وللرَّأيِ زَلّات ، كما أنّ للّسان فلتَات ،

(١) يلاحظ أن تعبيره هنا بقوله « بمنزلة » فى كلا الموضعين اللذين تحت هذا الرقم غير مناسب كما لا يخفى . والصواب أن يقول فى كلا الموضعين : « التى هى » الخ .

(٢) يعنى كتاب « السماء والعالم » لأرسطو .

(٣) كذا فى « ب » . والذى فى (أ) « عند تكرر الحس » .

(٤) فى (ب) : « الاختيار » .

(٥) فى (أ) : أن فلانا ؛ وهو تحريف .

(٦) فى كلتا النسختين « لو قلت عليه ذلك » وهو تصحيف لا معنى له . وسياق الكلام يقتضى ما أثبتناه .

وللحكيم[١] هَفَوات ، كما أنّ للجواد عَثَرات ؛ وما أكثرَ من يَسْكَر فيقول فى سُكْرِه ما لا يَعرِف ، وما أكثرَ من يغْرَق[٢] فى النوم فيَهذِى بما لا يدرى ، ومن الذى حَقّق عنده أنّ الفَلَك المستقيم هذا نعته ، والفلكَ المائلَ تلك صِفَته ؛ هذا توهُّم وتلفيق ، لا يرْجِعُ مُدّعيه إلى تحقيق ، وقولُ أبى الحسن هذا عن الحكيم تقليدٌ ، كما أنّ دَعوى ذاك الحكيم توهُّم ، ومَحَبّةُ الرِّجال للرِّجال فتنةٌ حاملةٌ على قبول الباطل ، وبُغضُ الرِّجال للرِّجال فتنةٌ حاملةٌ على رَدِّ الحق ؛ وهذا أمرٌ قد طال منه الضَّجيج ، وفُزِع إلى الله منه بالتضرّع .

قال أبو الحَسن : الموجود له حقيقةٌ واحدةٌ لا تُدْرَكُ إلّا عَقلا ، وليس له مَبْدأ ، ولو كان له مَبْدَأٌ لشارَكه المبدأُ فى طبيعة الوُجود ، وليس بمتحرِّك لأنه لا مقابلَ له فيتحرَّكُ إليه .

وقال أبو النضر نفيس : عَنَى بهذا الموجود الحقَّ الأوّلَ الّذى هو علّة العِلل ، وهو البارئ الإله ، وما أنصَف ، لأنّه يجب أن يَقْسِمَ الموجودَ بأقسامه ، ويَصِف مرتبةَ كلِّ موجود على ما هى عليه وعلى ما هو به حتى ينتهى [مِنْ] هذا الموجود[٣] الأعلى إلى آخر الموجود الأسفَل ، أو يصفَ الموجودَ الأسفَل حتى يرتقى إلى هذا الموجودِ الأعلى ، فإنّه لاشىء ممّا يَعقِل ويُحِسّ إلّا وله من هذا الوُجودِ نصيب به استَحقّ أن يكون موجوداً ، وإن كان ذلك النّصيبُ قليلا .

وقال : قد يوصف الشىء بأنّه واحد بالمعنى وهو كثير بالأسماء ، ويوصَف بأنّه واحد بالاسم وهو كثير بالمعنى ، ويوصَف بأنه واحد بالجِنْس وهو كثير بالأنواع ،

(١) كذا فى ب والذى فى (أ) « وكما أن للحكيم » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى (أ) « يعرف » ؛ وهو تصحيف .
(٣) عبارة (ب) : « حتى ينتهى من هذا الوجود إلى آخر الوجود الأعلى » ؛ وهى غير مستقيمة .

ويوصف بأنه واحد بالنّوع وهو كثير بالشُّخوص ، ويوصَف بأنه واحد بالاتّصال وهو كثير بالأجزاء ، وقد نقول فى شىء : إنه واحد بالموضوع وهو كثير بالحدُود ، كالتُّفّاحة الواحدة التى يُوجد فيها اللّون والطّعم والرّائحة ، وقد يكون واحداً فى الحَدّ وكثيراً فى الموضوع ، كالبياض الذى يوجد فى الثّلج والقُطْن والإسْفِيداج ، وقد يكون كثيراً بالحدّ والموضوع كالعِلْم والحرَكة ، فإنّ موضوعَ هذا الجِسْمُ ، وموضوعَ ذاك النفسُ ، وحدُّ أحدهما غيرُ حَدّ الآخَر ، وقد يكون واحداً بالموضوع والحدّ بمنزلة السَّيفِ والصَّمْصام ؛ وقد نقول أشياء تكون واحدةً بالفعل ، وهى بالقوة كثيرة ، كالسِّرَاج الواحد ؛ فأما أن يكون واحداً بالقوّة وكثيراً بالفعل من وجهٍ واحد ، فلا يكون ، بل من جهات مختلِفة .

قال أبو النضر نفيس : الواحد الذى ينقسم فتنشأ منه الكَثْرة غيرُ الواحد الذى لا ينقسم ، والكثير الذى يتوحّد حتى يكون واحداً غيرُ الكثير الذى لا يتوحّد ، فالواحد الذى لا ينقسم علّة الواحد المنقسم ، والكثيرُ الذى يتوحّد هو علّة الكثير الذى [لا] يتوحّد ، وبالحكمة الإلٰهية ما كان هكذا حتى يكون الكثيرُ الذى يتوحّد فى مقابلة الكثير الذى لا يتوحّد ، والواحدُ الذى ينقسم فى مقابلة الواحدِ الذى لا ينقسم ، وهذه المقابلة هى عبارة عن صورة التمام الحاصِل للكلّ ، وليست هى عبارة عن صورةٍ مزاحمةٍ لصورة ، أو كثرةٍ غالبةٍ لكثرة ، المستغاثُ بالله مِن قصور العبارة عن الغاية ، وتقاعُس اللّفظ عن المراد .

وقال(١) : يُعجبنى من جُمْلة الحِكَم الأمثالُ التى يَضربونها ، والعُيونُ (٢. التى يستخرجونها ، والمعانى الّتى يقرّبونها . قلت : صدقتَ ، مِثْلُ قول فَيلسوف :

(١) وقال ، أى الوزير .

البدَن للنّفْس بمنزلة الدُّكّان للصانع ، والأعضاء بمنزلة الآلات ، فإذا أنكسرتْ آلات الصانع وخُرِّب الدُّكان وانهدَم ، فإنّ الصانع لا يَقدِر على عمَله الذى كان يَعْمَله إلا أن يتّخذ دُكاناً آخَر ، وآلاتٍ جُدَداً أُخَر .

قال : أُحبّ أن أسمعَ شيئاً من مَنْثُور كلامِهمْ فى فنون مختلفة .

قلتُ : قال فَيْلسوف : العاقل يَضِـلّ عَقْلُه عند محاوَرَة الأحمَق . قال أبو سليمان : هذا صحيح ، ومثالهُ[1] أنّ العاقل إذا خاطَبَ العاقلَ فهِمَ وإن أختلفتْ مرتبتاهما فى العَقْل ، فإنهما يَرْجِعان إلى سِنْخ[2] العقل ، وليس كذلك العاقلُ إذا خاطَبَ الأحمق ، فإنهما ضدّان ، والضّدّ يهرُب من الضّد ؛ وقد قيل لأبى الهُذيل العلّاف — وكان مُتكلّمَ زمانه — : إنّك لَتُناظِر النَّظّام وتَدُور بينكما نَوْبات ، وأحسنُ[3] أحوالنا إذا حَضَرْنا أن ننصرف شاكّين فى القاطع منكما والمنقطع ، ونراك مع هذا يُناظِرُك زَنْجَوَيه الحمّالُ فيَقْطَعُك فى ساعة .

فقال : يا قوم إن النظّام معى على جادّة واحدة لا ينحرف أحدُنا عنها إلّا بقَدْر ما يراه صاحبُه فيُذكّره أنحرافَه ، ويَحْمِلُه على سَنَنِه فأمْرُنا يَقْرُب ، وليس هكذا زنجويه الحمّال فإنه يبتدئ معى بشىء ، ثم يَطفر إلى شىء بلا واصلة ولا فاصلة ، وأبقَى ، فيحكُمُ علىّ بالأنقطاع ، وذاك لعجزى عن ردِّه إلى سَنَن الطريق الذى فارَقنى آنفاً فيه .

وقال فيلسوفٌ آخر : العادات قاهرات ، فمن أعتاد شيئاً فى السِّرّ فضحَه فى العلانية .

---

(١) كان صواب العبارة أن يقول : « وذلك لأن العاقل » الخ ، إذ لا يخفى أن الكلام الآتى تعليل لما سبق لا مثال .

(٢) سنخ العقل : أصله .

(٣) فى كلتا النسختين « قال أحسن » الخ وقوله « قال » زيادة من الناسخ .

قال أبو سليمان : وهذا صحيح ، لأن حقيقة العادة فى[1] الشىء المعهود عَوْدُه بعد عَوْده ، فهى — أعنى العادةَ — بالاستمرار الّذى يَقهر من اعتاده ، والخَلْوة حال ، والعَلانية حال ، والعادة بجرَيانها تَهجُم فى الحالَين ولا تَفْرِق ؛ ولهذا ما قيل : العادة هى الطبيعة الثانية ؛ كأنّ الطبيعة عادة ، ولـكنها الأُولى بالجِبِلّة[2] ؛ والعادة طبيعة ولـكنّها الأخرى بحسن الاختيار أو بسوء الاختيار .

وقال فيلسوف : ما أكثرَ من ظَنَّ أنّ الفقير هو الّذى لا يَملك شيئاً كثيراً وهذا فقير من جهة العرَض ، فأمّا الفقير الطبيعىُّ فالّذى شهواتُه كثيرة وإن كان كثيرَ المال ؛ كما أن الغَنِىَّ الطبيعىَّ لا يحتاج إلى شىء وإن كان قليل المـال ، أى الّذى مَلك نفسَه وقَمَعَ شهواتِه وأخْمَدَ لَهَبَ إرادتِه ؛ وقد ظَنَّ قومٌ أنّ الّذين مَنَعوا مِن الشَّهوات ، ورَضُوا بالزُّهد فى اللّذات ، خانوا الناسَ وحالوا بينهم وبين حُظوظِهم ، وحَرَموهم ما هُو لهم ، وصدُّوهم عن محبوباتِهم ؛ وهذا ظَنٌّ خطأٌ ، وأىُّ مُرادٍ فى هـذا للواعظين والمزَهِّدين ، والذين وَصَّوْا وأشفَقوا ، ورَدَعُوا عن الخَوْض فى لذّات النفوس الغضبيَّة والبهيميَّة ؟ والله ما كان ذلك منهم إلاّ على طريق النصيحة والشفقة والإعذار والإنذار ، إلاّ أن يكون الّذين ظنوا هذا إنما ظنّوه لأنهم رأَوْا بعضَ المزهِّدين راغبا ، وبعضَ الناصحين غاشّا ، وبعضَ الآمرين مخالفا ، وليس العمل على المُحْتال ، وعلى من آثرَ الغِشَّ فى المقال ؛ ولـكنّ المَرجِـع إلى ما يدلّ عليه الحقّ ، ويَشهد له العَقْل ، ويصحُّ فيه البرهان ؛ أتَرَى الفيلسوفَ غَشَّ فى قوله لأصحابه : اِقنَعوا بالقُوت ، وانْفُوا عن أنفسكم الحاجَة ، ليـكون لكم قربة إلى الله ، لأنّ الله غيرُ محتاج ، فكلّما احتجتُم أكثر كنتم

(١) فى كلتا النسختين : « عن الشىء » .
(٢) فى كلتا النسختين : « بالجملة » ؛ وهو تحريف .

منه أبعَد ، وأهربوا من الشرّ والإثم ، وأطلبوا من الخير أعمّه وأعظمَه ، وأبقاه وأدْوَمه ؛ وأعرِفوا الأبَد ، وأطلبوا السَّرْمَد ، فإنّ مَن طَلب الأبَدَ ثم وَجَدَ بَقِى على الأبَد ، ومَن طَلَبَ الأمد ثم وَجَد فنِىَ على الأمد .

الحاجةُ ذُلٌّ ، والغِنَى عِزٌّ ، والعِزّ ضدّ الذلّ ؛ فمن طلب العِزّ فى العاجلة فقد طَلَبَ الذُّلّ وهو لا يدرى ، ومن طلب العزّ فى الآجلة فقد وَجَدَ العِزّ وهو يدْرِى .

فى الحكمة [١] أن يقال : اِصبِر على الذُّلّ لِتنالَ العِزّ ، وليس فى الحكمة أثبُت على العِزّ لِتنالَ الذلّ ؛ هٰذا معكوس .

الليلة الثالثة والعشرون

(١) وكان الوزيرُ رَسَمَ بكتابة لُمَعٍ من كلامِ الرّسولِ صلى الله عليه وسلم ، فأفرَدْتُ ذٰلك فى هٰذه الوَرَقات ، وهى :

قال صلى الله عليه وسلم : « أشَدّ الأعمال ثلاثة : إنصافُ الناسِ مِنْ نفْسِك ، ومُواساةُ الأخِ من مالِك ، وشكرُ الله تعالى على كلّ حال » .

وقال الواقِدِىّ : لمّا غالَظَ خالدُ بنُ الوليد عبد الرحمن بن عوف قال النبىّ — صلى الله عليه وسلم — يا خالد : ذَرُوا لى أصحابى ، لو كان لك أُحُدٌ ذهباً تنفقُه قراريط فى سبيل الله لم تُدْرِك غَدْوَةً أورَوْحَةً من عبد الرحمن .

وقال عليه السلام : « إن أحدكم إذا قام إلى الصلاة تَبَشْبَشَ [٢] الله إليه ، وإن أخّرها أعرض عنه » .

---

(١) عبارة (ب) : « وبيان الجملة أن يقال » .

(٢) التبشبش من الله تعالى : الرضا والإكرام .

وقال عليه السلام : « إنما فَدَكُ(١) طُعْمَةٌ أطعَمنيها الله حياتى ، ثم هى بين المسلمين » .

وقال عليه السلام : « المقوِّم قد يأثَمُ ولا يغرَمُ » .

وقال عليه السلام فى دعائه : « اللّهمَّ اجْمَع على الهُدَى أمْرَنا ، وأَصْلح ذاتَ بَيْنِنا ، وألِّفْ بين قلوبِنا ، واجعل قلوبَنا كقلوب خِيارِنا ، واْهدِنا سواءَ السبيل وأَخْرِجْنا من الظُّلمات إلى النُّور ، واصرف عنَّا الفواحشَ ما ظَهَرَ مِنها وما بَطَن ، اللّهم مَتِّعْنا بأسماعِنا وأبصارِنا وأزواجِنا وذُرِّيّاتِنا ومعايشنا ، اللّهم اجعلنا شاكِرين لنعمتِك ، وتُبْ علينا إنكَ أنت التَّواب الرَّحيم » .

وقيل له صلى الله عليه وسلم : إنَّ فلانا اُستُشهد ، فقال : « كلاَّ ، إن الشَّمْلةَ التى أَخَذَها من الغنائم يومَ حُنَيْن اشتَعَلَتْ عليه ناراً » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من اطَّلع من صُبْرِ(٢) بابٍ ففُقِئَت عينُه فهى هَدَر » .

وقال صلى الله عليه وسلم لرجل يَذبحُ شاةً : « أرْهِف شَفْرَتك ، فإذا فَرَيْت فأرِحْ(٣) ذبيحَتَكِ ، ودَعْها تَخُبُّ وتشخُب ، فإنَّ ذلك أمْرَى للدَّمِ وأحلى للَّحْم » .

وقال عليه السلام : « خيرُ النّاسِ الغنىُّ الحفِىُّ التقىُّ » .

وقال : « التَّاجرُ الصَّدُوق إنْ مات فى سَفَره كان شهيدا ، أو فى حَضَرِه كان صدِّيقاً » .

---

(١) فدك : بلدة بخيبر .

(٢) صبر الباب وغيره بكسر الصاد وضمها : ناحيته وحرفه ؛ والذى فى كلتا النسختين «صبير» ولم نجد له معنى يناسب السياق .

(٣) فى كلتا النسختين « فأرخ » ؛ وهو تحريف ؛ وما أثبتناه عن كتب الحديث .

وقال [صلى الله عليه وسلم] : « ظهرُ المؤمن مِشجَبُه ، وبطنُه خِزانتُه ، ورِجْلُه مَطِيَّتُه ، وذَخيرتُهُ رَبُّه » .

وقال [صلى الله عليه وسلم] : « ما نَقَصَ مالٌ من صَدَقَة ، فتصدَّقوا ، ولا عَفَا رَجُلٌ عن مَظْلَمَةٍ إلاّ زادَه اللهُ عزّ وجلّ عِزًّا وعَفْوًا ، فاعْفُوا ؛ ولا فَتَحَ رجلٌ على نفسِه بابَ مَسْئَلةٍ إلاّ فَتَحَ اللهُ عليه سبعين باباً من الفَقْر ، فاستعِفّوا » .

وقال عليه السلام : « أجوَدُ الأعمالِ الجودُ فى العُسْر ، والقَصْدُ فى الغَضَب ، والعفْوُ عند المَقْدرة » .

وقال عليه السلام : « إنّ بين مِصْرَاعَىْ بابِ الجنَّةِ مسيرةَ مائة عام ، وليأتينّ عليه يومٌ وهو كَظِيظٌ من الزحام » .

وَفَدَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولُ قومٍ من بنى عامر يستأذِنُه فى المَرْعَى حولَ المدينة ؛ فقال عليه السلام : إنها ديارٌ لا تَضيق عن جارِنا ، وإنّ جارَنا لا يُظلَمَ فى ديارنا ، وقد ألجأتْـكم الآزمة(١) ، فنحن نأذَن لـكم فى المَرْعَى ونُشْرِكُـكمُ فى المأوى ، على أنّ مَرْحَنا(٢) كسَرْحِكم ، وعانِيَنا كعانِيكم(٣) ، ولا تُعينوا علينا بعدَ اليوم ؛ فقال : لا نعين عدوا ما أقمنا فى جوارك ، فإذا رَحَلْنا فإنما هى العَرَب تَطْلُب أثآرها ، وتَنْفى ذُحولها ؛ فقال عليه السلام : يا بنى عامر ، أما عَلِمتم أنّ اللُّؤْمَ كلّ اللؤم أنْ تَنْحاشُوا عند الفاقة ، وتَثِبوا عند العزّة ، فقال : وأبيك إنّ ذلك للؤم ، ولن نبغيك غائلةً بعد اليوم ، فقال : اللهمّ اشهد ، وأذن لهم .

وسئل صلى الله عليه وسلم : كيف يأتيه الوَحْى ؟ فقال : « فى مِثْل صَلْصَلَة الجَرَس ، ثم يَنْفَصِم » .

(١) الآزمة : الشدّة . (٢) السرح : المال السائم .

(٣) كذا وردت هذه الكلمة فى كلتا النسختين .

وقد روى ابن الكلبي عن أبيه عن ابن صالح ، عن ابن عبّاس قال : لما كان يومُ بَدْر ، قال عليّ — عليه السلام — للمقْداد : أَعْطِنى فَرَسَك أَرْكبْه ، فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلم : أَنت تقاتِلُ راجلا خيرٌ منكَ فارسا . قال : فركبه ووَتَر قَوْسَه ورَمَى فأصاب أُذُنَ الفَرَس فَصَرمَه ، فضَحِكَ النبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلم حتى أَمسَكَ على فيه ، فلما رأى عليٌّ ضَحِكَه غَضِبَ فسلَّ سَيْفَهُ ، ثم شَدَّ على المشركين ؛ فقتل ثمانيةً قبل أن يرْجِع ، فقال عليٌّ — صلوات الله عليه — : لو أَصابنى شرٌّ من هٰذا كنتُ أَهْلَه حين يقول : « أَنت تقاتِلُ راجلا خيرٌ منكَ فارسا » ، فعصَيْتُه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ امرأ عَرَفَ اللهَ وعبَدَه وطَلَبَ رضاه وخالَفَ هَواه لحقيقٌ بأنْ يفوزَ بالرحمة » .

لما وَرَدَ محمد بنُ مَسْلَمَةَ على عَمْرو بن العاص من جهةِ عمر بن الخطاب رضِيَ الله عنه ، صنَع عمرو له طعاماً ودعاه إليه ، فأبى محمدٌ ، فقال عمرو : أَتُحرِّمُ طعامى ؟ قال : لا ، ولكنى لم أُومَرْ به . فقال عمرو : لَعَنَ اللهُ زمانا عَمِلْنا فيه لابن الخطاب ، لقد رأيتُه وأباه وإنهما لفى شَمْلة ما تُوارى أَرْسَاغهما ، وإن العاصى بنَ وائل لفى مقطّعات الدِّيباج مزرَّرَةً[1] بالذّهب . فقال محمد : أمّا أبوك وأبو عُمَرَ ففى النار ، وأما أنت فلولا ما وَليت لعُمَر لألْفَيْتُكَ معتقِلا[2] عَنْزاً يَسُرُّكَ غُزْرُها[3] ويسوءك بَكْؤُها[4] ، فقال عمرو : المجالس[5] أمانة ، فقال محمد : أمّا ما دام عمرُ حيًّا فنعَم .

(١) فى بعض الروايات « مزورة » بالواو قبل الراء ، أى مزينة .
(٢) فى العقد الفريد « مقتعداً » .
(٣) كذا فى العقد الفريد ج ١ يريد غزارة لبنها . والذى فى الأصل « غروها » ، وهو تحريف .
(٤) البكء : قلة اللبن .
(٥) عبارة العقد الفريد « هى عندك بأمانة الله » .

دخل النبىّ صلّى الله عليه وسلّم على فاطمة — عليها السلام — يعودها مِنْ عِلّة ، فبكت ، فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : ما يُبْكِيكِ ؟ فقالت : قِلّةُ الطُّعْم ، وشِدّةُ السُّقم ، وكثرةُ الهم .

قال عبد الله بنُ مسعود : شرُّ الأمور محدثاتُها ، وشَرُّ الغِنَى غِنَى الإِثم ، وخيرُ الغِنَى غِنَى النفْس ، والخمْرُ جِمَاعُ الإِثْم ، والدنيا حِبالةُ الشيطان ، والشبابُ شُعْبَةٌ من الجنون .

قيل له : أتقول هذا من تلقائك ؟ قال : لا ، بل مِنْ تِلْقاء مَنْ فَرَضَ اللهُ علىّ طاعتَه .

وقال أبو ذَرّ [رحمةُ الله عليه] : قال [لى] رسول الله — صلّى الله عليه وسلم — يا أبا ذَرّ : إنى أراكَ ضعيفا ، وإنى أُحِبُّ لكَ ما أُحِبُّ لنفسى ، لا تأَمَّرَنَّ على اثنين ، ولا تَوَلَّيَنَّ مالَ يتيم .

وقال أبو هُرَيرة : عن النبىّ — صلى الله عليه وسلم — ستحرصون على الإمارة ، وستكون حَسْرَةً وندامةً يومَ القيامة ، فنعمت المُرضِعة ، و بئست الفاطمة .

أبو أُمامةَ يَرْفَعُهُ ، قال : ما مِنْ رَجُلٍ يَلِى أمرَ عَشَرةٍ إلا يُؤْتَى به يوم القيامة مَغْلولا أطْلَقَه العدل ، أو أوثَقَه الجوْر

قال العبّاس للنّبىّ صلى الله عليه وسلم : أمِّرْنى يا رسول الله فأُصيب[1] .

قال عبدُ الله بنُ عَمرو بن العاص : إنَّ رَجُلا جاء إلى النجاشىّ فقال له :

(١) كذا وردت هذه العبارة فى كلتا النسختين ؛ ولا معنى لقوله هنا « فأصيب » كما أن فى العبارة نقصا سقط من الناسخ ؛ وقد رواها صاحب العقد الفريد كاملة فى الجزء الأول ص ٢٤ طبع لجنة التأليف ، فذكر أن العباس رضى الله عنه طلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاية ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعمّ ، نفس تحييها خير من ولاية لا تحصيها .

أقرِضْني ألفَ دينار إلى أجَل ، فقال : مَن الكفيلُ بك ؟ فقال : اللهُ . فأعطاه الألفَ ، فلمّا بلغ الأجَل أراد الرَّدَّ ، فحبسَتْه الرِّيح ، فعَمِل تابوتاً وَجعَل فيه الألف وغلَّفه ، وألقاه فى البحر ، وقال : اللّهمّ أدِّ حَمالَتكَ ؛ فخرج النّجاشىُّ إلى البَحر فرأى سَواداً ؛ فقال : ائتونى به . فأتَوْهُ بالتّابوت ، ففَتَحه ، فإذا فيه الألْف ، ثم إنّ الرَّجل جَمع ألفاً بعد ذلك ، وطابت الرِّيح ، وجاء إلى النَّجاشىّ فسلَّم عليه ؛ فقال له النَّجاشىّ : لا أَقبلُها منكَ حتى تُخْبِرنى بما صنعتَ فيها . فأَخْبَرَه بالّذى صنَع ؛ فقال النَّجاشىّ : فقد أدّى اللهُ عنك ، وقد بلغَت الألفُ فى التابوت ، فأَمسِكْ عليكَ ألفَك[1] .

رأى أبو هُرَيْرَة رجُلا مع آخر ، فقال : مَنْ هذا الذى معك ؟ قال : أبى . قال : فلا تَمْشِ أمامه ، ولا تَجْلِس قبْلَه ، ولا تَدْعُه باسمه ، ولا تَسْتَسِبَّ[2] له .

قال أبو هُرَيْرة : كان جُرَيْجٌ يتعبَّد فى صَوْمَعَته ، فأتتْ أُمُّه فقالت : يا جُرَيْج ، أنا أُمُّكَ ، كلِّمنِى ؛ فقال : اللهمّ أُمّى وصَلاتى ؛ فاُختـار صلاتَه ، فرجعَتْ ثمّ أتَتْه ثانيةً فقالت : يا جُرَيْج ، كَلِّمْنى ، فصادفتْه يُصَلِّى فقال : اللهمّ أُمّى وصلاتى ، فاُختار صلاتَه ، ثم جاءتْه فصادَفتْـه يصلِّى ، فقالت . اللهمَّ إنَّ هـذا اُبنى قد عَقَّنى فلَم يكلِّمنى فلا تُمِتْه حتى تُرِيَه المومِسات ، ولو دَعَتْ عليه أن يُفْتَن لفُتِن ؛ قال : وكان راعى ضأن يأوى إلى دَيْره ، فخرجت اُمرأةٌ من القَرْيَة ، فوقع عليها الرّاعى ، فحملتْ فولَدتْ غلاماً ، فقيل لها : ممّن هـذا ؟ فقالت : مِنْ صاحِب هذه الصَّوْمَعة ، فأقبَل الناسُ إليـه بفُؤوسِهِم ومَساحيهم

(١) يلاحظ أن هذه القصة لا تدخل فى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى عنون به المؤلف هذا الباب وكذلك بعض القصص الآتية بعد .

(٢) أى لا تعرّضه للسب بأن تسبّ أحداً بأبيه فيسبَّ الآخر أباك .

فبصروا به ، فصادفوه يصلّى ، فلم يكلّمهم ، فأخذوا يهدمون ديره ، فنزل وتبسّم ومسح رأس الصّبىّ وقال : من أبوك ؟ فقال : أبى راعى الضّأن . فلمّا سمع القومُ ذلك راعهم ، وعجبوا ، وقالوا : نحن نبنى لك ما هدمنا بالذّهب والفضّة . قال : لا ، أعيدوها كما كانت ترابا ؛ ثم عاد .

وقال أبو الدّرداء : لا يحافظ على سُبحة الضّحى إلّا أوّاب .

وقال أيضاً : ليس على سارق الحمّام قطع .

وقال : إذا اخترتم أرضاً فلا تختاروا أرمينية ، فإنّ فيها قطعةً من عذاب الله ، يعنى البَرْد .

أبو هريرة يرفعه : ويلٌ للعُرفاء ، ويلٌ للأمناء ، ليتمنّينّ أقوامٌ يومَ القيامة أنّهم كانوا متعلّقين بين السماء والأرض يتذبذبون من الثّريّا ، وأنهم لم يلوا عملا .

قال النبىّ صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن سمُرة : « لا تسأل الإمارة ، فإنّك إن أُعطيتها عن مسئلة وُكِلت إليها ، وإن أُعطيتها عن غير مسئلة أُعِنت عليها » .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع ومسؤولٌ عن رعيّته ، فالأميرُ راعٍ على الناس وهو مسؤولٌ أقام أمرَ الله فيهم أم ضيّع ؛ والمرأة راعيةٌ على بيتها وما وَليتْ من زوجها ، ومسئولةٌ عنهم أقامت أمرَ الله فيهم أم ضيّعتْ ؛ والخادمُ مسؤولٌ عن مال سيّده أقامَ أمرَ اللهِ فيه أم ضيّع » . هكذا رواه ابنُ عُتبة عن نافع عن ابن عُمر .

قال عياض الأشعرىّ : قدِم أبو موسى على عُمر ومعه كاتبٌ له ، فرفع

حِسابَه ، فأعجبَ عمر . وجاء إلى عمر كتابٌ ، فقال لأبى موسى : أين كاتبُك يقرأُ هذا الكتاب على النّاس ؟ قال : إنّه لا يَدْخُل المسْجد . قال : لِمَ ؟ أجُنُبٌ هو ؟ قال : إنّه نَصْرانىّ . قال : فانْتَهَرَه ، وقال : لا تدْنِهِمْ وقد أقصاهُم الله ، ولا تُكْرِمْهُم وقد أهانَهُم الله ، ولا تأتَمِنْهم وقد خوَّنَهم الله .

قال عبدُ الله بنُ نافع : جاء رَجُلان من الأنصار إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — يختصمان فى مَواريثَ بينهما قد دَرَسَتْ ليس بينهما بيّنة ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنكم لتختصمون إلىّ وإنما [أنا بَشَر ، ولعل بعضكم ألْحَنُ بحُجَّته من بعض ، وإنما] أقْضِى بينكم على نحوِ ما أَسمَعُ منكم ، فمن قَضَيْتُ له من حَقِّ أخيه شيئاً فلا يأخُذْه ، فإنّما أَقْطَع له قِطْعَةً من نار ، يأتى بها إسطاماً[1] فى عُنُقِه يومَ القيامة . قال : فبكى الرَّجُلان ، وقال كلٌّ واحد منهما : حقّى لأخى ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : أمّا إذ قلتُما هذا فاذهَبا فاسْتَهِما ، وتَوَخَّيا الحقّ ، وليُحَلِّل كلٌّ واحد منكما صاحبَه . وفى رواية أخرى : اذهَبا فاصْطَلِحا .

وروَى ابنُ عباس أنّ رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم — كتب إلى النّجاشىّ أصْحَمة : سلامٌ عليكَ فإنى أحمدُ إليكَ اللهَ الملكَ القُدّوسَ السلامَ المؤمنَ المُهَيْمِنَ ، وأشْهَدُ أنّ عيسى بنَ مريمَ روحُ الله وكلمته ، فكتَبَ النّجاشىّ : إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من النّجاشىّ أصْحَمة بن أبْجَر : سلامٌ عليكَ يا نبىَّ اللهِ مِنَ اللهِ ورَحْمَتُه وبركاتُه .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « الكافرُ خَبٌّ[2] ضَبٌّ ، والمؤمن دَعِبٌ لَعِب » .

وقال رَجُلٌ للنبى — صلى الله عليه وسلم — : اعْدِلْ فإنّكَ إلى الآنَ

(١) الإسطام : مسعار النار ، وهى الحديدة التى تسعر بها .
(٢) الخب : الخداع . والضب : الحقد ؛ يريد ذا حقد ؛ ووصفه بالمصدر .

لم تعدل . فقال : وَيْلَك ! إذا لم أعدلْ أنا فمَنْ يَعدِل ؟ .

وقال صلَّى الله عليه وسلَّم : « إنَّ الواجِدَ[1] يُبِيحُ ظَهْرَه وعِرْضَه » .

وقال عُمَر : رَدِّدِ الخُصومَ كَىْ يَصْطَلِحوا .

وقال عليه السلام : لا تَحْلِفوا بأَيْمانِكم ، ومَنْ حَلَفَ بالله فلْيَصْدُق ، ومن حُلِفَ له فليَقْبَل .

وقال : مَن حَلَف يَميناً كاذِبَة يَقْتَطِعُ بها مالَ امرِئٍ مُسْلِمٍ لقِىَ اللهَ وهو عليه غَضْبان .

وقال : مَنْ حَلفَ يميناً فرأى غيرَها خيراً منها فليأتِ الذى هو خَيْرٌ ، وليُكَفِّرْ عن يمينه .

وقال — عليه السلام — لا تُسافِرِ المرأةُ ثلاثةَ أيّامٍ إلاّ مع ذى مَحْرَم .

حدَّثنا أبو السائب القاضى عُتْبَةُ بنُ عُبَيْد قال : حدَّثنا محمدُ بنُ المَرْزُبان قال : حدّثنا المُغيرة قال : حدَّثَنا محمدُ بنُ العبّاس المِنقَرىُّ قال : كان شَريكُ ابنُ عبدِ الله على القَضاء بالكُوفة ، فقَضَى على وَكيلٍ لِعَبْدِ اللهِ بنِ مُصْعَب بقضاء لم يوافِقْ عبدَ الله ، فلَقِىَ شَرِيكا ببَغداذ ، فقال له : قضيتَ على وَكِيلى قضاء لا يُوافِقُ الحقّ . قال : مَنْ أنتَ ؟ قال : من لا تنكِر . قال : قد نَكِرتُكَ أشَدَّ التَّنكير . قال : أنا عبدُ الله بنُ مُصْعَب . قال : فلا كبيرٌ ولا طيّب . قال : كيف لا تقول هذا وأنتَ تَشْتُمُ الشَّيْخَين . قال : من الشَّيْخان ؟ قال : أبو بكرٍ وعُمَر . قال : والله لا أَشْتُمُ [أباكَ] وهو دونهما ، فكيف أشتمهما وهما فوقى وأنا دونهما ؟ .

---

(١) الواجد : ذو الوجد ، وهو الغضب . يريد أن الغضب ينسيه حفظ ما يجب عليه حفظه .

وقال عُقْبَة بنُ عامر الجُهَنىّ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما مِنْ رجل يُؤْتَى الدُّنيا و يُوَسَّع له فيها وهو لِله على غير ما يُحِبّ إلاّ وهو مُسْتَدْرَج ، لأنّ الله تعالى يقول : (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ، فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) . قال ابنُ الأَنْبارِىّ : قوله صلى الله عليه وسلم إلاّ وهو مُسْتَدْرَج ، معناه إلاّ وهو مُسْتَدْعٍ هَلَكته ، مأخوذٌ من الدّارج ، وهو الهالك ، يقال هو أَعْلَمُ مَنْ دَبَّ وَدَرَج ، ويُرادُ بدَرَجَ : هَلَكَ ؛ وبدَبَّ : مَشَى.

وقال سعيدُ بنُ عامر بنِ حُزَيْم ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم « إنّ لله أُمَناء على خَلْقِه يَضَنُّ بهم على القَتْل يُعيشُهُمْ فى عافية ، ويُميتُهُمْ فى عافية » .

قال ناشِرَةُ بنُ سُمَىّ : سمعتُ عمرَ بنَ الخَطّاب رضى الله عنه يقول يوم الجابية : إنّى قد نَزَعْتُ خالدَ بنَ الوليدِ وأَمَّرْتُ أبا عُبَيْدَة ، فقال رَجُلٌ : والله لَقَدْ نَزَعْتَ عاملا اُستَعْمَله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وأَغْمَدْتَ سَيْفًا سَلَّه رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلّم ، ووضعتَ لِواءً شَدَّهُ رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم . فقال عُمَر : إنّك لشابٌّ قَريبُ القَرابة ، وهذا القائلُ هو أبو عَمْرو بنُ حَفْصِ بنِ المُغيرة ابن عَمِّ خالد .

قال قَبيصة بن المُخارِق : نَهَى رَسولُ الله عَن الطَّرْق (١) والعِيافَةِ والخَطِّ .

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الصَّدَقَةُ على المَساكين صَدَقَة ، وعلى ذِى الرَّحِم اُثْنَتان : صِلَةٌ وصَدَقة » .

قَبيصة بن المخارِق وزُهير بن عَمْرو قالا : لما نَزَلَتْ : (وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

---

(١) يريد بالطرق طرق الحصى وبالخط الخط فى الرمل لاستطلاع الغيب كما هو معروف .

الأقْرَبين) ، انطَلَقَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى رَضْمةٍ[١] من جَبلٍ فعلا أعْلاها حجراً ، وقال : يا بَني عبدِ مَناف ، يا بنى فهر ، إنما مَثَلى وَمَثَلُكم كمثل رَجُلٍ رَأى العَدُوَّ فانطَلَق يُريدُ أَهْلَه ، وخَشىَ أن يَسْبِقُوه إلى أَهلِه ، فجعل يَهْتِفُ وا صَباحاه .

النُّعمانُ بنُ بَشير وقَبيصة قالا : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إن الشمسَ والقمرَ لا يَنْكَسِفان لموتِ أحدٍ ولا لحياتِه ، ولكن الله إذا تَجَلَّى لشىء مِنْ خَلْقه خَشَع » .

تَزَوّجَ رَجُلٌ امرأةً فماتَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بها ، ولم يُسَمِّ لها صَداقاً ، فسُئِل ابنُ مَسْعود فقال : لها صَداقُ إحْدَى نسائه ، لا وَكْسَ ولا شطَط ، وعليها العِدّة ، ولها الميراث . فقام أبو سِنان فى رَهْطٍ مِنْ أشْجَع ، فقالوا : لقد قَضَى فيها بقضاء رَسُول الله صلى الله عليه وسلم فى بِرْوَعَ بنتِ واشِقٍ الأشْجعية .

عُقْبَةُ السُّلَمِىُّ قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : — « إذا تباطأتِ المغَازِى وكَثُرت الغَرائم واُستُؤثِرَ بالغنائم فخيرُ جِهادِكُم الرِّباط » .

حِبّان الأنصارىُّ قال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خَطَبَ الناسَ يومَ حُنَينٍ فأحلَّ لهم ثلاثةَ أشياء [كان نهاهُمْ عنها ، وحَرَّمَ عليهم ثلاثةَ أشياء] كان الناسُ يحلُّونها ، [أَحَلّ لهم[٢]] أكلَ لحوم الأَضاحى ، وزيارةَ القبور والأَوْعية[٣] ، ونهاهم عن بِياع المَغْنَم حتى يُقْسم ، ونَهاهُمْ عن النِّساء مِن السَّبايا

(١) الرضمة : الصخرة العظيمة .

(٢) لم ترد هذه العبارة فى الأصول .

(٣) فى الأصل : « والأدعية » ؛ وهو تحريف . ويريد بالأوعية أسقية النبيذ ، وذلك أخذا من قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر « نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، ونهيتكم عن لحوم الأضاحى فوق ثلاث فأمسكوا ما بدا لكم ، ونهيتكم عن النبيذ إلا فى سقاء فاشربوا فى الأسقية كلها ، ولا تشربوا مسكرا » رواه مسلم .

ألّا يُوطأنَ حتى يَضَعْنَ أوْلادَهُنّ ، ونَهاهُمْ ألاّ تباعَ ثمرةٌ حتّى يبدوَ صَلاحُها ، ويُؤْمَنَ عليها من العاهة .

وَهْبُ بنُ حُذَيفَةَ ، قال رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم : الرَّجُلُ أحَقُّ بمجلِسه .

حسّان بنُ ثابتٍ قال : لَعَنَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم زائراتِ القبور .

قال مالكُ بنُ عُبادة الغافقيّ : مرَّ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم بعبد الله بن مَسْعود فقال : لا تُكْثِرْ هَمَّك ما يُقَدَّرْ يَكُنْ ، وما تُرْزَقْ يأتكَ .

خالدُ بنُ عَدِيّ الجُهَنيّ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : من بَلَغَه مَعْروفٌ مِنْ أخيه مِنْ غَيْرِ مَسْئَلةٍ ولا إشْرافِ نَفْسٍ فَلْيَقْبله ولا يرُدّه ، فإنما هو رِزْقٌ ساقَه الله إليه .

رافعُ بنُ مَكِيثٍ — أخو جُنْدَب بن مَكِيث — شَهِدَ الحُدَيبِيَة قال : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « حُسْنُ المَلَكَةِ[1] نَماء ، وسوء الخلُق شُؤْم ، والصَّدَقَةُ تدفَعُ مِيتَةَ السُّوء ، والبِرُّ زيادةٌ في العُمُر .

وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : إنَّ يومَ الجُمُعةِ يومُ زينةٍ كيَوْم الفِطْر والنَّحْر .

خَبّابُ بن الأرَتّ[2] — وكان من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم — قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلّى يوماً إلى جدارٍ كثير الجِحَرة إمّا ظُهْراً أو عصراً ، فلمّا صلّى خَرجتْ إليه عَقْرَب فلدَغتْه ؛ فغُشِي عليه ، فرقاه الناس فأفاق ، فقال : « إنّ الله شَفاني وليس برُقْيتِكم » .

قال الوزير : ما أحسنَ هذا المجلس .

(١) حسن الملكة ، أى حسن صحبة المرء لمن يملكهم من مماليكه ومواليه .

(٢) فى الأصل « ابن الأزرق » وهو تحريف .

(١) الليلة الرابعة والعشرون

وجرى حديث الفيل ليلةً فأكثرَ من حضَر وصفَه بما لم يكن فيه فائدة تُعاد، ولا غريبةٌ تُستَفاد؛ فحكيتُ: إن العلماء بطبائع الحيوان ذكروا أن الفِيَلةَ لا تتولَّد إلّا فى جزائر البحار الجنوبيّة، وتحت مدارِ بُرج الحَمَل؛ والزّرافة لا تكون إلا فى بلاد الحَبَشَة، والسَّمُّورَ وغزالَ المِسك لا يكونان إلّا فى الصَّحارِى الشرقيّة الشّمالية؛ وأما الصُّقور والنُّسور والبُزاةُ وما شاكلَها من الطير [فإنها] لا تُفرِخ إلا فى رءوس الجبال الشامخة [والعُقاب[١]. والنعام لا تُفرخ إلا فى البرارىّ والقفار والفلوات]. والوَطْواطُ والطّيطَوَى[٢] وأمثالها من الطير لا تُفرِخُ إلّا على سواحل البحار وشطوط الأنهار والبطائح والآجام؛ والعصافيرُ والفَواختُ وما شاكلَها من الطير لا تُفرِخُ إلّا بين الأشجار والدِّحال[٣] والقُرى والبساتين.

وحدّث ابنُ الأعرابىّ عن هشام بن سالم — وكان مُسِنًّا من رَهْطِ ذى الرُّمة — قال: أكلتْ حيّةٌ بيضَ مُكّاء[٤] فجعلَ المُكّاء يُشَرْشِرُ[٥] على

(١) فى ب التى نقلت عنها هذه الزيادة وحدها: «والعطاف». ولعل صوابه ما أثبتنا، إذ لم نجد العطاف فيما راجعناه من كتب الحيوان. وفى «كتاب حياة الحيوان» أن من أنواع العقاب ما يأوى إلى الصحارى.

(٢) الطيطوى: طائر لا يفارق الآجام وكثرة المياه، لأن هذا الطائر لا يأكل شيئا من النبت ولا من اللحوم، وإنما قوته مما يتولد فى شاطئ الغياض والآجام من دود التين. والذى فى (ب): «والطوطى»؛ والطوطى هى الببغاء، وهو غير مراد هنا.

(٣) الدحال: جمع دحل، وهو نقب ضيق الفم متسع الأسفل حتى يمشى فيه؛ وربما نبت فيه السدر.

(٤) المكاء: طائر أبيض يصفر ويصيح فى الرياض.

(٥) يشرشر، أى يرفرف، كما ذكره الدميرى فى حياة الحيوان فى الكلام على المكاء.

رأسها ويَدْنو منها ، حتى إذا فتحَتْ فاها تريده وهمّت به ألقى فى فيها حَسَكَةً ؛ فأخذتْ بحَلْقها حتى ماتت .

وأنشَدَ أبو عمرو الشَّيْبانىُّ قولَ الأسَدىِّ :

إن كنتَ أبْصَرتَنى قُلًّا(١) ومُضطَلَما   فربَّما قَتَل المُكّاءُ ثُعبانا

فقال — حرسَ اللهُ نَفْسَه — من أين للحيوان غيرِ الإنسان هذه الفطنة [وهذه الفضيلة] وهذه الجُرْأة وهذه الحيلة ؟ فقلتُ : شيخُنا أبو سليمان يقول فى هذه الأيام — وقد جرى حديثُ الحيوان وعجائِب أفاعيله — إن الإحساسات التى للحيوان على أصنافه لها غَرَضٌ عظيم ، وبذلك الغرض لها تفاوُتٌ [عظيم] ظاهرٌ وخافٍ ، وأفعالٌ معهودة ونادرة ، ولها أخلاق معروفة ، ومعارف موصوفة ؛ ولولا ذلك ما كان يقال : أصوَلُ من جَمَل ، وأغدَرُ من ذِئب ، وأروغُ من ثَعْلب ، وأجْبَنُ من صفْر ، وأجمَعُ من ذَرَّة(٢) ، وآلَفُ من كَلْب ، وأهدَى من قَطاة ، وأحذَرُ(٣) من عَقعق ، وأزهَى من غُراب ، وأظلَمُ(٤) مِن حَيّة . وأشدُّ عداوةً من عَقْرَب . وأخبثُ من قِرْد ، وأحمَقُ مِن حُبارَى ، وأكذَبُ من فاختة(٥) ،

(١) فى (ا) : « مذ أومضت ظلما » ، وهو تحريف . وفى (ب) : « قدا » ، وهو تحريف أيضا ، إذ لم نجد من معانى القد ما يناسب السياق . والقل من الناس : بضم القاف الفرد الذى لا أحد له . والمصطلم : من الاصطلام ، وهو الاستئصال . فلعله يريد الذى استؤصلت أهله ونصراؤه وبقى فردا .

(٢) الذر : النمل الأحمر الصغير .

(٣) الذى وجدناه فى كتاب حياة الحيوان فى الأمثال التى قيلت فى العقعق : ألص من عقعق ، وأحمق من عقعق ؛ ولم نجد أنه قيل : أحذر من عقعق كما هنا ؛ فلعل قوله « أحذر » محرف عن أحمق . والعقعق : طائر على قدر الحمامة ، وهو على شكل الغراب ، وجناحاه أكبر من جناحى الحمامة ، وهو طويل الذنب .

(٤) يقال ذلك للحية لأنها تأتى الجحر الذى لم تحتفره بل حفره غيرها فتسكنه .

(٥) الفاختة : من الحمام ذوات الأطواق ، وتوصف بحسن الصوت ، ويصفونها بالكذب لأنهم يزعمون أنها تقول فى صياحها : « هذا أوان الرطب » (بضم الراء) والنخل لم يطلع بعد . قال الشاعر :

أكذب من فاختة   تقول وسط الكرب
والطلع لم يبد لها :   هذا أوان الرطب

وألأَمُ مِن كلبٍ على جيفَة ، وأعقُّ[١] مِن ضَبٍّ ، وأبرُّ[٢] من هِرّة ، وأنفرُ من ظَليمٍ[٣] ، وأجرأُ من ليث ، وأحقدُ مِن فيل ؛ وعلى هذا .

قال : وكما أنّ بين آحاد نوع الإنسان تفاوُتاً فى الأخلاق ، كذلك بين آحاد نوع الحيوان تفاوُت ، وكما أنه يزل بعضُ العقلاء فيركب ما لا يُظن بمثلِه لعقلِه ، كذلك يزلُّ ويَغلَطُ بعضُ الحمقى فيأتى بما لا يُحسَب أنّ مِثلَه يهتَدِى إليه ، فليس العقلُ بحاظِرٍ على صاحبِه أن يَندُرَ منه ما يكون من الحيوان ، وأصنافُ الحيوان من الناسِ وغيرِ الناس تتقاسمُ هذه الأخلاقَ بضُروب المزاجِ المختلفة فى الأزمان المتباعدة ، والأماكن المتنازحة ، تقاسما محفوظَ النِّسَب بالطبيعة المستولية ، وإن كان ذلك التقاسمُ مجهولَ النِّسَب للغموض الذى يَغلِبُ عليه ، وإذا عُرِف هذا الشرح وما أشبهه ممّا يزيده وضوحا ، زال التعجّب الناشئ من جهل العِلة وخَفاء الأمر .

قال : ومن العَجَب أنا إذا قلنا : أروغ من ثعلب ، وأجبَنُ من صَقْر ، وأحقَدُ من فيل ، أن هذا الرَّوْغ وهذا الجُبْن وهذا الحِقْدَ فى هذه الأصناف ليست لتكون[٤] عُدّةً لها مع نوع الإنسان ، ولكن لتتعاطى أيضاً بينها ، وتستعملَها عند الحاجة إليها ؛ وكما يشبَّه إنسانٌ لأنّه[٥] لِصٌّ بالفأرة ، أو بالفيل لأنّه حَقُود ، أو بالجَمَل لأنّه صَؤُول ، كذلك يُشبَّه كلُّ ضَرْب من الحيوان فى فعلِه وخُلقه وما يَظهر من سِنخِه بأنه إنسان .

(١) يقال : أعقّ من ضب ، لما يقال من أن أنثاه تأكل أولادها .
(٢) يقال هذا المثل لأنهم يزعمون أن الهرة تأكل أولادها لشدة حبها إياها .
(٣) الظليم : ذكر النعام .
(٤) فى كلتا النسختين ليست تكون والسياق يقتضى زيادة اللام كما أثبتنا .
(٥) فى الأصول « بأنه » ؛ وهو تحريف .

ويقال للبليد من الناس : كأنّه حِمار ؛ ويقال للذكيّ من الخيل : كأنه إنسان ؛ ولولا هذا التمازُجُ فى الأصل والجوهر ، والسِّنْخِ والعُنْصُرِ ، ما كان هذا التشابه فى الفرع الظاهر ، والعادةِ الجارية بالخَبرِ والنَّظر .

فقال[1] : هذا كلامٌ لا مزيدَ عليه .

وقالت العلماء : إن هذا الاعتبار واصلٌ فى الحقيقة إلى جنْسِ النّبات ، فإن (٢)
النخلَ والمَوْزَ لا يَنْبُتان إلاّ فى البُلْدان الدَّفِئة والأرض اللَّيِّنة التُّرْبة ، والجَوْزَ والفُسْتُق وأمثالَها لاينْبُتان إلاّ فى البلدان الباردة [والأرضِ] الجبَليّة . والدُّلْبَ وأمَّ غَيْلانَ فى الصَّحارى والقِفار ؛ والقَصبَ والصَّفْصافَ على شُطوط الأنهار .

قالوا : وهكذا أيضاً وصف الجواهر المَعْدنيّة ، كالذهب ، فإنه لا يكون إلا فى الأرض الرَّمْليَّة والجبالِ والأحجارِ الرِّخْوة . والفضّة والنحاس والحديد لا تكون إلا فى الأرض النَّديَة والترابِ اللّيِّن والرّطوبات الدُّهنية ، والأملاح لا تَنْعَقِد إلاّ فى الأراضى [والبِقاع] السَّبِخَة ، والجص والاسفيداج لا يكونان إلاّ فى الأرض الرّمليّة المختلطةِ تُرابُها بالحصَى ، والزّاجُ لا يكون إلاّ فى التراب العفِص ؛ وقد أَحْصَى بعضُ من عنِيَ بهذا الشأن هذه الأنواعَ المعدنيّةَ فوَجَدَها سبعَمائة نَوْعٍ .

وقالوا : من الجواهر المعدنيّة ما هو صُلْب لا يذوب إلاّ بالنار الشديدة ، ولا يُكْسَر إلاّ بالفأس كالياقوت والعقيق : ومنها تُرابىٌّ رِخْوٌ لاَ يَذُوب ولكن يَنْفَرِكُ ، كالمِلْح والزاج ، والطَّلْق[2] ؛ ومنها مائىّ رطب يَنْفِرُ[3] من النار

(١) فقال ، أى الوزير .

(٢) الطلق : حجر براق يتشظى إذا دقّ يتخذ منه مضاوىء للحمامات بدلا من الزجاج ، ويحلّ بأن يجعل فى خرقة مع حصوات ويدخل فى الماء الفاتر ثم يحرك برفق حتى ينحل ويخرج من الخرقة فى الماء ؛ ثم يصفى عنه الماء ، ويشمّس ليجفّ .

(٣) فى (ا) يفر من النار .

كالزِّئبق ، ومنها هَوائىٌّ دُهْنِىٌّ تأكُلُه النار ، كالـكِبْريت والزِّرْنيخ ؛ ومنها نباتىٌّ كالمَرْجان ، ومنها حيوانىٌّ كالدُّرّ ، ومنها طَلٌّ مُنْعَقِد ، كالعنبر والبادزهر ، وذلك أنّ العنبرَ إنّما هو طَلٌّ يَقَعُ على سطحِ ماء البَحْر ، ثم ينعقد فى مواضعَ مخصوصةٍ فى زَمان مقدَّر ؛ وكذلك البادزَهْر(١) ، فإنّه طَلٌّ يَقَعُ على بَعْض الأحْجار ، ثم يَرْسَخ فى خَلَلِها ، ويغيبُ فيها ، ويَنْعَقِد فى بِقاعٍ مَخْصُوصَةٍ ، فى زَمانٍ معلوم ، وكالتَّرَنْجُبِين الّذى هُوَ طَلٌّ يَقَع على ضَرْبٍ من الشَّوْك ؛ وكذلك اللُّكُّ فإنّه يَقَعُ على نَباتٍ مخصوصٍ يَنْعَقِد عليه ؛ وكذلك الدُّرّ فإنّه طَلٌّ يَرْسَخُ فى أصداف نَوْعٍ من الحيوان البَحْرِىّ ، ثم يَغْلُظُ ويَجْمُد ويَنْعَقِد فيه ؛ وكذلك الموميا ، وهى طَلٌّ يَرْسَخ فى صخورٍ هناك ويصيرُ ماء ثم يَنِزُّ من مَسامَّ ضَيِّقَةٍ وَيَجْمُدُ ويَنْعَقِد(٢) .

والطَّلُّ هو رُطوبةٌ هوائيّـةٌ تجْمُد من بَرْدِ اللّيل ، وتقع على النّبات والشَّجَر والحَجَر والصَّخْر ؛ وعلى هذا القياس جميع الجواهر المعدنيّة ، فإن مادتها إنما هى رطوباتٌ مائيّة ، وأنداء وبُخاراتٌ تَنْعَقِد بطُول الوُقوع ومَرِّ الزَّمان .

وقالت الحُكَماء الأوّلون : ها هنا طبيعةٌ تألفُ طبيعةً أخرى ، وطبيعةٌ تلزَق بطبيعة أخرى ، وطبيعةٌ تأنَس بطبيعة ، وطبيعةٌ تتشبّه بطبيعة ، وطبيعة

---

(١) الذى وجدناه فى مفردات ابن البيطار أن البادزهر حجر ينفع من السموم ، ومنه الأصفر والأغبر والمنكت والمشرب بخضرة وغير ذلك ، ومعادنه ببلاد الصين والهند ، ولم نجد أنه طل منعقد فى بعض الأحجار كما ذكره المؤلف هنا .

(٢) ذكر ابن البيطار من أنواع الموميا هـذا النوع الذى ذكره المؤلف ، فذكر أن هذا الاسم يقال على حجارة تكون بصنعاء اليمن سود ، وفيهـا أدنى تجويف ، وهى إلى الخفة تكسر فيوجد فى ذلك التجويف شىء سيّال أسود ، وتقل هذه الحجارة إذا كسرت فى الزيت فتقذف جميع ما فيهـا من تلك الرطوبة السوداء السيالة ، كما ذكر أنواعا أخرى من الموميا فانظرها ثم .

تَقْهَر طَبيعة ، وطبيعةٌ تَخْبُث مع طبيعة ، وطبيعة تَطِيبُ مع طبيعة ، وطبيعةٌ تُفْسِد طبيعة ، وطبيعة تُحمِّرُ طبيعة ، وطبيعة تُبيِّضُ طَبيعةً ، وطبيعة تَهْرُبُ من طبيعة ، وطبيعةٌ تُبْغِض طبيعة ، وطبيعةٌ تُمازِجُ طبيعة .

فأمّا الطبيعة الّتى تألَف طبيعةً فمِثلُ الماسِ فإنّه إذا قَرُب من الذّهَب لَزِق به وأمْسَكه ، ويقال : لا يوجَد المـاسُ إلّا فى مَعْدِن الذّهَبِ فى بلدٍ من ناحية المشرق .

ومِثلُ طبيعة المَغْنَاطيس فى الحديد ، فإنّ هٰذين الحجرين يابسان صُلْبان ، و بين طبيعتيهما أُلْفَة ، فإذا قَرُبَ الحديدُ من هذا الحجَر حتى يَشَمَّ رائحته ذَهب إليه والتَصَق به وجذَبَ الحديدَ إلى نَفْسه وأمْسَكه كما يفْعَل العاشق بالمعشوق . وكذلك يَفْعَل الحجر الجاذب للخَزِّ(١) والحجرُ الجاذب للشَّعر ، والجاذِبُ للتِّبن ؛ وعلى هذا المثال ما من حجر من أحجارِ المَعْدِن إلا و بين طبيعته و بين طبيعةِ شىءٍ آخَرَ إلفٌ واشتياق ، عُرِف ذلك أو لم يُعرَف ؛ ومِثلُ هذا ما يكون بين الدواء والعُضْوِ العليل ، وذٰلك أنّ مِنْ خاصّة كلِّ عضوٍ عليلٍ اشتياقَه إلى طبيعةِ الدَّواء الّتى هى ضـد طبيعةِ العِلّةِ التى به ، فإذا حَصَلَ الدواء بالقُرْب من العُضْوِ العَليل وأحَسَّ به جذبتْـه القوّة الجاذبةُ إلى ذٰلك العضو وأمْسَكَتْ الممسِكةُ واستعانتْ بالقوّة المدبِّرَة لِطبيعة الدواء على دفع الطبيعة المؤلِّفـة للعِلة وقويت عليها ودفعَتْها عن العضو العليل كما يَسْتعين ويَدفع المُحَارِبُ والمخاصِمُ بقوّة من يُعينُه على خَصمِه وعَدُوّه ويَدْفَعُه عن نَفْسه ؛ وأمّا الطبيعةُ الّتى تَقْهَرُ طبيعةً أخرى فمِثْلُ طبيعةِ السُّنْبَاذَج(٢) الّذى يأكُلُ الأحجارَ عنـد الحَكّ

(١) فى كلا الأصلين « العمر » ؛ وهو تحريف .

(٢) السنباذج حجر يجلو به الصيقل السيوف ، وتجلى به الأسنان ، وهو حجر كأنه مجتمع من رمل خشن .

أُكُلًا ويُلينُها ويَجعَلُها مَلْساء . ومثل طبيعة الأُسْرُب الوسخ فى الماس القاهرِ لسائر الأحجارِ الصُّلْبة ، وذلك أنّ المـاسَ لا يَقْهَرُه شىء من الأحجار ، وهو قاهر لها كلِّها ، ولو تُرِكَ على السِّنْدان وطُرِقَ بالمِطْرَقة لدَخَل فى أحَدِها ولم يَنكَسِر ، وإن جعل بين صفيحتين من أُسْرُبٍ[١] وضُمَّتا عليه تَفَتَّتَ ؛ ومِثْلُ طبيعة الزئبق الطيارِ الرَّطْب القليلِ الصبرِ على حَرارةِ النّار ، إذا طلى به الأحجار المعدنية الصلبة مِثلُ الذهب والفِضَّة والنّحاس والحَديد أَوْهَنَهـا وأَرْخَاها حتى يمكن أن تُكْسَر بأهونِ سَعْيٍ ، وتتَفَتَّتَ قِطَعاً .

ومِثلُ الكِبْريت المُنْتِن الرائحةِ المسوِّدِ للأحجار النيِّرة البرّاقة ، المذهِب لألوانها وأصباغها ، يمكِّن النارَ منها حتّى تَحْتَرِقَ فى أسرع مدّة . والعِلّةُ فى ذلك أنّ الكِبْريت رُطوبةٌ دُهْنِيّةٌ لَزِجَةٌ جامدة ، فإذا أصابتـه حرارة النار ذاب والتزق بأجساد الأحجار ومَازَجَها ، فإذا تمكنت النارُ منها احترق وأحْرَقَ معه تلك الأجسادَ ياقوتاً كانت أو ذَهَباً أو غيرَها .

وأمّا الطبيعة التى تَرْسُبُ[٢] فى طبيعة أخرى وتُنيرُها[٣] ، فمِثلُ النُّوشاذَر الّذى يغوص فى قعر الأشياء ويَغسِلُها من الوَسَخ .

وأما الطبيعة التى تُعينُ طبيعةً أُخرى فمثل البَوْرَق الذى يُعين النارَ على سَبْك هذه الأحجار المعدنيّة الذائبَة ، ومِثْلُ الزّاجاتِ والشُّبوب التى تَجْلُوها وتُنيرُها وتَصْبُغها ، ومثل المَغْنيسيا والقِلْي[٤] المُعينَيْن على سَبْك الرَّمْل وتَصْفيَته

(١) الأسرب : الرصاص الأسود .

(٢) فى كلتا النسختين « تربى بطبيعة » ؛ وهو تحريف ؛ وما أثبتناه هو ما يقتضيه سياق الكلام الآتى .

(٣) فى ب « وتثيرها » . وفى (ا) « وتديرها » ؛ وهو تحريف .

(٤) القلى ويقال فيه قلى كإلى ، هو شبّ العصفر ، ويتخذ من حريق الحمض ، وأجوده المتخذ من الحرض ، وهو قلى الصباغين وبقية أنواعه تستعمل فى صناعة الزجاج (ابن البيطار) .

حتّى يكونَ منه زُجاج ؛ وعلى هذا المثال جميعُ الأحجار المعدِنيّة .

النارُ هى الحاكمة بين الجواهر المعدنيّة بالحق .

ويقال : من أدْمَنَ الأكْلَ والشُّرْبَ فى أوانى النّحاس أفْسَدَتْ مزاجَه ، وعَرَضَ له أمراضٌ صَعْبة ، وإن أُدْنِيَتْ[1] أوانى النّحاس من السَّمَك شَمِمْتَ لها رائحةً كريهة وإن كُبّتْ آنيةُ النّحاس على سَمكٍ مشويّ أو مطبوخٍ بحرارته حَدَثَ منه سُمٌّ قاتل .

القَلَعى[2] قريبٌ من الفِضّة فى لونه ، ولكن يخالفها فى ثلاث صِفات : الرائحةِ والرَّخاوةِ والصَّرير ، وهذه الآفات دخلتْ عليه وهو فى مَعْدِنِهِ كما تدخُلُ الآفاتُ على المَفْلوج وهو فى بطن أُمّه ؛ فرَخاوَتُه لكَثْرَةِ زِئبَقِه ، وصَريرُه[3] لغِلَظِ كِبْريته .

ويقال : إنّ لونَ الياقوت الأصفرَ والذهب الإبريز ، ولونَ الزعفران وما شاكلها من الألوان المُشْرقةِ منسوبةٌ إلى نور الشمس وبَريقِ شُعاعها ، وكذلك بياضُ الفِضّةِ والمِلْح والبِلّوْر والقُطْن وما شاكله من ألوان النّبات منسوبةٌ إلى نُور القمرِ وبَريقِ شُعاعِه ؛ وعلى هذا المثال سائرُ الألوان .

وقال أصحاب النجوم : السواد لزُحَل ، والحُمْرة للمرِّيخ ، والخُضْرة للمُشْتَرِى ، والزُّرْقةُ للزُّهرَة ، والصُّفْرة للشّمس ، والبياضُ للقمَرَ ، والتّلَوُّنُ لعُطارد .

ويقال : إن العلّة الفاعلةَ للجواهر المَعْدنيّة هى الطّبيعة ، والعِلّةَ الطِّينيّة

---

(١) فى كلتا النسختين : « أدهنت » ؛ وهو تحريف .

(٢) القلعىّ ، هو الرصاص الجيد . وفى نسخة « القلى » ؛ وهو تحريف إذ الأوصاف التى ذكرها المؤلف هنا لا تنطبق على القلى الذى سبق التعريف به فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١١٠ من هذا الجزء ، فانظرها ثمّ .

(٣) لعله : « ورائحته » إذ المعروف أن الكبريت سبب فى الرائحة لا فى الصرير . ويلاحظ أنه قد نقص التعليل لواحد من الثلاثة المذكورة قبل .

الزِّئبقُ والكِبْريت ؛ والعِلّةُ الصُّورِيّة دَوَرانُ الأفلاك وحركاتُ الكواكب حَوْلَ الأركان الأربعة الّتى هى النّار والهواء والماء والأرض ؛ والعلّةُ التّماميّة المنافعُ التى ينالُها الإنسانُ والحيوان .

ويقال : إن الجواهر المعدنيّة ثلاثة أنواع : منها ما يكون فى التّراب والطِّين والأرض [السَّبِخة ، ويتمّ نُضْجُه فى السَّنة وأقلّ كالكباريت والأملاح والشُّبوبِ والزّاجات وما شابهها] ؛ ومنها ما يكون فى قَعْر البِحار وقرارِ المِياه ، ولا يتمّ نُضْجُه إلّا فى السّنة [أو أكثر] كالدُّرّ والمَرْجان ، فإنّ أحدَهما نباتٌ وهو المرجان ، والآخرَ حيوان ، وهو الدُّرّ .

ومنها ما يكون فى وسط الحَجَر وكُهوف الجِبال وخَلَلِ الرّمال فلا يتمّ نُضْجُه إلّا فى السِّنين ، كالذهب والفضّة والنّحاس والحديد والرّصاص وما شاكلَها ؛ ومنها ما لا يتمّ نُضْجُه إلا فى عَشَرات السنين ، كالياقوت والزَّبَرْجَد والعَقيق وما شاكلَها .

(٣) وقال بعضُ من حضر المجلسَ — وهو الرّجُلُ القَدْمُ الثّقيل — : إنّ الزارع لا يَزْرَعُ طالباً للعُشْب ، بل قَصْدُه للحَبّ ، ولا بدّ للعُشْب من أن يَنْبُت إنْ أَحَبَّ أو كَرِه ، فلِمَ ذلك ؟ فقيل له : قد يَصْحَب المَقْصودَ ما ليس بمقصود ، من حيثُ لا يَتِمُّ المقصودُ إلّا بما ليس بمقصود ، والعُشْب هو فَضَلات الحَبّ ، وبه صفاء الحَبّ وتَمامُه ، ولولا[1] القوّةُ التى تصفّى الحَبّ وتُصَوِّرُهُ بصورته الخاصة به ، وتَنْفِى كَدَرَه وتُحَصِّلُ[2] صَفْوَهُ لكان العُشْب فى بَدَنِ الحَبّ ، وحينئذ لا يكونُ الحَبّ المُنْتَفَع به المخصوصُ باُسمِه المعروفُ بعَيْنه ، بل يكون شىء

(١) فى كلتا النسختين « ولولا أن القوة » ، وقوله : « أن » زيادة من الناسخ .
(٢) فى كلتا النسختين : « وتحضر » ؛ وهو تحريف .

آخرَ ؛ فلمّا تميّزتْ تلك الشّوائب التى كانت ملابِسةً له من أجزاء الأرض والماء وآثار الهواء والنار ، خَلَص منتفعًا به ، مقصوداً بعَيْنه ، فوَجَبَ بهذا الأعتبار أن يكون الحَبُّ بالذّات ، والعُشْبُ بالعَرَض .

فقال — أدام الله دَوْلَتَه — هل تَعْرِفُ العربُ الفَرقَ بين الرُّوح والنَّفْس في كلامها ؟ وهل في لَفْظِها مِنْ نَظْمِها ونَثْرِها ما يدلّ على ما بينهما ، أو هما كشيء واحد لَحِقَه أسمان ؟ (٤)

فكان الجواب : إنّ الأستعمال يَخْلطُ هٰـذا بهٰذه وهٰذه بهٰذا في مواضعَ كثيرة ، وإذا جاء الأعتبار أفْرَدَ[1] أحدَهما من الآخَر بالحَدّ والأسم ؛ وعلى هٰذا أتّفق رأيُ الحُكَماء ، لأنّهم حَكَموا بأنّ الرُّوحَ جسمٌ لطيف مُنْبَثٌّ في الجسد على خاصٍّ ماله فيه[2] فأمّا النّفس الناطقة فإنها جوهرٌ إلٰهيّ ، وليست في الجسد [على خاصٍّ ما له فيه] ولكنّها مدبِّرةٌ للجسد ؛ ولم يكن الإنسانُ إنسانا بالرُّوح ، بل بالنّفس ، ولو كان إنسانا بالرُّوح لم يكن بينَه وبين الحِمار فَرْق ، بأن كان له رُوحٌ ولكن لا نفسَ له . فأما النَّفْسان الأُخْرَيان اللّتان هما الشّهَوِيّة والغَضَبِيّة فإنّهما أشدّ أتّصالا بالرُّوح منهما بالنفس ، وإن كانت النفسُ الناطقةُ تدبِّرهما وتَمُدّهما وتأمُرُهما وتَنْهاهما ؛ فهذا أيضاً يُوَضِّح الفرقَ بين الرُّوح والنَّفْس ، فليس كلُّ ذى رُوحٍ ذا نَفْس ، ولكن كلُّ ذى نَفْسٍ ذو رُوح ؛ وقد وَجَدْنا في كلام العَرَب مع هذا الفرقَ بينهما ، فإن [النابغة] قد قال للنُّعمان بن المُنْذر :

وأَسْكَنْتَ نَفْسى بعد ما طارَ رُوحُها ... وألبستنى نُعْمَى ولستُ بشاهدِ

---

(١) في كلتا النسختين « قرّب » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به السياق .
(٢) في «ب» « منه » مكان قوله : «فيه» .

وقال أبو الأسود :

لَعَمْرُكَ ما حَشَاكَ اللهُ رُوحا به جَشَعٌ ولا نفسا شَرِيرة

قال : هذا مِنَ الفوائد التى كنتُ أَحِنّ إليها ، وأَستَبْعِدُ الظَّفَرَ بها ، وما أنفعَ المُطارَحَةَ والمُفاتحةَ وبَثّ الشكّ وأستماحةَ النّفْس ، فإنّ التّغافُلَ عمّا تَمَسّ إليه الحاجةُ سوء أُختيار ، بل سُوءِ توفيق .

وما أحسنَ ما قال بعضُ الجِلّة : تَوَانَيْتُ فى أوانِ التعلُّم عن المسْئلة عن أشياء كانت الحاجةُ تَحْفِزُ إليها والكسلُ يَصُدّ عنها ، فلما كَبِرتُ أَنِفْتُ من ذِكْرِها وعرْضها على مَنْ عِلْمُها عندَه ، فبقيَتِ الجهَالةُ فى نَفْسِى ، وَرَكَدَت الوَحْشَةُ بين قلبى وفِكْرِى .

ثم جَرَى فى حديث النفس ذِكْرُ بعض العُلماء فإنّه قال : إنّ نفْسَك هى إحدى الأنْفُس الجُزْئيّة من النفس الكلّيّة ، لا هى بِعينِها ، ولا منفصلةٌ عنها ، كما أنّ جسدَكَ جُزْءٌ مِن جَسَد العالَم لا هو كلّه ولا منفصِلٌ عنه ؛ وقد مرّ مِن أمْر النّفس مافيه إيضاحٌ تامٌ وأُستِبْصارٌ واسع ، وإن كان الكلامُ فى نعت النّفس لا آخِرَ له ، ولا وقوفَ عنه .

ولو قال قائلٌ : إنّ جَسَدَكَ هو كلُّ العالم لم يكن مُبْطِلا ، لأنّه شبيهٌ به ، ومسلولٌ منه ، وبحقّ الشّبه يحكيه ، وبحقّ الأنسلال يستمدّ منه ؛ وكذلك النّفس الجزئيّة هى النفس الكلّيّة ، لأنها أيضاً مشاكِهةٌ لها ، وموجودةٌ بها ، فبحقّ الشَّبَه أيضاً تَحْكِى حالَها[1] ، وبحقّ الوجود تَبقى ببقاءها ، فليس بين الجسد إذا أُضيفَ إلى العالَمَ ، والنّفسِ إذا قِيسَتْ بالأُخرَى فَرْق ، إلاأنّ الجَسَد معجونٌ

(١) فى الأصل « تجد مالها » ولا معنى له ؛ ولعل الصواب ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

من الطِّينة ، والنَّفْسَ مدبَّرَةٌ بالقوّة الإلٰهيّة ؛ ولهذا أُحتِيج إلى الإحساس والموادّ ، وإلى الاقتباس(١) والالْتماس حتى تكون مُدّةُ الحياةِ الحِسِّية بالغة إلى آخرها من ناحية الجسد ، ويكونَ مبدأُ الحياة النفسيّة مَوْصولا بالأَبَد بعد الأبَد .

فقال — أدام الله سعادتَه — لو كان ما يَمرّ من هذه الفوائد الغُرَر والمَرامى الألطاف مَرْسوماً بسَوادٍ على بياض ، ومقيَّدا بلفظٍ وعبارة ، لكان له رَيْعٌ وإتاء ، وزيادةٌ ونَماء .

فكان الجواب إنَّ هٰذا غيرُ متعذِّر ولا صَعْبٍ إنْ نَفَّسَ اللهُ فى البقاء ، وصَرَفَ هٰذه الهمومَ الّتى تُقسِّمُ الفِكْرَ بالعوارض التى لا تُحتَسَب ، والأسبابِ التى لا تُعرَف ؛ فأمّا والأشغالُ على تَكاثُفِها ، والزّمان على تلوُّنِه فكيف يُمكنُ ذٰلك ؛ والعَجَب أنّه يجرى حرفٌ من هٰذه الأمور الشريفة فى هٰذه الأوقات الضيِّقة .

ولقد قال أبو سليمان أمسِ : كيف نشاطُ الوزير — أدام الله سعادتَه — (٥)
فى شأنِه ، وكيفَ كان تقبُّلُه لرسالتى إليه ، وتَلَطُّفى له ، وخِدْمَتى لدَوْلَتِه ؟ فقلت : ما ثَمَّ شىءٌ يحتاج إلى الزيادةِ من فهمٍ ودِراية ، وبيانٍ واُستبانة ، وهَشاشةٍ ورِفق ، واطّلاعٍ وتَأَنٍّ ؛ ولكنّ الوقتَ مستوعَبٌ بالتّدبير والنّظَر ، وكفِّ العدوّ بالمُداورَةِ مرّة ، وبالإحسان مرّة . فقال : اللهُ يُبْقيه ، ويُرِينا ما نُحبُّه فيه .

وقال أيضاً أبو سليمان : كيف لا يكون ما تَقَلّدَه ثقيلا ، وما تَصَدّى له عظيما ، وما يباشرُه بلسانِه وقلَمِه صَعْبا ، والأولياءُ أعداء ، والأعداء جُهّال ، والحَضُّ عليه من ورائه شديد ، ونصيحُه غاشّ ، وثِقَتُه(٢) مُرِيب(٣) ، والشَّغْبُ

(١) فى ب « وإلى القياس » . (٢) فى (ا) ونفيه ؛ وهو تحريف .
(٣) فى كلتا النسختين « قريب » ؛ وهو تحريف .

متّصل ، وطَلَبُ المال[1] لا آخِرَ له ، والمُصْطَنَع مستزيد ، والمحرومُ ساخِط ، والمالُ ممزَّق ، والتجديف[2] من الطالب واقع ، والتحكُّم بالإِدْلال دائم ، والاستقالة من الكبير والصغير زائدة ، والكلامُ ليس يَنفع ، والتدبُّرُ ليس يَقْمَع ؛ والوَعْظ هَباءٌ مَنْثور ، والأصل مقطوعٌ مَبْتور ؛ والسِرُّ مكشوف ، والعلانيةُ فاضحة ؛ وقد رَكِب كلٌّ هَواه ، وليس لأَحَدٍ فِكْرٌ فى عُقْباه ؛ واختَلَط المُبْرَمُ[3] بالسَّحيل ، وضاقَ على السّالِكِ كلُّ سَبيل ؛ ومَنابعُ الفسادِ ومَنابتُ التخليط كلُّها من الحاشية [التى] لا تعرف نظامَ الدولة ولا استقامةَ المَمْلكة ؟ وإنما سُؤْلُها[4] تَعْجيلُ حَظٍّ وإن كان نزراً ، واستلابُ دِرْهَمٍ وإن كان زَيْفاً ، ولَعمْرِى ليس يكون الكَدَرُ إلّا بعد الصَّفْو ، كما لا يكون الصَّفْوُ إلّا بعد الكَدَر ، هكذا الليلُ والنَّهار ، والنورُ والظَّلامُ ، هٰذا يَخْلُف هٰذا ، وهذا يَتْلو هذا .

قال : أعنى بهذا أنّه لما فُقِد المَلِكُ السعيدُ — رضى الله عنه — بالأمس حَدَث هذا كلُّه ، فإنه كان قد زَمَّ وخَطَم ، وجَبَرَ وحَطَمَ ، وأَسا وجَرَح ، ومَنَع ومَنَح ؛ وأَوْرَدَ وأَصدَر ، وَأَظْهَر وسَتَر ، وسهل ووَعَّر ، ووَعَد وتَوَعَّد ، وأَنْحَسَ وأسعَد ، ووهَبَ زمانَه وحياتَه لهذا ، لأنه جعل لذّته فيه ، وغايتَه إليه ، واشْتَهى أنْ يطيرَ صيتُه فى أطراف الأرض فيَسْمَعَ ملوكُها بفِطْنَتِه وحزْمِه ، وتصميمه وعَزْمِه ، وجِدِّه وتَشْميره ، ورضاه فى موضع الرِّضا ، وسُخْطِه فى وقت السُّخْط ، ورَفْعِه لمن يَرْفَعُهُ بالحقّ ، ووَضْعِه لمن يَضَعُه بالواجب ؛ يُجرى الأمورَ بِسنَن الدِّين ما استجابت ، فإن عَصَتْ أَخَذ بأحكامِ السياسة التى هى الدنيا ، ولمّا كانت

---

(١) فى كلتا النسختين : « المحال » .
(٢) فى كلتا النسختين: « والتحريف » ؛ وهو تحريف . والتجديف: الكفران بالنعمة .
(٣) المبرم : الذى أحكم فتله . والسحيل : ضدّه .
(٤) فى كلتا النسختين : « نولها » ، وهو تحريف .

الأمور متلبِّسةً بالدِّين والدنيا لم يَجُزْ للعاقل الحَصيف ، والمدبِّر اللَّطيف أن يُغمِل التدبيرَ فيها من ناحية الدِّين فَحَسْب ، ولا من ناحية الدُّنيا فقط ، لأنّ دائرةَ الدِّين إلٰهيّة ، ودائرةَ الدنيا حِسِّيَّة ، وفى الإحساس أحقادٌ لا بدّ من إطفاء ثائرتها ، وصنائعُ لا بدّ من تربيَتِها ، وموضوعاتٌ لا بد من إشالتها(١) ومرفوعاتٌ لا بد مِنْ إزالتها ؛ وتدبيراتٌ لا بدّ من إخْفائها(٢) ، وأحوالٌ لا بدّ من إبدائها ، ومَقاماتٌ لا بدّ من الصَّبر على عَوارضِ ما فيها ، وأمورٌ هى مَسطورةٌ فى كتُبِ السِّياسات للحُكَماء لا بدّ من عِرْفانها والعملِ بها والمصيرِ إليها ، والزيادةِ عليها ؛ فليس الخبرُ كالعِيان ، ولا الشاهدُ كالغائب ، ولا المَظْنونُ كالمُسْتَيْقَن .

ثم قال : — أعنى أبا سليمان — وهذا كلُّه مَنوطٌ بالتوفيق والتأييد اللّذين إذا نَزَلا من السَّماء واتَّصلا بمَفْرِق السائسِ تَضامَّتْ أحوالُه على الصَّلاح ، وانتَشَرَتْ على النَّجاح ؛ وكُفِيَ كثيراً من هُمومه ؛ ثم دَعا للوزير بالبقاء المَديد ، والعَيْشِ الرَّغيد والجَدِّ السَّعيد ؛ وأمَّن الحاضرون على ذلك ، وكانوا جَمًّا غَفيراً ، لا فائدة فى ذكر أسمائهم والإشارةِ إلى أعيانِهِمْ ؛ وكلُّهم لمَّا سمعوا هذا الكلامَ الشريفَ عَجِبوا منه ، وعَوَّذوه وسألوه أن يَنْظِمَ لهم رسالةً فى السياسة ؛ فقال : قد رسمتُ شيئاً منذ زمان ، وقد شاع وفشا ، وكُتِب وحُمِل فى جملة الهديّة إلى قابوسَ بجُرْجانَ ، فهذا — أيُّها الشيخ — نَمَطُ أبى سُليمانَ وأنتَ عنه مشغول ، قد رَضيتَ بتَرْكِ النَّظرَ فى أمْرِه ، وبَذْلِ الجاه له فيما عاد بِشأنه ، والله ما هذا لسوء عَهْدِك فيه ، ولا لحَيْلُولةِ نيَّتِك [عنه] ؛ ولكن لقلّة حَظِّه منك وإنحاء الزَّمان على كلّ مَن يَجْرِى مَجراه ، مع عَوَزِ مِثْلِه فى عصرِه ؛ وكيف تُتَّهم بسوء اعتقاد

(١) فى كلتا النسختين : « أسالبها » ؛ وهو تحريف ، وإشالة الشيء : رفعه .
(٢) فى كلتا النسختين « من اجفانها » ؛ وهو تصحيف .

وقلّةِ حفاظٍ ، وتوانٍ عن رعايةِ عهدٍ ، وقيامٍ بحقٍ ، وأنتَ من فَرْقِكَ إلى قَدَمِكَ فضلٌ وخيرٌ وجود ومَجْدٌ وإحسانٌ وكَرَمٌ ومَعونةٌ ورِفْدٌ وإنعامٌ وتَفَقُّد وتعهُّد وبَذْلٌ وعُرْفٌ ؛ ولو كان أمرُؤٌ من الذَّهَب المصفَّى لـكُنْتَهُ [ولو كان أحدٌ من الرُّوح المصَّرف لـكُنْتَه] ؛ ولو كان أحدٌ من الضِّياء المحيطِ لـكُنْتَه ؛ فسبحان من خَلَقَكَ صِرْفًا بلا مزاج ، وصَفْواً بلا كَدَر ، وواحداً بلا ثان ، لقد فخَرَ(١) بكَ الشَّرق على الغَرْب ، وسُلِّمَ لكَ بلا خصومةٍ ولا شَغَب ، فأدام الله لكَ ما آتاكَ وأفاضَ عليكَ من لَدُنْه ما يُنوِّرُ مَسْعاكَ ؛ وبلَّغكَ السعادةَ العُظْمى فى عُقْباكَ ، كما بلَّغكَ السعادةَ الصُّغرى فى دُنْياكَ .

(٦) أعرِضُ أيُّها الشيخُ هـذا الحديثَ على ما تَرَى ، والكلامُ ذو جَيَشان ، والصَّدرُ ذو غَلَيان ، والقَلمُ ذو نَفَيان(٢) ومتدفِّقُه لا يُستَطاع رَدُّه ؛ ومُنْبَعِثُه لا يُقْدَر [على] تَسْهيله ، وخَطْبُه غَريب ، وشأنُه عَجيب ؛ وإنما يَعْرِفُ دِقَّه وجِلَّهُ من يَذُوقُ حُلْوَه ومُرَّه ، ومع هٰذا كلِّه ، فإنى أُذكِّرُك أمرى لتلْحَظَه بعَين الرِّعاية ، وأعرِض عليكَ حديثى لتَحْفَظه فى صحيفةِ العناية ؛ فلقد أمسيتُ بين صديقٍ يَشُقّ عَلَىَّ حُزْنه لِى ، وبين عدوٍّ تَسوءنى شماتَتُه بى ؛ وقد صَحَّ عندى أنَّ إقبالَكَ عَلَىَّ يُسْر ، كما أنَّ إعراضَكَ عنِّى عُسْر ، وأرجعُ إلى تمـام هٰذين الجزأين وإنه أحْرَى(٣) .

(٧) وأما حديثُ الزُّهَّاد وأصحابِ النُّسُك ، فإنّه كان تَقدَّم بإفرادِ جُزْءٍ فيـه ،

(١) فى (ب) «تحريك» ؛ وهو تحريف . وورد هذا اللفظ فى (أ) مطموس الحروف ؛ وما أثبتناه هو مقتضى السياق .

(٢) النفيان : من نفت السحابة الماء إذا مجّته . أو من نفت الريح التراب إذا أطارته. وفى (أ) «تقيان» ؛ وهو تصحيف . وفى ب «رميان»

(٣) فى «ب» وابتداء آخر .

وقد أثبتُّه في هذا الموضع ، ولم أُحِبَّ أن أعزِلَه عن جُملته ، فإن فيه تنبيهاً حَسَنا ، وإرشاداً مَقبولا ، وكما قَصَدْنا بالهَزْل الذى أفْرَدنا فيه جُزْءاً جامّا للنفس قصَدْنا بهذا الجزء الذى عَطفنا عليه إصلاحا للنفس وتهذيباً للخُلُق ، واقتداء بمن سَبَق إلى الخير واتّباعا لمن قَصَد النُّصْحَ ؛ وشَرَفُ الإنسان موقوفٌ على أن يكون فاتحًا لِباب من أبواب الخير على نَفْسِه وعلى غيره ، فإن لم يكن ذلك فلا أقلَّ [من أن يكون] مقتفيا لأثر من كان فاتحًا قبله ؛ ومن تقاعَسَ عن هذين الأمْرَين فهو الخاسر الذى جَهِلَ قيمةَ نفسه ، وضَلَّ عن غاية حَياته ، وحُرِمَ التوفيقَ في إصابة رُشْده ؛ واللهُ المُسْتَعان .

قال ابنُ مسعود : لو عرفَتِ البهائم ما عَرَفتم[1] ما أكلتُمْ سَمينا .

وقال أبو هُريرة : اللّهم إنى أسألُكَ قَلْبًا قارًّا ، ورزقًا دارًّا ، وعَمَلا سارًّا .

وقال بعضُ السَّلَف : اللهمّ إنِّي أسألُكَ قلباً شاكراً ، ولِساناً ذاكراً ، وبَدَناً صابراً .

وقال صالح بنُ مسمار : لا أدْرِى أنِعْمَتُهُ عَلَيّ فيما بَسَطَ لِى أفْضَلُ ، أم نِعْمَتُه فيما زَوَى عنّى ، لأنّه فيما بَسَطَ لى أحْياني ، وفيما زَوَى عنّى حَمَانى ، نظَرَ لى بما يَزِيد على نَظَرِى لنفسى ، وآتاني مِنْ عندهِ أكثرَ ممّا عِنْدى .

وقال الله عزَّ وجلَّ — لموسى — عليه السلام : حبِّبْنى إلى عِبادى . قال : وكيف أحبِّبك ؟ قال : ذَكّرهم آلائى ونعمائى .

وقال شَدّاد بنُ حكيم لبعض الواعظين : أيُّ شيء تقول إذا جلستَ على المِنبَر ؟ قال : أذكّرُهم آلاءَ اللهِ لِيشكرُوا ، وأذكّرُهم جفاءَهُمْ ليتوبُوا ، وأخبِرُهم عن إبليس وأعوانِه حتى يَحذَرُوا .

(١) في رواية : «ما عرفتم من الموت ما أكلتم منها سمينا» .

وقال بعضُ الصَّالحين : مَثَلُ الدُّنيا ونعيمِها كخابيةٍ فيها سُمٌّ وعَلَى رَأسِها عَسَلٌ ، فمن رَغبَ فى العَسَلِ سُقِيَ من السُّمِّ ، وَمَثَلُ شِدَّة الدنيا كمثَل خابيةٍ مملوءةٍ من العسل وعلى رأسها قَطَراتٌ من سُمٍّ ، فمن صَبَرَ على أكلِها بَلغ إلى العسل .

جاء رجلٌ إلى حاتم الزَّاهد بنميمةٍ ، فقال : يا هذا أبطأتَ عَني وَجئْتَ بثلاث جنايات ؛ بَغَّضْتَ إليَّ الحبيب ، وشغَلتَ قلبيَ الفارغ ، وَأَعْلَقْتَ نَفْسكَ التُّهَمة ، وَأَنت آمن .

وكان خالد بنُ صَفْوَانَ يقول : قَبولُ قوْلِ النَّمام شرٌّ من النميمة ، لأن النميمة دَلالة ، والقبولَ إجازَة ، وليس من دَلَّ على شيء كمنْ قَبِلَ وَأجاز .

وقال ابن السماك الواعظ : يُدْرِكُ النَّمَّامُ بنَميمَتِه ما لا يُدْرِكُ الساحِرُ بسِحْرِه .

وقال معمر : ما نَزَلَتْ بعبدٍ نازلةٌ فكان مَفزَعُه إلى الله إلّا فَرّج اللهُ عنه .

وقال عمر : ما أَسألُ اللهَ الرزقَ وقد فَرَغَ منه ، ولكن أَسْأَله أن يُبارِكَ لى فيه .

وقال مالك بنُ دينار : الجلوس مع الكلْب خيرٌ من الجلوسِ مع رفيق سوء .

وقال أبو هريرة : تَهادَوْاعِبادَ الله يَتَجَدّدْ فى قلوبكم الوُدّ ، وتَذْهَب السَّخيمة .

وقال حاتم : صاحِبُ الضِّغْنِ غيرُ ذى دين ، والغائبُ[1] غيرُ ذى عِبادَة . والنَّمّام غيرُ صَدوق ، والحاسد غيرُ مَنْصور .

وقال بعض السَّلَف : مَن اُستَقْصَى عيوبَ الناسِ بَقِى بلا أصدقاء .

وقال محمدُ بنُ واسع : ينبغى للرّجل أن يكون مع المرأة كما يكون أهلُ

(١) يريد بالغائب من يغتاب الناس .

المجنون مع المجنون ، يحتملون [منه] كلّ أذًى ومَكْروه .

قيل لمالك بن دينار [لو تزوجتَ ؛ قال :](١) لو استطعتُ لطلّقتُ نفسي .

قال شقيق : اشتريتُ بطّيخة لأُمّي ، فلما ذاقتْها سَخِطَتْ . فقلت : يا أُمّي ، على من تَرُدِّين القَضاء ومَنْ تَلُومين ، أحارِثَها أَمْ مُشْتَرِيها أم خالِقَها ؟ فأمّا حارِثُها ومُشْتَرِيها فما لهما ذَنب ، فلا أراكِ تلومين إلا خالقَها .

ويقال : إنّ عبداً حَبَشِيًّا ناوَلَه مولاه [شيئاً يأكُلُه] ، وقال : أعطِني قطعةً منه فأعطاه ، فلما أكَلَه وجَدَه مُرًّا ، فقال : يا غلام ، كيف أكلتَ هذا مع شِدَّةِ مَرارتِه . قال : يا مولاي ، قد أكلتُ من يَدِكَ حُلْواً كثيراً ، ولم أُحِبَّ أن أُرِيك مِنْ نَفسِي كَرَاهةً لمرارته .

وأوحى اللهُ تعالى إلى عُزَيْر : إذا نزلت بك بليّةٌ لا تَشْكُني إلى خَلْقي كما لم أَشْكُكَ إلى مَلائِكتي عند صُعودِ مَساوِئِكَ إليّ ، وإذا أذنَبْتَ ذنباً فلا تنْظُرْ إلى صِغَره ، ولكن أنظُرْ من أهديتَه(٢) إليه .

وقال لُقمان : إنّ الذّهب يُجرّبُ بالنّار ، وإنّ المؤمِنَ يُجرّبُ بالبَلاء .

وقال بعضُ السّلَف : عليكم بالصَّبْر فإن الله تعالى قال : (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) وقال : (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) . وقال : (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا) . وقال : (اصْبِرُوا وَصَابِرُوا) . وقال : (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ) .

(١) هذه التكملة أو مايفيد معناها ساقطة من كلا الأصلين ؛ والسياق يقتضي إثباتها .

(٢) من أهديته إليه ، يريد الله سبحانه وتعالى . وعبارة الأصل : «من أهداه إليك» ؛ وفيها تحريف ظاهر .

وقال الأَوْزاعىّ : المؤمن يُقِلُّ الكلامَ ويُكْثِرُ العَمَل . والمُنافِق يُكْثِرُ الكلامَ ويُقِلُّ العَمَل .

وقال فُضَيْل بنُ عِياض : الخَوْفُ ما دامَ الرجلُ صحيحاً أفضل ، فإذا نزل الموتُ فالرَّجاء أَفْضَل .

وقال النّبى — صلى الله عليه وسلّم — إيّاكم والخيانة ، فإنها بِئْسَت البِطانة ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « من رَدَّ عن عِرْضِ أخيه رَدَّ الله عَنْ وَجْهِهِ لَفْحَ النار يومَ القِيامة » .

ورُوِىَ مَنْ وُقِىَ شَرَّ لَقْلَقِه وقَبْقَبِه وذَبْذَبِه فقد وُقِىَ شِرَّةَ الشَّباب[1] .

وقيل لابن المُبارك : إنكَ لَتَحْفَظ نفسَك من الْغِيبَة . قال : لو كنتُ مُغْتاباً أحداً لأغتبْتُ والدىّ ، لأنهما أحقُّ بحَسَناتى .

وقال بعضُ الصّالحين : لو أنّ رَجُلا تَغَشَّى بألوان الطَّعام وقد أصابَ من النِّساء فى اللَّيل ، ورَجُلًا آخَرَ رَأى رُؤْيا على مِثالِ ما أصابَ الأوّل فى اليَقظَة ، فإذا مَضَيَا صار الحالِمُ والآخرُ سواء .

وقال شقيق : مَنْ أَبصَرَ ثَوابَ الشِّدّة لم يتمنَّ الخُروجَ مِنْها .

وقال شقيق لأصحابه : أَيُّما أَحَبُّ إليكم ، أَنْ يكون لكم شىءٌ على المَلِىء ، أو يكونَ شىءٌ لِلْمَلِىء عليكم ؟ فقالوا : بل[2] نُحِبُّ أن يكون لنا على المَلِىء . فقال : إذا كنتم فى الشِّدة يكون لكمْ على الله ؛ وإذا كُنْتُمْ فى النِّعْمة يكون لله عليكمْ .

وقال بعضُ السَّلَف : شَتّانَ ما بين عَمَلَين : عملٍ تَذهَب لَذّتُه وتَبْقَى تَبِعَتُه ، وعَملٍ تَذْهَبُ مَؤُونَته ويَبقى ذُخْرُه .

---

(١) اللقلق : اللسان . والقبقب : البطن ، والذبذب : معروف .

(٢) فى كلتا النسختين « بلا » ؛ وهو تحريف .

وقال الرَّقاشى فى مواعظه : خذوا الذَّهب من الحجَر ، واللؤلؤ من المَزْبلة .

وقال يحيى بنُ معاذ : العلمُ قبل العمَل ، والعَقْلُ قائدُ الخير ، والهوى مَرْكَبُ المعاصى ، والمالُ داء المُتكبِّر .

وقال : من تعلَّم عِلْمَ أبى حنيفة فقد تعرَّض للسلطان ، ومن تعلَّم النحوَ والعربيَّةَ دُلَّهَ بين الصِّبيان ، ومن عَلِمَ عِلْمَ الزُّهاد بلغَ إلى العَرْش .

وقال بعض الصَّالحين : إنَّ العُلماء يَسْقُون الناس ، فبعضهم من الغُدْران والحِياض ، و بعضهم من العُيون والقُلُب ، و بعضهم من البِحار الواسعة .

وقال حاتم : لا تَنْظُر إلى من قال ، ولكن أنظر إلى ما قال .

وقال مالك بن دينار : إنّى لا أقْدِر أن أعْمَل بجميع ما أقول .

وقال وُهَيْبُ بنُ الوَرْد : مَثَلُ عالِم السُّوء كمَثَل الحَجَر يقع فى السَّاقية فلا هو يشْرَبُ الماء ، ولا يُخَلِّى عن الماء فيذهبَ إلى الشجرة .

وقال النبىُّ صلى الله عليه وسلم : لأَنَا مِن غير الدَّجّال أخوَفُ عليكم . قيل : ومَنْ هو ؟ قال : الأَئمةُ المُضِلُّون .

وقال الثَّوْرِىّ : نعوذ بالله من فِتْنَة العالِم الفاجِر ، وفتنةِ القائدِ الجاهل .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : «سيكون فى أُمَّتى عُلماء فُسَّاق ، وقُرَّاء جُهَّال» .

وقال الثَّوْرِىّ : العِلمُ طبيبُ الدِّين ، والمالُ داؤه ، فإذا رأيتَ الطَّبيبَ يجُرُّ الداء إلى نفسه فكيفَ يعالجُ غيرَه .

وقال عيسى بنُ مريم : ما ينفع الأعمى ضَوْء الشَّمس وهو لا يُبْصِرُها .

وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : «أشدُّ الناسِ حَسْرَةً يومَ القيامة عالِمٌ عَلَّمَ الناس ونَجَوْا به ، وارْتُهِنَ هو بسُوء عمَله» .

وقال أحمد بنُ حَرْب : إن مَنازِل الدُّنيا لا تُقْطَع بالكلام ، فكيف يُقْطَع طريقُ الآخرة بالكلام .

وقال أبو مسلم الخَوْلانيّ : العلماء ثلاثة : رجلٌ عاشَ بعلمه وعاشَ به الناسُ ، ورجلٌ عاشَ بعلمه ولم يَعِشْ به الناس ، ورجلٌ عاش بعلمه الناسُ وهَلَك هو .

وشاوَرَ رجلٌ محمدَ بن أسلم فقال : إنّى أريدُ أن أُزوِّجَ بنتى ، فبِمَنْ أُزَوِّج ؟ قال : لا تُزَوِّجْها عالِمًا مفتونًا ، ولا كاسبًا[١] كاذبًا ، ولا عابدًا شاكًّا .

قيل[٢] : نَصَح إبليسُ فقال : إيّاكَ والكِبْر ، فإنّى تكبّرتُ فلُعِنْتُ ؛ وإياكَ والحِرْصَ فإن أباكَ حَرَصَ على أكْلِ الشَّجَرة فأُخرِجَ من الجنّة ؛ وإيّاكَ والحسدَ فإنَّ أحَدَ بَنِي آدمَ قتَلَ أخاهُ بالحَسَد .

ومَرَّ حاتِمٌ بقَوْمٍ يَكْتُبُونَ العِلْمَ فنظَرَ إليهمْ وقال : إن يكن معكم ثلاثةُ أشياءَ لن تُفْلِحُوا . قالوا : وما هى ؟ قال : هَمُّ أمْسِ ، واغتمامُ[٣] اليوم ، وخَوفُ الغَدِ .

وقال ابن عُمَر : كان فى بنى إسرائيل ثلاثةٌ خرجوا فى وَجْهٍ ، فأخذَهم المَطَر فدخلوا كهفًا ، فوقع حجرٌ عظيم على باب الكهف ، وبقوا فى الظلمة وقالوا : لا ينجينا إلا ما عملناه فى الرخاء . فقال أحدهم : إنى كنتُ راعيًا فأرحْتُ وحَلَبْتُ ، وكان لى أبوان وأولاد وامرأةٌ فسقيتُ أوّلا الوالدَين ثم الأولاد ، فجئتُ يومًا فوجدتُ أبوىَّ قد ناما فلم أوقظهما لحُرْمَتِهما ولم أسْقِ[٤] الأولادَ ،

(١) هذه الكلمة لم يرد منها فى كلا الأصلين غير سين وباء وألف وحرفين مطموسين فى أولها ، ولعل الصواب فيها ما أثبتنا .
(٢) ورد فى كلا الأصلين « قيل النصح من إبليس قال إبليس » ؛ ولعل صواب العبارة ما أثبتنا .
(٣) فى الأصول : « واغتنام » بالنون ؛ وهو تحريف .
(٤) فى (ا) : « أفق » ؛ وهو تحريف .

وبقيتُ قائماً إلى الصبح ؛ فإن كنتَ يا ربِّ قَبِلْتَ هذا منّى فاُجعل لنا فَرَجا ، فتحرَّك الحَجَر ودخل عليهم الضَّوء .

وقال الثانى : إنى كنتُ صاحبَ ضِياعٍ ، فجاءنى رجل بعد ما مَتَع النهار ، وكان لى أُجَراء يَحْصدون الزرع ، فاستأجرتُه ، فلما تم عملُهم أعطيتُهم أجورَهمْ، فلما بلغتُ إلى ذلك الرجل أعطيتُه وافياً كما أعطيتُ غيرَه ، فغضبوا وقالوا : تعطيه مِثلَ ماأعطيَتَنا . فأخذْتُ تلك الأُجرةَ واشتريتُ بها عِجَّوْلًا[1] ونَمى حتى كَثُرَ البَقَر ؛ فجاء صاحب الأجرة يَطلُبُ فقلتُ : هذه البَقَرُ كلُّها لكَ ، فسلَّمْتُها إليه ، فإن كنتَ يا ربِّ قَبِلتَ منّى هذا الوفاء ففرِّجْ عنا . فتحرَّك الحَجَرُ ودَخَل منه ضَوْءٌ كثير .

وقال الثالث : كانت لى بنتُ عَمٍّ فراوَدْتُها ، فأبَتْ ، حتى أعطيتُها مائةَ دينار فلما أردتُ ما أردتُ اضطربَتْ وارتَعدَتْ . فقلتُ لها : مالَكِ ؟ فقالت : إنى أخافُ اللهَ . فتركتُها ورجعتُ عنها ، إلٰهى فإن كنتَ قبِلْتَ ذلك منّى ففرِّج عنّا . فتحرَّكَ الحَجَرُ وسقَطَ عن باب الكهف وخرجوا منه يَمْشون .

وقال حاتم : لو أُدْخِلت السوقَ شِياهٌ كثيرةٌ لما اشترى أحدٌ المَهْزول ، بل يَقْصِد السَّمينَ للذَّبْحِ .

وقال يحيى بن معاذ : فى القلب عيونٌ يَهيجُ منها الخيرُ والشَّرّ .

وقال بعض الصالحين فى دعائه : اللهم إنّ أحَدَنا لا يشاء حتى تشاء ، فاُجعل مشيئَتَك لى أن تشاء ما يُقرِّبُني إليك ؛ اللهم إنك قدَّرْتَ حرَكاتِ العبد ، فلا يتحرك شىءٌ إلّا بإذنِكَ ، فاجعلْ حرَكاتى فى هَواك .

---

(١) العجّول والعجل واحد .

وقال قاسم بنُ محمّد(١): لأن يعيشَ الرّجُل جاهِلًا خيرٌ له من أن يقول مالا يعلم.

وقال الشعبى : لم يكن مجلسٌ أحبَّ إلىَّ من هذا المجلس ، ولأن أبْعُدَ(٢) اليومَ عن بِساطِه أحبُّ إلىَّ من أنْ أُحْبَسَ فيه .

وقال حاتم : إذا رأيتَ من أخيك عَيْباً فإن كتمتَه عليه فقد خُنْتَه ، وإن قُلْتَه لغيره فقد اُغتبتَه ، وإن واجَهْتَه به فقد أوْحَشْتَه ؛ قيل له : كيف أصنع ؟ قال : تَكْنى عنه ، وتُعَرِّضُ به ، وتجعَلُه فى جملة الحديث .

وقال : إذا رأيتَ من أخيك زَلَّةً فاطلبْ لها سبعين وجهاً من العِلَل ، فإن لم تجد فلُم نفسَك .

وقال إبراهيم بن جُنَيْد : إتَّخِذْ مِرْآتين ، وانظر فى إحداهما عيب نفسِك ، وفى الأخرى محاسنَ الناس .

وقال يحيى بنُ معاذ : الدنيا دارُ خراب ، وأخربُ منها قلبُ من يَعْمُرُها ، والآخرة دارُ عُمران ، وأعمَرُ منها قلبُ من يَعْمُرُها .

وقال ابن السماك : الدنيا كالعَرُوس المجلُوّة تشوّفَتْ لخُطّابها وفَتَنَتْ بغُرورها ، فالعيون إليها ناظرة ، والقلوبُ عليها والِهة ؛ والنفوس لها عاشقة ، وهى لأزْواجها قاتلة .

وقال بعض العارفين : الدنيا أربعةُ أشياء : الفَرَحُ والرّاحةُ والحَلاوةُ واللّذّة ؛ فالفَرَحُ بالقَلْب. والرّاحةُ بالبَدَن ، واللّذة بالحَلْق ، والحلاوةُ بالعين .

---

(١) كذا فى (ا) والذى فى (ب) « محمد بن القاسم » .

(٢) وردكلام الشعبى هذا فى نسخة واحدة دون الأخرى . ويشير إلى فساد العلماء وأنهم قد أصبحوا لا يرغب فى الجلوس إليهم . والذى فى النسخة « أقعد اليوم على بساطه » ؛ وهو تحريف .

وقال يحيى بن معاذ : الدنيا خَمْرُ الشيطان ، فمن سَكِر منها لم يُفِقْ إلا فى مَسْكَن النّادمين .

وقال بعض السلف : الزهد خَلْعُ الراحة ، و بذلُ الجهد ، وقطعُ الأمل .

وقال الأنطاكى أحمد بن عاصم : الزُّهْدُ هو الثِّقة بالله ، والتبرّؤُ من الخَلْق ، والإخلاصُ فى العمل ، وأحتمالُ الذُّل .

وقال داود — عليه السلام — فى دعائه : يا رازق النّعّاب فى عُشِّه .

وقال بعضُ السّلف : لو كُنتَ على ذنَبِ الرِّيح [لم] (١) تَفِرَّ مِن رزقِكَ .

وقال آخر : الإنسان بين رِزقه وأجَلِه ، إلا أنه مخدوعٌ بأمَله(٢) .

وقال عيسى بن مريمَ عليه السلام : خلقَك ربُّك فى أربع مراتبَ ، فكنتَ آمناً ساكناً فى ثلاث، وقلقلتَ فى الرابعة ، أولاها فى بطن أمِّك فى ظُلُماتٍ ثلاث ، والثانية حين أخرجكَ منه وأخرجَ لك لبَناً من بين فَرْثٍ ودَمٍ . والثالثة إذا فُطِمْتَ أطعَمَك المَرِىَّ الشَّهِىَّ ، حتى إذا اشتدت عِظامُك و بلغتَ تَمامَك صِرْتَ خائناً وأخذْتَ فى السَّرِقَةِ والحيلة .

وقال أنَس : رأيتُ طائراً أَكْمَهَ فتَحَ فاهُ فجاءت جرادة فدخلَتْ فَمَه .

وقال عيسى — عليه السلام — يا بْنَ آدم اعْتَبِرْ رِزْقَكَ بِطَيْرِ السماء ، لا يَزْرَعْن ولا يَحْصُدْن و إلهُ السَّماء يَرْزُقُهنَّ . فإنْ قلتَ : لها أجنحةٌ فاُعتبِرْ بحُمُرِ الوَحْش وبَقَرِ الوَحْش ما أسْمَنَها [وما أبْشَمَها] وأبْدَنَها !

وقال ابن السَّمَّاك لو قال العبد : يا ربِّ لا تَرْزُقنى لقال الله : بل أرزُقُكَ

---

(١) هذه الكلمة لم ترد فى نسخة (ا) التى وردت فيها وحدها هذه العبارة .

(٢) فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه العبارة : « بعمله » . وما أثبتناه هو مقتضى السياق .

على رَغْمِ أنفِكَ ، ليس لك خالقٌ غيرى ، ولا رازقٌ سِواى ، إن لم أرْزُقْكَ فمن يَرْزُقُك ؟

وقيل لراهب : مِن أينَ تأكل ؟ فقال : إن خَالقَ الرَّحَى يأتى بالطَّحِين .

وقال حاتم : الحمارُ يَعرِفُ طريقَ المَعْلَفَ ، والمنافِقُ لايَعرِفُ طريق السماء .

وقال إبراهيمُ بنُ أدْهَم : سألتُ راهِبًا من أين تأكُلُ ؟ قال : ليس هذا العلمُ عِنْدِى ، ولكن سَلْ رَبِّى من أين يُطْعِمُنى .

وقال حاتم : مَثَلُ المتوكِّل مَثَلُ رَجُلٍ أسْنَدَ ظهرَهُ إلى جبل .

وقال بعضُ الأبرار : حَسْبُكَ من التوكُّل ألاَّ تطْلُبَ لنَفْسِك ناصِرًا غيرَه ، ولا لرِزقِكَ خازِنًا غيرَه ، ولا لعَمَلِكَ شاهداً غيرَه .

وقال عبدُ الحميد بنُ عبد العزيز : كان لأبى صديقٌ وَرّاق ، فقال له [أبى] يوما : كيف أصبحتَ ؟ قال : بخير ما دامت يَدِى مَعِى ، فأصبحَ الوَرّاقُ وقد شَلَّتْ يَدُه .

قال أبو العالية : لا تَتَّكلْ على غيرِ الله فيَكلَكَ اللهُ إليه ، ولا تعملْ لغيرِ الله فيجعلَ ثوَابَ عَمَلِكَ عليه .

وقال رجلٌ لأبى ذَرّ : أنتَ أبو ذَرّ ؟ قال : نعم . قال : لولا أنكَ رَجُلُ سوء ماأُخرِجْتَ من المدينة . فقال أبو ذَرّ : بيْنَ يَدَىَّ عَقَبةٌ كَؤُودٌ إنْ نَجَوْتُ منها لا يضُرُّنى ما قُلْتَ ، وإنْ أَقَعْ فيها فأنا شَرٌّ مِمَّا تقول .

وقيل لفُضَيل : إن فلانًا يقع فيك . فقال : لأُغِيظَنَّ مَنْ أمَرَه[1] بذلك اللهمَّ اغفر له .

(١) من أمره بذلك ، يريد الشيطان .

وقال رجل لأبي هُرَيرة : أنتَ أبو هرَيرة ؟ قال : نعم . قال : سارق الذَّرِيرة[١] ؟ قال : اللهمَّ إن كان كاذباً فاغفرْ له ، وإن كان صادقاً فاغفِرْ لي ؛ هكذا أمَرَني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم .

وقال رجل لابن مُسكدَّم : يا كافر . قال : وَجَبَ عليَّ الشُّكرُ ، حيث لم يجْرِ ذلك على لساني ، ولم تَجِبْ عليَّ إقامةُ الحُجَّة فيه ، وقد طَوَيْتُ قلبي على جُمْلةٍ[٢] أشياء : قال : وما هنَّ ؟ قال : إنْ قُلْتَ ألفَ مَرَّة لا أجيبُك مرَّة ، ولا أَحقِدُ عليك ، ولا أشكوك إلى أحد ، وإن نَجَوْتُ مِنَ الله عزَّ وجلَّ بعد هذه الكلمة شفعتُ لك . فتاب الرجل .

كان للحسن جارٌ نَصْرانيّ ، وكان له كَنيف على السَّطْح ، وقد نَقَبَ ذلك في بيْته ، وكان يَتحلَّب منه البَوْل في بَيْتِ الحسن ، وكان الحسنُ أمَرَ بإناء فوُضِع تحته ، فكان يُخْرِج ما يَجْتمِع منه ليلا ، ومَضى على ذلك عشرون سَنةً ، فمرِض الحسَنُ ذاتَ يَوْمٍ فعاده النّصْرانيّ ، فرأى ذلك ، فقال : يا أبا سعيد : مُذْ كَمْ تَحْمِلُون مِنّي هذا الأذى ؟ فقال : منذ عشرين سنةً . فقَطَع النّصرانيُّ زُنّاره وأسْلَم .

وجاءت جاريةٌ لمنْصور بن مِهْران بمَرَقَةٍ فهَراقتْها عليه ، فلما أحسَّ بحَرِّها نظر إليها ، فقالت : يا مُعَلِّمَ الخَيْرِ اُذْكُرْ قولَ الله . قال : وما هو ؟ قالت : (وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ) قال : كَظَمْتُ . قالت : واذكُرْ (وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ) قال : قد عَفَوْتُ . قالت واذْكُرْ (وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ) . قال : اذْهَبي فأنتِ حُرَّة .

---

(١) الذريرة : ضرب من الطيب .

(٢) في كلتا النسختين : «خمسة» ؛ ولعله محرف عما أثبتنا إذ لم يذكر فيما بعد غير أربعة أشياء ، أو لعل الخامسة قد سقطت من الناسخ .

قال الحسَن : ما جَزْعَةٌ أحَبُّ إلىّ من جَزْعَةِ مُصِيبَةٍ رَدَّهَا صاحِبُها بصَبْرٍ ، وَجَزْعَةِ غَضَبٍ رَدَّها صاحبُها بحِلْمٍ.

وكان محمدُ بنُ المنكدِر إذا غَضِبَ على غُلامِه يقول : ما أشْبَهَكَ بسَيِّدِكَ !

وقال أبو ذَرّ : كيف يكون حليما من يَغْضَبُ على حِمارِه وسَخْلِه وهِرِّه .

وماتَ ابنٌ للرشيد فجَزِعَ جَزَعا شديداً ، فوَعَظَه العُلماء فلَم يتعظ ؛ فدَخَل مخنَّث وقال : أتأذَنُ لى فى الكلام ؟ قال : تكلَّمْ . فكشفَ عن رأْسِه وقام بين يديه ، وقال : يا أميرَ المؤمنين ، أنا رجل ، وقد تَشَبَّهْتُ بالنِّساء كما تَرَى ، فأىُّ شىء كنتَ تَصْنَعَ لو كان ابنُك فى الأحْياء وكان على صُورَتِى ، فاتَّعَظَ به وأخْرَجَ النوَّاحاتِ من الدّار .

قال وَهْب : مكتوبٌ فى الكُتُبِ القديمة : إن كنتم تريدون رَحمتى فارْحَمُوا عِبادى .

وقال جعفر بن محمد — عليهما السلام — حُسْنُ الجِوار عِمارة الدِّيار ومَثْرَاةُ المال .

ولما قرأ هٰذا الجُزْء — حَرَسه الله — ارتاح وقال : أين نحن من هٰذه الطَّرِيقَة ، إلى الله المُشْتَكَى .

الليلة الخامسة والعشرون

وقال — أدامَ اللهُ دَوْلتَه — ليلةً : أُحِبُّ أنْ أسمَعَ كلاماً فى مَرَاتِب النَّظْمِ والنَّثر ، و إلى أىِّ حَدٍّ يَنْتَهِيان ، وعلى أىِّ شَكْل يتَّفِقان ، وأيُّهما أجمَعُ للفائدة ، وأرْجَعُ بالعائدة ، وأدْخَلُ فى الصِّناعة ، وأوْلَى بالبَراعة ؟ ؟

فكان الجواب : إنَّ الكلامَ على الكلامِ صَعْب . قال : ولِمَ ؟ قلتُ : لأنَّ الكلامَ على الأمور المعتمَد فيها على صُوَرِ الأمور وشُكولها التى تنقسم بين المعقول وبين ما يكون بالحِسّ مُمكِن ، وفَضاء هٰذا متّسِع ، والمجالُ [فيه] مختلف[1] . فأمّا الكلامُ على الكلام فإنّه يَدُور على نَفْسه ، ويَلتَبِسُ بعضُه ببعضِه ؛ ولهٰذا شَقّ النَّحْوُ وما أَشْبَه النَّحْوَ من المَنطِق ، وكذٰلك النَّثْرُ والشِّعْرُ وعلى ذٰلك . (١)

وقد قال الناس فى هٰذين الفَنَّين ضروباً من القَوْل لم يَبْعُدوا فيها من الوَصْفِ الحَسَن ، والإنْصاف المحمود ، والتَّنافُس المقبول ، إلاّ ما خالَطَه من التعصُّب والمَحْك ، لأنَّ صاحبَ هٰذين الخُلُقَين لا يَخْلو من بعضِ المُكابَرَةِ والمُغالَطة وَبِقَدْرِ ذلك[2] يَصيرُ له[3] مَدْخَلٌ فيما يُرادُ تحقيقُه من بيان الحجة أو قُصُورها[4] عما يُرامُ من البُلوغ بها ، وهٰذه آفةٌ مُعترِضةٌ فى أمور الدِّين والدُّنيا ، وَلا مَطمَعَ فى زَوَالِها ، لأنّها ناشئةٌ من الطَّبائع المختلفةِ ، والعادات السَّيِّئة ، لٰكنّى[5] مع هذه الشَّوْكةِ الحادَّةِ ، والخُطَّةِ الكادَّة[6] ؛ أقولُ ما وَعَيْتُه عن أرباب هٰذا الشّان ، والمُنْتَمِين[7] لهٰذا الفن ، وَإنْ عَنَّ شىء يكون شَكْلاً لذلك وَصَلْتُه به تكميلا للشَّرْح ، واستيعاباً للباب ، وَصَمْداً[8] للغاية ، وأَخْذًا بالحِياطة ، وإن كان المنتهٰى منه غيرَ مَطموع فيه ، وَلاَ مَوْصُولٍ إليه ؛ والله المعين .

(١) فى ب « يمكن » مكان قوله : « يختلف » .
(٢) فى كلتا النسختين : « وبذلك القدر » ، وفى كلتا الكلمتين تقديم وتأخير وقعا من الناسخ ، وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا . ويشير « بذلك » إلى ما سبق من المكابرة والمغالطة .
(٣) كذا فى ب والذى فى (ا) يصير ذلك . (٤) فى كلتا النسختين « وقصور » .
(٥) فى (ا) « التى » ؛ وهو تحريف .
(٦) فى كلتا النسختين « الكبرى » ؛ وهو تحريف . (٧) فى (ا) والقيمين بهذا الفن ؛ والمعنى عليه يستقيم أيضاً . (٨) صمداً للغاية ، أى قصداً إليها .

(٢) قال شيخُنا أبو سليمان : الكلام يَنْبَعِثُ فى أوّل مبادِئه إمّا مِنْ عَفْوِ البَدِيهة ، وإمّا مِن كَدِّ الرَّوِيَّةِ ، وإمّا [أَنْ يكونَ] مركّباً منهما ، وفيه قُواهُما بالأكثر والأقلّ ؛ ففضيلةُ عَفْوِ البَديهةِ أنّه يكونُ أصْفَى ، وفضيلةُ كَدِّ الرَّوِيّة أنه يكون أشفَى ، وفضيلة المركّبِ منهما أنه يكون أوْفَى ؛ وعَيْبُ عَفْوِ البديهةِ أن تكونَ صورةُ العَقْل فيه أقلّ ؛ وعَيْبُ كَدِّ الروِيّة أن تكون صورةُ الحِسِّ فيه أقلّ[1] ، وعَيْبُ المركّب منهما بقَدْرِ قِسْطه منهما : الأغْلَبِ والأضْعَف ؛ على أنّه إنْ خَلَصَ هـذا المركّب من شوائب التكلّف ، وشَوائن التّعسّف ، كان بليغاً مَقْبولًا رائعاً حُلْواً ، تحتَضِنه الصُّدور ، وتختلِسُه الآذان ، وتَنْتَهِبُهُ المجالِس ، ويتَنافَسُ فيه المُنافِسُ بَعْـدَ المُنافِس ، والتّفاضُلُ الواقعُ بين البُلَغاء فى النَّظْمِ والنَّثْر ، إنما هو فى هذا المركّب الذى يُسَمَّى تأليفاً ورَصْفاً ؛ وقد يجوز أن تكون صورةُ العَقْل فى [البَديهةِ أوْضَح ، وأَنْ تكونَ صورَةُ الحِسّ[2] فى الرَّوِيّةِ] ألْوَح إلا أنّ ذلك مِن غَرائب آثار النَّفْس ونوادِرِ أفعالِ الطَّبيعة ، والمَدارُ على العَمود الذى سَلَفَ نَعْتُه ، ورَسا أصلُه .

(٣) وسمعتُ أبا عابدٍ الكَرْخيّ صالح بنَ عليّ يقول : النّثْرُ أصلُ الكلام ، والنَّظْمُ فَرْعُه ؛ والأصل أشرفُ من الفَرْع ، والفَرْع أنقصُ من الأصل ؛ لكنْ لكلٍّ واحد منهما زائناتٌ وشائنات ، فأما زائناتُ النّثْر فهى ظاهِرَةٌ ، لأنّ جميعَ

---

(١) فى كلتا النسختين « أكثر » ؛ وهو غلط من الناسخ صوابه ما أثبتنا كما هو المعروف فى الفرق بين البديهة والروية . أو لعل الصواب « العقل » مكان « الحس » مع بقاء كلمة « أكثر » .

(٢) فى كلتا النسختين « العقل » مكان « الحس » ؛ وهو خطأ من الناسخ صوابه ما أثبتنا كما يفهم من سياق الكلام .

الناس فى أوّل كلامِهمْ يَقصِدون النَّثْر ، وإنما يتعرضون للنَّظْم فى الثانى بداعيةٍ عارضة ، وسببٍ باعث ، وأمرٍ معيَّن .

قال : ومِن شَرَفِه أيضاً أنَّ الكُتُبَ القديمةَ والحديثةَ النازلةَ من السَّماء على ألسِنةِ الرُّسُل بالتَّأييد الإلٰهىّ مع اختلاف اللُّغات كلَّها منثورةٌ مَبْسوطة ، مُتَباينةُ الأوْزان ، متباعِدةُ الأبنية ، مختلفةُ التصاريف ، لا تنقاد للوَزْن[1] ، ولا تدْخُل فى الأعاريض ؛ هذا[2] أمرٌ لا يجوز أن يُقابلَه ما يَدْحَضُه ، أو يُعترَضَ عليه بما يَخْرِضُه[3] .

قال : ومن شَرَفِه أيضاً أن الوَحدةَ فيه أظْهَر ، وأثَرَها فيه أشْهَر ، والتكلفَ منه أبعَد ، وهو إلى الصَّفاء أقْرَب ، ولا توجَد الوَحْدَةُ غالبةً على شىء إلا كان ذلك دليلا على حُسْنِ ذلك الشىء وبَقائه ، وبَهائه ونَقائه .

قال : ومن فضيلة النَّثْر أيضاً كما أنَّه إلٰهى بالوَحدة ، كذلك هُو طبيعىٌّ بالبَدْأة ، والبـدْأة فى الطَّبيعيات وَحْدَة ، كما أنَّ الوَحْدة فى الإلٰهيّات بَدْأة ، وهذا كلامٌ خطير .

قال : ألا تَرَى أنّ الإنسان لا يَنْطِق فى أوّل حاله من لَدُنْ طُفُوليّته إلى زمانٍ مَديدٍ إلا بالمنثور المتبدِّد ، والمَيْسور المتردِّد ؛ ولا يُلهَم إلا ذاك ، ولا يُناغَى إلا بذاك ؛ وليس كذلك المنظوم ، لأنه صناعىٌّ ؛ ألا تَرَى أنَّه داخِلٌ فى حِصارِ العَروض وأسْرِ الوزْن وقَيْدِ التأليف ، مع تَوَقِّى الكَسْر ، واحتمالِ أصناف الزِّحاف ، لأنه لما هَبَطتْ دَرَجتُه عن تلك الرَّبْوَة العالية ، دخلتْه الآفَةُ من كلّ ناحية .

(١) فى كلتا النسختين « الذوق » ؛ وهو تحريف .
(٢) عبارة ب « وهذا الفن » .
(٣) يخرضه ، أى يفسده . وفى ب « يرحضه » ؛ وهو تحريف .

قال : فإن قيل : إن النَّظْمَ قد سَبَقَ العَروضَ بالذَّوق ، والذَّوْق طِباعى ؛ قيل فى الجواب : الذَّوْق وإن كان طباعيًّا فإنه مَخْدومُ الفِكْر ، والفِكْرُ مِفْتاح الصَّنائع البَشَرِيَّة ، كما أنّ الإلهام مستخدِم للفِكْر ، والإلهام مفتاح الأمور الإلٰهيّة .

قال : ومن شَرَف النَّثْر أيضاً أنّه مُبَرًّأ مِنَ التكلُّف ، مُنَزَّهٌ عن الضّرورة ، غنِيٌّ عن الاعتِذارِ والافتِقار(١) ، والتقديمِ والتأخير ، والحَذْفِ والتكرير ، وما هو أكثرُ من هذا مما هو مدوَّن فى كُتُب القوافى والعَروض لأربابها الذين استَنْفَدوا غايتَهم فيها .

وقال عيسى الوزير : النَّثر من قِبَل العَقْل ، والنّظْمُ من قِبَل الحِسّ ، ولِدُخول النّظْم فى طَيِّ الحِسِّ دَخَلتْ إليه الآفة ، وغَلبتْ عليه الضَّرورة ، واُحتيجَ إلى الإغضاء عمّا لا يجوزُ مِثْلُه فى الأصل الذى هو النثر .

وقال ابن طرّارة — وكان مِنْ فُصَحاء أهلِ العَصْر بالعِراق — : النثْرُ كالحُرَّة ، والنَّظْمُ كالأَمَة ، والأمةُ قد تكون أحْسَنَ وَجْهًا ، وأدمَثَ شَمائلَ ، وأحْلَى حَرَكات ؛ إلَّا أنّها لا تُوصَفُ بكَرَم جوهَر الحُرّة ولا بشَرَفِ عِرْقِها وعِتْقِ نَفْسِها وفَضْلِ حَيائِها .

وقال : ولشَرَفِ النَّثْرِ قال الله تعالى فى التّنزيل : (إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا) ولم يَقُلْ : لُؤْلُؤًا مَنظُوما ؛ ونجُومُ السماء منتثِرَة وإن كان انتثارُها على نِظام ، إلاّ أنّ نظامَها فى حدّ(٢) العَقْل ، وانتثارَها فى حَدّ(٢) الحِسّ ، "لأنّ الحِكْمَة إذا غُطِّيَتْ نَفْسُها(٣) كانت الغلبةُ للصُّورة القائمة بالقُدْرة".

(١) فى كلتا النسختين : « والاعتقاد » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى الأصول « فى بلد » فى كلا الموضعين ؛ ولعل الصواب ما أثبتنا .
(٣) فى كلا الأصلين « فطنت » ؛ وهو تحريف . وورد بعد قوله « بالقدرة » قوله « أبلغ » وهى زيادة من الناسخ لا مقتضى لها .

وقال أحمد بن محمد كاتبُ رُكْن الدَّوْلة : الكلام المنثورُ أشبَهُ بالوَشْى ، والمَنْظومُ [أَشْبَهَ] بالنِّيرِ المخطَّط ، والوَشْىُ يَرُوق ما لا يَرُوقُ غيرُه .

ويقال : كنَّا فى نِثار فلان ، ولا يقال : [كنَّا] فى نظامِ فلان .

وقال ابن هِنْدُو الكاتب : إذا نُظِر فى النظمِ والنَّثرِ على استيعابِ أحوالهما وشَرائطهما ، والاطِّلاع على هَوادِيهما وتَواليهما كانَ أنَّ المنظومَ فيه نَثرٌ من وَجْه ، والمنثورَ فيه نَظْمٌ منْ وَجْه ، ولولا أنَّهما يَسْتَهِمَانِ هذا النعْتَ لما ائتلفَا ولا اخْتَلَفَا .

وقال ابنُ كعْب الأنصارى : مِنْ شَرَفِ النَّثرِ أنَّ النبىَّ صلى الله عليه وسلمَ لم يَنْطِقْ إلا بهِ آمراً وناهياً ، ومستخبِرًا ومخبِرًا ، وَهادِياً وَواعِظاً ، وغاضِباً وراضِياً ، وَما سُلِبَ النَّظْمَ إلا لهبُوطِه عن دَرَجَةِ النَّثر ، ولا نُزِّهَ عنه إلا لما فيه من النَّقص ، وَلو تَساوَيا لنطقَ بهما[1] ، ولمّا اختلفا خُصَّ بأشرفهما الذى هو أجْوَلُ فى جَميع المَواضع ، وَأجْلَبُ لكلِّ ما يُطلبُ من المنافع .

فهذا قليل من كثير مما يكون تبصرةً لباغِى هذا الشان ، وَلِمَنْ يَتَوَخَّى حديثَهُ عند كلِّ إنسان .

(٤) وَأمَّا ما يُفَضَّل به النَّظْمُ على النَّثر فأشياء سمعناها من هؤلاء العُلماء الذين كانت سماءُ عِلْمِهم دَرُورا ، وبحرُ أدبِهِمْ مُتَلاطِما ، وَرَوضُ فضْلِهِمْ مُزْدَهِرا ، وَشمسُ حِكْمَتِهِمْ طالعة ، ونارُ بلاغتِهِمْ مُشْتَعِلة ، وأنا آتى على ما يَحْضُرُنى من ذلك ، مَنْسوباً إليهم ، وَمَحْسُوباً لهم ، ليكون حَقُّهم به مَقْضِيّا ، وَذِكرُهم على مرِّ الزَّمان طَرِيّا .

قال السلامىّ : من فضائلِ النَّظْم أَنْ صارَ [لنا] صناعةً برأسِها ، وتكلَّمَ

(١) فى كلتا النسختين « عنهما » .

الناسُ فى قوافيها ، وتوسّعوا فى تصاريفها وأعاريضها ، وتصرّفوا فى بحورها ، واطّلعوا على عجائب ما اُستُخْزِنَ فيها من آثار الطّبيعة الشّريفة ، وشواهدِ القُدرةِ الصادقة ؛ وما هكذا النّثر ، فإنّه قَصّر عن هذه الذّروة الشّامخة ، والقلّة العالية ؛ فصار بذلك بِذْلةً لكافّةِ الناطقين من الخاصّة والعامّة والنساءِ والصّبيان .

وقال أيضاً : من فضائل النّظم أنّه لا يُغَنّى ولا يُحْدَى [إلا بجيّدِه] ولا يؤهّل لِلَحْنِ الطّنْطَنَة[1] ، ولا يُحلّى بالإيقاع الصحيح غيرُه ، لأن الطّنطنات والنّقرات ، والحركات والسكنات لا تتناسب إلّا بعد اُشتمال الوزن والنّظمِ عليها ، ولو [كان] فُعِل [هذا] بالنّثر كان مَنقوصاً ، كما لو لم يُفعَلْ هذا بالنّظْم لكان محسوساً ؛ والغناء معروفُ الشّرف ، عجيبُ الأثر ، عَزيز [القَدْر] ، ظاهر النفع فى معاينة الروح ، ومُناغاةِ العَقْل ، وتنبيه النّفْس ، واُجتلاب [الطّرَب] وتفريج الكُرَب ؛ وإثارة الهِزّة ، وإعادة العِزّة ، وإذْكارِ العهد ، وإظهارِ النّجْدة ، واُكتسابِ السّلْوة ؛ وما لا يُحصَى عَدَدُه .

ويقال : ما أحسنَ هذه الرسالةَ لو كان فيها بيتٌ من الشّعر ، ولا يقال : ما أحْسَنَ هذا الشّعر لو كان فيه شىء من النّثر ، لأنّ صورةَ المَنْظوم محفوظة ، وصورةَ المَنْثورِ ضائعة .

وقال اُبنُ نُباتة : مِن فَضْل النّظْمِ أنّ الشّواهدَ لا توجد إلّا فيه ، والحُجَجَ لا تُؤْخَذُ إلّا منه ، أعنِى [أنّ] العلماء والحُكماء والفُقهاء والنحويّين واللّغويّين يقولون : « قال الشاعر » ؛ و« هذا كثيرٌ فى الشّعر » ، و« الشّعر قد أتى به » ، فعلى هذا الشاعرُ هو صاحب الحجّة ، والشعر هو الحجّة .

وقال الخالع : للشّعَراء حَلْبة ، وليس للبلغاء حَلْبة ، وإذا تَتَبّعْتَ جوائزَ

(١) الطنطنة : حكاية صوت الطنبور وشبهه .

الشُّعَراء التى وَصلتْ إليهم من الخُلفاء ووُلاةِ العُهود والأُمراء والوُلاةِ فى مَقاماتِهم المؤرَّخة ، ومَجالِسِهم الفاخرة ، وأنديتِهم المشْهورة ، وجَدْتَها خارِجَةً عن الحَصْر ، بعيدةً من الإحصاء ؛ و إذا تتَبَّعْتَ هذه الحالَ لأصحاب النَّثر لم تجد شيئاً من ذلك ؛ والناس يقولون : ما أكملَ هذا البليغَ لو قَرَضَ الشِّعر ! ولا يقولون : ما أشعَرَ هذا الشاعرَ لو قَدَرَ على النَّثر ! وهذا لِغِنَى الناظِمِ عن النَّاثِر ، وفَقرِ النَّاثر إلى الناظم ؛ وقد قَدَّمَ الناسُ أبا علىّ البصيرَ على أبى العَيْناء ، لأنَّ أبا علىّ جَمعَ بين الفَضيلتين ، وضرَبَ بالسَّيْفَيْنِ[1] فى الحومتين ، وفاز بالقِدْحين المُعَلَّيَيْن[2] فى المكانَيْن .

(٥) وقال لنا الأنصارىُّ : سمعتُ ابنَ ثَوابةَ الكاتب يقول : لو تصفَّحْنا [ما صارَ إلى] أصحاب النثر من كُتَّاب البلاغة ، والخُطباء الذين ذَبُّوا عن الدَّوْلة ، وتكلَّموا فى صنوف أَحْداثها وفُنونِ ما جَرى الليلُ والنهارُ به ؛ [مِمَّا] فُتِقَ به الرَّتْق ، ورُتِقَ به الفَتْق ، وأُصْلِحَ به الفاسد ، ولُمَّ به الشَّعَث ، وقُرِّب به البعيد ، وبُعِّدَ به القريب ، وحُقِّق به [الحقّ ، وأُبْطِلَ به] الباطل ، لكان يوفِى على كلِّ ما صار إلى جميع من قال الشِّعر ولاكَ القصيد ، ولَهِجَ بالقَرِيض ، واستَماحَ بالمَرْحَمة ؛ ووَقَفَ مَوقِفَ المَظْلوم ، وانصرَفَ انصرافَ المَحْروم ؛ وأين مَنْ يَفْتَخِر بالقَرِيض ، ويُدِلّ بالنَّظم ، ويُباهِى بالبَديهة ، من وزير الخليفة ، ومن صاحب السِّرِّ ، ومَن ليس بين لسانِه ولسانِ صاحبه واسطة ، ولا بين أُذُنِه وأُذُنه حجاب ؟ ! ومتى كانت الحاجةُ إلى الشعراء كالحاجة إلى الوزراء ؟ ! ومتى قامَ وزير لشاعر للخدمة أو للتَّكرمة ؟ ! ومتى قَعد شاعرٌ لوزير

---

(١) فى كلتا النسختين : « وضرب بالشقين فى الحرمين » ؛ وهو تصحيف .

(٢) فى كلتا النسختين : « المليين » ؛ وهو تحريف .

على رَجاء وتأميل(١) ؟ ! بل لا ترى شاعراً إلا قائماً بين يدى خليفةٍ أو وزيرٍ أو أميرٍ باسطَ اليد ، ممدودَ الكفّ ، يَسْتعطِف طالباً ، ويَسْترحم سائلا ؛ هذا مع الذّلة والهوان ، والخوفِ من الخَيْبَة والحِرمان ، وخَطَر الرَّدّ عليه فى لفظٍ يمرّ ، وإعرابٍ يجْرى ، واستعارةٍ تَعْرِض ، وكِنايةٍ تعترض ، ثمّ يكون مَقْليّا مَشيناً بما يظنّ به من الهجاء الذى ربما دلاّه فى حَوْمَةِ الموت ، وقد برَّأ اللهُ تعالى بإحسانه القديمِ ومنّه الجسيمِ صاحبَ البلاغة مِن هذا كلّه ، وكفاه مَؤونةَ الغَدْرِ به ، والضّرَرِ فيه .

قال : وكان ابنُ ثُوابةَ إذا جال فى هٰذه الأكناف لا يُلحقُ شَأْوُه ، ولا يُشَقّ غُبارُه ، ولا يُطمَع فى جوابه .

قال : وله مُناظَراتٌ واسعةٌ فى هذا الباب مع جماعةٍ من أهلِ زمانه ناقَضوه وعارضوه ، وكاشَفوه وواجهوه ؛ فثبَتَ لهم ، وانتصفَ منهم ، وأرْبَى عليهم ، ولم يُقْلِعْ عن مسالَطتهم(٢) ومُبالَطتهم إلى أن نكَصوا على أعقابهم ، وراجعوا ما هو أولى بهم .

(٦) قال أبو سليمان : المعانى المعقولةُ بسيطةٌ(٣) فى بُحبوحة النفس ، لا يحومُ عليها شىء قَبلَ الفِكر ، فإذا لقِيَها الفكر بالذّهْنِ الوثيقِ والفَهْمِ الدّقيق ألقى ذلك إلى العبارة ، والعبارة(٤) حينئذ تتركّب بين وَزْنٍ هو النَّظْم للشّعر ، وبين وَزْن هو سِياقَةُ [الحديث] ؛ وكلّ هذا راجعٌ إلى نسبةٍ صحيحة أو فاسدة ،

(١) فى كلتا النسختين « على وجه وتأميل » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين .
(٢) فى أ « مصالبتهم » ، وفى ب « مصالتهم » ؛ وما أثبتناه هو أنسب بسياق العبارة . والمسالطة معروفة . والمبالطة : المجالدة والمنازلة .
(٣) بسيطة ، أى مبسوطة .
(٤) فى أ : « إلى العائدة والغابرة » ؛ وهو تحريف .

وصورةٍ حسناء أو قبيحة ، وتأليفٍ مقبولٍ أو ممجوج ، وذَوْقٍ حُلْوٍ أو مُرٍّ [١] وطريقٍ سَهْلٍ أو وَعْر ، واقتضابٍ مُفَضَّلٍ أو مَردود ، واحتجاجٍ قاطعٍ أو مقطوع ، وبُرْهانٍ مُسْفِرٍ أو مُظلم ، ومتناوَلٍ بعيدٍ أو قريب ، ومسموعٍ مألوفٍ أو غريب .

قال : فإذا كان الأمرُ فى هذه الحال على ما وَصَفنا فللنثر فضيلتُه [التى] لا تُنْكَر ، وللنَّظمِ شرَفه [الذى] لا يُجْحد ولا يُسْتَر ، لأنّ مناقبَ النّثر فى مُقَابَـلةِ مناقِب النَّظم ، ومثَالِبَ النَّظْمِ فى مُقابلة مَثالبِ النَّثْر ؛ والذى لا بدّ منه فيهما السَّلامةُ والدِّقّة ، وتجنُّبُ العَوِيص ، وما يحتاج إلى التأويل والتخليص .

وقد قال بعض العرب : خيرُ الكلام ما لم يُحْتج معه إلى كلام . (٧)

ووقفَ أعرابىٌّ على مَجْلِس الأخْفِش فسَمِع كلامَ أهله فى النَّحْو وما يَدْخُل معه ، فحارَ وعجب ، وأطْرَقَ ووَسْوَس ، فقال له الأخفش : ما تسمع يا أخا العرب ؟ قال : أراكم تتكلَّمون بكلامنا فى كلامنا بما ليس من كلامنا .

وقال أعرابىٌّ آخر :

ما زال أخْذُهُمُ فى النّحو يُعْجِمُنى [٢] حتّى سمعتُ كلامَ الزَّنْجِ والرُّومِ

وقال أبو سليمان : نَحْوُ العرَبِ فِطْرَة ، ونَحْوُنا فِطنـة ؛ فلو كان إلى الـكمال سبيلٌ لـكانت فِطرتُهم لنا مع فِطْنَتِنا ، [أو كانت فطنتُنا لهم] مع فِطْرَتِهم .

وقال : لمَّـا تميّزت الأشياء فى الأصول ، تلاقَتْ ببعض التّشابه فى الفروع ، ولمَّـا تباينت الأشياء بالطَّبائع ، تألَّفتْ بالمُشاكلة فى الصَّنائع ، فصارت من

---

(١) فى ا : « أو كريه » .
(٢) فى كلتا النسختين : « يعجبنى » ؛ وسياق البيت يقتضى ما أثبتنا .

حيث أفترقت مُجتَمِعة ، ومن حيثُ أجتمعتْ مفترِقة ، لتكون تُذْرةُ الله — عزّ وجلّ — آتيةً على كلّ شىء ، وحكمتُه موجودةً فى كلّ شىء ، ومشيئتُه نافذةً فى كلّ شىء .

وقد أنشدَ بعضُ الأعراب ما يَقْتضى هذا المكانُ رَسْمَهُ فيه ، لأنّه موافق لما نحن فيه فى ذِكْرِه ووصفه .

قال :

ما ذا لَقِيتُ من المستعرِبينَ ومِنْ　　تأسيسِ نحوِهِمُ هٰذا الّذى ابتَدَعوا
إن قلتُ قافيةً فيه يكون لما　　معنًى يُخالِف ما قاسُوا وما وَضَعُوا
قالوا لَحَنْتَ وهٰذا الحرفُ مُنْخَفِضٌ　　وذاكَ نَصْبٌ وهـذا ليس يَرْتفع
وحرّشوا بين عبدِ الله واجتَهَدُوا　　و بين زَيْدٍ وطالَ الضَّرْبُ والوجَعُ
إنّى نَشَأْتُ بأرضٍ لا تُشَبُّ بها　　نارُ المجوس ولا تُبْنَى بها البِيَع
ولا يَطَأ القِرْدُ والخِنزيرُ ساحَتَها　　لكنْ بها الهَيْقُ والسِّيدانُ والصَدَع[1]
ما كلُّ قولىَ معروفٌ لكم فخذوا　　ما تَعْرِفون وما لم تَعْرِفوا فدَعُوا
كم بين قومٍ قد أحتالوا لمنطقهم　　وآخَرين على إعرابهم طُبِعوا
و بين قومٍ رَأَوْا شـيئاً مُعايَنَةً　　و بينَ قومٍ رَوَوْا بعضَ الّذى سَمِعوا

فهذا هذا .

(٨) وقال أبو سليمان : البلاغة ضروب : فمنها بلاغة الشِّعر [ومنها بلاغة الخطابة][2]

(١) الهيق : الظليم ، وهو ذكر النعام ، والسيدان : الذئاب ، الواحد سيد بكسر السين ، والصدع من الوعول والظباء وحمر الوحش والإبل : الشاب الفتىّ .
(٢) لم ترد هذه التكملة فى كلتا النسختين ؛ وقد أثبتناها لما سيأتى بعد من الحديث عنها عند تفصيل هذه الأنواع .

[ومنها بلاغة النثر ، ومنها بلاغة المَثَل ، ومنها بلاغة العقل] ، ومنها بلاغة البديهة ، ومنها بلاغةُ التأويل .

قال : فأمّا بلاغة الشِّعر فأنْ يكون نَحْوُهُ مقبولاً ، والمعنى من كلٍّ ناحية مكشوفاً ، واللفظُ من الغريب بريئاً ، والكنايةُ لطيفة ، والتصريحُ احتجاجاً ، والمؤاخاة موجودة ، والمواءمة (١) ظاهرة .

وأما بلاغة الخَطابة(٢) فَأَنْ يكون اللَّفظ قريباً (٣) ، والإشارة فيها غالبة ، والسَّجْعُ عليها مستوْلياً ، والوَهْم فى أضعافِها سابحاً ، وتكون فِقَرُها قِصاراً ، ويكون رِكابُها شَوارِدَ إبل .

وأما بلاغةُ النثر فأن يكون اللَّفظ متناوَلاً (٤) ، والمعنى مشهوراً ، والتهذيب مستعمَلا ، والتأليفُ سهلا ، والمُرادُ سليما ، والرَّونَقُ عاليًا ، والحواشى رقيقة ، والصَّفائح مصقُولة ، والأمثلة خفيفة المأخذ ، والهوادى متّصلة ، والأعجاز مُفَصَّلة (٥) .

وأما بلاغةُ المَثَل فأن يكون اللفظ مقتضَباً ، والحذْفُ محتَملاً ، والصورةُ محفوظة ، والمرْمَى لطيفاً ، والتّلويحُ كافياً ، والإشارةُ مُغْنِيَة ، والعبارة سائرة(٦) .

وأما بلاغة العقل فأنْ يكون نصيبُ المَفهوم من الكلام أسبَقَ إلى النَّفس من مَسموعه إلى الأذُن ، وتكون الفائدةُ من طريق المعنى أبلَغَ من تَرْصيع

(١) فى ب : والمراماة ، وفى ا : والمراقبة ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين .
(٢) فى كلتا النسختين «الكتابة» ؛ وهو تحريف ، لما فيه من التكرار ، لأنه سيتكلم فيها بعد عن بلاغة النثر .
(٣) فى كلتا النسختين : « غريبا » بالغين ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا .
(٤) فى كلا الأصلين : « متبدلا » ؛ وهو تحريف .
(٥) فى ا « مقضاة » ؛ وهو تحريف .
(٦) فى ب « سافرة » .

اللّفْظ ، وتقفيةِ الحروف ، وتكونَ البساطَةُ فيه أغلبَ من التركيب ، ويكونَ المقصودُ ملحوظًا فى عُرض السَّنَنِ (١) ، والمَرْمَى يُتَلَقَّى بالوَهم لِحُسْن التّرتيب .

وأما بلاغةُ البديهة فأن يكون أنْحياشُ (٢) اللّفظ للّفظ فى وزن أنْحياش (٢) المعنى للمعنى ، وهناكَ يَقع التعجُّبُ للسامع ، لأنّه يهجُم بفهمِه على ما لا يُظنّ أنه يَظفَر به كمن يعثر بمأموله ، على غَفْلةٍ (٣) من تأميله ، والبديهةُ قدرةٌ رُوحانيّة ، فى جِبِلّةٍ بشريّة ، كما أنّ الرَّوِيَّة صورةٌ بَشريّة ، فى جِبِلّةٍ (٤) رُوحانيّة .

وأما بلاغة التأويل فهى [التى] تُحْوِج لغموضها إلى التدبُّر والتّصفّح ، وهذان يفيدان من المسموع وجوهاً مختلفة كثيرةً نافعةً ، وبهذه البلاغةِ يُتسَعُ فى أسرار [معانى] الدّين والدّنيا ، وهى [الّتى] تأوّلها العُلماء بالاستنباط من كلام اللهِ عزّ وجلّ وكلام رسولِه — صلّى الله عليه وسلّم — فى الحرام والحلال ، والحَظْرِ والإباحةِ ، والأمرِ والنّهيِ ، وغير ذلك ممـا يَكثر ؛ وبها تَفاضَلوا ، وعليها تجادلوا (٥) ، وفيها تنافَسُوا ، ومنها استَمَلّوا ، وبها اشتغلوا ؛ ولقد فَقُدتْ هذه البلاغةُ لفقْد الرُّوح كلِّه ، وبَطَلَ الاستنباطُ أوّلُه وآخِرُه ، وَجَوَلان النفس واعتصارُ الفِكر إنمـا يكونان بهذا النَّمَط فى أعماق هـذا الفنّ ؛

(١) وردت هذه الكلمة فى ا مهملة الحروف من النقط ، وفى ب « السبب » ؛ وهو غير واضح المعنى ، ولعل صوابه ما أثبتنا . والسنن : الطريق .

(٢) فى ب : « اختلاس » ، ولم نتبين معناه ؛ ولعله محرف عما أثبتنا .

(٣) فى ا ، ب « عقله » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق ، وفى (ا) أيضاً قبل هذه الكلمة قوله : « كمن يعبر بمقوله » ، وهو تحريف كذلك .

(٤) فى كلتا النسختين « فى حلية » ، وهو تصحيف .

(٥) فى ب « يحاولوا » ؛ وهو تحريف .

وهاهنا تَنْثَالُ(١) الفوائد ، وتكثُرُ العَجائب ، وتَتلاقَحُ الخواطر ، وتَتلاحَقُ الهِمَم ، ومِنْ أَجْلِها يُسْتعانُ بقُوَى(٢) البلاغاتِ المتقدِّمة بالصِّفات المُمثَّلة(٣) ، حتى تكون مُعِينةً ورافِدَةً فى إثارة المعنى المدفون ، وإنارةِ المُرادِ المَخْزون .

وأمثلةُ(٤) هذه الأبواب موجودةٌ فى الكُتُب ، ولولا ذٰلك لرَسَمْتُ فى هٰذا المكان لكل فنّ مثالاً وَشَكَّلْتُ شكلا ، ولو فعلتُ ذٰلك لكنتُ مُكرِّراً لما قد سُبِقَ إليه ، ومتكلِّفاً ما قد لُقِّنَ من قَبل . على أنّ الزُّهد فى هٰذا الشَّأن قد وَضعَ(٥) عنَّا وعن غيرِنا مَؤُونةَ الخَوْض فيه ، والتعنِّى به ، والتوفُّر عليه ، وتقديمِهِ على ما هو أهَمُّ(٦) منه ، أَعْنِى طابَ القوت الّذى ليس إليه سبيل إلا ببَيْع الدِّين ، وإخلاقِ المروءة ، وإراقَةِ ماءِ الوجه ، وكدِّ البدن ، [وتجرُّعِ الأسى ، ومُقاساةِ الحُرْقة ، ومَضِّ الحِرْمان] ، والصَّبرِ على ألوانٍ وألوان ؛ واللهُ المُستَعان .

وقد كان هٰذا البابُ يُتنافس فيه أَوانَ كان للخلافةِ بَهْجَة ، وللنِّيابة عنها بَهاء ، وللدِّيانة مُعتقِد(٧) ، وللمُرُوءةِ عاشق ، وللخيرِ مُنتهِز ، وللصِّدْقِ مُؤْثِر ، وللأدب شُرَاة(٨) ، وللبيان سُوق ، وللصَّواب طالب ، وفى العلمِ راغب ؛ فأما

(١) فى ا « تتقابل » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى ب « توق » ؛ وهو تحريف .
(٣) فى ا المشتملة ؛ وهو تحريف .
(٤) يظهر أن هذا وما بعده من كلام المؤلف لا من تتمة كلام أبى سليمان .
(٥) فى ا « رصع » ؛ وهو تحريف .
(٦) فى ا « أعم » ؛ وهو تحريف .
(٧) فى ب « معقد » ؛ وهو تحريف .
(٨) فى كلتا النسختين « شارة » ؛ وهو تحريف .

[اليومَ] واليدُ عنه(١) مقبوضة ، والذَّيْلُ دُونَه مشمَّر ، والمُتَحَلِّى بجمالِه مَطْرُود ، والمُباهِى بشرَفه مُبْعَد ، فما يُصْنَع به ، ولله أمرٌ هو بالغُه .

(٩) وقال ابنُ دَأْب : قال لى [ابن] موسى : اجتمعنا عند عبد المَلِك بن مَرْوَانَ فقال : أىُّ الآدابِ أغْلَبُ على الناس ؟ فقلنا فأكْثَرْنا فى كل نوع ؛ فقال عبد الملك : ما الناس إلى شىء أحْوَجُ منهم إلى إقامةِ ألسنَتِهم التى بها يتعاوَرون القول ، ويتعاطَوْن البيان ، ويَتَهادَوْن الحِكَمَ ، ويَسْتَخرجون غَوامِضَ العِلْمِ من مَجابنِها(٢) ؛ ويَجْمَعون ما تَفرَّق منها ؛ إن الكلامَ فارقٌ للحُكْمْ بين الخُصُوم ، وضِياء يَجْلو ظُلَمَ الأغاليط ، وحاجةُ الناسِ إليه كحاجَتِهمْ إلى موادِّ(٣) الأغذية .

وقد قال زهير :

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه   فلمْ يَبْقَ إلا صورةُ اللَّحْمِ والدَّمِ

فقلنا : لم يَقُلْهُ زُهَير ، إنما قاله زيادٌ الأعجم ؛ فقال : لا ، قاله من هو أعظمُ تجربةً وأنطَقُ لسانًا منه(٤) .

وقال أبو العَيْناء : سمعتُ العبَّاس بن الحسَن العَلَوِىَّ يصفُ كلامَ رَجُل [فقال] : كلامُه سمْحٌ(٥) سهلٌ ، كأنَّ بينه وبَينَ القُلوبِ نَسَب ، و بينه وبَيْن الحياةِ

---

(١) عنه ، أى عن هذا الباب السابق ذكره ، وهو التأويل .
(٢) فى ا « مجانبها » ؛ وهو تحريف .
(٣) فى ا « موارد » ؛ وهو تحريف .
(٤) فى ا « قوله » ؛ وهو تحريف .
(٥) فى ب « شيخ » ؛ وهو تحريف .

سبب ؛ كأنَّما هو تُحْفة[١] قادم ، ودواء مريض ، وواسطةُ قلادة .

ورأيتُ أبا إسحاقَ الصابى وهو يعجَب من فَضْـلِ قرأهُ من كتاب وَرَد عليه ، وهو : أشْعِر قلبَكَ يأسَ مُجاوِزِ[٢] السَّبيل ، مقصِّرٍ عن الشَّوْط .

وقال ابنُ ذَكْوان : سمعتُ إبراهيمَ بن العبَّاس[٣] الصُّولىَّ يقول : ماسمعتُ كلاماً مُحْدَثاً أجزلَ فى رِقّة ، ولا أصْعَبَ فى سُهولة ، ولا أبلغَ فى إيجاز ، من قَوْلِ العبّاس بنِ الأحْنَف :

تَعالَىْ نُجَدِّدْ دَارِسَ العهْدِ بيننا ... كِلانَا على طُولِ الجَفَاءِ مَلومُ

أناسِيَةٌ ما كان بَيْنى وبينها ... وقاطعةٌ حَبْلَ الصَّـفاء ظَلومُ

وفى الجملة ، أحسنُ الـكلام مارَقَّ لَفْظُه ، ولَطُف معناهُ ، وتلألأَ رَوْنَقُه ، وقامت صُورَتهُ بين نظمٍ كأنَّه نثر ، ونثرٍ كأنّه نظم ، يُطمِـعُ مشهودُه بالسَّمع ، ويَمْتَنِـعُ مقصودُه على الطَّبْع ؛ حتّى إذا رامَه مُرِيغٌ[٤] حَلَّق ، وإذا حَلَّق[٥] أسفَّ ، أعنى يَبْعُد على المُحاوِل بعُنْف ، ويَقْرُب من المُتناوِل بلُطف .

وما رأيتُ أحـداً تَناهَى فى وَصْفِ النّثر بجميع ما فيـه وعليه غيرَ قُدامةَ ابن جَعْفر فى المنزلة الثالثةِ من كتابه ؛ قال لنا علىُّ بنُ عيسى الوزير : عرضَ علىَّ قُدَامةُ كتابه سنة عشرين وثلثمائة ؛ واختَبَرتُه[٦] فوجدتُه قد بالغَ وأحْسَن ، وتفرَّدَ فى وَصفِ فُنُون البلاغة فى المنزلة الثالثة بمـا لم يشركه فيه أحد من

(١) فى ا « حقه » .
(٢) فى ب « مجاوزاً للشك مقصراً عن القنوط » ؛ وهو تحريف .
(٣) فى ب « ابن ذكوان » ؛ وهو خطأ من الناسخ .
(٤) فى ا « مرتفع » ؛ وهو تصحيف . والمريغ : الطالب .
(٥) إذا حلق ، أى المريغ .
(٦) وردت هذه الـكلمة فى كلتا النسختين مهملة الحروف من النقط .

طريق اللَّفظ والمعنى ، ممَّا يدلّ على المختار المُجْتَبَى والمَعيب المجتنَب . ولقد شاكَهَ(١) فيه الخليلَ بنَ أحمد فى وَضْع العَروض ؛ ولـكنّى وجدتُه هجينَ اللَّفظ ، رَكيكَ البلاغةِ فى وَصْفِ البلاغة ، حتَّى كأنَّ ما يَصِفُه ليس ما يعرفه ، وكأنَّ ما يَدُلُّ به غيرَ ما يَدُلُّ عليه . والعرب تقول : [فُلان] يدُلُّ ولا يُدَلُّ ، حكاه ابن الأعرابى ، وهذا لا يكون إلا من غَزارةِ العِلم ، وحُسْنِ التصوُّر ، وتَوَارُدِ المعنى ، ونَقْدِ الطَّبْع ، وتصرُّف(٢) القريحة . قال : ولو لا أنّ الأمر على ما ذكرتُ لكان ذلك الطريقُ الّذى سَلكه ، والفنُّ الّذى مَلكه ، والـكنزُ الذى هَجَمَ عليه ، والنَّمطُ الذى ظَفِرَ به ؛ قد(٣) بَرَزَ فى أحسنِ مَعرِض ، وتَحَلّى بألطفِ كلام ، وماسَ فى أطول ذَيْل ، وَسَفَر عن أحسنِ وَجْه ، وَطَلَع من أقرب نَفَق ، وحَلّق فى أبْعَدِ أُفق .

وابنُ المَراغِىّ يقول كثيراً — وهو شيْخٌ من جِلّة العلماء ، وله سَهْمٌ وافٍ فى زُمرة البُلغاء — : ما أحسنَ مَعونةَ الـكلماتِ القِصار ، المُشْتمِلة على الحِـكَم الـكِبار ، لمن كانت بلاغتُه فى صناعته بالقلم واللِّسان ، فإنّها تُوَافيه عند الحاجة ، وتَسْتَصْحِب أخواتِها على سهولة ؛ وهكذا مَصاريعُ أبيات الشِّعر ؛ فإنّها تختلط بالنّثر مُتقطِّعةً ومَوْزُونة ، ومنتثِرَةً ومَنْضودة .

قال [لى] ابنُ عُبيْدٍ الـكاتب : بلغنى [هذا الوصف] عن هذا الشيخ ؛ فَبلوته بالتّتبُّع فوجدتُه على ما قال ؛ وما أشبه ما ذكره إلا بِالصُّرّةِ(٤) المُعدَّة

(١) فى (ا) « سأله » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى كلا الأصلين « وتصور » ؛ وهو تحريف .
(٣) فى كلتا النسختين : « وقد برز » والواو زيادة من الناسخ كما هو ظاهر .
(٤) الصرة : كيس الدراهم والدنانير ؛ والذى فى كلا الأصلين « الجرة » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به الـكلام .

عند الإنسان ، لما يحتاجُ إليه فى الوقت المهمّ والأمر المُلِمّ ؛ فهذا هذا .

فقال — أدام الله دولتَه ، وكبت أعداءه — : قدِّم هذا الباب [فقد أتى](١) على ما لم أظنّ أنه يُؤْتَى عليه ويُهْتدى إليه — إذا شئتَ ؛ وانصرَفْتُ .

الليلة السادسة والعشرون

ثم قال : وما أمثلةُ الكلماتِ القِصارِ الّتى أَوْمَأَ إليها ذلك الشّيخ ؟ (١)

فكان [من] الجواب : إنّ هذا الباب واسع ، نحو قول القائل : ما خابَ من أسْتخار ، ولا نَدِم من أستشار . كلُّ عزيزٍ دَخَلَ تحتَ القُدْرة فهو ذَليل . غَنِمَ من أَدَّبَتْهُ الحكمة ، وأحكمتْه التجربة . التضاغن رائدُ التّباين . المرء ما عاشَ فى تجرِيب .

الدهرُ [يومٌ ويومُ] والعيْشُ عَـذْلٌ ولَوْمُ

* وأكثَرُ أسبابِ النَّجاحِ مع الياسِ *

من لم يُقَدِّمْه حَزم أَخَّرَه عجز . كم مستدرَجٍ بالإحسان إليه ، ومُغترٍّ باليُسْرِ(٢) عليه . الحرْبُ(٣) مَتلفةُ العباد(٤) مُذْهِبَةٌ للطارف والتِّلاد .

* ليس المُقِلّ عن الزّمان براضى *

من ضاق صَدْرُه اتّسَعَ لسانه .

* وحَسْبُك داء أن تَصِحَّ وتسلما *

---

(١) هذه التكملة لم ترد فى كلا الأصلين ، وسياق الكلام يقتضى إثباتها .

(٢) فى كلتا النسختين « بالبشر » ؛ وهو تصحيف .

(٣) فى (ا) « الحزن » ؛ وهو تصحيف .

(٤) فى (ا) العيال ؛ وهو تحريف .

العيال سُوس المال . الموتُ الفادح خيرٌ من الزّىّ الفاضح . احذروا نَفَادَ النِّعَم ، فما كلُّ شاردٍ مردود . خير الأمور أوساطها . يَكْفيكَ من شَرٍّ سماعُه . الكريمُ لا يلينُ على قَسْر ، ولا يُقْتَسَرُ على يُسْر . ما أدْرَكَ النَّمّامُ ثاراً ، ولا محا عاراً .

* ومن يَبْكِ حوْلاً كاملا فقد اعتَذَر *

* إنّ المَطامعَ فَقْر والغِنَى الياسُ *

* والأمر تَحْقِرُهُ وقد يَنْمِى *

* [رُبَّ كبيرٍ هاجَه صغيرُ *

* ذَهَبَ القَضاء بحيلة الأقوامِ] *

* وقد يُسْتجهَل الرَّجلُ الحليمُ *

* وإذا مَضى شىءٌ كأنْ لم يُفْعَل *

من عُرِف بالحكمة لاحظته العيونُ بالهيبة . البِطْنَةُ تُذْهِب الفِطنة ، إنّ المَقدرةَ [1] تُذْهِبُ الحفيظة . من ثَقُلَ على صديقه خَفّ على عدوّه . زيادةُ لسان على عَقْلٍ خُدْعة ، وزيادة عقلٍ على مَنطق هُجْنَة .

* وحاجةُ من عاشَ لا تَنْقضى *

مَن أطاعَ هواه ، أعطَى عدوّه مُناه .

* عند الشّدائدِ تَذْهَب الأحقادُ *

احْذَرْ صَرَعات البَغْى وفَلَتات المُزاح .

(١) كذا فى مجمع الأمثال للميدانى ، والذى فى الأصول « الظنة تذهب » الخ ، وهو تبديل من الناسخ .

* ومن يَسأل الصُّعلوكَ أين مَذاهبُه *

« المرء يَعجِز لا المَحالة »

ذُلّ الطالب بقَدْرِ حاجتِه ، إذا أزدحَم الجواب خَفِيَ الصَّواب . الكريم للكريم مُجِلّ . موتٌ فى قوّةٍ وعِزٍّ خيرٌ من حَياةٍ فى ذُلٍّ وعجْز . عَدْلُ السلطان خيرٌ مِن خِصْب الزمان . من توَقَّى سَلِم ، ومن تهوَّرَ نَدِم ، من أسرَعَ إلى الناس بما يكرهون ، قالوا فيه ما لا يَعْلَمون . الفقرُ[1] خيرٌ من الفاقة ، عَيٌّ صامت خيرٌ من عَيٍّ ناطق . رُبّما سَوّدَ المالُ غيرَ السَّيِّد ، وقَوّى غيرَ الأيِّد . وهل يَدْفع رَيْبَ المنيّةِ الحِيَل .

* الموت حَتْمٌ فى رِقاب العباد *

كفَى بالإقرار بالذّنب عُذْراً ، وبرجاءِ العَفْوِ شافِعاً . قليلٌ يُوعَى ، خيرٌ من كثير يُنْسَى ، ليس على طول الخِدَم[2] نَدَم ، ومنْ وَراء المرءِ ما لم يَعْلم . مروءتان ظاهرتان : الرِّآسةُ[3] والفصاحة . من أطالَ الأمَل أساء العمل . لا تَكلَّفْ ما كُفِيت ، ولا تُضَيِّع ما وَلِيت . احتمِلْ من أدلَّ عليك ، واقبَلْ ممّن أعتذَرَ إليك .

* إنّ الشّجاعةَ مَقْرونٌ بها العَطَبُ *

* إنّ الكِرامَ على ما نابَهُمْ صُبُرُ *

لو سَكَتَ من لا يَعلمُ سَقَطَ الاختلاف . لا عُذْرَ فى غَدْر . ليس من العدل

(١) فى كلتا النسختين « الصبر » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى (أ) « الحياة » ؛ وهو تحريف .
(٣) فى (أ) « الرياش » .

سُرْعةُ العَذْل . أقبحُ عملِ المقتدرِين الانتقام . شَرٌّ من الموت ، ما يُتمنَّى له الموت . من جاعَ جَشِع . المَكيدة فى الحرْب أبلَغُ من النَّجْدة . لكَ مِن دُنْياك ، ما أصْلَحَ مَثْواك . من أحبَّ أن يطاع ، لايسألُ ما لا يُستطاع ، إذا غلبتْك نفسُك بما تظنّ ، فأغلبْها بما تستَيْقِن . الرَّدُّ الجميل أحْسَنُ من المَطْلِ الطويل . القبر خيرٌ من الفقْر . شَفِيعُ المُذْنب إقراره ، وتوبته أعْتِذارُه . صُحْبة الأشرار ، تورث سوءِ الظَّنّ بالأخْيار ، لا كثيرَ مع تبذير ، ولا قليل مع تقدير . من صانَ لسانَه نجا من الشرِّ كلِّه .

* ولربما نفع الفتى كَذِبُه *

* وَمَنْ يَعْدِلْ إذا ظَلَمَ الأميرُ *

* إذا فَزِعَ الفؤادُ فلا رُقادُ *

* ما العلمُ إلاَّ ما وَعاه الصَّدْرُ *

* إنَّ الكريمَ على الإخوان ذُو المال *

* إنَّ الفِرار لا يزيد فى الأجل *

* إنَّ الشَّفيق بسوءِ ظَنٍّ مُولَعُ *

لا تبْلُ على أكْلة ، ولا تُفْشِ سِرَّكَ إلى أَمَة . إذا أقبلتِ الدُّنيا على المرءِ أعارَتْه مَحَاسنَ غيرِه ، وإذا أدبرتْ عنه سلَبتْه محاسِنَ نفسه . فى التّجارِب عِلمٌ مستأنَفٌ . قد خاطرَ من أستغْنَى برَأْيه . عليك لأخيك مِثْلُ الّذى عليه لك . الحق ظِلٌّ ظَليل . المودَّة قَرَابَةٌ مُسْتفادة . مُعْدِمٌ وَصُول خيرٌ مِنْ مُكثِرٍ جافٍ . مِنَ الفَراغ تكون الصَّبْوة . من نال أستطال . فى تقلّب الأحوال عِلمُ جواهِر الرجال . الشكرُ عِصمةٌ من النّقمة . اللُّبُّ مِصْباحُ العِلم . من ركِب العَجَلة ، لم يأمن الكَبْوَة . إزالةُ الرّواسى ، أيسَرُ من تأليف القلوب . قارِب الناسَ فى عقولهم ،

تَسْلم من غوائلهم ، وتَرتَعْ فى حدائقهم . عاشِرْ أخاك بالحُسْنَى . الحَسَد أَهْلَكَ الجَسَد . خذ على خَلائقك ميثاقَ الصَّبْر . خيرُ ما رُمت ما يُنال .

* كلُّ أمرئٍ فى شأنه ساعى *

[قد يُدرِكُ المتأنِّى بعضَ حاجته وقد يكون مع المستعجِل الزَّللُ]

غمُّ الفَقِير لا يَكْشِفُه إلاّ الموت . خِفّة الظَّهر أَحَدُ اليسارَيْن . أُصُولُ الأسقام من فُضُول الطعام . طلاقُ الدنيا مَهْرُ الجَنّة . من عِزِّ النفسِ إيثارُ القناعة . التواضُعُ بالغَنِىّ أَجْمَل ، والكِبْرُ بالفقير أسمَج . من أستعان بغير الله لم يزَلْ مَخْذولا . من لم يَقبَلْ من الدَّهر ما آتاه طال عَتْبُه على الدهر . عُجْبُ المَرْء بنفسه أَحَدُ حُسّادِ عَقْله . العجزُ والتَّوانى يُنْتِجان الفاقة . إن صبرتَ صَبْرَ الأحرار ، وإلاّ سلوت سُلُوَّ الأغمار . العِلْمُ بالعمل يَنْمو . معاشَرَةُ الإخوان تَجْلو البَصَر ، وتطرُدُ الفِكَر . لا تُوحِشْك الغُرْبة ما أنِسْت بالكفاية ، فإنّ الفَقْرَ أَوْحَشُ من الغُرْبة . الغِنَى أُنسٌ فى [غير] (١) الوَطَن . الغَنِىُّ فى الغُرْبة مَوْصول ، والفَقِير فى الأهْل مَصْرُوم . أَوْحِشْ قَرِينَك إذا كان فى إيحاشِه أُنْسُك . إذا أيسرتَ فكلُّ أهلٍ أهلُك ، وإنْ أعسَرْت فأنتَ غريبٌ فى قَوْمِك . مِن أخلاق الصِّبيان ، إلْفُ الأوطان ، والحنينُ إلى الإخوان . من لم يَأنف ، لم يَشْرُف . خَيْرُ المَوَدّة ما لم تكن حِذارَ عادِية ، ولا رجاء فائدة . من حَمَل الأمور على القضاء استراح فى الإقبال والإدبار حتّى يَنْتَهيا . لو أُستحسَن الناسُ ما أمر به العَقل استَقْبَحوا ما نَهى عنه العقل . أَقْدَر الناسِ على الجواب

---

(١) لم ترد هذه الكلمة فى كلتا النسختين ؛ والسياق يقتضيها ، ويقوى ذلك الكلمتان السابقة واللاحقة .

من لا يَغضب . الكلامُ فى وَقْت السكوت عِيٌّ ، والسكوتُ فى وقت الكلام خَرَس . الهمُّ يَهدِم البَدَن ، وينغِّص العَيْش ، ويقرِّبُ الأجَل . الموتُ رقيبٌ غيرُ غافل . المرء نَهْبُ الحوادث . إذا تَمَّ العَقْلُ نَقَصَ الكلام . هَبْ ما أنكَرْت لما عرَفْت ، واغفر ما أغضَبَك لما أرضاك . اليَأسُ إحدى الرّاحتَيْن . المَطْل أحدُ العذابَيْن . الكَظْم مُرٌّ ، ولا يتجرّعُه إلاّ حُرّ . الرأى لا يَصْلُح إلا بالشَّرِكة ، والمُلْكُ لا يَصْلُح إلاّ بالتفرُّد . من كَبُرَ عنصرُه ، حَسُنَ مَحضَرُه .

* ولَرُبَّ مُطْمِعَةٍ[1] تعُودُ رِياحا *

* والحمدُ لا يُشتَرَى إلا بأثمان *

* ولكنّ نَكْءَ القَرْح بالقَرْحِ أوْجَع *

من أزْهَر بقَوْل ، حَقيقٌ أن يُثْمر بفِعْل . السّلامُ أرْخَى للبال ، وأبقَى لنُفوس الرِّجال . حَسْبُك مِنْ عَقْلك ما أوضَحَ غَيَّك مِن رُشدك . التسويفُ بطاعة الله اغترار ، وحياةُ المرءِ كالشىء المُعَار[2] . من بَذَل بعضَ عنايته لك ، فاجعَلْ جميعَ شُكرِك له .

* ولِلحُرِّ من مالِ الكريمِ نصيبُ *

اليومَ بِفعْل ، وغدًا ثواب .

الخيرُ مختارٌ شهىٌّ المُطَّلَبْ والشرُّ محذور كَرِيهٌ مُجتنَبْ

رُبَّ سكوتٍ من كلامٍ أبلغُ ورُبَّ قول من عمُودٍ[3] أدْمغُ

مَن سَلِمَ الناسُ على[4] لسانه أصبَح منصورًا عَلَى سلطانه

(١) فى (ا) « مطعمة » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى كلتا النسختين « المعتاد » ؛ وهو تحريف .
(٣) يريد بالعمود : الذى يضرب به فى الحرب . (٤) على هنا بمعنى من .

من القليـل يُجْمَع الـكثيرُ رُبَّ صـــــغير قَدْرُه كبيرُ

من باع ما يَفْنَى بمـا يَبقى غَنِم وآثَر الدنيا على الأخرى نَدم

قد يُحرَم الراجي ويُعطى القانط ويُبعَدُ الأدْنَى ويُدْنَى الشاحطُ

من لَم يَنلْكَ البِرّ[١] فى حياته لَمْ تَبكِـك عَيْناك عَلَى وَفاته

المـالُ ما تُنفِق لا ما تَجْمَعُه والزرعُ ما تَحصُد لا ما تَزرَعُه

يا رُبَّ هَزْلٍ كان منـه الجِدُّ ورُبَّ مَزْحٍ كان منه الحِقْدَ

البَحرُ مُستغنٍ عن الفُرات

فقال — أدام الله أيّامه — هذا فنٌّ مُوفٍ على الغاية .

الليلة السابعة والعشرون

(١) وقال — أدام اللهَ أيّامه — فى ليلة أخرى : كنت أحبُّ أن أسمعَ كلاما فى كُنْه الاتّفاق[٢] وحقيقته ، فإنّه مما يَحارُ العقل فيه ، ويَزِلُّ حَزْمُ الحازِم معه ، وأحبُّ أيضاً أن أسمع حديثاً غريباً فيه ؛ فكان من الجواب : إن الرواية فى هذا الباب أكثرُ وأفشى من الاطلاع على سرِّه ، والظفر بمكنونه ؛ فقال : هات ما يتعلّق بالرواية . قلت : حكى لنا أبو سليمانَ فى هـذه الأيام أنّ ثيُودُسْيُوس[٣] مَلِكَ يونان كتَبَ إلى كُنْتُس[٤] الشاعر أن يَزوِّده[٥] بمـا عنده من [كتب]

(١) فى (ا) « من لم يبكيك لـكثر » ؛ وهو تحريف .

(٢) يريد بالاتفاق الأمور التى تحدث بالمصادفة .

(٣) فى (ا) « قومودوس » ، وفى ب « تودورس » ؛ والصواب ما أثبتناه نقلا عن كتب التاريخ . (٤) فى كلتا النسختين « إينقس » ؛ وهو تحريف .

(٥) فى كلتا النسختين « أن يزوره » بالراء ؛ وهو تصحيف .

فلسفيّة ؛ فجمع ماله فى عَيْبَةٍ ضَخْمَة ، وارتحل قاصداً نحوَه ، فلقى فى تلك البادية قومًا من قطّاع الطريق ، فطمعوا فى ماله وهمُّوا بقتْله ، فناشدهم اللّهَ ألاّ يقتلوه وأن يأخذوا مالَه ويُخلّوه ، فأبَوْا ، فتحيَّر ونَظَر يميناً وشمالاً يلتمس مُعيناً وناصرًا فلم يَجد ، فرَفَع رأسه إلى السماء ، ومدَّ طَرْفَه فى الهواء ، فرأى كَرَاكِىَّ تطير فى الجوّ مُحَلِّقَة ، فصاح : أيتُها الكراكِىُّ الطائرة ، قد أعْجزَنى المعينُ والناصر ، فكونى الطالبةَ بدَمى ، والآخذةَ بثأرى . فضَحك اللُّصوص ، وقال بعضهم لبعض : هذا أنقَص الناس عقْلا ، ومن لا عَقْلَ له لا جُناح فى قتْله ؛ ثمّ قتلوه وأخذوا مالَه واقتسَموه وعادوا إلى أماكنهم ؛ فلمّا اتّصل الحديثُ بأهْل مدينته حزِنوا وأعظَموا ذلك ، وتَبِعوا أثَر قاتله واجتَهدوا فلم يُغنُوا شيئاً ولم يقفوا عَلَى شىء ؛ وحَضر اليونانيون وأهلُ مدينته إلى هيكلهم لقراءة التسابيح والمُذاكَرة بالحكمة والعِظَة ، وحَضر الناسُ من كلّ قُطْر وأوْب ، وجاء القَتلة واختلطوا بالجمع ، وجلسوا عند بعضِ أساطين[1] الهيكل ، فهم على ذلك إذ مرّت بهم كَرَاكِىُّ تتغاغى وتصيح ، فرفع اللصوصُ أعيُنَهم ووجوهَهم إلى الهواء ينظرون ما فيه فإذا كَرَاكِىّ تَصيح وتطير ، وتَسدّ الجوّ ؛ فتضاحكوا ، وقال بعضهم لبعض : هؤلاء طالِبو دَمِ كُنتُس الجاهل — على طريق الاستهزاء — فسمعَ كلامهم بعضُ من كان قريباً منهم فأخبرَ السلطانَ فأخذهم وشَدّد عليهم ، وطالَبَهم فأقرّوا بقتْله ، فقتلَهم ؛ فكانت الكَرَاكِىُّ الطالِبَةَ بدَمه ، لو كانوا يَعقِلون أنّ الطالبَ لهم بالمرصاد .

وقال لنا أبو سليمان : إن كُنتُس وإن كان خاطَبَ الكَرَاكِىّ فإنه أشارَ به إلى ربِّ الكَرَاكِىّ وخالِقها ، ولم يُطِلَّ اللّهُ دَمَه ولا سَدَّ عنه بابَ إجابته ؛

(١) فى كلتا النسختين « أساطير » ؛ وهو تحريف .

فسبحانَه كيف يهيِّئُ الأسباب، ويَفتح الأبواب، ويَرْفعُ الحجابَ بعد الحجاب.

فقال: هذا عجَب:

قلتُ: قال لنا أبو سليمان: كلُّ ما جُهِل سببُه من ناحية الحِسّ بالعادة، ومن ناحية الطبيعةِ بالإمكان، ومن ناحيةِ النفس بالتهيئة، ومن ناحية العقْل بالتَّجويز، ومن ناحية الإله بالتَّوفيق — فهوَ مَحْجوبٌ منه، معجوزٌ عنه، مسلَّمٌ لمن له القُدْرة المُحيطة، والمشيئة النافِذَة، والحِكمةُ البالِغة، والإحسانُ السابق.

ولقد حكى أبو الحسن القَرَضيُّ في أمر الاتفاق شيئاً ظريفاً عن بعض إخوانه (٢) قال: خرجنا إلى بعض المُتَنزَّهات ومعنا جَرٌّ[1] نَصيدُ به السُّمانَى، وكنَّا جماعة، فقال حَدَثٌ كان معنا — وكان أصغرَنا سِنًا —: أنتم تصيدون بجَرّ[1]، وأنا أصِيدُ بيَدِى؛ يقول ذلك على جِهَة المَزْح؛ فرَمى بعد قليل فاتَّفق له أن أثارَ سُمانَى، فأسرَع إليه ونحن لا نعلَم أنَّه أخَذَ شيئاً، فقلنا له على طريق العَبَث: اِحذَر الخنزير — من غير أنْ نكون رأيْنا خِنزيرا — فالتفت فَزِعاً وفرَّ[2] مُوَلِّيا، فاتَّفق له أن رأى خِنْزِيرًا منه غيرَ بعيد، فأَقبل إلينا مُسرِعًا هاربًا من الخنْزير والسُّمانى بيَده وقد صاده.

وكنت في البادية في صَفَر سنة أربع وخمسين منصرفاً من الحج ومعى[3] جماعةٌ من الصُّوفية، فلَحِقَنا جُهْدٌ من عَوَز القُوت وتعَذُّر ما يُمْسِك الرُّوحَ في

(١) الجرّ: الحبل. وفى نسخة: «مجر»، وهو الحبل الذى يجرّ به أيضا.
(٢) وردت هذه العبارة فى كلا الأصلين مهملة أكثر حروفها من النقط، وما أثبتناه هو أقرب الوجوه إلى ما فى الأصول من الرسم وما يقتضيه السياق من الكلام.
(٣) فى الأصل: «وبقى»؛ وهو تحريف.

حديث طويل — إلا أنّا وَصلْنا منْ زُبالةَ(١) — بالحيلة اللّطيفة منّا ، والصُّنْع الجميل من الله تعالى — إلى شيء من الدقيق ؛ فانتعشتْ أنفُسُنا به ، وغَنِمْناه ، ورأيناه نفحةً من نفَحات الله تعالى الكريم ؛ فجعلناه زادنا ، وسِرْنا ؛ فلما بلَغْنا المنْزل قعدنا لنُمارِس ذلك الدقيق ، ولقَطْنا البَعَرَ ودُقاقَ الحطَب ، فلما أجْمَعْنا على العجْن والمَلْكِ(٢) لم نجد الحُراق(٣) — وكان عندنا أنّه معنا ، وأنّنا قد أُستظهرناه(٤) — فدخلَتْنا حَيْرة شديدة ، وركِبَنا غَمٌّ غالب ، وسفَفْنا من ذلك الدقيق شيئا ، فما ساغ ولا قبِلَتْه الطبيعة ، وبِتْنا لَيْلتَنا طاوِين ساهِرِين ، قد علانا الكَمَد ، وملَكَنا الوُجومُ والأسف ؛ فقال بعضُنا : هذا لمّا وَجَدْنا الدقيق ؟! وأصْبَحْنا ورُكَبُنا قد استَرْخَتْ ، وعيونُنا قد غارت ، وأحَدُنا لا يحدِّث صاحبَه غَمًّا وكَرْبا ؛ وعُدْنا إلى ما كنّا فيه قبلُ بزيادةِ حسرةٍ من النَّظر إلى الدقيق ؛ وقال صاحبٌ لنا : نَرْمى بجراب الدَّقيق [حتّى نُلقِيَ حِمْلَه وثِقْلَه فى طولِ هذا الطريق] ؛ فقلنا : ليس هذا بصواب ، وما يضرّنا أن يكون معنا ، فلعلّنا أن نَرَى رَكْبًا أو نَلقَى حَطَبا . وكانتْ الباديةُ خاليةً فى ذلك الوقت ، لرُعْبٍ لَحِق قوماً من بنى كِلاب من جهة أعدائهم ، فلم يكن يجتازُ بها [فى ذلك الوقت] غريب . وبقينا كذلك إلى اليوم الثّالث ، ونحنُ نُلاحِقُ(٥) ونُجاهد فى المَشْى ؛ فلمّا كان العَصْرُ مِنْ ذلك اليوم كنتُ أسيرُ أمامَ القوم أجَرِّئُهم(٦) وأسألهم ،

(١) زبالة : بلد بالطريق من الكوفة إلى مكة .
(٢) الملك : إنعام العجن .
(٣) الحراق : ما تقع فيه النار عند اقتداحها من خرق ونحوها .
(٤) قد استظهرناه ، أى حملناه معنا فوق أظهرنا .
(٥) فى كلتا النسختين « نراجف » ؛ وهو تصحيف لا معنى له .
(٦) فى كلتا النسختين « أجرّم » ؛ وهو تحريف .

وكنتُ كالحاطب[١] لهم : « إذا عَثَرْنا بحُراق[٢] وظفِرنا بفَتيلة » ؛ فوَجدوا خرقةً مَلفوفة فيها حُراق ، فهلّلوا وكبّرُوا ، ورَفَعوا أصْواتهم ؛ فقلت كالمتعجّب : ما الخَبَر ؟ قالوا : البُشْرَى ؛ قلت : وما ذاك ؟ قالوا : هذه خِرْقة مُلِئَتْ حُرَاقا ، فلا تَسَلْ عمّا دَهَانا من الفَرح والاستِبْشار ؛ وثابَ إلينا من السُّرُور والارتياح ، وزال عنّا مِنَ الأنخزال والأنكسار ، وقعَدْنا فى مكاننا ذلك ، ولَقَطْنا البَعَر ، وأثَرْنا الوَقود ، وأجَّجْنا ناراً عظيمة ، ومَلَكْنا[٣] الدّقيق كلّه مَلْكَةً واحدةً وكان أربَعين رِطْلا ، وكان ذلك بلاغَنا إلى القادسيّة ؛ فلما دنَوْنا منها تلقّانا بَشَر من أهْلِها ، وقالوا لنا : كيف سَلِمْتم فى هذه الطريق مع العَوَز والخوف ؟ فقلنا : لُطْفُ الله يُقرِّب كلَّ بعيد ، ويسهِّل كلَّ شديد ، ويَصْنَع للضعيف حتّى يتعجّبَ القوىّ .

وليس أحدٌ مِنْ خَلْق الله يَجحَد هذا القول ، ويُنكِر هذا الفَضل ، ويَرجِعُ إلى دِينٍ وَثيقٍ أو واهٍ (إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ) .

وحدّثنى أبو الحسن علىُّ بنُ هارُون الزَّنجَانىُّ القاضى صاحبُ المذهب قال : اصطحب رَجُلان فى بعض الطُّرُق مسافرَيْن : مَجُوسىٌّ من أَهْلِ الرَّىّ ، والآخَر يَهودِىٌّ من أرض جَىّ[٤] ؛ وكان المَجُوسىُّ راكباً بَغْلة له عليها سُفْرَة[٥] من الزّاد والنفقة وغيرِ ذلك ، وهو يسير مرفّها وادِعا ، واليهودىّ يمشى بلا زادٍ ولا نفقة ؛ فبينا هما يتحادثان إذ قال المجوسىُّ لليهودىّ : ما مذهبُك وعقيدتُك

(١) فى (ب) « كالحاجب » .
(٢) فى كلتا النسختين « نحن » ؛ وفيه تحريف ونقص ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .
(٣) فى الأصل : « وملِلنا ... ... ملة » ؛ وهو تحريف .
(٤) فى كلتا النُّسختين « حى » بالمهملة ، وهو تصحيف . وجى : مدينة بناحية أصبهان تسمى الآن شهرستان ، وكان لليهود محلة فى طرفها ، فلما خربت جى بقيت محلتهم ، وهى اليهودية .
(٥) فى كلتا النسختين : « فى سفره » ؛ وهو تحريف .

يا فلان ؟ قال اليهودىّ : أعتقِدُ أنّ فى هذه السماء إلهًا هو إلهُ بنى إسرائيل ، وأنا أعبُدُه وأُقدّسه وأتضرّع إليه ، وأطلُبُ فَضْلَ ما عنده من الرزق الواسع والعمرِ الطويل ، مع صِحّة البَدَن ، والسّـلامةِ من كلّ آفة ، والنُّصْرَة على عَدُوِّى ، وأسأله الخيرَ لنَفْسى ولمن يُوَافِقُنى فى دِينى ومَذْهَبى ، فلا أعبأ بمن يُخَالِفُنى ، بل أعتقِد أنّ من يُخالِفُنى دَمُه لى يَحِلّ ، وحَرَامٌ علىّ نُصْرَتُه ونَصِيحته والرحمةُ به . ثم قال للمجوسىّ : قد أخبرتُكَ بمذْهَبى وعقيدتى وما أشتَمل عليه ضَميرى ، فخبِّرْنى أنتَ أيضاً عن شأنِكَ وعَقِيدتكَ وما تَدِين به رَبّك ؟ فقال المجوسىّ : أمّا عقيدتى ورأيى فهو أنى أريد الخيرَ لنَفْسى وأبناء جِنْسى ، ولا أريد لأحَدٍ من عِباد الله سُـوءًا ، ولا أتمنّى له ضُرّا ، لا لمُوافِقى ، ولا لمخالِفى . فقال اليهودىّ : وإن ظَلَمَك وتعدّى عليك ؟ قال : نعم ، لأنى أعلمُ أنّ فى هذه السماء إلـهًا خبيرًا عالما حكيما لا تخفى عليه خافِيةٌ من شىء ، وهو يجزِى المُحْسِنَ بإحسانه ، والمسىء بإساءته . فقال اليهودىّ : يا فلان ، لستُ أراكَ تَنصُر مَذهبَـك وتُحقِّق رأيَك . قال المجوسىّ : كيف ذاك ؟ قال : لأنى من أبناء جِنْسِك ، وبَشَرٌ مثلُكَ ، وتَرانى أمشى جائعاً نَصِباً مجهوداً ، وأنتَ راكبٌ وادعٌ مرفّهٌ شَبْعان . فقال : صدقتَ ، وماذا تبْغى ؟ قال : أطعِمْنى من زادِك ، وأحملنى ساعةً ، فقد كَلَلْتُ وضَعُفْت . قال : نعم وكَرامة . فنزل ومَدّ مِنْ سُفْرَتِه وأطعَمَه وأشْبَعَه ، ثم أركَبه ، ومَشى ساعة يحدِّثه ؛ فلمّا مَلكَ اليهودىّ البَغْلة وعَلِمَ أنّ المجوسىّ قد أعيا ، حرّك البغلةَ وسبَقه ، وجَعل المجوسىّ يمشى ولا يَلْحَقُه ، فناداه : يا فلان ، قِفْ لى وأنزِلْ ، فقد أنحسرتُ وأنبهَرْت . فقال اليهودىّ : ألم أخبِرْكَ عن مَذْهَبى وخبّرْتنى عن مَذْهَبك ، ونَصرْتَه وحَقّقْتَه ؟ فأنا أريد أيضاً أن أحقِّق مَذْهَبى ، وأنصر رأيى وأعتقادى . وجَعَل يحرّك البَغلة ، والمجوسىّ يَقْفوه على ظَلَع ويُنادِى : قِفْ

ويَصْعُب[(١)] ما هٰذا وَصفُه أن يُترَكَ ويُرْفَض ويُزال . فرَحِمه المجوسىّ ، وحمله معه حتّى وافَى المدينة ، وسلّمه إلى أوْليائه محطَّمًا مُوجَعًا ، وحَدَّثَ الناسَ بحديثِه وقصّته ، فكانوا يتعجّبون من شأنهما زمانًا [طويلا] .

وقال بعضُ النّاسِ للمجوسىّ [بعدُ] : كيف رَحِمتَه بعد خيانته لك ، وبعد إحسانك إليه ؟ قال المجوسىّ : اِعتذَر بحالِه التى نشأ فيها ، ودأَبَ عُمُرَه فى اعتقادها ، وسَعَى لها وأُعتادَها ؛ وعَلمتُ أنّ هذا شديدُ الزّوال عنه ، وصدّقْتُه ورحمته ، وهذا منى شُكرٌ على صُنْعِ اللهِ بى حين دَعَوْتُه عند ما دهانى منه ، وبالرّحمةِ الأولَى أعاننى ربِّى ، وبالرّحمة الثانية شَكَرْتُه على ما صَنَع بى .

هذا كلّه سردناه اسببَ الأمرِ الذى يبدو من غير جَنان ، والعارضِ الذى يَبْرُز من غير توهُّم .

وأبو سليمان يقول : الأمور مَقْسومةٌ على الحدود الطبيعيّة والقُوَى النفسيّة والبسائط العَقْليّة والغرائب الإلٰهيّة ؛ فبالواجب ، ما كان هاهنا مألوفٌ له نسبةٌ إلى الطبيعة ، ونادِرٌ له نسبةٌ إلى النفس ، وبَديعٌ له نسبةٌ إلى العقل ، وغريبٌ له نسبةٌ إلى الإلٰه ؛ والفَلَتات فى الأحوالِ من هـذا القَبِيل ، أَعْنى ما يَتَخَلَّلُ هذه المَراتب .

فقال [له] البخارىّ : أيقال لما يَصْدُر عن الإلٰه فَلْتة ؟ قال : بحَسَب مَصيرِه إلينا ، ووصوله إلى عالَمِنا ، لا بحَسَب صُدُورِه عن البارى ، فليس هناك هذا و[لا] ما يُشْبِهه ، لأنّ هـذه السِّمات لَحِقَت المركَّبات ، من الأوائل

(١) فى (ا) ويعقب ؛ وهو تحريف .

المُزْدَوِجاتُ[١] ، والثَّوانى المكرَّرات ، والثوالث المُحقَّقات ، والرّوابع المتمِّمات ، والخوامس المدبِّرات ، والسوادس المضاعَفات ، والسوابع الظّاهرات ، والثوامن المعقِّبات ، والتواسع العاليات ، والعواشر الكاملات ؛ وما بَعْدَ العواشر داخلٌ فى المكرَّرات .

قال له البخاريّ مستزيدا : أ كان[٢] التّوفيق من الاتفاق ؟ فقال : هما يتوحّدان من وجه ، ويَفْتَرِقان من وَجه ؛ فوَجْهُ تَوَحُّدهما أنَّ الاتّفاقَ وليدُ التوفيق ، والتّوفيقَ غايةُ الاتّفاق ؛ ووَجْهُ افتراقهما أنَّ الاتّفاق يَبْرُز إلى الحسّ ، وأصحابَه يَشْتركون فى التعجُّب منه ، والاستِطرافِ له ؛ والتّوفيقَ يُسْتَرُ عن الحسّ ؛ ولهذا لا تُسلَكُ[٣] مَسالِكُه . وأما الوفاق والموافَقة والتوفيق والاتّفاق فمتلابسةُ المعانى ؛ ولمّا لم يكُنْ بين المعنى والمعنى مَسافةٌ محصَّلةٌ[٤] حُسِب هذا فى حَيِّز هذا ، وعُدَّ هذا فى جُملةِ هذا .

(٣) وقال — أبقاهُ اللهُ وأدام أيّامه — : ما اليُمْن والبَرَكة ؟ والفألُ والطِّيَرَةُ وأضدادُها ؟

فكان الجواب : إنَّ اليُمْنَ عِبارةٌ عن شىء يبشَّرُ به [ويُبْتَغى][٥] ويُراد ؛ ويقال : فلانٌ مَيْمونُ الناصيَة ، وميسور الناصية ؛ أى هو سببٌ ظاهرٌ فى نيلِ مأمُول وإدْراكِ محبوب ؛ واشتِقاقُه من اليَمِين ، وهو القوّة ؛ ولذلك يقال لليَسار : شِمالٌ ، لأنّها أَضعَفُ منها ، وتسمَّى أيضاً : الشُّؤمَى . ويقال : يُمِنَ فلانٌ عليهم ،

(١) لعله « المتوحدات » .
(٢) فى (١) « فإن التوفيق » ؛ وهو تحريف . وهمزة الاستفهام لم ترد فى الأصول .
(٣) الذى فى كلتا النسختين « فلهذا لا يسأل مالكه » .
(٤) فى (١) « خاصة » .
(٥) فى (١) « ما يراد ويبتغى » .

يا هٰذا وأحملنى ، ولا تترُكنى فى هذا الموضع فيأكلَنى السَّبُعُ وأموتَ ضَياعا ، وأرْحمنى كما رَحِمْتُك . واليهوديُّ لا يُلْوِى على ندائه وأستغاثته ، حتَّى غابَ عن بَصرِه ؛ فلمَّا يَئِسَ المجوسيُّ منه وأشْفَى على الهلَكة ، ذَكَرَ اعتِقادَه وما وَصَفَ به رَبَّه ، فرَفَع طَرْفَه إلى السماء وقال : إلٰهى قد علِمْتَ أنى اعتَقَدْتُ مذهباً ونصرتُه ، ووَصفتُك بما أنتَ أهْله ، وقد سمعتَ وعَلِمتَ ، فحقِّق عند هذا الباغى علىّ ما مَجَّدْتُك به ، ليَعْلم حقيقةَ ما قلتُ . فما مشى المجوسيُّ إلاّ قليلا حتَّى رأى اليهوديَّ وقد رَمَتْ به البَغْلة ، وأندقَّتْ عُنُقه ، وهى واقفةٌ ناحيةً منه تنتظر صاحبَها ؛ فلمَّا أدْرَكَ المجوسيُّ بَغلتَه رَكِبَها ومَضى لسبيله ، وتَرَكَ اليهوديَّ مُعالِجًا لكَرْبِ المَوْت ؛ فناداه اليهوديُّ : يا فلان ، إرحمنى واحملنى ولا تتركنى فى هٰذه البرِّيّة أهْلِكْ جُوعاً وعَطَشا ، وانصُرْ مَذْهَبَك ، وحقِّق أعتقادَك . قال المجوسيُّ : قد فعلتُ ذلك مرّتين ، ولكنَّك لم تَفْهَمْ ما قلتُ لك ولم تَعْقِلْ ما وَصَفْتُ . فقال اليهوديّ : وكيف ذلك ؟ قال : لأنى وَصفتُ لك مَذْهَبى فلم تصدّقنى فى قولى ، حتّى حقّقْتُه بفِعْلى ، وذاك أنى قلت : إن فى هذه السماء إلٰهًا خبيراً عادلاً لا يَخْفى عليه شىء ، وهو وَلِىُّ جزاءِ المحْسِن[1] بإحسانه ، والمُسىء بإساءته . قال اليهوديّ : قد فهمتُ ما قلتَ ، وعلمتُ ما وَصَفْتَ . قال المجوسيّ : فما الذى مَنَعَك من أنْ تَتَّعِظ بما سمِعْت ؟ قال اليهوديّ : اعتقادٌ نَشَأْتُ عليه ، ومذهبٌ تَرَبَّيْتُ به ، وصار مألوفاً مُعْتاداً كالجِبِلّة بطول الدَّأبِ فيه ، وأستِعمال أبنِيَتِه[2] ، اقتداء بالآباء والأجداد والمعلِّمين من أهلِ دِينى [ومن أهل] مذهبى ، وقد صارَ ذلك كالأُسِّ الثابت ، والأصل النابت ؛

(١) عبارة (ا) جزاء المحسنين ويكافئ المسيئين .

(٢) ابنيته ، أى أصوله التى أبنى عليها . وفى (ا) « بنته » ؛ وهو تحريف .

وشُؤِمَ ، وهو ميمونٌ ومَشْئوم ؛ جُعِـل الفِعْل على طريقِ ما لم يُسَمَّ فاعِلُه ، لأنّه شىءٌ موصولٌ به من غيرِ إرادته وأختياره . و إنمـا نزعوا إلى قولهم : فلان مشئوم ليكون الفعل واقِعاً به — أعنى المـكْرُوه — و إلا فهو شائمٌ فى الأصل . ويقال : شأَمَ فلانٌ قومَه ، وكذلك يَمَنَهُم ؛ وكأنّهما قوّتان عُلْويّتان تَصْحَبان مِزاجيْن مختلفَين ، و إذا أُعتِيدَ منهما هـذان العَرَضان اللذان يَصْدُران عن هاتين القوّتين العُلويّتين ، قيل : فلان [كذا] ، وفلانٌ كذا .

وأما البَرَكة فهى النَّماء والزِّيادة والرَّفْعُ ، من حيث لا يوجد(١) بالحسّ ظاهراً مكشوفاً يُشار إليـه ، فإذا عُهِدَ من الشىء هذا المعنى خافِياً عن الحسّ قيل : هـذه بَرَكة ، وأشتِقاقها من البُروك ، وهو اللُّزوم والسَّعَة ؛ ومن ذلك : البِرْكة . والبَرَكة يوصَف بها كلُّ شىء ، وليس لضِدِّها أسمٌ مشهور ، لذلك يقال : قليلُ البَرَكة .

وأما الفَأْلُ ففسِّرَ بأنّه جَرَيان الذِّكْرِ الجميـلِ على اللّسان مَعْزُولاً عن القَصْد ، إمّا مِنَ القائل ، و إمّا من السامع . وقد سَمِـعَ النبىُّ — صلّى الله عليه وسلّم — لمّا نزَلَ المدينـةَ عَلَى أبى أيّوب الأنصارىّ — أبا أيُّوبَ يقول لغلامٍ له : ياسالمُ يا غانم . فقال لأبى بكر : « سَلِمَتْ لنا الدّارُ فى غُنْمٍ إنْ شاء الله » . وهذا مشهورٌ بين النّاس .

وضِـدُّه الطِّيَرَةُ والإشعار(٢) . و يُرْوَى أنّه نَهى عن الطِّيَرَة ، وكان

(١) لا يوجد ، أى النماء وما عطف عليه .

(٢) لم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة التى بين أيدينا من ذكر الإشـعار بهذا المعنى الذى أراده المؤلف هنا . غير أن المراد به يتضح مما نقلناه عن اللسان فى الحاشية الآتية رقم ٣ من صفحة ١٦٤ من قصة عمر مع رامى الجمار وتطير الرجل اللهبىّ بما حدث ، فانظرها ثم .

يُحبُّ الفَألَ صلّى اللهُ عليه وسلم ، وليس لهما عِلَلٌ راتبة ، ولا أسباب مُوجبة ، ولا أوائلُ معروفة ؛ ولهذا كُرِه الإفراط فى التّطيُّر والتّعويلُ على الفَأل ، لأنّهما أمران يَصحّان ويَبطُلان ، والأقلُّ منهما لا يميز من الأكثر ؛ وللمزاجِ من الإنسان فيهما أثرٌ غالب ، والعادةُ أيضاً تُعين ، والوَلوع يزيد ، والتحفُّظ مما هذا شأنُه شديد . ولقد غلَبَ هذا حتى قيل : فلانٌ مدوَّرُ الكَعب ، وفلانٌ مشئوم ؛ وحتّى تَعدّى هذا إلى الدّابة والدار والعَبْد ؛ وكلٌّ هذا ظهر فى هذه الدار حتّى لا يكونَ للعبْدِ طُمأنينة إلاّ بالله ، ولا سُكونٌ إلاّ مع الله ، ولا مطلوبٌ إلاّ من الله ؛ ولهذا — عزّ وجلّ — يُطلِعُ الخوفَ من ثَنِيّة الأمْنِ ، ويَسُوقُ الأمْنَ من ناحيَة الخوف ، ويَبعَث النَّصرَ وقد وقَعَ اليأس ، ويأتى بالفَرَجِ وقد اشتدّ البأس . وأفعالُ الله تعالى خَفِيّةُ المطالِع ، جَلِيّةُ المواقِع ، مطويّةُ المنافع ؛ لأنّها تَسرى بين الغَيب الإلهى ، والعِيانِ الإنسىّ ، وكلُّ ذلك ليَصِحّ التوكّل عليه ، والتسليمُ له ، واللِّياذُ به ، ويعرّجَ على كَنَفِ مُلكه ، ويُتَبوّأَ مَعانُ(١) خُلْده ، ويُنالَ ما عندَه بطاعتِه وعبادته .

فقال الوزير — كَبَتَ الله أعداه ، وبَلّغه مُناه — : هذا كلامٌ ليس عليه كلام ، أرَى النُّعاسَ يَخطُب إلى عَيْنَيّ حاجَته ، وإذا شئتَ فاجمَعْ لى نِقَرًا من هذا الضَّرْب الذى مرّ من حَديث الطِّيَرة والفَأل والاتّفاق .

الليلة الثامنة والعشرون

وعُدْتُ ليلةً أخرَى وقرأتُ عليه أشياء من هذا الفنّ .

(١) منها : عَقَد هشامُ بنُ عبدِ الملك لسعيدِ بن عمرو الجُرَشىِّ أيّامَ التُّرك ، فقال

(١) المعان : المنزل .

سعيد : يا فَتْحُ ، يا نَصْرُ ، خُذَا اللِّواء . فقال هشام : أَعَمْدًا قلتَ هـذا ؟ قال : لا ، ولـكنّهما غُلاماى دَعَوْتُهما . قال هشام : هو الفَتْحُ والنَّصرُ إنْ شاء الله . وكان ذلك كذلك .

وكان عمرُ بنُ الخطّاب — رضىَ الله عنه — يَعْرِض ، فمرَّ به حَيَّةُ بنُ نَـكَّاز ، فقال : لاحاجة لنا فى هذا ، هذا حَيَّة وأبوه يَنْـكُز[1] .

ورمى رجلٌ الجِمارَ ، فأصابَ صَلْعة عمر بحَصاةٍ فشَجَّه . فقال رجل : أُشْعِرتَ يا أميرَ المؤمنين[2] لا يقوم عمر هذا المَقامَ أبداً . فكان ذلك كذلك[3] .

وخرج رجل ينظر الحسَن بن على — صلوات الله عليه — فلقىَ رجُلاً ، فقال له : ما اسمك ؟ قال : عِقال . قال : اِبنُ مَن ؟ قال ابنُ عَقيل . قال : مِنْ بنِى مَنْ ؟ قال : من بنى عُقَيل . قال عقَلْتَه عَقَلك الله .

(٢) هذا الجزء أيُّها الشيخُ — أبقاكَ الله ما تمنَّيت البقاء — هو الجزء الثانى ، والثالثُ يَتْلوه ، والظَّنُّ الجميل بك ، يَعِدُنا بالحسنَى منك ، وقد علمتَ الغرَضَ فى جمع هـذا كلِّه والتعب فيه ، وأرجو ألاَّ يَخيبَ الأمل ، ولا يَبُورَ العمَل ،

---

(١) ينكز ، من النكز ، وهو لسع الحية بأنفها ، ومنه أخذ اسم هذا الرجل « نكاز » كما أن النكاز نوع من أخبث الحيات .

(٢) فى (ا) « أم المؤمن » ؛ وهو تحريف .

(٣) وردت هذه القصة فى اللسان مادة شعر ونصها : « أن رجلا رمى الجمرات فأصاب صلعته بحجر فسال الدم فقال رجل أشعر أمير المؤمنين . ونادى رجل آخر ياخليفة ، وهو اسم رجل ، فقال رجل من بنى لهب : ليقتلن أمير المؤمنين . فرجع فقتل فى تلك السنة . ولهب قبيلة من اليمن فيهم عيافة وزجر . وتشاءم هذا اللهبىّ بقول الرجل : أشعر أمير المؤمنين فقال : ليقتلن ، وكان مراد الرجل انه اعلم بسيلان الدم عليه من الشجة كما يشعر الهدى إذا سيق للنحر . وذهب به اللهبي إلى القتل ، لأن العرب كانت تقول للملوك إذا قتلوا : أشعروا وتقول لسوقة الناس : قتلوا . ولما قال الرجل : أشعر أمير المؤمنين جعله اللهبي قتلا فيما توجه له من علم العيافة وإن كان مراد الرجل أنه دمى كما يدمى الهدى إذا أشعر . وحقت طيرته ، لأن عمر رضى الله عنه لما صدر من الحج قتل » والإشعار : الإدماء بطعن أو رمى أو وجء بحديدة . اهـ

وإن كان ذلك لا يَخْلو من بَعض الخلَل والزَّلَل . فإذا أخذتَ بحُكم الفَضْل الذى هو عادَتُك ودَيدنك مع الصغير والكبير ، والقريب والبعيد ، فاز قِدْحى ، وصدق نَوْئى ، وصحّ زَجْرِى وفَأْلِى. حرسَ اللهُ نفسَك ، وصان نعمَتك ، وكَبتَ كلّ عدوّ لك .

الجزء الثالث من كتاب الإمتاع والمؤانسة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

(١) أيها الشيخ وصل الله قولكَ بالصواب ، وفعلكَ بالتّوفيق ، وجعل أحوالكَ كلّها منظومةً بالصلاح ، راجعةً إلى حميد العاقبة ، متألّفةً بشوارد السُّرُور ، ووفَّرَ حَظَّكَ مِن المَدْحِ والثّناء ، فإنّهما أَلَذُّ مِنَ الشَّهْدِ والسَّلْوَى ، ومَدَّ فى عُمرك لكسْب الخير ، وأستدامة النّعمة بالشُّكْر ؛ وجَعلَ تلذّذك باصطناع المعروف ، وعَرّفَكَ عَواقِبَ الإحسانِ إلى ٱلمُسْتَحِقّ وغيرالمستحق ، حتّى تَتكلَّفَ بثّ الجميل ، وتُشْغَفَ بنَشْرِ الأيادى ، وحتى تجدَ طَعْمَ الثناء ، وتَطْرَبَ عليه طَرَبَ النَّشْوانِ على بديع الغناء . لا طرب[١] البرَدَانىّ على غناء عَلْوَة جارية (٢) ٱبن عَلُّويه فى درب السِلْق[٢] إذا رَفَعتْ عَقِيرتها فغنّت بأبيات السَّروِىّ[٣] :

بالورد فى وَجْنَتيْكَ مَنْ لطمك ومَنْ سَقاكَ المُدَام لِمْ ظلَمَكْ ؟
[خَلّاكَ لا تستَفِيقُ مِنْ سُكْرٍ توسِعُ شَتْماً وجَفْوَةً خَدَمَكْ]
مُعَقْرَبَ الصُّدْغِ قد ثَملْتَ فَما يمنَعُ مِنْ لَثْمِ عاشِقِيكَ فمَكْ ؟

---

(١) فى (ا) « ولا طرب » .
(٢) فى كلتا النسختين «السلق» ، والياء زيادة من الناسخ . ودرب السلق محلة ببغداد .
(٣) فى ب « الشروى » بالمعجمة .

[تجرُّ فضلَ الإزارِ مُنخرِقَ النَّـعْلَيْنِ قد لوَّثَ الثرى قدمَك
أظَلْتُ مِن حيْرةٍ ومِن دَهَشٍ أقول لما رأيتُ مبتسَمكْ]
باللهِ يا أقحوانَ مَضحكه على قَضيب العقيق مَنْ نظَمكْ؟

ولا طرَبَ ابن فهْم[1] الصُّوفىّ على غناء « نهاية » جارية ابن المغنّى إذا اندفعت بشدوها[2]:

أستودِعُ اللهَ فى بَغداد لى قمراً بالكَرْخ من فَلَك الأزرارِ مَطلعُهُ
وَدَّعتُــه وبودّى لو يودّعُنى صَفْوُ الحياةِ وأنِّى لا أُودِّعُه

فإنه إذا سَمِعَ هذا منها ضرَبَ بنفْسه الأرْضَ ، وتمرّغَ فى التراب وهاج وأزْبَدَ ، وتعفّر[3] شَعره ؛ وهاتِ[4] مِنْ رِجالك من يَضْبُطه ويمسكه ، ومَنْ يجسُرُ على الدنو منه ، فإنه يعَضُّ بنابه ، ويخمِشُ بظُفره ، ويركلُ برِجْلِه ويخرِّقُ المرقَّعةَ قِطعَةً قِطْعَةً ، ويَلْطِمُ وَجْهَه ألفَ لَطْمة [فى ساعة] ، ويخرج فى العَباءةِ[5] [كأنه] عبد الرازق المجنون صاحبُ الـكيل فى جيرانك بباب الطاق .

ولا طرَب ابن غيلانَ البزاز على ترْجيعات « بلَّوْر » جارية ابن اليزيدى المؤلِّفِ بين الأكباد المحرَقة ، والمُحْسِن إلى القلوب المتصدِّعة والعيون الباكية إذا غنّت .

---

(١) فى نسخة « ابن قثيم » .
(٢) فى (ا) « لتشدوها » ؛ وهو تحريف .
(٣) فى (ا) « وتعرف » ؛ وهو تحريف ؛ ووردت هذه الـكلمة والتى بعدها فى (ب) مطموستى الحروف تتعذر قراءتهما .
(٤) فى (ا) « وهاب ونبالك » ؛ وهو تحريف ؛ كما وردت هذه العبارة فى (ب) غير واضحة .
(٥) فى (ا) « الحـكاية » ووردت هذه الـكلمة مطموسة الحروف فى « ب » ، ولعل صواب الـكلمة ما أثبتنا بدليل ما سبق فى قوله « ويخرق المرقعة » الخ .

أعطِ الشَّبابَ نَصِيبَهُ ما دمْتَ تُعْذَرُ بالشَّبابِ
وأنعم بأيام الصِّبى وأخلَعْ عِذارَكَ فى التَّصابى

فإنه إذا سمع هذا منها أنقلبت حماليق عيْنَيْه ، وسَقَطَ مَغْشيا عليه ، وهاتِ الكافور وماء الورد ، ومَنْ يقرأ فى أُذُنه آيَةَ الكُرْسىّ والمعوِّذتين ، ويُرْقى بِهَيَا شَراهِيا[(١)] .

ولا طربَ أبى الوزير الصوفىّ [القاطن] فى دار القُطن[(٢)] عند جامع المدينة على « قَمَر القضيبية[(٣)] » إذا تناوَأتْ[(٤)] فى استهلالها ، وتضاجرتْ[(٥)] على ضُجْرَتِها ، وتذكّرت شجوَها الذى قد أضْناها وأنضاها ، وسلبها منها[(٦)] وأنساها إياها[(٧)] . ثم أندفعتْ وغنّتْ بصوتها المعروف [بها] .

أقولُ لهـا والصبحُ قد لاح نورُه كما لاح ضَوْءُ البارِقِ المتألِّقِ
شَبِيهُكِ قد وَافَى وحان[(٨)] افتراقنا فهل لك فى صَوْتٍ ورِطْلٍ مُرَوَّقِ

---

(١) هيا شراهيا كلمة عبرانية معناها ياحى ياقيوم كما فى المصباح وفى القاموس مادة شره . أشر إهيا بفتح الهمزة والشين : كلمة يونانية معناها الأزلى الذى لم يزل والناس يغلطون ويقولون أهيا شراهيا وهو خطأ على ما يزعمه أحبار اليهود .

(٢) فى كلتا النسختين القطان ؛ والذى وجدناه فى محلات بغداد دار القطن لا القطان ، وإليها ينسب الدارقطنى .

(٣) القضيبية نسبة إلى القضيب الذى توقع به .

(٤) فى (أ) «تناوت» وفى ب «تبارت» ، وهو تحريف فى كلتا النسختين ، والصواب ما أثبتنا كما يدل عليه الكلام الآتى بعد ، وتناوأت أى تثاقلت وتظاهرت بالإعياء والتعب من ناء بالحمل ينوء .

(٥) وتضاجرت على ضجرتها أى تظاهرت بالضجر زيادة على ما فيها منه ، وفى كلتا النسختين وتخاطرت مكان قوله وتضاجرت وهو تحريف لا معنى له . وفى (أ) على صخرتها ، وهو تحريف أيضاً .

(٦) سلبها منها نظير قول المؤلف فى وصف بعض الغلمان المغنين (ص ١٧٥ سطر ٣ من هذا الجزء) « يسرقك منك » .

(٧) أنساها إياها أى أنساها نفسها . (٨) فى ب « وحار » ؛ وهو تحريف .

أو رَجاء لمنتظَر ، أو حُزْنٍ على حالٍ ، وهذه أَحْوَالٌ مَعرُوفة، والناسُ [منها] على جديلةٍ[(١)] معهودة .

ولا طرب ابن غسّانَ البصريِّ المتطبّب إذا سمع أبن الرّفاء يُغنِّي :

وحياةِ مَنْ أَهْوَى فإنى لم أكُنْ أبدا لأَحْلفَ كاذباً بحياته

لأُخالفنَّ عواذلى فى لذَّتى ولأُسْعِدَنَّ أخى على لذّاته

وابنُ غَسّان هـذا مليحُ الأدب ، وهو الذى يقول فى ابن نصرٍ العاملِ — وقد عالجه من علّة فلم يتفقّده ولم يَقْضِ حَقّه — :

هَبِ الشُّعراء تُعْطيهم رِقَاعاً مُزوَّرةً كلاما عن كلام

فلِمْ صلة الطَّبيبِ تكونُ زُوراً وقد أَهْدَى الشفاءَ منَ السَّقامِ

عجبتُ لمنْ نمته[(٢)] أرضُ لُؤمٍ وبُخْلٍ لِمْ يُعَدُّ منَ الكرامِ

نُسِبْتَ إلى السماحةِ لا لشىء سِوى نُقْصانِ لُؤمِكَ فى اللئامِ

عَنَى بهـا أنه من أَصْبهانٍ[(٣)] ، وكان آخر حديث أبن غسان ما عرفته[(٤)] ، فإنه غرّق[(٥)] نفسه فى كِرْدابٍ[(٦)] كلْواذَى ، وذلك لأسباب تجمّعت عليه من صَفَر اليد ، وسُوءِ الحال ، وجَرَبٍ أكل بدَنه ، وعِشْقٍ أَحْرَقَ كَبده على غُلام (الآمِدىِّ الحلاوىِّ) بباب الطاق ، وحيرة عَزَبَ معها عَقْلُه، وخذَله رأيه ، ومَلَكه حينه ، ونَسْأَلُ الله حسْن العُقْبى بدرْكِ المُنى ، وليس للإنسان من أمره شىء ،

(١) الجديلة : الطريقة . (٢) فى (أ) « نموت » ؛ وهو تحريف .

(٣) يشير إلى شهرة أهل أصبهان بالبخل .

(٤) فى ب « علمته » .

(٥) فى (أ) « عرف » ؛ وهو تصحيف .

(٦) فى (أ) كردان بالنون ؛ وهو تحريف . والجرداب كلمة فارسية معناها دوامة الماء وهى وسط البحر ولجته التى يدوّم عليها الموج . وهى بالجيم ، ولعل العرب كانوا ينطقونها بالكاف

فقالت حياتى فى الذى قد ذكرتَه ... وإن كنتَ قد نغَّصْتَه بالتفرُّق

ولا طرب الجراحى أبى الحسن مع قصائه فى الكرخ وردائه المُحَشَّى، وكمّيه المُفَدَّرين[(١)] ووجنتيه المتخلِّجَتَيْن[(٢)]، وكلامه الفَخْم، وإطراقه الدائم؛ فإنّه يغمزُ بالحاجب إذا رأى مِرْطا[(٣)]، وأمّل أن يُقبِّلَ خدًّا وقُرطا[(٤)]؛ على غناء شُعْلَة:

لا بدَّ للمشتاقِ مِنْ ذِكْرِ الوطَنْ ... واليأس والسَّلْوةِ مِنْ بَعْدِ الحزَنْ

وقيامتُه[(٥)] تقوم إذا سَمِعَها ترجِّع فى لحنها

لو أنَّ ما تبْتليني[(٦)] الحادثاتُ به ... يُلقَى على الماء لم يُشْرَب من الكَدَرِ

فهنالك ترَى شَيْبَةً قد ابتلَّت بالدموع، وفؤاداً قد نَزَا[(٧)] إلى اللّهاة، مع أسَفٍ قد ثقَب القلب، وأوْهَن الرُّوح، وجابَ الصَّخْر[(٨)]، وأذاب الحديد، وهناك ترى والله أحداقَ الحاضرين باهتة، ودموعَهم متحدِّرة، وشهيقَهم قد علا رَحمةً له، ورقّةً عليه، ومساعدةً لحاله، وهذه صُورةٌ [إذا] استولَتْ على أهْلِ مجلس وَجَدْتَ لها عَدْوَى لا تُملَك، وغايةً لا تُدْرَك، لأنّه قلَّما يخلو إنسانٌ من صبوة أو صبابة، أو حسرةٍ على فائت، أوْ فِكْرٍ فى مُتمنّى، أو خوفٍ من قَطيعة،

(١) كذا فى كلتا النسختين ولعله من التقدير فى الثوب، أى الزيادة والفضل؛ وهو دخيل كما يظهر لنا إذ لم نجده فيما لدينا من كتب اللغة، غير أن ذلك مستعمل فى بعض بلاد مصر ويطلقون عليه الفَدار بفتح الفاء أى الزيادة أو لعل صوابه: «المفزرين» بالزاى المشددة، أى المشقوقين فإن شق الكمين لا يزال معروفاً حتى اليوم فى أقبية أهل العلم والقضاء.

(٢) المتخلجتان، أى المضطربتان المرتعشتان ويكون ذلك من الضعف وكبر السن.

(٣) المرط من ملابس النساء معروف. وفى كلتا النسختين «شرطا»؛ وهو تحريف إذ لم نجد له معنى يناسب السياق.

(٤) فى كلتا النسختين «وفرطا» بالفاء؛ وهو تصحيف.

(٥) فى (أ) و«قيامه يقوم». ووردت هذه العبارة فى «ب» غير واضحة الحروف

(٦) فى (أ) «تنتابنى»؛ وهو تحريف.

(٧) فى (أ) «نزل»: وهو تحريف.

(٨) جاب الصخر: قطعه.

وماهوآئضٌ[(١)] إليه فهو مملوكٌ عليه ، يُصَرِّفُه فيا يُصَرِّفُ فيظُنُّ أنه أتى مِنْ قِبَلِه ، ولعَمرى مَن غُلِّطَ غَلِط ، ومن غُولِطَ غالَط ، والكلام فى هذا غاشٌ[(٢)] والإغراقُ فيه مُوسْوِس ، والإعراضُ[(٣)] عنه أجْلَب للأنس ، وما أحسنَ ما قال القائل :

إذا استَعْفَيْتُ مِن أَسْرِ اللَّيالى   تُصرِّفنى فأَسْرِى فى خَلاصِى[(٤)]

ولولا طَيْشُ[(٥)] القَلَمِ وتَسَحُّبُ الخاطر ، وشُرُودُ الرأى ، ما عَثَرْتُ بهذا الموضع ولا عَلِقْتُ بهذا الحبل ، نعم .

ولا طَرَبَ ابن نُباتة الشاعرِ على صَوْتِ الخاطِفِ إذا غَنَّتْ .

تَلْتَهِبُ الكفُّ مِنْ تَلَهُّبِها   وتَحْسُرُ العينُ إنْ تَقَصَّاها

كأنَّ نارا بها مُحَرَّثَةً[(٦)]   تَهابُها[(٧)] مَرَّةً وتَغْشاها

نأخذها تارةً وتأخُذنا   فنَحْنُ فُرْسانُها وصَرْعاها

ولا طَرَبَ ابن العَوْذِىِّ[(٨)] إذا سمع غناء تَرَف[(٩)] الصابئة فى صوتها ، عند نشاطها ومَرَحِها ، وهواها حاضر ، وطَرْفها إليه ناظر :

---

(١) آئض ، أى راجع .

(٢) فى (ا) «حاش» بالحاء والشين المعجمة ؛ وفى «ب» حاس بالحاء والسين المهملة ؛ ولم نجد لواحدة منهما معنى يناسب السياق ؛ ولعل الصواب ما أثبتنا .

(٣) فى كلتا النسختين : «والإفراج» ؛ وهو تحريف .

(٤) ورد هذا البيت فى (ا) هكذا :

إذا استعقب رقى من ليالم   تصرفى فأسرنى فى خلاصى

وفيه تحريف ظاهر .

(٥) فى (ا) «طنس» ؛ وهو تحريف .

(٦) حرث النار : حركها . وفى كلتا النسختين «محرشة» بالشين ؛ وهو تصحيف .

(٧) فى (ا) «شهابها» ؛ وهو تحريف .

(٨) لعله نسبة إلى العوذ من بنى أسد . والذى فى كلتا النسختين ابن العودى بالدال المهملة ، ولم نجد هذه النسبة فيا راجعناه من كتب الأنساب .

(٩) فى (ا) «شرف» ؛ وماأثبتناه عن «ب» وهوالأرجح أن يكون من أسمائهن .

لَبَّ الهوى كلّما دَعا كا ... ولاح فى الحبِّ من لَحا كا

مَن لامَ فى الحُبِّ أو نَها كا ... فزدْه فى غيِّكَ أنهما كا

إنْ لم تكن فى الهوى كذا كا ... نال(١) لذّاته سِــوا كا

ولا طَرَبَ المعلِّم غلام الحُصْرىّ شيخ الصُّوفية إذا سمع ابن بُهلولٍ يغنى فى رحبة المسجد بعد الجمعة وقد خَفَّ الزحام :

وقال لىَ العَذُولُ تَسَلَّ عنها ... فقلتُ له : أتدرى ما تقول ؟

هى النفسُ التى لا بُدَّ منها ... فـكيف أزول عنها أو أَحُولُ ؟

ولا طرب أبن الغازى على جارية العَمِّىِّ(٢) فى مجلسها الغاصِّ بنبلاء الناس بين السُّورَيْن (٣) .

يَلحَى ، ولو أَرَّقَهُ مِيعادُ ... أو رَاعَه الإعْراضُ والإبْعادُ

أو هَرَّه الأعداء والحُسّادُ ... أو سَلَقَتْه الألْسُنُ الحِدادُ

ما(٤) لامَ مَنْ لَيْسَ له فُؤادُ

ولا طَرَب ابن صُبْر(٥) القاضى قبــلَ القضاء على غناء درّة جارية أبى بكر الجرّاحىّ فى درْبِ الزعفرانىّ التى لا تَقْعُدُ فى السَّنة إلّا فى رَجَبَ ، إذا غَنّتْ :

لستُ أنسى تلك الزِّيارَةَ لمّا ... طرقَتْنــا وأقبلتْ تتثنّى

طرقتْ ظبيةُ الرُّصافة ليلا ... فهى أحلى من جَسِّ عُوداً وغنَّى

(١) فى كلتا النسختين : « فإن بلذاته » ؛ وهو تحريف لا معنى له .

(٢) فى كلتا النسختين « عمى » بدون ألف ولام ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا ، والعمّىّ نسبة إلى العمّ بطن من تميم .

(٣) بين السورين : محلة كبيرة كانت بكرخ بغداد وكانت من أحسن محالها وأعمرها وقد وردت هذه الكلمة فى كلتا النسختين بعد قوله « العمى » . واللائق إثباتها فى هذا الموضع .

(٤) فى « ب » « من لام » ؛ وهو تحريف .

(٥) كذا ضبط هذا الاسم بالعبارة فى شرح القاموس .

كم ليالٍ بِتْنا نَـلَذُّ ونَلْهو ونُسَقَّى شرابَنـــا ونُغَنَّى
هجرتْنا فمـا إليها سَبِيلٌ غيرَ أنّا نقولُ: كانت وكُنّا

وإذا بلغتْ «كانت وكنّا» رأيتَ الجَيْبَ مَشْقوقا ، والذَّيْـلَ مَخْرُوقا ، والدَّمعَ مُنْهملا ، والبال مُنْخَذِلا ، ومكتومَ السِّرِّ فى الهوى باديا ، ودليلَ العِشْقِ على صاحِبِه مُناديا .

ولا طرب أبْن حَجّاج الشاعر على غناء قَنْوَةَ البَصْرية ، وهى جارَتُه[١] وعَشِيقَتهُ ، وله معها أحاديث ، ومع زوجها أعاجيب ؛ وهناك مكايَدات ، وَرَمْىٌ ومُعايَرات ، وإنشاء نِـكات ؛ إذا أنْشَدَتْ :

يا ليْتَنِى أَحْيَا بقُرْبِهِمُو فإذا فقدْتُهُمُ أنقضى عُمُرى

ثم ثنّت بِصَوْتِها[٢] الآخَر :

هَبِينِى أمرأً إمّا بريئاً ظلَمْتِهِ وإمّا مُسِيئاً تاب بَعْدُ فأعْتَبا
فَـكنتُ كذِى داء تبغّى لدائه طبيبا فلما لم يَجِدْهُ تَطَبَّبا

ولا طرب أبْن معروف قاضى القضاة على غِناء عُلَيَّة إذا رَجَّعَت لحنَها فى حَلْقِها الحلو[٣] الشَّجِى بشعر أبْن أبى رَبيعة :

أنِيرِى مكانَ البدْرِ إنْ أفَلَ البدْرُ وقُومِى مَقامَ الشَّمْسِ ما اُستَأخَرَ الفَجْرُ
ففيكِ من الشَّمسِ المُنيرة نُورُها وليس لها مِنْكِ المحاجِرُ والثَّغر[٤]

ولا طَرَب ابن إسحاقَ الطبرىّ على صَوْتِ [دُرَّةَ] البصرية إذا غَنَّتْ :

---

(١) فى (ا) جاريته ؛ وهو تحريف .
(٢) فى (ا) صورتها .
(٣) هنا كلمة مطموسة فى (ا) قبل هذه الـكلمة .
(٤) فى (ا) « والشعر » .

يا ذا الذى زار وما زارا كأنه مُقْتَبِس نارَا
قامَ بباب الدار مِنْ زَهوِه ما ضَرَّه لو دَخَل الدارا
لو دَخَل الدارَ فكلَّمتُه بحاجتى ما دَخَل النّارا
نَفْسى فِداهُ اليومَ مِن زائرٍ ما حلَّ حتى قيلَ قد سَارَا

ولا طَرَب أبن الأزْرَق الجرجَرائىّ على غِناء سُنْدُسَ جارية ابن يوسف صاحب ديوان السَّواد إذا تَمَاجَتْ وتَدَلَّلتْ ، وتفتَّلتْ[(١)] وتقَتَّلَتْ ، وتكَسَّرَتْ وتيَسَّرَتْ ، وقالت : أنا والله كَسْلانة مشغُولة القلب بين أحلام أراها رَديئة ، وبَخْتٍ[(٢)] إذا أستوى التَوى ، [وأَمَلٍ] إذا ظَهَرَ عَثَر ؛ ثم اندفعت وغنَّتْ :

مجلسُ صَبَّيْن عَميدَيْن ليسا مِنَ الحُبِّ بِخلْوَيْن
قد صيَّرا رُوحَيْهما واحداً واقتَسماه بين جِسْمَيْن
تَنازَعا[(٣)] كأسا على لَذّةٍ قد مَزَجاها بين دمْعَيْن
الكأسُ لا تَحْسُنُ إلا إذا أدَرْتَهـا بَيْن مُحبَّيْن

ولا طربَ أبن سَمْعون [الصُّوفىّ] على ابن[(٤)] بُهلول إذا أخذ القضيب وأوقع[(٥)] ببنانه الرَّخْص ، ثم زَلْزَلَ الدنيا بصوته الناعم ، وغُنّته الرَّخيمة ، وإشارته الخالبة ، وحركتِه المدَغدغة[(٦)] ، وظَرْفِه البارع ، ودَماثته الحُلْوَة ، وغَنَّى :

(١) تفتلت ، أى تلوت ، وفى كلتا النسختين «وتقبلت» وهو تصحيف إذ لا يناسب معناه سياق ما هنا ، ولعل صوابه ما أثبتنا كما يدل عليه قوله بعد : «وتقتلت» أى تثنت فى مشيتها.
(٢) فى (١) «ونجيب» ؛ وهو تصحيف .
(٣) هذه الكلمة مطموسة فى (١) .
(٤) على ابن بهلول ، أى على غناء ابن بهلول .
(٥) فى (١) «ورفع» ؛ وهو تصحيف .
(٦) الدغدغة والزغزغة كلا اللفظين بمعنى واحد وقد استعارها هنا لما يلزم ذلك من معنى الخفة والسرور وانبساط النفس .

ولو طابَ لى غَرْسٌ لطابَتْ ثمارُه ... ولو صحَّ لى غَيبى لصَحّتْ شَهادتى

تزَهّدْتُ فى الدنيا وإنى لراغِبٌ ... أرى رَغْبَتى ممزُوجةً بزهادتى

أيا نَفْسُ ما الدنيا بأهْلٍ لِحُبِّها ... دَعيها لأقوامٍ عليها تَعادتِ

ولا طرب ابن حَيَّوَيه(١) على غلام(٢) الأمراء إذا غنَّى :

قد أشهدُ الشاربَ المعذَّلَ(٣) لا ... معـروفُهُ مُنْـكَرٌ ولا حَصرُ

فى فِتْيَةٍ ليِّـنى المآزِرِ لا ... ينسَوْن(٤) أخلاقَهُمْ(٥) إذا سكروا

وغلامُ الأمراء هو الذى يقول فيه القائل :

أبو العباس قد حَجَّ ... وقد عاد وقد غَنَّى

وقد علَّقَ عنَّازاً(٦) ... فهـذا هُمْ كما كُنّا

وأصحابُنا يَسْتَمْلِعونَ قولَه (هُمْ) هاهُنا ، ويَرَوْنَه من العىِّ الفصيح .

ولا طَرَبَ أبى سُلَيْمان المنطقىِّ إذا سمع غِناء هٰذا الصَّبِىِّ الموصلىِّ النابغ الذى قد فتن الناس وملأ الدنيا عِيارةً(٧) وخسارةً ، وافْتَضح به أصحابُ النسك والوقار ، وأصنافُ الناس من الصِّغار والكبار ، بوجهه الحسَن ، وثغره المُبتسِم ، وحَديثه الساحر ، وطَرْفه الفاتر ، وقَدِّه المَديد(٨) ، ولَفظِه الحُلْو ، ودَلِّه الخَلُوب ، وتمنُّعه

(١) فى (ا) « حيومة » بالميم ، وهو تحريف .
(٢) على غلام ، أى على غناء غلام .
(٣) وردت هذه الكلمة فى كلتا النسختين بالدال المهملة ؛ وهو تصحيف .
(٤) ورد هذا البيت فى (ا) أكثر حروفه مهملة من النقط .
(٥) فى (ب) « أحلامهم » ، والمعنى يستقيم عليه أيضا .
(٦) العنّاز طبل كان يعلقه المخنّثون وأصحاب الغناء فى أعناقهم . والذى فى (ا) « وقد عانق غبارا » .
(٧) العيارة : تخلية المرء نفسه وهواها لا يردعها ولا يزجرها .
(٨) فى (ا) المدير ؛ وهو تصحيف .

المُطمِع ، وإطاعِه المُمَنِّع[١] وتشكيكه فى الوصل والهجر ، وخَلْطِه الإباء بالإجابة ، ووقوفه بين لا ونعم . إنْ صَرَّحْتَ له كَنَى ، وإنْ كَنَيتَ له صَرَّح ؛ يَسْرِقُكَ منك ، ويَرُدُّكَ عليك ، يَعْرِفُكَ مُنْكِراً لك ، ويُنْكِرُكَ عارفا بك ؛ فحالُه حالات ، وهِدايَتُه ضلالات ، وهو فتنة الحاضِرِ والبادى ، ومُنْيَة[٢] السائق والهادى ؛ فى صوته الذى هو من قلائده :

عرفتَ الذى بى فلا تَلْحَنى فليس أخو الجهْل كالعالِمِ
وكنتُ أُخَوِّفُه بالدُّعا[٣] وأخشى عليه من المأثمِ
فلو كنتُ أبصرتُ مِثْلا له إذًا لمتُ نَفْسِى مَع اللائمِ
فلمّا أقامَ على ظُلْمه تركْتُ الدُّعاء على الظالِمِ

ولا طَرَبَ أبى عَبْدِ الله البَصْرِىِّ على إيقاع ابن العَصَبِىِّ إذا أَوْقَعَ بقَضِيبه وغَنَّى بصَوْته :

أنَسيتَ الوَصْلَ إذ بِتْـ نا على مَرْقَدِ وَرْدِ
واعْتَنَقْنَا كَوِشاحٍ وانتَظَمْنَا نَظْمَ عِقْدِ
وتَعَطَّفْنا كغُصْنَيْـ ـن فقَدَّانا[٤] كقَدِّ

وبسبب[٥] هذا ونظائِره عابه[٦] الواسطىُّ ، وقَدَحَ فى دِينه ، وألصق به الرِّيبة[٧] ، وأستَحلَّ فى عِرْضِه الغِيبة ، ولقَّبه بالمنفِّر عن المذهب ، وقاطعِ الطَّريق على المُسْتَرْشِد .

(١) فى كلتا النسختين « الممتع » بالتاء ؛ وهو تصحيف ، وما أثبتناه هو مقتضى سياق الكلام .
(٢) فى (ا) وفتنة ؛ وهو تبديل من الناسخ لتكرره مع ما قبله .
(٣) كذا فى « ب » . والذى فى (ا) ولست أخوفه باللقا ؛ والمعنى عليه غير مستقيم .
(٤) فى (ا) « قعدا » ؛ وهو تحريف . (٥) فى (ا) وليست ؛ وهو تحريف .
(٦) فى (ا) « بغاية » ؛ وهو تصحيف . (٧) فى (ا) «الزينة» ؛ وهو تصحيف .

ولا طَرَبَ ابن الورّاقِ على رَوْعَةَ (١) جارية ابن الرّضىّ فى الرُّصافة إذا غنّتْ :

وحقّ محلِّ ذِكْرِكَ مِنْ لسانى ... وقلبى حين أخلو بالأمانى
لقد أصبحتُ أغبطُ كلَّ عينٍ ... تعاينُها فتسعدُ بالعيانِ

ولا طَرَبَ السِّنْدوانىّ (٢) على ابن السكَرْخىِّ إذا غنّى :

هَجَرْتنى ثم لا كلّمْتِنى أبداً ... إن كنتُ خُنْتُكِ فى حالٍ من الحالِ
فلا أنتجيْتُ نجيّا فى خيانتِكمْ ... ولا جرَتْ خطرةٌ منه (٣) على بالِ
فسوّغينى المُنى كيما أعيشَ بها ... ثم أحبسى البَذْلَ ما أطلقْتِ آمالى
أو ابعثِى تَلَفاً إن كنتِ قاتلتى ... إلىّ منكِ بإحسانٍ وإجمالِ

ولا طَرَبَ الحريرىّ الشاهد على حِلْيَةَ جارية أبى عائذ السكَرْخىّ « إذا أخذت فى هزارها » (٤) ، واشتَعَلَتْ بنارها وغنّتْ :

قالت بُثَيْنَةُ لما جئتُ زائرَها (٥) ... سبحانَ خالقِنا ما كانَ أوْفاكا
وعَدْتَنا مَوْعِدًا تأتى (٦) لنا عَجِلاً ... وقد مَضَى الحَوْلُ عنّا ما رأيناكا
إن كنتَ ذا غرضٍ أو كنت ذا مَرَضٍ ... أو كنتَ ذا خُلّةٍ أُخْرَى عَذَرْناكا

ولا طَرَبَ أبى سعيد الصائغ على جاريته ظَلُومُ إذا قلبَتْ لحنَها إلى حلقِها واستنزلتْه (٧) مِنَ الرأس ، ثم أوْقعَتْ فغنّتْ :

---

(١) فى (ب) زرعة ؛ وهو تحريف . وروعة من أسمائهن .
(٢) فى (ا) السنودى . وفى (ب) : « السسودى » . ولم نجد هاتين النسبتين فيما راجعناه من كتب الأنساب ولعل الصواب ما أثبتناه والسندوانى نسبة إلى السندية وهى قرية بنواحي بغداد (٣) فى (ا) منى ؛ وهو تحريف .
(٤) كذا وردت هذه العبارة التى بين هاتين العلامتين فى كلا الأصلين ؛ ولم تتبين معنا ولعله تحريف صوابه « إذا خلعت من عذارها » .
(٥) كذا فى ب والذى فى (ا) أكبرها ؛ وهو تحريف .
(٦) فى (ب) ينتابنا ؛ وفى (ا) فتأتنا ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين .
(٧) عبارة « ا » واسترسلت من الرأس .

فيالَكِ نظرةً أوْدَتْ بعَقْلِي وغادَرَ سَهْمُها مِنّى جَرِيحا
فليتَ مُلَيكَتِى جادَتْ بأخرى وأعْلَمَ أنَّها تَنكا القُروحا
فإمّا أن يَكُونَ بها شِفائى وإمّا أنْ أَمُوتَ فأسْتَرِيحا

ولا طرب الزُّهْرِىّ[(١)] على خَلوبَ جارية أبى أيُّوب القطّانِ إذا أهَلَّت وأُستَهَلَّتْ ، ثم اندفعت وغنَّتْ :

إذا أرَدْتُ سُلُوًّا كان ناصِرَكم قلبى وما أنا مِن قَلْبِى بمُنْتَصِر
فأكْثِروا أوأقِلّوا من إساءتكم[(٢)] فكلُّ ذلك محمولٌ على القَدَرِ
وضعتُ خَدِى لأدنى مَنْ يُطيف بكم حتّى احتُقِرْتُ وما مِثْلِى بمحتَقَرِ

وأبو عَبْدِ الله المرْزُبانىّ شيخُنا إذا سَمِعَ هذا جُنَّ واستغاثَ ، وشَقَّ الجَيْبَ وحولَقَ[(٣)] وقال : يا قومُ أما تَرَوْنَ إلى العبّاس بن الأحنف ، ما يَكفيه أنْ يَفْجُرَ حتى يَكْفُرَ ؟ متى كانت القبائحُ والفضائحُ والعيوبُ والذنوب[(٤)] محمولةً على القَدَر ؟ ومتى قَدَّرَ اللهُ هذهِ الأشْيَاء وقد نَهَى عنها ، ولو قَدَّرها كان قَدْ رَضِىَ بها ، ولو رضى بها لما عاقَبَ عليها ، لَعَنَ اللهُ الغَزَل إذا شيب بمجانة ، والمجانةَ إذا قُرِنَت بما يَقْدَحُ فى الديانة . ورأيتُ أبا صالح الهاشمىّ يقول له : هَوِّن عليك يا شيخ ، فليس هذا كلُّه على ما تَظُنُّ ، القَدَرُ يأتى على كلِّ شىء ، ويَتَعَلَّقُ بكلِّ شىء ، ويَجْرِى بكلِّ شىء ، وهو سرُّ الله المكتوم ، كالعلم[(٥)] الذى يحيط

(١) كذا فى (ب) والذى فى (ا) الزنديرى . ؟ وهو تحريف إذ لم نجد هذه النسبة فيما راجعناه من كتب الأنساب
(٢) فى (ا) «من أسى بكم» ؟ وهو تحريف .
(٣) حولق ، أى أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله .
(٤) فى (ا) «من الذنوب» .
(٥) هذه الكاف ساقطة من (ا) .

بكل شىء ؛ وكلُّ ما جازَ أنْ يحيطَ بِه عِلْمٌ جازَ أنْ يَجْرِى به قَدَر ، وإذا جازَ هٰذا جازَ أنْ يَنْشُرَه خَبَر ، وماهذا التضايقُ والتحارُجُ فى هذا المكان ، والشاعرُ يَهْزِلُ ويَجِدُّ ، ويَقْرُبُ ويَبْعُد ، ويُصِيبُ ويُخْطِئُ ، ولا يؤاخَذ بما يؤاخَذ به الرَّجلُ الديّان ، والعالِمُ ذو البَيان .

ولا طَرَبَ ابن التَّهدِىّ على جاريةِ بنتِ خاقانَ المشهورة بعَلْوَة إذا غنَّتْ :

أَرْوَعُ(١) حين يأتينى الرسولُ   وأُكْمَدُ(٢) حينَ لا يأتى الرَّسُولُ

أُؤمِّلُكمْ وقد أيقَنْتُ أنِّى   إلى تَكْذِيبِ آمالى أؤُولُ

ولا طَرَبَ أبى طاهر بن المقنَّعىّ(٣) المعدَّل على عَلْوانَ(٤) غلامِ ابن عُرْس فإنه إذا حَضَر وألْقَى إزارَه ، وحَلَّ أزراره ، وقال لأهل المجلس : اقترحوا واستَفْتِحُوا فإنِّى وَلَدُكم بل عَبْدُكم لأخدُمكم(٥) بغنائى ، وأتقرَّبَ إليكم بوَلائى ، وأُساعِدَكم(٦) على رُخْصى وغَلائى ؛ مَنْ أرادَنى مَرَّةً أرَدْته مرّات ، ومن أحبَّنى رِياء أحبَبْته إخلاصا ، ومَنْ بَلَغَ بِى بَلَغْتُ به ؛ لم أبْخَلْ عليكم بحُسْنِى(٧) وظَرْفى ، ولم أنفس(٨) بهما عليكم ، وإنما خُلِقْت لكم ، ولم أُغاضِبُكم(٩) وأنا آمُلُكمْ غدا إذا بَقَلَ(١٠)

(١) فى كلتا النسختين « أودع » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى (ا) « وأكره » ؛ وهو تحريف .
(٣) فى (ا) ابن المنيبى ، وهو تحريف ؛ إذ لم نجد هذه النسبة فيما راجعناه من معجمات النسب .
(٤) فى (ا) « علون » ، وهو تحريف .
(٥) فى (ا) « لقدمكم » وفى ب « أفديكم » وما أثبتناه هو ما كتبه المصحح فى ب فى حاشية الصفحة .
(٦) فى (ا) « وأشاعركم » ، وهو تحريف .
(٧) فى (ا) « تجسى » ، وهو تحريف .
(٨) أنفس بهما عليكم ، أى أضن .
(٩) فى ب « أعاصيكم » ، والمعنى يستقيم عليه أيضا .
(١٠) فى (ا) « ثقل » بالثاء المثلثة ، وهو تصحيف . وبقل وجه الغلام ، أى خرجت لحيته .

وَجْهِى ، وتدَلّى سِبالى ، ووَلّى جَمالِى ، وتَـكَسَّرَ خَدِّى ، وتَعَوَّج قَدِّى ، ما أصنع ؟ حاجَتِى واللهِ إليكم غداً أشَدُّ من حاجَتِكم إلىَّ اليوم ، لَعَنَ اللهُ سُوءَ الخُلُق ، وعُسْرَ الطِّباع ، وقلةَ الرِّعاية ، واستحسانَ الغَدْر . فيَمُرُّ فى هٰذا وما أشبهَه كلامٌ كثير ، فلا يَبْقَى مِنَ الجماعةِ أحَدٌ إلا ويَنْبِضُ عِرْقُه ، ويَهَشُّ فُؤادُه ، [ويَذْكو طَمَعُه] ويَفْكَهُ قَلْبُه ، ويتحرك ساكِنُه ، ويَتَدَغْدَغُ رُوحُه(١) ، ويُومِئُ إليه بقُبْلَته ، ويَغْمِزُه بطَرْفِه ، ويَخُصُّه بتَحِيّة ، ويَعِدُه بعَطِيّة ، ويُقابِلُه بمِدْحَة ، ويَضْمَنُ له مِنْحَة ، ويُعَوِّذُه بلسانِه ، ويفضِّلُه على أقْرانه ، ويَراه واحدَ أهْلِ زَمانِه ؛ فيُرَى ابنُ المُقَنَّعِىّ وقد طارَ فى الجوّ ، وحَلَّقَ فى السُّكاكِ(٢) ، ولَقَط بأناملِه النُّجوم ؛ وأقْبَلَ على الجماعة بفَرَحِ الهَشاشَةِ(٣) ، ومَرَحِ البَشاشة(٣) ، فيقول : كيف ترون اختيارى(٤) وأينَ فَراسَتِي من فَراسة غيْرى ، أبَى اللهُ لى إلاّ مايَزِينُنى ، ولا يَشِينُنى ، ويَزِيدُ فى جمالى ، ولا يَنْقُصُ مِنْ حالى ؛ ويُقِرُّ عَيْنِى ولِيِّى ، ويَقْصِمُ ظَهْرَ عَدُوِّى ؛ هاتِ يا غلامُ ذلك الثوبَ الدَّبِيقِىَّ(٥) وذلك البُرْدَ الشَّطَوِىَّ(٦) ، وذلك الفَرُّوجَ(٧) الرُّومِىّ ، وتلك السُّكَّة(٨) المطيَّبة ، والبَخُورَ المدَّخَرَ فى الحُقَّة(٩) ، وهاتِ الدِّينارَ الذى فيه مائةُ مِثْقالٍ أهْداه لنا أمس أبو العلاء الصَّيْرَفِىُّ

(١) الدغدغة والزغزغة كلا اللفظين بمعنى واحد ، والمراد هنا انبساط الروح وهشاشته .

(٢) السكاك : الجو . وفى (ا) الشكاك بالشين المعجمة وفى ب «السكال» باللام فى آخره وهو تحريف فى كلتا النسختين .

(٣) فى (ا) «السياسة» مكان «الهشاشة» ، وهو تحريف .

(٤) فى (ا) «أخبارى» ، وهو تصحيف .

(٥) الدبيقى من دق الثياب ، منسوب إلى قرية بمصر كان ينسج فيها اسمها دبيق .

(٦) الشطوى نسبة إلى شطا قرية بمصر كانت تنسج فيها هذه الثياب .

(٧) الفروج قباء فيه شق من خلفه .

(٨) فى «ب» «الشكة» ، وهو تحريف ، والسك: ضرب من الطيب معروف ، وقد ذكره صاحب نهاية الأرب فى الجزء الثانى عشر الطبعة الأولى وذكر كيفية عمله وتوسع فى ذلك فانظره . (٩) فى (ا) «مع الحقة» وقوله «مع» خطأ من الناسخ .

فإنّه يَكفيه لنَفَقة أُسْبُوع ؛ ما أَحْسَنَ سِكّتَه ، وأحْلَى نَقْشَه ! ما رأيتُ فى حُسْنِ أُستِدارَتِه شِبْهاً[١] ، وعَجِّل لنا يا غلامُ ما أَدْرَكَ عِنْدَ الطَّبّاخ ، من الدَّجاج والفِراخ ؛ والبَوارِدِ[٢] والجَوْزِيّات[٣] وتَرايين المائدة ؛ وصِلْ ذلك بشراء أَقْراطٍ[٤] وجُبْنٍ[٥] وزَيْتون من عند كبل[٦] البَقّال فى الكَرْخ ، وقطائف حَبَش ، وفالُوذَجِ عُمَر ، وفُقّاع[٧] زُرَيق ، ومُخَلَّطِ[٨] خُراسان من عِنْدِ أبى زُنْبُور ، ولو كنّا نَشْرَبُ لقُلْنا : وشَرابِ صَرِيفِين[٩] من عند ابن سُورِين[١٠] ، ولكن إن أَحْبَبْتم أن أُحْضر بسَبَبكم ومن أجْلكم فليس فى الفُتُوّةِ أن أمْنَعَكم من أَرَبِكُم[١١] بسببِ ثِقَلِ رُوحى وقِلّةِ مُساعدتى ، لعن الله الشهادةَ ، فقد حَجَبَتْنِى عن كلِّ شَهْوةٍ و إرادة ؛ وما أَعْرِفُ فى الدَالة ، إلا فَوْتَ الطَّلَبَةِ[١٢] والعُلالة .

وما أَحْسَنَ ما قالَ مَنْ قال :

ما العَيْشُ إلا فى جُنُون الصِّبَى ... فإنْ تولَّى فَجنون المُدامْ

هذا كلُّه يَمُرُّ وما هو أشْجَى منه وأَرَقُّ ، وأعجَبُ وأظْرَف ، ثم يَنْدَفِعُ عَلْوان ويغنّى فى أبياتِ بَشّار :

---

(١) فى كلتا النسختين « شيئا » .

(٢) فى ب « والنواد » . ولعل المراد بالبوارد مايؤكل من الأطعمة بارداً .

(٣) الجوزيات أنواع من الأطعمة تصنع من الجوز . وفى كلتا النسختين والجوزابات ، وهو تحريف . (٤) فى كلتا النسختين « قيراط » ، ولم نجد من معانيه ما يناسب السياق ، ولعل صوابه ما أثبتنا ، والأقراط جمع قرط بكسر أوله وسكون ثانيه ، وهو نوع من الكرات يقال له كرات المائدة . (٥) فى (ا) و « خبز » ، وهو تحريف .

(٦) كذا ورد هذا الاسم فى كلتا النسختين ولم نتبين وجه الصواب فيه بعد طول المراجعة والبحث . (٧) الفقاع ، شراب يتخذ من الشعير .

(٨) مخلط خراسان طعام يصنع من أنواع شتى .

(٩) صريفين : من قرى بغداد تنسب إليها الخمر . (١٠) كذا ورد هذا الاسم فى كلتا النسختين . (١١) فى ب « من لذتكم » والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(١٢) فى كلتا النسختين « الطينة » ، وهو تحريف .

ألا يا قَوْمُ خَلُّونى وشانى   فلستُ بتارِكٍ حُبَّ الغوانى
نَهَوْنى يا عُبَيْدَةُ عَنْ هَوَاكم   فلَم أقْبلْ مقالةَ منْ نَهانى
فإن لم تُسْعِفِى فعِدِى وَمَنِّى   خِداعا لا أمُوتُ على بِيانِ(١)

ولا طَرَب أبى سَعِيد الرَّقِّىّ على غناء مذْكُورةَ إذا اندفَعَتْ وغنَّتْ :

سرِرْتُ بهجرِكَ لما عَلِمْتُ   بأنّ لِقَلبِكَ فيه سُرُورا
ولولا سُرورُكَ ما سَرَّنى   ولا كان قلبى عليه صَبُورا
ولكنْ أرى كلَّ ما ساءنى   إذا كانَ يُرضيك سَهلاً يسيرا

ولا طرب ابن مَيّاس على غِناء حَبَابةَ جاريةِ أبى تمّام إذا غنَّتْ :

صَدَدْنَا كأنَّا لا مودّةَ بيننا   على أنَّ طَرْفَ العينِ لا بُدَّ فاضِحُ
ومَدَّ إلينا الكاشِحونَ عُيونَهمْ   فلم يَبْدُ منّا ما حَوَتْه الجَوانِحُ
وصافحتُ من لاقَيتُ فى البيت غيرَها   وكلُّ الهوَى مِنّى لمَن لا(٢) أُصافِحُ

وجَبَابةُ هٰذه كانت تَنُوح أيضا ، وكانت فى النَّوْح واحدةً لا أختَ لها ، والناسُ بالعراق تَهالكوا على نَوْحِها ، ولولا أنى أكرَه ذِكرَه لرَفَعْتُ الحديثَ به . وقَدِمَ مِن شاش(٣) خُراسانَ أبو مُسلِم — وكان فى مرتبة الأمراء — فاشتراها بثلاثين ألفَ دِرهم معِزِّيّة(٤) ، وخرج بها إلى المَشرق ، فقيل : إنها لم تَعِشْ به إلا دُونَ سنةٍ لكَمَدٍ لَحِقَها ، وهَوًى لها ببَغداد ماتت منه .

(١) بيان بكسر الباء : مصدر باينه أى فارقه ، أى لا أموت على قطيعة وفرقة .
(٢) عبارة (أ) : « منى لم أصافح » ؛ وهو تحريف .
(٣) فى كلتا النسختين : « ساس » بمهملتين ؛ وهو تصحيف . والشاش بمعجمتين : قرية بما وراء النهر ثم ما وراء نهر سيحون .
(٤) فى (أ) : « مرية » ؛ وفى (ب) : « غزية » ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين إذ لم نجد ذلك فيما راجعناه من الكتب المؤلفة فى النقود ، ولعل صوابه ما أثبتنا . والمعزية نسبة إلى معزّ الدولة البويهىّ .

ورأيتُ لها أُختًا يُقال لها صَبابة ، وكانت فى الحُسن والجمال فَوْقها ، وفى الصَّنعةِ والحِذْق دونَها ، وزَلْزَلَتْ هٰذه بغدادَ فى وَقتِها ، ولم يكُنْ للنّاسِ غيرُ حديثِها ، لنوادِرِها ، وحاضِرِ جوابِها ، وحِدَّةِ مِزاجِها ، وسُرْعةِ حركتِها ، بغيرِ طَيْش ولا إفراط ، وهذه شمائلُ إذا اُتفقَت فى الجَوارى الصانعاتِ المُحسِنات خلبْنَ العُقول ، وخَلَسْنَ القلوب ، [وسَعَّرْنَ الصُّــدور] ، وعَجِلْنَ بعُشّاقهنّ إلى القُبور .

ولا طَرِب الـكِنانىُّ المُقرِئُ الشيخ الصالح على غِناء هذه(١) فى صَوْتِها(٢) المعروفِ بها :

عهودُ الصِّبَى هاجَتْ لىَ اليومَ لَوْعةً ... وذِكرُ سُلَيمَى حين لا يَنْفعُ الذِّكرُ
بأرضٍ بها كان الهوَى غيرَ عازبٍ ... لَدَيْنا وغَضٌّ(٣) العيْشِ مُهتَصرٌ نَضرُ
كأنْ لم نَعِشْ يوماً بأجْراعِ بِيشَةٍ ... بأرضٍ بها أنْشا(٤) شَبِيبَتَنا الدهْرُ
بَلى إنَّ هــذا الدّهرَ فَرّقَ بيْننا ... وأىُّ جَميــعٍ لا يفَــرِّقُه الدّهرُ

ولا طَرِبَ غلامٍ بابا على جارية [أبى] طلحة الشاهدِ(٥) فى سُــوق(٦) العَطَش إذا غنّت :

لَيْتَ شِعْرى بِكَ هل تَعْـ ... ـلَمُ أنّى لكَ عانِى
فلقــدْ أسرَرْتُه منْـ ... ـكَ وأطلَعْتُ الأمانى
وتوهّمْتُــكَ فى نَفْـ ... ـسى فناجاكَ لِسَانى
فاْجتمَعْنا واُفترَقْنــا ... بالأمانى فى مَكانِ

(١) هذه ، أى صبابة السابق ذكرها .
(٢) فى (ب) : « وضربها » ؛ وهو تحريف . (٣) فى (أ) : « وغصن » .
(٤) فى (أ) : « أنسا » ؛ وهو تصحيف . وأنشا ، أى أنشأ بالهمز .
(٥) عبارة (أ) : « السناهيق » ؛ وهو تحريف .
(٦) سوق العطش : محلة كبيرة كانت ببغداد بالجانب الشرقى بين الرصافة ونهر المعلّى ، وقيل : إن سوق العطش كانت بين باب الشماسية والرصافة .

ولوددتُ هٰذه الأطرابَ من المستمعين ، والأغانيَّ من الرِّجال والصِّبيان والجواري والحرائر — لطَال وأملّ ، وزاحمتُ كلّ من صنّف كتاباً في الأغاني والألحان ، وعهدي[1] بهٰذا الحديثِ سنةَ ستّين وثلاثمائة .

وقد أحصَيْنا — ونحن جماعةٌ في الكَرْخ — أربعمائةٍ وستّين جاريةً في الجانبَين[2] ، ومائةً وعشرين حُرّة ، وخمسةً وتسعين من الصِّبيان البُدُور ، يجمعون بين الحِذْق والحُسن والظَّرْف والعِشرة ، هـذا سوَى مَن كنّا لا نَظفَرُ به ولا نَصِلُ إليه لعِزّته وحَرَسه ورُقبائه ، وسِوَى ما كُنّا نَسْمَعه ممّنْ لا يتظاهر بالغِناء وبالضَّرْب إلا إذا نَشِط في وقت ، أو ثَمِلَ في حال ، وخَلَع العِذارَ في هَوًى قد حالَفَه وأَضناه ، وترنَّمَ وأَوْقَع ، وهَزَّ رأسَه ، وصَعَّدَ أنفاسه ، وأطرَبَ جُلاَّسَه ، وأستَكتَمَهم حالَه ، وكشف عندَهم حِجابَه ، وأَدَّعَى الثّقةَ بهم ، والاستِنامَةَ إلى حِفاظِهم .

(٣) ثم إني أرجعُ إلى مُنْقَطَع الكلام في الصَّفْحة الأولى من هذا الجزءِ الثالثِ وأَصِلُه بالدُّعاءِ الذي أسألُ اللهَ أن يقْبَلَه فيك ، ويحقِّقَه لك وبك ، وأقول : وأبقاك لي خاصّــةً ، فقد تعَصّبْتَ لي غائباً وشاهدا ، وتعَمّمْتَ[3] بسبَبي سرًّا وجهرا ، وبدأتَ بالتّفضُّل ، وعُدْتَ بالإفضال ، وتظاهرتَ بالفَضْــل ؛ فإن أستزدتُكَ فللنّهم[4] الذي قلّما يخلو[5] منه بَشَر ، وإن تَظَلّمْتُ فللدّالّة التي تَغْلَطُ بها

(١) في كلتا النسختين « فلعهدي » واللام زيادة من الناسخ .
(٢) في (ا) : « الخلتين » ؛ وهو تحريف .
(٣) في (ا) : « وتنعمت بسنتي » ؛ وهو تحريف في كلا اللفظين . والمراد بتعممت وتعصبت واحد ، إذ أن مأخذ اللفظين من العصابة والعمامة اللتين كانتا تلبسان في الحرب يعلم بهما الفارس نفسه بين الأقران . فتجوز في معنييهما واستعملا في انتصار المرء لصديقه ودفاعه عنه في الحرب وفي غيرها . (٤) في نسخة : « فللشره » . والمعنى يستقيم عليه أيضا .
(٥) في (ب) : « يخلص » . والمعنى يستقيم عليه أيضا .

الخَدَم(١) ، وإن خاشنتُ(٢) فالثِّقة بحُسْنِ الإجاب(٣) ، وإن غالطتُ(٤) فلعلمى بغالبِ الحِلْمِ وفَرْطِ الاُحتمال ، وما اُفترقَ الكرمُ والتّغافُل قطّ ، وما اُفترقَ المَجْدُ والكَيْسُ قطّ ، وليس إلاّ أنْ يَظْلِمَ السّيِّدُ نفسَه لعَبْده فى الحقوق اللاّزمة وغيرِ اللاّزمة ، ويُعرِضَ عن الحجّة وإن كانت له ؛ والناسُ يقولون : الحقّ مرّ ، وأنا أقول : السؤددُ مرّ ، والرّئاسةُ ثقيلة ، والنُّزُولُ تحت الغَبْن شديد ؛ لكنّ ذلك كلّه منبتُ العزّ ، ودليلٌ على صحّة الأصل ، وبابٌ إلى اُكتساب الحمد ، وإشادةِ الذِّكر ، وإبعادِ الصِّيت ؛ ومُكْرِمُ النّفس بإهانة المال وبَذْل الجاهِ وإيثارِ(٥) التّواضُعِ أربَحُ تجارةً ، وأحْمَى حريما ، وأعزُّ ناصراً مِن مُهِين النّفس بصيانة المال وحبْس الجاه واُستعمال التكبّر ؛ هذا ما لا يَشكّ فيه أحد وإن أباهُ طِباعُه ، ولم يُساعِدْهُ اُختيارُه ، وكان فى طينه يُبْس ، وفى مَنْبِتِه شوْك ، وفى عِرْقه خَوَر ، وفى خُلُقه تيه .

وقد رأيتُ ناساً من عُظَماءِ أهْل الفضل والمُروءة عابوا مذهَبَ الرّجُلِ الذى ماكَسَ فى شىء تافهٍ يسيرٍ اُشتراه ، قيل له : أنت تَهَبُ أضعاف هذا ، [فما هذا المِكاس] ؟! فقال : هذا عقْلى أبخَل به ، وتلك مُروءتى أجود بها .

وأكثرُ الناس الذين لم يَغُوروا فى التّجارب ، ولا أنجَدُوا(٦) فى الحقائق ، يرَوْن هذا حكمةً تامّة ، وفضيلةً شريفة .

(١) فى (ا) : « يغلط بها الحزم » . ولهذه العبارة معنى غير مستبعد ، غير أن ما أثبتناه فى صلب الكتاب أظهر وأشهر . (٢) فى (ا) : « حاسبت » . وفى (ب) : « حاشيت » ؛ وهو تصحيف فى كلتا النسختين إذ لا معنى لكلا اللفظين يناسب السياق . ولعل الصواب ما أثبتنا . (٣) الإجاب (بهمز فجيم) : الإجابة .

(٤) فى كلتا النسختين : « غالطت » بالطاء المهملة ؛ وهو تصحيف .

(٥) فى (ا) : « وإتيان » . (٦) فى (ا) : « ولا اتخذوا » ؛ ووردت هذه الكلمة فى (ب) مطموسة الحروف يتعذر قراءتها ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

فأمّا الذين ذكرتَهم فى أوّل الحديث فإنهم قالوا : لا تتمّ المُروءةُ وصاحبُها يَنْظُر فى الدّقيق الحقير ، ويُعيدُ القولَ ويُبدئُه فى الشىء النَّزْر[1] الذى لا مَرَدّ له ظاهر ، ولا جَدْوَى حاضرة .

وذكروا أيضاً أنّ العقلَ أشرفُ من أن يُذالَ[2] فى مِثلِ هٰذه الحال ، ويُستخدَم على هذا الوجه ، قالوا : هٰذا وما هو فى بابه بالكَيْس أشبَه ، والكَيْس يُحمَد فى الصِّبيان ، وهو من مبادئِ اللّؤم ، ومَوانع صدَإِ الخُلُق ، وقد قال الأوّل :

وقد يَتَغابَى المَرْء عن عُظْمِ مالِهِ ومن تَحْت بُرْدَيْهِ المُغيرةُ أو عَمْرُو[3]

ولذلك يقال للحيوان الذى لا يَنْطِق : هو كَيِّس .

هٰذا واللهِ الصّدق ، فإنى سمعتُ بمكةَ أعرابيًّا يقول : ما أكْيَسَ هٰذا القِطَّ[4] ؟!

قالوا : ولذلك لا يقال للشّيخ المجرّب والحكيمِ البليغِ والأصيل فى الشّرف والمشهورِ بالزّماتةِ[5] والسّكينة : كَيِّس . والكَيْس هو حدّةُ الحِسّ فى طلَب المَنالة ودَفْعِ الكَريهة وبلوغ[6] الشّهوة . والحِسُّ بعيدٌ من العقل ، والعالِي فى الحِسّ كأنّه يرتقى فى وادى الحيوان الذى لا نُطْق له[7] ، والعالِي فى العقلِ

(١) فى (ا) : « المتردد » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى (ا) : « يدال » بالمهملة ؛ وهو تصحيف .
(٣) يريد المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص ؛ ويشير إلى ما كانا يعرفان به من الدهاء والذكاء . وفى (ا) : ابن عمرو ؛ وهو تحريف .
(٤) فى (ا) : القفظ ؛ وهو تصحيف .
(٥) فى (ا) : بالرماية ؛ وهو تصحيف . وفى (ب) : بالديانة ؛ وما أثبتناه أنسب بقوله بعد : والسكينة .
(٦) فى (ب) : واتباع .
(٧) فى (ا) : الذى ينطق له ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى .

كأنَّه مطمئنٌ فى وادى المَلَك الذى لا حِسَّ له ، والمَلَكُ لم يَعْدَم الحِسَّ لنقصِه ، ولكن لكماله ، لأنَّه غنىٌّ عنه ، كما أنَّ الحمارَ لم يَعْدَم العَقْل لكماله ، ولكن لنَقْصِه [ولما لم يُرِدَ من الحمار أن يكون إنساناً جُبِل على ما هو له وبه كاملٌ فى نَقْصه ، أى هو كاملٌ بما هو به حمار وناقص بما ليس هو به إنسانا] ؛ ولما لم يُرِدْ من الإنسان أن يكون حماراً حُفِظ عليه ما هو به إنسان ، ودُرِّج إلى كمال المَلَك الذى هو به شبيه ؛ وهٰذا التدريج طريقُه على الاختيار [الجيِّد] والتوفيق السابق .

وبَعُدْتُ — جعلنى الله فداك — عن مَنْهج القَوْل وسَنَن[1] الحديث ، وأطَعْتُ داعيةَ الوَسْواس ، وذَهَبْتُ مع سانِح الوَهْم ؛ وقد قيل : « الحديثُ ذُو شُجون » .

وقد قال الأوّلُ :

ولمّا قَضَيْنَا من مِنًى كلَّ حاجَةٍ ومَسَّحَ بالأركانِ مَنْ هُوَ ماسحُ
أخَذْنَا بأطْرافِ الأحاديثِ بيْنَنَا وسَالَتْ بأعْنَاقِ المَطِىِّ الأباطح

فأرْجِعُ [وأقول] :

قد أوْصَلْتُ إليكَ الجزأينِ الأوّلَ والثانىَ على يد غلامك فائق ؛ وهٰذا الجزء — وهو الثالث — قد والله نَفَثْتُ[2] فيه كلَّ ما كان فى نفسى من جِدٍّ وهزلٍ ، وغَثٍّ وسمين ، وشاحِبٍ ونَضِير ، وفُكاهَةٍ وطيب ، وأدبٍ واحتجاج ، وأعتذارٍ وأعتِلال وأستدلال ، وأشياء من طَرِيف[3] المُمالحَة على ما رُسِمَ لى ،

(١) فى (ا) : «عن سنن» ؛ وقوله : «عن» زيادة من الناسخ ؛ والصواب ما أثبتنا .
(٢) فى (ا) : « بثيت » ؛ وهو تصحيف .
(٣) فى نسخة : « من حديث » .

وطُلِبَ مِنِّى ؛ ولأنَّه آخِرُ الكتاب خَتَمْتُه برسالة وَصَلْتُها بكلامٍ فى خاصّ أمْرِى ستقف عليه ، وتستأنف نَظَراً فى حالى ، يكون — إنْ شاء اللهُ — كَظَنِّى بك ، ورجائى فيك ؛ وفيه بعض العَرْبَدَة[(١)] لم أخرُج منه إلى كفرانٍ لنعمة ، ولا جَحْدٍ لإحسان ، ولا سترٍ لِيَدٍ ، ولا إنكارٍ لمعروف ، ولا شَكٍّ فى عِناية ؛ وإنما تكلمت على مَذْهَب المُدِلّ المُقِلّ الذى يَبْعَثُه إقلالُه على تجاوُزِ قَدْرِه بالدّالة ، ويَرِيعُ[(٢)] به إدْلالُه عن حُسْن أدَبه بِفَرْطِ الثّقة ؛ ورُبَّ واثقٍ خَجِل ؛ وبالله المَعاذُ مِن ذٰلك ، وفى الحالين صاحبُ هٰذا المَذْهَبِ لا يَخْلُو مِنْ وَلاءٍ صحيحِ المُعْتَقَب ، وعقيدةٍ كسبيكةِ الذَّهَب ؛ وأنتَ بِكَرَمِ[(٣)] طِباعِك ، وسَعَةِ باعِك ، تَجْبُرُ نَقْصِى ، وتَأْسُو ما غَثّ[(٤)] مِنْ جِراحِى ، وأمَاتَ اهتمامى ؛ ومَنْ كان إحْسانُكَ إليه مَشْكورا ، وتَغْذيرُك[(٥)] عنده مَسْتُورا ، لَخَلِيقٌ أنْ يَكُونَ على بالِك خاطِرا ، وبِلِسانِكَ مذكورا ، والسلام .

وها أنا آخُذُ فى نَشْرِ ما جَرَى على وَجْهِه إلاّ ما اقتضَى من الزِّيادة فى الإبانة والتَّقْرِيب ، والشَّرْحِ والتَّكْشِيف .

وقد جَمَعْتُ لك جميعَ ما شاهَدْتُه فى هٰذه المدّة الطويلة ، ليكونَ حَظُّكَ من الكَرَم والمَجْد مَوْفُورا ، ونصيبِى من اهتمامِك بأمْرِى وجَذْبِكَ بباعى

(١) فى (ا) : « الفرفدة » ؛ وهو تحريف .
(٢) يريع ، أى يرجع . وفى (ا) : « ويرفع » ؛ ولا معنى له يناسب السياق .
(٣) فى (ا) : « تكثر من » ؛ وهو تحريف .
(٤) فى (ا) : « ما غب » ؛ وهو تصحيف . وغث الجرح ، أى سال غثيثه ، وهو مدته وقيحه .
(٥) وردت هذه الكلمة فى (ا) مهملة الحروف من النقط . ووردت فى (ب) : « وتقديرك » . وما أثبتناه هو مقتضى السياق . والتغذير : التقصير .

وإنقاذكَ إيّايَ مِنْ أسْرِى تامًا ، فَظَنِّى واعِدٌ بأنَّكَ تَبْلُغُ بِى ما آمُلُه فيك وتَتَجاوَزُه وتَتَطاوَلُ إلى ما فَوْقَه ، لأزْدادَ عَجبًا ممَّا خَصَّكَ اللهُ به ، وأفْرَدَكَ فيـه ؛ وأتحدَّثَ على مرِّ الأيَّام بغريبه ، وأحُثَّ كلَّ مَنْ أراه بَعْدَكَ على سُلوكِ طَرِيقكَ فى الخير ، ولُزُوم مِنهاجكَ فى الجَميل ، والدَّيْنُونَةِ بمَذْهَبكَ المستقيم ، وأُكايِدَ أصْحابَنا ببَغداد ؛ وأقول [لهم] : هل كان فى حُسْبانكم أنْ يَطْلُعَ عليكم مِن المَشْرِق من يَزِيد[1] طَرْفُهُ على طَرْفِكم ، «ويَبْعُدُ[2] بعِلْمه على عِلْمِكم» ، ويُبَرِّزُ هذا التَّبْرِيزَ فى كلِّ شىءٍ تَفْخَرون[3] به على غَيْرِكم ، فأُناظِرُهم فيك وبِسَبَبكَ[4] ، لا مُناظَرَةَ الحَنْبَلِيِّينَ مع الطَّبَرِيِّين ؛ وأتَعَصَّبُ لك ، لا تَعَصُّبَ المُفَضَّلِيِّينَ[5] والبُرْغُوثِيِّين[5] ؛ وأُجادِلُ من أجْلِك ، لا جَـدَلَ الزَّيْدِيِّينَ[6] مع الإماميِّين[6] ؛ وأدَّعى فى فضائلك الظَّاهِرَة والباطنَة دَعْوَى أقْوَى مِنْ دَعْوَى الشِّيعِيِّين ؛ وأضْرِبُ فى ذلك كلَّ مَثَل ، وأستعينُ بكلِّ سَجْع ،

(١) فى (ا) : «يرتد طرفه على طرفكم» ؛ وهو تصحيف فى هذه الكلمات الثلاث .

(٢) كذا وردت هذه العبارة التى بين هاتين العلامتين فى (ا) والمعنى عليها مستقيم . والذى فى (ب) : «وينقد بعلمه فى علمكم» ؛ وفى قوله : «وينقد» بالقاف والدال تصحيف ظاهر صوابه : «وينفذ» .

(٣) فى (ب) : «مجزون» ؛ وهو تحريف .

(٤) فى كلتا النسختين : «وبسنك» ؛ وهو تصحيف .

(٥) المفضليون فرقة تنسب إلى المفضل بن عمرو من الشيعة الامامية يقولون بأن الإمامة بعد موسى بن جعفر قد انتقلت إلى ابنه محمد بن موسى . والمفضليون أيضاً فرقة أخرى تنسب إلى المفضل الصيرفى ، وهذا قد قال : إن جعفر بن محمد إله ؛ فطرده ولعنه . والبرغوثيون فرقة من النجارية أصحاب محمد بن الحسين النجار والبرغوثية هذه تنسب إلى محمد بن عيسى الملقب ببرغوث . والذى فى كلتا النسختين والمرعوشيين وهو تحريف صوابه ما أثبتنا انظر (الملل والنحل) (وخبيئة الأكوان) (ومسالم الدين) .

(٦) الزيديون أصحاب زيد بن على بن الحسين رضى الله تعالى عنهم وهذه الفرقة تقول : إن الإمامة لأولاد فاطمة لا يشاركهم فيها أحد ولا يسوّغون إمامة غيرهم . والإمامية فرقة من الشيعة تقول إن الإمامة لعلى بن أبى طالب بعد محمد صلى الله عليه وسلم نصا وتصريحا وإشارة إليه بالعين .

وأَرْوِى كلَّ خَبَر ، وأُنشِدُ كلَّ بَيْت ، وأُعبِّر كلَّ رُؤْيا ، وأُقيمُ كلَّ بُرْهان ، وأَستشهِدُ كلَّ حاضِرٍ وغائب ، وأَتأوَّلُ كلَّ مُشْكِل وغامِض ، وأُضيفُ إليك الآيةَ بعدَ الآية ، والمُعجزةَ بعد المُعجزة ، وأنصَلِتُ(١) لكلِّ ضريبة ، وأدَّعِى كلَّ غريبة ؛ هذا ولا أخلط كلامى بالهَزْل ، ولا أُشِينُ دَعْوايَ بالمُحال ، ولا أُبْعِدُ الشاهد ، ولا أتعَلَّقُ بالمُستَعجِم ، ولا أَجْنَحُ إلى التَّلفيق والتَّلزِيق ؛ وكيف لا أفعَلُ هٰذا ولِي فى قَوْلِ الحقِّ فيك مَندُوحة ، وفى تَقْدِيمِ الصِّدْقِ على غيرِه كفاية ، وفى نَشْرِ المَطْوِيِّ مِنْ فَضْلِكَ بَلاغ ؟ وإنَّما يَمِيلُ إلى الكَذِبِ مَن قَعَدَ به الصِّدق ، ويَتَيَمَّمُ بالصَّعيد مَن فاتَه الماء ، ويَحْلُمُ بالمُنَى مَنْ عَدِمَ المُتَمَنَّى فى اليَقَظة ؛ فأمَّا أنت وقد أَلْبَسَكَ اللهُ رِداءَ الفضل ، وأطْلَعَكَ مِنْ مَنْبِتٍ كرِيم ، ودرَّجَك مِنْ بَيْتٍ ضَخْم ، وآتاك الحِكْمة ، وفَتَقَ لسانَكَ بالبيان ، وأَتْرَعَ(٢) صَدْرَكَ بالعِلم ، وخَلَطَ أخلاقَكَ بالدَّماثة ، وشَهَرَكَ بالكَرَم ، وخَفَّف عليك النُّهوضَ بكلِّ ما يُكسِبُكَ الشكرَ مِن القريبِ والبَعيد ، وبكلِّ ما يَدَّخِرُ لك الأجرَ عند الصادِرِ والوارِد ، حتَّى صِرْتَ كَهْفًا لأبناءِ الرَّجاء ، ومَفْزَعًا لبَنى الآمال ؛ فبابُك مَغْشِيٌّ مَزُور ، وفِناؤكَ مُنْتاب وخِوانُكَ(٣) مَحْضور ، وعِلْمُك مُقْتَبَس ، وجاهُك مَبْذول ، وضيفُك مُحَدَّث ، وكُتُبُك مستعارة ، وغَداؤك حاضر ، وعَشاؤك مُعَجَّل ، ووجهُك مبسوط ، وعفوُك محمود ، وجِدُّك مشكور ، وكلُّ أمْرِكَ قائمٌ على النِّهاية ، وبالغٌ الغايةَ ، واللهُ يَزِيدُكَ ويَزِيدُنا بك ، ولا يَبْتَلينا بفَقْدِ ما أَلِفْناه منْك ، بمَنِّه وجُودِه .

(١) فى (ا) : « واتصلب » ؛ وهو تصحيف .
(٢) فى (ا) : « ودع » ؛ وهو تحريف .
(٣) فى (ا) : « وجوابك » ؛ وهو تصحيف .

الليلة التاسعة والعشرون

(١) قال الوزيرُ — أعزّ اللهُ نصْرَه[١] ، وأطابَ ذِكْرَه ، وأطارَ صِيتَه — ليلة : أُحِبُّ أن أسمعَ كلاماً فى قول الله عزّ وجلّ : (هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ) ، فإنّ هٰذا الإيجازَ لم يُعْهَد فى كلامِ البَشَر .

فكان من الجواب : إنّ الإشارة فى « الأوّل » إلى ما بَدَأَ اللهُ به مِن الإبداع [والتّصوير] ، والإبراز والتّكوين ؛ والإشارةَ فى « الآخِر » إلى المَصيرِ إليه فى[٢] العاقبةِ على ما يجب فى الحكمة من الإنشاء والتّصريف ، والإنعامِ والتعريف ، والهداية والتوقيف . وقد بان بالاعتبار[٣] الصحيح أنّه عزّ وجَل لمّا كان مُحَجَّباً عن الأبصار ، ظهَرَتْ آثارُه فى صفَحات العالَم وأجزائه ، وحَواشِيه وأثنائه[٤] ، حتى يكون لسانُ الآثارِ داعياً إلى معرفته ، ومَعْرِفَتُه طَرِيقاً إلى[٥] قَصْدِه ، وقَصْدُه سَبباً للسّكانةِ عنده والحُظْوَةِ لدَيْه . على أنّه فى احتجابه بارز ، كما أنّه فى بُروزِه مُحْتَجِب ؛ وبيانُ هٰذا أنّ الحِجابَ مِن ناحية الحِسّ ، والبُرُوزَ من ناحية العَقْل ، [فإذا طُلِبَ من جهة الحسّ وُجِدَ محجوبا ، وإذا لُحِظ من جهة العقل] وُجِدَ بارزا ، وهاتَان الجِهَتان لَيْستا له تعالى ، ولكنهما الإنسان الذى له الحسُّ والعقل ، فصارَ بهما كالناظرِ مِنْ مَكانَيْن ؛ ومَنْ نَظَرَ إلى شىء واحدٍ من مَكانَيْن كانت نِسْبَتُه إلى المَنْظورِ إليه مفترِقة .

(١) فى (ا) : « رهطه » .
(٢) فى (ا) : « والعاقبة » ؛ وهو تحريف .
(٣) فى (ا) : « الاعتبار » بسقوط الباء ؛ وهو تحريف .
(٤) فى (ا) : « وأثباته » ؛ وهو تصحيف .
(٥) فى (ا) : « فى » مكان « إلى » ؛ وهو تحريف .

وإنما شَقَّ هٰذا الأمرُ على أكثر الناس واختلفوا فيه ، لأنّهم راموا تحقيقَ ما لا يُحَسُّ بالحِسّ ، ولو راموا ذاك بالعقل المَحْض بغيرِ شَوْبٍ من الحِسّ ، لكان المَرُوم يَسْبِقُ الرّائم ، والمَطلوبُ يَلوحُ قُبَالةَ الطّالب مِنْ غيرِ شكٍّ [لابِس ، ولا ريبٍ مُوحِش ، لأنه ليس فى العقل وللعقول شكٌّ] ، وإنما الرَّيْبُ والشَّكُّ والظَّنُّ والتَّوَهُّمُ كلّها من علائق الحِسّ وتَوَابِع الخِلْقَة ، ولولا هٰذه العوارِضُ لَمَا اُغبرّ وَجْهُ العقل ، ولا عَلاهُ شُحوب ، ولَبَقِيَ على نَضْرته وجَمالِه[1] وحُسْنِه وبَهْجَتِه . ولمّا كان الإنسان مَفِيضَ[2] هٰذه الأعراض فى الأوّل ، صار مَفِيضَ[2] هٰذه الأحوالِ فى الثانى ، فاستعارَ مِنَ العقل نُورَه فى وَصْفِ الأشياءِ الجسْمِيَّة جَهْلاً منه وخطأً ، واستعارَ مِن ظلام الحِسّ فى وَصْفِ الأشياء الرُّوحانيّةِ عَجْزًا منه ونقْصا ، ولو وُفِّقَ لَوَضَع كلَّ شىء مَوْضِعَه ونَسَبَه إلى شَكلِه ، ولم يَرْفَعِ الوَضيعَ إلى مَحَلِّ الرَّفيع ، ولم يَضَعِ الرَّفيعَ فى مَوْضِعِ الوَضيع .

فلمّا بلغ الحديث هذا الحدّ ، عَجِبَ الوزيرُ وقال : ما أَعذَبَ هذا المَوْرِد ! وما أَعْجَبَ هذا المَشْهَدَ ! وما أَبْعَدَ هذا المَقْصِد ! وما أَرَى لمصَنِّفٍ[3] من المُوَحِّدِين مُتَصرَّفًا فى هذا النَّوْع إلاّ لهذه العِصابةِ الكريمةِ المخصوصةِ باليقظة[4] .

(٢) وسأل عن جُشَمَ فى اسمِ الرَّجل ما مَعْناه ؟

فكان من الجواب : إنّ أبا سعيد السِّيرافىَّ الإمامَ ذكَرَ عن ابن الأعرابىِّ أنّه يقال : « رجُلٌ عظيمُ الجُشَم » ، يعنى وَسَطَه ، ومنه سُمِّىَ جُشَم .

(١) فى (ا) : « وكماله » .
(٢) مفيض بفتح الميم فى الموضعين أى موضع فيض هذه الأعراض وتلك الأحوال .
(٣) فى (ا) : « لصنف » ؛ وهو تحريف .
(٤) فى (ا) : « بالثقة » .

وقال : ما الحِمْحِم ؟ وما الخمخم[١] ؟ فقيل أما الحِمْحِمُ فَبَقْلٌ يهيج فى أوّل الصيف وَيَنبتُ فيؤكل فى ذلك الوقت ؛ وأما الخِمخِم فبَقْلٌ آخرُ خبيثٌ مُنْتِنُ الرِّيح[١] .

وقال : فأْرَة المِسْك ، أتقولُها بالهَمز ؟

فكان من الجواب : حكاه ابنُ الأعرابىِّ بالهمز .

قال : عارِضَا الرَّجُل ما يُعْنَى بهما ؟

قيل : قال أبو سعيد السِّيرافىّ : هما شَعرُ خَدَّيه ، ولو قلت [لأَمْرَد] : إمْسَحْ عارِضَيْك كان خطأ .

وقال : سمعتُ اليومَ فى كلامِ ابن عُبَيد : لاَيَثَه ، وظننت أنّه أراد : لاوَثَه من اللَّوْث [لَوْث] العامّة .

فقيل : بل يقال : لايَثَه إذا تَشَبَّه باللَّيث .

وقال : ما الشاكِد ؟

فقيل : المُعْطِى من غير مكافأة .

قال : أوَتَهمِزُ الكلمة[٢] ؟

(١) كذا ذكر المؤلف فى تفسير هذين اللفظين . وقال أبو حنيفة : الحمحم والخمخم واحد . وقال ابن البيطار فى الخمخم بالخاء المعجمة . هو اسم عربى لنبات شكله شكل الأنجرة السوداء إلا أنه أشد خضرة منها وأغصانه حمر كأغصانها إلا أنها أصلب . ومنابته الوديان والمسايل وعليه شوك دقيق لصاق بكل ما يعلق به من ثوب أو غيره ولا يؤذى اللامس وكثيراً ما تنبت هذه النبتة بظاهر القاهرة تحت الجبل الأحمر فى مسيل هناك بالقرب من قلعة الجبل . وذكر فى الحمحم بالمهملتين . أنه هو النبات المعروف بلسان الثور عند أهل الشام وديار بكر . وقال فى التعريف بلسان الثور إنه نبات خشن أسود ، يشبه فى شكله ألسنة البقر . وذكر فى الحمحم أنه سمعهم ينطقونه بضم المهملتين . وفى نسخة : «ما الجمجم» بجيمين مكان الحمحم بحاءين مهملتين . والجمجم بجيمين عروق تشبه فى شكلها ومقدارها عروق الجزر البرى المسمى عند أهل الشام الشقاقل .

(٢) يريد بالكلمة : المكافأة .

فقيل : إنى لو لم أهمز لكان مُفاعَلةً من كفَيْتُ .

قال : والثانية[١] ؟ تكونُ من كفأْتُ الإناء.. فما معناه ؟

قيل : قال أبو سعيد : كأنَّه قَلَبَ الحالَ إليه بالمِثل .

قال : الذوْدُ ، ما قَدْر عَدَدِه من الإبل ؟ فكان من الجواب : أنَّ ابنَ الأعرابىّ قال : الذَّوْدُ ما بَيْنَ الثَّلاثةِ إلى العَشَرة . وإذا بَلَغَت العشرينَ أو قارَبَت فهى قِطْعَةٌ وصُبَّةٌ وفِرْقَةٌ وصِرْمَةٌ حتى تَبلغَ الثلاثينَ والأربَعين . ثم هى حُذْرة وعَكَرة وعَجْرَمَة حتى تَبْلُغَ مائة . ثمّ هُنَيْدَة . فإذا بلغت مائتين فهى خِطْرٌ[٢] . وكذلك الثَّلاثمائة . فإذا بلغت أربعمائة فهى عَرْجٌ إلى الألف ، والجَماعةُ عُرُوج . فإذا كَثُرَتْ عن الأربَعين والخَمْسين فبلَغَتْ مائةً وزادَتْ فهىَ جُرْجُور ، وإنّما سُمّيَتْ جُرْجُورًا لجَرَاجِرِها وأصْواتِها . وقد تَستَعِيرُ العَرَبُ بعضَ هذا فتجعَلُهُ فى بعض .

وقال : ما الفَرْقُ بين القَبْصِ والقَبْض ؟ فقيل : القَبْصُ لعَدَدٍ مّا كانَ قليلا أوْ كثيراً ؛ قال ابنُ الأعرابى : وأنشدَنى العامِرىُّ لابن مَيّادة

عَطاؤُكُمْ قَبْصٌ ويَحفِنُ غَيْرُكُمْ وَلَلحَفْنُ أَغْنَى للفَقِيرِ من القَبْصِ

وقال : القَبْصُ بأطْرافِ الأصابع ، والقَبْضُ بالكَفّ ، والحَفْنُ بالكفّ والرّاحةُ إلى فوق مفتوحةٌ قليلا . هذا لفظه .

وقال : الإلُّ الذى هو العَهْد هل يُجمَع ؟ فقيل : حَكَى ابنُ الأعرابىّ فى

---

(١) ورد فى كلتا النسختين قوله فقيل بعد قوله والثانية ؛ وهى زيادة من الناسخ لا مقتضى لها هنا .

(٢) فى (ا) « حظرة » . وفى (ب) « حطم » ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين .

جَمْعِه ، فقال : إلالٌ وأُلول[١] .

وقال : آمَ الرجل ماذا ؟ فقيل : هذا على وجوه ؛ يقال : آمَ الرَّجُلُ يَؤومُ أُوامًا مِنَ العَطَش ؛ ويقال آمَ الرَّجُل يَؤُوم إيامًا[٢] ، وهو الدُّخان . وآمَ الرَّجُلُ يئيم إذا بَقِيَ بغير حليلة ، والأَيِّم مستعمَلٌ فى الرَّجل والمَرْأَة .

قال : هذا نَمَط مفيد ، ويجب أنْ يُجْمَعَ منه جُزْءٌ أو جُزْآنِ لِيَسْهُلَ على الطَّرْفِ المَجَالُ فيه ، فإن الكُتُبَ الطِّوالَ مُسْئِمة ، وإذا تَداخَلَ اللَّطيف بالكثيف وما رَقّ بما غلُظَ نَبَتِ النَّفْسُ ، ودَبَّ المَلَل[٣] والإنسانُ كَسَلُه مِنْ طِينِه ، ونَشاطُه مِنْ نَفْسِه ، والطِّينُ أغلَبُ مِنَ النَّفْسِ .

فكان الجواب : السَّمْعُ والطاعةُ للأَمْرِ المُشَرَّف .

قال : هاتِ حديثا يكون مَقْطَعًا للوَداع ، فإنّ اللَّيلَ قد عَبَسَ وَجْهُه ، وجَنَح كاهِلُه ، وأَهْدَى إلى العَيْنِ سِنةً تَسْرِقُ الذِّهن وتَسْبِي الرَّأْى .

فكان من الجواب أنّه مَرّ بِي اليومَ حديثٌ يُضارِعُ ما جرَى مُنْذُ ليالٍ فى فسادِ الناس وحُؤُول الزَّمان ، وما دَهَمَ الخاصَّ والعامَّ فى حَديث الدِّين الّذى هو العَمُودُ والدِّعامَةُ فى عِمارة الدَّارَيْن ، وقد طال تعجُّبى منه ، وصحّ عندى أنّ الداء فى هذا قديم ، والوجعَ فيه أليم .

---

(١) لم نجد الألول جمعا للإلّ بمعنى العهد فيما راجعناه من كتب اللغة والذى وجدناه إلال كما هنا وآلال .

(٢) الإيام بالياء بمعنى الدخان أصله الواو ، ثم قلبت الواو ياء كما فى كتب اللغة .

(٣) فى (أ) « ورث الحال » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين .

قال: فهات فتشبيبُكَ(١) قد رَغَّبَ شديداً، غَرامُكَ(٢) قد بَعَثَ(٣) جديداً.

فكان [من ذلك] الحديثِ أنّ محمد بن سلاّم قال فيما حَدَّثنا به أبو السائب القاضي عُتْبَةُ بنُ عُبَيْدِ الله قال: حدّثنا السُّكّريّ أبو سعيد قال: قال محمد بن سلاّم: سمعتُ يونسَ يقول: فكّرتُ في أمرٍ فاسمعوه. قلنا: هاتِه. قال: كلٌّ من أصبح على وَجْهِ الأرضِ مِن أَهْلِ النار إلاّ أُمَّتَنا(٤) هٰذه؛ والسلطان ومن يُطيف به هَلْكَى إلا قليلا، فإذا قَطَعْتَ هٰذه الطَّبَقَةَ حتى تبلغ الشَّأْمَ فأَكَلةُ رِباً وباغِيَةٌ وشَرَبةُ خَمْرٍ وباعتُها إلّا قليلا، فإذا خَلَّفْتَ هذا الرَّمْلَ حتى تأتيَ رَمْلَ يَبْرِينَ وأعلام الرُّومِ فلا غسلَ من جَنابة، ولا إسباغَ وُضوء، ولا إتمامَ صَلاة، ولا عِلْمَ بحُدُود ما أنزل الله على رسولِه صلى الله عليه وسلم إلاّ قليلا؛ فإذا صِرْتَ إلى الأمصار فأصحابُ هذه الكراسيّ ليس منهم إلا ذئبٌ مُسْتَغِرٌّ(٥) بذَنَبه، يَخْتِلُكَ(٦) عن دِينارِك ودِرْهَمِك، يَكْذِبُ، ويَبْخَسُ في الميزان، ويطفِّف في المِكْيال، إلا قليلا؛ فإذا صِرْتَ إلى أصحاب الغَلاّت الّذين كُفُوا المَؤُونة وأُنْعِمَ عليهمْ [وَجَدْتَهُم] يُمْسِي أحدهم سكرانَ ويُصْبِحُ مخموراً، إلاّ قليلا، ومعي والله منهم(٧) قَطِيعٌ في الدار، فإذا صِرْتَ إلى قوم لم يُنْعَم عليهم بما أُنْعِم

(١) في (ب) «فنسيبك»؛ والمعنى يستقيم عليه أيضاً.

(٢) في كلتا النسختين: «وغرابك» بالباء؛ وهو تحريف.

(٣) قد بعث جديداً، أي بعث غراماً جديدا في نفسي. والذي في (أ): «نعب». ووردت هذه الكلمة في (ب) مهملة الحروف من النقط. والصواب ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

(٤) يريد بالأمة هنا أهل طبقته كما يدل على ذلك سياق القصة.

(٥) مستغرّ أي يطلب غرّة الناس وغفلتهم.

(٦) في (أ) «يحيلك»؛ وهو تصحيف.

(٧) في (أ) «فيهم»؛ وهو تحريف.

على هؤلاء ، وهم يشتهون ما يَشْتَهِى هؤلاء ، مواحدٌ لِصٌّ ، وآخر طَرّار(١) ، وآخرُ مستقْفِبٌ(٢) إلاّ قليلا ، فإذا صِرْتَ إلى أصحابِ هٰذه السَّوارى(٣) ، فهذا يَشْهَدَ على هذا بالكُفْر ، وهذا يَبْرَأُ مِن هذا ، واللهِ لئن لمَ يَعمَّنا اللهُ بِرَحْمَتِه إنها لَلفَضيحة .

فقال الوزير : لقد شَرَّدْتَ النومَ عن عَيْنِى ، وملأْتَ قلبى عَجَباً ، فإنّ الأمرَ لَكما قال ، فإذا كان هذا قولَه فى عَصرِه ، وشجرةُ الدين على نَضارَة أغصانها وخُضرةِ أوراقها ، وَيَنْعِ ثِمارِها ، فما قولُه — ترى — فينا لو لَحِقَنا ، وأَدْرَكَ زمانَنَا ، إنّا لله وإنّا إليه راجعون .

الليلة الثلاثون(٤)

(١) وقال الوزير — [أدام اللهُ أيّامَه] — : سراويل يُذَكَّرُ أم يُؤنَّث ، ويُصْرَفُ أمْ لاَ ؟

فكان الجواب : أنّ عليّ بن عيسى حدّثنا عن شيخِه ابنِ السّراج قال : سألت المبرّد فقلتُ : إذا كان الواحدُ فى صِيغةِ الجَمْع ما يُصْنَع [به] فى الصَّرْفِ

(١) فى كلتا النسختين « طراز » بالزاى المعجمة فى آخره ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا والطرار بمهملتين هو الذى يشق كمّك ويستلّ ما فيه ، وهو المعروف عندنا بالنشال .

(٢) يقال : استقفاه إذا جاء من خلفه وضربه بالعصا على قفاه ويشير إلى هؤلاء الذين يقفون فى الطرق المنقطعة حتى إذا مر بهم من يظنون معه مالا ضربوه من خلفه بالعصا على قفاه حتى يفقد الحسّ والشعور فيستلون ما معه ويهربون ؛ أو لعل صوابه مستخف بالخاء .

(٣) يريد سوارى المسجد وعمده . ويريد بأصحابها العلماء الذين يجلسون إلى جانبها يقرأون العلم على الناس .

(٤) يلاحظ أنه لم يرد فى كلتا النسختين ما يشير إلى أنه ابتدأ ليلة جديدة بعد الكلام السابق لهذا العنوان . وقد رأينا أن الكلام الآتى بعد إنما وقع فى ليلة جديدة غير السابقة بدليل قوله فيما تقدم : « هات حديثا يكون مقطعا للوداع » الخ .

فى مثل شَعْرُه[١] هَرَاميل [وهذه] سَراويل وما أَشْبَهه ، فقال : أَلحِقْه بالجمع فامنَعْه الصَّرْفَ ، لأنَّه مِثْلُه وشَبِيهُه .

قال : وسألتُ أحمدَ بنَ يحيى عن ذلك ، فقال : أخْبَرنا سَلَمَةُ عن الفرَّاء قال : ألحِقْه بأحَد فامنَعْه الصَّرْفَ فى المَعْرِفة ، واصرِفْه فى النَّـكِرَة حتَّى يكون بين الواحدِ والجَمْع فَرْق .

وسأل فقال : ما واحد المناخِيب والمناجِيب وما حُـكْمُهُما ؟

فكان من الجواب : واحد المناخيب مِنْخاب ، يُمدح به ويُذَمّ ، فإذا كان مَدْحًا فهو مَأْخوذ من النَّخْب[٢] ، وهو الاختيار ، وإذا كان ذَمًّا فهو مَأْخوذٌ من النَّخْبَةِ ، وهى الأست . قال : وهكذا المِنْجابُ يكون مَدْحا وذَمًّا ، فإذا كان مَدْحًا فهومأخوذٌ من الانتجاب ، وهو الاختيار ، وإذا كان ذَمًّا فهو مَأْخوذٌ من النَّجَب ، وهو قِشْرُ الشَّجَر .

قال : ما معنى قولِهم : امرأةٌ عَروبٌ ؟

فكان من الجواب أن محمّد بنَ يزيد قال — على ما حدَّثنا به أبو سعيد وابن السرّاج عنه — إنه من الأضداد ، وهى المتحبِّبة إلى زوجها ؛ وهى الفاسدة ، مأخوذٌ مِن قولهم : عَرِبَتْ مَعِدَتُه إذا فَسَدَتْ .

وقال : الضَّهْياء يُمَدُّ ويُقْصَرُ ؟

فكان من الجواب أن ابنَ الأعرابىّ قال : الّذى حَصَّلْتُه عن الأعْراب

(١) فى (ب) « صيغة » ؛ وهو تحريف . ويقال : شعره هراميل ، إذا سقط .

(٢) فى الأصل : من النخبة ، وهى الاختيار ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما فى كتب اللغة إذ النخبة من القوم الجماعة المختارة ، لا نفس الاختيار .

أنَّ الضَّهْيَاء المَمْدُودةَ هى التى لا تَحِيض(١) ، وأن المقصورةَ هى الياسَمين(٢) ، وجَمْعُ الأوّل ضُهْىٌ وجَمْعُ المَقْصُور ضَهَايَا(٣) .

قال : ما مَعْنَى المَنْدَلِيّ المطيَّر ؟

فكان من الجواب : أن ابن الأعرابىّ قال : هو مقلوب المُطَرّى(٤)

(٢) وقال : أنشِدْنِى غَزَلاً ، فأنشَدْتُه ما حَضَر فى الوَقْت لأعرابىّ :

أمُرُّ مجنَّبًا عن بَيْتِ سَلْمَى ... ولَمْ أُلْمِمْ بِهِ وبِهِ الغَلِيلُ

أمُرُّ مُجَنَّبًا وهَوَاىَ فِيه ... وطَرْفِى عنه مُنْكَسِرٌ كَلِيلُ

وقَلْبِى فيه مُقْتَتَلٌ فهَلْ لى ... إلى قَلْبِى وقاتِلِهِ سَبِيلُ

(٣) وقال : أتحفظ الأبيات التى فيها :

تَكْفِيه فِلْذَةُ كَبِدٍ إنْ أَلَمَّ بها ... مِن الشِّوَاء ويَكْفِى شُرْبَه الغُمَرُ

فأنشدَه ابنُ نُبَاتَة ، وذاك لأنى قلت : ما أَحفظ إلا هذا البَيْت شاهداً ، وهو لأعْشَى باهِلَة يَرْثِى المُنْتَشِر(٥) :

(١) وأيضا التى لا يبرز لها ثدى .

(٢) لم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة أن الضهيا مقصورا هو الياسمين كما ذكر المؤلف هنا . والذى فى اللسان أن الضهيا شجر من العضاه ، له برم وعلفة ، كثير الشوك ، وعلفته حمراء شديدة الحمرة ، وورقه كورق السمر .

(٣) فى كلتا النسختين « ضها » ؛ وهو تحريف إذ لم نجد هذا الجمع لضهيا المقصور فيما راجعناه من كتب اللغة ؛ والصواب ما أثبتنا كما تقتضيه القواعد الصرفية فإن ما آخره ألف تأنيث مقصورة وكان على هذا الوزن يجمع على فعالى بفتح اللام وفعالى بكسرها ، كحبلى وذفرى .

(٤) فى الأصل « إلى المطرى » . وقوله : « إلى » زيادة من الناسخ إذ المطرّى هو المقلوب إلى مطيّر ، فالمطير مقلوب إليه ، والمطرى هو الذى صُيّر بالصناعة طريا . والمندلى : العود من الطيب يتبخر به فمعنى المندلى المطير العود الرطب .

(٥) المنتشر ، هو ابن وهب بن سلمة الباهلى . قال الآمدى : وهو أخو الأعشى لأمه . ورويت هذه القصيدة للدعجاء أخت المنتشر ، وقد ذكرها صاحب خزانة الأدب ، وعدة أبياتها أربعة وثلاثون بيتا فيها ؛ وفى شعر أعشى باهلة المطبوع فى أوربا ستة وأربعون بيتاً . وقصة المنتشر هذا أنه كان قد خرج مع غلمة من قومه يريد حج ذى الخلصة — وهو الكعبة =

إنِّى أتتْنى لِسانٌ لا أُسَرُّ بهـا ... مِنْ علْوَ لا عَجَبٌ منها ولا سُخُرُ(١)
فَبِتُّ مرتفِعاً للنَّجْـمِ أَرْقُبُـه ... حَيرانَ ذا حَـذَرٍ لو يَنْفَع الحَذَرُ
وجاشَت النفسُ لمَّا جاء جَمعُهُمُ ... وراكبٌ جاء من (تَثْليثَ) مُعْتَمِرُ(٢)
يأتى على النّاسِ لا يُلوِى على أَحَدٍ ... حتى التَقَينا وكانت دُونَنا (مُضَرُ)
نَعَيْتَ(٣) من لا تُغِبُّ الحيَّ جَفْنَتُه ... إذا الـكواكبُ أَخْطَا نَوْأَها المَطَر
مَن لَيْسَ فى خَـيْرِه شرٌّ يكدِّرُه ... على الصَّدِيق ولا فى صَفْوِه كَـدَر
طاوِى المصير على العَزَّاءِ مُنْصَلِت ... بالقَوْمِ لَيْـلَةَ لا ماءٌ ولا شَـجَرُ(٤)
لا تُنـكِرُ البازِلُ الـكَوْماء ضَرْبَتَه ... بالمَشْرَفِيِّ إذا ما اجْلَوَّذَ السَّـفَرُ(٥)

اليمانية — وكان بنو نفيل بن عمرو بن كلاب أعداءله ، وقد رأوا مخرجه وعورته وما يطلبه به بنو الحارث بن كعب وطريقه عليهم . فسار المنتشر ، حتى إذا كان بهضب التياع أنذر بنو نفيل بنى الحارث بن كعب بالمنتشر ، وكان المنتشر قد أسر رجلا من بنى الحارث بن كعب يقال له هند بن أسماء بن زنباع ، فسأله المنتشر أن يفدى نفسه ، فأبطأ عليه هند فقطع أنملته ثم سأله فأبطأ فقطع منه أخرى ، وقد أمّنه القوم ووضع سلاحه ، فقال هند بن أسماء : أتؤمنون مقطّعا (بتشديد الطاء مكسورة) ؟ والهى لا أؤمّنه . ثم قتله وقتل غلمته . انتهى ملخصا من خزانة الأدب .

(١) اللسان : الرسالة ، وجمعه ألسن . أما اللسان بمعنى الجارحة فجمعه ألسـنة . وعلو روى بتثليث الواو ، يريد أعلى نجد كما فى خزانة الأدب . وفى شـعر أعشى باهلة المطبوع فى أوربا : « لا كذب » مكان قوله : « لا عجب » .

(٢) فى رواية : « فلهم » مكان قوله : « جمعهم » . ومعتـمر ، أى زائر . يقال : اعتمر إذا قصد مكانا بعينه زائراً له . وتثليث : موضع بالحجاز قرب مكة ، كما فى ياقوت .

(٣) فى كلتا النسختين : « يعين من لا يعين » ؛ وهو تصحيف . والتصويب عن شعر أعشى باهلة المطبوع فى أوربا ولخزانة الأدب . ولا تغبّ الحيّ جفنته ، أى أنه دائم الإطعام لقومه لا تغيب عنهم جفنته ، وهى القصـعة فى زمن الجدب وقلة الأمطار . والنوء : سقوط نجم فى المغرب عند الفجر وطلوع نجم آخر يقابله فى المشرق ، وكانت العرب تنسب الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الأنواء فيقولون : مطرنا بنوء كذا .

(٤) العزاء : الشدة والجهد . ومنصلت بالقوم ، أى منجرد مشمر .

(٥) فى كلتا النسختين : « المطر » ؛ وهو تبديل من الناسخ لا معنى له فى هذا البيت . والتصويب عن ديوان أعشى باهلة المطبوع فى أوربا وخزانة الأدب . والبازل من النوق : التى

وتفزع(١) الشَّوْلُ منه حين تُبْصِرُهُ حتى تَقَطَّعَ فى أعناقِها الجِرَرُ
لا يَصْعُبُ الأمرُ إلا رَيْثَ يَرْكَبُهُ وكلَّ أمرٍ سوى الفحشاء يأتَمِرُ
يكفيه حُزَّةُ فِلْذانٍ أَلَمَّ بها من الشِّواء ويكفى شُرْبَهُ الغُمَرُ(٢)
لا يَتَأَرَّى(٣) لِما فى القِدْرِ يَرْقُبُهُ ولا يَعَضُّ(٤) عَلَى شُرْسُوفِهِ الصَّفَرُ
لا يَغمِزُ الساقَ مِنْ أَيْنٍ وَمِنْ وَصَبٍ(٥) ولا يَزَالُ(٤) أمامَ القومِ يَقْتَفِرُ
مُهَفْهَفٌ أَهضَمُ الكَشْحَيْنِ مُنْخَرِقٌ عنه القميصُ بِسَيْرِ الليلِ مُحْتَقِرُ
عِشْنا بذلك دَهْرًا ثم فارَقَنا كذلك الرُّمْحُ ذو النَّصْلَيْنِ يَنكَسِرُ
لا تأمنُ الناسُ مُمْساهُ ومُصْبَحَهُ من كلِّ أَوْبٍ(٦) وإن لم يأتِ يُنْتَظَرُ
إمّا يُصِبْكَ عَدُوٌّ فى مُنَاوَأَةٍ يوماً فقد كنتَ تَسْتَعْلِى وتَنْتَصِرُ

= دخلت فى السنة التاسعة . والكوماء : الناقة العظيمة . واجلوذ السفر ، أى طال وامتدّ . وفى رواية : « إذا ما اخروّط » ؛ وهو بمعناه .

(١) يقول إن النياق تفزع منه مخافة أن يعقرها وتحبس جررها فى أعناقها حتى تتقطع . والجرر جمع جرّة (بالكسر) ، وهى ما يجترّه البعير معروف . وفى رواية : « قد تكظم البزل منه من مخافته * حتى تقطع ... الخ » .

(٢) الحزة : القطعة من اللحم تقطع طولا . والفلذان : جمع فلذة ، وهى القطعة من الكبد واللحم . والغمر : أصغر الأقداح . يقول : إنه يكتفى بالقليل من طعامه وشرابه إيثاراً لغيره على نفسه ، وكانت العرب كثيرا ما تتمدح بذلك .

(٣) لا يتأرّى ، أى لا يتحبّس ولا يتمكّث .

(٤) ورد فى كلا الأصلين هذان الشطران اللذان تحت هذا الرقم كل منهما مكان الآخر ؛ وهو خطأ من الناسخ صوابه ما أثبتنا نقلا عن المصادر التى بين أيدينا . والشرسوف : طرف الضلع . والصفر زعموا أنها دويبة مثل الحية تكون فى البطن تعترى من به شدة جوع . وفى كلتا النسختين : « ولا يراه » مكان قوله : « ولا يزال » ؛ وهو تحريف . ويقتفر ، أى يقتفى ويتبع .

(٥) فى رواية : « ألم به » مكان قوله : « ومن وصب » . يصفه بالصبر على السير .

(٦) فى رواية : « من كل فج وإن لم يغز » الخ .

لو لم تخنهُ نُفَيْلٌ[١] وهى خائنةٌ ألمّ بالقوم وِرْدٌ منه أو صَدَر
وَرّادُ حَرْبٍ شِهابٌ يُستضاء به كما يُضىء سوادَ الطُّخْيةِ القَمَرُ[٢]
إمّا سَلَكتَ سبيلاً كنتَ سالِكَها فاذهَبْ فلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ مُنتَشِر
مَنْ لَيْسَ فيه إذا قاوَلْتَه رَهَقٌ وليس فيه إذا ياسَرْتَه عُسُرُ[٣]

الليلة الواحدة والثلاثون

(١) وجَرَى ليلةً حديثُ الرأى فى الحَرْب والحَزْم والتَّيَقُّظ وقلّةِ الأستهانةِ بالخَصْم، فقال ابن عُبَيْد الكاتب : أنا أستحسنُ كلاماً جَرَى أيّام الأمين والمأمون ، وذاك أن علىّ بن عيسى بنَ ماهان لمّا توجّه إلى حَرْب طاهرٍ [بن الحسين] من بغدادَ ، سأل قوماً وَرَدُوا من الرَّىّ عن طاهر ، فقالوا : إنه مُجِدٌّ[٤] . فقال : وما طاهرٌ ؟ إنما هو شَوْكةٌ من أغصانى ، وشَرارةٌ مِنْ نارى ؛ ثم قال لأصحابه : واللهِ ما بَيْنَكم وبين أن ينقصِفَ انقصافَ الشَّجَر مِن الرِّيح العاصفة إلاّ أن يَبْلُغَهُ عُبورُنا عَقَبَةَ هَمَذان ، لأنّ السِّخالَ لا تَقْوَى على النِّطاح ، والثعالبَ لا صبرَ لها على لِقاء الأُسُود ، فإن يُقِمْ طاهرٌ بمَوْضِعِه يَكن أوّلَ معرَّض لظُبَاتِ السُّيوف وأسِنَّة الرِّماح . فقال يحيى بنُ علىّ [لعلىّ] بنِ عيسى : أيُّها الأمير ، إنّ العساكر لا تُسَاس بالتَّوانِى ، والحُروبَ لا تُدَبَّر بالأغتِرَار ، وإنّ الشَّرارةَ الخفيَّةَ ربما

(١) فى كلتا النسختين : «لو لم تجبه» ؛ وهو تحريف . وفى رواية : « لاستمر به * ورد يلم بهذا الناس أو صدر . ويريد نفيل بن عمرو بن كلاب .
(٢) الطخية (بضم الطاء) : الظلمة الشديدة .
(٣) فى (أ) : « عاسرته » . وفى (ب) : « عاشرته » ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين . وما أثبتناه هى الرواية الصحيحة فى المصادر التى رجعنا إليها . والرهق بالتحريك الكذب . وقد ورد هذا البيت فى تلك المصادر فى غير هذا الموضع من القصيدة .
(٤) فى (أ) محلّ ؛ وهو تحريف .

صارَتْ ضِرَامًا ، والنَّهْلَةَ[1] من السَّيْل ربّما صارَتْ بَحْرًا عظيما .

فقال[2] : إنّما حَجَبَ عليَّ بنَ عيسى عن وَثيقِ[3] الرَّأْيِ هذا الاُستحقارُ بالكلام ، والاُقتدارُ على اللَّفظ ، ومَن صَدَقَ فِكْرُه فى طلَبِ الرأى النافعِ ، قَلَّ كلامُه بالهَذَر [الضائع] .

(٢) وقال فى هذه الليلة : ما رأيتُ من يَفِي بإِحْصاء وجوهِ فَعِيل ومَواقِعِها[4] .

فكان من الجواب : أنّ الأخفش قد ذكَرَ عَشْرَةَ أَوْجُه ، وهى أكثرُ ما قَدَر عليه ، والتصفُّحُ قد دَلَّ على أربعين وَجْهاً وزيادة . قال : فما أَغْرَبُ[5] ما مَرَّ بك منها ؟ فقيل : فَعِيلٌ بمعنى فَعَل . فقال : هذا واللهِ غريب ، فهاتِ له شاهداً . فقيل : يقال مَكانٌ[6] دَمِيثٌ ودَمَثٌ ، ويَقِينٌ ويَقَنٌ ، ورَصِيفٌ[7] ورَصَفٌ[7] ؛ وللفرَس العَتِيد للعَدْو : العَتَد ؛ والنَّقِيلِ[8] من العَدْو : نَقَل ؛ والخَبِيطِ[9] من الوَرَق : خَبَط ؛ وللقَدِيم[7] : قَدَم[7] ؛ والبئر النَّزِيح : نَزَح ، وللجسم العَمِيم : عَمَم .

---

(١) فى (ا) والثلمة .

(٢) فقال ، أى الوزير .

(٣) فى « ب » « ريّق » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٤) فى (ا) « وتوابعها » ؛ وهو تحريف .

(٥) فى (ا) « أعرف ما قربك منها » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين .

(٦) فى الأصل : « من كان » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما فى « ب » .

(٧) كذا ورد فى كلتا النسختين هذه الكلمات الأربع التى تحت هذا الرقم ؛ ولم نجد فى كتب اللغة التى بين أيدينا ما يفيد أنه يقال فى لفظ رصيف وقديم رصف أوقدم بالتحريك فيهما ؛ فلعل فى هذه الكلمات تحريفا لم نهتد إلى صوابه بعد البحث الطويل .

(٨) النقيل : مداومة العدو وسرعة نقل القوائم .

(٩) الخبيط : الذى يضرب من ورق الشجر حتى ينحاتّ بدون أن يضر ذلك بأصل الشجرة وفروعها .

وقال ابنُ الأعرابى : القَفِيل : الشَّـوْكُ[١] اليابس ، والجمعُ قَفْل[٢] . وقال أحمدُ بنُ يحيى : هو منى بَعَدٌ أى بعيد ، والبَعَد يكون للجمع[٣] والواحد[٤] .

فعجب وقال : ينبغى أن يُعنَى بهذه الوُجوه كلِّها . فإنَّ[٥] الزيادة على مِثلِ الأخفش ظَفَرٌ حَسَن ، وأمتيازٌ فى الغَزَارة جميـل[٦] ، وما تفاضَلَتْ[٧] دَرَجاتُ العُلماء إلّا بتصفُّح الأخِيرِ قَوْلَ الأوّل وأستيلائه على ما فاتَه .

وسأل — أبادَ اللهُ عِداه ، وحقَّق مُناه — وقال : هل يسلَّمُ على أهل الذِّمّة ؟ (٣)
وهل يُبْدَأُون ؟ فكان أبو البُخْتُرىّ الداودىُّ حاضراً — فحَكَى أنَّ عُمَر بنَ عبدِ العزيز سُئِل عن هذا بعَيْنِه ، فقال : يُرَدُّ عليهم السلام ، ولا يأسَ بأنْ يُبْدَءوا ، لقول الله عزَّ وجلَّ : (فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ) .

وحَكَى فى مَعْرِضِ حديث أبى[٨] بكر قال : كتب مجنونٌ إلى مجنون : « بسمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحيم ، حَفِظَك الله ، وأبقاكَ الله ، كتبتُ إليكَ ودِجْلةُ تطْغَى ، وسُفُنُ المَوْصِل ها هِىَ ، وما يَزْدَادُ الصِّبْيان إلا شرًّا ، ولا الحجارةُ إلا كثرة ، فإيّاكَ والمَرَقَ فإنّه شرُّ طَعامٍ فى الدُّنيا ، ولا تَبِتْ إلّاوعند رأسِك حَجَرٌ

---

(١) فى كتب اللغة « الشجر » مكان « الشوك »
(٢) يلاحظ أن قفلا ليس جمعا لقفيل ، بل هو جمع قفلة بفتح القاف .
(٣) نظيره فى الجمع خدم جمع خادم .
(٤) شاهده قول النابغة فى مدح النعمان :

فتلك تبلغنى النعمانَ إن له ... فضلا على الناس فى الأدنى وفى البعد

بالتحريك . وفى رواية : « والبعد » بضمتين .
(٥) فى (أ) « قال » ؛ وهو تحريف .
(٦) فى (أ) : « فامتاز فى الغرارة حيـل » ؛ وهو تحريف فى هذه الكلمات الثلاث صوابه ما أثبتنا .
(٧) فى (أ) « تعاظمت » .
(٨) يلاحظ أن هنا كلاما ساقطا من كلتا النسختين كما يظهر لنا إذ لم يتقدم ذكر لأبى بكر هنا ولا حديث عنه .

أو حَجَرَان ، فإنّ الأخْبَرَ[1] يقول : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) .

[وكتبتُ إليك لثلاثَ عشرة وأربعين ليلة خلت من عاشوراء سَنَةَ الكَمْأَ [ة] »

قال : وكتبَ مجنونٌ آخَر : « أبقاكَ اللهُ من النّار وسُوءِ الحِساب ، وتَفْدِيكَ نَفْسِى مُوَفَّقاً إنْ شاء الله » .

قال : وكتبَ [مجنون] آخَرُ إلى مجنونٍ مثلِه : وَهَبَ اللهُ لى جميعَ المكارِه فيك ، كتابى إليك من الكُوفَةِ حقًّا حقًّا حقًّا ، أقْلامى تَخُطُّ ، والموتُ عندنا كثير ، إلاّ أنّه سَليم والحمد لله ، أحْبَبْتُ[2] ليَعْرِفَه إعلامُكم ذلك إن شاء الله .

فضحك — أضحكَ اللهُ سِنَّه — حتَّى أستلق ، وقال : ما الّذى يَبْلُغ بنا هذا الأستطرافَ إذا سَمِعْنا بحديث المجانين ؟

فقال أبنُ زُرْعة : لأنّ المجنونَ مُشارِكٌ للعاقِلِ فى الجنس ، فإذا كان من العاقِل ما يُحْسَبُ أن يكونَ من المجنون كُرِهَ ذلك له ، وإذا كان من المجنون ما يُعْهَدُ من العاقل تُعُجِّب منه ، والعَقْلُ بين أصحابِه ذو عَرْضٍ واسع ، وبقَدْرِ ذلك يتفاضلون التَّفاضُلَ الذى لا سبيل إلى حَصْرِه ، وكذلك الجنونُ بين أهْلِه ذو عَرْضٍ واسع ، وبحسَبِ ذلك يَتفاوَتونَ التَّفاوُتَ الذى لا مَطمعَ فى تَحْصيله ؛ وكما أنّه[3] يَبْدُرُ[4] من العاقل بعضُ ما لا يُتَوَقَّعُ إلا من المجنون كذلك يَبْدُرُ[4] من المجنون بعضُ ما لا يُتَوَقَّعُ إلا من العاقل ، ولا يُعْتَدُّ بذلك ولا بهذا ، أعنى أنّ العاقلَ بذلك المقدارِ لا يُرَى مجنونا ، والمجنونَ بذلك المقدارِ

(١) فى ب « لأنّ الله » .

(٢) فى (أ) « اجتنب » وهو تحريف .

(٣) فى (ا) : « وكما أنه إذا » . وقوله : « إذا » زيادة من الناسخ لا معنى لها فى هذا الموضع .

(٤) فى (ا) : « يندر » بالنون فى كلا الموضعين ؛ وهو تحريف .

لا يسمّى عاقلا ، و إنمـا أُجتَمعَا فى النادر القليل ، لأُجتماعهما فى الجنس الذى يَعُمُّهما ، والنوعِ الذى يَفْصلهما ، وفى الجملة الإنسان بمـا هو به حيوانٌ سَبُعٌ وحمار ، وبما هو [به] نَفْسىٌّ إنسان ، وبما هو به عاقلٌ نبىٌّ ومَلَك ؛ وهذه الأعراض — وإنْ تَدَاخَلَتْ لأُنتظامها فى طينة واحدة — فإنّها تتميّز بقوّة العقْل فى الصُّورة المخلوطة إما مفارَقة ، و إما مُواصَلة . ومرّ(١) له فى هذا الموضع كلامٌ بليغٌ تامٌّ مكْشوف .

كمل الجزء الثانى من كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى
حسب تجزئتنا والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على
سـيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ويليه الجزء
الثالث من هذا الكتاب وأوله : « ثم ترامى
الحديث إلى أمر المطعمين والطاعمين »
الخ . نسأل الله المعـونة
وحسـن التـوفيق

(١) فى الأصل : « ومنّ » بالنون ؛ وهو تحريف

فهرست الأعلام

الواردة فى الجزء الثانى من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدى

(ب)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(م)

(ن)

(هـ)

« تم فهرست الأعلام »

فهرست أسماء الأماكن

الواردة فى الجزء الثانى من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدى

فهرست أسماء القبائل والأمم والفرق

الواردة فى الجزء الثانى من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدى

(ا)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(ى)

فهرست أسماء الكتب

الواردة فى الجزء الثانى من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدى

(١٠)

فهرست قوافى الأبيات

الواردة فى الجزء الثانى من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدىّ

فهرست أنصاف الأبيات

الواردة فى الجزء الثانى من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدى

إنّ الفرار الأجل ١٥٠ : ١٣
وإذا مضى يُفعل ١٤٨ : ١١

(م)

ذَهبَ الأقوامِ ١٤٨ : ٩
وحسبكَ وتسلما ١٤٧ : ١٦

والأمرُ ينمى ١٤٨ : ٧
وقدُ يستجهلُ الحليمُ ١٤٨ : ١٠

(ن)

والحمدُ بأثمانِ ١٥٢ : ٨

استـــدراك

اطلع الأستاذ المرحوم محمد كرد على على الجزء الثانى من الإمتاع والمؤانسة بعد طبعه ، فأرسل إلينا بالملاحظات الآتية . وقد أثبتناها فى ثنايا الكتاب ، ونثبتها هنا ليعرف القارئ أنها من تصويبه .

صفحة	الأصـــل	التصويب
٥	المَوْفى	العوق (كذا يرى حضرته)
١٤	الصائبون	الصابئون
١٤	ابن الختّار	ابن خَمَّار
٢٠	الحصرى	الصَّيْمَرى
٢٤	باستقامنا	باستقامتنا
٣٠	حتى ترعو	حتى ترغو
٣١	شَباط	شُباط
٣٢	الأمراض والأغراض	الأمراض والأعراض
٤٠	بالرَفْق والطرق	بالرُّفق والخُرق
٤٨	وهما سوس	هما سوس
٤٨	الدولة مقبلة	والدولة مقبلة
٥٥	مَزْيَد	مُزَبِّد (كمحدّث)
١٠٥	أجبن من صقر	أجبن من صِفْرِد

التصويب	الأصــــل	صفحة
أطفأ نائرتها	أطفأ ثائرتها	١١٧
بالمنيِّر المخطط	بالنِّير المخطط	١٣٥
غيرُ ما	غيرَ ما	١٤٦
القُرضى ؟	أبو الحسن القَرضى	١٥٥
بين السورين	بين السوريين	١٧١
فِراستى من فِراسة	فَراستى من فَراسة	١٧٩

هذا إلى ملاحظات أخرى له أوردناها فى مكانها ؟

كتاب
الإمتاع والمؤانسة

تأليف

أبي حيان التوحيدي

وهو مجموع مسامرات في فنون شتى

حاضر بها الوزير أبا عبد الله العارض في نحو أربعين ليلة

الجزء الثالث

صححه وضبطه وشرح غريبه

أحمد أمين و أحمد الزين

دار مكتبة الحياة
للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

« بقية الليلة الحادية والثلاثين فى آخر الجزء الثانى »

ثمّ ترامَى الحديث إلى أمْر المُطْعِمين وَالطاعِمين[1] ، والذين يهشُّون[2] عند (٥)
المائدة ، والذين يعْبِسُون[3] و يَحمُون و يُطْرِقون ، والذين يَصْخَبُون[4] وَ يَلْغَطُون ، و يَضْجَرُون وَ يغْتاظون .

فقال : أحبُّ أن أسمعَ فى هذا أكثرَ ما فيه ، و يَمُرَّ بى أعجبُه ، فإنّ فى معرفةِ هٰذا الباب تَهذيباً و إيقاظاً كثيراً .

فكان من الجواب : إنّ الناس قديماً وحديثاً قد خاضوا فى هذا الفنّ خوضاً بعيداً ، وما وَقَفوا منه عند حَدّ ، لأن الحديث عن الأخلاق المختلِفة بالأمزجة[5] المُتَبايِنة ، والطبائع المتنائية لا يكاد يَنْتَهى إلى غاية يكون فيها شفاء للمستمِع المُستَفِيد [و] لا للراوية المُفِيد .

قال : قبل كل شىء أعْلِمُونا[6] يا أصحابَنا : الحثُّ على الأكل أحسَن ، أم الإمساكُ حتى يكون من الأكل ما يكون ؟

فكان [من] الجواب : أن هذه المسئلة بعينها جرَت بالأمس بالرّىّ عند

---

(١) فى (ا) بالطاعمين ، والباء محرفة من الواو كما هو ظاهر من السياق .

(٢) فى (ا) يعشون ، وهو تحريف .

(٣) فى (ا) « يعيشون » ؛ وهو تصحيف .

(٤) فى (ب) « يضجون » .

(٥) فى كلتا النسختين بالأزمنة ؛ وهو تحريف .

(٦) فى (ب) « إعلموا » ؛ وهو تحريف .

ابن عبّاد فتُنُوهِبَ الـكلامُ فيها ، وأفضى [إلى] أن الأولى الحثُّ والتأنيسُ والبَسْط والطَّلاقة ولينُ اللّفظ وقِلّة التّحديق وإسْجاء الطّرف مع [اللُّطْف] والدّماثة ، من غير دلالةٍ على تكلّفٍ فى ذلك فاضح(١) ولا إمساكٍ(٢) عنه قادح .

وحكى ابن عبّاد فى هذا الموضع أنّ بعض السّلف قال : الطعامُ أهونُ مِنْ أنْ يُحَثّ على تناوُله .

وقال الحسن بن علىّ : الطعام أجلُّ من أن لا يُحَثّ على تناوُله . ومذهبُ الحسَن أحسَن .

قال : ولقد حضرتُ مَوائد ناسٍ لا أظُنُّ بهم البخلَ فلم يحُثُّونِي ولم يَبْسطونى فَتَبَضّنى ذلك ، وكأنّ انقباضى كان بمَعُونَتهِم ، وإن لم يكن بإرادتهم .

قال الوزير : هذه فائدة من هذا الرجل الّذى يُتهادَى قوله ، وتُتَرَاوَى أخبارُه(٣) .

ثم حكيتُ له أن أسماء بنَ حارجةَ قال : ما صنعتُ طعاماً قطّ فدَعَوْتُ عليه نَفَراً إلّا كانوا أمنّ علىّ مِنّى عليهم . فقال : زدنا من هذا الضرب ما كان ، قلتُ : لو أذِن لى فى جمْعه كان أوْلى ؛ قال : لك(٤) ذلك فما يَضُرُّنا(٥) أن تُطْرِبَ آذانَنا بما تَهْوَى نُفوسُنا .

فكان من الجواب أنّ الجاحظ قد أتى على جمهَرة هذا الباب إلّا ما شذّ عنه

(١) فى (ا) ناصح ؛ وهو تحريف .
(٢) فى (ا) « الإمساك » ولا يستقيم به المعنى .
(٣) فى (ا) ويتراوى اختياره .
(٤) فى (ا) « إلى » ؛ وهو تحريف .
(٥) فى (ا) « ينصرنا » ؛ وهو تحريف .

مِمَّا لم يَقَعْ إليـه ، فإن العالِمَ — وإن كان بارعاً — ليس يجوز أن يُظَنَّ [به] أنهُ قد أحاط بكلِّ باب ، أو بالباب الواحد إلى آخره ؛ على أنَّه حَدَثَ من عَهْد الجاحظ إلى وَقْتنا هٰذا أُمُورٌ وأمور ، وهَناتٌ وهَناتٌ ، وَغرائبُ وعَجَائب ، لأنَّ الناس يَكتسبون على رَأس كلِّ مائة سنةٍ عادةً جديدة ، وخليقةً غيرَ مَعْهودةٍ ، و بَدْء هٰذه المِئِين[1] هو الوقت الذى فيه تَنْعَقد شريعة ، وتظهر نبوّة ، وتَفْشو أحـكام ، وتَسْتَقرُّ سُنَن ، وتُؤلَفُ أحوالٌ[2] بعد فطامٍ شديد ، وتلـكُّؤٍ واقع ؛ ثم على أُستئنان ذلك يكون ما يكون .

وقال مَيْمون بنُ مِهْران : مَن ضافَ البخيلَ صامَتْ دابّتُه ، وأستغْنى عن الـكَنيف ، وأمِنَ التُّخَمة .

وقال حامد[3] اللَّفّاف المتزهِّد[4] : المرائى إذا ضاف إنساناً حدَّثه بسَخاوَة إبراهيم ، وإذا ضافَه إنسانٌ حدَّثه بزُهد عيسى بنِ مَرْيَم .

وقال مالك[5] بن دينار : دَخَلْنا على أبن سِيرينَ فقال : ما أدْرِى ما أُطْعِمُـكم ؟ ثم قَدّم[6] إلينا شُهْدَة .

وقال الأعمش : كانَ خَيْثَمة يَصْنَع الخَبيصَ ثم يقول : كُلُوا فوالله ما صُنِـعَ إلاّ من أجْلِـكم .

وقال بكْر بنُ عبدِ اللهِ المُزَنِىّ[7] : أحَقُّ الناس بلَطْمَةٍ مَن إذا دُعِىَ إلى طَعامٍ

---

(١) فى (١) « وبدهره المتين » . وفى (ب) « وبدهذه البين » ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين وما أثبتناه هوما يقتضيه سياق الـكلام . (٢) فى (ب) « أحكام » ؛ وهو تحريف .

(٣) كذا فى كلا الأصلين ؛ وقد وردت هذه الـكلمة فى الجزء الثانى من هذا الـكتاب ص ٦٩ منسوبة إلى حاتم ، أى حاتم الأصمّ .

(٤) فى (ب) « الزاهد » . (٥) فى (١) « خالد » ؛ وهو تبديل من الناسخ .

(٦) فى (ب) « أخرج » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضاً .

(٧) فى (١) « المزء » ؛ وهو تحريف .

ذَهبَ بآخَر معه ، وأحقُّهم بلَطْمَتين مَن إذا قيل له : اجلس هَا هنا قال : بل هاهنا ؛ وأحقُّ الناس بثلاثِ لَطَمات مَنْ إذا قيل له : كُلْ ، قال : ما بالُ صاحِب البَيْتِ لا يأ كُلُ مَعَنا .

وقال إبراهيم بنُ الجُنَيْد[1] : كان يقال : أربع لا يَنْبَغي لِشريف أن يأنَف منهُنَّ وإن كان أميراً : قِيامُه مِن مجلسه لأبيه ، وخِدْمَتُه العالِمَ يَتعلَّمُ منه ، والسؤالُ عمّا لا يَعْلم ممن هو أعْلمُ منه ، وخِدْمَةُ الضيف بنفْسِه إكراماً له .

وقال حاتم الأصمّ : كان يقال العَجَلة من الشيطان إلا فى خمس ، فإنها من سُنَّة رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم : إطعامِ الضَّيف إذا حَلّ ، وتجهيزِ الميِّت إذا مات ، وتزْوِيجِ البِكْر إذا أَدْرَكتْ ، وقضاء الدَّين إذا حَلّ وَوَجَب ، والتَّوْبة من الذَّنب إذا وَقَع .

وقال النبى صلى الله عليه وسلّم : « ليلةُ الضَّيفِ حقٌّ واجبٌ على كلِّ مُسْلِم ، فمن أصْبَحَ بِفِنائِه فهو أحَقُّ به إن شاء أَخَذَ ، وإن شاء تَرَكَ » .

وجاءت امرأة إلى الليث بن سعد وفى يدها قَدَح ، فسألتْ عسلاً وقالت : زَوْجي مريض ؛ فأمر لها براوِيَةِ عَسَل[2] ؛ فقالوا : يا أبا الحرث : إنما تسأل قَدَحا . قال : سألتْ على قَدْرِها ونُعْطِيها على قَدْرِنا .

خَرَجَ ابنُ المُبارَك يوماً إلى أصحابه ، فقال لهم : نَزَلَ بنا ضَيْفٌ اليومَ فقالَ : اتخذوا لى فالوذجاً ؛ فسُرِرْنا ذلك منه

---

(١) فى (ا) « ابن الحنبل » ، وهو تصحيف . وقد سبق كلامه هذا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب صفحة ٦٨ سطر ١١ .

(٢) هذه الكلمة فى (ا) لم يظهر منها إلا بعض حروفها وفى (ب) مطموسة كلها .

وقال الحسنُ فى الرَّجُل يَدْخُلُ بَيْتَ أخيه فيرَى السَّلَّة فيها الفاكهة : لا بأسَ أنْ يأكلَ مِنْ غير أن يَسْتَأذِنَه .

وقال ابنُ عمر : أُهْدِيَتْ لرجلٍ من أصحاب النبى — صلى الله عليه وعلى آله — شاةٌ فقال : أخى فلانٌ أحْوَجُ إليها ، وبَعث بها إليه ، فلم يَزَلْ[1] يَبعث بها واحدٌ بعد واحد حتى تداولها تسعةُ أبيات ، ورَجَعَتْ إلى الأوّل ، فنزلت الآية : (وَيُؤْثِرُونَ على أنفسِهِمْ ولوْ كان بِهِمْ خَصاصَةٌ) .

قال أبو سعيد الخُدْرِىّ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان له ظَهرٌ فليَعُدْ على من لا ظَهْرَ له ؛ ومن كان له زادٌ فَلْيَعُدْ على من لا زادَ له ، حتى رَأينا أنه لا حَقَّ لأحدٍ منّا فى الفَضْل[2] » .

وسُئِلَ ابنُ عُمَرَ . ما حَقُّ المُسْلِم على المُسْلم ؟ قال : ألّا يَشْبَعَ ويَجُوع ، وألاَّ يَلْبَسَ ويَعرَى ، وأنْ يواسِيَه بِبيضائه وصَفرائه .

وكان ابنُ أبى بَكرةَ يُنْفق على جيرانِه أربعين داراً سِوَى سائرِ نفقاتِه ، وكان يَبْعَث إليهم بالأضاحىّ والكسوة فى الأعياد ، وكان يعْتق فى كلّ يومِ عيدٍ مائةَ مملوك .

وكان حمّاد بنُ أبى سُليمان يُفطِّر كلَّ ليلةٍ مِن شهر رمضان خمسين إنساناً ، وإذا كان يوم الفِطرِ كَساهم ثَوْباً ثَوْباً وأعطاهم مائة مائة .

وقال الشاعر :

أَرَاكَ تؤمِّل حُسْنَ الثَّناء ولم يَرْزُق اللهُ ذاكَ البَخيلا

---

(١) سياق الكلام يفيد أن الثانى قال مثل ما قال الأول وبعث بالشاة إلى أخ ثالث ، وحذف ذلك للعلم به .

(٢) يريد بالفضل هنا : ما فضل من المال وزاد .

وكيف يسود أخو بطنةٍ يمُنُّ[١] كثيراً ويُعطى قليلا

وقال النبيُّ صلّى الله عليه وسلم: « تجافَوا عن ذَنْب السَّخِيِّ، فإن الله يأخذُ بيَدِه كلّما عثَر ».

وقال عليه السلام: « من أدَّى الزَّكاة، وقَرَى الضَّيف، وآوَى[٢] فى النائبة، فقد وُقِيَ شُحَّ نفسه ».

وقالت أمُّ البَنِين أختُ عمرَ بنِ عَبْدِ العزيز: أُفٍّ للبُخْل، لو كان طريقاً ما سَلَكْتُه، ولو كان ثوباً ما لبِسْتُه، ولو كان سِراجاً ما استضأتُ به.

وقال الأصمعىّ: قال بعضُ العَرَب: ليست الفتوّةُ الفِسقَ ولا الفُجُور، ولا شُربَ الخُمور، وإنما الفُتوّةُ طَعامٌ موضوع، وصنيع مصنُوع، ومكانٌ مرْفوع، ولسانٌ مَعْسُول، ونائل مبذول، وعَفاف مَعروف، وأذًى مكفوف.

وقال أبو حازم المدنىّ: أسعَدُ النَّاس بالخُلق الحَسَن صاحبُه، نَفْسُه منه فى راحة، ثم زَوْجَتُه، ثم وَلَدُه، حتى إن فَرَسَهُ ليَصْهَل إذا سمع صَوْتَه، وكَلْبَه يُشَرْشِرُ بذَنبه إذا رآه، وقطّه يدخل [تحت] مائدته، وإنّ السّيِّء الخُلُق لأشقى الناس، نَفْسُه منه فى بَلاء، ثم زَوْجَتُه، ثم وَلَدُه، ثم خَدَمُه، وإنّه ليَدْخُل وهم فى سُرُور فيتفرَّقون فرَقاً منه، وإنّ دابّته لتحيد عنه إذا رأَته، ممّا ترَى منه، وكَلْبَه يَنْزُو على الجدار، وقِطّه يفرُّ منه.

وكان على باب ابن كيسانَ مكتوب: ادْخُلْ وَكُلْ.

(١) هذه الكلمة مطموسة فى (١) ولم يظهر منها فى (ب) غير النون؛ وما أثبتناه هو المناسب للسياق.

(٢) فى (١) وأدى؛ وهو تحريف.

وكانت عائشة رضى الله عنها تقول فى بكائها [على النبى صلى الله عليه وسلم] : بأبى مَنْ لم يَنمْ على الوَثير ، ولم يَشْبَع مِن خُبز الشَّعير .

وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إنّ الله لم يخلق وِعاء مُلئ شرًّا من بَطْنٍ ، فإن كان لا بُدّ فاجْعَلوا ثُلثاً للطعام ، وثُلثاً للشراب ، وثُلثاً للرِّيح » .

قال الشاعر :

ليسوا يُبالون إذا أصْبحُوا شَبْعَى بِطاناً حقّ مَنْ ضَيَّعُوا[1]

ولا يُبالُون بِمَوْلاهُمُ والـكَلْبُ فى أموالهم يَرْتَع

وحَكى لنا أبو بكر أحمدُ بنُ إبراهيمَ بجُرْجانَ [إمامُ الدُّنيا] قال : رأيتُ أبا خليفة المفضَّلَ[2] بن الحُباب ، وقد دُعِىَ إلى وَليمةٍ فرأى الصِّحاف تُوضَعُ وتُرْفَعُ ، فقال : ألِلحُسْنِ والمَنْظَرِ دُعِينا ، أمْ للأكل والمَخْبَر ؟ فقيل : بل للأكل والمخبر ، قال : فاتركوا الصَّحْفَةَ يَبْلُغْ قَعْرُها .

وكان سليمانُ بنُ ثَوَابَةَ ضَخْمَ الخِوان ، كثيرَ الطَّعام ، وافرَ الرَّغيف ، وكان مُعجَباً بإجادة الألوان ، واتِّخاذ البدائعِ والطَّرائفِ والغرائبِ على مائدته ؛ وكانت له ضُروبٌ من الحَلْوَى لا تُعرفُ إلّا به ، وكان خُبزُه الذى يُوضع على المائدة الرغيفُ من مَكّوكٍ[3] دَقيق ، ولذلك قال أبو فرعون العَدَوىّ :

ما النّاسُ إلا نَبطٌ وخُوزَانْ[4] كَكَهْمَسٍ أو عمرَ بن عمرانْ

---

(١) فى (ا) « صنعوا » ؛ وهو تصحيف .

(٢) فى (ا) المفضل بن الحيان ؛ وهو تحريف .

(٣) المكوك : من مكاييل العراق ، وهو صاع ونصف أو هو ثلاث كيلجات والكيلجة منا وسبعة أثمان منا ، والمنا رطلان .

(٤) لعله يريد بالخوازن : أهل خوزستان ، وهم — فيما يقال — ألأم الناس وأسقطهم نفوساً .

ضاق[١] جرابى عن رغيف سَلْمان[٢] أَ أُ حمار فى حِرِ أُمّ قحطانْ
وأيْرُ بَغْلٍ فى اُسْتِ أمِّ عدنان

(٣) . . . .

وعَشِقَ رَجُلٌ جاريةً رُوميّة كانت لقوم ذَوِى يسار ، فكتبَ إليها يوماً : جُعِلتُ فِدَاكِ ، عندى اليومَ أصحابى ، وقد اشتهيت سكباجَةً[٤] بقريّةً فأحبُّ أن توجّهى إلينا بما يَعُمّنا ويكفينا منها ، ودَسْتَجَةً[٥] من نبيذٍ لنتغذّى ونشْرَبَ على ذِكْرِكِ ، فلما وَصَلَتِ الرُّقعةُ وَجّهتْ إليه بما طَلَب ؛ ثم كتَب إليها يوماً آخر : فدَتْكِ نفسِى ، إخوانى مجتمعون عندى ، وقد اُشتَهَيت قَلِيّةً جَزُوريّةً فوَجِّهى بها إلىّ وما يَكْفينا من النَّبيذ والنُّقْل ، ليعرفوا مَنْزلَتى عِنْدَكِ ، فوجّهَتْ إليه بكل ما سأل ؛ ثم كتب إليها يوماً آخَر : جُعِلْتُ فِدَاكِ ، قد اُشتهيتُ أنا وأصحابى رءوسًا سِمانًا ، فأُحِبُّ أن توجّهى إلينا بما يَكْفِينا ، ومن النبيذ بما يُرْوينا ؛ فكَتَبَت الجارية عند ذلك : إنّى رأيتُ الحبَّ يَكونُ فى القَلْب ، وحُبّك هٰذا ما تجاوز المعدة . وكَتَبَتْ أسْفَلَ الرُّقعة :

عَذِيرِى من حَبيبٍ[٦] جا ءنا فى زَمَنِ الشّدّهْ

---

(١) فى (ا) سار ؛ وهو تحريف .
(٢) سلمان ، أى سليمان ؛ وهى لغة فيه .
(٣) ورد موضع هذه النقط فى (ا) وحدها كلام هذا نصه : انزل بقوم فقرة صيام ولم يأتوه به ولـكن دلوه على موضعه ، وقالوا له : اذهب ما منه وكأنه يذم أم مبواه :
إذا دعيت بما فى البيت قالت   نحن من الجدال وما حييت
ولا يخفى ما فى هذا كله من التحريف الـكثير وقد بحثنا عنه فى مختلف المصادر التى بين أيدينا فلم نجده .   (٤) السكباجة : مرق يصنع من اللحم والخلّ .
(٥) وردت هذه الـكلمة فى (ا) مهملة الحروف من النقط ، وفى (ب) « دسجة » ؛ والصواب ما أثبتنا . والدستجة : إناء كبير من زجاج فارسيته دسته .
(٦) فى (ا) « حيث » ؛ وهو تصحيف .

وكان الحُبُّ في القَلبِ فصارَ الحُبُّ في المِعْدَهْ

وقال جرير :(١)

ولا يَذبَحُونَ الشاةَ إلا بمَيْسرٍ (٢) كثيرٌ تَنَاجيها لِئامٌ قُدُورُها

وقالت عادِية(٣) بنتُ قُرْعَةَ الزُّبيرِيّة في ابنها دَوْس :

تَشَبَّهُ(٤) دَوْسُ نفراً كِراما

كانوا الذُّرَى والأنفَ والسَّناما

كانوا لمن خالَطَهم إدَامَا

كالسَّمْن لمّا سَغْبَلَ الطعاما

يقال سَغْبَلَ رأسَه [بالدُّهْن] وسَغْسَغه(٥) ورَوّاه وأمرعه(٦) .

قال الواقديّ : قيل لأمّ أيوبَ : أيُّ الطّعام كانَ أحَبَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم : فقد عرَفتمْ ذلك بمُقامه عندكم ؟ فقالت : ما رأيتُه أمَرَ بطعامٍ

(١) البيت لغسان بن ذهل يهجو جريرا وقبله :

لعمرى لئن كانت بجيلة زانها جرير لقد أخزى كليبا جريرها

إذا نزعت يوما كليب وسومت تقاعس فى ظهر الأتان مغيرها

رأيت كليبا يعرف اللؤم ريحها إذا اسود بين الأملحين جمورها

ولا يذبحون الشاة الخ ...

انظر الجزء الأول من ديوان جرير ص ١٣٤ طبع المطبعة العلمية .

(٢) فى (ا) « بمئزر » ؛ وفى (ب) « بمنسر » بالنون وهو تحريف فى كلتا النسختين والتصويب عن ديوان جرير ج ١ ص ١٣٤ طبع المطبعة العلمية . يريد أن ذبح الشاة عندهم أمر ذو بال لا يفعلونه إلا بواسطة قداح الميسر التى يشترك فيها الجميع وتفرق بينهم كل بنصيبه كما يذبح الجزور فى زمن الجدب والقحط .

(٣) كذا ورد هذا الاسم فى كلتا النسختين .

(٤) فى (ا) « أسنه » ؛ وهو تصحيف .

(٥) فى (ب) « وسعسعه » بمهملتين ؛ والمعنى واحد .

(٦) كذا فى (ب) وكتب اللغة والذى فى (ا) « وأمرغه » بالغين المعجمة .

يُصنَع له بعَيْنِه ، ولا رأيناه أُتِي بطعام فعابه قطّ . وقد أخبرنى أبو أيوب أنه تَعَشّى عنده ليلةً من قَصْعَة أرسلَ بها سعدُ بن عُبادة [فيها] طَفَيْشَل(١) فرأيتُه ينهك تلك القَصْعة(٢) ما لم يَنْهَكْ غيرها ، فرجع إلىّ فأخبرنى ، فكنا نَعْمَلُها له . وكنا نَعمَل له الهريسة ، وكانت تُعْجِبه ، وكان يحضر عَشاءه(٣) من خمسة إلى ستّة إلى عَشَرة كما يكون الطعام فى القِلة والكَثْرة .

وكان أسعد بن زرارة يَعْمل له هَريسةً ليلةً وليلةً لا ، فكان رَسُول الله صلى الله عليه وسلّم يَسأل عنها ؛ أجاءت قصعة أسعد أم لا ؟ فيقال نعم ، فيقول : هَلُمّوها ؛ فنعرف بذلك أنّها تُعْجبه

قَدِمَ صُهَيب على رسول الله صلى الله عليه وسلّم بقُباء ومعه أبو بكرٍ وعُمر ، بين أيديهم رُطَبٌ قد جاءهم به كُلْثوم بن الهِدْم(٤) أُمّهاتُ جَرادِين(٥) وصُهَيْبٌ قد رَمِدَ فى الطَّريق ، وأصابَتْه مَجاعةٌ شديدة ، فوَقَع فى الرُّطَب ؛ قال صُهَيْب : فجعلتُ آكُل ، فقال عمر : يا رسول الله ، ألا ترى إلى صهيب يأكُلُ الرُّطبَ وهُوَ رَمِد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « أتأْكُلُ الرُّطَبَ وأَنْتَ رَمِد ؟ » فقال صهيب : أنا آكل بشقّ عينى الصحيحة ، فتَبَسّمَ [رسول الله] صلّى الله عليه وسلم .

---

(١) الطفيشل : نوع من المرق .

(٢) فى (ا) القدر ؛ وهو تبديل من الناسخ .

(٣) فى (ب) « عنده » .

(٤) فى (ا) « ابن مبروم » ؛ وفى (ب) ابن الهرم ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين والتصويب عن كتب اللغة ومعجمات الأعلام التى بين أيدينا .

(٥) فى (ا) حرافين ؛ وفى (ب) حرادين ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين ؛ والتصويب عن كتب اللغة وكتب الحديث ، وأم جرزان : نوع من الرطب كبار ، وسمى بذلك لأن نخله يجتمع تحته الجرزان لحلاوة ثمره . وأم جرزان آخر نخلة بالحجاز إدرا كا ، وهى أم جرزان رطبا ، فإذا جفت فهى الكبيس .

وقال الأعْشَى :

لو أُطعِموا المَنَّ والسَّلْوَى مَكانَهُمُ   ما أَبْصَرَ الناسُ طُعْمًا فيهمُ نَجَعا

وقال الكُمَيْت :

وما استُنْزِلَتْ فى غيرِنا قِدْرُ جارِنا   ولا ثُفِيَتْ إلاّ بنا حِينَ تُنْصَبُ

يقول إذا جاوَرَنا جارٌ لم نُكلِّفْه أن يَطْبُخَ مِنْ عنده ، ويكون ما يَطْبُخه مِن عنْدِنا مما نُعْطِيه من اللَّحْمِ لِيَنْصُبَ[1] قِدْرَه . ويقال الحَيْسِ[2] سَوِيطَة[3] . وقال : الرَّغِيغَة[4] لبن يُطْبخ . وقال : هى العصيدة ، ثم الحَرِيرة[5] ثم النَّجِيرة[6] ، ثم الحَسْوُ[7] . واللُّوقَة : الرُّطَب بالسَّمْنِ[8] ، والسَّلِيقَة : الذُّرَة تُدَقُّ وتُصْلَح باللَبَن ، والرَّصِيعَة[9] : البُرُّ يُدَقُّ بالفِهْر وَيُبَلُّ ويطبخُ بشَىء من السَّمْن ، والوَجِيئة : التَّمرُ يُوجَأُ ثم يُؤكل باللَّبَن .

وقال أعرابىّ : ليس من الألبان أحْلَى من لبن الخَلِفَة[10] .

---

(١) فى (ب) « ينضب » ؛ وهو تحريف .

(٢) الحيس تمر يخلط بسمن وأقط فيعجن شديداً ثم يخرج منه نواه .

(٣) السويطة : من السوط وهو الخلط ؛ وفى (١) « الصريطة » ؛ وهو تحريف .

(٤) فى اللسان أن « الرغيغة » : حسو من الزبد ؛ وقيل : لبن يغلى ويذر عليه دقيق .

(٥) فى اللسان أن « الحريرة » دقيق يطبخ بلبن أو دسم

(٦) فى اللسان : أن النجيرة لبن وطحين يخلطان ؛ وقيل : هى لبن حليب عليه سمن . وقيل : هى ماء وطحين يطبخ . والنجيرة : بين الحسو وبين العصيدة . والذى فى كلتا النسختين « النحيرة » ؛ وهو تصحيف .

(٧) الحسو : طعام يعمل من الدقيق والماء .

(٨) وقيل : إن اللوقة الزبدة .

(٩) وردت هذه الكلمة فى كلتا النسختين مضطربة الحروف فى رسمها . وقد قلبناها على عدة وجوه ، وهذا الذى أثبتناه هو ما وجدناه فى كتب اللغة بالمعنى الذى ذكره المؤلف هنا .

(١٠) الخلفة : المخاض من النياق .

والنَّخِيسة والقَطِيبَةُ يُخْلَط لبن إبلٍ بلبَن غَنَم (١) .

وقال أعرابىّ : الحمد لله الذى أغنانا باللَّبَن عمّا سِواه . ويقال أكل خبزاً قَفاراً وعَفاراً وعَفيراً : لا شىء معه (٢) وعليه القَفَار والدَّمار وسُوء الدار (٣) ؛ وأكلَ خُبْزًا جَبِيزاً (٤) أى قَطِيراً (٥) يابساً . وجاء بتَمر فَضٍ (٦) وفَضًا وَفَذٍ وحَتٍّ (٧) : لا يَلزَقُ بَعْضُه ببعض .

قال أبو الحسن الطُّوسىّ : أخبرنى هشام قال : دَخَلَ علىّ فَرَجٌ الرُّخَّجِىُّ وقد تَغَدَّيْتُ واتَّكأتُ ، فقال : يا أبا عبدالله : إنَّمَا تُحْسِنُ الأكلَ والاتِّكاء . [قال] : فتركتُ [الأكلَ] عنده أيّامًا ، وبلغه ذلك ، فبَعَثَ إلىّ : إن كُنْتَ لا تأكُلُ طَعامَنا فليس لنا فيك حاجَة . قال : « فأكلتُ (٨) شيئاً ثم أتيتُه » فَلَم يَعْتذر ممّا كان .

---

(١) فى كتب اللغة أن « النخيسة » و « القطيبة » لبن الماعز يخلط بلبن الضأن ، لا لبن إبل كما هنا .

(٢) عبارة النويرى « لا أدم معه » .

(٣) فى (١) « وشواء النار » .

(٤) وردت هذه الكلمة فى كلتا النسختين مصحفة الحروف يحتاج إصلاحها إلى بحث فى كتب اللغة . وهذا الذى أثبتناه هو ما وجدناه فى تلك الكتب بالمعنى المذكور هنا ، وهو الخبز اليابس .

(٥) « القطير » هو الذى أعجل قبل أن يختمر .

(٦) كذا فى كتب اللغة ، وقد وردت هاتان الكلمتان فى كلتا النسختين مصحفتى الحروف يحتاج إصلاحهما إلى تقليبهما على عدة وجوه .

(٧) فى كلتا النسختين ، « وقد وحاء حب » ؛ وهو تصحيف فى كلتا الكلمتين ، وما أثبتناه عن كتب اللغة .

(٨) وردت هذه العبارة التى بين هاتين العلامتين فى كلتا النسختين مضطربة الحروف ، تتعذر قراءتها ، والسياق يقتضى إثباتها على هذا الوجه .

قال أبو الحسن : أخبرني الفَرّاء قال : العرب تسمّى السِّكْباجَةَ(١) الصَّنْفَصَة . وأنْشَدَ :

أبو مالِكٍ يَعْتادُنا في الظَّهائِرِ يَجُوء فيَلْقى رَحْلَهُ عِنْدَ عامِرِ(٢)

أبو مالك : الجوع ، هكذا تقول العرب ويَجِيء(٢) ويَجُوء لغتان . وقال الآخر :

رأيتُ الغواني إذ نَزَلْتَ جَفَوْنني أبا مالِكٍ إنى أظُنُّكَ دائبا(٣)

أبو مالك ها هنا الشَّيْب .

قال أبو الحسن : أخبرني التَّوْزِيّ(٤) عن أبي عُبَيْدَةَ في الحديث الذى يُرْوَى عن عمرَ بن الخطاب أنّه رأى في رَوْثِ فَرَسِهِ حَبَّةَ شَعِير ، فقال : لأجعلنّ(٥) لك في غَرَزِ(٦) النَّقيع ما يَشْغَلُك عن شَعِيرِ المُسْلمين . قال : والنقيع : موضع بالمدينة أحماهُ عمر [بن الخطّاب] لخيل المسلمين ، خِلافُ البَقيع بالباء .

قال الطّوسيّ : العرب تقول : « أيدِي الرِّجال أعناقُها » أى مَن كان أطولَ يداً على المائدةِ تناوَل فأكل ، الهاء تَرْجِع على الإبل ، أى أيدى الرجال أعناق الإبل ، أى مَنْ طالَ نال .

قال الأصمعيّ : سألت بعضَ الأكَلَةِ فيمَن كان يُقدِم على مُيَسَّرِى

(١) السكباجة : مرق يعمل من اللحم والخل .
(٢) عامر : من أسماء الخبز ، ويسمى أيضاً جابرا وعاصما . والذى فى الأصل : يجوّ مكان « يجوء » . . . ويجىّ ويجوّ فى التفسير بعد ؛ وهو تحريف ، والتصويب عن اللسان . وفى كتاب ما يعول عليه « يلم فيلقى » . وجابر مكان « عامر » .
(٣) فى كلتا النسختين « دانيا » ؛ وهو تصحيف . والتصويب عن اللسان وما يعول عليه وروايته فى كلا الكتابين : أبا مالك إن الغوانى هجرننى أبا مالك الخ
(٤) فى (ب) التوزى ؛ والثورى ، والتوزى ، كلاهما معروف .
(٥) فى (ا) لأجعلنك . (٦) الغرز بالتحريك : نبات يشبه الثمام ينبت على شواطىء الأنهار ، وفى كلتا النسختين عزيز ؛ وهو تصحيف .

الناس كيف تَصْنَع إذا جَهَدَتْكَ الكِظَّة — والعربُ تقول : « إذا كنتَ بَطِناً فعُدَّكَ زَمِناً — ؟ قال : آخُذُ رَوْثاً حارًّا وأَعْصِرُه وأشرب ماءه ، فأختَلِفُ[(١)] عنه مِراراً ، فلا أَلبَثُ أن يَلْحَقَ بَطْنى [بِظَهْرِى] فأشتهى الطعام .

قال ابن الأعرابى : قال الكِلابىّ : هو يَنْدِفُ الطَّعامَ إذا أَكَلَهُ بيدِه ، ويَلْقَمُ الحسُوَّ ، واللَّقمُ بالشَّفة ، والنَّدْفُ : الأكْلُ باليَد . وقال الزبيرىّ : يَنْدِف[(٢)] .

وأنشد ابن الأعرابىّ :

ويَظَلُّ ضَيْفُ بَنِى عُبَادَةَ فِيهِمُ مُتَضَمِّرًا وبطونُهُمْ كُتْمُ

أى مُمْتَلِئة . والتَّضَمُّرُ : الهُزال والنَّحافَةُ ، كالنخل المُصَمَّرِ ، أى الذى قد ذَوَتْ[(٣)] جُذوعُه . قال الشَّنَبُوذىّ فى قول الله تعالى[(٤)] : (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بالأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا [الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا]) . قال : الذين يَتَرُدُون ويأكلُ غيرُهُمْ . قال أبو الحسن : كانت لىَ ابنة تجلِسُ مَعى على المائدةِ فتُبْرِزُ كَفًّا كأنها طَلْعَةٌ ، فى ذِرَاعٍ كأنَّها جُمَّارَة ، فلا تقع عينُها على أكلةٍ نفيسةٍ إلّا خَصَّتْنِى بها ، فزوَّجْتُها ، وصار يجلسُ مَعى على المائدةِ ابنٌ لى ، فيُبْرِزُ لى كفًّا كأنَّها كِرْنَافة[(٥)] ، فى ذراعٍ كأنها كَرَبَة[(٦)] ، فوالله إنْ[(٧)] تَسْبِقُ

(١) يقال : اختلف إلى الخلاء ، إذا أصابه إسهال فتردد إليه .
(٢) يظهر أن فى هذه العبارة نقصا وقع من الناسخ .
(٣) فى (ا) « وقت » بالواو ؛ وهو تحريف ، ولعل صوابه « رقت » بالراء مع تشديد القاف . وفى (ب) « درت » بالدال المهملة والراء ؛ وهو تحريف أيضاً ، ولعل صوابه ما أثبتنا ، كما يقتضيه سياق الكلام . (٤) فى (ب) فى قوله عز وجل .
(٥) الكرنافة : أصول الكرب التى تبقى فى جذع النخلة بعد قطع السعف .
(٦) الكربة بالتحريك : أصول السعف الغلاظ العراض التى تقطع منها .
(٧) إن تسبق ، أى ما تسبق ؛ فإن هنا نافية .

عيني إلى لُقمةٍ طيِّبةٍ إلاّ سبقَتْ يدُه إليها .

وقال أعرابيٌّ للنبي صلى الله عليه وسلّم : إني نَذَرْتُ إذا بَلَّغَتْني ناقتي أن أنحرَها وآ كُلَ مِنْ كَبِدِها . قال : « بئسما جازَيْتَها » .

أضلّ أعرابيٌّ بعيراً له ، فطلبه ، فرأى على باب الأمير بُخْتيّاً ، فأخذه وقال : هذا بعيري ، فقال : إنّك أضلَلْتَ بعيراً وهذا بُخْتِيّ . فقال : لَمّا أ كَلَ عَلَفَ الأمير تَبَخَّتَ . فضحك منه وتركه [يعيدُ قولَه ويُعْجِبُه] .

الكِدْنَةُ : غِلَظُ اللّحمِ وتَراكُمُه ، ومنه قول هشامٍ لسالمٍ — وقد رآه فأعجبه جسمُه — : ما رأيتُ ذا كِدْنَةٍ أحْسَنَ مِنْك ، فما طعامُك ؟ قال : الخُبْزُ والزَّيْتُ . قال : أما تَأجمه[1] ؟ قال : إذا أَجَمْتُه تركتُه حتى أشتهِيَه ، ثم خرج وقد أصاب في جسمه بَرَصاً . فقال لَقِعَنِي[2] الأحْوَلُ بعينه ، فما خَرَجَ هِشَام من المدينة حتى صلّى عليه .

وقال عبد الأعلى القاص[3] : الفقير مَرَقَتُه سِلْقَة ، وغِذاؤه[4] عُلْقَة[5] ، وخُبْزَتُه فِلْقَة[5] ، وَسَمَكَتُه شِلْقَة ، أي كثيرة الشَّوْكِ[6] .

قال رجاء بن سَلَمة : الأ كلُ في السُّوقِ حَماقة .

قيل لذُؤَيْب بن عَمْرو : إنك مُفْلِسٌ لا تَقْدر على قُرْصٍ ولا جُمْعٍ[7]

(١) أجم الطعام : مله .

(٢) لقعه بعينه ، أي أصابه بها .

(٣) في ب « القاضي » بالضاد المعجمة ؛ وفي (ا) العاص بالعين المهملة .

(٤) في (ا) « ورداؤه » ، وفي ب « وعداؤه » وهو تصحيف .

(٥) العلقة : ما يتبلغ به من الطعام . والفلقة : القطعة ، كالفلذة .

(٦) في كتب اللغة أن الشلقة شيء على خلقة السمك صغير له رجلان عند ذنبه كهيئة الضفدع ، ويكون في أنهار البصرة ، ولعله المعروف عندنا بأبي جلنبو .

(٧) الجمع بضم الجيم وسكون الميم : ما يملأ جمع الكف ، أي قبضته من الطعام ونحوه .

وقال مُهَلهل :

إنا لنَضْرِبُ بالسيوفِ رُءوسَهُمْ ضَرْبَ القُدَارِ نَقِيعَةَ القُدَّامِ

القُدَار : الجزّار والقُدَار : المَلِكُ أيضاً . والقُدَّام : رؤساء الجيوش ، والواحد قادم .

وقال مَعْن[1] بن أوس يصف هَدِيرَ قِدْرٍ :

إذا التَطَمَتْ[2] أمواجُها فكأنها عوائذُ دُهْمٌ في المَحَلَّةِ قُيَّلُ

إذا ما أنتحاها المُرْمِلون[3] رأيتَها لِوَشْكِ قِرَاها وهي بالجَزْلِ تُشْعَلُ

سمعتَ لها لَغْطاً[4] إذا ما تَغَطْمَطَتْ كهَدْرِ الجِمَالِ رُزَّماً حين تَجْفُلُ

وقال آخر :

إذا كان فَصْدُ العِرْقِ والعِرْقُ ناضِبٌ وكَشْطُ سَنَامِ الحَيِّ عَيْشاً[5] وَمَغْنَما

(١) كذا في (ب) ، والذي في (ا) « بكر » . وقد ورد هذا الشعر في ديوان معن بن أوس المطبوع في ليبزج سنة ١٩٠٣ من قصيدة يمدح بها سعيد بن العاص ؛ وأولها :

إليك سعيد الخير جابت مطيتي فروج الفيافي وهي عوجاء ميهل

(٢) يريد بالتطام الأمواج هنا اضطراب ما في القدر عند غليانها . ويريد بقوله « عوائذ دهم » خيلا سوداً حديثات النتاج . شبه القدور بتلك الخيل التي معها أولادها . وقيل : من القائلة . ويروى « عواتب » مكان قوله « عوائذ » ، وهي التي تمشي على ثلاث قوائم وعقرت رابعتها . شبه القدر بها ، لأنها توضع على أثافٍ ثلاث .

(٣) المرملون : الذين نفدت أزوادهم . والجزل : الحطب الغليظ . والذي في كلتا النسختين : « إذا ما امتطاها الموقدون » ؛ وهو تحريف .

(٤) اللغط (بفتح أوله وتسكين ثانيه) : اللغط بفتحهما معا ، وهو نشيش القدر . وفي كلتا النسختين : « لفظا » ؛ وهو تحريف . والتصويب والتفسير عن ديوان معن بن أوس المطبوع في ليبزج . وتغطمطت ، أي صوتت في غليانها . والرزّم من الإبل : التي تخرج أصواتها من حلوقها لا تفتح بها أفواهها ، كما ورد ذلك في التفسير المكتوب على هذا البيت في شعر معن بن أوس . وفي كلتا النسختين : « تحفل » بالحاء المهملة مكان « تجفل » بالجيم ؛ وهو تصحيف .

(٥) في رواية : « زادا ومطعما » . وكانت العرب في الجدب تشق أسنمة الإبل وهي حية وتأخذ ما فيها من الشحم وتأكله .

ولا حُفَالة(١) ، وَبَيْتِكَ عامرٌ(٢) بالفأر .

قال على بن عيسى : الطلاق الثّلاث البتّة إن كان يمنعُهم(٣) مِنَ التّحوّل عنه إلا أنهم يسرِقونَ أطعمة الناس يأكلونها فى بيته لِأَمْنِهِمْ فيــه ، لأنه لا هِرّ هناكَ ولا أحدَ يأخذ شيئاً ولا يُؤْذَوْن ، وإنّ لهم لَمِستَقاةً مملوءةً ماء كلما جفَّتْ سُكِبَ لهم فيها ماء .

جعَلَ الخبَرعن الفأر على التملح ، كالخبرِ عن قوم عُقلاء .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أَكرِمُوا الخُبْزَ فإنّ اللهَ أكْرَمَه وسخّرَ لهُ بَرَكات السّمٰوات والأرض » .

وقال آخر :

كأنّ صوتَ سَحْبِهَا(٤) الْمُمْتاحِ سُعَالُ شَيْخٍ مِنْ بَنِى الجُلاحِ
يقولُ من بعد السُّعَال آحِ

قال الأصمعىّ : الرَّجيعُ : الشِّوَاء يُسَخَّنُ ثانيةً . والنَّقِيعَةُ ما يُحْرِزُه رئيس القوم منَ الغنيمة قبل أن تُقسَم والجمع نَقائِع . وقال : أنشدنى عيسى بن عمر لمعاوية بن صعصعة :

مثلُ الذُّرَى لُحِبتْ عَرَائـكُها(٥) لَحْبَ الشِّفارِ(٦) نَقَائعَ النَّهْبِ

(١) الحفالة : الحثالة ، أو عكر الدهن ؛ أو مارق من رغوة اللبن ؛ كل من هــذه المعانى الثلاثة تصح إرادته هنا . وفى (ا) « ولا صقالة » ؛ وهو تحريف .

(٢) سيأتى ما يفيد تعليل كون بيته عامرا بالفأر مع خلوه من الطعام .

(٣) « يمنعهم » ، الضمير يعود على الفئرة .

(٤) سحبها ، أى سحب البكرة التى يستقى بها من البئر . وفى (ب) « شحنها » ، وهو تصحيف . « والممتاح » من امتاح الماء إذا أخرجه من البئر .

(٥) لحبت عرائكها ، أى أهزلت أسنمتها ، جمع عريكة .

(٦) لحب الشفار الخ : اللحب فى هذا الشطر بمعنى القطع ، أى كما تقطع الشفار ، أى « السكاكين » — لحم النياق العظيمة ، أو لعله السفار بالسين المهملة مكان الشين ، أى كما يهزل السفر تلك النياق بمشقته فيذهب بما فيهـا من لحم وشحم .

وكان عَتِيقُ(١) القِدِّ خيرَ شِوائِهم وصارَ غَبُــوقُ الخُودِ ماءً مُحَمَّما
عَقَرْتُ لهم دُهْمًا مَقاحِيدَ(٢) جِلَّةً وعادت بَقَــايا البَرْكِ نَهْبًا مُقَسَّما

قال(٣) : وإذا كان القَحْط قصدوا الإبل وعالجوا ذلك الدَّمَ بشيء من الملاج لما كما يَصنع الترك ، فإنها تجعله فى المُصْرَان ، ثم تشويه أو تطبخه ، فيؤكل كما تؤكل النَّقانِقُ(٤) وما أَشْبَه ذلك .

وأما قوله : « والعِرْق ناضِبٌ » فإنما يعنى قلّةَ الدّم لهزال البعير ، وكذلك جميع الحيوان ، وأكثر ما يكون دماً إذا كان بينَ المَهْزُول والسَّمين .

وقالت أمّ هِشَام السَّلُولِيّة : ما ذَكَرَ الناسُ مذكوراً خيراً من الإبل وأَجْدَى(٥) على أَحَدٍ بخير؛ هكذا رُوِى .

وقال الأندلسىّ : إنْ حَمَلتْ أثقلَتْ ، وإنْ مَشتْ أبعدَتْ ، وإنْ حَلَبتْ أَرْوَتْ ، وإنْ نُحِرتْ أَشبعتْ .

قال أبو الحسن الهَيْثَم ، عن عبد العزيز بن يسار قال : قدمتُ بأُجَيْرَى(٦) بخمس سَفائِفَ(٧) دقيق ، وذاك فى زمن مصعب وهو مُعسكِرٌ بها فلَقِيَنى

(١) عتيق القد ، أى القديم من الجلد ، وكانت العرب تشتويه وتأكله إذا أجدبت . ويعبر بالشطر الثانى إلى قلة اللبن حتى إن الخود (وهن الشوابّ الحسان الناعمات) لا يجدن اللبن يغتبقن به أى يشربنه فى المساء ، فهن يشربن الماء الحارّ المسخن . يقال : حمّم الماء إذا سخنه . وفى الأصل « الجود » بالجيم مكان « الخود » بالخاء ؛ وهو تصحيف .

(٢) المقاحيد من النياق : العظيمة الأسنمة . والجلة : العظيمة منها . والبرك : الإبل الباركة .

(٣) قال ، أى من روى عنه المؤلف ؛ ولعله الأصمعى ؛ إذ هو أقرب مذكور .

(٤) لم نجد هذا النوع من الطعام فيما راجعناه من الكتب . (٥) فى (أ) التى ورد فيها هذا الكلام وحدها دون (ب) : واجاءه ؛ وهو تحريف ؛ ولعلّ صوابه ما أثبتنا .

(٦) بأُجَمَيْرَى : موضع دون تكريت من أرض الموصل كان يعسكر فيه مصعب ابن الزبير . والذى فى (أ) الوارد فيها هذه القصة وحدها دون (ب) بأحز وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن كتب التاريخ ومعجم البلدان لياقوت . (٧) السفائف : جمع سفيفة ؛ وهى النسيجة من الخوص نحو الزنبيل . وفى الأصل « سقائق » ؛ وهو تصحيف .

عِكْرِمَةُ بنُ رِبْعِىّ الشَّيبانىُّ فقال : بكم أخذْتَها ؟ قلتُ بتسعين ألفاً . قال : فإنى أُعْطيكَ مائةً وخمسين ألفاً على أن تؤخِّرَنى . فدفعتُهنَّ إليه ، وما فى المُعَسكر يومئذ دقيق . قال : فجاء بنو تَيْم الله فأخذوا ذلك الدقيق ، فجعل كلُّ قوم يَعْجِنون على حِيالِهم ، ثم جاءوا إلى رَهْوَةٍ[١] من الأرض فحفروها ، ثم جعلوا فيها الحشيش ، ثم طرحوا ذلك العجينَ فيها ، ثم أقبلوا فأخذوا فرَساً وَدِيقاً[٢] . . .[٣] فخَلَّوْا عنه ، ثم أقبلوا وهو[٤] يَتْبَعهم حتى انتهوا إلى الحَفيرة ، فدفعوا الفرَسَ الوَدِيق فيها ، وتبِعَها الفرس ، وتَنَادَى الفريقان : إن فرَس حَوْشب وقع فى حَفيرة عِكْرِمَةَ فما أخرجوهُ إلا بالعَمَد . قال : فغَلَبه عِكرمة .

قال شاعر :

لا أشْتُمُ الضَّيفَ إلا أن أقول له : أباتَكَ[٥] اللهُ فى أبيـــاتِ عَمَّارِ
أباتَكَ[٥] اللهُ فى أبياتِ مُعْتَبِز[٦] عن المكارم لا عَفٍّ ولا قارى
جَلْدِ النَّدَى زاهدٍ فى كلّ مَكْرُمَةٍ كأنَّما[٧] ضَـــيْفُه فى مَلَّةِ النّارِ

---

(١) الرهوة : المكان المنخفض من الأرض .

(٢) الوديق : من الوداق بكسر الواو ، وهو شهوة الفحل .

(٣) يظهر لنا أن موضع هذه النقط كلام ساقط من الأصل يفيد أنهم أقبلوا إلى فرس آخر ذكر لرجل منهم يسمّى حوشبا ، فخلوا عنه الخ ما هنا ، وذلك أخذا من قوله فيا يأتى بعد : فدفعوا الفرس الوديق فيها وتبعها الفرس الخ القصّة .

(٤) وهو ، أى فرس آخر ذكر ، ولم يذكر فى الكلام ؛ فلعل فيه نقصا كما نبهنا على ذلك فى الحاشية التى قبل هذه .

(٥) فى (١) التى ورد فيها هذا الشعر وحدها دون (ب) : « أثابك » فى كلا الموضعين وسياق الشعر يقتضى ما أثبتنا نقلا عن كتب اللغة .

(٦) فى (١) التى ورد فيها هذا الشعر وحدها : « معتمر » ، ولم نتبين له معنى يناسب السياق . والصواب ما أثبتنا . والمعتبز : المتنحّى بعيداً .

(٧) فى (١) التى ورد فيها هذا الشعر وحدها : « كأنهم ضيفه » ؛ وهو تحريف . وسياق الشعر يقتضى ما أثبتنا . وملة النار : موضعها .

وقال آخر :

وهو إذا قيل له : وَيْهًا كُلْ   فإنّه مُوَاشِكٌ مُسْتَعجِلْ

وهو إذا قيل له : وَيْهًا[1] فُلْ   فإنّهُ أحْجِ به أن يَنْكُلْ

[قيل لصُوفِيّ : ما حدُّ الشِّبَع ؟ قال : لا حدَّ له ، ولو أرادَ اللهُ أن يؤكل بحَدٍّ لبَيَّنَ كما بيَّنَ جميعَ الحدود . وكيف يكون للأكل حدّ ، والأَكَلَةُ مختلِفُو الطِّباع والمزاج والعارض والعادة ، وحكمة الله ظاهرة فى إخفاء حدِّ الشِّبَع حتى يأكل مَن شاء على ما شاء كما شاء] .

وقيل لصوفيّ : ما حدُّ الشِّبَع ؟ فقال : ما نشَّطَ على أداء الفرائض ، وثبَّطَ عن إقامة النّوافِل .

وقيل لمتكلّم : ما حدُّ الشِّبَع ؟ فقال : حدُّه أن يجلِبَ النوْم ، ويُضْجِرَ القَوْم ، ويبعثَ عَلَى اللَّوْم .

وقيل لِطُفَيْلِيّ : ما حدُّ الشِّبَع ؟ قال : أنْ يُؤْكَلَ على أنه آخِرُ الزّاد ، ويُؤْتَى عَلَى الجِلِّ وَالدِّقِّ .

وقيل لأعرابيّ : ما حدُّ الشِّبَع ؟ قال : أمّا عندكم يا حاضرَة فلا أدْرِى ؛ وأما عندنا فى الباديةِ فما وجَدَت العيْن ، وامتدَّت إليه اليَد ، ودارَ عليه الضِّرْس وأساغَهُ الحلق ، وانتفَخَ به البطن ، واستدارت عليه الحوَايا ، واستغاثَت منه المَعِدَة ، وتقوّست منه الأضلاع ، والْتوَتْ عليه المصارين ، وخِيف منه الموت .

وقيل لطبيب : ما حدُّ الشِّبَع ؟ قال : ما عدَّل الطبيعة ، وحفِظَ المِزاج وأبْقَى شَهوَةً لما بَعْد .

(١) « ويها فل » بالفاء ، أى إذا نودى باسمه لعظائم الأمور فقيل : يا فلان ، نكل عن النداء وتنكّب . وفى الأصل : « قل » بالقاف ... ويتكل . وهو تصحيف فى كلتا الكلمتين . والتصويب عن اللسان . وويها : كلمة حض واستحثاث .

وقيل لقصّار : ما حدُّ الشِّبَع ؟ قال : أنْ تَثِبَ إلى الجَفْنَةِ كأنَّكَ سِرْحان وتأكل وأنتَ غَضْبان ، وتَمْضَغَ كأنك شيطان ، وتَبلَعَ كأنك هَيْمان ، وتَدَعَ وأنت سَكران ، وتَسْتَلقِىَ كأنك أوَان[1] .

وقيل لحمّال : ما حدُّ الشِّبَع ؟ قال : أن تأكل ما رأيتَ بعَشْرِ يدَيْكَ غيرَ عائفٍ ولا مُتَقَزِّزٍ ، ولا كارهٍ ولا متعزِّز .

وقيل لمَلّاح : ما حدُّ الشِّبَع[2] ؟ قال : حدُّ السُّكر . قيل[3] : فما حَدُّ السُّكْر ؟ قال : ألّا تَعْرِفَ السّماء من الأرض ، ولا الطُّولَ من العَرْض ، ولا النافلةَ مِنَ الفَرْض ، مِنْ شِدَّةِ النَّهْسِ والكَسْرِ والقَطْعِ والقَرْض . قيل له فإنَّ السكر محرَّم ، فلِمَ جعلتَ الشِّبَعَ مِثْلَه ؟ قال : صدَقْتُم ، هما سُكْران : أحدُ السُّكْرَيْن موصوفٌ بالعَيْب والخَسار ، والآخَرُ معروفٌ بالسَّكينة والوَقار . قيل [له] : أما تخاف الهَيْضَة ؟ قال . إنما تُصيبُ الهَيْضَةُ مَن لا يسمِّى اللهَ عند أكْلِه ، ولا يشْكُرُه على النعمة فيه . فأما من ذَكَرَ اللهَ وشَكَرَه فإنه يَهضِم ويستَمْرِئ ويَقْرَمُ إلى الزِّيادة .

وقيل لبخيل : ما حدُّ الشِّبَع ؟ قال : الشِّبَعُ حَرامٌ كلُّه ، وإنّما أحلَّ اللهُ من الأكلِ ما نَفَى الخوَى ، وسكّنَ الصُّدَاع ، وأمسكَ الرَّمَق ، وحال بين الإنسان وبين المَرَح ، وهل هَلَكَ الناسُ فى الدِّين والدنيا إلا بالشِّبَع والتَّضَلُّع والبِطْنَة والأحتشاء ، والله لو كان للناس إمامٌ لَوَكَّلَ بكلّ عَشَرةٍ منهم مَن يحفَظ عليهم عادةَ الصحة ، وحالةَ العدالة ، حتى يزول التعدِّى ، ويفشُوَ الخير .

---

(١) الأوان : العدل (بكسر العين) ، كالأون (بسكون الواو) .
(٢) فى (ب) : « الأكل » مكان « الشبع » ، والمعنى يستقيم عليه أيضا .
(٣) كذا فى (ب) وهو أنسب . والذى فى (ا) : « قال » .

وقيل لجُنْدِىّ : ما حدُّ الشِّبَع ؟ قال : ما شدَّ العضُدَ ، وأَحْمَى الظَّهر ، وأدَرَّ الوَرِيد ، وزادَ فى الشَّجاعة .

وقيل لزاهد : ما حدُّ الشِّبَع ؟ قال : ما لم يَحُلْ بينَك و بينَ صوم النهار وقيامِ اللَّيل . وإذا شكا إليك جائعٌ عرَفْتَ صِدقَه لإحساسك به .

وقيل لمَدَنِىّ : ما حدُّ الشِّبَع ؟ فقال : لا عهْدَ لِى به ، فكيف أصِفُ ما لا أعرف ؟

وقيل ليَمَنِىّ : ما حدُّ الشِّبَع ؟ قال : أن يُخْشَى حتى يُخْشَى .

وقيل لتُركِىّ : ما حَدُّ الشِّبَع ؟ قال : أن تأكلَ حتى تَدْنُوَ من الموت .

وقيل لِسِمُّويه(1) القاصّ : مَنْ أفضلُ الشهَدَاء ؟ قال : من مات بالتُّخَمَة ، ودُفِنَ عَلَى الهَيْضَة .

قيل لسَمرقَنْدِىّ : ما حَدُّ الشِّبَع ؟ قال : إذا جَحَظَتْ عَيْناك ، وبَكِمَ لِسانُك ، وثَقُلَتْ حَرَكتُك ، وَارْجَحَنَّ بَدَنُك ، وزالَ عَقلُك ، فأنت فى أوائل الشِّبَع . قيل له : إذا كان هذا أوَّلُه ، فما آخِرُه ؟ قال : أن تَنْشَقَّ نِصْفَيْنِ .

قيل لهندىّ : ما حَدُّ الشِّبَع ؟ قال : المسئلة عن هذا كالمُحال ، لأنّ الشِّبَع من الأرُزّ النقِىّ الأبيض ، الكبارِ الحَبِّ ، المطبوخِ باللَّبن الحليب ، المَغْرُوف على الجامِ البِلَّوْرِ ، المَدُوفِ(2) بالسُّكَّر الفائق ، مخالفٌ للشِّبَع من السَّمك المَمْلُوحِ وخُبْزِ الذُّرَةِ ، وعلى هذا يختلف الأمرُ فى الشِّبَع . فقيل له : فَدَعْ

(1) كذا ورد هذا الاسم فى الأصول ؛ ولم نقف عليه فيما راجعناه من الكتب .
(2) المدوف : المخلوط . وفى كلتا النسختين : « المدفون » ؛ وهو تحريف .

هذا ، إلى مَتَى يَنْبَغى أن يأ كلَ الإنسان ؟ قال : إلى أن يقع له أنّه إن أراد لُقمة زَهَقَتْ نَفْسُه إلى النّار .

قيل لمُكارٍ : ما حَدُّ الشِّبَع ؟ قال : واللهِ ما أَدْرِى ، ولكنْ أُحِبُّ أنْ آ كلَ ما مَشَى حِمارى مِنَ المنْزِلِ إلى المنْزِل .

قيل لجمّال : ما حَدُّ الشِّبَع ؟ قال : أنا أُوَاصِلُ الأ كلَ فما أعرفُ الحدّ ، ولو كنتُ أنتهى لوَصَفْتُ الحال فيه ، أعنى أنى ساعةَ ألتّ[1] الدقيق ، [وساعة أَمَلّ المَلّة ، وساعةَ أَثْرُد ، وساعةَ آ كلُ] وساعةَ أَشْرَبُ لَبَنَ اللِّقاح ؛ فليس لى فَرَاغ فأدرى أنى بَلَغْتُ من الشِّبَع ، إلا أننى أعْلَمَ فى الجُمْلة أنّ الجُوعَ عَذَابٌ وأنّ الأ كلَ رَحْمَة ، وأنّ الرَّحمةَ كلّما كانت أ كثرَ ، كان العَبدُ إلى اللهِ أقرب ، واللهُ عنه[2] أرْضَى .

قال الوزير : لمّا بختُ هذا الموضع من الجُزء — وكنتُ أقرأ عليه — : ما أحسنَ ما اجتمعَ مِن هذه الأحاديث ! هل بقِىَ منها شىء ؟ قلت : بَقِىَ منها جزءٌ آخر[3] . قال : دَعْهُ لِلَيلةٍ أخرى وهاتِ مُلْحَةَ الوَداع . قلت : قيل لصُوفِىٍّ فى جامع المدينة : ما تَشْتَهى ؟ قال : مائدةَ رَوْحاء[4] عليها جَفْنَةٌ رَحّاء[4] ، فيها ثَرِيدَةٌ صَفْراء ، وقِدْرٌ حمراء بيضاء .

قال[5] : أبَنْتَ[6] الآن [ألّا] تودِّع [إلّا] بِمِثْلِ ما تقدّم ؟ وانصرفتُ .

---

(١) فى (ب) : « أعجن » .

(٢) فى (ب) : « عن العبد » .

(٣) فى (ب) : « واحد » مكان قوله : « آخر » .

(٤) يقال : جفنة روحاء ، إذا كانت واسعة عريضة ؛ والرحّاء كذلك .

(٥) قال ، أى الوزير .

(٦) وردت هذه الكلمة فى كلتا النسختين مهملة الحروف تتعذّر قراءتها ، والسياق يقتضى إثباتها على هذا الوجه .

الليلة الثانية والثلاثون

(١) ثم حضرتُ فقرأتُ ما بَقِيَ من هذا الفنّ .

قال رجلٌ مِن فزارة[(١)] :

تَنْبَحُ أحيانًا وأحيانًا تَهِرّْ ... وتَتَمَطَّى[(٢)] ساعةً وتَقْذَحِرّْ

تَعْدُو على الضَّيْفِ[(٣)] بعودٍ مُنْكَسِرْ ... يَسْقُطُ عنها ثوبُها وتأْتَزِرْ

لو نُحِرَتْ فى بيتِها عَشْرُ جُزُرْ ... لأصبحَتْ مِنْ لَحْمِهِنَّ تَعْتَذِرْ

بحَلِفٍ سَحٍّ[(٤)] ودَمْعٍ مُنْهَمِرْ ... يَفِرُّ مَنْ قَاتَلَهَا[(٥)] ولا تَفِرّْ

المُقْذَحِرّ : المتهيِّئ للسِّباب .

وقال أبو دُلامة الأَسَدِىّ[(٦)] :

---

(١) ورد بعض هذا الرجز فى المحاسن والأضداد ومجموعة المعانى ولسان العرب . وبعض ما ورد فى هذه الكتب لم يرد هنا ، كما أن بعض ما ورد هنا لم يرد هناك ، وهذا ما ورد فى اللسان ، وهو ما لم يذكر هنا :

أم حوار ضنؤها غير أمر ... صهصلق الصوت بعينيها الصبر

سائلة أصداغها لا تختمر الخ .

(٢) فى كلتا النسختين : « وتمطر » ؛ وهو تحريف ، والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٣) فى اللسان : « على الذئب » .

(٤) سح ، أى كثير متتابع ، كما فى كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت المحفوظة منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٤١ لغة . وفى مجموعة المعانى وكتاب المحاسن والأضداد : « سبيح » ، وهو يستقيم على الإضافة لا على الوصف . والذى فى الأصل : « سبع » ؛ وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : « تفر » بالتاء ... « ولا تفر » ؛ وهو تصحيف فى كلتا الكلمتين .

(٦) فى (١) الوارد فيها هذا الكلام وحدها : « الأسامى » ؛ ولم نجد هذه النسبة لأبى دلامة فيما راجعناه من الكتب . والذى وجدناه أن أبا دلامة كان مولى لبنى أسد ، فلعل الصواب ما أثبتنا .

قد يُشْبِـع الضَّيفَ الذى لا يَشْبَعُ مِنَ الهَبِيدِ وَالجِرَادُ تَسَعُ[١]
ثم يقول أرْضُوا بهذا أَوْ دَعُوا

وقال آخر :

حتى إذا أضحَى تَدَرَّى[٢] واكْتحَلْ لجارَتَيْهِ ثم وَلَّى فَنَثَـــــلْ
ذَرْقَ الأنُوقَينِ[٣] القَرَنْبَى وَالجُعَلْ

وقال آخر :

[إذا[٤] أتَوْه بطعامٍ وَأَكَلْ] بات يُعَشِّى وَحْـدَهُ ألْفَىْ جُعَلْ

وقال أبو النَّجْم :

[تُدْنى من الجَدْوَلِ[٥] مِثْلَ الجدْوَلِ] أَجْوَفَ فى غَلْصَـمَةٍ[٦] كالمِرْجَلِ

---

(١) الهبيد : حب الحنظل . والجراد : ذكور الضباب ، الواحد حردون بالدال المهملة أو الذال المعجمة . وتسع ، أى تتسع لأكله مهما كثر .

(٢) كذا ورد هذا الشعر فى كتاب الحيوان للجاحظ ، وتدرى ، أى تمشط . والمدرى والمدراة : المشط . والذى فى (ا) الوارد فيها هذا الشعر وحدها : « لجاذبته » مكان قوله : « لجارتيـه » ؛ وهو تحريف . ونثل ، أى راث .

(٣) الأنوق : لفظ يطلق على كل ما يأكل العذرة من الرخم وغيرها ، قاله الجاحظ فى كتاب الحيوان وذكر هذا الشعر شاهدا على ذلك . والقرنبى : دويبة كالخنفساء وأعظم منها بيسير طويلة القوائم . وقد فسّر اللغويون الأنوق أيضا بأنه الطير الذى يبيض فى الهواء ولا يستقيم معناه هنا .

(٤) هذا الشطر ساقط من الأصل ، وقد أثبتناه عن الحيوان للجاحظ لتمام المعنى به . ويشير بقوله : « بات يعشى » الخ إلى أنه كثير البراز ، فيقول . إنه إذا أكل تعشى مما يخرج منه ألفا جعل ، لأن الجعل تقتات بالبراز . قاله الجاحظ .

(٥) هذا الشطر ساقط من الأصل ؛ ولا يتم المعنى بدونه . ويشير إلى سعة فمها ، فيشبهه بالجدول الذى يشرب منه .

(٦) الغلصمة : متصل الحلقوم بالحلق .. وقيل هى اللحم الذى بين الرأس والعنق .

تَسْمَعُ للماءِ كَصَوْتِ المِسْحَلِ[١] بين وَرِيدَيْها[٢] وبين الجَحْفَلِ
يُلقيه[٣] منْ طَرْقٍ أَتَتْها منْ عَلِ قَذْفُ لها جَوْفٍ وَشِدْقٍ أَهْدَلِ[٤]
كأنَّ صَوْتَ جَرْعِها المُسْـتَعْجِلِ جَنْـدَلَةٌ دَهْدَهْتَها[٥] فى جَنْدَلِ

وقال آخر :

يقول للطّاهى المُطَرِّى[٦] فى العَمَلْ ضَهِّبْ[٧] لنا إنّ الشِّواء لا يُمَلّ
بالشَّحْمِ إنّا قد أَجِمْناه[٨] بِخَلْ عَجِّلْ لنا مِنْ ذَا وَأَلْحِقْ بالبَدَلْ

وأنشد ابن الأعرابىّ :

أَعْدَدْتُ للضَّيْفِ وَللرَّفيقِ وَالجارِ وَالصَّاحِبِ وَالصَّدِيقِ
وللعِيالِ الدَّرْدَقِ[٩] الأَصُوقِ حمراءَ مِنْ مَعْزِ أبى مَرْزُوقِ
تَلْحَسُ خَدَّ الحالِبِ الرَّفيقِ بلَيِّنِ المَسِّ قليـلِ الرِّيقِ

(١) الضمير فى « تسمع » للمخاطب . والمسحل : المبرد .

(٢) كذا فى أرجوزة أبى النجم المنشـورة فى مجلة المجمع العلمى العربى . والذى فى الأصل : « مديديها » ؛ وهو تحريف . ويريد بالجحفل : شفتها .

(٣) فى الأصل : « يكفيه » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن أرجوزة أبى النجم المنشورة فى مجلة المجمع العلمى العربى سنة ١٩٢٨ م . ويلقيه ، أى يلقى الماء ، وفاعله قوله بعد : « قذف » .

(٤) الأهدل : المسترخى .

(٥) دهدهتها ، أى دحرجتها .

(٦) المطرى : الطاهى الذى يخلط الطعام بالأفاويه . وطرّى الطعام : إذا خلطه بالتوابل .

(٧) ضهب ، أى اشو شيئا غير كامل النضج ، يريد الاستعجال . والتضهيب أيضا : شىّ اللحم على الحجارة المحماة .

(٨) أجمناه ، أى مللناه .

(٩) الدردق : الصبيان الصغار . والذى فى الأصل : « الزردق » ؛ وهو تحريف .

كأنَّ صَوْتَ شُخْبِها الفَتِيقِ فَحِيحُ[١] ضَبٍّ حَرِبٍ حَنِيقِ
في جُحُرٍ ضاقَ أشَدَّ الضِّيقِ

وأنشد أيضاً:

هل لكَ في مِقْرَاةِ قَيْلٍ نِيٍّ[٢] وشَكْوَةٍ باردةِ النَّسِيِّ[٣]
تُخْرِجُ[٤] لَحْمَ الرَّجُلِ الضَّوِيِّ حتى تَرَاهُ ناهِدَ الثُّدِيِّ

وأنشد ابن حبيب:

نِعْمَ لَقُوحُ[٥] الصِّبْيَةِ الأصاغِرِ شَرُوبُهُمْ مِنْ حَلَبٍ وحازِرٍ[٦]
حتى يَرُوحوا سُقَّطَ المآزِرِ وُضْعَ الفِقاحِ[٧] نُشَّزَ الخَواصِرِ

وأنشد الآمديّ:

كأنَّ في فِيه حِرَاباً شُرَّعَا زُرْقاً تَقُضُّ[٨] البَدَنَ المُدَرَّعَا
لو عَضَّ رُكْناً وَصَفاً تَصَدَّعَا

(١) في (١) التي ورد فيها هذا الشعر وحدها: « بحنح »؛ وهو تحريف، صوابه ما أثبتنا نقلا عن كتب اللغة. والفحيح: صوت الضب.

(٢) المقراة: الإناء الذي يُقرَى فيه. والقيل: اللبن الذي يشرب نصف النهار وقت القائلة. وقد ورد هذا الشطر في الأصل هكذا: « هل لك في المعرى بقبل بى »؛ ولا يخفى ما فيه من تصحيف.

(٣) الشكوة: وعاء من أدم يتخذ للبن والماء. والنسي: اللبن الحليب يصب عليه الماء.

(٤) « تخرج لحم الرجل الضوى »، أي تسمن المهزول الضاوي.

(٥) اللقوح: الناقة الحلوب.

(٦) الحازر: اللبن الحامض.

(٧) الوضع: جمع أوضع وهو قليل لحم الوركين والإليتين، والأوضع والأرسح واحد.

(٨) تقض: تكسر.

وقال محمد بن بشير :

لَقَلَّ عاراً(١) إذا ضَيْفٌ تَضَيَّفَنِى ما كانَ عِنْدِى إذا أَعْطَيْتُ مَجْهُودِى
فَضْلُ المُقِلِّ إذا أَعْطَاه مُصطَبِرًا ومُكْثِرٍ فى الغِنَى سِيَّانِ فى الجُودِ
لا يَعْدَمُ السائلون الخيرَ أَفْعَلُه إمَّا نَوَالِى وإمَّا حُسْنَ مَرْدُودِى

قال الأعرابى : نِعْم الغَداء السَّوِيق ، إنْ أكلتَه عَلَى الجُوعِ عَصَمَ ، وإنْ أكلته عَلَى الشِّبَعِ هَضَمَ .

وقال العوّامى(٢) — وكان زَوَّارًا لإخوانِه فى منازلهم — : العُبوسُ بُوس ، والبِشْرُ بُشْرَى ، والحاجَةُ تَفْتُقُ الحِيلة ، والحِيلةُ تَشْحَذُ الطَّبيعة .

ورأيت الحنبلونى(٣) يُنشد [ابنَ آدم — وكان مُوسِرًا بخيلا] — :

وما لأمرىء طُولُ الخُلودِ وإنّما يُخَلِّدُه حُسْنُ الثَّناءِ فيَخْلُدُ
فلا تَدَّخِرْ زاداً فتُصْبِحَ مُلْجَأً إليه وكُلُّ اليومَ يُخْلِفُه الغَدُ

وحَكَى لنا ابن أسادة قال : كان عندنا — يَعْنِى بأصْبِهانَ — رَجُلٌ أعمَى يَطُوفُ ويَسْأَل ، فأعطاه مرّةً إنسانٌ رَغيفا ، فدَعا له وقال : أحسنَ اللهُ إليك ، وبارَكَ عليك ، وجزاك خيراً ، ورَدَّ غُرْبتَك . فقال له الرَّجُل : ولِمَ ذَكَرْتَ الغُرْبةَ [فى دُعائك ، وما عِلْمُكَ بالغُرْبة ؟] فقال : الآن لى ها هُنا عشرونَ سَنَةً ما ناوَلَنى أحدٌ رَغيفاً صحيحاً .

---

(١) كذا فى ديوان الحماسة . والذى فى (ا) الوارد فيها هذا الشعر وحدها : « لقد غلوا » وهو تحريف لا يستقيم به المعنى ولا الوزن .

(٢) فى (ا) العراق ، ولم نقف على العراق هذا الموصوف بما ذكر . والذى أثبتناه عن (ب) ؛ وإن كنّا لم نجد هذه النسبة فيما راجعناه من كتب الأنساب ومعجمات الأعلام ، إلا أنه ورد ذكره كثيرا فيما سيأتى .

(٣) كذا فى (ب) . والذى فى (ا) : « الحيلوهى » ؛ ولم نجد هاتين النسبتين فيما راجعناه من كتب الأنساب ومعجمات الأعلام التى بين أيدينا .

وقال آخر :

يُرَى جارُهمْ فيهمْ نحيفاً وضيفُهمْ ... يجوعُ وقد باتُوا مِلاءَ المَذَاخِرِ(١)

وقال الكَرَوّسِيُّ :

ولا يَسْتَوِي الأثْنانِ(٢) للضَّيْفِ: آنِسٌ ... كريمٌ ، وزاوٍ بين عَيْنَيْه قاطِبُ

وأنشد :

طَعامُهُمْ فَوْضى فَضًى فى رِحالِهِمْ ... ولا يُحْسِنُونَ السِّرَّ إلاَّ تَنَادِيا(٣)

وأنشد آخر :

يُمانُ ولا يَمونُ وكانَ شيخاً ... شَديدَ القَمِّ مِلْقاماً بطينا(٤)

العرب تقول : إذا شَبِعَتْ الدَّقيقةُ(٥) لَحَسَتِ الجَليلةَ .

قال ابنُ سَلاَّم : كان يُخْبَزُ فى مَطْبَخِ سُليمانَ — عليه السلامُ — فى كلِّ يوم سِتَّمائة كُرٍّ(٦) حِنْطة ، ويُذْبَحُ له فى كلِّ غَداةٍ ستَّةُ آلافِ ثَورٍ وعشرون شاةً ، وكان يُطْعِمُ الناسَ ويُجلِسُ عَلَى مائدتِهِ بجانبِه(٧) اليَتامى والمساكينَ وأبناء

(١) المذاخر : الأجواف .

(٢) فى الأصل : « الإناء » مكان قوله : « الاثنان » ؛ وهو تحريف .

(٣) فوضى فضى ، أى أنهم مشتركون فى طعامهم لا يختص به واحد دون رفاقه . ويريد بالشطر الثانى أنهم ليس لأحدهم سرّ دون أصحابه . وفى الأصل موس فضى مكان « فوضى فضى » ؛ وهو تحريف ؛ والتصويب عن اللسان .

(٤) الملقام : عظيم اللقم . والبطين : عظيم البطن .

(٥) يريدون بالدقيقة : الغنم . وبالجليلة : الإبل . وهـذا مثل يقال إذا قل العشب . وذلك لأن الشاة إذا قدرت على أكل العشب القصير القليل وشبعت منه فإن الناقة لا تقدر على أكله لقصره وقلته فتلحسه . يضرب للفقير يخدم الغنىّ . وعبارة الأصل : « إذا شعت لحست الحليلة » ؛ وفيه نقص وتحريف ظاهران ؛ والتصويب عن البيان والتبيين وغيره .

(٦) الكرّ : ستون قفيزا ، وهو ستة أوقار حمار ، وقيل : أربعون أردبا .

(٧) فى الأصل « بحاجته » ؛ وهو تحريف .

السَّبِيل ، ويقول لنَفْسِه : مِسكينٌ بين مساكين .

ولما وَرَدَ تِهامةَ وافَى الحَرَمَ وذَبح لابْنَيْت طولَ مُقامِه بمكةَ كلَّ يومٍ خمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف ثَوْر وعشرين ألفَ شاة . وقال لمن حَضَر : إنَّ هذا المكانَ سيَخرج منه نبيٌّ صِفَتُه كذا وكذا .

وقال أعرابيّ :

وإذا خَشِيتَ من الفؤادِ لَجَاجَةً فاضرِبْ عليه بجُرْعةٍ من رائبِ

وروى هشيم أنَّ النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : مِنْ كَرَم المَرْءِ أَنْ يطَيِّبَ زادَه فى السَّفر .

وقال ابن الأعرابيّ : يقال : جاء فلانٌ ولقد لَغَطَ[1] رباطُه من الجوع والعَطَش .

وأنشد :

رَبَا الجوعُ فى أُونَيْه[2] حتّى كأنَّه جَنِيبٌ به إنَّ الجَنيبَ جَنِيبُ

أى جاع حتى كأنَّه يَمشى فى جانب متعقّفًا[3] .

وقال أيضاً : إنَّ مِنْ شُؤم الضَّيف أن يَغيبَ عن عَشاء الحَىِّ ، أى لا يُدْرِكه ، فيُرِيدُ إذا جاءهم أنْ يتكلَّفوا له عَشاءً عَلَى حِدة .

---

(١) يريد أن بطنه قد ضمرت فاسترخى رباطه حتى صار له صوت ، فشبه ذلك الصوت باللغط .

(٢) الأونان : الخاصرتان . وقد ورد هذا البيت فى الأصل هكذا :

وبال الجوع فى أرنبه حتى كأنه حبيب يدان إلى حبيب

وفيه تحريف ظاهر . والتصويب عن إصلاح المنطق لابن السكيت ولسان العرب .

(٣) متعقفا ، أى معوجا .

وأنشد :

حَيَّاكَ رَبُّكَ واصْطَبَحْتَ ثَرِيدَةً ... وإدامُهـا رُزٌّ وأنتَ تُدَبِّلُ

واللُّقْمة واللقمة إذا جُمِعَتا من الثريد والعصائد يقال لها دُبْلَة ، ومنه سُمِّيَت الدُّبَيْلة ، وهى الوَرَم الذى يَخرج بالناس . وأنشد :

أقول لمّا ابتركوا جُنوحَا ... بقَصْعةٍ قد طُفِّحَتْ تَطفيحا

دَبِّلْ أبا الجَوْزاءِ أو تَبطِيحَا[1]

وقال الفرزْدَق :

مدبَّلْتُ أمثالَ الأثافِى كأنَّها ... رُءوسُ أعادٍ قُطِّعَتْ يومَ مَجْمَعِ

وقال سعيد بن المسيِّب : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أطيبوا الطعامَ فإنّه أنـفَى للسُّخْط ، وأجْلَبُ للشُّكر ، وأرْضَى للصاحِب » .

قال بشّار .

يَغَصُّ إذا نالَ الطَّعامَ بذِكْرِكُمْ ... ويَشْرَقُ مِنْ وَجْدٍ بكُمْ حين يَشْرَبُ

المَسْعُور : الجائع . قال هميان بن قُحافة :

* لاقَى صِحافًا بَطِناً مَسْعورا *

وقال شاعر :

* يَمشى مِنَ البِطْنةِ مشْىَ الأَبْزَخِ[2] *

(١) فى الأصل : « دبل أما الجوز أو بطيخا » ؛ وفيه تصحيف ظاهر . والتصحيح عن المخصص .

(٢) فى (١) التى ورد فيها هذا الكلام وحدها دون (ب) « الأنزح » ... « النزح » بالنون والحاء ؛ وهو تصحيف فى كلتا الكلمتين ؛ والصواب ما أثبتنا نقلا عن كتب اللغة

البَزَخُ : دخول البَطن وخروج الثُّنَّة أسفلَ السُّرَّة .

وقال آخر :

أغرُّ كمصباحِ الدُّجنّـــة يَتّقى شَذَى[1] الزادِ حتى تُستَفادَ أطايبهْ

شذاه[1] : طيبه .

وقال أعرابى : بنو فلان لا يَبْزِرون[2] ولا يَقْدُرون .

وقال الثورىّ : بَطِّنوا غداءكم بشَرْبة .

[وقال الشاعر[3]] :

لا يَستوِى الصَّوْتانِ حينَ تجاوَبا صَوْتُ الكَرِيبِ[4] وصَوتُ ذِئبٍ مُقفِرِ

الكَرِيب : الشوبَق[5] وهو المِحْوَر والمِسْطَح .

وقال الشاعر :

إذا جاء باغِى الخير قُلْنا بَشاشَةً له بوجوهٍ كالدّنانير : مرْحَبَا

وأهْلا فلا ممنوعَ خير تريده ولا أنت تَخْشَى عندنا أن نُؤَوِّبا

قال الشعبى : اسْتَسقَيت عَلَى خِوانِ قُتَيْبة ، فقال . ما أسْقِيك ؟ فقلت : الهيِّنُ الوُجْد ، العَزِيزُ الفَقْد ، فقال : يا غلام ، اِسْقِه الماء .

---

(١) ورد هاتان الكلمتان اللتان تحت هذا الرقم فى الأصل بالقاف وهو تحريف .

(٢) لا يبزرون ، من بزرت القدر إذا رميت فيها البزر ، وهو التابل . ولا يقدرون ، من القدر بفتح القاف ، وهو الطبخ فى القدر .

(٣) لم ترد هذه العبارة فى الأصل .

(٤) فى الأصل : « الكريث » بالثاء ؛ وهو تصحيف . والتصحيح عن إصلاح المنطق . وفى الأصل : « معقر » ؛ وهو تصحيف أيضا . والتصحيح عن إصلاح المنطق كذلك .

(٥) فى الأصل : « السويق » ؛ وهو تحريف . والتصويب عن إصلاح المنطق . والشوبق : هو الخشبة التى يبسط عليها الخباز الخبز .

مرّ مِسكينٌ بأبى الأسْوَدِ لَيْلًا وهو ينادى : أنا جائع ! فأدخَلَه وأطعَمَه حتّى شَبِع ، ثم قال له : انصَرِفْ إلى أهلك ، وأتبَعَه غُلامًا وقال له : إنْ سَمِعْتَه يسأل فارْدُدْه إلىّ . فلما جاوَزَه المسكينُ سَأل كعادته ، فتشبَّث به الغلامُ وردَّه إلى أبى الأسود . فقال : ألم تَشْبع ؟ فقال : بلى . قال : فما سُؤالك ؟ ثم أمرَ به نحُبِس فى بَيْتٍ وأُغلق عليه الباب ، وقال : لا تُرَوِّع مسلمًا سائر الليلة ولا تَكذِب . فلمّا أصْبَح خَلّى سَبيلَه ، وقال : لو أطَعْنا السُّؤّالَ صِرْنا مِثْلَهم .

وسمعَ دابّةً له تعتَلِفُ فى جَوْف الليل ، فقال : إنى لأراكِ تَسْهَرِين فى مالى والناسُ نِيام ، والله لا تُصْبِحِين عندى . وباعها .

وأبو الأسود يُعَدُّ فى الشعراء والتابعين والمحدِّثين والبُخَلاء والمَفاليج والنحويّين والقُضاة والعُرْج والمعلِّمين .

وقال الشاعر :

أنفِقْ أبا عَمْرٍو ولا تَعذُرَا وكُلْ مِنَ المالِ وأطعِمْ مَنْ عَرَا

لا يَنْفَعُ الدِّرْهَمُ إلّا مُدْبِرَا

كان مُسلم بن قُتَيْبةَ لا يجلس لحوائج الناسِ حَتّى يَشْبَع من الطَّعام الطيِّب ، ويَرْوَى من الماءِ البارِد ، ويقول : إنّ الجائعَ ضَيِّق الصَّدْر ، فقيرُ النَّفْس ، والشبعانَ وَاسعُ الصَّدْرِ ، غَنِيُّ النَّفْس .

وقال أعرابيٌّ :

هَلَكتُ هَرِيئةً[1] وهَلكتُ جُوعًا وخَرَّقَ مِنْ يدَىَّ شَوْكُ القَتادِ

(١) هريئة ، أى بردا . يقال قرة (بكسر القاف) فيها هريئة ، أى يصيب الناس منها ضر وموت كثير . والهريئة : وقت اشتداد البرد ، كما فى اللسان .

وحَبَّـــةُ حَنْظَلٍ ولُبابُ قطنٍ وتَنُّومٌ ينظِّمُ بطْنَ وَادِى[١]

وقال الفرزدق :

وإن أبا الكِرْشاء[٢] ليس بسارقٍ ولـكنّه ما يَسْرِق القَوْمُ يأكل

ولديك الجنّ :

إذا لم يكُنْ فى البَيْتِ مِلْحٌ مُطيَّبٌ وخَلٌّ وزَيْتٌ حَوْلَ حُبٍّ[٣] دَقيقِ

فرأسُ ابن أُمّى فى حِرِ أُمٍّ [ابن] خالقى ورأسُ عـدوِّى فى حِرِ أُمِّ صديقِى

وقال آخر :

وما جِيرةٌ إلّا كليبُ بنُ وَائلٍ ليالِيَ تحمى عِزَّةً مَنْبِتَ البَقْلِ

وقال مِسْعَر بن مكدَّم لِرَقَبة بن مَصْقَلة : أراك طُفَيْليًّا . قال : يا أبا محمد ، كلُّ مَن ترى طُفَيْلِيٌّ إلّا أنَّهم يَتَكاتمون .

وقال شاعر :

قَوْمٌ إذا آنَسوا ضَيْفاً فلم يجِدُوا إلا دَمَ الرّأسِ صَبُّوهُ على الباب

قال المفجّع : الرأس الرئيس .

اشتدّ بأبى فِرعونَ الشاشيِّ الحالُ فكتب إلى بعض القُضاة بالبَصرة :

يا قاضِيَ البَصْرةِ ذا الوَجْهِ الأغَرّْ إليكَ أشكو ما مَضى وما غَبَرْ

عَفَا زمانٌ وشِــتاءٌ قد حضَرْ إنّ أبا عَمْرَةَ[٤] فى بَيْتِى انْجَحَرْ

يَضْرِبُ بالدُّفّ وإنْ شاءَ زَمَرْ فاطْرُدْه عنى بدقيـــقٍ يُنْتَظَرْ

فأجابه إلى ما سأل .

---

(١) التنوم : شجر له حب كحب الخروع . وينظم بطن وادى ، أى يملؤه ويعمه .
(٢) كذا فى (ا) وديوان الفرزدق . والذى فى (ب) : «أبا المرجاء» ؛ وهو خطأ من الناسخ . (٣) الحُبّ بضم الحاء : الجرة ؛ ولعلهم كانوا يضعون الدقيق فى الجرار .
(٤) أبو عمرة : كنية الجوع .

ويقال : وقَفَ أعرابيٌّ على حَلْقةِ الحسَن البَصريّ رحمةُ الله عليه فقال : رَحِمَ اللهُ من أعطَى مِن سَعَة ، وواسَى من كَفَاف ، وآثَرَ من قِلّة . فقال الحسَن : ما أبقَى أحداً إلّا سأله .

وقال ابنُ حبيب : يقال أحمَقُ من الضّبُع ، وذلك أنها وَجدَتْ تَوْدِيةً(١) في غَدِير ، فجعلتْ تَشرَبُ الماء وتقول : « يا حَبَّذا طَعْمُ اللّبَن » حتى انشَقَّ بطنُها فماتَتْ . والتَّوْدِيةُ : العُودُ يُشَدُّ على رأسِ الخِلْفِ(٢) لئلّا يَرضَعَ الفَصِيلُ أمَّه .

دعا رجل آخرَ فقال له : هذه(٣) تُكْسِبُ الزيارة وإن لم تُسعِدْ ، ولعل تقصيراً أنفعُ فيما أُحِبُّ بلوغَه من برِّك(٤) . فقال صاحبه : حرصك على كرامتى يكفيكَ مؤونةَ التكلف لى .

قيل لأعرابيّ : لو كنتَ خليفةً كيف كنتَ تصنَع ؟ قال : كنتُ أستكْفِي(٥) شريفَ كلِّ قومٍ ناحيتَه ، ثم أخْلُو بالمطبخ فآمُرُ الطهاةَ فيُعْظِمون(٦) الثّريدة ويُكثِرون العُرَاق(٧) ، فأبدَأ فآكلُ لُقَماً ، ثم آذَنُ النَّاس ، فأيُّ ضِياعٍ(٨) يكون بعدَ هذا ؟ !

---

(١) فى الأصل : « بودقة » بالباء والقاف ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن كتب اللغة . وعبارة مجمع الأمثال : تزعم الأعراب أن أبا الضباع وجد تودية فى غدير ... الخ ما هنا .

(٢) الخلف : الضرع . وفى الأصل : « الحلف » بالمهملة ؛ وهو تصحيف .

(٣) هـذه : إشارة إلى دعوته إياه . أى أن هذه الدعوة تكسبنى زيارتك لى وإن لم تسعد ، أى تُعنّى على قضاء الحق كله . وفى الأصل : « تكثر » مكان « تكسب » . وهو تحريف . ولعل صوابه ما أثبتنا .

(٤) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « ترك » ؛ وهو تحريف .

(٥) فى (ا) : « استلق » ؛ وهو تحريف .

(٦) فى (ا) : « فيطعمون » ؛ وهو تحريف .

(٧) العراق (بالضم) : جمع عرق (بفتح فسكون) ، وهو العظم الذى أخذ أكثر ما عليه من اللحم وبقى عليه شىء يسير .

(٨) فى كلتا النسختين : « صناع » ؛ وهو تصحيف .

وقال أعرابىّ لأبن عمّ له : واللهِ ما جِفانُـكم بعِظام ، ولا أجسامكم[١] بوِسام ، ولا بدَت[٢] لـكم نار ، ولا طُولِبتُم بثار .

وقيل لأعرابى : لِمَ قالت الحاضرةُ للعبد : باعَكَ اللهُ فى الأعراب ؟ قال : لانَّا نُعْرِى جلدَه ، ونُطيلُ كدَّه ، ونُجيعُ كَبِدَه .

وقال طفيلىّ : إذا حُدِّثتَ على المائدة فلا تزِدْ فى الجواب على نعم ، فإنك تكون بهـا مؤانساً لصاحبك ، ومُسِيغاً لِلقمَتِك ، ومُقبِلاً على شأنك .

وقيل لأعرابى : أىُّ شىء أحَدّ ؟ قال : كَبِدٌ جائعة ، تُلقِى إلى أمعاء ضالِعة[٣]

وقيل لآخر : أىُّ شىء أحَدّ ؟ قال ضِرسٌ جائع ، يُلقِى [إلى] مِعًى ضالع[٣]

وقال آخر :

أحِبُّ أن أصطادَ ضَبًّا سَحبَلاَ[٤] ووَرَلاً يَرتادُ رَمْـلاً أرْمَلاَ
قالت سُلَيْمى لا أحِبُّ الجَوزَلا ولا أحِبُّ السَّمَكاتِ مَأْكلا

الجَوزَلُ : فَرْخ الحَمام . والوَرَل : دابة[٥] . أرْمَل : صِفَةٌ للوَرَل . وإذا كان كذلك[٦] كان أسْمَنَ له ، وهو[٧] . يَسْفِدُ فيهزُل .

---

(١) فى (ا) : « ولا آجامكم » ؛ وهو تحريف .

(٢) كذا فى (ب) . والذى فى (ا) : « نيرت » ، والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٣) يريد بالضالعة هنا القوية على احتمال ما يلقى إليها ، وكذلك الضالع الآتى بعد . والذى وجدناه فى كتب اللغة أنه الضليع ، من الضلاعة ، وهى القوة . ولم نجد الضالع بهذا المعنى . والذى فى كتاب التنبيه على أغلاط أبى على القالى ص ٢٢ أن المحفوظ : ضرس قاطع يقذف فى معى جائع ، وهذا هو الصحيح .

(٤) السحبل : العظيم المسن من الضباب . والورل دابة تشبه الضب وأعظم منه بيسير . والأرمل : الذى لا زوج له . ويقال ذلك فى المذكر على التشبيه . قاله فى اللسان مستشهداً بهذا البيت ، وروايته فيه : « رعى الربيع والشتاء أرملا » مكان قوله : « وورلا يرتاد » .

(٥) فى (ا) : « بيت » ؛ وهو تحريف ، وقد سبق التعريف بهذه الدابة فى الحاشية التى قبل هذه . (٦) كذلك ، أى أنه أرمل لا زوج له .

(٧) فى الأصل : « سرى » ؛ وهو تحريف ، والسياق يقتضى ما أثبتنا .

ويقال : أقْبَحُ هَزِيلَيْنِ : المرأةُ والفَرَس ، وأطيَبُ غَثٍّ أكلَ غَثَّ الإبل ، وأطيب الإبل لحمًا ما أكلَ السَّعْدان[١] ، وأطيب الغنم لبنًا ما أكلَ الحُرْبُث[٢] .

ويقال : أهْوَنُ مظلومٍ سِقاءٌ مُرَوَّب ، وهو الذى يُسْقَى منه قبل أن يُمْخَض وتُخْرَجَ زُبْدَتُه .

ويقال : سَقانا ظليمةَ وَطْبِه[٣] ، وقد ظُلِمَتْ أَوْطُبُ[٤] القَوْم .

وقال الشاعر :

وصاحِبِ[٥] صِدْقٍ لم تَنَلْنِى شَكاتُه ظلمْتُ وفى ظلمى له عامِدًا أجْرُ

يعنى وَطْبَ لبن .

وكان[٦] الحسنُ البَصرىُّ إذا طَبَخ اللحمَ قال : هَلُمُّوا إلى طعامِ الأحرار .

قال سفيانُ الثَّوْرىّ : إنى لألْقَى الرَّجُلَ فيقول لى مرحبًا فيلِينُ له قلبى ، فكيف بمن أطَأُ بِساطه ، وآكلُ ثَرِيدَه ، وأزْدَرِدُ عَصيدَه ؟ .

حكى أبو زيد : قد[٧] هَجَأَ غَرْثِى[٨] : إذا ذَهَب ، وقد أهْجَأَ طعامُكم غَرْثِى : إذا قَطَعَه . قال الشاعر :

---

(١) السعدان : نبت تشبه شوكته حلمة الثدى ، وهو من أفضل مراعى الإبل ، ويقال فى المثل : « مرعى ولا كالسعدان » .

(٢) الحربث : نبت منبسط له ورق رقاق طيب الرائحة يزيل بخر الفم .

(٣) فى الأصل : « وطى » ؛ وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : « طبية » ؛ وهو تحريف .

(٥) ورد هذا البيت فى الحيوان ، ولم ينسبه كما هنا .

(٦) فى (١) : « وقال » ؛ وهو تبديل من الناسخ .

(٧) فى (١) : « قال » ؛ وهو تحريف . (٨) الغرث : الجوع .

والشراب تملُّؤًا ، إذا شَبِعْتَ منهما وامتلأْتَ . ويقال : لَفَأْتُ[1] اللحمَ عن العظم لَفْأً[1] إذا جَلَفْتَ[1] اللحمَ عن العظم . واللَّفِيئَةُ[2] هى البَضْعَةُ التى لا عَظْمَ فيها نحو النَّحْضَةِ[2] والهَبْرة والوَذْرَةِ[2] .

وأنشَد يعقوب :

سَقَى[3] اللهُ الغَضَا وخُبُوتَ قومٍ متى كانت تكون لهم دِيارا
أُناسٌ لا يُنادِى[4] الضَّيْفُ فيهم ولا يَقْرُون آنيــــةً صِفارا

قال الأصمعى : قال ابن هُبَيْرَة : تَعْجيلُ الغَدَاء يَزِيد فى المروءة ، ويطيِّب النَّـكْهة ، ويُعين على قَضَاء الحاجة .

قال بعض العَرَب : أطيَب مضغة أكلها الناس صَيْحَانِيَّةٌ مُصَلَّبة[5] .

ويقال : آكَلُ الدَّوَابِّ ، بِرْذَوْنَةٌ رَغُوث وهى الّتى يَرْضَعُها وَلَدُها[6] .

قال أبو الحارث حميد : ما رأيْتُ شيئاً أشبَهَ بالقَمَر ليــلةَ البَدْر مِنْ قِدْرٍ سُقِيَت اللبن كثيرةِ الشُّــكْر .

---

(١) فى الأصل : « لقأت ... لقاء إذا جعلت » ؛ وهو تحريف فى هذه الكلمات الثلاث .

(٢) فى الأصل : « واللقئة ... البحضة ... والودنة » ؛ وهو تحريف فى هــذه الـكلمات الثلاث .

(٣) فى (١) التى ورد فيهـا وحدها هذا الشعر : سل الله ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا . ولم نجد هذين البيتين فيما راجعناه من الـكتب . والخبوت : جمع خبت ، وهو المطمئن من الأرض .

(٤) لا ينادى الخ ، أى أنهم لا يكلفون الضيف مؤونة السؤال .

(٥) الصيحانى : ضرب من تمر المدينة أســود صلب الممضغ . والمصلب : الذى خلط بالصليب ، وهو الودك ، وهو مثل يضرب للمتلائمين المتوافقين . وفى الأصــل : « مقلية » بالقاف والياء ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن مجمع الأمثال .

(٦) يلاحظ أن تفسير البرذونة الرغوث بهذا المعنى المذكور هنا غير صحيح ، إذ البرذونة لا ولد لها . والرغوث من البراذين هى التى لا تكاد ترفع رأسها من العلف . أما التى يرضعها ولدها فهى الرغوث من الشياه . فلعل فى الـكلام نقصا ، وتـكملته : « والشاة الرغوث هى التى ... الخ » .

فأَخْزاهمُ(١) ربى ودلّ عليهمُ وأطْعَمَهُمْ مِنْ مَطْعَمٍ غيرِ مُهْجِىء(٢)

قال : و يقال بَأَرْتُ(٣) بُؤْرةً فأنا أَبْأَرُها ، إذا حَفَرْتَ حَفيرةً يُطْبَخ فيها وهى الإِرَة . ويقال : أَرْتُ إِرَةً فأنا أَئِرُها وَأْرًا .

وقال حسّان :

تَخَالُ قُدُورَ الصّادِ(٤) حَوْلَ بُيوتِنا قَنَابِلَ دُهْمًا فى المَبـــاءةِ صُيَّما

قال أبو عُبَيْدة : كان الأصمعىّ بخيلا ، وكان يَجْمَع أحاديثَ البخلاء و يُوصِى بها وَلَدَه ويتحدّثُ بها .

وكان أبو عبيدة إذا ذُكِرَ الأصمعىّ أنشد :

عَظُمَ الطَّعام بعَيْنِه فكأنّه هو نَفْسُه للآكِلينَ طعام

ويقال : أَسْأَرْتُ ، إذا أبقَيْتَ من الطعام والشراب أو غيرهما ، والاسم السُّؤْر وجماعتُه الأَسْآر . ويقال : فَأَدْتُ(٥) الخُبْزَة فى المَلّة(٦) أفأَدُها(٥) إذا خَبَزْتَها فيها . والمِفْأَد(٥) : الحديدة التى يُخبَز بها و يُشْوَى . ويقال : تملأتُ من الأكل

---

(١) فى الأصل : « فأجزاهم » بالجيم ؛ وهو تحريف .

(٢) فى الأصل . « مهجئ » ؛ وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : « تأرت تورة فأنا أتأرها » ؛ وهو تصحيف فى الكلمات الثلاث .

(٤) الصاد : النحاس ، وقيل نوع منه . وفى الأصل : « الضأن » ؛ وهو تحريف . والقنابل : طوائف الخيل ، الواحد قنبل وزان جعفر وقنبلة . وفى الأصل : «قناديل» ؛ وهو تحريف . وفى ديوان حسان : « فى المحلة » ، والمعنى عليه يستقيم ؛ وفى الأصل « فى الماة » والظاهر أن هذا اللفظ محرف عما أثبتنا نقلا عن محاضرات الأدباء . وقبل هذا البيت :

إذا اغبر آفاق السماء وأمحلت كأن عليها ثوب عصب مسهما

وفى ديوان حسان : « حسبت قدور » مكان قوله : « تخال » .

(٥) فى الأصل : « فادت ... وأفادها .. والمفاد » ؛ وهو تحريف فى هذه الكلمات الثلاث .

(٦) الملة : موضع النار .

وقال الشاعر:

وإنى لأستحيى رفيقى أن يرى مكان يدى من جانب الزاد أقرعا

ضم[1] عثمانَ بن رواح[2] السفرُ ورفيقاً له، فقال له الرفيق: امض إلى السوق فاشتر لنا لحماً. قال: واللهِ ما أقدر. قال: فمضى الرفيقُ واشترى اللحمَ ثم قال لعثمان: قم الآنَ فاطبخ القِدْر. قال: والله ما أقدر. فطبخها الرفيق. ثم قال: قم الآنَ فاثرُدْ. قال: واللهِ إنى لأعجزُ عن ذلك. فثرد الرفيق. ثم قال: [قم] الآنَ فكُلْ. فقال: والله لقد استحييتُ من كثرة خِلافى عليك، ولولا ذلك ما فعلت.

قال يونس: أتيتُ ابن سيرينَ فدعوتُ الجارية، فسمعتُه يقول: قولى إنه نائم. فقلت: معى خَبيص. فقال: مكانَك[3] حتى أخرجَ إليك.

قال أردشير: احذروا صولةَ الكريمِ إذا جاع، واللئيم إذا شبع.

قال النبى صلّى الله عليه وسلّم فيما رواه جابرُ بنُ عبد الله: هلاكُ الرّجُل أن يحتقرَ ما فى بيتِه أن يقدّمه إلى ضيفِه، وهلاكُ الضيف أن يحتقرَ ما قُدِّمَ[4] إليه.

وقال الشاعر:

يا ذاهباً فى دارِه جائيا[5] بغير معنًى وبلا فائدَهْ
قد جُنّ أضيافُك من جوعِهم فاقرأ عليهمْ سورةَ المائدَهْ

---

(١) فى إحدى النسختين: «صم»؛ وهو تصحيف.
(٢) فى (ب): «ابن دراج» وهو تصحيف. (٣) فى (ا): «فركابك»
(٤) فى الأصل: «واقدم» مكان قوله: «ما قدم»؛ وهو تحريف.
(٥) فى الأصل: «خائبا * يعين»؛ وهو تصحيف فى كلتا الكلمتين.

وقال ابن بَدْر :

ونحن نَبذُلُ عند القَحْطِ ما أكلوا … مِنَ السَّدِيفِ إذا لم يؤنَسِ القَزَعُ[(١)]
وننحَر الـكُوم[(٢)] عَبطًا[(٣)] في أرُومَتِنا … للنَّازلين إذا ما اُسْتُنْزِلوا شَبِعوا

وقال آخَر :

أطْعَمَنى بَيْضَـــةً وناوَلَنى … مِنْ بَعْدِ ما ذُقْتُ نَقْدَه قَدَحا
وقال أىَّ الأصواتِ تَسْتَلُّنى[(٤)]؟ … يَزيد ، إنِّى أراكَ مُقْـــتَرِحا
فقلتُ صَوْتَ المِقْلَى وجَرْدَقَةً[(٥)] … إنْ خابَ ذا الاقتراحُ أو صَلَحا
فقَطَّبَ الوجْهَ وانثنَى غَضِبًا[(٦)] … وكانَ سَكْرانَ طافِحًا فَصَحَا
فقلتُ : إنِّى مَزَحْت ، قال : كذا … رأيتَ حُرًّا بمِثْـلِ ذا مَزَحا ؟

قال ابن حبيب : كان الرَّجُل إذا اشتدَّ عليه الشِّتاء تَنحَّى ونزَلَ وَحْده لئلا يَنْزِلَ به ضَيْفٌ فيكونَ صُقْعاً مُسْتَحْيًا .

وهذا ضِدُّ قول زهير :

بسَطَ البُيوتَ لـكى تكونَ مَطِيَّةً … مِن حيثُ تُوضَعُ جَفْنَةُ الْمُتَرْفِدِ

فإذا كان الشِّتاء انحازَ الناسُ مِن الجدْبِ والجَهْد ، وإذا أخْصَبوا أغاروا للثأر لا للسُّؤال .

---

(١) السديف : لحم السنام . والقزع بالقاف : السحاب . وفى الأصل : «الفزع» بالفاء .
(٢) الـكوم واحده كوماء بفتح الـكاف ؛ وهى الناقة العظيمة السنام .
(٣) فى الأصل : « غيظا » ؛ وهو تصحيف .
(٤) فى الأصل : « فاسلنى * يريد » ؛ وهو تحريف .
(٥) الجردقة : الرغيف ، فارسية . وفى الأصل : « خودبة » ؛ وهو تحريف .
(٦) فى الأصل : « حصنا » ؛ وهو تحريف .

وقال الشاعر فى عُبَيْد الله بن عبّاس :

فنى السنة الجَدْباء أطْعَمْتَ حامِضاً وحُلْوًا وشَحمًا تامِكاً[١] وسَنامًا

وقال مجاهِدٌ فى قول الله عزَّ وجَلَّ : (وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً) ، أى طعاماً ، يقال : أُتَّكأْنا عند فلانٍ ، أى طَعِمْنا .

ذكر الأصمعىُّ أن أعرابيًّا خَرَج فى سَفَر ومعه جماعة ، فأَرْمَلَ[٢] بعضُهم من الزاد ، وحَضَرَ وقتُ الغَدَاء وجعَل بعضُهم ينتظر بَعْضاً بالغداء ، فلمّا أبطأ ذلك عليهم عَمَدَ بعضُهم إلى زادِه فألقاه بين يَدَى القَوْم ، فأقبَلوا يأكلون ، وجلس صاحِبُ الزادِ بَعيداً لِلتَّوْفِير[٣] عليهم ، فصاح به أعرابى : يا سُوْدَدَاه ! وهل شَرَفٌ أفضلُ من إطعامِ الطعامِ والإيثارِ به فى وَقْتِ الحاجَةِ إليه ؟ لقد آثرتَ فى مَخْمَصَةٍ ويوم مَسغَبة ، وتفرَّدْتَ بمكرمةٍ قَعَدَ[٤] عنها مَنْ أرَى من نُظَرائك ، فلا زالت نِعَمُ الله عليك غادِيةً ورائحة .

وفى مِثْله يقولُ حاتمٌ الطائىّ :

أكُفُّ يَدِى مِن أن تَنَالَ أكُفَّهُمْ إذا ما مَدَدْناها وحاجاتُنــــا مَعَا

وإنِّى لأستَحْيِى رَفِيقىَ أن يرَى مكانَ يَدى مِن جانِبِ الزَّاد أقْرَعا

قال : المَخْمَصَةُ : المَجاعَة . والخَمْص : الجُوع .

قال شاعرٌ يَذُمّ رجلا :

يَرَى الخَمْصَ تَعذيباً وإنْ يَلْقَ شَبْعةً يَبِتْ قَلْبُهُ مِن قِلّةٍ[٥] الهمِّ مُبْهَما

---

(١) التامك : الكثير العظيم . (٢) أرمل من الزاد : فرغ ما عنده منه .
(٣) فى الأصل : « يعدّ القوفر » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين لا معنى له ، ولعل الصواب ما أثبتنا . (٤) فى الأصل : « نقد » ؛ وهو تحريف .
(٥) فى الأصل « من شدة » ؛ وهو خطأ من الناسخ . والبيت لحاتم الطائى .

وقال المرقّش الأكبر :

إن يُخْصِبوا يَغْنَوْا بخصبهم أو يُجْدِبوا فجُدوبهمْ ألَمُ

[وكَتَبَ بعضُهم(١) إلى أخٍ له] : إنْ رأيتَ أنْ تَرْوِىَ ظَمَأَ أخيكَ بقُرْبِك ، وتُبَرِّدَ غَليلَه بطَلْعتِك ، وتؤنِسَ وَحْشَتَه بأُنسك ، وتَجْلوَ غِشاءَ ناظِرِه بوَجْهك ، وتُزَيِّنَ مجلسَه بجَمَال حُضورِك ، وتَجعلَ غَدَاءَك عنـدَه فى منزِله الذى هو فيه ساكن ، وتَمَّمْتَ له السرورَ بك باقىَ يَوْمِك ، مؤثِراً له على شغلك ، فعلْتَ — إن شاء الله — .

وقال الشاعر :

وكأنّ هَذْرَ دِمائهمْ فى دُورِهم لَغَطُ القَبيلِ(٢) على خِوانِ زِيادِ

قال بعض الخُطَباء(٣) : العَجَبُ مِن ذى جِـدَةٍ مُنعَمٍ عليه يطوى جارُه جوعاً وقرّا ، وأفرُخُه شُمْثٌ جُرْدٌ من الرِّيش ، وهو مِبْطانٌ محتشٍ من حُلْوِه وحامضِه ، مُسكْتَنٌّ فى كِنّهِ ودِفْئه ، مزيَّنٌ له شهوَةٌ عن أداءِ الذى عليه لجارِه وقريبِه وذى خُلَّةٍ بَطِرٍ(٤) رَفِهٍ كيف يأمَنُ سَلْبًا مفاجِئًا ؟ أمَا لو وَجَّهَ بعضَ فَضْلِه إلى ذى حاجةٍ إليه كان مستديمًا لِما أولى ، مستزيداً ممّا أوتى .

قال الشاعر(٥) :

وإذا تأمّلَ شَخْصَ ضَيْفٍ مقبِلٍ متسَرْبِلٍ سِرْبالَ مَحْلٍ أغْبَرِ

---

(١) فى (ا) : « كاتب » ثم ذكر الكتاب .

(٢) فى الأصل : « القتيل » ؛ وهو تصحيف .

(٣) فى (ب) : « الحكماء » .

(٤) فى (ب) : « وذى خلة يطور به » ؛ وهو تحريف .

(٥) هو العلوى صاحب الزنج ، كما فى مجموعة المعانى .

أَوْمَا إلى الكَوْمَاءِ هـذا طارقٌ نَحَرَتْنِىَ الأعداء إن لم تُنْحَرِى

[وفى هذه الأبيات ما يُستَحسَن(١) :

كَمْ قد وَلَدْتُمْ من كريمٍ ماجدٍ دامِى الأظافِرِ أو غمامٍ مُمْطِرِ

سدِكَتْ(٢) أنامِلُه بقائمِ مرهَفٍ وبنَشْر عائدةٍ وذِرْوَةِ مِنْبَرِ

يَلْقَى السيوفَ بوَجْهه وبنحْرِه ويُقيمُ هامتَه مقامَ المِغْفَرِ

ويقولُ الطِّرْف : اصْطبِرْ لشَبَا القَنَا فهَدَمْتُ رُكْنَ المَجْدِ إنْ لم تُعْقَرِ]

وقال آخَر :

وقال وقَدَّمَ(٣) كَشَكِيَّةْ فَكُلْ شِبَعًا إنّها فى النهايَةْ

تُطَفِّى المُرارَ وتَنفِى الخُمارَ وما بَعْدَها فى النِّهاياتِ غايَةْ

ولا تتوقَّعْ أخـيراً بَجِيك ففى أوَّل المُسْتَطَابِ الكِفايَةْ

وقال آخَر :

كأنّما فُوهُ إذا تمـدّدَا لِلَقْمِ أخلاقُ جِرابٍ أسْوَدَا

كأنّه مُخْترِصٌ(٤) قد جَوَّدَا جانِى جَرادٍ فى وِعاهِ مِقْلَدَا(٥)

---

(١) وردت هذه التكملة فى (ب) مطموسة الحروف تتعذر قراءتها ، مهمل من النقط ما ظهر منها ؛ وقد أثبتناها هكذا أخذا من السياق . وبعضها عن مجموعة المعانى .

(٢) سدكت أنامله الخ ، أى أولعت بقائم السيف ، يقال : سدك بالشىء ، إذا أولع به وخفت يده فى عمله .

(٣) فى الأصل : « وقد قدم القوم » ؛ وهو تحريف ، كما أن قوله : « القوم » زيادة من الناسخ لا يستقيم بها وزن البيت .

(٤) المخترص الذى يضع فى خرسه (بكسر الخاء) أى جرابه ما يريد . وفى (ا) التى ورد فيها هذا الشعر وحدها دون (ب) مخترض ؛ وهو تصحيف . كما أن فيها : « هناه » مكان « كأنه » ولا معنى له أيضا .

(٥) أورد فى اللسان هذا الشطر ، مادة « قلد » شاهدا على أن المقلد (بكسر الميم) الرجل المجمع .

وصاحِبٍ صاحَبْتُ غَيْرِ أَبْعَدَا ... تراه بين الحُرْبَتَيْنِ مُسْنَدَا(١)

الحُرْبَة : الغِرارة .

وقال جابرُ بنُ قَبِيصة : ما رأيتُ أحْلَمَ جَليساً ، ولا أفضَلَ(٢) رَفيقاً ، ولا أشبَهَ سريرَةً بعَلانية ، مِن زِياد .

وقال جابر أيضا : شَهِدْتُ قَوْمًا ورأيتهم بعَيْنِى ، فما رأيتُ أقْرأَ لكتابِ الله ، ولا أفقَهَ في دين الله ، من عُمَر بن الخطاب رضى الله عنه . وما رأيتُ رَجُلًا أعطى من صُلْبِ مالِه فى غير وَلائه ، من طَلْحَةَ بن عُبَيْد الله . وما رأيتُ رجلا أسوَدَ من معاوية . وما رأت رجلا أنصَعَ(٣) ظَرْفا ، ولا أحْضَرَ جوابا ، ولا أكثَرَ صَوَابا ، من عَمْرو بن العاص . وما رأيت رجلا المعرفَةُ عنده أنفع منها عند غيره ، من المُغيرة بن شُعْبة .

ويقال : ما كان الطعامُ مَرِيئًا ولقد مَرَأ ، وما كان الرَّجل مَرِيئًا وقد مَرُؤ .

وقال لنا القطّان أبو مَنصور رئيس أهل قَزْوِين : الرَّجُل من أرض أردبيل إذا دَخَل بَلداً يَسْأل فيقول : كيف الخُبز والمُبَرِّز(٤) ، ولا يَسأل عن غيرها . فقيل له : لِمَ ذلك ؟ فقال : يأخذ الخبز والمُبَرِّز ويأكلُ ويَسْلَحُ(٥) إلى الصباح .

قال الشاعر :

وما تُنْسِنا الأيّامُ لا نَنْسَ جُوعَنا ... بدارِ بَنِى بَدْرٍ وَطُولَ التَّلَدُّدِ

(١) أورد فى اللسان هذين الشطرين مادة (حرب) . والذى فى الأصل :
وصاحب صاحب عيرا يعبدا ... تراه بين الحرتين .... إلخ
ولا يخفى ما فى ذلك من تحريف .

(٢) فى الأصل : « أغضب » .

(٣) فى (ا) : « أيضيع طرف » ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا .

(٤) المبرِّز : المطلق للبطن .

(٥) فى كلتا النسختين : « يسرج » بالسين ؛ وهو تحريف .

ظَلِلْنا كأنّا بينهم أهلُ مأتمٍ عَلَى ميِّتٍ مُسْتَوْدَعٍ بطْنَ مَلْحَدِ
يُحَدِّثُ بَعْضٌ بعضنا عن مُصابه وَيَأمُرُ بَعْضٌ بَعْضَنا بالتَّجَلُّدِ

وقال آخر :

دَعُونى فإنى قد تَغَـــدَّيْتُ آنِفا فإنْ مَسَّ كَفِّى خُبزَكم فاقطَعوا يَدِى

وقال آخر يَصِفُ دارَ قَوْم :

الجوعُ داخِلَها وَاللَّوْحُ[1] خارِجَها وليس يَقْرَبُها خُـــبْزٌ وَلا ماء

قال الملالىّ : أتى رجلٌ أبا هريرة فقال : إنِّى كنتُ صائما فدخَلْتُ بَيْتَ أبى فوَجَدْتُ طعاماً ، فنَسِيتُ فأكلْتُ . قال : الله أطعَمَك . قال : ثم دخلت بيتاً آخر فوَجَدْتُ أهلَه قد حَلَبوا لَقْحَتَهم فسَقَوْنى ، فنسيت فشَرِبْتُ . فقال : يا بُنَىَّ هَوِّن عليك فإنك قلَّما اعتَدْتَ الصِّيام .

وقال الشاعر :

وَجَدْتُ وَعْدَكَ زُورًا فى مُزَوَّرَةٍ[2] ذَكَرْتَ مُبْتَدِئاً إحكامَ طاهيها[3]
فلا شَفَى اللهُ مَنْ يَرْجُو الشِّفَاءَ بها وَلا عَلَتْ كَفُّ مُلْقٍ كفَّه فيها
فأَحْبِسْ رسولَكَ عَنِّى أنْ يجىءَ بها فقد حَبَسْتُ رَسُولِى عن تقاضيها

قال مطرِّف بنُ عبدِ الله بنِ الشِّخِّير عن أبيه : قَدِمْنا على رسولِ الله صلى الله عليه وسلّم ، فقُلنا : يا رسول الله ، أنت سيِّدنا ، وأنت أطوَلُنا علينا طَوْلا ،

(١) اللوح : العطش . والذى فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الشعر « والنوح » وما أثبتناه هو المناسب لقوله بعد : « ولا ماء » .
(٢) المزورة : مرقة تعمل بغير لحم يصفونها للمرضى .
(٣) فى الأصل : « ظاميها » ؛ وهو تحريف .

وأنت الجَفْنةُ الغَرّاء . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « قولوا بقَوْلكم ولا يَستَفِزّنّكم الشّيطان فإنما أنا عبْدُ الله ورسولُه » .

وقال آخر :

وأحمرُ مُبَيَّضُ الزُّجاجِ كأنه رِداءُ عَرُوسٍ مُشْرَبٌ بخَلوقِ
له في الحَشَا بَرْدُ الوِصالِ وطَعْمُه[١] وإن كان يَلقاه بلَوْنِ حَرِيق
كأنَّ بَياضَ اللَّوْزِ[٢] في جَنَباته كواكبُ دُرٍّ في سماءِ عَقيق

قال يونس : أشدُّ طعامٍ ضُرًّا ما كان مِنْ عامٍ إلى عام ، وهو اللِّبَأُ الذى لا يوجَد إلّا في الوِلادة كلَّ عامٍ وإنْ كان مُزْبِدا .

حَكَى يونس : التّنافيط[٣] ، أن يُنزَعَ شَعْرُ الجِلد[٤] ثم يُلقى في النار ثم يؤكل ، وذلك في الجَدْب .

وقال الشاعر :

جاوَرْتُ شَيْبانَ فاحْلَوْلَى جِوارُهمُ إنَّ الكِرامَ خِيارُ الناسِ للجارِ

وكتَبَ ابنُ دينار إلى صديق له : وكتبتَ تفضُّلاً منكَ تعتذرُ من تأخّرِكَ عن قضاء حقِّ زيارتي بقُصورِ يدَيك عن بِرٍّ يُشْبِهُني ويُشبِهُك ؛ فأمّا مايُشْبِهني في هذا الوقت فرَغيفٌ وسكُرَّجةُ كامَخٍ حِرِّيف يَثقُبُ اللِّسانَ بحرافته .

وكان ابنُ أبي البَغْل إذا أنشد : * أرُوني مَنْ يَقُومُ لكم مَقامي * يقول :

---

(١) في (ب) : « وطيبه » .

(٢) في (ا) : « اللون » بالنون ؛ وهو تصحيف .

(٣) وردت هذه الكلمة في الأصل مهملة الحروف من النقط تتعذر قراءتها . وقد أثبتناها هكذا نقلا عن كتب اللغة بعد تقليبها على عدة وجوه .

(٤) في الأصل : « الخلد » ؛ وهو تصحيف .

لو شَهِدتُ قائلَه لقلت : كلبُ الحارس يَقوم مَقامك . هـذه قِصّةٌ فى حضور ما يشبهنى ، فأمّا ما يشبهك فتعـذّر كما قيل :

* ومَطلَبُ مِثلى إن أردتَ عَسِير[١] *

وقال رجل لعُبَيد الله بن زياد بن ظَبْيان : ما أعْدَدتُ فى كِنانتى سَهْمًا غيرَك . فقال : لا تَعدّنى فى كِنانتك فو الله لو قمتُ فيها لَطُلْتُها ، ولو جلستُ فيها لخرقتُها . ولئن انتظرتَ بى ما يشبهك طال الانتظار ، والعامّةُ تتمثّل[٢] — على خساسةِ لفظها — : « إذا أردتَ ألّا تُزَوّجَ ابنتَكَ فغالِ بمَهْرها » . وأملى فيك على الأحوال بعيد ، وظنّى فيكَ جميل ، ولستُ أخشى فيما لى عندك الفَوْتَ فأُعْجِلَه ، * وهل يُلقَمَ الـكلبُ إلا الحجر * .

العرَبُ تقول : لئيمٌ جَبان[٣] .

وقال أعرابىّ : لا يكنْ بطْنُ أحـدِكم عليه مَغرَمًا ، ليَـكْسِره بالتُّمَيْرَة والـكُسَيرة والبُقَيْلة والعُلَيْـكة .

قال ابنُ الأعرابى : الفَرَزْدَق ، الرَّغيفُ الواسع .

قيلَ لابن القِرِّيَّة[٤] : تـكلّمْ . فقال : « لا أُحِبُّ الخبز إلّا يابسا » . أراد لا أُحِبُّ أن أتـكلّمَ إلّا بعد الارتئاء .

وروى أبو عُبَيدَة فى تفسير بَيْتِ الأعشى فى ديوانه :

---

(١) فى (ا) : « عزيز » .
(٢) فى (ا) : تقول .
(٣) كذا وردت هذه العبارة فى الأصل ، والظاهر أن لها بقية سقطت من الناسخ .
(٤) فى الأصل : « ابن القرم » .

(١)[إذا ما همُ جلسوا بالعَشِيِّ] فأحــلامُ عادٍ وأيْدِي هُضُمْ

قال : شبَّهَهم بأنسال عاد ، وهم ثمانية ذَوُو أحلامٍ وسؤْدَد : مالك — وهو سيِّد الثمانية — وعمّار وطُفَيل(٢) ، وشَمِر ، وقرزعة(٣) ، وحُمَمة ، وتَنِض(٤) ، ودُفَيف ؛ وهم الذين بعَثَ لقمانُ بنُ عادٍ جاريةً بعُسٍّ من لبَن ، فقال لها : ايتِي الحيّ فادفعيه إلى سيِّدهم لا تَسْأَلِي عنه . فأتت الجاريةُ الحيَّ ، فرأتْهم مختلِفين بين عاملٍ ولاعِب ، وثمانيةً على رءوسهم الطّير وَقاراً ؛ ورأتْ جاريةً من الحيِّ ، فأخبرَتْها بما قال لقمان ؛ قالت : هؤلاء سادةُ الحيّ ، وسأصِف لك كلَّ واحدٍ منهم ، فادفعى العُسَّ إلى مَنْ شئتِ أمّا هذا فعمّار ، أخّاذٌ وَدّار(٥) ، لا تَخْمُدُ له نار ، المعْشِبات عَقّار (المُعشِبة : التى تَسْمَنُ على شَحْمٍ قديم) ، وأمّا هــذا فحُمَمَة ، غَداؤه كل يوم ناقةٌ سَنِمة(٦) ، وبَقَرةٌ شَحِمة ، وشاةٌ(٧) كَدِمَة . وأمّا هذا فقَرْزَعَة(٣) ، إذا لقيَ جائعاً أشبَعَه ، وإذا لقِيَ قِرْناً جَعْجَعَه(٨) وقد خابَ جَيْشٌ لا يَغزو معه . وأمّا هذا فطُفَيل ، غَضَبه حين يَغضَبُ وَيْل ، ورِضاه حين يَرْضَى سَيْل ، ولم تَحْمِل مثلَه على ظَهْرِها إبلٌ ولا خَيْل ، وأمّا هذا فشَمِر ،

(١) لم يرد هذا الشطر الذى بين مربعين فى الأصــل ؛ وقد أثبتناه عن شعر الأعشين المطبوع فى أوربا . وفى الأصل : « وأنشد » مكان قوله : « وأيدى » ؛ وهو تحريف . وهضم بضمّتين : جمع هضوم ، وهو الجواد المتلاف .

(٢) فى الأصل : « وثميل » ؛ وهو تحريف .

(٣) كذا ورد هذا الاسم فى كلا الموضعين اللذين تحت هذا الرقم فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الــكلام ؛ ولم نجد من نصّ على تصحيحه بالعبارة .

(٤) كذا ورد هذا الاسم فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الــكلام هنا وفى صفحة ٥٠ سطر ٣ . ولم نجد من نص على تصحيحه فيما راجعناه من المظان .

(٥) ودّره : أهلــكه .

(٦) فى الأصل : « شبمة » ؛ وهو تحريف .

(٧) فى الأصل : « وسماه » ؛ وهو تحريف . والشاة الــكدمة : الغليظة السمينة .

(٨) جعجعه : نحره .

ليس فى أهله بالشَّحيح القَتِر، ولا المُسْرِف البَطِر، ولا يَخْدَع الحىَّ إذا اؤتُمِر[(١)]. وأمّا هذا فذُفَيْف، قارى الضَّيْف، ومُغْمِدُ السّيْف، ومُعِيلُ[(٢)] الشِّتاءِ والصَّيْفِ وأمّا هٰذا فنَبْضٌ، أسْنَتَ الحَىُّ فمرض، فعَدَلَ مَرَضُه عنـدهم إسْناتَهُمْ (أى قَحْطَهُمْ)، فقاموا[(٣)] عليه فأوْسَعَهُمْ دَقيقاً ولحمًا غَريضاً، ومِسْكاً رَميضا[(٤)]، وكساهُمْ ثيابًا بِيضا؛ وأمّا هٰذا فمالِك، حامِيَتنا[(٥)] إذا غزَوْنا، ومُطْعِمُ وِلْدانِنا إذا شَتَوْنا[(٦)]، ودافِعُ كلِّ كريهةٍ إذا عَدَتْ عَلَيْنا. فدَفَعتِ العُسَّ إلى مالِكٍ، فكان سيِّدَهُمْ.

بَشَّرَتْ امرأةٌ زَوْجها بأنّ ابنَها منه قد اتّغَرَ[(٧)]، فقال: أتبَشِّرينَنِي بعَدُوِّ الخُبْز؛ اذْهَبِى إلى أهْلِكِ.

قال الشاعر:

من يَشْتَرِى مِنِّى أبا زَيْنِ بَكْرَ بنَ نطّاحٍ بِفَلْسَيْنِ
كأنّما الآكِل مِنْ خُبْزِهِ يَقْلَعُ مِنْهُ شَحْمَةَ العَيْنِ

وأنشدَ غلَيِّمٌ مِنْ بَنى دُبَيْرٍ[(٨)]:

يا بنَ الكِرام حَسَبًا ونائِلَا حَقًّا أقولُ لا أقولُ باطِلَا

(١) اؤتمر: استشير.
(٢) يقال: أعال الرجل أهله، إذا كفاهم ومانهم، كعالهم.
(٣) قاموا عليه، أى قاموا بخدمته وما يصلحه فى مرضه.
(٤) الرميض: الحاد، يريد هنا حدة الرائحة. والذى فى الأصل: «رفيضا»؛ ولعله محرف عما أثبتنا. أو لعله: «فضيضا»، أى متفتتا متكسرا.
(٥) حاميتنا الخ، أى أنه يحمى بيوت الحى من المغيرين إذا خرج الرجال للغزو.
(٦) فى الأصل: «سنونا»؛ وهو تحريف.
(٧) اتغر الغلام واثغر: نبت ثغره.
(٨) فى الأصل: «دينار»؛ وهو تحريف.

إليكَ أشكُو الدَّهْرَ والزَّلازِلا　　وكلَّ عامٍ نَقَّحَ الحَمائِلا(١)

التَّنْقِيحُ : القَشْرُ ، أي قشَرُوا حَمائِلَ سُيوفِهِمْ فباعُوها لشدَّةِ زَمانِهِمْ .

وأنشد :

سَلَا أُمَّ عَبَّادٍ إذا الرِّيحُ أعْصَفَتْ　　وَجَلَّلَ أطْرافَ الرِّعانِ قَتامُها(٢)

وَجَفَّتْ بَقايا الطِّرْقِ إلَّا نَضِيَّةً(٣)　　يَصُدُّ الأشافِي(٤) والمَواسِي سَنامُها

وَضَمَّ إليَّ الليلُ مَنزِلَ رُفْقَةٍ　　تَرَامَتْ بهم طَخْياء(٥) داجٍ ظَلامُها

تَكادُ الصَّبا تَهْتَزُّهُمْ مِنْ ثِيابِهِمْ　　شديداً بأرْياطِ الرِّجالِ اعْتِصامُها

لقد عَلِمَتْ أنِّي مُفِيدٌ وَمُتْلِفٌ　　وَمُطْعِمُ أيَّامٍ يُحَبُّ طَعامُها

وقال آخَر :

إنَّ بَنِي غاضِرَةَ الكِراما　　إنْ يُقِمِ الضَّيْفُ بهم أعواما

يَكُنْ قِراهُ اللَّحْمَ وَالسَّناما　　أوْ يُصْبِحِ الدهرُ لهم غُلاما

يَكُنْ ظَرِيفاً وَجْهُه كُراما

وقال سَماعةُ بنُ أشْوَل :

رَأَتْ إبِلًا لأبَنَيْ عُبَيْدٍ تَمَنَّعَتْ　　مِنَ الحَقِّ لم تُورَكْ بحقٍّ إيالُها(٦)

---

(١) في الأصل : « الحلائلا » ؛ وهو تحريف .

(٢) في الأصل : « قيامها » ؛ وهو تحريف . وأطراف الرعان ، يريد أطراف الجبال .

(٣) في الأصل : « قصية » بالقاف والصاد ، وهو تصحيف .

(٤) الأشافي : المثاقب ، واحدته إشفى بكسر الهمزة وسكون الشين والفاء المفتوحة . وفي الأصل : « نصد السلافي » وهو تحريف . يقول : إن سنامها لم يبق فيه ما تخرجه الأشافي ولا المواسي : جمع موسى .

(٥) الطخياء : الظلمة الشديدة .

(٦) كذا ورد هذا الشطر في (ا) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام ؛ ولم نجده فيما راجعناه من الكتب .

فقالتْ ألا تَغْدُو لِقاحُكَ هكذا   فقلتُ أبَتْ ضِيفانُها وعِيالُها
فما حَلَبَتْ إلّا الثُّلاثةَ(١) والثُّنَى   وَلا قُيِّلَتْ إلّا قَرِيبًا مَقالُها

وأنشد أبو الجرّاح :

أرَى الخُلّانَ قد صَرَموا وِصالِى   وَأضْحَوْا لا سَلامَ وَلا كَلامْ
وَما أذْنَبْتُ مِنْ ذَنبٍ إليهم   سِوَى خَفِّ(٢) المَنائحِ والسَّوامْ

وقال آخر :

خِرْقٌ إذا وَقَعَ(٣) المَطِيُّ منَ الوَجَا   لم يَطْوِ دُونَ دقيقِه ذو المِزْوَدِ
حَتّى تَؤُوبَ به قليلا . . . . (٤)   تَحمَدَ الرَّفيقُ نَدَاكَ أوْ لم يَحْمَدِ

وقال آخر :

تَزَوَّدْتُ إذ أقبلْتُ نَحْوَكَ(٥) غادِيًا   إليكَ ونحوَ(٥) النّاسِ لا أتزَوَّدُ
أرانى إذا ما جِئْتُ أطْلُبُ نائلًا   نَظَرْتَ إلى وَجْهى كأنَّكَ أرْمَدُ

---

(١) الثلاثة بضم الثاء ، أى الثلاثة بفتحها ؛ يريد أنها لم تحلب إلا الثلاثة من الآنية أو الاثنين . وقيلت بضم القاف وتشديد الياء المكسورة : ذكره ثعلب هكذا ؛ ورواها بعضهم قيلت بفتح القاف من القيل بمعنى اللبن الذى يشرب وقت القائلة (اللسان) (مادة ثلث) .

(٢) خف المنائح ، أى خفتها ، مصدر خَفّ ؛ يريد قلة للنائح ، جمع منيحة ، وهى الناقة الممنوحة للانتفاع بوبرها وولدها ولبنها . وفى الأصل « جف » بالجيم ؛ وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : « رتع المطى من الرحا » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين . ويريد توانى المطايا وتخاذلها عن المشى من طول السفر وشدة ما أصاب حوافرها من المشى . يصف ممدوحه بالكرم فى هذه الحال ، وأنه خرق أى كريم متخرق فى المعروف وأن ذا مزوده
(٤) (أى صاحب زاده القيم عليه) لم يُخْفِ دقيقه ولم يخبئه ، بل يبذله للمرملين من الرفاق .

(٤) كذا ورد هذا الشطر فى الأصل ناقصا ؛ ولم نقف عليه فيما راجعناه من الكتب .

(٥) فى الأصول : « نحول » مكان « نحوك » و « حق » مكان « ونحو » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين .

ويقال : أزْوادُ[(١)] الرَّكْبِ مِنْ قُرَيْشٍ أبُو أُمَيَّةَ بنُ المُغيرة ، والأَسْوَدُ[(٢)] ابنُ المطَّلبِ بنِ أَسَدِ بن عبد العُزَّى ، ومُسافِرُ بن أبى عَمْرو بن أُمَيَّةَ عَمُّ عُقْبَة كانوا إذا سَافَرُوا خَرَجَ معهم الناسُ فلم يَتَّخِذُوا زَاداً ، ولم يُوقِدُوا ناراً كانوا يَكْفُونَهُمْ .

وقال الشاعر :

وبالبَدْوِ جُودٌ[(٣)] لا يزالُ كأنَّه ... رُكامٌ بأطْرافِ الإكامِ يَمُورُ

وقال آخر :

والناسُ إنْ شَبِعَتْ بُطُونُهُمُ ... فَفَنِيرُهُمْ[(٤)] مِنْ ذَاكَ لا يَشْبَعُ

وقال آخر :

دُورٌ تُحاكِى الجِنانَ حُسْناً ... لكِنَّ سُكانَها خِساسُ

متى أرَى الجُنْدَ ساكِنِيها ... وفِى دَهاليزِها يُدَاسُ

وقال آخر :

لولا مخافةُ ضَعْفِى عن ذَوِى رَحِمِى ... وحالُ مُعْتَصِمٍ بى مِنْ ذَوِى عَدَمِ

وحاجَةُ الأَخِ[(٥)] تَبْدُو لى فأُنْجِحُهَا ... لم أَثْنِ فى عملٍ كَفِّى على قَلَمِى

وقال آخر :

وأُوثِرُ ضَيفِى حِينَ لا يُوجَد القِرَى ... بقُوتِىَ أحْبُوه وأَرْقُدُ طاوِيَا

---

(١) فى الأصل : « ازدار الراكب » ؛ وهو تصحيف فى كلتا الكلمتين .

(٢) فى شرح القاموس « زمعة بن الأسود » .

(٣) فى الأصل : « جوع » ؛ وهو تحريف ، إذ ليس من المعروف تشبيه الجوع بالسحاب المتراكم ، وإنما يشبَّه بذلك الجود .

(٤) فى الأصل : « فعترتهم فى » ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : « لاح » ، وهو تصحيف .

وما أستكثرتْ نفسي لباذلِ وجْهه نَوالًا وإنْ كانَ النَّوالُ حَياتِيا

وقال المبرّد : البَطِنُ : الّذى لا يَهُمّه إلّا بطنُه . والرَّغيب : الشّديدُ الأكل . والمَنْهُوم : الّذى تمتَلِئُ بطنُه ولا تنتَهى نفسُه .

وأنشد ابنُ الأعرابيّ :

وإنّ قِرَى أهْل النِّباجِ أرانِبٌ وإن جاء بعْدَ الرَّيْثِ فهو قليلُ
إذا صدّ مَثْغُورٌ[1] وأعرَضَ مُمْرِضٌ فيومٌ على أهْل النِّباجِ طَويلُ

وقال آخر :

يَمينُك[2] فيها الخِصْبُ والناسُ جُوَّعٌ وقد شَمِلَتْهم حَرْجَفٌ[3] ودَبُورُ

وقال آخر :

ألقتْ قَوائمَها خَسًا[4] وترنَّمتْ طَرَبًا كما يَترنّمُ السّكْرانُ

يَعني قِدْراً . وقوائمُها ، يَعنى الأثافى . وخَسًا : فَرْد .

وأنشد :

بئسَ غِذاءُ العَزَبِ المَرْموعِ[5] حَوْأبَةٌ تُنْقِضُ بالضُّلوعِ

الرُّماع[6] : داء . وحَوْأبَة : دَلْوٌ كبيرة . والحَوْبُ والحُوبُ : الإثم .

(١) المثغور : الذى سقطت أسنانه لا يقدر على الأكل

(٢) فى الأصل : « عينك » ؛ وهو تحريف .

(٣) الحرجف : الريح الشديدة ، وكنى بالحرجف والدبور عن الجدب ، وفى الأصل : « وقد شملهم جرجف ودنور » ؛ وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : « قرائمها حسا » وهو تحريف فى كلتا الكلمتين ؛ والتصحيح عن كتب اللغة .

(٥) فى الأصل : « العرب المرنوع * خوانه » الخ البيت ؛ وهو تحريف كما ترى .

(٦) عبارة الأصل : الرفاع وخوانه داء كثيرة ؛ وهو تحريف فى جميع هذه الألفاظ وقد ذكر اللغويون أن الرماع داء فى البطن يصفر منه الوجه . وتُنقِض الضلوع ، أى تسمع الأضلاع نقيضا ، أى صوتا من ثقل تلك الدلو .

والحِيبَة : الحال . والحَوْباء : النَّفس[١] .

العَرَبُ تقول : ماء لا تِبْنَ[٢] معه ولا غيره . خبزٌ قَفار : لا أُدْمَ معه . وسَوِيقٌ جافٌ هو الذى لم يُلَتَّ بِسَمْنٍ ولا زَيْتٍ . وحَنْظَلٌ مُبَسَّل ، وهو أن يُؤكلَ وَحْدَه .

قال الراجز :

بئس الطّعامُ الحَنْظَلُ المُبَسَّلُ   يَاجَعُ منه كَبِدى وأَكْسَلُ[٣]

وَيَيْجَعُ أيضاً .

وقال أبو الجرّاح : المُبَسَّلُ يُحْرِق الكَبِدَ . والمُبَكَّل[٤] : أن يُؤكلَ بتَمْرٍ[٥] أو غيرِه ، يقال بَكِّلُوه[٤] لنا ، أى اخْلِطوه . قال : وعندنا طعامٌ يقال له : الخَوْلَع وهو أنْ يؤخذَ الحَنْظَلُ فيُنْقَعَ مرّاتٍ حتى تَخْرُجَ مرارَته ، ثم يُخْلَطَ معه تَمْرٌ وَدقيقٌ فيكون طعاماً طيّبا .

وقال : الخَلِيطةُ والنَّخِيسةُ والقَطِيبَة : أنْ يُحْلَبَ لَبَنُ الضَّأنِ على لَبَنِ المِعْزَى ، والمِعْزَى على لَبَنِ الضَّأن ، أو حَلَب النُّوقِ على لَبَنِ الغَنَم .

قال :

* اسقنى[٦] وأَبرِدْ غَلِيلِى *

(١) يلاحظ أن استطراد المؤلف هنا بذكر الحوب لا مناسبة له ، فإن الحوأبة فى البيت إنما هى من مادة « حأب » ، والحوب الذى ذكره من مادة (حوب) .
(٢) يريد بالتبن ما يعم أنواع العلف .
(٣) فى الأصل : « وأبسل » ؛ وهو تحريف .
(٤) ورد هاتان الكلمتان اللتان تحت هذا الرقم فى الأصل بالدال مكان الباء ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن كتب اللغة . يقال : بكله : إذا خلطه .
(٥) فى الأصل : « بمرا وغيره » ؛ وهو تحريف .
(٦) لم ترد فى الأصل بقية هذا البيت ؛ ولم نجده فيما راجعناه من الكتب .

مَلِئَ الرَّجُلُ : سَمِنَ بعد هُزال .

قيل لطفَيْل العَرَائس : كم أثنين فى أثنين ؟ قال : أرْبَعَةُ أرْغِفَة .

وقيل له : حُكِىَ أنَّ العَرَب تقول نحن العَرَبَ أقرى النـاس للضيف ، فقال : إنّ هذا النَّصْبَ على المدْح .

وقال العُمانىّ :

من كلّ جِلْفٍ(١) لم يكن مُصَرِّما جَعْدٍ يُرَى منـه التصنُّعُ رَيْثَمَا(٢)
لم يَتَجَشَّأْ من طَعامٍ بَشَما .... (٣)
ولم يبِتْ من فَتْرَةٍ مُوَصَّما(٤) يَغمِزُ صُدْغَيْه ويَشْكُو الأعْظُما
إذا أجاعَ بَطْنَـه تحزَّما(٥) لَم يَشْربِ الماء ولَم يَخْشَ الظَّما
يَكْفيه مِن قارِصَةٍ(٦) ما يَمَّما

(١) فى الأصل حلف بالحاء المهملة ؛ وهو تصحيف . وقوله : لم يكن مصرما ، إما أن يفسر بأنه لم يكن منتعلا ، مأخوذ من الصرم بكسر الصاد وهو الخف الذى له نعل . وإما أن يراد أنه لم يكن ذا مال مأخوذ من الصرمة بكسر الصاد ، وهى القطعة من الإبل من الأربعين إلى الخمسين ؛ وقيل غير ذلك فى عددها .

(٢) ريثما ، أى يصنع ريثما ينال بغيته . وفى الأصل ريّما ؛ وهو تحريف .

(٣) ورد فى هذا الموضع الذى وضعنا فيه هذه النقط شطر من هذه الأرجوزة مهمل أكثر حروفه من النقط ومطموس بعضها ، ولم نهتد إلى وجه الصواب فيه ، كما أنا لم نعثر على الأرجوزة فى المصادر التى بين أيدينا ؛ وها هو هذا الشطر كما فى الأصل :

* ولم يرحنا غراثا أدما *

(٤) يقال وصمته الحمّى بتشديد الصاد إذا جعلت فى جسده فترة . ويقال وصّمه التعب إذا فتّر جسمه وأكسله . وفى الأصل : « قترة » بالقاف ؛ وهو تصحيف .

(٥) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الشعر : إذا أجاع قبطة تخدما . وهو تحريف فى جميع هذه الألفاظ . وسياق الشعر يقتضى ما أثبتنا .

(٦) القارصة : الطائفة من اللبن الحامض الذى يحذى اللسان بحرافته .

وَخَلَّةٍ[١] منـــه إذا ما أعْيَمَا أصـــابَ مِنه مَشْرَبًا ومَطعمَا
لا يَعْقِرُ الشارفَ إلّا مُحْرِما[٢] وَلا يَعَافُ[٣] بَصَـلا وَسَلْجَمَا
يومًا وَلم يَفْغَرْ لِبطِّيـــخٍ فَمَا فهو صَـــحِيحٌ لا يَخافُ سَقَما
أسْوَدَ كالمِحراثِ[٤] يُدْعى شَجْعَما[٥] صَمَحْمَحٌ[٦] مِنْ طُولِ ما تَأثّما
لم يَبِل[٧] يومًا سَوْرَةً مِنَ العَمَى ولم يَحُجَّ المَسْـــجِدَ المُكَرَّما
وَلم يَزُرْ حَطِيمَـــه وزَمْزَما وَلا تَرَاهُ يَطْلُبِ التَفـــهُّما
لو لم يُرَبِّ[٨] مُسلِما ما أسْـــلَمَا ما عَبَدَ أثنـــانِ جَميعًا صَنَما
عاتٍ يرَى ضَرْبَ الرِّجالِ مغنَمَا إذا رَأى مُصَـــدِّقًا تَجَهَّما
وَهَزَّ فى الـكفِّ وأبْدَى المِعصما هِرَاوَتَيْنِ[٩] نَبْعَـــةً وسَلَما
يَبْرُكُ[١٠] مارامَ رُفاتًا رِمما وإنْ رأى إمَّرَةً[١١] تزَغّما
لم يُعْطِهِ شيئًا وإن ترغّما وإنْ قرَا عَهْـــدًا له مُنَمْنَما
هان عليه شـــقُّ ما قد رَقَّما وأنْ يَدُقَّ طِيـــنَهُ المُخَتَّما

(١) وخلّة منه ، أى من اللبن ، واحدة الخلّ ، معروف ، أى الطائفة منه . والخلّ قد يكون من اللبن كما فى كتب اللغة .

(٢) فى الأصل : لايعرف الشادف المحترما ؛ وفيه تحريف كما ترى ، وسياق الشعر يقتضى ما أثبتنا . والشارف : المسنّة من الإبل ، أى لا يعقر الناقة إلا فى الحج حين يجب عليه عقرها .

(٣) فى الأصل : « ولا يأنف » ؛ وهو تحريف .

(٤) المحراث : حديدة تحرك بها النار .

(٥) الشجعم من الحيات : الشديد الغليظ . وفى الأصل : سجعما بالسين المهملة ؛ وهو تصحيف .

(٦) الصمحمح : الشديد المجتمع الألواح .

(٧) فى الأصل : « يبك » بالكاف ؛ وهو تحريف .

(٨) فى الأصل : « يرث » بالثاء المثلثة ، وهو تصحيف .

(٩) فى الأصل : « إهاوه ببعثة » وهو تصحيف فى كلتا الكلمتين .

(١٠) فى الأصل : « ينزل » ؛ وهو تحريف .

(١١) الإمرة : الضعيف الرأى الذى يوافق كلا على ما يريد ولا رأى له

صَمْصامُه ماضٍ إذا ما صمَّمَا إذا اعترته عِزَّةٌ(١) ثم انتمى
فى ثَرْوَةِ الحىِّ إذا ما يمَّمَا ظَلَّ يرى حُكْمًا عليه مُبْرَما(٢)
أن يَظْلِمَ النَّاسَ وألّا يُظْلَمَا

وقال آخر:

ما كان يُنكَرُ فى نَدِىِّ مُجاشِعٍ أكْلُ الخزيرِ ولا ارتضاعُ الفَيْشَلِ(٣)

وقال آخر:

بلادٌ كأنَّ الجوعَ يَطْلُبُ أهْلَها
بذَحْلٍ(٤) إذا ما الضَّيْفُ صَرَّتْ جُنادِبُه(٥)

وقال آخر:

كَرِيُّه لا يُطْعِمُ الكَرِيَّا(٦) بالليلِ إلّا جِرْجِرًا مَقْلِيَّا
مُحْترِقًا نِصْفًا ونِصفًا نِيَّا

وقال الأصمعى: قال الهيثم بنُ جَراد — وذمَّ قومًا —: واللهِ ما أنتم آلُ

(١) فى الأصل: «غرة»؛ وهو تحريف.
(٢) فى الأصل: «منهما»؛ وهو تحريف.
(٣) فى (ا) الوارد فيها وحدها هذا الشعر «عزى» مكان «ندى»، وحريز مكان خزير؛ وهو تحريف كما ترى، والتصحيح عن النقائض؛ والبيت لجرير. والخزير: لحم يقطع صغارا ويلقى فى الماء فإذا أميت طبخا ذرّ عليه الدقيق.
(٤) فى الأصل: «بدخل»؛ وهو تصحيف.
(٥) صرير الجندب مثل يضرب للأمر يشتد حتى يقلق صاحبه. والأصل فيه أن الجندب إذا رمض فى شدة الحر لم يقر فى الأرض، وطار فتسمع لرجليه صريرا. والجندب طائر أصغر من الصدى يكون فى البرارىّ.
(٦) إذا أكريت إنسانا بعيرك أو أكراك بعيره فكل منكما كرىّ صاحبه، قاله فى اللسان وأنشد هذا الرجز. والجرجر: الفول بلغة أهل العراق؛ أو هو نبت. والذى فى الأصل «كدنة» مكان قوله «كريّه» وهو تحريف صوابه ما أثبتنا بعد تقليب هذه الكلمة على عدة وجوه.

فَلاةٍ فتَمْصِمَكُمْ ، ولا أنتم آلُ رِيفٍ فتأكلون . فقيل : لو زِدتَ ؟ فقالَ : ما بَعْد هذا شيء .

قال : وما أشبه هذا الجواب بقَوْل عقيل بن عُلَّفة[1] حين قيل له : لم لا تطيلُ الهجاء ؟ قال : يَكْفيكَ مِن القِلادة ما أحاط بالعُنُق .

وقيل لابن[2] عُمَر : لو دعَوْتَ الله بدعَوات ؟ فقال : اللهمّ عافِنا وارحَمْنا وارزُقنا . فقيل له : لو زِدتَنا ؟ فقال : نَعوذُ بالله مِنَ الإسْهاب .

قال شاعر :

إذا أغلَقَ البابَ الكريمُ مِنَ القِرَى فليس على باب الفَرَزْدَق حاجِبُ
فَتًى يَشْتَرِى حُسْنَ الثناء بمالِه إذا أغبَرَّ مِنْ بَرْدِ الشتاء الكَواكِبُ

قال : وكلّ لحمٍ وخُبْزٍ أُنْضِجَ دَفِيناً فهو مَلِيل ، وما كان فى تنُّور فهو شِواء ؛ وما كان فى قِدْرٍ فهو حميل[3] .

قال الأحنفُ لعُمر بن الخطاب : إن إخواننا من أهل الكوفة والشام نَزَلُوا فى مُقْلَةِ[4] الجمل وحِوَلاء النَّاقة من أنهارٍ متفجِّرة ، وثِمارٍ متدلِّية ، ونَزَلْنا

(١) كذا فى (ب) والذى فى (ا) : « ابن علقمة » .

(٢) فى (ب) « لأبى عمرو » .

(٣) كذا فى الأصل ؛ ولم نجد هذا اللفظ بهذا المعنى فيما راجعناه من كتب اللغة ؛ والذى وجدناه بالمعنى المذكور « قدير » أى مطبوخ فى القدر ؛ ولعل قوله حميل بالحاء المهملة مصحف عن جميل بالجيم ؛ وهو الشحم المذاب ، فيكون هنا كلام سقط من الناسخ قبل هذه الكلمة المصحّفة التى نحن بصددها .

(٤) مقلة الجمل وحولاء الناقة يتمثل بهما فى الخصب والنعمة ، فيقال : هم فى مثل حدقة البعير ، وذلك أن حدقة البعير أخصب ما فيه ، لأن بها يعرفون مقدار سمنه ، وفيها يبقى آخر النقى ، وهو مخ العظم . ويقال صاروا فى حولاء الناقة إذا صاروا فى خصب ؛ وإذا وصفت الأرض قيل كأنها حولاء الناقة ، لأن ماء الحولاء أشد ماء خضرة . والحولاء : الماء الذى يخرج على رأس الولد إذا ولد ، وليس فى الكلام فعلاء بالكسر ممدودا إلا حولاء =

بسَبِخَةٍ نَشَاشة(١) يأتينا ماؤُنا في مِثْل حلقوم(٢) النَّعامَة أو مَرِىءِ الحَمَل ، فإما أن تَشُقَّ لنا نهرًا ، وإما أن ترفعنا إليك .

قال جابر : كان النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأمرُ الأغنياء باتّخاذ الغَنَم ، والفُقَراء باتّخاذ الدَّجاج .

والعربُ تقول : أكرِمُوا الإبل إلّا في بَيْتٍ يُبْنَى ، أو دَمٍ يُفْدَى ، أو عَزَبٍ يَتزوّج ، أو حَمْلِ حَمالة .

وقال مُعَاوِيَةُ لأعرابيٍّ : ما تجارَتُكَ ؟ قال : أبيع الإبل ، قال : أما علمت أن أفْوَاهَها حَرَب(٣) ، وجلودَها جَرَب ، وبَعرها حَطَب ، وتأكل الذهب .

وقال خَالدُ بنُ صَفْوان : الإبلُ للبُعْد ، والبغالُ للثقل ، والبَرَاذينُ للجَمال والدّعة ، والحميرُ للحَوائج ، والخَيْلُ للكَرِّ والفرّ .

وقال آخر :

يَقْذِفْنَ في الأعناقِ والغَلاصِمِ(٤) قَذْفَ الجَلاميد بكَفِّ الراجِمِ

يُريدُ بالأعناق الحُلُوق .

= وعنباء وسيراء . وقيل : الحولاء : غلاف أخضر كأنه دلو عظيمة مملوءة ماء وتنفقأ حين تقع على الأرض وهو قائد السلى ، أى يخرج قبله ؛ ويقال أيضا هم فى مثل حولاء السلى . انظر ما يعوّل عليه للمحبي ولسان العرب .

(١) نشّاشة ، أى نزّازة بالماء لا يجف ثراها ، ولا ينبت مرعاها .

(٢) حلقوم النعامة ومرىء الحمل : مثلان فى قلة ما يأتيهم من الماء وضيق مسايله إليهم .

(٣) حرب ، أى ذات حرب ، وهو والكلب واحد وزنا ومعنى ؛ وجلودها جرب أى ذات جرب .

(٤) الغلاصم : جمع غلصمة ، وهى رأس الحلقوم . يريد أن هذه الإبل تقذف الطعام فى حلوقها وأعناقها قذف الحجارة . يصفها بقوة القذف قذف الطعام . والذى فى الأصل : « يقدمن » مكان « يقذفن » ؛ وهو تحريف .

وقال آخر :

نَغَارُ إذا ما الرَّوْعُ أَبْدَى عن البُرَى ونَقْرِى عَبيطَ اللَّحْمِ والماءُ جامِسُ(١)

وقال آخر :

تِلْكَ المكارِمُ لا ناقٌ(٢) مُصرَّمَةٌ ترعَى الفَلاةَ وَلا قَعْبٌ مِنَ اللَّبنِ

وقال أبو الصَّلت :

تِلكَ المَكارِمُ لا قَعْبَانِ(٣) مِنْ لَبَنٍ شِيبَا بماء فعادا بعدُ أبْوالا

وَوَصفَ بعضُ البُلغاء التجار فقال : لا يوجد الأدَبُ إلّا عند الخاصّة والسُّلطانِ ومُدَبِّرِيه ، وأما أصحابُ الأسواقِ فإنّا لا نَعدَم من أحدهم خُلُقًا دقيقًا ودِينًا رَقيقًا ، وحِرْصًا مُسْرِفًا ، وأدبًا مُختَلِفًا ، ودناءة مَعْلومة ، ومُرُوءة مَعْدومة وإلْفاءَ اللّفيف(٤) ، ومُجاذَبَةً عَلَى الطَّفِيف ، يَبْلُغُ أحدُهُم غايَةَ المَدْحِ والذَّمِّ فى عِلْقٍ(٥) واحد فى يوم واحد مع رجل واحد ، إذا اشتراهُ مِنه أو باعه إيّاه ، إن بايَعكَ مُرابَحةً(٦) وخَبَّرَ بالأثمان ، قَوَّى الأيْمانَ على البُهْتان ، وإن قَلَّدْتَه

(١) البيت لذى الرمة ، والبرى : الخلاخيل ، والماء الجامس : الجامد . يقول إنهم يغارون على النساء إذا اشتد الفزع ، وكشف الرعب عن سيقانهن فأبدين من خلاخيلهن ، فهم إذ ذاك يحمونهن ويكفينهن ما يفزعهن ؛ ثم يقول فى الشطر الثانى إنهم كرام ، إذا اشتد البرد وجد الماء يقرون أضيافهم عبيط اللحم ؛ وفى رواية سديف ؛ وقد ورد هذا البيت فى الأصل هكذا : يغار إذا ما الزرع أبدى عن الثرى ويقرى الخ . . . .
وفيه تصحيف فى بعض كلماته كما ترى ؛ والتصويب عن ديوان ذى الرمة وغيره .

(٢) الناق : جمع ناقة . وفى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا البيت : « لا ناب » بالباء ؛ وهو تحريف ، إذ الناب الواحدة — وهى المسنّة من الإبل — لا تكون مصرّمة ، أى بالغة صرمة ؛ وهى عدة من الإبل تبلغ الأربعين .

(٣) القعب : القدح الضخم . (٤) اللفيف : الصديق .

(٥) العلق : النفيس من المتاع .

(٦) يريد بالمرابحة هنا أن يقول المشترى للبائع : أربحك فى هذه السلعة كذا فوق ما اشتريتها به من الثمن أو أن يقول البائع للمشترى ذلك .

الوَزْنَ أعْنَتَ لِسانَ الميزان ، ليأخُذَ بِرُجْحانٍ أو يُعْطِيَ بنُقْصان ؛ وإن كان لك قِبلَه حَقٌّ لَواهُ مُحْتجًّا فى ذلك بسُنّةِ الشُّوفيِّين ، يَرْضَى لكَ ما لا يَرْضَى لنفسه ، ويأخذُ منكَ بِنَقْدٍ ويُعطيك بغَيْره ، ولا يَرَى أنّ عليه من الحقِّ فى المبايَعَة مثلَ ما لَه ؛ إن استَنْصَحْتَه غَشّك ، وإن سألْته كَذَبك ، وإن صَدَقْتَهُ حَرَبكَ مُتَمرِّدُهم صاعقةٌ على المُعامِلين ، وصاحبُ سَمْتِهم نِقْمَةٌ على المسْتَرْسِلين(١) ؛ قد تعاطَوا المُنْكَر حتّى عُرِف ، وتَناكروا المعروفَ حتّى نُسِى ، يتَمَسَّكونَ من المِلّةِ بما أصْلح البضائع ، وينهَوْن عنها كلَّما عادتْ بالوضائع(٢) ؛ يُسَرُّ أحدهم بحِيلةٍ يُزَرِّفُها(٣) لِسِلْعَةٍ ينفِّقُها ، وغِيلةٍ لمُسْلمٍ يَحْمِيه الإسلام ، فإذا أحكم حيلته وغيلتَه غدًا قادرًا على حَرْدِه ، فقرٌّ وَضَرٌّ ، وآبَ إلى مَنزله [بحطام قد جَمعه مغتبطًا بما أباحَ مِن دِينه] وانتَهَكَ من حُرْمَةِ أخيه ، يَعُدُّ الذى كان منه حِذْقًا بالتكسّب ، ورِفقًا بالمطّلَب ، وعِلْمًا بالتجارة ، وتَقَدُّمًا فى الصناعة .

(٣) فلمّا بلغتُ قراءتى هـذا الموضعَ قال الوزير : إن كان هذا الواصفُ عَنَى العامّةَ بهذا القوْل فقد دخل فى وصفه الخاصةُ أيضاً ، فوالله ما أسمع ولا أرى هذه الأخلاقَ إلّا شائعة فى أصناف الناس من الجُنْد والكُتّاب والتُّنّاء(٤) والصالحين وأهل العلم ؛ لقد حالَ الزّمانُ إلى أمْرٍ لا يأتى عليه النَّعْت ، ولا تَسْتَوْعِبُه الأخبار ، وما عَجَبِى إلّا مِنَ الزِّيادة على مَرِّ الساعات ، ولو وَقَفَ لعَلّه كان يُرْجَى بعضُ ما قَدْ وَقَع اليأسُ منه ؛ وأُعترِضَ القُنوطُ دُونَه .

---

(١) السمت : هيئة أهل الخير وطريقتهم . والمسترسلون : من استرسل إليه إذا انبسط إليه واستأنس ثقة به واتكالا على ما بينهما من ودّ وصلة . وفى الأصل : المترسلين ، وهو تحريف . (٢) الوضائع : الخسائر .

(٣) فى (ا) « يزورها » بتشديد الواو ؛ وهو وإن صح به المعنى إلا أنه لا يستقيم به السجع . (٤) التنّاء : الدهاقين ورؤساء القرى ، الواحد تانئ .

فقال ابن زُرْعة وكان حاضرًا : هـذا لأنّ الزمان من قبل كان ذا لَبُوس من الدِّين رائع ، وذا يَدٍ من السِّياسة بسيطة ، فأخْلَقَ اللَّبوسُ [وبَلِيَ ، بل تمزّق] وفَنِيَ ، وضعفت اليَدُ بل شَلّتْ وقُطعتْ ، ولا سبيلَ إلى سياسة دينيّة لأسْبَاب لا تتفق إلّا بعلل فلـكيّة ، وأمور سماويّة ، فحينئذ يكونُ انقيادُ الأمور الجامحة(١) لها ، في مُقابلة حِران الأمُور الجامحة(١) عنها ، وذلك مُنتظَر في وَقْتِه ، وتمنّي ذلك قبل إبّانِه وسواسُ النَّفْس ، وخَوَرُ الطِّباع ، والناس أهدافٌ لأغراض الزمان ومُتَقلّبون بحوادث الدهور(٢) ، ولا فَـكاكَ لهم مِن المـكارِه ، ولا أعتلاقَ لهم بالمحابِّ [إلّا] بالدواعي والصوارف التي لا سبيل لهم إلى تحويل هذه إلى هذه ، ولا إلى تبديل هـذه بهذه ، واختيارُهم للتوجُّه إلى محبوبِهم أو الإعْراض عن مكْرُوههم ضَعيفٌ طفيف ، ولولا ذلك لـكانت الحَسَرات تزول في وَقتِ ما يُراد(٣) ، والغِبطةُ تُملكُ(٤) بإدراك ما يتمنّى ، وهذا شأوٌ محكومٌ به بقُوّة النَّفس ، غيرُ مُستيقَظٍ إليه(٥) بقوّة الحِسّ .

فقال الوزير : أحسنتَ يا أبا عليّ في هذا الوصف ، « وإنّ نفسَكَ(٦) ليدُلّ على أكثرَ مِن ذلك » ، ولو كان البالُ ظافراً بنِعْمة ، والصَّدْرُ فارغاً من كُرْبَة ، لـكنّا نَبلُغُ من هذا الحديث مبلغاً نَشْفِي به غَليلَنا [قائلين] ونُشْفَى به مُسْتَمِعين ،

(١) ورد هذان اللفظان في كلتا النسختين كل منهما مكان الآخر ، والسياق يقتضى ما أثبتنا كما ترى .

(٢) في (ب) « الأمور » .

(٣) كذا في (ب) والذى في (١) « في فوت الإيراد » ؛ وهو تحريف .

(٤) في (ب) « تدرك » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٥) في كلتا النسختين : « عليه » وسياق الـكلام يقتضى ما أثبتنا .

(٦) كذا ورد هذا الـكلام الذى بين هاتين العلامتين في (ب) والذى في (١) « وأن تقبله كيدك على أعزز من ذلك » ؛ وفي هذا الـكلام تحريف كما ترى لا يفهم له معنى .

ولكنّي قاعِدٌ معكم وكأني غائب ، بل أنا غائبٌ مِنْ غير كاف التّشبيه ، والله ما أملِكُ تَصَرُّفي ولا فِكْري في أمري ، أرى واحداً في فَتْلِ حَبْل(١) ، وآخَرَ في حَفْرِ بئر ، وآخَرَ في نَصْبِ فَخّ ، وآخَرَ في دَسِّ حِيلة ، وآخَرَ في تقْبيح حَسَن ، وآخَرَ في شَحْذِ حَديد ، وآخَرَ في تمْزِيق عِرْض ، وآخَرَ في اختلاق كَذِب ، وآخَرَ في صَدْعِ مُلْتَئِم ، وآخَرَ في حَلِّ عَقْد ، وآخَرَ في نَفْثِ سِحْر ، وناري مع صاحِبي رَماد ، ورِيحُهُ عليّ عاصِفة ، ونَسِيمي بَيْني و بَيْنَه سَموم ، ونَصِيبي منه هُموم [وغُموم] ، وإنّي أحدِّثكم بشيء تَعلَمُون [به] صِدْقي في شَكْواي ، وتقِفون منه على تَفَسُّخي(٢) تَحْتَ بَلْواي ، ولولا أنّي أطفِئ بالحديث لَهَبًا قد تَضَرَّم صَدْري به نارًا ، واحتَشَى فُؤادي منه أوارًا ؛ لما تَحدَّثْتُ به ، ولو استَطَعْتُ طَيَّه لَما نَبسْتُ بحَرْفٍ منه ، ولكنَّ كِتْماني للحديث أنقَبُ لحِجابِ القَلْب من ألمَتَلة لسُور القَصْر .

دَخَلْتُ منذ أيام فوصلت(٣) إلى المجلس ، فقال لي قد أعَدْتُ الخِلْعَة فالْبَسْها على الطائر الأسْعد ، فقلت أفعَل ، وفي تذكِرتي(٤) أشياء لا بدّ مِنْ ذِكرها وعَرْضها .

فقال : هاتِ ، فقلت : يُتقدَّم(٥) بكذا وكذا ، ويُفْعَل كذا وكذا . فقال : عندي جميعُ ذلك ، أمْضِ هذا كلَّه ، واصنَعْ فيه ما ترى ، وما فَوْقَ يَدِك يد ، ولا عليك لأحدٍ اعتراض ؛ فانقلبتُ عن المجلس إلى زَاوِيَةٍ في الحُجْرة ، وفيها تحدَّرَت دُموعي ، وعلا شَهيقي ، وتَوالى نشيجي ، حتّى كِدْتُ أفتَضِح

---

(١) وردت هذه العبارة في كلتا النسختين مهمل بعض حروفها من النقط تتعذر قراءتها .
(٢) في كلتا النسختين « تفسحى » ؟ وهو تحريف .
(٣) في (ب) « فدخلت » . (٤) في (ا) « وفي فكري » .
(٥) يتقدم بكذا ، أي يؤمر به .

فَدَنَا منّى بعضُ خدَمِى من ثِقاتى ، فقال : ما هـذا ؟ الناس وقوفٌ يَنْتَظِرون بُرُوزَكَ بالخِلْعة المُبارَكة والتَّشريف المَيْمُون ، وأنت فى نوحٍ ونَدَم ؟! فقلتُ : تَنَحَّ عنّى ساعةً حتّى أُطْفِئَ نارَ صَدْرِى ، وإنما كان ذلك العارضُ لأنى كنت عرضتُ على صاحبى تذكرةً مشتملةً على أشياء مختلفة ، فأمضاها كلَّها ، ولم يُناظِرنى فى شىء منها ، ولا زادنى شيئاً فيها ، ولا ناظَرَنى عَلَيْها ، ولعلِّى قد بَلَوْتُهُ بها ، وأخفَيْتُ مَغزَاىَ فى ضِمْنِها ، فخُيِّل إلىّ بهذه الحال أنّ غَيْرِى يَقِفُ مَوْقِفى ، فيقول فىّ قَوْلاً مُزَخْرَفاً ، ويَنْسبُ إلىّ أمراً مؤلَّفا ، فيُمضى ذلك أيضاً له كما أمضاه لى ، فوجدتُنى[1] بهذا الفِكْرِ الذى قد فَتَقَ لى[2] هـذا النوع من الأمرِ كراقمٍ على صَفْحَةِ ماء ، أو كقابضٍ فى جَوٍّ على قِطعَةٍ من هَواء ؛ أو كمن يَنفخُ فى غير فَحَم ، أو يلعبُ فى قَيْد[3] ، ولقد صَدَقَ الأوّل حيث قال :

وإنّ امرأً دُنْياهُ أكبرُ هَمِّه ... لَمُسْتَمْسِكٌ منها بحَبْلِ غُرُورِ

غير أنّى أذكر لكم ما عَنَّ لِى[4] من هٰذا الأمر .

اِعْلَموا أنّى ظَنَنْتُ أنّ ما نظَّمَه[5] الماضى — رحمه الله — وأَصْلَحَه ، وبَنَاه وقَوَّمَه ، ونسَجَه ونَوَّقَه[6] لا يَسْتَحِيل فى ثَلاثين سَنةً ولا خَمْسين سنة ؛ وأنّ

(١) فى (ب) « فوجدته » ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا كما فى (ا) .
(٢) فى (ا) « فىّ » .
(٣) فى كلتا النسختين : « فى مد » ؛ وظاهر أن معناه لا يناسب ما هنا ؛ ولعله محرف عما أثبتنا .
(٤) فى (ب) : « ما غرقى » ؛ وهو تحريف .
(٥) فى (ا) : « ما يظهر » ؛ وهو تحريف .
(٦) فى (ا) : وقوفه ؛ وهو تحريف . ويلاحظ أن (ا) وحـدها هى التى وردت فيها هذه الكلمة والتى قبلها .

الحالَ تَدُومُ على ذلكَ المِنْهاج ، وتستمرُّ على ذلكَ السِّياج ، ونكونُ قد أَخَذْنا بطريقٍ من السَّعادة ، وبَلَغْنا لأَنفُسِنا بعضَ ما كُنّا نُسَلِّط عليه التَّمَنِّيَ من الإرادة فنَجْمَعُ بين علوِّ المرتبة ، وشرَفِ الرِّياسة ، ونَيْلِ اللَّذَّةِ ، وإدراكِ السرور ، واصطناع العُرْف ، وكسْبِ الثَّناء ، ونَشْرِ الذِّكْرِ ، وبُعْدِ الصِّيت ، فعادَ ذلكَ كلُّه بالضِّد ، وحالَ إلى الخلافِ ، ووقَفَ على الفِكْرِ المُضْنِي ، والخَوْفِ المُقْلِق ، واليَأْسِ الحيِّ ، والرَّجاء الميِّت ؛ وما أَحْسَنَ ما قال القائل :

أظمَتْنِيَ[1] الدُّنيا فلمّا جِئْتُها مُسْتَسْقِيًا مطَرَتْ عليَّ مَصائبا

فقال له ابنُ زُرْعة : إنَّ الأُمورَ كلَّها بيَدِ الله ، ولا يُسْتَنْجَزُ الخَيْرُ إلاّ منه ، ولا يُسْتَدْفَع الشرُّ إلاّ بهِ ، فَسَلْه جَميلَ الصُّنْعِ [وحُسْنَ النيّة] وأَنوِ الخير ، وبُثَّ الإحسان ، وكِلْ أَعْداءكَ إلى ربِّكَ الّذى إذا عرَفَ صِدْقَكَ وتَوَكُّلَكَ عليه فَلَّ حدَّهم ، وعفَّرَ خدَّهم ، وسَيَّحَ الفُراتَ إلى جَمَراتِهم حتى يُطْفِئَها ، وسَلَّطَ الأَرَضَةَ على أَبْدانِهم حتى تَقْرِضَها ، وشغَلَهُمْ بأَنْفُسِهم ، وخالَفَ بين كَلِمَتِهم ، وصَدَّعَ شَمْلَ جَميعِهم ، ورَدَّهم إليكَ صاغِرين ضارِعين ، وعَرَضَهُمْ عليك خاضِعين ؛ وما ذلك على الله بعَزيز ، وإنَّ اللهَ مَعَ المُحْسِنين على المُسيئين .

قال : والله لقد وَجَدْتُ رَوْحًا[2] كثيراً بما قُلْتُ لكم وما سَمِعْتُ منكم ، وأرجُو أنَّ اللهَ يُعينُ المَظْلُوم ، ويُهينُ الظّالم . قد تَمَطَّى اللّيل ، وتغَوَّرَتْ النُّجُوم ، وحَنَّ البَدَنُ إلى التَّرَفُّه ؛ فإذا شِئْتُمْ[3] . فانْصَرَفْنا مُتَعَجِّبين .

(١) فى (أ) : « أطعمتنى » . وفى (ب) : أطمعتنى ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين . والبيت للمتنبى .

(٢) الروح بفتح الراء والراحة كلاهما بمعنى واحد .

(٣) هذه الجملة أريد بها الإيذان بالانصراف .

الليلة الثالثة والثلاثون

عُدْنا إلى ما كنّا فيه مِنْ حَديثِ المُلحة — وكانَ قد استزادَنى — فكتبتُ (١)
له هٰذه الورقات وقرأتُها بين يدَيه، فقال كلامًا كثيرًا عند كلّ ما مرّ ممّا يكون صِلَةً لِذٰلك الحديث، خزلتُه طَلبًا للتخفيف.

قال حمّاد الرّاوية: عن قتادَةَ قال زيادٌ لغَيْلانَ بن خَرَشة: أحِبُّ أن تحدّثنى عن العَرَب وجَهْدِها وضَنْكِ عَيْشِها لِنحمَدَ اللهَ على النِّعْمَة الّتى أصبحْنا بها. فقال غَيْلان: حدّثنى عمّى قال: توَالَت على العَرَبِ سِنون [سَبْعٌ فى الجاهلية] حَصّت[(١)] كلَّ شىء، فخرجتُ على بَكْرٍ لى فى العَرَب، فمكثتُ سبعًا لا أذوقُ فيهنّ شَيْئًا إلّا ما يَنالُ بَعيرى من حشرات [الأرض] حتى دنوتُ[(٢)] إلى حِواء[(٣)] عظيم، فإذا ببَيْتٍ جَحِيشٍ[(٤)] عَنِ الحىّ، فمِلْتُ إليه، فخرجت إلىّ امرأةٌ طُوالَةٌ حسّانة[(٥)]، فقالت: مَن؟ قلتُ: طارِقُ لَيْلٍ يَلتمِسُ القِرَى. فقالت: لو كان عِندَنا شىءٌ آثَرْناكَ به، والدالُّ على الخَيْر كفاعِلِه، جُسْ هٰذه البُيُوتَ فانْظُر إلى أعْظَمِها، فإنْ يَكُ فى شىء منها خَيْرٌ ففيه. فَفَعلْتُ حتى دَنَوْتُ[(٦)] إليه، فرحّبَ بى صاحِبُه وقال: مَن؟ قلتُ: طارِقُ لَيْلٍ يَلْتَمِسُ القِرَى. فقال: يا فلان، فأجابه، فقال: هل عِنْدَكَ (من) طَعام؟ قال:

(١) فى (ب): «أهلكت»؛ والمعنى يستقيم عليه أيضاً. يقال: حص الشعر ونحوه إذا استأصله.

(٢) فى (ب): «ولجت». (٣) الحواء: جماعة البيوت.

(٤) الجحيش: من قولهم: رجل جحيش المحل إذا نزل ناحيــة عن الناس ولم يختلط بهم. ويريد بعد ذلك المنزل وانعزاله عن منازل ذلك الحىّ.

(٥) طوالة حسانة، أى طويلة حسنة.

(٦) فى (ب): (دفعت إليه)؛ والمعنى يستقيم عليه أيضاً.

لا ، قال : فوالله ما وَقَرَ فى أُذُنِى شىء كان أشدَّ علىَّ منه . فقال : هل عندكَ مِنْ شَراب ؟ قال : لا ، ثم تأوَّهَ وقال : قد أبقَيْنا فى ضَرْعِ فلانةَ(١) شيئاً لِطارقٍ إنْ طرَق ، قال : فأتِ به ، فأتَى العطَن فابتعَثَها ، فحدّثنى عمّى أنه شهِدَ فتحَ أصْفهانَ وتُسْتَر ومِهْرَجان(٢) قَذَق وكُوَرَ الأهْواز وفارسَ ، وجاهَدَ عند السُّلطان وكثُر ماله ووَلَدُه ، قال : فما سمعتُ شيئاً قطُّ كان ألذَّ إلىَّ من شَخْبِ تلك الناقة فى تلكَ العُلْبَة ، حتى إذا مَلأها ففاضت مِنْ جَوانبها وارتفعَتْ عليها رُغْوةٌ كجُمَّة(٣) الشَّيخ أقبل بها نَحْوِى فعثَر بعُودٍ أو حَجَر ، فسقطت العُلبةُ مِن يده ، فحدّثنى أنه أصِيبَ بأبيه وأمّه [وولده] وأهل بيته ، فما أصيبَ بمُصيبة أعظمَ عليه مِن ذهاب العُلبة ؛ فلمّا رآنى(٤) كذلك رَبُّ البَيْتِ خَرج شاهراً سَيْفَه ، فبَعَثَ الإبِلَ ثم نَظَر إلى أعظَمِها سَناماً ، على ظَهْرِها مثل رأسِ الرّجل الصَّعِل(٥) ، فكَشفَ عن فُوَّهَتِه(٦) ثم أوقد ناراً ، وأجْتَبَّ سَنامَها ، ودَفَعَ إلىَّ مُدْيَة وقال : يا عبدَ الله ، اصْطَل واجْتَمِلْ(٧) فجعَلْتُ أهْوِى بالبَضْعَةِ إلى النَّارِ ، فإذا بلغَتْ إناها أكلْتُها ، ثم مَسَحْتُ ما فى يَدِى من إهالَتها على جِلْدى ، وكان قَدْ قَحِلَ(٨) على عَظْمِى حتى كأنه شَنٌّ(٩) ، ثم شربتُ ماءً وخرَرْتُ مَغْشِيًّا علىَّ ، فما أفقتُ إلى السَّحَر .

---

(١) فلانة : كناية عن اسم بعض نياقه . وفى (أ) : النلابة ؛ وهو تحريف .
(٢) تستر : مدينة عظيمة بخوزستان . ومهرجان قذق : كورة ذات مدن وقرى قرب الصيمرة ، من نواحى الجبال . وغير هذين من البلاد المذكورة هنا معروف فلا مقتضى للتعريف به .
(٣) الجمة : مجتمع شعر الرأس ، وهى أكبر من الوفرة .
(٤) فى (ب) : « فلما رأى ذلك » . (٥) الصعل : الدقيق الرأس .
(٦) فوّهة الشىء : أعلاه ، يريد أعلى السنام . وفى الأصول ما يشبه فى الرسم كلمة عرقوبها ولا مقتضى لكشف عرقوب الناقة هنا . (٧) اجتمل الشحم : أذابه فى النار .
(٨) قحل على عظمى ، أى يبس من وهج الحر وبعد عهده بالماء .
(٩) الشن : المزادة اليابسة الخلقة .

فقَطَعَ زيادٌ الحديثَ وقال : لا عليكَ أنْ تُخْبِرَنا بأكثرَ مِنْ هٰذا ، فمَنِ المَنْزُول به[١] . قلتُ : عامِرُ[٢] بنُ الطُّفَيْل . قال : أبو عليّ ؟ قلتُ : أبو عليّ .

واستعادَني الوزير [أدام الله علوّه] هذا الحديثَ مرّتين وأكثرَ التعجُّب ، وقال : صَدَقَ القائلُ في العَرَب : مُنِعُوا الطَّعامَ وأُعْطُوا الكلامَ .

تَغَدَّى أبو العَيْناء عند ابن مكرّم ، فقدّمَ إليه عُراقًا[٣] ، فلما جَسَّهُ قال : قِدْرُكُم هٰذه قد طُبِخَت بشِطْرَنج ؟[٤] .

وقدّمَ إليه يومًا قِدرًا فوجدَها كثيرةَ العِظام ، فقال : هذه قِدْرٌ أم قَبْر ؟

وأكلَ عِندَه أبو العَيْناء يَوْمًا ، فَسُقِيَ ثلاثَ شَرَبات باردة ، ثم طَلَبَ الرابعةَ فَسُقِيَ شَرْبَةً حارّة ، فقال : [لعلّ] مزمّلتَكم[٥] تعتريها حُمَّى[٦] الرِّبْع .

قال سَلَمة : بَقِيَ أبُو المَنْقام ببَغدادَ وكنّا نأتيه ونَسْمَع منه ، فجاءنا بجَفْنَة فيها جُوذَاب[٧] فجعلَ أصحابُنا يأكلون ، ثم أتاهم بسَفُّودٍ فيه يَرابِيعُ فسَلَّتَها في الجفنة ، فعَلِمَ القومُ أنّهم قد دُهُوا ، فجعَلوا يَستقيئون ما أكلوا .

وقالت عائشة : [رضي الله عنها] : يا رسول الله ، لي جارتان بأيّتهما أبْدَأ ؟ قال : « بأدْنَاهُمَا بابًا منك[٨] » .

---

(١) في (ا) : « عليه » .
(٢) عامر بن الطفيل : هو ابن مالك بن جعفر بن كلاب العامري وهو ابن عم لبيد .
(٣) العراق : العظم الذي أخذ ما عليه من اللحم .
(٤) يريد بهذه العبارة وصف ما في القدر باليبس والصلابة كبيادق الشطرنج .
(٥) المزملة : جرة أو خابية خضراء في وسطها ثقب فيه قصبة من الفضة أو الرصاص يشرب منها .
(٦) حمى الربع هي التي تأخذ يوما وتدع يومين ، ثم تجيء في اليوم الرابع .
(٧) الجوذاب : طعام يتخذ من سكر وأرز ولحم ، وهو فارسي .
(٨) في (ب) : « إليك » .

وقال حكيم : يَنْبَغِى أَلَّا يُعْطَى البخيلُ أَكثرَ مِنْ قُوتِهِ ، ليُحْكَمَ عليه بمثْلِ ما حكَم [به] على نفسه .

وقال الشاعر :

أفلَحَ مَنْ كانَتْ له قَوْصَرَّهْ(١) يأكلُ منها كلَّ يومٍ مَرَّهْ
أفلَحَ مَن كانَتْ له مِزَخَّهْ(٢) يَزُخُّها ثم يَنَامُ الفَخَّهْ
أفلَحَ مَن كانت له دَوْخَلَّهْ(٣) يأكلُ منها كلَّ يومٍ مَلَّهْ
أفلَحَ مَن كانت له مِرْشَفَّهْ(٤) ونَشْفَةٌ(٥) يملأُ منها كَفَّهْ
أفلَحَ من كانت له كِرْدِيدَهْ(٦) يأكل منها وهو ثانٍ جِيدَهْ

وقال أبو فرعون الشاشيّ يخاطب الحجّاج :

يا خيرَ رَكْبٍ سَلَكُوا طَرِيقا ويمَّموا مَكَّةَ والعَقِيقَا
وأطْعَمُوا ذا الكَعْكَ والسَّوِيقا والخُشْكنانَ(٧) اليابسَ الرَّقيقا

---

(١) القوصرة : وعاء من قصب يرفع فيه التمر من البوارى ؛ وينسب هذا الشعر إلى على ابن أبى طالب كرم الله وجهه .

(٢) فى رواية : « طوبى لمن كانت » الخ . والمزخة : زوجة الرجل لأنه يزخها ، أى يجامعها ؛ والفخة : نومة الغداة ، وقيل نومة التعب . وفى الأصل : القخة بالقاف ؛ وهو تصحيف .

(٣) الدوخلة : سفيفة من خوص يوضع فيها التمر والرطب ؛ وهى كالزنبيل . والملة : المرة .

(٤) فى رواية : « طوبى لمن كانت » الخ ، والمرشفة : خرقة ينشف بها ماء المطر من الأرض ثم تعصر فى الإناء ؛ وإنما يفعل ذلك إذا قل الماء . ذكره صاحب اللسان وأورد هذا البيت شاهداً عليه .

(٥) فى الأصل : « ومنشر » ؛ وهو تحريف . والنشفة : خرقة تنشف بها اليد .

(٦) الكرديدة : القطعة العظيمة من التمر . وهو ثان جيده ؛ أى وهو فى راحة ودعة .

(٧) الخشكنان : الخبز اليابس ، وهو المعروف عندنا بالبسكويت . انظر المعجم الفارسى الانجليزى لاستاينجاس .

وقال آخَر :

رَأَيْتُ الْجوعَ يَطْرُدُهُ رَغِيفٌ ومِلْءُ الكفِّ من ماء الفُراتِ

وقال النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم : « الطاعِمُ[1] الشاكر بمنزِلةِ الصائمِ الصّابر » .

قَبَّلَ مُزَبِّدٌ[2] جاريةً بَخْراء ، فقال لها : أظنُّك تعشَّيْتِ بكَرِش ، أو احتشَيْتِ صَحْنا[3] ؛ فقالت : ما أكَلْتُ إلّا خَرْدَلًا . قال : قد ذَهَبَ النِّصْفُ الثاني وبَقِيَ ما قَبْلَه .

قال شاعر :

وباتُوا يُعَشّون القُطَيْعاء ضَيْفَهُمْ وعندهُمُ البَرْنِيُّ في جُلَلٍ دُسْمِ[4]

وقال آخَر :

وما أطْعَمُونا الأوْتَكَى[5] من سَماحَةٍ ولا مَنَعوا البَرْنيَّ إلا مِنَ البُخْلِ

سَمِعْتُ الحجّاجيَّ يقول : كُلِ الْخبزَ أو السَّمك ، فإنْ أكلَ أحدَهما كان مُطيعاً ؛ فإذا نَفَيْتَ فقلتَ : لا تأكل الخبزَ والسَّمك ؛ فإن أكلَ أحدَهما لم يَعْصِك ؛ وإذا قلتَ : لا تأكل الخبزَ أو السمك ، لم يَكُنْ له أنْ يأكُلَ أحدَهما

(١) الطاعم ، أى ذو الطعام ، أو المطعوم .

(٢) فى كلتا النسختين « مزيد » بالياء المثناة ؛ وهو تصحيف . ومزبد بالموحدة هو صاحب النوادر المعروف .

(٣) الصحنا والصحناة — ويمدان ويقصران — إدام يتخذ من السمك الصغار ؛ مشهٍّ مصلح للمعدة

(٤) القطيعاء : التمر السهريز ، والتمر السهريز : الصغير ، وهو أردأ التمر ؛ وقيل هو البسر قبل أن يدرك ؛ والبرنى نوع جيد من التمر . والجلة : وعاء يتخذ من الخوص يوضع فيه التمر . والدسم : الغلاظ .

(٥) الأوتكى ، هو التمر السهريز ؛ وهو والقطيعاء التى تقدم شرحها فى الحاشية السابقة واحد ؛ وفى المخصص « اللؤم » مكان « البخل » ؛ وفى الأصل : « الأربكى » مكان « الأوتكى » ؛ وهو تحريف .

لأن التقدير في النفي لا تأكل أحدَهما ، والتقديرَ في الإيجاب ائتِ أيَّهما شئتَ ؛ فهذه خاصيَّةُ أو . السَّويقُ : الجَشِيشُ⁽¹⁾ ، لأنَّه رُضٌّ وكُسِرَ . المِجَشَّةُ : رَحًى صَغِيرَةٌ يُجَشُّ بها . رُوِيَ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم رأى الشُّبْرُمَ⁽²⁾ عند أسماء بنت عُمَيْس فقال : « حارٌّ حارٌّ » ، وأمَرَ بالسَّنا⁽³⁾ .

ويُقال : أكْلُ البطِّيخ⁽⁴⁾ مَجْفَرَة ، أي يَقْطَعُ ماء النكاح .

ويُقال : فلانٌ عظيمُ المُجْرَأَشِّ⁽⁵⁾ أي الوَسَط ، فرسٌ مُجْرَئِشٌ⁽⁵⁾ الجَنْبَيْن واجْرَأَشَّت⁽⁵⁾ الإبلُ ، إذا بَطِنَتْ ، وإبلٌ مُجْرَئِشَّةٌ⁽⁵⁾ أي بِطان ؛ ويقال : كَثْأَةُ⁽⁶⁾ قِدْرِكُمْ ، وهي ما ارتَفَعَ منها عند الغَلْي .

وقال النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم فيما رواه ابن عباس قال : سمعتُه يقول : « ليس بمؤمنٍ مَنْ باتَ شَبْعانَ [رَيَّانَ] وجارُه جائعٌ طاوٍ » .

قال عُمَر : مُدْمِنِ اللَّحمِ كَمُدْمِنِ الخَمْرِ .

وقال لَقِيطُ بنُ زُرارَةَ يَذُمُّ أصحابَه يَوْمَ جَبَلَة :

(1) في الأصل : « المشيش » ؛ وهو تصحيف .

(2) الشبرم : نبات له حب كالعدس ، وأوراقه تشبه الطرخون . وفي النهاية لابن الأثير عن أم سلمة أنها شربت الشبرم الخ فقال إنه حارٌّ حارٌّ ، وفسر الشبرم بأنه حب كالحمص يطبخ ويشرب ماؤه للتداوي ، وقيل إنه نوع من الشيح ، أخرجه الزمخشري عن أسماء بنت عميس .

(3) السنا . نبات معروف في الأدوية ، له حمل إذا يبس وحركته الريح سمعت له زجلا الواحدة سناة ، وعرفه بعضهم بأنه نبات يشبه الحناء ، زهره إلى الزرقة وحبه مفرطح إلى الطول عريض الأوراق وأجوده الحجازي ، ويعرف بسنامكة ؛ وقد يقال له السناالمكي ؛ ونوع آخر ينبت ببلاد الروم ويقال له السنا الرومي .

(4) في الأصل : « البطيح » بالحاء المهملة ؛ وهو تصحيف .

(5) وردت هذه الألفاظ التي تحت هذا الرقم في الأصل بالحاء والسين المهملتين ؛ وهو تصحيف ؛ والتصويب عن كتب اللغة .

(6) في الأصل : « كباة » بالباء الموحدة ، وهو تصحيف ، والتصويب عن كتب اللغة .

إنَّ الشِّواء والنَّشيلَ والرُّغُفْ والقَيْنَةَ الحَسْنَاء والكأسَ الأُنُفْ
لِلضار بينَ الهامَ والخَيْلُ قُطُفْ

قيل لِدُبٍّ: لِمَ تُفْقِرُ رَجُلاً في ليلةٍ من كثرةِ ما تأكُلُ [من] عِنَبِه؟ فقال: لا تَلُمْني، فإنّ بين يَدَيَّ أربعةَ أشهرٍ أَنْجَحِرُ فيها فلا أتلمَّظُ إلّا بالهواء.

قال ابن الأعرابيّ: إذا أَقْدَحَ(١) الرَّجُل مرّةً بعد مرّةٍ فأطعَمَ لحمَه المَساكينَ سُمِّيَ متمِّمًا، وبه سُمِّيَ ابنُ نُوَيْرَة، ومن ذلك قولُ النابغة:

إنِّي أُتَمِّمُ أيساري وأمنَحُهُمْ مَثْنَى الأيادِي(٢) وأكسُو الجَفْنَةَ الأُدُمَا

الثُّرْتُمُ(٣) مِن فُتات الطعام، ويقال الثُّرْتُمُ أيضاً [ما فَضَلَ من(٤) الطعام في الإناء]، ويقال: طعامٌ ذُو نُزُل(٥). والمَليحُ والمِلْحُ: السِّمَن، يقال: تَمَلَّحَت الجاريةُ وتَحَلَّمَتْ إذا سمِنَت.

وقال أبو الطَّمَحانَ القَيْنيّ(٦):

وإنِّي لأرجو مِلْحَها في بُطونِكُمْ وما كَشَطَتْ مِنْ جِلْدِ أشعَثَ أغبَرَا

هكذا سمِعْتُ. ويقال: سَمِنَ حتى كأنّه خَرْس(٧)، والخَرْس(٧): الدَّنُّ بعَيْنِه. وفي المَثل: «إنّ آخِرَ الخَرْسِ(٧) لدُرْدِيّ» أي آخِرُ الدَّنِّ دُرْدِيٌّ.

---

(١) أقدح الرجل، أي ضرب بالقداح في الميسر.

(٢) كذا ورد هذا البيت في اللسان؛ والذي في الأصل: «مثنى الأتاق» مكان قوله: مثنى الأيادي؛ وهو تحريف. والأدم: بضمتين هو الأدم بتسكين الدال، أي ما يؤتدم به. يقول: إنه يفوز بهذا اللحم فيطعمه المساكين.

(٣) في الأصل: الترثم؛ وهو تصحيف. والتصويب عن كتب اللغة.

(٤) لم ترد هذه العبارة في (ا) المنقول عنها وحدها هذا الكلام، غير أنها تكملة يقتضيها سياق الكلام أخذا من كتب اللغة؛ وواضح أن الكلام بدونها يكون ناقصاً.

(٥) ذو نزل، أي ذو بركة.

(٦) في الأصل: «العتبي»؛ وهو تصحيف.

(٧) في الأصل: «الحرش»؛ وهو تصحيف في المواضع الثلاثة التي تحت هذا الرقم.

وأنشد :

حَبَّذَا الصَّيْفُ حَبَّذَا مِن أَوانِ ... وزَمانٍ يَفوقُ كلَّ زَمانِ
زَمَنُ الخَمْرِ والمَساورِ والجَشْـ ... ـنِ(١) ووَرْدِ(٢) الخِلافِ والرَّيْحانِ
زَمَنٌ كانت المَضائِرُ(٣) فيه ... بلُحوم الجِداء والحُمْلانِ
وصُدورُ الدَّجاجِ بالخَلِّ والمُـ ... ـرِّى ونَثْرِ السَّذابِ والأَنْجُذانِ(٤)
وسِمانٌ مِنَ القَراريجِ تُغْلَى ... بعَصيرِ الأَعْنـابِ والرُّمّانِ
وشِـوا الوَزّةِ اللذيذَةِ والقا ... رِص بين الحَليبِ والأَلبانِ
ونَقِىِّ السَّـويقِ بالسُّكَّرِ المَنْـ ... ـخُولِ فى الثلج فى الزُّجاجِ اليَمانِى
وقِلالٌ تُحَطُّ مِنْ بَكَراتٍ ... مُرْوِياتٌ غَلائِلَ العَطْشانِ

وأعترضَ حديثُ العِلْمِ ، فأنْشَدَ ابنُ عُبَيْدٍ الكاتبُ لسابقٍ الزُّبَيْرِىِّ قولَه :

العِلْمُ يَجْلو العَمَى عن قَلْبِ صاحِبِه ... كما يُجَلِّى سَوادَ الظُّلْمَةِ القَمَرُ

وقال أيضاً :

إذا ما لم يكن لك حُسْنُ فَهْمٍ ... أَسَأْتَ إجابَةً وَأَسأتَ فَهْمَا

---

(١) الجشن : لفظ فارسى معناه مجتمعات الناس فى الأعياد والولائم ونحو ذلك ، كما فى المعجم الفارسى الإنجليزى لاستاينجاس . ولم نجد للمساور معنى يناسب السياق ؛ فلعله تحريف لم نهتد إلى وجه الصواب فيه . وفى الأصل : (ومن) مكان (زمن) ؛ وهو تحريف .

(٢) فى الأصل « وبرد » مكان (وورد) ؛ وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : « ومن كانت المضار » ؛ وفيه تحريف لا يخفى . والمضائر : جمع مضيرة وهى لحم يطبخ باللبن المضير ، أى الحامض ، وقد يخلطون به الحليب . أما كيفية عملها فقد ذكرت فى كتب الأطعمة فانظرها .

(٤) الأنجذان : نبات له أصل أغلظ من الإصبع ، وقرون كقرون اللوبياء ، فيها حب كالعدس ؛ وهو فارسى معرّب .

آخَر :

العِلْمُ يُنْعِشُ أقواماً فينفَعُهُم(١) كالغَيْثِ يُدْرِكُ عِيداناً فيُحْيِيهَا

فقال الوزير : عندى فى صحيفةِ حِفْظِ الصِّبا : العِلْمُ سِرَاجٌ يُجَلِّى الظُلْمَةَ ، وضياءٌ يَكْشِفُ العَمَى .

التَّذَلُّل مكروهٌ إلّا فى أستفادتِهِ ، والحِرْصُ مَذْمُومٌ إلّا فى طَلَبِهِ ، والحَسَدُ مَنْهِىٌّ عنه إلّا عليه .

ثم عاد الحديثُ إلى المُمَالَحَة : (٣)

حدثنى مُطَهَّر بنُ أحمدَ الكاتبُ عن ابن قرَارة العطّار قال : اجتمع ذات يومٍ عندى على المائدةِ أبو علىّ بنُ مُقْلَةَ وأبو عبد الله اليزيدىّ ، وكان ابن مُقلةَ يُفضِّلُ الهَرِيسة ، وكان اليَزيدىُّ يفضِّل الجُوذابَةَ ، وكان كلّ واحد منهما يصفُ النوعَ الذى يَقولُ به ويُؤْثِرُه ، فقال اليزيدىّ : الهَرِيسَةُ طعامُ السُّوقِيِّين والسِّفْلَةَ ، وليست الجوذابة بهذه الصفَة ؛ فقال لى أبنُ مُقلة : ما أسم الجوذابة بالفارسيّة ؟ فقلتُ جَوْزاب(٢) ، فقال : ضُمَّ الكاف(٣) . وفهمتُ ما أراد ، فقلتُ : نسألُ اللهَ العافية ، والله لقد عافَتْها نفسى ، وسَكَتَ اليَزيدىّ .

قال يزيد بن ربيع : الكبابُ طعامُ الصَّعاليك ، والماء والمِلحُ طَعامُ الأعراب ، والهرائس والرُّءوسُ طعامُ السّلاطين ، والشِّواءُ طَعامُ الدُّعّار ، والخلُّ والزَّيْتُ طعامُ أمثالنا .

---

(١) ينفعهم ، أى يرويهم ، وفى الأصل « ينفعهم » بالفاء ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا أخذا من التشبيه . (٢) ضبطنا هذا اللفظ بفتح الجيم وبالزاى بعدها لما تقتضيه النكتة الآتية . وهذا اللفظ بالفارسية ينطق بالدال أو الزاى كما فى معجم استاينجاس بمعنى الطعام الذى يتخذ من اللحم والأرز والسكر والبندق .

(٣) أراد بالكاف هنا الكاف الفارسية وهى تنطق جيما مصرية ، ويشير إلى لفظ جوز بالفارسية وهو الفساء ؛ فهو ينفره من هذا الطعام بهذه النكتة .

وحدّثنى ابنُ ضبعونَ الصُّوفىُّ قال : قال لى أبو عمر الشارى[١] صاحبُ الخليفة : انهضْ بنا حتى نتغدّى ، فإنّ عندى مَصُوصاً[٢] وهُلاماً[٣] وبَقيّة مُطجّنة ، وشيئاً من الباذنجان البُورانىّ البائت المخدَّر . قلتُ : هذه كلها تزايينُ المائدة ، فأينَ الأُدْم ؟

كان عبدُ الله بنُ علىّ بن عبدِ الله بن العبّاس يُكثِرُ أكلَ الجُوذَاب ولا يُؤْثِرُ عليه شيئاً ، وكان يقول : يَشُدُّ العَضُدَيْنِ ، ويقوّى الساعِدَيْن ، ويَجْلُو الناظِرَيْن ، ويَزِيدُ فى سَمْع الأذنَين ، ويُحَمِّرُ الوَجْنَتَيْن ، ويزيد فى المَنِىّ ، وهو طعام شهىّ ، فأىُّ شىء بَقِىَ ؟

وبَلَغَ المنصورَ وَصْفُه هذا ، فقال : بحَقّ ما وَصَفه ، ولا نَقْبلُ أَكْلَه .

وقال وَكِيعُ بنُ الجرّاح : التَّمتين[٤] على المائدة خيرٌ من زيادة لَوْنين ، وكمالُ المائدة كثرةُ الخبز ، والسَّمِيذُ الأبيضُ أحْلَى من الأصفر .

وكان يحيى بنُ أكثَمَ يحبّ[٥] الجوذاب ، فبلغه أنّ رجلاً ممّن [يحضر] عنده يَعيبُ الجُوذاب ، فقال يحيى : إن ثَبَتَ عندِى هذا توقّفتُ عن شَهادَتِه ، وحَكَمْتُ عليه بضَعْف الحسّ وقلّة التَّمييز ، فبلغ الرَّجُلَ ذلك ، فاحترَسَ ، فقال له يحيى يوماً : ما قولُك فى الجُوذَاب ؟ فقال : أشْرَف مَأكلٍ وأطْيَبه ، سَهْل المَدْخَل ، لذيذُ المَطعَم ، جيِّد الغِذا ، قليلُ الأذى . قال : أصَبْتَ ، هكذا أُريدُك .

أبو صالحٍ عن ابنِ عبّاس قال : ما مِن داخِلٍ إلّا وله حَيْرَةٌ ، فابْدَءوهُ

(١) كذا فى (ب) : والذى فى (ا) : « ابن أبى عمرة الشرابى » .
(٢) المصوص : طعام من لحم يطبخ وينقع فى الخل ؛ ويكون من لحم الطير خاصة .
(٣) الهلام كغراب : طعام من لحم عجل بجلده ؛ وقيل مرق السكباج البرد المصفى من الدهن .
(٤) التمتين : تقوية الطعام بالأفاويه .
(٥) فى (ا) : « يؤثر » .

بالسّلام ، وما مِن مَدْعُوّ إلا وله حِشْمَة ، فابدءوه باليمين(١) .

قال حَمْدان : قلتُ لجاريةٍ أردْتُ شراءَهَا — وكانت ناعمة البَدن رَطْبَةً شَطْبَة(٢) غضّة بضّة — : ما كان غِذاؤكِ عند مولاكِ ؟ قالت : المبَطِّن . قلتُ : وما المُبَطِّن ؟ قالت : الأرُزُّ الرَّيّانُ مِنَ اللَّبَن ، والفالُوذَج الرَّيّانِ من العَسَل ، والخبيصَةُ الرَّيّانَةُ مِنَ الدُّهن والسكّر والزّعفران . قلتُ : حقّ لكِ .

وقال ابن الجصّاص الصُّوفيّ : دَخَلْتُ على أحمدَ بن رَوْحٍ الأهْوازيّ فقال : ما تَقُول فى صَحْفَةِ أرُزٍّ مَطْبُوخ ، فيها نَهْرٌ مِنْ سَمْن ، على حافاتِها كُثْبانٌ مِنَ السُّكَّر المَنْخُول ، فدمَعَتْ عَيْنِى ، فقال : مالَكَ ؟ قلتُ : أبْكى شَوْقاً إليه ، جعلنا الله وإيّاكَ من الواردِين عليه بالغوّاصة والرّدّادتَين . فقال لى : ما الغوّاصة [والرّدّادتان(٣)] ؟ قلتُ : الغوّاصة الإبهام ، والرّدّادتانِ : السَّبّابةُ والوُسْطَى . فقال : أحسنتَ ، باركَ اللهُ عَلَيْك .

شَكا رجلٌ إلى عُمَرَ الجُوعَ فقال : أكذك وأنت تَنِثُّ نَثّ(٤) الحَمِيت ؟ أى تَرْشَحُ كما يَرْشَحُ الزِّقّ .

وقال ابن سُكَّرة :

أطْمَعَنِى فى خَرُوفِكُمْ خَرَفِى ... فجِئْتُ مُسْتَعْجِلاً ولم أقِفِ
وجِئْتُ أرجو أطْرَافَهُ فغدَتْ ... فى طَرَفٍ والسِّماكُ(٥) فى طَرَفِ

(١) فى (ا) : « بالتمييز » ؛ وهو تحريف .
(٢) الشطبة : الجارية الحسناء الغضة ؛ وقيل الطويلة .
(٣) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل ؛ والسياق يقتضيها أخذنا من الجواب .
(٤) فى الأصل : « تمت مت » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن المصادر التى بين أيدينا ، ونصه فيها ؛ وفى حديث عمر أنه جاءه رجل فقال له : هلكت . فقال له : أهلكت وأنت تنث كما ينث الحميت ؟ .
(٥) فى الأصل : « والشمال » ؛ وهو تحريف . والتصويب عن يتيمة الدهر .

وحَذَّرُونى مِنْ ذِكْرِ رُزَّتِه يا حَرَّ صَدْرِى لها ويا لَهفِى
عايَنْتُهُ والذى يُفَصِّـــلُهُ والقلبُ مِنِّى على شَفَا جُرُفِ
ما حَلَّ بى منكَ عِنْدَ مُنصَرَفى ما كنتُ إلاّ فَرِيسةَ التَّلَفِ

ويقال : القانعُ غنىٌّ وإن جاعَ وعَرِى ، والحريص فقير وإن مَلَكَ الدنيا .

قيل لإبراهيم الخليل — عليه السلام — : بأىِّ شىء اتَّخَذَكَ اللهُ خليلاً ؟ قال : بأنى ما خُيِّرْتُ بين أمْرَيْنِ إلا اختَرْتُ الّذى لِلّهِ ، وما اهْتَمَمْتُ لما تَـكَفَّلَ لِى به ، وما تَغَدَّيْتُ وما تَعَشَّيْتُ إلّا مع ضَيْف .

واعْتَرضَ حديثٌ فقال : أنشدنى بَيْتَى ابن غسّانَ البصْرىُّ فى حَدِيثِ بَخْتِيار ، يَعْنى عِزَّ الدَّولة ، فأنشَدْتُه :

أقامَ على الأهْوازِ سِتّين لَيْلَةً يدبِّرُ أمرَ المُلكِ حتّى تَدَمَّرَا
يدبِّرُ أمرًا كان أوّلُهُ عَمًى وأوْسَطُه ثُـكْلاً وآخِرُه خَرَا

فقال : ما أعْجَبَ الأمُورَ الّتى تأْتى بها الدُّهُور ! عُدْ إلى قِرَاءتِكَ ، فعُدْتُ وقَرَأْتُ .

رُوِىَ فى الحديث : لا تأ كلُوا ذِرْوَةَ الثَّريد ، فإنّ البرَ كَةَ فِيها .

وقالَ أعرابىٌّ : اللّبَنُ أحَدُ اللَّحْمَيْن ، ومَلْكُ العَجِينِ أحَدُ الرَّيْعَيْن ، والمَرَقَةُ أحَدُ اللَّحْمَيْن ، والبلاغةُ أحدُ السَّيْفَيْن[1] والتمنِّى أحَدُ السُّكْرَيْن[2]

أراد مُزَبِّدٌ أُضْحِيَّةً فلم يجِدْها ، فأخَذَ دِيكاً لِيُضَحِّىَ به ، فوجَّهَ إليه جيرانُه شاةً شاةً حتى اجتمع عنده سَبْعُ شِياه ، فقال دِيكى أفْضَلُ عند اللهِ مِنْ إسحاق لأنه فُدِىَ بكَبْش ، ودِيكى بسَبْعة .

(١) فى الأصل : الشيئين ؛ وهو تحريف ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا .
(٢) فى الأصل . « السلوين » ؛ وهو تحريف لا معنى له .

الكُتَلُ : اللَّحم (١) ، والعَيْمَةُ (٢) : شهوَةُ اللبَن ، والقَرَمُ : شَهوَةُ اللَّحْم .

وقال صلّى اللهُ عليه وسلم : « من أحَبَّ أن يرقّ قلبُه فليُكْثِرْ مِنْ أكْلِ البَلَس » . قيل : هو التين .

وقال أعرابيّ :

يَمُنُّ علىّ بالتَّزويج شيخِي ... وفى التَّزْويج لى همٌّ وشُغْلُ
وكنتُ مِنَ الهُمومِ رَخِيَّ بالٍ ... فَحَلَّ مِن الهُموم علىَّ ثِقْلُ
فقلتُ له : مَنَنْتَ بغَيْرِ مَنٍّ ... ومالَكَ بالذى أسْدَيْتَ فَضْلُ
أعُزّابَ العَشِيرَةِ لو عَلِمْتُمْ ... بحالِي حِينَ لِي بَيْتٌ وأهْلُ
عَلِمْتُمْ أنكم فى حَالِ عَيْشٍ ... رَخِيٍّ مَالَه يا قَوْمُ عَدْلُ

قال إسحاق المَوْصِلىّ : أمْلَى بعضُ الفقهاء بالكُوفة أنّ عمرَ بن الخطابِ رضىَ اللهُ عَنه كرِهَ السَّمَرَ إلا فى الفِقْه ، يريد كثرَةَ السَّمَرِ إلاّ فى الفِقْه .

قيل لميسرة الرَّأس (٣) : ما أكثرُ ما أكلْتَ ؟ قال : مائةُ رغيفٍ بكَيْلَجة مِلح ؛ فقيل هذا أكْلُكَ فى بَيْتك ؟ قال : آكُلُ فى بيتى رغيفين ، وأحْتَشِى (٤) إلى الليل فِشْلَ الخَيل .

تَناوَلَ الفضلُ بنُ العبّاس تُفّاحَةً فأكَلَها ، فقيل : وَيْحَكَ ، تأكُلُ التَّحيّات ؟ فقال : والصَّلَواتِ والطَّيِّبات .

يقال : الطُّعْمَة : الكَسْب . ويقال : جئتُ بالطُّعْمَةِ . والطُّعْم : الطَّعام :

---

(١) الكتل : اللحم ، أى القطع منه ، الواحدة كتلة ، وفى الأصل «الكبل» بالباء ؛ وهو تصحيف .

(٢) وردت هذه الكلمة فى الأصل مضطربة الحروف تتعذر قراءتها ، وما أثبتناه من كتب اللغة .

(٣) فى (ب) : « التراس » .

(٤) فى كلتا النسختين : « وأتجشأ » ؛ وهو تحريف .

والطُّعْم : الذَّوْق . وهٰذه الأرضُ طُعْمَةٌ لكَ وطَعْمَة .

قال إسحاق : كنت يوما عند أحمد بنِ يوسف الكاتب ، فدخل أحمدُ بن أبي خالد الكاتبُ ونحن في الغِناء ، فقال : والله ما أجِدُ شيئاً مما أنتم فيه . قال إسحاق : فهانَ عليَّ وخفَّ في عيْني ، فقلت له كالمستهزِئ به ، جُعِلْتُ فِداك ، قَصَدْتَ إلى أرَقِّ شيء خَلَقَهُ اللهُ وألْيَنِه على الأذُنِ والقَلْبِ ، وأظْهَرِهِ للسُّرور والفَرَح ، وأنفاهُ للهَمِّ والحُزْن ، وماليس للجوارح منه مَؤُونَةٌ غليظة ، وإنما يَقْرَعُ السَّمْعَ وهو منه على مسافة ، فتَطْرَبُ له النفس ، فذَمَمْتَه ! ؟ ولكنه كان يقال : لا يَجْتَمِع في رجل شهوةُ كل لذّة ، وبعد ، فإنّ شهوةَ كلِّ رجلٍ على قَدْرِ تَرْكيبِه ومِزَاجِه . قال : أجَلْ ، أمّا أنا فالطعامُ الرقيقُ أعْجَبُ إليّ من الغِناء . فقلت : إي واللهِ ولحمُ البقر والجواميسِ والتيوسِ الجبَليّة بالباذنجان المبزَّر أيضاً تُقدِّمُه ؟ فقال : [الغِناء[1]] مُختلَفٌ فيه ، وقد كرِهَه قوم . قلتُ فالمُخْتَلَف[2] فيه أطْلِقْهُ لنا حتى تُجْمِعُوا على تحريمه ، أعلمتَ — جُعلتُ فداك — أنّ الأوائل كانت تقول : مَنْ سَمِعَ الغِناء [على] حقيقته مات . فقال : اللهم لا تُسْمِعْنَاه على الحقيقة إذاً فنموت . فاستَظْرَفْتُه في هٰذه اللفظة ، وقدّموا إليه الطعام فشُغِل عن ذمّ الغِناء .

قال سعيدُ بنُ أبي عُرْوَةَ : نزَلَ الحجّاج في طريق مكّة ، فقال لحاجبه : انْظُرْ أعرابيًّا يتَغدّى مَعِي ، وأسألُهُ عن بعض الأمر ، فنظر الحاجب إلى أعرابيٍّ بَيْنَ شَمْلَيْن ، فقال : أجِب الأميرَ ، فأتاه ، فقال له الحجّاج : إذَنْ فتَغَدَّ مَعِي . فقال : إنه دَعاني مَنْ هُوَ أوْلى منكَ فأجَبْتُه . قال : ومَن هو ؟ قال : اللهُ عزّ

(١) لم ترد هذه الكلمة في كلتا النسختين ؛ والسياق يقتضيها .
(٢) في كلتا النسختين : « فالاختلاف » ؛ وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا .

وجَلّ دعاني إلى الصَّوْمِ فصُمْت، قال : أفي هٰذا اليومِ الحارّ؟ قال : نَعَمْ ، صُمْتُه ليومٍ هو أشَدُّ منه حَرًّا . قال : فأفْطِرِ وصُمْ غدًا . قال : إن ضَمنتَ لِيَ البقاء إلى غَد . قال : ليس ذلك إليّ . قال : فكيف تَسْألني عاجِلاً بآجِل لا تَقْدِرُ عليه ؟ قال : إنّه طعام طيّب . قال : إنّكَ لم تُطَيِّبْه ولا الخَبّاز ؛ ولكنّ العافيةَ طَيَّبَتْه ، ولم يُفطِر ، وخَرَج مِنْ عِنْدِه .

قال أعرابيّ : هٰذا الطَّعامُ مَطْيَبَةٌ لِلنَّفس ، مَحْسَنَةٌ لِلجِسْم .

قال أبو حاتم : حدّثنا الأصمعيُّ قال : قال أبو طفيلة الحِرْمازِيّ[1] : قال أعرابيٌّ : ضِفْتُ رَجُلاً فأتانا بخبزٍ مِنْ بُرٍّ كأنّه مَناقيرُ النِّغْران[2] ، وأتانا بتمرٍ كأعناقِ الوِرْلان[3] ، يُوحَلُ فيه الضِّرْس .

وقال آخَرُ : ونظر إلى رَجُلٍ يأكل بالعَين والفم واليدِ والرأس والرجل : لَوْ سألتَه عن اسمه لَمَا ذكره ، وَلَوْ طلعَ وَلدُهُ الغائبُ عليه ما عرَفَه :

يَلْعَبُ بالخَمْسَةِ في قَصْعَةٍ   لِعْبَ أخِي الشِّطْرَنْجِ بالشّاهِ

قال ابن الأعرابيّ : كان المُحَسِّن الضبي[4] شَرِهًا على الطعام ، وكان دميماً ، فقال له زياد ذات يوم : كم عيالُك ؟ قال : تسعُ بنات . قال : فأين هُنَّ منك . فقال : أنا أحْسَنُ مِنهُنّ وهنّ آكَلُ مِنّي ؛ فضَحِك . وقال : جازَ[5] ما سألتَ لهنّ . وأمَرَ له بأربعةِ آلافِ دِرْهم [فقال] :

(١) في الأصل : « الجرماري » ؛ وهو تصحيف .
(٢) النغران : جمع نغر بضم ففتح ، وهو فرخ العصفور أو طائر يشبهه .
(٣) الورلان : جمع ورل بالتحريك ، وهو دابة شبيهة بالضب .
(٤) في (ا) المحشي مكان : المحسن» ، وفي ب «الألصي» مكان الضبي ؛ وهو تحريف .
(٥) جاز ما سألت ، أي نفذ أمرنا به . ومنه قولهم : السرور توقيع جائز ، أي نافذ ماض ؛ وفي كلتا النسختين : « بجاء » .

إذا كنتَ مُرتادَ الرِّجالِ لنفعِهِمْ فنادِ[1] زيادًا أو أخًا لزيادِ
يُجِبْكَ امرُؤٌ يُعطِي على الحمد مالَه إذا ضَنَّ بالمعروفِ كلُّ جَوادِ

وقال سِنانُ بنُ أبي حارثة :

ثُمّةَ أُطْعِمُ زادِي غيرَ مُدَّخِرٍ أهلَ المَحَلَّةِ مِن جارٍ ومِن جادِي[2]
قد يَعلَمُ القومُ إذ طالَ اغترابُهُمُ وأرْمَلوا الزّادَ أنّي مُنفِدٌ زادِي

وقال السفّاح بن بكر :

والمـــالُ الشِّيزَى[3] لأضيافِهِ كأنّها أعضادُ حوْضٍ بِقاعْ
لا يَخرُجُ الأضيافُ مِن بَيْتِه إلاّ وهُمْ مِنــــه رِواءٌ شِباعْ

أوْرَدَ أعرابيٌّ إبلَهُ ، فأبى أهلُ الماء أن يُجيزوه ، وقالوا : إبلُك كثيرة ، فإن أوْرَدْتَ فَشَرْطٌ أن تقِفَ بعيداً عن المـاء وتَسْقِي ما جاءك منها ، ولا تُحاجِزْ[4] بها ؛ قال : أفعَلُ ، وأنشأ يقول :

رُبَّ طَبِيخٍ مِرْجَلٍ مُلهْوَجِ يَسْلُتُه القومُ ولمـــا يَنْضَجِ
حُشَّ بشيءٍ مِن ضِرامِ العَرْفَجِ[5]

فانقضّت الإبل كلّها على الماء فشَرِبَتْ .

قال الشاعر :

شُرْبُ النّبيذِ على الطعامِ قَليلُه[6] فيه الشِّـــفاءُ وصِحّةُ الأبدانِ

(١) فى (ا) : « فبادر » . (٢) الجادى : طالب الجدوى .

(٣) الشِّيزى بكسر الشين وفتح الزاى خشب أسود تصنع منه القصاع . ويريد هنا نفس القصاع ؛ وأعضاد الحوض ما شد حوله من البناء . وفى الأصل : «السرى» مكان قوله : « الشيزى » ؛ وهو تصحيف . (٤) المحاجزة : المانعة .

(٥) حش النار : أوقدها ، والعرفج ضرب من النبات سهل سريع الاتقاد وهو من شجر الصيف وهو لين أغبر إلى الخضرة له ثمرة خشناء كالحسك وزهره أصفر ولهبه شديد الحرة

(٦) فى الأصل : « بلية » ؛ وهو تحريف .

وإذا شَرِبْتَ كثيرَه فكثيرُه   مُزِج عليك رَكائبَ الشَّيطانِ
فتكونَ بين الضاحكين كبُومَةٍ   عَمْياء بين جماعةِ الغِرْبانِ
فاحْذَر بجُهْدِكَ أنْ تُرَى كجَنِيبَةٍ   بَعْدَ العِشاء تُقادُ بالأرْسَانِ

قال حَمْزَةُ المصنِّف فى بعض كتُبه : قال النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم لسَلْمانَ الفارسيّ : أن اتَّخِذْ لنا سُورًا ، أى طَعاماً كطعامِ الوَليمة ، وهى فارسيّة .

قال شيخنا أبو سعيد السِّيرافىّ : أخطأ هذا المتأوِّل ، وإنما أراد النبيُّ صلى الله عليه وسلم : أنّ سَلْمانَ اتَّخذ لنا خَنْدَقا يومَ الأحزاب ، لأنَّه حَضَّ[1] على ذلك ، وليس ذا مِن ذاك إلّا باللفظ .

وقال جُعَيْفِرانُ المُوَسْوس فى وصف عصيدة :

وماءُ عَصِيدة حمراءَ تَحْكِى   إذا أبصرتَها ماءَ الخَلُوقِ[2]
تَزِلُّ عن اللَّهاةِ تَمرُّ سَهْلًا   وتَجْرِى فى العِظام وفى العُروقِ

قال الحسنُ بنُ سَهْل : أشياء تَذْهَبُ هَباء ، دِينٌ بلا عَقْل ، ومالٌ بلا بَذْل ، وعِشْقٌ بلا وَصْل . فقال حُمَيد : بقى عليه مائدةٌ بلا نَقْل[3] ، ولَحْسَةٌ بلا فَضْل .

قيل لصوفىّ : ما حَدُّ الشِّبَع ؟ قال : الموتُ .

وقيل لآخر : ما حَدُّ الشِّبَع ؟ قال آ كُل حتى يقع علىّ السُّبات فأنامَ على وَجْهِى ، وتتجافَى أطرافى عن الأرض .

وقيل لآخر : ما حدُّ الشِّبَع ؟ قال : أن أُدخِل إصبَعى فى حَلْقى فيَصِلَ إلى الطّعام .

(١) فى الأصل : « خمس » ؛ وهو تصحيف .
(٢) فى الأصول « تجلى » مكان « تحكى » و « الحلوق » مكان « الخلوق » ؛ وهو تحريف . والخلوق : ضرب من الطيب قوامه الزعفران
(٣) النقل : ما يتنقل به على الطعام .

قال يعقوب : أصبحتُ خالفا : لا أشتهى الطعام . وخُلوف البَطْنِ تَغَيُّره .

ويقال : نَفَسَنِي بَطْنِي ، وهو المَفْس ، ورجل مَمْغُوس .

ويقال : غَمَزَنِى(١) بَطْنِي وَمَاسَكَنِى .

والعامّة تقول : كلُّ ما فى القِدْرِ تُخْرِجهُ المِغْرَفة ، ورجل مُقَرْضِبٌ(٢) وقُراضِب(٢) وقِرْضاب(٢) إذا كان أكولًا ، وكذلك السّيف والّلصُّ ؛ قال الشاعر :

وليسَ يَرُدُّ النَّفسَ عن شَهَواتِها   من القَوْمِ إلّا كلُّ ماضِى العَزائِمِ

ومَرَّ ابنُ عامرٍ على عامرِ بنِ عبدِ القَيْسِ وهو يأكُلُ بَقْلًا بِمِلْحٍ ، فقال : لقد رضيتَ باليَسير . فقال : أرْضَى مِنِّى باليَسِيرِ مَنْ رَضِىَ بالدُّنيا عِوَضاً عن الآخِرَةِ .

(٤) قال عبد الملك بن مروان : لا تَسْتاكَنَّ إلا عَرْضاً ، ولا تأكلنّ إلا عَضًّا ولا تَشْرَبَنَّ إلّا مَصًّا ، ولا تركَبَنَّ إلا نَصًّا(٣) ، ولا تَنْقَدِنَّ إلّا وَصًّا .

ويقال : ماء قَراح ؛ وخُبْزٌ قَفار : لا أُدمَ مَعَه ، وسَوِيقٌ جافٌّ ، ولبنٌ صَرِيح : لَمْ يُخالِطه شيء .

وقال سعيد بن سَلَمة : شيئان لا تَشْبَعُ منهما ببَغْدَادَ : السَّمكُ والرُّطَب .

قال أعرابىّ : أكلتُ « فِرْسِكَةً(٥) » وعلى خَوْخَة ، فجاء غلام حَزَوَّرٌ(٦) فنظر حُزّنى(٧) .

(١) فى الأصل : « عمرنى » بالعين والراء المهملتين ، وهو تصحيف .
(٢) فى الأصل : قرضب وقرضب ؛ وما أثبتناه عن كتب اللغة .
(٣) النص : الارتفاع .   (٤) فى الأصل : « يقمدن » مكان « يعقدن » ؛ وهو تحريف . وما أثبتناه هو اللائم للوصّ ، وهو الإحكام فى العمل .
(٥) فى الأصل : (الفرشلة) بالشين المعجمة واللام ؛ وهو تحريف لا معنى له ؛ والتصحيح والضبط عن المخصّص .   (٦) الحزوّر : الغلام الذى اشتد وقوى وخدم .
(٧) فى الأصل : « حديقى » بالدال ؛ وهو تحريف .

الفِرْسِكَة : الخَوخة المقدَّدة . والخَوْخَة : القميصُ الأخضرُ يُبطَّن بقَرْوٍ . والحُرَّةُ(١) : الأُذُن .

قيل لحاتم الأصمّ : بِمَ رُزِقْتَ الحِكْمَة ؟ قال : بخَلاوَة البطْن ، وسَخَاوة النفْس ، ومكابَدَة اللّيل .

وقال شَقِيق البَلْخِيّ : العِبادَةُ حِرْفَة ، وحانُوتُها الخَلْوَة ، وآلَتُها الجوع .

قال لُقمان : إذا امتلأت المِعِدَةُ نامَت الفِكْرَة ، وخَرِسَت الحِكْمَة ، وقَعَدت الأعضاء عن العبادة .

وقال عمر : لولا القِيامَةُ لشارَكْناكم في لِينِ عَيْشِكُمْ .

وقال بعض العَرَب : أَقلِلْ طَعامَكَ تَحْمَدْ مَنامَك .

قال يحيى بنُ مُعاذ : الشِّبَعُ يُكْنَى بالكُفْر .

وقال غيرُه : الجُوعُ يُكْنَى بالرَّحْمَة .

وقال أعرابيّ :

تَحَيَّزُ مِنِّي خِيفَةً أن أُضِيفَها   كما انحازَتِ الأفْعَى مَخافَةَ ضارِبِ

وذَكَرَ المهلَّب اللَّحْمَ [فقال] إذا التَقَى الواردُ والغابرُ فتوقَّعِ الفَساد .

الليلة الرابعة والثلاثون

وقال الوزيرُ في بعض الليالي : قد واللهِ ضاق(٢) صَدْرِي بالغَيْظ لما يَبلُغني (١)
عن العامّة من خَوْضِها في حديثنا ، وذِكرِها أمورَنا ، وتتبُّعِها لأسرارِنا ، وتنقيرِها عن مَكْنُونِ أحوالنا(٣) ، ومكتوم شأننا ، وما أدرِي ما أصْنَعُ بها ، وإنِّي لأَهُمُّ في

(١) في الأصل : « الحدية » ؛ وهو تحريف .

(٢) في (ا) : « فاض » . (٣) في (ب) : « أخبارنا » .

الوَقْت بعدَ الوَقْت بقَطْع ألسنةٍ وأيْدٍ وأرْجُلٍ وتنْكِيلٍ شديدٍ ، لعلّ ذلك يَطْرَحُ الهَيْبَةَ ويَحْسِمُ المادّةَ ، ويَقْطَعُ هذه العادة ، لَحاهُمُ اللهُ ، مالهم لا يُقْبِلون على شُؤونهم المهمّة ، ومَعايشهم النافعة ، وفرائضِهم الواجبة ؟ ولِمَ ينقِّبُون عمّا ليس لهم ، ويُرْجِفُون بما لا يُجْدِي عليهم ، ولو حَقّقُوا ما يَقُولون ما كان لهم فيه عائدةٌ ولا فائدة ؛ وإنى لأعجب من لَهَجِهِم[1] وشَغَفِهِمْ بهذا الخُلُق حتّى كأنّه من الفرائض المحتومة ، والوظائفِ الملزومة ؛ وقد تكرّر منّا الزّجر ، وشاعَ الوَعِيد ، وفَشا الإنكارُ بين الصِّغار والكِبار ، ولقد تعايَى علىّ هذا الأمرُ وأُغْلِق دُونِى بابُه ، وتَكاثَفَ علىّ حِجابه ، والله المستعان .

فقلتُ : أيّها الوزير ، عندى فى هذا[2] جوابان : أحدهما ما سمعتُ من شيخنا أبى سليمان ، وهو مَنْ تَفَوّقَ فى الفَضْلِ والحِكْمَة والتجربة ومحبّةِ هذه الدولة[3] والشّفَقَةِ عليها من كل هَبّة ودَبّة ؛ والآخَرُ مما سمعتهُ من شيخ صوفِىّ ، والجوابَيْن فائدتان عَظِيمتان ، ولكن الجُمْلة خَشْناء ، وفيها بعضُ الغِلْظة ، والحقّ مُرّ ، ومن توَخّى الحقّ احْتَمَلَ مَرارتَه .

قال : فاذْكُر الجوابَيْن وإنْ كانا غَلِيظَيْن ، فليس يُنْتَفَع بالدّواء إلّا بالصّبْرِ على بَشاعَتِه ، وصُدُود الطّبْع عن كَراهَتِه .

قلتُ : أمّا أبو سليمان ، فإنّه قال فى هذه الأيام : ليس ينبغى لِمَن كان الله عزّ وجلّ جَعَلَهُ سائسَ الناسِ : عامّتِهم وخاصّتِهم ، وعالِمِهِمْ وَجاهِلِهم ، وضَعِيفِهِم وَقَوِيِّهِمْ ، وراجِحِهم وشائِلِهم ، أن يَضْجَرَ مما يَبْلُغُهُ عنهم أو عن واحد منهم لأسباب كثيرة ، منها : أنّ عَقْلَه فَوْق عُقُولِهِمْ ، وحِلْمَهُ أفْضَلُ من حُلُومِهِم ،

(١) فى (ب) : « بحثهم » . (٢) فى (ب) : « لهذا » .
(٣) فى (ا) : « هذه المقالة » ؛ وهو خطأ من الناسخ .

وصَبْرَه أتمُّ من صَبْرِهم ؛ ومنها أنّهم إنما جُعِلُوا تحت قدرته ، وَنيطوا بتَدبيره ، واختُبِرُوا بتصْريفهم على أمْرِه ونَهْيِه ، ليَقومَ بحقِّ الله تعالى فيهم ، وَيَصْبِرَ على جَهْلِ جاهِلِهم ، ويكونَ عمادُ حالِه معهم الرِّفْقَ بهم ، والقيامَ بمصالِحِهم ، ومنها أنّ العَلاقة التى بين السُّلطان وبين الرَّعيّة قوية ، لأنّها إلهيّةٌ ، وهى أوْشَجُ من الرَّحِم التى تكون بيْنَ الوَالِدِ وَالوَلَد ، والَمِلكُ وَالدٌ كبير ، كما أنّ الوالدَ مَلِكٌ صَغير ، وما يجب على الوالد فى سياسةِ وَلَدِه من الرِّفْق به ، والحُنُوِّ عليه ، والرِّقّة له ، واجتلاب المنفعة إليه ، أكثرُ ممّا يَجب على الوَلد فى طاعةِ والِدِه ، وذلك أنّ الولد غِرٌّ ، وقريبُ العَهْدِ بالكَوْن ، وجاهلٌ بالحال ، وعارٍ من التّجربة ، كذلك الرَّعيّة الشبيهة بالوَلَدِ ، وكذلك المَلِكُ الشبيهُ بالوالد ؛ ومما يزيد هذا المعْنَى كَشفاً ، ويُكْسِبُه لُطفاً ، أنّ المَلِكَ لا يكون مَلِكاً إلا بالرَّعيّة ، كما أنّ الرَّعيّةَ لا تكون رعيّةً إلا بالمَلِك ، وهٰذَا من الأحوالِ المتضايفة ، والأسماء المُتَناصِفة ؛ وبسبب هذه العَلاقة المُحْكَمَة والوُصْلَةِ الوَشيجَة ، ما لهِجَت العامّة بتعرّف حال سائِسِها ، والناظرِ فى أمرِها ، والمالِكِ لزمامِها ، حتى تكون على بيانٍ من رَفاهَة عيشِها ، وطِيب حَياتِها ، ودُرُورِ مَوَارِدِهَا ، بالأمْنِ[1] الفاشى بَينها ، والعدلِ الفائضِ عليها ، والخيرِ المجلوبِ إليها ، وهٰذا أمرٌ جارٍ على نظام الطبيعة ، ومندوبٌ إليه أيضاً فى أحكام الشريعة .

قال : ولو قالت الرَّعيّة لسُلْطانها : لِمَ لا نَخوضُ فى حَديثِك ، ولا نَبْحَثُ عن غَيْبِ أمرِك ، ولِمَ لا نَسْأل عن دِينِك ونِحْلَتِكَ وعادَتِكَ وسيرَتِك ؟ ولِمَ لا نَقِفُ على حقيقة حالِك فى لَيْلِك ونَهارِك ، ومَصالِحُنا متعلّقَةٌ بك ، وخَيْراتُنا متوقّعةٌ

(١) فى كلتا النسختين : « بالأمر » ؛ وهو تحريف .

من جهتِك ، ومَسَرَّتُنا مَلْحُوظةٌ[1] بتَدْبيرك ، ومَساءتُنا مَصْرُوفة باهتمامك ، وتَظَلُّمُنا مَرْفوعٌ بعِزِّك ، ورفاهِيَتُنا حاصلةٌ بحُسْنِ نَظَرِك وجميلِ اعتقادِك ، وشائع رَحْمتك ، وبَليغِ اجْتِهادِك ، ما كان جوابُ سلطانِها وسائسِها ؟ أما كان عليه أن يَعلم أنّ الرَّعِيَّةَ مُصيبةٌ فى دَعْواها الَّتِي بها استطالَت ، بلَى والله ، الحقُّ مُعْتَرَفٌ به وإنْ شَغَب الشاغب ، وأعْنَتَ المُعْنِت .

قال : ولو قالت الرَّعية أيضاً : ولِمَ لا تَبْحثُ عن أمْرِنا ؟ ولِمَ لا تَسمع كلَّ غثٍّ وسَمين مِنّا ! وقد مَلَكْتَ نواصِيَنا ، وسَكَنْتَ دِيارَنا ، وصادَرْتَنا على[2] أمْوالنا ، وحُلْتَ بيننا وبين ضِيَاعِنا ، وقاسَمْتَنا مَوارِيثَنا ، وأنْسَيْتَنا رَفَاغَةَ[3] العَيْشِ ، وطِيبَ الحياة ، وطُمَأنينَةَ القلب ، فطُرُقنا مَخُوفَة ، ومَساكِنُنا مَنْزُولة[4] ، وضِياعُنا مُقطَعة ، ونِعَمُنا مَسْلوبة ، وحَرِيمُنا مُسْتَباح ، ونَقْدُنا زائف ، وخَراجُنا مُضاعَف ، ومُعامَلتنا سيِّئة ، وجُنْدِيُّنا مُتَغطرِس ، وشُرَطِيُّنا مُنْحَرِف ، ومَساجِدُنا خَرِبَة ، ورُفوفُها مُنْتَهَبَة ، ومارِسْتاناتُنا خاوِيَة ، وأعْداؤنا مُسْتَكْلِبة ، وعُيونُنا سَخِينَة ، وصُدُورُنا مَغِيظَة ، [وبَلِيَّتُنا مُتَّصِلَة] ، وفَرَحُنا مَعْدُوم ؛ ما كان الجوابُ أيضاً عمّا قالت وعمّا لم تَقُلْ ، هَيْبَةً لك ، وخَوْفاً على أنفُسِها مِن سَطْوَتِك وصَوْلَتِك ؟

وحَكى لنا فى عَرْض هٰذا الكلام أنّهُ رُفِعَ إلى الخليفةِ المُعْتَضِد أنّ طائفةً من النّاس يَجْتَمِعُون [بباب الطاقِ ويجلسون] فى دُكّانِ شيخٍ تبّان ، ويَخُوضُون فى الفُضُول والأراجِيف وفنونٍ من الأحاديث ، وفيهم قَوْمٌ سَراة

(١) فى (ب) : « ملحقة » ؛ وهو تحريف . (٢) فى (ا) : « عن أموالنا » .
(٣) فى (ب) : « رفاعة » بالعين المهملة ؛ وهو تصحيف ؛ ورفاغة العيش : خفضه ولينه .
(٤) فى (ب) : « ومنازلنا مسكونة » .

وتُنَّاء[١] وأَهْلُ بُيوتاتٍ سِوَى من يَسْتَرِق السَّمْعَ مِنْهُم مِن خاصّة الناس ، وقد تَفَاقَمَ فَسَادُهُمْ وإفسادُهُمْ ، فلمّا عَرَف الخليفةُ ذلك ضاق ذرعاً ، وحَرِج صَدْرًا ، وامتلأ غَيْظًا ، ودَعَا بعُبَيْد الله بن سُلَيْمَانَ ، ورَمَى بالرَّقِيعَةِ[٢] إليه ، وقال : أنْظُرْ فيها وتَفَهَّمْها . ففعل ، وشاهَدَ مِنْ تَرَبُّدِ[٣] وَجْهِ المُعْتَضِدِ ما أزْعَجَ ساكِنَ صَدْرِه ، وشَرَّدَ آلِفَ صَبْرِه ، وقال : قد فَهِمْتُ يا أميرَ المُؤمِنِينَ . قال : فما الدَّواء ؟ قال : تَتَقَدَّمُ بأَخْذِهِمْ وصَلْبِ بَعْضِهِمْ وإحْرَاقِ بَعْضِهِمْ وتَغْرِيق بَعْضِهِمْ ، فإنّ العُقوبة إذا اختَلَفَتْ ، كان الهَوْلُ أشَدَّ ، والهَيْبَةُ أفْشا ، والزَّجْرُ أنْجَع ، والعامّةُ أخْوَف . فقال المُعْتَضِدُ — وكان أعقل من الوزير — : والله لقد بَرَّدْتَ لهيبَ غَضَبِي[٤] بفَوْرَتِك هذه ، وَنَقَلْتَنِي إلى اللِّين بَعْدَ الغِلْظَة ، وَحَطَطْتَ عَلَيَّ الرِّفْقَ ، مِنْ حيثُ أشَرْتَ بالخُرْق ، وما عَلِمْتُ أنّك تَسْتَجِيزُ هذا في دِينِكَ وَهَدْيِكَ وَمُرُوءَتِكَ ، وَلوْ أمَرْتُكَ ببعض ما رأيتَ بعَقْلِكَ وَحَزْمِكَ لَكَانَ من حُسْنِ المُؤازَرَةِ وَمَبْذُولِ النَّصِيحَةِ والنَّظَرِ للرَّعِيَّةِ الضَّعيفَةِ الجاهِلَةِ أن تَسْأَلَنِي[٥] الكَفَّ عن الجَهْل ، وَتَبْعَثَنِي على الحِلْم ، وَتُحَبِّبَ إليَّ الصَّفْحَ وتُرَغِّبَنِي في فَضْلِ الإغضاء على هذه الأشياء . وقد ساءني جَهْلُكَ بحُدُودِ العقاب وبما تُقَابَلُ به هذه الجرائر ، وبما يكون كُفْأً للذُّنوب ، ولقد عَصَيْتَ الله بهذا الرأي ودلَلْتَ على قَسْوَةِ القَلْبِ وقِلّةِ الرَّحمة ويُبْسِ الطِّينة ورِقّة الدِّيانة ، أما تَعْلَمُ أن الرَّعِيَّةَ وَدِيعَةُ الله عند سُلْطانِها ؟ وأنّ اللهَ يُسائِلُه عنها كيفَ سُسْتَها ؟ ولعلّه

(١) التناء : الدهاقين والرؤساء .

(٢) الرقيعة : الرقعة المرفوعة .

(٣) في كلتا النسختين : « من يريد » ؛ وهو تصحيف .

(٤) في (ب) : « لهيب غيظي بقسوتك » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضاً .

(٥) في (أ) : «على» ، ولم يظهر منها في (ب) إلا نون وياء ، وسائرها مطموس .

لا يَسْأَلها عنه ، وإن سَأَلها فليُؤَكِّد الحُجَّةَ عليه منها ؛ ألا تَدْرى أنَّ أحدًا مِنَ الرَّعِيَّةِ لا يَقُول ما يَقُول إلاَّ لظُلْمٍ لَحِقَه أو لَحِقَ جارَه[1] ، وداهيةٍ نالَتْه أو نالتْ صاحِبًا له ؟ وكيف نقول لهم : كونوا صالحين أتقياء مُقْبِلين على مَعايشكم ، غيرَ خائِضِين فى حديثنا ، ولا سائِلين عن أمْرِنا ، والعرب تقول فى كلامها : غلَبَنا السلطانُ فَلَبِسَ فَرْوَتَنا ، وأكَلَ خُضْرَتَنا ، وحَنَقُ المُلوكِ على المالِكِ مَعْروف ، وإنما يُحْتَمَلُ السَّيِّد على صُرُوف تكاليفه ، ومَكارِهِ تَصارِيفه ، إذا كان العيش فى كَنَفِه رافِقًا ، والأمَلُ فيه قويًّا ، والصَّدْرُ عليه بارداً ، والقَلْبُ معه سَاكنًا ، أتظنُّ أن العَمَل بالجَهْلِ يَنْفَع ، والعُذْرَ به يَسَع ، لا واللهِ ما الرأىُ ما رَأَيت ، ولا الصَّوابُ ما ذَكَرْت ، وَجِّهْ صاحِبَكَ وليَكُنْ ذاخِبْرَةٍ ورِفق ، ومَعْروفًا بخَيْرٍ وصِدْق ، حتى يَعْرِفَ حالَ هٰذه الطائفة ، ويَقِفَ على شَأْنِ كلِّ واحِدٍ منها فى مَعاشِه ، وقَدْرِ ماهو مُتَقَلِّبٌ فيه ومُنْقَلِبٌ إليه ، فمَنْ كان مِنْهُمْ يَصْلُحُ للعَمَلِ فعَلِّقْه به ، ومن كان سَيِّئَ الحالِ فصِلْهُ من بَيْت المال بما يُعِيدُ نَضْرَةَ حاله ، ويُفِيدُه طُمَأْنِينَةَ باله ؛ ومَن لم يَكُنْ مِنْ هـذا الرَّهطِ ، وهو غَنِيٌّ مَكْفِيٌّ ، وإنما يُخْرِجه إلى دكّان هذا التَّبَّان البَطَرُ والزهو ، فادْعُ به ، وأنصَحْه ، ولاطِفْه ، وقل له : إنَّ لَفْظَكَ مَسْمُوع ، وكلامَكَ مَرْفُوع ؛ ومَتَى وَقَفَ أميرُ المؤمنين على كُنْهِ ذٰلِكَ منكَ لم تَجِدْكَ إلاَّ فى عَرْصَةِ المقابر ، فاستأنِفْ لنفسِك سِيرَةً تَسْلَمُ بها مِن[2] سُلْطانِكَ ، وتُحْمَدُ عليها عند إخوانِك ، وإيَّاكَ أن تَجْعَلَ نَفْسَكَ عِظَةً لِغَيْرِكَ بَعْدَ مَا كان غَيْرُكَ عِظَةً لك ؛ ولولا أنَّ الأخْذَ بالجَرِيرَة الأولى مخالِفٌ للسِّيرة المُثْلَى ، لكان هٰذا الّذى تَسْمَعُه ما تراه ، وما تراه تَوَدُّ أنك لو سَمِعْتَه قَبْلَ أنْ

---

(١) فى كلتا النسختين : « دارة » بالدال ؛ وهو تحريف .

(٢) فى (ا) : «على» مكان « من» ؛ وهو خطأ من الناسخ .

تراه. فإنّكَ يا عُبَيْدَ اللهِ إذا فَعلْتَ ذلك فقد بالَغْتَ في المُعْوِبة، ومَلَكْتَ طَرَفى المَصْلَحة، وقُمتَ على سَواء السِّياسة، ونَجَوْتَ من الحَوْبِ والمَأْثَم في العاقِبة.

قال: وفارَقَ الوزيرُ حَضْرَةَ [الخليفة]، وعمِلَ بما أُمِرَ به على الوَجْهِ اللَّطيف، فعادت الحالُ تَرِفُّ بالسَّلامة العامَّة، والعافيَةِ التامَّة؛ فتقدَّمَ إلى الشَّيخ التَّبَّانُ بَرفعِ حال من يَقْعُدُ عندَه حَتَّى يواسَى إن كان مُحْتاجًا، ويُصرَّفَ إن كان متعطِّلاً، ويُنْصَحَ إن كان متمقِّلا.

فقال الوزير: ما سَمِعْتُ مِثْلَ هٰذا قطُّ، وما ظَنَنْتُ أن الخَطْبَ في مِثْلِ هٰذا يَبْلُغُ هذا القَدْر؛ فهاتِ الجوابَ الآخَرَ الّذى حَفِظْتَه عن الصُّوفيّ. فقلتُ: إنْ كان هٰذا كافِيًا فإنّ ذلك فَضْل.

فقال: هكذا هو، وإنّ فيما مَرَّ لَكِفاية، وما يَزِيد على الكِفاية، ولكنّ الزِّيادَةَ من العِلم داعِيَةٌ إلى الزيادةِ من العَمَل، والزِّيادَةَ من العَمَلِ جالِبَةُ الانتفاعِ بالعِلم، والانتفاعُ بالعِلم دَليلٌ على سَعادَةِ الإنسان، وسعادةُ الإنسان مَقْسومةٌ على اقتباس العِلْم والتماسِ العمل، حتّى يكون بأحدهما زارعًا، وبالآخر حاصدًا، وبأحدهما تاجرًا، وبالآخَرِ رابحًا.

فوَصَلْتُ الحديثَ وَقلتُ: حَدَّثَنى شيخ من الصُّوفيّة في هٰذه الأيّام قال: كنتُ بنَيْسابُور سنةَ سبعين وثلثمائة، وقد اشْتَعَلَتْ خُراسانُ بالفِتْنة، وتَبَلْبَلَتْ دَوْلَة آل سامان بالجور وطول المُدَّة، فلَجَأَ مُحَمَّدُ بنُ إبراهيمَ صاحِبُ الجيش إلى قايين[1]، وهى حِصْنُه ومَعْقِلُه، ووَرَدَ أبو العبّاس صاحبُ جَيش [آل] سامانَ نَيْسابور بعِدَّةٍ عَظِيمة، وعُدَّةٍ عَمِيمة، وزينَةٍ فاخِرة، وهيئةٍ باهِرَة، وغَلاَ السِّعْرُ،

(١) قاين: بلد قريب من طبس، بين نيسابور وأصبهان؛ وهى فرضة خراسان.

وأُخِيفَت السُّبُل ، وكَثُرَ الإرجاف ، وساءتِ الظُّنون ، وضَجَّت العامَّة ، والتبس الرأى ، وانْقَطَعَ الأمَل ، ونَبَحَ كَلْبٌ كَلِبٌ من كلِّ زاوية ، وزَأَرَ كلُّ أَسَدٍ من كلِّ أَجَمَة ، وضَبَحَ كلُّ ثَعْلَبٍ مِنْ كلِّ تَلْعَة .

قال : وكُنَّا جماعةً غُرَباء نأوى إلى دُوَيْرَةِ[1] الصُّوفيّةِ لا نَبْرَحُها ، فتارةً نَقْرَأ ، وتارةً نُصَلِّى ، وتارةً ننامُ ، وتارةً نَهْذِى ، والجُوعُ يَعْمَلُ عَمَلَه ، ونَخُوضُ فى حديثِ آلِ سامان ، والواردِ مِنْ جِهَتِهم إلى هٰذا المَكان ، ولا قُدْرَةَ لنا على السِّيَاحَةِ لانْسِدَادِ الطُّرُق ، وتَخَطُّفِ الناسِ للناس ، وشُمُول الخَوْف ، وغَلَبةِ الرُّعْب ، وكان البلدُ يَتَّقِدُ نارًا بالسُّؤال والتَّعَرُّفِ والإرْجاف بالصِّدْق والكَذِب ، وما يُقَالُ بالهوَى والعَصَبيّة ؛ فضاقَتْ صُدُورُنا ، وخَبُثَتْ سَرَائرُنا[2] واسْتَوْلَى عَلَيْنا الوَسْوَاس ، وقلنا ليلةً : ما تَرَوْنَ يا صِحابَنا[3] [ما] دُفِعْنا إليه مِنْ هذِه الأحوالِ الكريهة ، كأنَّا واللهِ أصحابُ نَعَمٍ وأَرْبابُ ضِيَاعٍ نخافُ عليها الغارَةَ والنَّهْب ، وما عَلَيْنا من ولايةِ زَيْدٍ ، وَعَزْلِ عَمْرو ، وهلاكِ بَكْرٍ ، ونَجَاة بِشْر ، نحنُ قوم قد رَضِينا فى هذه الدنيا العَسِيرة ، وهٰذه الحياة القصيرة ، بِكِسْرَةٍ يابِسَة ، وخِرْقَةٍ بالِيَة ، وزاوِيةٍ مِنَ المَسْجِد مع العافِيَةِ مِن بَلايَا طُلَّابِ الدُّنيا . فما هذا [الذى] يَعْتَرِينا من هذه الأحاديث التى ليس لنا فيها ناقةٌ ولا جَمَل ، ولا حَظٌّ ولا أَمَل ، قُومُوا بنا غدًا حتى نزور أبا زكريّاء الزاهد ، ونَظَلَّ نهارَنا عندَه لاهِين عمَّا نحْنُ فيه ، ساكِنِين معه ، مُقْتَدِين به ؛ فاتفق رأْيُنا على ذلك ، فغَدَوْنا[4] وصِرْنا إلى أبى زكرياء الزَّاهد ، فلما دَخَلْنا رَحَّبَ

(١) فى نسخة « وترة » مكان « دويرة » . والوترة : ما وتر بالأعمدة من البيوت .

(٢) فى (ب) : « أنفسنا » . (٣) فى كلتا النسختين : « بأصحابنا دفعنا » ؛ وفى (ب) بين قوله « بأصحابنا » وقوله « دفعنا » فراغ يسع كلمة ؛ ولعل صواب العبارة ما أثبتنا إذ هو مقتضى السياق . (٤) فى (ب) : « فسرنا » مكان قوله « فغدونا » .

بنا ، وفَرِحَ بزيارتنا ، وقال : ما أشوقنى إليكم[1] ، وما ألهفنى[2] عليكم ! الحمد لله الذى جَمَعَنِى وإياكم فى مَقَامٍ واحد ، حَدِّثونى ما الذى سمعتم ، وماذا بلغكم من حديث الناس ، وأمر هؤلاء السلاطين ؟ فرِّجُوا عنّى ؛ وقولوا لى ما عِندَكم ، فلا تكتمونى شيئاً فمالى والله مَرْعًى فى هذه الأيام إلّا ما أتصل بحديثهم ، وأقترن بخبرهم ، فلما ورد علينا من هـذا الزّاهد العابد ما وَرَدَ ، دُهِشْنا واستوحشنا ، وقلنا فى أنفسنا انظروا من أى شىء هربنا[3] ، وبأىّ شىء عَلِقْنا ، وبأىّ دَاهِيَةٍ دُهِينا . قال : فَخَفّفْنا الحديثَ وأنسللْنا ، فلمّا خرَجْنا قلنا : أرأيتم ما بُلينا به ، وما وقعنا عليه ؟ (إنَّ هٰذا لَهُوَ البَلَاءُ المُبين) . مِيلوا بنا إلى أبى عمرو الزّاهد فله فَضْلٌ وعِبادة وعِلْمٌ وتفرُّدٌ فى صَوْمَعَتِه حتى نُقيم عندَهُ إلى آخر النّهار ، فقد نبا بنا المكانُ الأوّل ، وبَطَلَ قَصْدُنا فيما عزَمْنا عليه من العَمَل ، فمشينا إلى أبى عَمْرٍو الزّاهِد واستأذنّا ، فأَذِنَ لنا ، ووَصَلْنا إليه فَسُرَّ بحُضُورنا ، وهَشّ لرُؤْيتنا ، وابتهجَ بقَصْدِنا ، وأعظَمَ زِيارَتَنا ، ثم قال : يا أصحابَنا ما عِنْدَكم مِنْ حَدِيث الناس ؟ فقدْ والله طالَ عَطَشِى إلى شىء أسْمَعُه ، ولم يَدْخُلْ علىَّ اليَوْمَ أحَدٌ فأستخبِرَه ، وإنّ أذُنِى لدَى الباب لِأَسْمَعَ قَرْعَةً أو أعرِفَ حادثة ، فهاتوا ما مَعَكم وما عندَكم ، وقُصُّوا علىّ القصّة بفَصِّها ونصِّها ، ودَعُوا التَّوْرِيَة والكِنَاية ، واذْكُروا الغَثَّ والسمين ، فإنّ الحَديثَ هكذا يَطِيب ، ولولا العَظْمُ ما طابَ اللَّحْم ، ولَوْلا النَّوَى ما حَلا التَّمْر ، ولَوْلَا القِشْرُ لمْ يوجَدِ اللُّب ، فعَجِبْنَا مِنْ هٰذا الزّاهد الثانى أكْثَرَ من عَجَبِنَا من الزّاهِد الأوّل ، وخاطَفْناه الحَدِيث ،

---

(١) فى (ب) : « إلى زيارتكم » . (٢) فى (ب) : « والهفى » .

(٣) ورد فى (أ) من هذه الكلمة باء ونون بعدها ألف . وفى (ب) لم يظهر منها إلا هاء ونون وألف ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا .

ووَدّعْناه ، وخرَجْنا ، وأقْبلَ بَعْضُنا عَلَى بعضٍ يَقول : أرأيتم أظْرَفَ من أمْرِنا وأغْرَبَ من شَأنِنا ؟ انظُروا من أيّ شيء كانَ تعَرّجُنا (إنَّ هٰذَا لشيءٌ عُجَاب) وتلَدّدنا وتبلّدْنا وقلنا يا أصحابنا : أنطلقوا إلى أبي الحَسَن الضرير ، وإن كانَ مَضْرِبُهُ[1] بعيدًا فإنّا لا نجد سكونَنا إلّا معه ، ولا نَظفَر بضالّتنا إلّا عندَه ، لزُهْدِه وعِبَادَتِه وتوحُّدِه وشُغْلِه بنفْسِهِ مَع زَمانَتِه فى بَصَرِه ، ووَرَعِه ، وقِلّة فِكْرِهِ فى الدنيا وأهْلِهَا ؛ وطوَينا الأرضَ إليه ، ودخَلْنا عليه ، وجَلَسْنا حوَالَيْه فى مَسْجدِه ، ولمّا سمع بنا أقبل على كلّ واحد منّا يَلْمَسُه بيَده ويُرَحِّب به ، ويدْعُو له ويقرِّب ، فلمّا أنتهى أقبلَ علينا [وقال] : أمن السماء نزلتم علىّ ؟ والله لَكأنّى قد وجدت بكُمْ مَأمُولى ، وأحْرَزْتُ غاية سُولى ، قولوا لى غيرَ مُحْتَشمين : ما عِنْدكم من أحادِيثِ النّاس ؟ وما عَزمَ [عليه] هذا الوارد ؟ وما يقال فى أمرِ ذٰلك الهاربِ إلى قايين ، وما الشائع من الأخْبَار ؟ وما الذى يَتهامَسُ به ناس دونَ ناس ؟ وما يَقعُ فى هوَاجِسِكُم ويَسْتَبِقُ إلى نفوسِكُمْ[2] ؟ فإنّكُم بُرُدُ الآفاق ، وجَوّالة الأرض ، ولَقّاطَةُ الكلام ، ويَتساقَطُ إليكم من الأقطارِ ما يتعذّرُ على عظماء الملوك وكُبَراء النَاس : فوَرَدَ علينا من هذا الإنسان ما أنسَى الأوّل والثانى ، ومما زادَ فى عَجَبنا أنّا كنا نعدّه فى طبقةٍ فوقَ طَبقات جميع النّاس فخَفّفْنا الحديث مَعَه ، وَوَدّعْناه ، وخَنَسْنَا من عِنده ، وطفِقنا نتَلاوَمُ عَلَى زيارتِنا لهٰؤلاء القَوْم لما رأينا منهم ، وظهر لنا من حالهم ، وازْدَرَيْناهم ، وأنقَلَبْنا متوجّهين إلى دُوَيْرَتِنا التى غَدَوْنا منها مُسْتَطْرِقين كالّين ، فلقِينا فى الطريق شيخًا من الحُكَماء يقال له أبو الحسن العامرىّ ، وله كتابٌ فى التصوّف قد شَحَنَه بعلْمِنا

(١) يريد بمضربه بيته ، مستعار من مضرب الخيام .

(٢) فى (ب) : « إلى قلوبكم » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضاً .

وإشارتنا ، وكان من الجوّالين الّذين نقّبوا فى البلاد واطّلعوا على أسرار الله فى العباد ؛ فقال لنا : من أين درجتم ؛ ومن قصدتم . فأجلسناه فى مسجد ، وعصبنا حوله ، وقصصنا عليه قصّتنا من أوّلها إلى آخرها ، ولم نحذف منها حرفاً . فقال لنا : فى طىّ هذه الحال الطارئة غيبٌ لا تقفون عليه ، وسرٌّ لا تهتدون إليه ، وإنما غرّكم ظنّكم بالزهّاد ، وقلتم لا ينبغى أن يكون الخبر [عنهم كالخبر] عن العامّة ، لأنهم الخاصّة ، ومن الخاصّة خاصّةُ الخاصة ، لأنّهم بالله يلوذون ، وإيّاه يعبدون ، وعليه يتوكّلون ، وإليه يرجعون ، ومن أجله يتهالكون ، وبه يتمالكون .

قلنا له : فإن رأيتَ يا معلّمَ الخير أن تكشفَ عنّا هذا الغطاء ، وترفعَ هذا السّتر ، وتعرّفنا منه ما وهبَ اللهُ لكَ من هذا الغيب ، لنكون شاكرين ، نكونَ من المشكورين . فقال : نعم ، أمّا العامّةُ فإنّها تلهجُ بحديثِ كبرائها ساستِها لما ترجو من رخاء العيشِ وطيبِ الحياةِ وسعةِ المال ودرورِ المنافعِ واتصالِ جلَبٍ ونفاقِ السّوق وتضاعفِ الرّبح ؛ فأما هذه الطائفةُ العارفةُ بالله ، العاملةُ لله ، فإنها مولعةٌ أيضاً بحديث الأمراء ، والجبابرةِ العظماء ، لتقفَ على تصاريفِ قدرةِ الله فيهم ، وجريانِ أحكامه عليهم ، ونفوذِ مشيئته فى محابّهم ومكارههم فى حالِ النّقمة[1] عليهم ، والانتقام منهم ، ألا ترونه قال جلّ ثناؤه : (حتّى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسون) ، وبهذا الاعتبار يستنبطون خوافى حكمته ، ويطّلعون على تتابع نعمته وغرائب نقمته ، وهاهنا يعلمون أنّ كلّ ملكٍ سوى ملكِ اللهِ زائل ، وكلّ نعيمٍ غيرَ نعيمِ الجنّةِ حائل ؛

(١) فى كلتا النسختين : « النقمة » ؛ وهو تحريف .

ويَصيرُ هٰذا كلّه سبباً قوياً لهم فى التَّضَرّع إلى الله ، واللِّياذِ بالله ، والخشوع لله ، والتوكُّل على الله ، ويَنْبَعِثون به من حِرانِ الإباء ، إلى انْقِيادِ الإجابة ، وَيَتَنَبَّهون من رَقْدَة الغَفلة ، ويَكْتَحِلون باليَقَظَة من سِنَة السَّهْو والبَطالة ، ويَجِدُّون فى أخْذِ العَتاد ، واكْتِساب الزاد إلى المعاد ، ويعملون فى الخلاص من هذا المكانِ الحرِج بالمكارِه ، المحفوف بالرَّزايا ، الّذى لم يُفْلِحْ فيه أحَدٌ إلّا بعد أنْ هَدَّمَه وَثَلَمَه ، وهَرَبَ منه ، وَرَحَلَ عنه إلى محلٍّ لا دَاءَ فيه ولا غائِلَةَ ؛ ساكِنُه خالد ، ومقيمُه مُطْمَئِنٌ ، والفائزُ به منعَّم ، والواصِلُ إليه مكرَّم ، وبينَ الخاصّة والعامّة فى هٰذِهِ الحال وفى غيرها فَرْق يَضِحُ لمن رَفَعَ اللهُ طَرْفَه إليه ، وفَتَحَ بابَ السِّرِّ فيه عليه ، وقد يَتَشابه الرَّجُلان فى فِعل ، وأحدُهما مَذْمُوم ، والآخَرُ محمود ، وقد رأينا مُصَلِّياً إلى القِبْلَة وقلْبُه مُعَلَّق بإخلاص العِبادة ، وآخَرَ إلى جانبه أيضاً يصلّى إلى القبلة وقلْبُه فى طَرٍّ[1] ما فى كُمِّ الآخَر ، فلا تَنْظُروا من كلِّ شىء إلى ظاهِرِه إلّا بعدَ أنْ تَصِلُوا بِنَظَرِكم إلى باطنه ، فإنَّ الباطن إذا وَاطأ الظاهر كان توحُّداً ، وإذا خالَفَه إلى الحقّ كانَ وَحْدَةً ، وَإذا خالَفَه إلى الباطلِ كان ضلالةً ، وهذه المقامات مُرَتَّبةٌ لأصْحابها ، ومَوْقوفَةٌ على أرْبابها ؛ ليس لغَيْرِ أهْلِها فيها نَفَسٌ ، ولا لِغيرِ مُسْتَحِقِّها منها قَبَس .

قال الشيخ الصوفىّ : فوالله ما زالَ ذلك الحكيم يَحْشو آذانَنا بهذه وما أشْبَهَها ، وَيملأ صدورنا بما عنده حتى سُرِرْنا[2] وَانصرفنا إلى مُتَعشَّانا وقد استفدنا على يَأْسٍ منّا فائدةً عظيمة لو تمنَّيْناها بالغُرْم الثّقيل والسَّعى الطويل لكان الرِّبْحُ مَعنا ، والزيادةُ فى أيْدِينا .

(١) الطر : الاستلال .

(٢) فى كلتا النسختين : « سددنا » .

فلما سمع الوزيرُ هذا تَعَجَّبَ وقال : لا أدرى : أكلامُ أبى سُليمانَ فى ذلك الاحتجاج أبلغ ، أم الحكايةُ عن المُقتَضِد أشنى ، أم رواية الشيخ الصوفىّ أطرف ، وما علمتُ أنّ فى البَحْث عن سِرّ الإرجاف هذه اللَّطيفةَ الخفيّة ، وهذه الحجّة الجليّة ، وكُنتُ أرى أنّ الصُّوفيّة لا يَرْجعون إلى رُكْنٍ مِنَ العِلْم ، ونَصيبٍ من الحِكمة ، وأنهم إنما يَهْذُون بما لا يَعلمون ، وأنّ بناء أمرهم على اللَّعِبِ واللَّهْوِ والمجون .

فقلتُ : لو جُمِعَ كلامُ أئمتهم وأعلامِهم لزادَ على عَشرةِ آلاف وَرَقَة عَمّنْ ثَقِفَ[1] عليه فى هذه البِقاعِ المتقارِبةِ ، سِوَى ما عند قومٍ آخَرين لا نَسْمَع بهم ، ولا يَبْلُغنا خَبَرُهم . قال : فاذكر لى جماعةً منهم . قلتُ : الجُنَيْد بن محمد الصوفىّ البغداديُّ العالِم ، والحارثُ بنُ أسَد المُحاسِبىّ ، ورُوَيْم ، وأبو سَعيد الخَرّاز ، وعمرُو بنُ عُثمانَ المَكّى ، وأبو يَزِيدَ البِسْطامىّ ، والفَتْحُ المَوْصِلىّ ، وهو الّذى سُمِعَ وهو يقول : إلى مَتَى تُرَدِّدُنى فى سِكَك المَوْصل ، أما آنَ للحَبيبِ أنْ يَلْقَى حَبيبَه ؟ فماتَ بعد جُمعة .

فقال : هذا عَجَب . ولقد مَرّ فى هذا الفَنّ ما كان فَوْق حُسْبانى وأكثرُ مّما كان[2] فى ظَنّى ، وكم مِنْ شىء حَقيرٍ يُطَّلَعُ منه على أمرٍ كبير .

وقال : أنشِدْنى شَيْئاً ؛ فأنشَدْتُه قول الشاعر : (٢)

رَجَمْتُ عَلَى السّفيهِ بِفَضْلِ حِلْمِى وكان تَحَلُّمِى عَنْهُ لِجَامَا
وظَنّ بِىَ السَّفاهَ فَلم يَجِدْنى أسافِهُهُ وقلت له : سَلامَا

(١) عمن ثقف ، أى مروية عمن ثقف ، وفى كلتا النسختين على ما ثقف ، وقوله على هنا لا مقتضى له .

(٢) فى (ب) : « وأكثر مما دار فى خلدى » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

فقامَ يَجُرُّ رِجْلَيْه ذَلِيلاً   وقد كَسَبَ المَذَلَّةَ والمَلامَا
وفَضْلُ الحِلْمِ أَبْلَغُ في سَفِيهٍ   وأَحْرَى أنْ يَنَال بِهِ انتقاما

(٣) فقال : ما أعجبَ أمرَ العَرَب ، تأمُرُ بالحِلمِ مَرَّةً ، والصَّبْر والكظْمِ مرةً ، وتَحُثُّ بعد ذلك على الانتصاف وأخذ الثأر ، وتَذُمُّ السَّفَهَ وقَمْعَ العَدُوّ ! وهكذا شأنُها في جَميع الأخلاق ؛ أعنى أنّها رُبّما حَضّتْ على القَناعَةِ والصَّبْرِ والرِّضا بالمَيْسُور ، ورُبّما خالَفَتْ هذا ، فأخَذَت تَذْكُرُ أنّ ذلك فَسَالَةٌ ونُقْصَان هِمّةٍ ولِينُ عَرِيكةٍ ومَهَانَةُ نَفس ؛ وكذلك أيضاً تحثُّ على البَسَالة[١] والإقْدام والانتصارِ والحَمِيّةِ والجَسَارَة ؛ ورُبّما عَدَلَتْ[٢] إلى أضْدادِ هذه الأخْلاَق والسَّجايَا والضَّرائب والأحوال ؛ في أوْقاتٍ يَحْسُنُ فيها بَعْضُها ، ويَقْبُحُ بَعْضُها ، ويُعذَرُ صاحبُها في بَعْضِها ، ويُلامُ في بَعْضها ؛ وذلك لأنّ الطبائعَ مُخْتَلِفَة ، والغَرائزَ[٣] متعادية ، فهذا يَمْدَحُ البُخْلَ في عُرْضِ الحَزْم ، وهذا يَحْمَدُ[٤] الاقتصادَ في جُمْلة الاحتِياط ، وهذا يَذُمُّ الشَّجَاعة في عُرْض طَلَبِ السَّلامَة ؛ وليسَ في جميعِ الأخلاق شيءٌ يَحْسُن في كلّ زَمانٍ وفي كلّ مَكانٍ ، ومَعَ كلّ إنسان ، بل لكلّ ذلك وَقْتٌ وحِينٌ وأوان .

قال : ولَعَمْري إنّ القِيامَ بحقائِق هذِهِ الأشياء وحُدودِها صَعْبٌ ، لأنّها لا توجد إلاّ مُتلابِسةً ومُتَداخِلَة ، وتَخْلِيصُ كلّ واحدٍ منها بحدّه وحقيقته ووَزْنِه مِمّا يَفُوت ذَرْعَ الإنسان الضعيفِ المُنّة ، المُنْتَشِرِ الطِّينَة .

قال : ومنه أنّ الحكيم قال للإسكندر : « أيها الملك أَرِدْ حَياتَكَ لِرِجالِك ،

(١) في (ا) : « الفشالة » ؛ وفي (ب) : الفسالة ؛ وهو تحريف في كلتا النسختين .
(٢) في (ب) : « عمدت » .
(٣) في (ا) : « والقرائن » ؛ وهو تحريف .
(٤) في (ا) : « يمدح » ؛ وهو تكرار مع ما سبق .

ولا تَرِدْ رِجالُكَ لحَيَاتك» ؛ ولو قَلَبَ عليه قالِبٌ فقال : لا ، «ولكِنْ أَرِدْ رِجالَكَ لحيَاتِك ، ولا تَرِدْ حَيَاتَكَ لرِجالِك» ، لَكان الفَضْلُ واقِعًا ، والدَّعْوَى قائمة .

وكان يُحْكَى عن أعرابيّ حديثٌ مُضْحِكٌ : قيل لأعرابيّ : أتُرِيدُ أنْ تُصْلَب فى مَصْلَحة الأُمّة ؟ فقال : لا ، ولكنى أُحِبُّ[1] أن تُصْلَبُ الأُمّةُ فى مَصْلَحَتى .

قال : وليس يَجُوز أن يكون الناسُ مُخْتَلِفِين فى ظاهِرِهم بالصُّوَرِ والحُلَى حتى يُعْرَف بها زَيْدٌ من عَمْرو ، وبَكْرٌ مِنْ خالد ، ولاَ يَخْتَلِفُون فى باطِنِهم حتى يكونَ هٰذا مَطْبُوعًا على الشحّ وإن مَدَحَ الجُود ، وهٰذا مَجْبُولاً على الجُبْن وإنْ تَشَيَّعَ للشجاعة ؛ وليس يَجُوزُ فى الحِكمةِ أَنْ يَكثُرُوا ولا يَخْتَلِفُوا[2] ، وليس يَجُوزُ أيضاً أن يُضَمّ الجِنْسُ والنّوْعُ ولا يَأْتَلِفُوا ؛ وكلُّ ما أساغَتْه الحِكْمَةُ أَبْرَزَتْه القُدْرَة ، وكلُّ ما جادَتْ به القُدْرَةُ شَهِدَت له الحِكمة ؛ فسبحانَ مَنْ لَهُ هٰذا التَّدْبِيرُ اللّطيف ، وهٰذا العِزُّ الغالِب ، وهٰذا السِّرّ الخافِي ، وهٰذه العَلانِيَةُ البادِيَة ، وهٰذا الفِعْلُ المُحْكَم ، وهذا النَّعْتُ المُسْتَغْلَق .

وحَكيتُ أيضاً فى شىء جَرَى ، قالَ حكماء فارس : قد جَرّبْنا المُلوك ، فإذا مَلَكَنا السَّمْحُ الجوَادُ جادَت علَيْنا السماء والأرْض ، وإذا مَلَكَنا البَخِيل بَخِلَتْ علينا السماء والأرْض .

قال أبو سليمان : هٰذا إذا صَحَّ فهو شاهِدُ الفَيْض الإلٰهىّ المتّصِل بالمَلِك السَّمْح ، ونُضُوبِه عن المَلِك البَخيل ، لأنّ المَلِكَ إلٰهٌ بَشَرِىّ .

وقال مَرّةً : ما التَّمَنِّى ؟ — وقَدْ كانَ جَرى ما اقْتَضَى السُّؤالَ عنه — .

---

(١) فى (ب) : « أريد » .

(٢) رواية (ب) : «ولا يختلفوا فى باطنهم حتى يكون مطبوعا» ؛ وفيها تكرار ظاهر.

فقلتُ : أحفظُ نصًّا لبعضِ الحُكماء : إنَّ التَّمَنِّيَ فَضْلُ حَرَكَةِ النَّفْس . فقال : جَوابٌ رَشِيقٌ وإن كانَ فَقِيرًا إلى البَسْط .

فقال : هاتِ مِنْ حَدِيث يُونانَ شَيْئًا آخَرَ ، فقلتُ : قال أرِسْطوطَالِيس : لو كُنَّا نَطْلُبُ العِلْمَ لِنَبْلُغَ غايتَه كُنَّا قد بَدَأْنا العِلْمَ بِنَقِيضِه ، ولكنَّا نَطْلُبه لِنَنْقُصَ كلَّ يَوْمٍ مِنَ الجَهْل ، ونَزْدادَ كلَّ يَوْمٍ مِن العِلْم .

(٦) قال : حدِّثْني بشيء فيه جَوابٌ حاضِر ، وللبَدِيهَةِ فيه تَوَقُّدٌ ظاهر .

فَحَدَّثْتُ أنَّ رَجُلاً أَتَى الزُّهْرِيَّ فسأَلَه أن يحدِّثه وَيَرْوِيَ له ؛ فأَبَى عليه ، فقال له الرجل : إنَّ اللهَ لم يَأْخُذ الميثاقَ على الجُهَّال أن يَتَعَلَّمُوا حتى أخَذَ الميثاقَ على العُلَماء أن يُعَلِّمُوا ؛ فقال : صَدَقْتَ ، وحَدَّثه .

وحدَّثَنا القاضى أبو حامِد المَرْوَرُّوذِيّ ؛ قال : وقف سائلٌ من هؤلاء الأنكادِ عَلَيْنا فى جامِع البَصْرَةِ وفى المجلس ابنُ عَبْدَلٍ المَنْصُورِيّ ، وابنُ مَعْروف ، وأبو تمام الزَّيْنَبِيّ ، فسَأَلَ وأَلَحَّ ؛ فقلتُ له من بين الجماعة — وقد ضجرتُ من إلحاحه وصَفاقةِ وَجهه — : يا هذا : نزلتَ بوادٍ غيرِ ذِى زَرْعٍ . قال : صَدَقْتَ ، ولكن يُجْبَى إلَيْه ثَمَرَاتُ كلِّ شَيْء . فَضَحِكَت الجَماعَة ، ووَهَبْنا له دَراهِمَ .

ومن الجَواب الحاضِرِ المُسْكِت الّذى حَزَّ الكَبِدَ ونَقَبَ الفؤاد[1] ما جرى لأبى الحسين البَتِّيّ[2] مع الشريف محمد بن عمر ، فإنَّ ابنَ عُمَر قال للبَتِّيّ[2] : أنتَ واللهِ شَمَّامَةٌ ولكنَّها مسمومة . فقال البَتِّيّ[2] على النَّفْس : لكنك أيُّها الشريف شَمَّامَةٌ مَشْمومَةٌ ، عُطِّرت[3] الأرضُ بها ، وسارت البُرُدُ بذِكْرِها .

(١) فى (ب) : « القلب » . (٢) فى (ب) . « البتى » .

(٣) فى نسخة « فطنت » ؛ وفى نسخة أخرى « وطئت » ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

وقال نصرُ بنُ سيّارٍ بخُراسانَ لأعرابيّ : هل أُتْخِمْتَ قطُّ . قال : أمّا مِن طَعامِكَ وطَعامِ أبيكَ فلا . فيقال : إنَّ نَصْرًا حُمَّ مِنْ هٰذا الجوَاب أيّامًا ؛ وقال : ليْتَنِي خَرِسْتُ ولم أفُهْ بسُؤالِ هٰذا الشّيْطان .

(٧) وجَرَى حَدِيثُ الذُّكُور والإناث ، فقال الوزير ، قد شرّف اللهُ الإناثَ بتَقديمِ ذِكْرِهِنّ فى قوله عزّ وَجلّ : (يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إناثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاء الذُّكُورَ) فقلت : فى هٰذا نَظَر ؛ فقال : ما هو : قلتُ قَدّمَ الإناثَ — كما قلتَ — ولٰكِنْ نَكَّرَ ، وأخَّرَ الذُّكُورَ ولٰكِنْ عَرَّف ، والتَّعْرِيفُ بالتأخير أشْرَفُ مِنَ النَّكِرَة بالتَّقْدِيم . ثم قال : هذا حَسَن . قلتُ : ولَمْ يَتْرُكْ هٰذا أيضًا حتَّى قال : (أوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإناثًا) فجَمَعَ الجِنْسَيْن بالتنكير مع تقديم الذُّكْران ، فقال : هذا مُسْتَوْفًى .

(٨) وقال : ما مَعْنَى كأسٌ أُنُف ؟ فكان من الجواب أن يعقوب قال : يقال كأسٌ أنُفٌ ، أى لم يُشْرَبْ منها قَبْلَ ذٰلك ؛ وكذلك يقال : رَوْضَةٌ أُنُف ، إذَا لم يكن رَعاها أحد .

وقال لَقِيط :

إنَّ الشِّوَاءَ والنَّشِيلَ والرُّغُفْ ... والقَيْنَةَ الحَسْنَاء والكَأْسَ الأُنُفْ

لِلطاعِنِين الخَيْلَ والخَيْلُ قُطُفْ

قال : ما النَّشِيل ؟ فإنَّ الشِّواء والرُّغُفَ مَعْرُوفانِ . قلت : ما ضَمَّنْته القِدْرُ من اللَّحْم وغيرِه ، لأنه يُنْشَلُ ويغْرَفُ ؛ فقال : هـذا بابٌ إنْ ألْحَحْنَا عليه جَوَّع .

(٩) قال : ما تحفظ في حديث الأكل ؟ قلتُ : الأكل والذم[١] .

ومن مليحه ما حضرني . قيل لجُمّيز[٢] : ما تشتهي ؟ قال : بسيسٌ مقليٌّ بين غليان قدور ، على رائحة شواء ، بجنب خبيص . فضحك — أضحك

(١٠) اللهُ سِنَّهُ بالفرح والسرور . وانتظام الأحوال واتساق الأمور — . وقال : هاتِ حديثاً نخرج به مما كنا فيه . فقلتُ : كتب سعدُ بنُ أبي وقاص إلى رُستم صاحبِ الأعاجم : إسلامكم أحبُّ إلينا من غنائمكم ؛ وقتالكم أحبُّ إلينا من صُلحكم . فبعث إليه رُستم : أنتم كالذُّباب إذ نظرَ إلى العسل فقال : مَن يُوصلني إليه بدرهمين ، فإذ نشِبَ فيه قال : مَن يُخرجني منه بأربعة ، وأنت طامع ، والطمع سيُرْدِيك . فأجابه سعد : أنتم قومٌ تُحادّون اللهَ وتُعاندون أنفسكم ، لأنكم قد علمتم أنّ اللهَ يُريدُ أن يحوِّل المُلك عنكم إلى غيركم ، وقد أخبرَكم بذلك حكماؤكم وعلماؤكم ، وتقرّرَ ذلك عندكم ، وأنتم دائماً تدفعون القضاء بنُحوركم ، وتتلقَّون عِقابَهُ بصُدوركم ، هذه جُرأةٌ منكم وجهلٌ فيكم ، ولو نظرتم لأبصرتم ، ولو أبصرتم لسلّمتم ، فإنّ اللهَ غالبٌ على أمرِه ، ولمّا كانَ اللهُ معكم كانتْ علينا ريحُكم ، والآن لمّا صارَ اللهُ معنا [صارت] ريحُنا عليكم ، فانجُوا بأنفسكم ، واغتنِموا أرواحكم ، وإلا فاصبرُوا لحرّ السلاح وألم الجراح ، [وخزي[٣] الافتضاح] ، والسلام .

كتبَ حُذيفةُ إلى عمرَ بنِ الخطّابِ — رضيَ اللهُ عنه — إنّ العربَ

---

(١) يشير بهذه العبارة إلى قولهم في المثل : «أكلا وذماً» في الشيء يؤكل ويذم ؛ ذكره صاحب العقد ، ولم يرد في كتب الأمثال الأخرى .

(٢) في الأصل : « حمير » بالحاء والراء ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا نقلا عن عيون الأخبار وغيره .

(٣) في (ا) : « والصافي » مكان هذه الزيادة المنقولة عن (ب) .

قد تغيّرت ألوانها ولحومها . فكتب عمر إلى سعد : ارتدْ للعرب منزلًا مراحًا . فارتاد لهم الكوفة ، وهى بُقعة حصباء ، ورملة حمراء ، فقال سعد : اللهمّ ربّ السماء وما أظلّت ، والأرض وما أقلّت ، والريح وما ذرت ، بارك لنا فى هذه الكوفة .

وسمع عمر منشدًا يُنشد :

ما ساسنا مثلُك يابنَ الخطّابْ　　أبرّ بالأقصَى وبالأصحاب

بعد النبيّ صاحب الكتابْ

فنخسه عمر وقال : أين أبو بكر ويلك .

قال عمرُ وهو بمكّة : لقد كنتُ أرعى إبلَ الخطّاب بهذا الوادى فى مُدرَّعة صوف ، وكان فظًّا يُتعبنى إذا عملت ، ويضربنى إذا قصّرت ، وقد أمسيتُ ليس بينى وبين الله أحدٌ ، ثم تمثّل :

لا شيْء ممّا ترى تبقى بشاشته　　يبقى الإلهُ ويُودِى المالُ والولَدُ

لم تُغنِ عن هُرمُزٍ يومًا خزائنه　　والخُلْدَ قد حاولت عادٌ فما خلَدُوا

ولا سليمانَ إذ تَسرِى الرِّياحُ به　　والإنسُ والجنّ فيما كُلِّفوا عُبُدُ

أينَ المُلوكُ التى كانت نوافلُها　　من كلّ أوْبٍ إليها راكبٌ يَفِد

حوضٌ هنالِكَ مَوْرُودٌ بلا كَذِبٍ　　لا بدّ مِنْ ورْدِنا يومًا كما وَرَدُوا

وقال عُمَر : خيرُ الدّوابّ الحديدُ الفؤاد ، الصحيحُ الأوتاد .

وقال عمر : كانت العربُ أُسْدًا فى جزيرتها يأكل بعضُها بعضًا ، فلمّا جمعهم الله بمحمّد لم يقمْ لهم شىء .

رأى رُسْتَمُ فى النَّوْمِ أنّ النبىّ — صلّى الله عليه وسلم — أخَذَ سِلاحَ فارِسَ وَخَتَمَ عليه وَدَفَعَهُ إلى عُمَرَ ، فارتاع رُسْتَمُ من ذلِكَ وأَيْقَنَ أنّه هالك .

وَقال : أنشِدْنى شيئًا ، فأنْشَدْتُه لبعض آل أبى طالب :

وَلستُ بمُذْعِنٍ يومًا مُطيعًا … إلى من لَسْتُ آمَنُ أن يَجُورا
وَلـكنّى مَتَى ماأخْشَ منـــه … أحَالِفُ صارِمًا عَضْبًا ثَؤُورا
وَأنزِلُ كُلّ رابيـــةٍ بَرَاحٍ … أكونُ على الأمير بها أميرا

وأنشَدَنى لعبدِ اللهِ بن الزّبير ، ولقد تَمَثّلَ به :

إنّى لَمِنْ نَبْعَةٍ صُمٍّ مَـكَاسِرُها … إذا تقَادَحَت القَصْباءُ[١] وَالعُشَرُ
وَلا ألِينُ لغَــيْرِ الحقِّ أتبعُـــهُ … حتى يَلِينَ لِضِرْسِ الماضِغِ الحجَرُ

وحدّثته أنّ المأمون قال : قليل السَّفَهِ يمحُو كثيرَ الحِلْمِ ، وَأدْنى الانتصار يُخرِجُ من فَضْلِ الاغتفار ، وَعَلَى طالب المعروف المَعْذِرَةُ[٢] عند الامتناع ، وَالشُّكْرُ عند الاصطناع ، وَعَلَى المطلوب إليه تعجيلُ المَوْعُود ، وَالإسعافُ بالموجود .

---

(١) ورد هذا البيت فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الشعر دون (ب) هكذا :

الى لمن سعه صم به كاسرها … أو أينا رحب العضبنة والقشر

وهو كما ترى مملوء بالتصحيف والتحريف فى جميع كلماته تقريبا ؛ وقد بحثنا عن هذا الشعر فى المصادر التى بين أيدينا فلم نجد غير البيت الثانى ؛ وهو منسوب فى مجموعة المعانى الى عبد الله ابن الزبير الأسدىّ ولم نجده فى ترجمته ؛ وقد قلبنا جميع كلمات هذا البيت على جميع ما تحتمله من الوجوه حتى استقام وزنه ومعناه على هــذا الوجه الذى أثبتنا . والنبع :شجر تتخذ منه أجود الرماح . وصمّ مكاسرها ، أى صلبة . ويقال : تقادح الشجر إذا كان رخوا ، فتى حركته الريح حك بعضه بعضا فأورى ناراً فإذا أريد الانتفاع به فى إيراء النار بعد لم يور . والقصباء : جماعة القصب . والعشر : شجرة تتخذ منه الزناد .

(٢) فى (ا) : المقدرة ؛ وهو تحريف .

فقال : مَن أفضلُ هؤلاء ؟ يَعنى بنى العبّاس . فكان الجوابُ أنَّ المنصور أنقدَهم[١] ، والمأمونَ [أمجدُهم] ، والمعتصمَ أنجدُهم ، والمعتضِدَ أقصدُهم . فقال : كذلك هو . وقال : فالباقون ؟ [قلت] ليس[٢] فيهم بعد هؤلاء من يُوحَّدُ بالذكر ، لأنه فى نقصِه وزيادتِه مُشاكلٌ لغيره . فقال : لِلّهِ دَرُّك .

الليلة الخامسة والثلاثون

(١) وقال ليلةً : ما الفَرْقُ بين الإرادَة والاختيار ؟ فكان مِن الجواب أنّ كلَّ مُرادٍ مُختار ، وليس كلُّ مختارٍ مُرادًا ، لأنَّ الإنسانَ يَختارُ شُرْبَ الدواء الكَريه وضَرْبَ الوَلَدِ النّجيب وهو لا يريد ، ويَختارُ طَرْحَ مَتاعِه فى البَحْرِ [إذا أُلجِئ][٣] وهو لا يريد ، وهما وإن كانا انفعالَيْن فأحدُهما — وهو الاختيار — لا يَحدُث إلاّ عن جَوَلانٍ وتنقيرٍ وتمييز ، والآخَر — وهو الإرادة — يَفجأ ويَبغَت[٤] وربّما حَمَلَ على طلَبِ المرادِ بالكُرْه الشديد ؛ وفى عُرْضِ الاختيار سَعَةٌ للتمكّنِ ، وليس ذلك فى عُرْضِ الإرادة . والعَرَبُ تَستعمل الإراغَة فى موضع الإرادة ، والأوّل مِن رَاغَ يَرُوغُ ، والثانى من رَادَ يَرُودُ ، والهمزة مُجتَلَبَةٌ للتعدّى .

(٢) قال : فما الفَرْقُ بين المحبّة والشّهْوَة ؟ فكان الجوابُ أن الشهوةَ ألصقُ بالطّبيعة ، والمحبّةَ أصْدَرُ عن النفس[٥] الفاضلة ، وهما انفعالان ، إلا أنَّ أحد

---

(١) فى (ا) : «أ نقدهم» ولم يظهر منها فى (ب) غير الهاء والميم ؛ وسائرها مطموس ؛ ولعل الصواب ما أثبتنا كما يقتضيه السجع .

(٢) الذى فى (ا) : «أشرفهم» ؛ وهو تحريف . ويلاحظ أن كلمة «فيهم» غير موجودة فى (ب) ، وقد أثبتناها أخذاً من قوله فى (ا) : «أشرفهم» .

(٣) فى الأصول : «أحب» . وهو تحريف .

(٤) فى (ا) : «ويثبت» ، وفى (ب) ويبت ، وهو تحريف فى كلتا النسختين .

(٥) فى (ا) : «الطبيعة» مكان «النفس» .

الأنفِعَالَيْنِ أشَدُّ تأثراً ، وهو انفعالُ الشَّهْوَة ، وأنه[1] يقال : شَهِيَ وأشْهَى[2] ، ويقال في الآخر : حَبَّ وأحَبَّ ، ويتَدَاخَلان كثيرًا بالاستعمال ، لأنَّ اللغةَ جاريةٌ على التوسّع ، كما هي جاريةٌ على التَّضْيِيق ، ومن ناحيةِ التضْيِيق فُزِعَ إلى التَّحْديد والتَّشديد ، ومن ناحية التوسُّع جُرِيَ على الاقتدار والاختيار[3] ، وفي عُرْض هٰذين بلاءٌ آخَر ، لأنه بين الإيجاز والإطناب ، وبين الكِنَاية والتصريح ، وبين الإيجاز[4] والإبطاء . فقال : هذا باب .

(٣) ثم ناولَني رقعةً بخطِّه فيها مَطالِبُ نفيسةٌ تأتي على عِلْمٍ عظيم ، وقال : باحِثْ عنها أبا سليمان وأبا الخير ومن تَعلَمَ أن في مُجارَاته فائدةً من عالِمٍ كبير ، ومُتعلِّمٍ صغير ، فقد يُوجَدُ عند الفَقِير بَعْضُ ما لا يُوجَد عند الغَنِيّ ، ولا تَحْقِرْ أحداً فاهَ بكلِمَةٍ من العِلْم ، أو أطافَ بجانِبٍ من الحِكْمة ، أو حَكَمَ بحالٍ من الفضل ؛ فالنُّفوس معادِنُ ، وحَصِّلْ ذلك كلَّه وحَرِّرْه في شيء وجِئْني به ، وكان في الرُّقعة :

ما النَّفْس ؟ وما كمالُها ؟ وما الّذي استفادَتْ في هذا المكان ؟ وبأيّ شيء بايَنَت الرُّوح ؟ وما الرُّوح ؟ وما صِفَتُه ؟ وما مَنْفَعتُه ؟ وما المانع من أن تكون النفسُ جِسْماً أو عَرَضًا أو هُمَا ؟ وهل تَبْقَى ؟ وإن كانت تَبْقَى فهل تَعلَمُ ما كان الإنسانُ فيه ها هُنا ؟ وما الإنسان ؟ وما حَدُّه ؟ وهل الحدُّ هو الحقيقة ، أم بَيْنَهما بَوْن ؟ وما الطبيعة ؟ وهلاّ أغْنَى الرُّوح عن النَّفْس ، أو هلاّ أغْنَت النفسُ عن

(١) في كلتا النسختين : « لأنه » والتعليل هنا لا مقتضى له ؛ ولعل صواب العبارة ما أثبتنا . (٢) لم نجد في كتب اللغة التي بين أيدينا أشهى بمعنى شهى ، أى اشتهى كما يفيده كلامه . والذى وجدناه أشهاه بمعنى أعطاه ما يشتهى ، لا بمعنى اشتهى .

(٣) في الأصول : « والاستحقار » . وهو تحريف صوابه ما أثبتنا .

(٤) في (١) : الأبحار والإطناب ، وفي (ب) وردت هذه الكلمة مطموسة الحروف تتعذر قراءتها ، والسياق يقتضي ما أثبتنا أخذا من الرسم الوارد في النسخ .

الرُّوح ؟ وهلاَّ كَفَتِ الطَّبيعة ؟ وما العقل ؟ وما أنحاؤه ؟ وما صَنيعُه ؟ وهل يُنقَل العَقْل ؟ وهل تتنفس النَّفْس ! وما مَرْتبتُه (أعْني العقلَ) عند الإلٰه ؟ وهل ينفعل ؟ وهل يَفْعَل[1] ؟ و إن كان ينفعل ويَفعَل[1] فقِسْطُ الفِعْل فيه أكثرُ مِنْ قِسط الأنفعال ؟ وما المَعادُ المشارُ إليه ؟ أهو للإنسان ؟ أم لنَفْسِه ؟ أم لهما ؟ وما الفَرْق بين الأنْفُسِ ، أعْنِى نَفْسَ عَمْرو وزَيْدٍ وبَكْرٍ وخالد ؟ ثم ما الفَرْقُ بين أنفُسِ أصنافِ[2] الحيَوَان ؟ وهَل المَلَكُ حَيَوان ؟ فقد علمتَ أنَّه يقال له : حَىٌّ ، وهل فيه حياة ؟ وعلى أىِّ وَجْهٍ يُقَالُ : إنَّ الله عزَّ وجلَّ حَىٌّ والمَلَكَ حَىٌّ والإنسانَ حَىٌّ والفَرَسَ حىٌّ ؟ وهل يقال : الطبيعةُ حَيَّة ، والنَّفْسُ حَيَّة ، العَقْلُ حىٌّ ؟ فإنَّ هٰذا وما أشبَهَهُ شاغِلٌ لقَلْبى ، وجاثِمٌ فى صَدْرى ، ومُعْترِضٌ بين نَفْسى و فِكْرِى ؛ وما أُحِبُّ أن أبوحَ به لكلِّ أحَد ، وقد بَيَّنْتُهُ[3] فى هٰذه الرُّقعة ، فإنْ أَحْبَبتَ أن تَعرِضها على أبى سُلَيمان فافْعَل ، ولكنْ لا تَدَع خَطِّى عندَه ، بل انْسَخْهُ له ، وحَصِّلْ ما يُجيبُك به ، ويَصْدَعُ لك بحَقيقَتِه ، ولَخِّصْه ، وزِنْهُ بلَفظِك السَّهل ، و إفصَاحِكَ البَيِّن ، و إنْ وَجَب أنْ تُباحِثَ غيْرَه فافْعَل ؛ فهذا هذا ؛ و إن كان الرجوعُ فيه إلى الكُتُب المَوْضُوعة من أجلِه كافياً ، فليس ذلك مِثْلَ البَحْثِ عنه باللِّسان ، وأَخْذِ الجواب عنه بالبيان ، والكتابُ مَوات ، ونَصيبُ الناظر فيه مَنْزُور ، وليس كذلك المُذاكَرَة والمُناظَرة وللمُوَاتاة[4] ، فإنَّ ما يُنالُ من هٰذه أغضُّ وأطْرَأ ، وأهْنَأ وأمْرَأ ،

---

(١) فى (١) : « ينفعل » مكان « يفعل » فى كلا الموضعين اللذين تحت هذا الرقم ، وهو تصحيف .

(٢) فى (ب) : « أصحاب » مكان قوله « أصناف » ، وهو خطأ من الناسخ .

(٣) فى (ب) : « نثرته » ، والمعنى يستقيم عليه أيضاً .

(٤) فى نسخة « وللموازاة » .

البَدَن . وعلى هذا ؛ ولعلّ آخَرِين يقولون فى تحديدها وَنعتها أقوالًا أُخَر ، لأنّ المَلحُوظَ(١) بسيط ، والمَدْرُوكَ بعيد ، والناظرين كثيرون ، والباحثين مختلفون ، وَالكَثرةُ فاتحةُ الاختلاف ، والاختلافُ جالبُ الحَيْرَة ، وَالحيْرَةُ خانقةٌ للإنسان ، وَالإنسانُ ضَعيفُ الأَسْرِ(٢) ، محدودُ الجُمْلَةِ ، محصُور التفصيل ، مقصورُ السَّعْى ، مَمْلوكُ الأَوّلِ وَالآخِرِ ، غِشَاوُهُ كثيف ، وباعُهُ قَصِير ، وفائتُه(٣) أكثرُ من مُدْرَكِه ، وَدَعْوَاه أحضَرُ من بُرْهانِه ، وَخَطَؤُه أكثرُ مِنْ صَوَابِه ، وَسُؤالُه أَظْهَرُ مِن جَوَابِه ، فعلَى هـذا كُلِّه الاعتراف بها — أعنى بالنفس وبوجْدَانها — أسْهلُ من الفَحْصِ عن كُنْهِها وبُرْهانِها .

قال : وإنما صَعُبَ هذا لأنّ الإنسان يُريدُ أنْ يَعرِفَ النَّفْسَ وهو لا يَعرِفُ النَّفْسَ إلّا بالنَّفْس ، وَهو محجوب عن نَفسه بنَفْسِه ؛ وإذا كان الأمر على هذا فالأَمْرُ أنّ كُلّ من كانت نفسهُ أصْفَى ، وَنورُه أشَعّ ، وَنَظَرُه أعْلى ، وَفِكْرُه أثقَب ، وَلَحْظُه أبْعَد ، كان من الشكّ أنجَى ، وَعن الشُّبْهة أنأى ، وإلى اليقين أقْرَب ؛ وَالإنْسَانُ ذُو أشياءَ كثيرةٍ ، مِن جُمْلَتِها نَفْسُه ، فلِكثرة ما هُوَ به كثيرٌ يَعْجَزُ عن إدْرَاك ما هُوَ به واحدٌ ، أى إنسان ، وكيف لا يكونُ هٰذا النَّعتُ حَقًّا ، وهذا المَقول صِدْقًا ، وهو مُرَكَّبٌ فى مركَّب ، وَالنَّفسُ مَبْسُوطَة ، وَإنما فيه جُزْءٌ يسير وَنَصِيبٌ قليل من ذلك البسيط ، فكيف يُدرِك بجزء منها كلَّها وبقليل منها جَميعَها(٤) ؛ هذا متعَذِّرٌ إنْ لم يكن مُحالًا ، وبعيدٌ إن لم يكن معدوما ؛

(١) فى كلا الأصلين : « المخلوط » . . . و « المذكور » ؛ وفى كلتا الكلمتين تصحيف وقلب ، صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

(٢) الأسر : القوة . وفى (ب) : « الأس » بضم الهمزة وتشديد السين ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضاً .

(٣) فى كلا الأصلين « وفلتته » ؛ وهو تحريف .

(٤) وردت هـذه الكلمة فى كلتا النسختين مهملة الحروف من النقط مطموس بعض حروفها . والسياق يقتضى ما أثبتنا .

وأجعل هذه الخِدْمة مُقَدَّمةً على كلِّ مُهِمٍّ لك ، فإنّي ناظرُك ، طامعاً فى الجَوَاب المُقْنِعِ الشّافى .

فعرَضْتُها كما رَسَم على أبى سُلَيمانَ وقرَأتُها [عليه] ، وتمهّلْتُ فى إيرادِها بحَضْرَتِه ، فلما فَهِمها ووَقفَ عليها تَعجب وقال : هـذه مَسَائِل المتحكِّمِين[1] ، وطَلَبَات المُدِلِّين ، واقتراحات المُقْتَدِرِين ، ومُنْيَةُ الأوَّلين والآخِرِين .

قلتُ : هو كما قلتَ أيُّها الشيخ ، ولا بدَّ من جوابٍ يُعْرَض عليه يأتى على بعض مآرب النفس ، وإن لم يأت على قاصِيَة ما فى المطلوب ، فقال كلاماً كثيراً واسعاً أنا أحْكِيه على وَجْهِه من طريق المَعْنى ، وإن انحرفتُ عن أعيان لَفْظِه ، وأسْبابِ نَظْمِه ، فإنّ ذلك لم يكن إملاءً ولا نَسْخًا ، وأجْتَهِدُ أنْ ألْزَمَ مَتْنَ المُرَاد ، وسَمْتَ المقْصُود — إنْ شاء الله — [عزّ وجلّ] .

(٤) قال : أمّا قولُه : ما النَّفس ، فإنَّ التحديد يُعْوِز ، والرَّسْمَ لا يَشْفى ، والوَصْفَ مقصِّرٌ عن الغاية ، لأنّها ليس لها جِنْسٌ ولا فَصْل فينْشأُ الحَدُّ بهما [ومنهما] ؛ والاسم الشائع — أعنى النفس — أخْلَصُ إلى المطْلوب ، وأحْضَرُ للمَقْصُودِ من التّحديد ، ولهٰذا ما اختلفَ الناسُ قَدِيماً وحَدِيثًا فى حَدِّها ؛ فقال قائل : النّفْسُ مِزَاجُ الأرْكان . وقال قائل : النّفْسُ تأَلُّفُ الأُسْطُقُسّات ؛ وقال قائل : النفس عَرَضٌ[2] مُحرِّكٌ[3] بذاته . وقال قائل : النفس هوائيّة . وقال قائل : النفسُ رُوحٌ حارّة . وقال قائل : النفس طبيعةٌ دائمةُ الحَرَكة . وقال قائل : النفسُ تَمَامٌ لجِسْمٍ طبيعىٍّ ذى حياة . وقال قائل : النفسُ جَوْهَرٌ ليس بجسمٍ محرِّكٌ

(١) فى كلا الأصلين : « المتحلين » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى كلتا النسختين « عدد » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به الكلام .
(٣) فى (ب) : « متحرّك » .

وَيَكفى أن تعلم أن النفس قوةٌ إلٰهية وَاسطة بين الطبيعة المُصرِّفة للأسْطُقُسّات والعناصرِ المُتَهيِّئة ، وبين العقل المنير لها ، الطالِع عليها ، ، الشائعِ فيها ، المحيطِ بها ؛ وكما أن الإنسان ذُو طبيعة لآثارها الظاهرةِ فى بدنه [كذلك هو ذو نفس ، لآثارها الظاهرة فى آرائه] وَأَبْحاثِه ، وَمَطالبه وَمآربِه ؛ وكذلك هو ذو عَقْلٍ لتمييزِه وَتصفّحه ، وَاختبارِه وَفَحْصِه وَاستنباطِه ، وَيقينِه وَشكّه ، وَعِلْمِه وَظنّه[1] ، وَفَهْمِه وَرَوِيّتِه وَ بَدِيهتِه وَذِكْرِه ، وَذِهْنِه وَحِفْظِه وَفِكْرِه ، وَحِكْمَتِه وَثِقَتِه وَطُمَأْنِينَتِه ؛ وكذلك هو ذو اعترافٍ بالأَحَد[2] الّذى لا سَبيلَ إلى جَحْدِه ، وَالبرَاءِ مِن هُوِيّته ، وَكيفَ يَجِدُ أَثَرَ الجحْد ، أو يُحِسُّ بِلَمْسَةٍ من الشكّ ؟ وَسِنْخُهُ يَنْبُو عن ذٰلك ، وَفِطْرَتُه تأباه ، ولِهٰذا النُّبوِّ وَالإِباء[3] يَفزَع إليه ، وَيتوكّلُ عليه ، وَيَطْلُبُ الفَرَجَ مِنْ عندِه ، وَيلْتَمِسُ الخيْرَ مِنْ لَدُنْه ، فانظر إلى هذه السِّلْسِلَةِ الوثيقة التى لا يَفْصِمُها شىءٌ لا فى زَمانٍ ولا فى مكانٍ ، ولا فى يَقَظَةٍ وَلا فى منَامٍ ؛ فهٰذا هٰذا ؟ وَفيه مَقْنَع .

وَأمّا فِعْلُ النفْسِ ، فقد وَضح أنّه إثارةُ العِلْمِ من مَظانّه ؛ وَاستخلاصُه من العقل بشهادَتِه ، مع إفاضاتٍ لها أُخَر ، وَإنالاتٍ منها جليلة عند الإنسان ، بها يَنالُ ما يَكْمُل به ، وبكَمالِه يَجِدُ السعادة ، وبسَعادَتِه يَنْجُو مِنْ شِقْوَتِه .

(٥) وأمّا قولُه : ما الّذى استفادت فى هذا المكان ، فإنّها أفادت وما استفادت ، إلاّ أن تُجْعَلَ إفادتُها للقابِلِ منها استفادةً لها ؛ وفى هٰذا تجوُّزٌ ظاهر ، ولا يقال للشمس إذا طَلَعَت على بَسِيطِ الأرض والعالَم : ما الّذى استفادت . ولكن

(١) فى (ب) : « وفطنته » .

(٢) فى كلا الأصلين « بالحد » ؛ وهو تحريف ؛ وسياق الكلام الآتى يقتضى ما أثبتنا . ويريد بالأحد : الله تعالى .

(٣) فى (ا) : « البنون والآباء » ؛ وهو تحريف فى كلا اللفظين .

يقال : ما الّذى أفادَتْ : فيُعلَم حينَئِذٍ بالعِيان أنّها أفادَت أشياء كثيرة ، صُوَرًا مختلفة ، ومَنافعَ جَمّةً بالقَصْدِ الأوّل ؛ وأمّا القَصْدُ الثانى فأضدادُ هٰذه ، وهـذا القَصْدُ مفروضٌ باللفظ ليكون مُعيناً على تبليغ الحِكْمَة إلى أهْلها .

(٦) وأمّا قولُه : بأىِّ شىء باينت النفسُ الرُّوحَ فهو ظاهر ، وذلك أنّ الرُّوح جِسْمٌ يَضْعُفُ ويَقْوَى ، ويَصْلُح ويَفسُد ، وهو واسطةٌ بين البَدَنِ والنَّفْس ، وبه تُفيضُ النفسُ قُوَاها على البَدَن ، وقد يُحِسُّ ويتحرّك ، ويَلَذُّ ويتألم ؛ والنفسُ شىء بسيطٌ عالِى الرُّتْبَة ، بعيدٌ عن الفساد ، منزَّه عن الأستحالة .

وأمّا المانعُ أنْ تكون النفسُ جسماً [فللبساطة التى وُجدتْ للنفس ولم تُوجَد للجسم ، وبيانُ هـذا أن كلّ نعت أُطْلِق على الجسم نُزِّهتْ عنه النفس ، وكلّ نعت أطلق على النفس نبا عنه الجسم ؛ فذاك كان المانع من ذلك ، وقد أتت مذاكَرةٌ فى النفس منذ ليالٍ بشرحٍ مُغْنٍ ، وبيانٍ تامّ ، إلا أن هـذا المكان أحوَجُ إلى الإلمام ، ولم يأت على ما فى النفس . وإذا بطل أن تكون النفسُ جسما] فهى بألاّ تكون عَرَضاً أَمْنُ وأخلَق ، لأنّه لا قِوَامَ للعَرَض بنفْسِه .

(٧) وأما قوله : وهل تَبْقَى ؟ فكيف لا تَبْقَى وهى مَبْسُوطَةٌ لا يَدْخُلُ عليها ضِدّ ، ولا يدبّ إليها فساد ، ولا يَصِلُ إلى شىء منها بِلًى ، والإنسان إنما يَبْلَى ويَفسُد ويَخْلَق ويَبْطُل ويَموت ويَفْقد ، لأنّه يفارق النّفْس ، والنفسُ تُفَارِق ما ذا حتّى تكُونَ فى حُكْمِ الإنسان بِشَكْلِه ؟ ولو كانت كذٰلك كانَتْ لَعَمْرِى تموتُ وتَبلى ، فأمّا والإنسان بها كان حيًّا وَجَبَ ألا يَكون حُكْمُها حُكْمَ الإنسان .

وأمّا قوله : أو هُما ، فقد بان أنّ النفسَ مَتى لم تكن جسْماً ، ولا عَرَضاً على حِدَةٍ أنها لا تكون أيضاً بهما نَفْساً ، لأنّ البَيْنُونَةَ التى مَنَعَت فى الأوّل هى

الّتى تَمْنَعُ فى الثانى ، وليست النفسُ والعرَض كالخَلِّ والسُّكَّر حتى إذا جُمِع بينهما كان منهما شىء آخر ، لأنَّ الجسْمَ وَالجِسم إذا اختلطا كان منهما شىءٌ ما ، لهُ قَوَامٌ ما ، وإنَّ ذلك القوامَ مُسْتَقِلٌّ منهما ، وليس كذلك البَسيط وغيرُ البسيط ، فهذا هذا .

وأمّا قوله : وهل تَفْنَى[1] ، فقد بان أنّها تَبقى ولا تَفْنى ، وليس يطرأ عليها ما يُفنِيها ، لبساطَتِها وبُعْدِها من التّركيب العجيب [المُعَرَّضِ] للتحلُّل .

وأما قوله : وهل تعلم ما كان فيه الإنسان ها هُنا ، فإنَّ هذا بعيد من الحقّ لأنَّها قد وَصَلَت إلى مَعْدِنِ الكرامة وجَنّةِ الخُلْد ، فلا حاجةَ بها إلى عِلْمِ العالَمِ السُّفليّ الّذى لا ثَبَاتَ له ولا صُورَةَ ، لغَلَبةِ الحَيْلولة عليه ، وتذَكُّر الحَيْلولة حَيْلُولة ، وذلك دليلُ النّقص ، وأعتراضُ الألَم ، ولو أن إنسانًا نُقِلَ[2] من كَرْبِ حَبْسٍ ضيّقٍ إلى رَوْضٍ بُسْتان ناضر بهيج مُونِق ، ثم تذكّرَ ما كان فيه فى حال ما هُوَ عليه لكان ذلك مُؤْذِيًا لنَفْسه ، وكارِبًا لقَلْبه ، وقادِحًا فى رَوحِهِ ، وآخِذًا من حُبُورِهِ وَغِبْطَتِهِ ، ومُدْخِلاً للتنغيص عَلَيْهِ فى نَشْوَتِه .

(٨) وأمّا قوله : وما الإنسان ، فالإنسانُ هو الشىء المَنْظُومُ بتَدْبيرِ الطَّبيعة للمادّة المخصوصة بالصُّوَر البَشَرِيّة ، المؤيَّدُ بنُورِ العَقْل من قِبَل الإله ؛ وهذا وصفٌ يأتى على القَوْل الشائع عن الأوّلين إنّه حَيٌّ ناطقٌ مائتٌ [أى حىٌّ] من قِبَل الحِسّ والحركة ، ناطقٌ مِنْ قِبَل الفِكْرِ والتمييز ، مائتٌ مِنْ قِبَل السَّيَلان والأستحالة ، فمن حيثُ هو حىٌّ شريكُ الحيوان الّذى هو جنسُه ، ومن حيث هو مائتٌ هو شَرِيكُ ما يَتَبَدَّل ويتحلَّل ، ومن حيث هو ناطقٌ هو

(١) فى الأصول : « وهل تبق » ، وهو تصحيف إذ قد سبق هذا السؤال .
(٢) فى (ب) : « نجا » .

إنسانٌ عاقلٌ حَصيف ، ومن حيث يَبلغ إلى مُشاكَهة المَلَكِ بقوّة الاختيار البَشَرِيّ ، والنور الإلهى ، — أعنى يُنعَتُ[1] فى حياته هذه التى وُهبَتْ له بَدْءًا ، بصحّة العقيدة وصلاحِ العمَل وصِدْق القَوْل — هو مَلَك ، فإن لم يكن مَلَكاً فهو جامع لصفاته ، ومالكٌ لحِلْيَتِه ، ولمّا كان جنسُه مشتمِلا على التفاوُت الطّويل العَريض ، كان نوعُه مشتمِلا على التفاوت الطويل العريض ؛ ومن كان نوعُه كذلك كانت آحادُه كذلك ، وكما أنّ الجنسَ يَرْتَقى إلى نوعٍ كامل ، كذلك النوعُ يَرتقِى إلى شَخْص كامل .

(٩) وأمّا قولُه : هل الحدّ هو الحقيقة ، أو بينهما بَوْن ، فإنّ الحدّ راجعٌ إلى واضِعِه ومُتَقَصِّيه[2] بدَلالةِ أنّه يَضَعُه ويُفَصِّله[3] ، ويُخَلِّصُه ويُسَوِّيه ويُصْلحُه . فأما الحقيقة فهى الشيء وبها هُوَ ما هُوَ ، حَدّه صاحِبُه أم لم يَحُدّه ، رَسَمَه قاصِدُه أمْ لم يَرْسُمْه ، فملحوظ الحقيقة عَيْنُ الشيء [وموضوع الحدّ ليس هو عينَ الشيء] .

(١٠) وأمّا قوله : وما الطبيعة فهى أيضاً قوة نفسيّة ، فإن قلتَ عَقليةٌ لم تَبْعُد ، وإن قلتَ إلهيّةٌ لم تبْعد ، وهى الّتى تَسرِى فى أثناء هذا العالَم مُحَرِّكةً وَمُسَكِّنَة ، ومُجَدِّدَةً ومُبْلِيَة ، ومُنْشِئةً وَمُبيدة ، ومُحْيِيَةً ومُميتة ، وتصاريفها ظاهِرةٌ المحسَاس ، وهى آخِرُ الخُلَفاء فى هذا العالَم ، وهى بالموادّ أَعْلَق ، والموادُّ لها أَعْشَق ؛ وليس لها تَرَقِى النَّفْسِ فى الثّانى[4] إلى عالَمِ الرُّوح ، لأنّهُ لا كَوْنَ هُنالكَ ولا فَساد ، فلو رَقِيَتْ إلى هُنَالِكَ لبَقِيَتْ عاطِلة ، وليس كذلك النفس ،

(١) فى (ا) : « يقينى » : وفى (ب) : « يقتنى » ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين ولعل الصواب ما أثبتنا . (٢) فى كلتا النسختين : « ومقتضيه » ؛ وهو تحريف لا معنى له فى هذا الموضع . (٣) فى كلتا النسختين : « ويبطله » . وهو تحريف .
(٤) فى الثانى ، أى فى العالم الثانى .

فإنّ لها في عالَمها البَهْجَةَ والغِبطة ، والحبُورَ والسُّرُور ، والدّوامَ والخُلود والخِلافة الإلٰهية ، وهذا هُناك في مُقَابلة ما كان لها هاهُنا من الفضائل التي لا يأتي عليها إحْصاء ، ولا يحصِّلها استقصاء .

(١١) وأمّا قولُه : وهلاّ أغنَى الرُّوح عن النّفْس ، فهو يُغْنِي عنها ، ولكن في جِنْس الحيَوَان الذي لم يكْمُل فيكونَ إنساناً . فأمّا في الإنسان فلا ، لأنّ الإنسان بالنّفْس هو إنسانٌ لا بالرُّوح ، وإنما هو بالرُّوح حَيٌّ فحسْب .

وأمّا قولُه : وهَلّا أغْنَت النفسُ عن الرُّوح ، فإنّ الرّوح كالآلة للنفس حتى يَنْفُذَ تدبيرُها بوَساطته في صاحِب الرُّوح ، وليس ذلك لعَجْزِ النفس ، ولكن لعَجزِ ما يَنفُذُ فيه التدبير ، وإذا حُقِّقَ هذا الرّمْزُ لم يَكُنْ هُنَاك عَجْز لأنّه نظامٌ موجودٌ على هٰذه الصورة ، وصورةٌ قائمةٌ على هـذا النظام ، فليس لأحد أن يُعَلِّلَ ذلك بلِمَ ولا بكيْفَ إلّا من طريق الإقْناع .

(١٢) وأمّا قولُه : هَلاّ كَفَت الطَّبيعة . فقد كَفَت في مواضِعِها التي لها الوِلايَة عليها مِنْ قِبَلِ النّفْس ، كما كَفَت النفسُ في الأشياء التي لها عليها الوِلايَةُ مِن قِبَل العَقْل ، كما كَفَى العقلُ في الأمور التي لَه الولاَية عليها من قبل الإلٰه ؛ وإن كان مجموعُ هذا راجعاً إلى الإلٰه ، فإنّه في التفصيل محفوظُ الحُدود على أربابها ؛ وهٰذا كالمَلِكِ الّذى لَهُ في بِلادِه جَماعةٌ فيَصْدُرون عن رَأيه ، ويَنْتَهُون إلى أمرِه ، ويتوخَّوْن في كلّ ما يَعْقِدُونه ويَحُلّونَه ، ويَنْقُضُونه ويُبْرِمونه ، ما يَرْجِـعُ إلى وِفاقِه ، وكلُّ ذلك منه ولَه وبأمْرِه ، وقد كفاه أولئك القومُ ذلكَ كُلَّه .

فإن قال قائلٌ : فكيف مَثّلْتَ سِياسةً إلٰهيّةً بسياسةٍ بَشَرِيّة ، وأين هذه مِنْ تِلْكَ ؟

فالجوَاب أنّ البَشَر المسكين لمَ يجِدْ هذه السياسة من تِلقاء نَفْسِه ، ولا بِمَا هُوَ به مَهِينٌ ضَعيف عاجزٌ مِسْكين ؛ بل بما فاض عليه من تِلك القُوَى وَتِلك الصُّوَر ، فهو إذا أبرَزَ شيئاً أبْرَزَ على مِثالِ تِلك ، لأنّه قد أُعطِىَ القالَب ، فقد سَهُلَ عليه أن يُفرِغَ فيه ، وَوُهِبَ له الطابَع ، فهو يَخْتِمُ به ؛ وَهُيِّئ على ذلك فهو يَجْرِى عليه ، وهذا سَوْقٌ إلٰهىّ وإن كان الأنسياقُ[1] بَشَرِيًّا ، وَنَظْمٌ رُبُوبِىٌّ وَإن كان الأنتظامُ إنسِيًّا ؛ وفى الجُمْلة إحْدَى السِّياستين ، أعنى البَشَرِيَّة هِىَ ظِلٌّ للأخرى ، أعنى الإلٰهيّة ، وَالسُّفْلِيّات مُنْقادَةٌ مُنْفَعِلَةٌ للعُلْوِيّات ، وَالعُلْوِيّات مُستَوْلِياتٌ على السُّفْلِيّات ، بحقّ العَدْل وما هو مقتضاها ، ولأنّ هذه فَوَاعِل ، أعنى العُلْويّات ، وَتلك قَوَابِل ، أعنى المُنفَعِلات ، وَوَجَب ذلك لأن الصورة فى الفاعِل أغْلَب ، والهَيُولَى فى القابِل أغلَب ، وَالعالَمَان مُتَواصِلان ، والسّياستان مُتَماثِلَتان ، والسِّيرتانِ مُتَعادِلَتان ، والتَّدْبِيران مُتَقابِلان ، ولكنّ التدبيرَ إذا نَفَذَ فى السُّفلىِّ يُسَمَّى بَشَرِيًّا ، وَإذا نَفَذَ فى العُلْوِىّ يُسَمَّى إلٰهيًّا ، وَإن كانا فى التَّحْقيق إلٰهيَّين ، وَإنّما اختَلَفا بحسَب الصُّدُورِ وَالوُرُود ، والفُصولُ وَالوُصول ، وَالشُّخُوصِ[2] وَالبُلوغ ؛ وَالعادة جارية بأنْ يُشَبِّهَ الإنسانُ شيئاً من الأشياء بالشَّمْس وَالقمَر ، وَلا يُشَبِّهَ الشمسَ وَالقمرَ بشىء آخَر ، لأنّ للأعلى النَّعْتَ الأوّل ، وَللأسفل النَّعتَ الأَرْذَل ؛ فهٰذا كما تَرَى .

(١٣) وَأما قوله : وَما العَقْلُ ، وَما أنْحَاؤه ، وَما صَنِيعُهُ ؟ فإن الجواب عن هذا لو وَقع[3] فى خَلَدِ كثير ، لكان محمولًا على التقصير ، وكذلك فيما تقدّم ؛ ولكن

(١) فى كلتا النسختين : « الاشتياق » بالشين المعجمة ، وهو تصحيف .

(٢) يريد بالشخوص هنا الارتحال ، وهو فى مقابلة البلوغ .

(٣) فى كلتا النسختين « أنه لو وقع » . والظاهر أن قوله «أنه» زيادة من الناسخ .

هذا مكان قد اُقتُرِح فيه الإيجازُ والتَّقريب ، وهٰذان لا يكونان إلّا بحَذْف الزوَائد المُفيدة ، وَإلّا بتَفريق العَلائق المُوَضِّحة . وَ بعد ، فالعقل أيضاً قوّةٌ إلٰهيّة [أَبْسَط من الطبيعة ، كما أن الطبيعة قوّة إلٰهيّة] أَبْسَطُ من الأسْطُقُسّات ، وكما أنّ الأسْطُقُسّات أَبْسَطُ من المركَّبات ؛ وعلى هذا حتّى تَنتهى المركّبات إلى مُرَكَّب فى الغاية ، كما بلغت المبسوطات إلى مَبْسُوطٍ فى النهاية ؛ فالْتَقَى الطَّرَفان على ما يقال له : كُلّ ، فلم يكن بعد ذلك مَطلَبٌ لا فى هٰذا الطَّرَف ولا فى هٰذا الطَّرَف ؛ وَالعَقلُ هو خليفة الله ، وهو القابل الفَيْض الخالِص الّذى لا شَوْبَ فيه ولا قَذًى ؛ وَإنْ قيل : هو نُورٌ فى الغايةِ لم يكن ببَعيد ، وَإن قيلَ بأنَّ اسمَه مُغْنٍ عن نَعتِه لم يكن بِمُنْكَر ؛ وَإنما عَجَزْنا عن تَحْديدِ هٰذه البَسائط لأنا حاوَلْنا عند عِلْمِها[١] أن تكون فى صورة المركّبات أو قريبةً منها ، وأن تَصيرَ لنا أصْنامًا نتمثّلها ونُوَكّلُ بها[٢] ؛ وهٰذا مِنّا تَعَجْرُفٌ مَرْدُودٌ علينا ، وَخَطأٌ يَلْزمُنا الاعتِذارُ منه إلى كلّ مَنْ أَحَسَّ به مِنّا ؛ وينبغى أن نَتوب إلى الله فى كلّ وَقْتٍ مِن وَصْفِه بما لا يَليقُ به ، وَمِنْ طَرْحِ الوَهْمِ على شىء قد حَجَبَه عن مَعارِفنا ، وَرَفَعَه عن عُقولنا ، وَقَصَرَنا على حُدودنا اللازمةِ لنا ، وَأشكالِنا المشتملةِ علينا ؛ هذا حَديثُ العَقْلِ إذا لُحِظَ فى ذِرْوَتِه .

فأما إذا فُحِص عن آثارِه فى حَضِيضه فإنّه تَمييزٌ وَتَحْصِيلٌ وَتَصَفُّحٌ وَحُكم وتَصْوِيبٌ وَتَخْطِئَة ، وَ إجازَةٌ وَ إيجابٌ و إباحَة ؛ وَإيّاكَ أيُّها السامِعُ أنْ يَكون مَفْهُومُك من هٰذِه الأسْماء وَالأفْعال وَالحروف أشياء مُتَمايِزة فتَجْعلَ شيئًا وَاحداً أشياء ، وَمَن كَثَّرَ الوَاحدَ فهو أَشَدُّ خَطأً مِمّن وَحَّدَ الكَثِيرَ ، لأنّ تَكثيرَ

(١) فى كلتا النسختين: « علمائها » ؛ وهو تحريف ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .
(٢) فى كلتا النسختين: « وتؤكل » ؛ وهو تحريف.

الواحدِ انحطاطٌ إلى المَرْكز ؛ وتَوْحيدَ الكثيرِ استعلاءٌ إلى المُحيط ، بل يجب أن يكون مَحْصُولُكَ منها شيئاً واحداً لم تَصِلْ إليه إلاّ بترادُفِ هٰذه الكلمات ، وتَصَاحُبِ هٰذه الصِّفات .

وأما أنحاؤه ، فعلى قَدْر ما يقال : فلان عاقل وفلانٌ أعْقَلُ من فُلان ، وفلانٌ فى عَقْلِهِ لُوثة(١) ، وفلانٌ ليس بعاقل ؛ وأصْحَابُ العَقل أنْصِباؤُهم منه مُخْتَلفة بالقِلّة والكَثْرة ، والصَّفَاء والكَدَر ، والإنارَة والظُّلْمة ، واللَّطافَة والكَثافة ، والخِفّة والحَصافة ، كما تَجِدُهم مُخْتَلِفين فى الصُّور والألوَانِ والخِلَق بالطُّولِ والقِصَر ، والحُسْنِ والقُبْح ، والاعتدالِ والانحراف ، والرّدّ والقبُول ، إلا أنّ هذا القَبِيلَ يُدْرَكُ بالحسّ ، ويُشْهدُ بالعِيَان ، ويُعَايَنُ بالحضُور ، وذلك القَبِيلَ مَحْجُوبٌ عن هٰذا كلّه ، فلم يجز أن تكون الإحاطة بتَفاوُتِ ما غاب [عنّا] فى وَزْنِ [الإحاطة(٢)] بتفاوُتِ ما حَضَر ، فإنّهما ما تَبايَنَا لِيَأْتَلِفَا ، بَلْ ليَخْتَلِفَا ، وهذا التفاوتُ مُعْتَرَفٌ به إذا اعتُبِر من خارج ، وذلك أنك تَجِدُ أصحاب المال أيضاً يتبايَنون فى مقادير ما يَمْلِكُون من المال ، ولا يتّفقون على مِقْدَارٍ واحدٍ منه عند جَماعتهم ، ولا يَتّفِقُون على نوعٍ واحِدٍ أيضاً من أعْيانِ المال ، لأنّ هٰذا يَمْلِكُ الصامت ، وذاك يَمْلِكُ الناطق ، وهذا يُمارِسُ القزّ ، وهذا يُمارِسُ الصُّوف ، وهذا يَنْظُرُ فى الصَّرْف ، وهذا يَبِيعُ الحَيَوان ، وكلٌّ منهم صاحبُ مالٍ ومُباشِرٌ له ؛ وعلى هذا المثالِ احْتَذَى أهْلُ العقل فى مَطالبهم ، فصار هذا يَمْلِكُ بِعَقْلِهِ غيرَ ما يَمْلِكُ الآخَرُ ، أعْنِي أنّ هٰذا يَنْظر فى الهَنْدَسَة ، وهذا فى الطِّبّ ،

(١) فى (ا) : « لومه » ووردت هذه الكلمة فى (ب) مطموسة الحروف تتعذر قراءتها ، والصواب ما أثبتنا .

(٢) لم ترد هذه التكملة فى كلتا النسختين ، والسياق يقتضيها .

وهٰذا في النّحو ، وهذا في الفقه ؛ والعِبارةُ تمْنَعُ من إشباع هٰذا المعنى ، وحَصْرِ هٰذا الفنّ ، فعلى هذا أنْحاؤه ، وإنها لـكثيرة إن لم تكن بلا نِهاية .

وأمّا صَنِيعُه ، فهو الحُكم بقَبُول الشيء وردّه ، وتحْسِينه وتَقْبِيحه ، إذا كان المعرُوضُ عليه على جهته غيرَ مموّه ولا مَغْشُوش ، ولا مُشْتَبه فيه ولا ملبُوس ، فإنْ كان مموّهاً اختلَفَ حُـكْمُه ، لأنّ العَقل يرَى الباطلَ حقًّا في وَقت ، ويرَى الحقّ باطِلًا في وقت ، مَعَاذ الله مِنْ هـذا ، ذلك الحِسّ المَنْقُوص ، والذّهْن المَلْبُوس ، لأنّ[1] العارِضَ مَوّهَ مَعْرُوضَه على العَقل ، فحَـكَمَ له بما يَسْتَحِقُّه ، إلّا أن يكون العارضُ لم يَشْعُرْ بذٰلك التّمْوِيه ، ولم يفْطَن لذٰلك الغشّ ، فحينئذ يهديه العَقل ويُرْشِدُه ، ويَفتَحُ عليه ، ويَنْصَحُ له .

وأما قوله : وهل يُعقَلُ العقلُ ، فإن الأَولى أن يقال : العاقِلُ يَعقِل بالعَقل مَعْقُولَه ، ألا ترَى أنهُ يقال : السِّرَاجُ أضَاءَ البَيْتَ ، ويبْعُد أن يقال : أضَاءَ نَفْسَه ، لأنّهُ مُضِيءٌ بنَفْسِه ، فلَيسَ به فَقْرٌ إلى أن يُضِيءَ نَفْسَه ، وإنما أضَاءَ غَيْرَه . . . . . .[2] . ولو عُقِلَ العَقْلُ لعُقِلَ بالعَقْلِ ، وهذا إذا استمرّ كان مَرْدُوداً ، ونحن إذا قلنا : عَقَلَ العاقلُ مَعقُولَه ، فإنما نَصِفُهُ بأنّه انفَعلَ انفِعالَ كالٍ ، والعقلُ يرَى مِن هٰذا الانفعال ألّا يَتَوَخّى أنّه يَعقِل الإلٰه الّذى هُوَ به ما هُوَ ، فإنّه يجوز أن يَضُرّ[3] به انفعالٌ لائقٌ به يكون عبارةً عن شَوْقه[4] إليه ، وكاله به ، واقتِباسِه منه ، وهذا صِراطٌ حَديد ، والواطئُ عليه على خَطَر شديد ، والوُقُوفُ

---

(١) وردت هنا كلمة : « لـكن » . في الأصول وهي زيادة من الناسخ .

(٢) ورد موضع هذه النقط في كلتا النسختين : « إلى لأنه أضاءه » ، ولا مقتضى لهذه العبارة هنا كما يظهر لنا .

(٣) في كلتا النسختين : « يضن به » بالنون مكان الراء ؛ ولم نتبين له معنى في هذا الموضع ؛ ولعل الصواب ما أثبتنا أو لعله « يضل به » باللام .

(٤) في كلتا النسختين : « سوقه » بالسين وهو تصحيف .

دونه أصْدَعُ بالحُجَّة ، وأوْضَحُ للعُذْر ، لأن الإنسان خَوّارٌ بالطَّبع ، وإن كان جَسُوراً بالنفس .

وأمّا قوله : وهل تتنفَّس النَّفس ، فإنْ أُرِيدَ بذلك النَّفسُ النامية (١٤) والحيوانيّة فهو قريب ، وأمّا الناطقةُ فإنّ ذلك يَبْعُدُ منها [لأن ذلك التنفس أستمدادُ شيء به يكون الشيء حيًّا] أو كالحيّ ؛ والناطقةُ غَنيّةٌ عن ذلك .

فإن قيل : فهل تَقْتَبِسُ من العَقْلِ وتَسْتَمِدّ ؟ قيل : هذا لا يُسمّى تَنَفُّساً ، وليس اللفظ يُبْعِدُه عن الحقيقة تأويلٌ في الوَضْع ؛ ولا وَجْهٌ في الأعمال[1] وإدخالِ العَويصِ في المَكان الذى يُحْتاج فيه إلى رَفْع اللَّبْس وزوالِ الإشكال ، مُدَاجاةً في العِلْم [وخِيَانةَ الحِكْمَة] وجِنَايةً على المُسْتَنْصِح .

وأمّا مرتَبَتُه[2] عند الإله فقد وضح بأنه كالشمس تَطلُع فتُحْيِي ، وتضيء فتَنفَع .

فإن قيل : فالعَقْل أيضاً هكذا ، قيل : العقلُ أيضاً شمسٌ أُخرى ، ولكنها تطلع على النفس التى ليست حاويةً لِجدارٍ وَسَطْح ، وبَرّ وبحر ، وجَبَل وسَهل ، لأنه لمّا كان العقلُ أشرَقَ من النَّفس — لأنه مُسْتَخْلِفٌ للنفس ، والنفسُ خَليفَتُه — كان إشراقُه ألطَف ، ومنافِعهُ فى إشْرَاقِهِ أشْرَف ، وأيضاً فإنّ الشمس تَجِدُها بالحِسّ لها غُرُوبٌ وطُلُوع ، وتَجَلٍّ وكُسُوفٌ ، وليس كذلك العقل ، لأن إشْرَاقَه دائم ، ونُورَهُ مُنْتَشِر ، وطلوعَه سَرْمَد ، وكُسوفَه مَعْدُوم ، وتجلِّيَه غيرُ متوقِّف[3] .

(١) فى (ب) : « الاحتمال » .
(٢) مرتبته ، يعنى العقل .
(٣) فى كلتا النسختين : « متوقع » بالعين ؛ وهو تحريف .

فإن قيل : نَرَى العقلَ يَعْزُبُ عن الإنسان فى وقتٍ [ويَئُوبُ إليه فى وَقت] . فالجواب أن الوَصْف الذى كنا نَنْعَت(١) به ونَصْدَع بِبَيانِه لم يَكُنْ لِعقْلِ زيد وعَمْرو، وبَكْرٍ وخالِد ، لأن ذلك يُنْعَتُ بالطُّلوع والغُرُوب ،و بالحضور والغُيُوب ، لأنه هاهُنا مضافٌ ومُنْحازٌ(٢) ، أو كالمُنْحَاز ، وليس كذلك هو ، فإنّه هُناكَ على بَهْجَتِه التامّة ، وسُلطانِهِ القاهر ، وملكوته الأفْيَح ، و بسيطه الفائق(٣) ، وفَضَائه العريض .

وأمّا قوله : وهل يَنْفَعِل ، فقد مَرَّ الكلامُ عليه فى طَىِّ ما مَرَّ ، وليس للتَّكرار وَجْه ، ولا فى التَّطويل عُذْر .

وأما قوله : فقِسْطُ الفِعْلِ أكثرُ ، أم قِسْطُ الانفِعال ، فإنّ هذا يُلْحَظُ من وجْهَيْن ، إذا لُحِظَ قَبُوله من فَيْضِ الإله فقِسْطُ الانفِعالِ أظْهَر ، وإذا لُحِظَ فَيْضُه على النّفس فقِسط الفِعْل فيه أكثَر ، لأنّه بجُوده على غَيْرِه يُشَارِكُه مَن جادَ عليه بجُودِه ، وهذا لطيفٌ جِدًّا .

(١٥) وأمّا قوله . وما المَعاد ، فما أسْهَلَ مُطَالَبَةَ السّائلِ بهذا الأمرِ الصّعْبِ الهائل الذى كلُّ أمرٍ متعلِّقٌ به ، وكلُّ رجاءٍ حائمٌ حوْلَه ، وكلُّ طَمَعٍ مُتَوَجِّهٌ إليه ، وكلُّ شيءٍ مَقصورٌ عليه ، وكلُّ إنسانٍ به يَهِيم ، وكلُّ مُصَرِّحٍ عنه يُصَرِّح ، وكلُّ كانٍ عنه يَكْنِى ، وكلُّ مترنِّم به يَحْدُو ، وكلُّ لَحْنٍ إليه يُشِير ، وكلُّ سامعٍ إليه يَطْرَب ، ونَرْجِع فنقول — على العِيِّ والبَيان ، وعلى الزَّحْفِ والعَدَوَان : — إنّ عَوْد النَّفْس إنما هو تَخْلِيَتُها للبدن إذا حانَ وَقْتُ التَّخْلِية ، إما لأن البَدَنَ

---

(١) فى (ا) : « تقنع » ؛ وفى (ب) : « نتسع » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين.
(٢) فى كلتا النسختين : « ومختار أو كالمختار » ؛ وهو تحريف فى كلا الموضوعين .
(٣) فى (ا) : الغائب بالغين والباء ؛ وفى (ب) : « الفائت » بالفاء والتاء ؛ ولعل الصواب ما أثبتنا .

غيرُ مُحْتَمِلٍ لمادَّةِ الحياة ، وإمّا لأنَّ النفسَ قد أزْمَعَتْ أمرًا آخَرَ ، ولا يَتِمّ لها ذلك إلاَّ بتخْلِيةِ هذا ؛ وإمّا لهما .

فإنْ قال قائل : فما نَصِيبُ الإنسان مِنْ عَوْدِ النَّفْس الذى هُوَ تخْلِيَتُها للبَدَن وخُروجها عنه ، وتَرْكُ استعمالِها له . فالجوابُ مِنْ طَريقِ التَّمثيل ، والرِّضَا بالرَّأْى الأصْوَب ، والحُكْمِ الأجْلَى أنْ يقال : لو قيل لرَجُلٍ مِنْ عُرْضِ النَّاس وافرٍ أو ناقِص : إنَّك إذا فارقتَ هذا العالَمَ بَقِيَتْ عَيْنُك الباصرة ، وأذُنُك السامعة ، هل تَرَى ذلك نِعْمَةً عليك ، وإحسانًا إليك ، فإنَّ عَيْنَك إذا بَقِيَتْ أبْصَرَت العالَمَ بَعْدَكَ كما كنتَ تُبصِرُه وهى مَعَك ، بل تُبْصِرُ أحْسَنَ مِن ذلك الإبْصارِ ، لأنَّها كانتْ مَعَك تَرْمَدُ بِسَبَبك ، وتَعْشَى من أجْلِك ، وربّما عَرَضَ لها سُوءٌ بسُوءِ تَدْبيرِك ، أوْ باتفاق ردىء عليك ، مِن عَشًى أوْ عمًى وخَفَش وعَمَش وعَوَرٍ وآفاتٍ[1] كثيرة ، وهىَ آمِنَةٌ بَعْدَكَ مِنْ هذه الأعْراضِ المَكْرُوهة ، والأحْوال الداهِيَة[2] ، فإنا نَعْلَمَ حَقًّا وعِيانًا أنّه يقول : قَدْ رَضِيتُ بل أتَمَنَّى هذا ، ومَنْ لِى بِهِ ، أىْ إنْ أُعْطِيتُ هذا فَمَنْ مِنِّى[3] أسْمَعُ وأبْصَرُ ، وإذا كنتُ أكره الدنيا فى حياتى إذا فقَدْتُهما فكيف لا أُحِبُّ الدُّنيا إذا وَجَدْتُهُما ، فإنْ كان هذا التَّمثيلُ واقِعًا ، وهذا التقريب نافِعًا ، والحَقُّ فى تضاعيفه واضِحًا ، فليَكُنْ ذلك مُطَّرِدًا فى بقاءِ نَفْسِ الإنسانِ التى بها كان إنسانًا ، وبها كان يَنْعَمُ فى هذا العالَمَ ، وبها كان يَعْلَمَ ويَعرِف ويَحْكُمُ ويُصِيب ، ويَجِدُ لَذَّةَ اللّذيذِ من ناحيةِ العَقْل والحِسّ ، وبها كان يَتَمَنَّى البقاء والدَّوامَ والخلود ،

(١) كذا فى (ب) والذى فى (١) : «وذنوب» ؛ وهو تبديل من الناسخ . ولم يرد قوله : « كثيرة » فى (ب) . (٢) فى كلتا النسختين : « الناهبة » ؛ وهو تصحيف .

(٣) فى كلتا النسختين : «مثلى» بالثاء واللام ، وهو تحريف صوابه ما أثبتناه كما يقتضيه السياق ، وأسمع وأبصر : وصفان للتفضيل .

وإنّما أستحال ذلك التمنّى من أجلِ كونِه بِفسادِه الّذين لم يكن بُدٌّ من أنتهائهما إلى الفَناء الّذى هوَ مُفارَقةُ النَّفسِ الجَسَدَ وتَخليتُها للبَدَن ، ونِسبَةُ نَفسِ الإنسانِ إلى الإنسانِ أوْكَد وألصَقُ مِنْ نِسبَةِ العَيْن إليه ، ألا تَرَى أنّه بالنّفس إنسانٌ ، وبالبَدَن حافظٌ لشَكْلِ [الإنسان] ؛ فإذا كانَ للإنسانِ فى هذا التمثيل فائدةٌ متمنّاة ، وحالةٌ مَحبوبَةٌ هنيئة ، أعنى فى بقاء العَيْن والأُذُنِ حتى يُبْصِرَ بإحداهما هذا العالمَ المَحْشُوّ بالآفات ، ويَسْمَعَ بالأُخرَى ما يَجرِى فيه مِنْ ضُرُوبِ الأستحالات ، فبالحَرِىّ أن يكون رِضاهُ ببَقاء النّفس فى مَحلّ الرَّوْح والأَمْنِ ، ومَقامِ الكَرامَةِ والسَّكينة عَلَى حالِ الخُلودِ والطُّمأْنينَة .
إنَّ هـذا لَعجيب ؛ وأعْجَبُ مِنْ هذا العَجيب عَقلٌ لا يَعلَقُ به ، ورُوحٌ لا يَهَشُّ لِسَماعِه ، ونفسٌ لا تَجِدُ حَلاوَتَه ، وصَدْرٌ لا يتصدّع طَرَباً عليه ، والتياحاً[1] إليه ، فإنّ مَنْ لم يشعُرْ بهذِه الفائدة ، ولم يَحمَدِ اللهَ على هذه النِّعمة ، لعازبُ الرَّأْى ، ضعيفُ العَقْل ، خَفيفُ المِثقال ، رَدِىء الأختيار ، قليلُ الحَصافة ، سَيِّئُ النَّظَر ؛ حيَوانٌ خَسِيس ، فى مَسْكِ إنسان رئيس ؛ فقد بانَ — على مَذهَبِ التقريب — ما المَعادُ المُشارُ إليه ، وما الإنسان منه ، وما لنَفسِه به .

(١٦) وأمّا قولُه : وما الفَرْقُ بَيْنَ الأَنفُس ، أى نفسِ زيدٍ وعَمْروٍ وبكرٍ وخالد ، وما الفَرْقُ أيضاً بين أنفُسِ أصْناف الحَيَوان ، فإنّما الفَرْقُ بَيْنَ هذه الأَنفُسِ بقَدْرِ قِسْطِ كلٍّ واحدٍ منهم منها ، وهذه الأَقْساطُ إذا أجتَمَعَتْ تَفاوَتَتْ ، وإذا تَفاوتَتْ كانت منها نَفْسٌ باقيةٌ حَيّةٌ ، ونَفْسٌ فانيَةٌ مَيّتَةٌ ، ألا ترى الشمسَ كيف تَطلُعُ على هذه المواضع المختلِفَة بالعُلو والسُّفْل ، وبالتَّعريج والأستقامة ، والأَشكالِ الكثيرة ، فيقولُ كلُّ إنسان : مَشرِقى أطيَبُ من مَشرِقةِ فلان ،

(١) ا "الباح : الشوق . وفى الأصول : « وارتياحا » . وهو تحريف .

وما أشْبَهَ هذا الكلام ، وطلوعُ الشمس على جميعِها طُلوعٌ وَاحد ، ولكنّ حُظوظَ البِقاعِ منها مُختلِفَة ؛ فليس بِمُنكَر [أن تكون] نفسُ زيدٍ أنجَى مِنَ الكَدَرِ ، وَأخلَصَ من الآفة ، وَأوصَلَ إلى السعادة ؛ ونَفْسُ بَكرٍ على خِلاف ذلك ، وَمَرَاتِبُ هذهِ الأنفُس مَوْقُوفَةٌ على الإضافاتِ الحاصِلةِ لها بأصْحابِها ، وَالأنصِباء المَذْخُورة لها باكتِسابِها .

فأمّا أنفُسُ أصْناف الحيَوانِ كالفَرَسِ والحِمار فإنّها أنفسٌ ناقِصةٌ غيرُ كاملة ، وهي ضعيفة ، لأنّها لم تجِدْ إلّا الإحْساسَ والحركات ، لم يَشِعّ فيها نُورُ النّفس الشريفة ، ولم ينبَثّ فيها شُعاعُ العَقْل الكَريم ؛ فوَجَبَ من هذا الوَجْهِ أن تكون تابِعةً لأبدانها ، جارِيةً على فَسادِها وبُطْلانِها ، لأنّ الحِكْمَةَ انتَهَتْ إلى ذلك الحدّ في كَوْنِها حَشْوًا لهذا العالَمَ وَزِينَةً وَمَنافِعَ وَمَبالِغَ إلى غاياتٍ وأغْراض .

(١٧) وأمّا قولُه : وهل المَلَكُ حيَوان ، فقد عَلِمْتَ أنّه يقال له حَيّ ، وهذا وَقفٌ على الأسماء الجارِية ، والعادات القائمة ، وكأنّ الحيَوانَ إنما شاعَ في غيرِ المَلَك لما فيه من الحسّ وَالحرَكَة وَالاغتِذاء وَالتّصرُّفِ على ما لاقَ بجِنْسِهِ وَنوْعِه وشَخْصِه ؛ [فأما ما يَعْلُو وَيُنَزَّهُ عن الصفات فلم يُطْلَق عليه حيوانٌ ، ولكن يقال] : حيٌّ لأنّه أقرَبُ الأسْماء إلى المَعْنَى المُشار إليه ، وبهذا التّقريب قيل أيضًا لله : إنّه حيّ ، وَأنتَ إذا حَدَّدْتَ الحيّ أو الحياةَ لَمْ تَقْدِرْ على أن تَصِفَ اللهَ [جلّ وَعلا] بِشَيءٍ مِنْ ذلك .. وفي الجملة كُلُّ ما كان أدْخَلَ في البَساطَةِ كان أخْرَجَ من التّرْكيب ، وكُلُّ ما كان أخْرَجَ مِنَ البَساطَة كان أدْخَلَ في التّرْكيب .

فأمّا المركّبُ الّذي ليس له من البسيط إلا النّصيبُ النّزْر ، وَإلّا طَيْفُ الخيال ، فاسمه واضح والإشارة إليه سَهْلة ، والعِيانُ له مُدْرِك ، لأنه مُحاطٌ

بحُدُودِه فى طُولِه وعَرْضِه وعُمْقِه .

وأما المُرَكَّبُ البَسيطُ الّذى ليس له من التركيب إلّا النَّصيبُ اليَسير ، فَاسمُهُ غامض ، والإشارة إليه عَسِرة ، والبيانُ عنه مَكفُوف ؛ وهذا بابٌ إذا حُفِظَ فُهِمَ منه شىءٌ كثيرٌ مما يَقَع فيه الغَلَطُ مِنَ الإنسان بفِكْرِه الرَّدِىء ؛ ويَنفَع أيضاً نَفعاً بَيِّنًا فى التَّغالُطِ العارِض بين المُتَناظِرِين على جِهَةِ التَّنافُسِ والتَّناصُفِ

قال أبو سليمان : مَن حَرَسَ هٰذا الثَّغرَ أمِنَ مِنْ جميعِ الأعْدَاء ، ومَنْ أهمَلَه كانت جِنايَتُه على نَفْسِه بيَدِه أعظَمَ مِنْ جِنايةِ عَدُوِّه الثائرِ من ثَغْرِه .

وَأمّا قولُه : على أىِّ وَجْهٍ يقال لِلّهِ حىٌّ وَالمَلَكِ حىٌّ والفرَسِ حىٌّ ، فقد دخل الجوابُ عنه فى ضِمْنِ ما تَشَقَّقَ القَوْلُ به ، وتَحَقَّقَ المَعْنَى عليه فى حديثِ المركَّبِ والبَسيط ؛ ونَزِيدُ ها هُنا حَرْفًا يكونُ رَدِيفًا لما تَقَدَّمَ ، فنقول : أمّا الإنسان فإنّه يقال له : حىٌّ بسبَبِ الحِسِّ والحَركة وما يتبَعُهُما ممّا هو كمالُ الحىِّ ، وكذلك الفرَسُ وما أشْبَهَه . وأمّا المَلَكُ فلمّا كان ما يَسْتَحِقّه ببَساطته مَعْدُومًا عندنا ، لم نَقْدِرْ على شىءٍ نَصِفُه به إلّا ما نَصِفُ به أنْفُسَنا بَينَنا ، ولو كُنّا فى عالَمِ المَلَكِ علمنا كُنّا نَدْرى بأىِّ شىءٍ يَنبَغِى أن يُنعَتَ وَيُسَمَّى وَيُذْكَرَ وَيُحْكَى ، فإنَّ مَن كانَ منّا فى بِلادِ الصِّين فإنّه يُسمِّى الإنسانَ وَالفرَسَ وَالحِمارَ والبَقَرَ بها بتَمالُؤِ أهْلِها بينهم ، وإذا كان هذا مُوَزًّا على ما تَرَى فى المَلَكِ ، أعْنى تَسْمِيَتَه الحَىّ ، وَنَعْتَه بالحياة ، فاللهُ الذى لا سبيلَ للعقْلِ أنْ يُدْرِكَهُ أو يُحيطَ بهِ أو يَجِدَه وِجْدانًا أوْلَى وَأحرَى أن يُمْسَكَ عنه عَجْزًا وَاستِخْذَاءً ، وَتَضاؤُلاً وَاسْتِعْفاءً ، إلا بِما وَقَعَ الإذْنُ به من جِهَةِ صاحِبِ الدِّين الّذى هو مالِكُ أزِمَّةِ العقول وَمُرْشِدُها إلى السَّعادات ، وواقفُها عِنْدَ الحُدُود ، وَزاجِرُها

عَنِ التخطِّى إلى ما لا يَجُوزُ . فعلى هـذا قد وَضَحَ أنّ الصَّمْتَ فى هـذا المكانِ أعْوَدُ على صاحبِه من النُّطقِ ، لأنّ الصَّمْت عن المجهُولِ أنفعُ من الجَهْلِ بالمعْلوم ، والتظاهُرَ بالعجْزِ فى مَوْضِعِه كالاستطالة بالقُدْرَة فى مَوْضِعِها ، وليس لِلخَلْقِ من هذا الوَاحِدِ الأحَدِ إلا الإنِّيَة والهُوِيَّةُ ، فأما كَيْفَ ولِمَ وما هُو فإنها طائرةٌ فى الرِّياح كما تَسْمَعُ وتَرَى .

ولما حَرَّرْتُ هذه الجُمْلةَ وحَمَلْتُها إلى الوَزير وقرأتُها عليه قال لى : هذا واللهِ جُهْدُ المُقِلّ ، وفى غَليلِي بَقِيَّةٌ من اللَّهَب .

قلتُ : أيُّها الوَزير ، قال أبو سليمان : سنقول لك كلاماً لا يَكون فيه كلُّ الرِّضا ، فقُلْ له عِنْد ذلك : إنّكَ سَأَلتَ عن العالَمِ بأسْرِه ، فلا طاقَةَ لأحَدٍ أنْ يَعْرِضَ عَلَيْكَ العالَمَ بأسْرِهِ ، ولولا عَجَلَةُ رَسُولِكَ فى المُطَالَبَة ، وإدْلالُه بالإلحاح ، وقوله : المُرادُ التَّقريبُ والإيجاز ، لا التَّطْويلُ والإسْهاب ، لكان النَّسْجُ على غَيْرِ هذا المِنْوال ، والعمَلُ على غير هذا الوَشْى . قال : ومن المَعالِم التى ليس لها ناظر ، ولا بها خابِر ، أنّ السائل يحضُّ على التَّلخيص المَفْهوم ، ولعلّ ذلك يَزيد الشيء إغلاقاً ، فإذا امْتُثِل ما يَرْسُمُ قال : ما شَفَانِى القَوْلُ ؛ وإنْ زِيدَ على ذلك قال : غَرِقَ المُرَادُ فى حَوَاشِى التَّكْثير ؛ فليس للعالِم تَخَلُّصٌ من استزادة المتعلِّم ، ولا عند المتعلِّم شُكْرٌ على مَبْذولِ جُهْدِ العالِم ، وهٰذا أمْرٌ قد تَقَدَّمَتْ الاستغاثة منه على مَرِّ الدُّهُور ، والأوْلَى فيما لا حِيلة فيه الرِّضا بالمَيْسُور منه .

ثم قال : وإن أطال اللهُ أيامَ هذه الدَّوْلة ، وحَرَسَ على هذه الجماعَةِ القَليلَة النِّعْمة ، استأنفنا نَظَرًا أبْلغَ مِنْ هـذا النَّظَر ، ببيَانٍ أشْفَى مِن هـذا البَيَان ، وطريق أوْضَحَ من هذا الطريق — إن شاء الله .

قال الوزير : والله ما قلتُ قَوْلِي ذاك ، لأنَّ هذا الكلامَ سَهلٌ ، وهذا المُتَناوَلَ قريب ، وهذا المرمى كَثَب ، كلاَّ ، وإنِّي لأظُنُّ بَلْ أحُقُّ أنه ليس في بضائع أصحابنا الذين حَوْلِي مَنْ يُدْرِكُ هٰذِه المعانِي على هذِه الصِّفَة إذا قُرِئَتْ عليه ، فكيف مَنْ[1] يُفزَعُ[2] في شَرْحِها وتَهْذِيبِها إليه .

ثم تَمَطَّى وقال : وانُعاسَاه ، واضَعْفَ مُنَّتَاه ؛ ثم فارَقْتُ المجلس .

الليلة السادسة والثلاثون

(١) وقال — دامت أيّامه — كيف تَقُولُ عِنْد مُهَلِّ الشَّهْرِ شَيئاً آخَرَ مِن لَفْظِه ؟

فكان من الجواب : حَكَى العالِم : عند هُلولِ[3] الشَّهر ومُسْتَهَلِّه [وَهِلِّهِ] وإهْلالِهِ واسْتِهلالِهِ .

(٢) قال : ورأيتُ الحاتمىَّ يقول : عَشْرُ كلماتٍ جاءتْ وعَيْنُها عيْنٌ ولامُها وَاوٌ ، ولم أوثِرْ شَرْحَه لها لِثِقَل رُوحِه ، ومُغَالاتِهِ بنَفسه ، وكأنّه لا عِلْمَ إلّا عندَه ، ولا فائدةَ إلّا هِيَ مَعه ، فهَلْ في حِفظِكَ هٰذه الكلمات ؟

قلت : لا إلٰه إلّا الله ، اليومَ ذَكَرَ الأندلسيُّ هذه الكلماتِ وعَدَّها ، وقد حَفِظْتُها ، فقال : هاتِ يا مُبارَكُ ؛ فكان الجواب : منها البَعْو ، وهو الجِناية ، والجَعْو ، وهو الطِّين ، والدَّعْوُ ، مَصْدَرُ دَعَا دَعْوًا ، والسَّعْوُ : الشَّمَع ، والشَّعْوُ : هو انْتِفاش الشَّعْر ، والصَّعْو : الرَّجل الضعيف ، وهو أيضاً طائرٌ أصْغَرُ مِنَ العُصْفُور ، والقَعْوُ : مِنَ البَكْرَة ، واللَّعْو : الحَرِيص . والذِّئْبُ في بَعْضِ

(١) الظاهر أن « من » زائدة . (٢) وردت هذه الكلمة في (ا) مهملة الحروف من النقط ، ووردت في (ب) هكذا « تقرع » .

(٣) لم نجد الهلول فيما راجعناه من كتب اللغة ، ولعل صوابه « هلال » أو لعله من الألفاظ التي انفرد المؤلف بروايتها عن مشايخه .

اللُّثاتِ ، والمَغو[١] : الجَنِيُّ من الرُّطَب ، والنَّغو : الشَّقّ فى مِشْفَرِ البَعير .

قال : هذا حَسَن ، لو أتَى به الحاتِمِيُّ لَاوَى شِدْقَه ، وقال : تَنَحَّ فقد جاء الأسَد وغَلَبَ الطُّوفانُ وخَرَجَ الدَّجّال وطَلَعَت الشمسُ مِن المَغرِبِ ، ما بالُ أصحابِنا تَفتَرِيهِمْ هٰذِهِ الخُيَلَاء ، ويَغلِبُ عليهم النَّقص ، ويَسْتَمْكِنُ منهم الشَّيْطَان .

قلت : قال أبُو سُلَيْمان : كلّ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ حِفْظُ اللَّفظِ وتَصْرِيفُه وأمْثِلَته وأشْكالُهُ بَعُدَ من مَعَانى اللّفظ ؛ والمعانى صَوْغُ العَقْل ، واللّفظُ صَوْغ اللِّسَان ، ومن بَعُدَ من المَعانِى قَلَّ نَصِيبُه من العَقْل ، ومَن قَلَّ نَصيبُهُ من العَقْل كَثُرَ نصيبُهُ من الحُمْق ، ومن كَثُرَ نصيبُهُ من الحُمْق خَفِىَ عليه قُبْحُ الذِّكْر .

الليلة السابعة والثلاثون

وقال الوزير ليلةً : ما أحوَجَ الجَبَانَ إلى أنْ يَسْمَع أحاديثَ الشُّجْعان ! (٩) وما أشَدَّ انتِفاعَ الضَّيِّق النَّفْسِ باستِماعِ أخْبَار الكِرام ، لأنَّ الأخلاق فى الخَلْقِ أعْرَاض ، والأعراضُ منها لازِمٌ ومِنها لا صِق .

قال : وكان[٢] عيسى بن زُرْعَةَ سرَدَ عَلَيَّ سَنَةَ سَبْعِين ، ليالِيَ كانَت الأشغال خفيفة ، والسِّياسة بالماضِى — نَوَّرَ اللهُ قبرَه وضَرِيحَه — عامَّة ، والنَّظَرُ بالحُسْنَى شامِلًا — أشْيَاء فى الخُلُق أتَى بها على عَمُودِ ما كان فى نَفْسى ، وذلك

(١) فى كلتا النسختين « واللمو » باللام ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن كتب اللغة .

(٢) فى (١) « ولو كان » ؛ وقوله « لو » زيادة من الناسخ .

أنه ذَكَرَ العقلَ والحُمْقَ ، والعِلْمَ والجهلَ ، وَالحِلْمَ وَالسُّخْفَ ، والقناعةَ والشَّرَه ، والحياء والقِحَة ، والرَّحْمَةَ والقَسْوَة ، والأمانةَ والخيانة ، والتَّيَقُّظَ والغَفْلَة ، والتُّقَى والفُجُور ، والجُرْأَةَ والجُبْن ، والتواضُعَ والكِبْرَ ، والوَفاء والغَدْر ، والنصيحةَ والغِشّ ، والصِّدْقَ والكَذِب ، والسَّخاء والبُخْل ، والأَناةَ والبَطْش ، والعَدْلَ والجوْر ، والنَّشاطَ والكَسل ، والنُّسكَ والفَتْك ، والحِقْدَ والصَّفْح ، ويَنْبَغى أن تَزُورَ عيسى وتَذْكُرَ له هذه الجُمْلَة ، وتَبْعَثَه على إعادةِ حُدُودِها ، وإشْباعِ القَوْل فيها ، مع إيجازٍ لا يكون به مَدْخَلٌ لِلخَلَلِ ، ولا تَقْصيرٌ عن إيصالِ الآخِرِ بالأَوّلِ .

فلقيتُ عيسَى وعرَّفتُه الحديث ، وأَمْلَى ما رَسَمْتُه فى هذا الجُزْء ، وعَرَضْتُه على أبى سُلَيمانَ ، فرَضِيَه بَعْضَ الرِّضا ، ولم يَسْخَط كلَّ السُّخْط ، وقال : تحديدُ الأخلاق لا يَصِحُّ إلاّ بضَرْبٍ من التجوُّز والتسمُّح ، وذلك أنّها مُتَلابِسَةٌ تَلابُساً ، ومُتَداخِلَةٌ تَداخُلا ، والشىء لا يَتَميَّزُ عن غَيْرِه إلا بِبَيْنُونَةٍ واقعةٍ تَظْهَرُ للحِسّ اللّطيف ، أو تتَّضِحُ لِلعَقْلِ الشَّريف .

ثم قال : [ألا ترى] أنّ الفِكْرَ مَشُوبٌ بالرَّوِيّة ، والظَّنّ مَخْلُوطٌ بالوَهْمِ ، والذِّكْرَ مَعْنِىٌّ بالتَّخَيُّل ، والبديهةَ جانحةٌ إلى الحِسّ ، والاسْتِنْباطَ مَوْصوفٌ بالغَوْصِ ، وما[(١)] هٰذا المعنَى الذى مَيَّزَ التَّوَاضُعَ من شَوْبِ الضَّعَة ، أو خَلَّصَ عُلُوَّ الهِمّة من شَوْبِ الكِبْر ، أو فَرَزَ[(٢)] عِزَّةَ النَّفْسِ من نَقْصِ العُجْب ، أو أبانَ الحِلْمَ عن بَعْضِ الضَّعْفِ ؟ ! هٰذا بالقَوْل ربّما سَهُلَ وأنقادَ ، ولكِنْ بالعقْلِ رُبَّمَا عزّ وأعتاصَ ، والأخْلاَق والخِلَقُ مُخْتَلِطَة ، فمنها ما اختلاطُه قَوِىٌّ

(١) فى كلتا النسختين : « ومن هذا » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى كلتا النسختين : « أو قرن » ؛ وهو تحريف .

شديد ، ومنها ما اختلاطُه ضعيفٌ مَهْلٌ ، ومنها ما [اختلاطُه] نَصَفٌ بين اللِّين والشِّدَّة ، وهذه يَنْفَعُ العلاجُ فى بَعْضِها ، ويَنْبُو العِلاَجِ عن بَعْضِها ؛ والحزْمُ يَقْضِى بألاّ يُتَهاوَنَ بما يَقْبَلُ العِلاَجِ لِأجْلِ ما لاَيقْبَلُ العِلاَجَ .

قال : وهذا أيضاً يَخْتَلِفُ بحسَبِ المِزَاجِ والمِزَاجِ ، والإنسانِ والإنسان ، ألا تَرَى أنّكَ لوْ رُمْتَ تَحْوِيل البخيلِ مِنَ العَربِ إلى الْجُودِ كانَ أسْهَلَ عليكَ من تَحْوِيل البخيل من الرُّوم إلى الجودِ ، والطَّمَع فى جَبَان التُّرْكِ أنْ يَتحوّلَ شُجَاعاً أقْوَى من الطّمَع فى جَبَانِ الكُرْدِ أنْ يَصِيرَ بَطَلاً .

قال : ومع هذا فوَصْفُ الأخْلاَقِ بالحدُودِ — وإنْ كان على ما قدَّمْنَاه — نافِعٌ جدًّا ، وإضْمَارُها فى النَّفْسِ مُثْمِرٌ أبداً ، فهذا هذا .

وأما ما قالَ أبو عَلِيّ فإنّهُ هٰذا . (٢)

قيل : ما الحلم ؟ قال ضَبْطُ الفِكْرِ بِكَفِّ الغَضَب .

وقال شيخُنا أبو سَعِيد السِّيرَافِيّ : اعتباره من ناحية الاسم تفْطِيلٌ لِطَبْعِهِ[1] وذلك أنّ الحِلْمَ شَرِيكُ التَّحَلّم ، « فكان الحليم [الّذى] يُعَدُّ فيمن يَحْلُمُ[2] » فى عُرْضِ الحليم الّذى لا يُعاجُ عليه ولا يُكْتَرثُ له . قال : والتَّحَلُّمُ نافِعٌ أيضاً ، وهو أحْمَدُ من التَّحالُم ، لأنَّ الثانى أقْرَبُ إلى التَّأَنِّى ، كما أنّ الأوّل أقْرَبُ إلى الحقيقة .

وقيل لعيسى : ما العَدْلُ ؟ فقال : القِسْطُ القائمُ على التّساوى . (٣)

وحَكَى جاليِنُوس قال : إن الناسَ لِشدَّةِ حُبِّهِمْ لأنفسهم يظُنُّون أنّ لهم ما يُحِبّون ، فن أجل ذلك وقعوا فى العُجْب ؛ فيَنْبَغى أن تكونَ مَحبَّتُكَ لنَفْسك

---

(١) فى الأصل « لطيفة » ، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

(٢) وردت هذه العبارة فى كلتا النسختين مضطربة اللفظ لا يفهم المراد منها ، وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا ، كما ورد فى (ب) « هو » قبل كلمة « الذى » .

حَقِيقِيّة ، ويتمُّ ذلك لك إذا أنتَ صيَّرْتَ نَفْسَكَ على الحالِ التى يَرَى من يَرَى أنك عليها .

[وقال : المُعْجَبُ] يُحِبُّ نفسَه أكْثَرَ مِمَّا يَحِقُّ لها ؛ وما أحْسَنَ بالإنسان أن يُحِبَّ نَفْسَه ، ولكن بالعَدْل ، فإن أرادَ أن يحبَّها جِدًّا فيَجِبُ أن يَجْعَلَها مِن أَهْلِ المَحَبّة ، ثم يُحِبُّها مِنْ بَعْد .

(٤) قيل : فما الحَسَد ؟ قال : شِدّةُ الأسَى على شىء يكونُ لغَيْرِه .

(٥) قيل : فما الكآبة ؟ قال : إفراطُ الحُزْنِ .

قال أبوسليمان : الحُزْنُ والغَمُّ وَالهَمُّ وَالأسَى وَالجزعُ وَالخَوَر مِنْ شجرَة واحدة وَمَن تَعاطَى وَصْفَ أغْصانِ شَجرةٍ طالَ عليه ، وَلم يَحْظَ بطائل ، وَيكفى أن نَعرِف شجرَةَ التُّفّاحِ من شجرةِ المُشْمُش ، وشجرةَ الكُمَّثْرَى مِنْ شجرَةِ السَّفَرْجَل ؛ فإنّ عَواقِبَ المعارِفِ نَكِرات ، كما أنّ فواتحَ المعارِفِ جَهالات .

(٦) قيل : فما الشَّجاعة ؟ قال : الإقْدامُ فى مَوْضع الفُرْصَةِ مِنْ جميع الأمُور .

قال أبو سليمان : الشجاعة إذا كانت نُطْقِيّةً[1] كانت فُرْصَتُها تعاطِىَ الحِكْمَة وَالدءوبَ فى بُلوغ الغاية ، و بَذْلَ القُوّة فى نَيْلِ البغية ؛ وَإذا كانت غَضَبِيّةً كانتْ فُرْصَتُها شِفاء الغَيْظِ إمّا من مُسْتَحِقّ ، و إمامن غير مُسْتَحِقّ ، و إذا كانت شَهَوِيّةً كانت فُرْصَتُها التَّحَلِّىَ بالعِفّة التامّة ، أعنى فى الخَلْوَة والحَفْل .

قال لنا أبو الحسن علىُّ بنُ عِيسَى الرُّمّانىُّ الشيخُ الصالحُ : العِفّةُ واسِطَةٌ بين المُقَارَفَة والعِصْمَة ، والعِصْمَة واسطةٌ بين البَشَرِيّة والمَلَكِيّة .

وحَكى عيسى بنُ زُرْعةَ فى هٰذا الموضع — عند تَدافع الحديث — أن مُورِيسَ قال : إنّى لأَعْجَبُ مِن ناسٍ يقولون : كان يَنْبَغى أن يكونَ الناسُ

(١) نطقية ، ى فكر .

على رأيٍ واحد ، ومنهاج واحد ، وهذا ما لا يَستقيم ولا يَقعُ به نظام .

قال : وهَبْ أن يكون الناسُ وكلٌّ واحدٍ منهم مَلِكاً يأمُرُ ويَنهَى ويُستَمع له ويُطاع ، فمَن كان المأمورَ المؤتمر ، والمَنهيَّ المُنتَهِي؛ والعاقلُ الحَصيفُ يَعلَمُ أنه لا بدَّ من التفاوت الّذى به يكون التّصالحُ ، كالعالِمِ والمُتعلِّم ، والآمِرِ والمأمور والصانِعِ والمصنوعِ له .

ثم قال عيسى : مِن توابِعِ الأخلاقِ المَذمُومَة الغَضَبُ والكَذِبُ والجَهلُ والجَوْرُ والدَّناءةُ .

قال أبو سليمان : أمّا الغَضَب فلا يكون مَذمُومًا إلاّ إذا أُعمِل فى غير أوانه ، وعلى غيرما يَأذَنُ النامُوسُ الحَقُّ به ؛ وأمّا الكَذِبُ ففيه أيضاً مَصالحُ ، كما أنّ الصِّدْقَ ربّما أفضَى إلى كثير من المَفاسِد — وإن كانَ الصِّدْقُ قد فازَ بالوَصْفِ الأحسَن ، والكَذِبُ قد وُصِف بالنعت الأقبَح — فكَمْ كذِبٍ نجّى مِنْ شرّ ، وكَمْ صِدْقٍ أوْقَعَ فى هُوَّة ، وبقِيَ الآنَ أنْ نَعرِفَ الصِّدْقَ مع أوانِه ومَكانِه ، فيُؤتَى به أو يُنهَى عنه ، وكذلك الكَذِبُ على حَذْوِهِ ومِثالِه .

قال : وأمّا الجَهْلُ والجَوْرُ والدَّناءةُ فإنّها أثافِيّ الرَّذائل ، فينبَغى أن يُنتَفَى منها جُملةً وتَفصِيلاً ، ولا يَسلُكُ أحَدٌ إلى شىء منها [سبيلا] فإنها أعْدام ؛ — هكذا قال — ؛ والعَدَم كَرِيهٌ ومَهرُوبٌ منه ، والوجودُ على أنقَص النُّعوتِ أتَمُّ وأشرَفُ مِنَ العَدَم على أزيَد الصِّفات ، وإن كان لا زِيادة فى العَدَمِ إلاّ من طَريقِ الوَهْم العارِضِ ما يَصِحُّ وما لا يَصِحُّ .

(٧) قيل : فما العُجْب ؟ قال وَزْن النفسِ بأكثر من مِثقالها .

وقال أيضاً : العُجْبُ هو النَّظَر فى النَّفس بعَيْن تَرَى القَبيحَ جميلاً .

ويقال : المُعجَبُ يَدّعِي أنّ ما يَنْبَغِي أنْ يُعجَبَ منه قد حَصل لَه مِنْ غَير أنْ يَكُونَ كَذٰلك ؛ فأمّا إذا كان ذٰلك حاصلاً فالعُجْبُ ليس بعُجْبٍ إلاّ مِنْ طريق الأسم ، وإلاّ فهو فى الحقيقة إحْساسٌ بالفَضْل المَعْشُوق ، وشُعورٌ بالكمال المَوْمُوق ، وأستِدْعَاء للزّيادَةِ ممّا صارَ به هٰكذا ، وأستعدادٌ لقبول الفَيْض من مَعْدِنه بالأختيار الثانى والاعتياد الأوّل .

(٨) قيل : فما الوَفاء ؟ قال قَضاء حَقٍّ واجب ، وإيجابُ حَقٍّ غيرِ واجب ، مع رِقّةٍ أُنْسِيّة ، وحفيظةٍ مَرْعيّة .

(٩) قيل : فما الرّغْبَة ؟ قال : حركةٌ تكونُ مِنْ شَهْوَةٍ يُرْجَى بها مَنْفَعة .

قال أبو سليمان : الرّغْبَةُ إذا كانت نُطْقِيّةً كانت مَبْعَثَةً على التّحلّي بالفَضائل ، وإذا كانت سَبُعِيّةً أو بَهِيمِيّةً كانت مُلْهِجَةً بمُوَاقَعةِ أضْدادِها[1] مِن الرّذائل .

(١٠) وقيل : ما المِهْنَة ؟ فقال : حركةٌ يَتَعاطَاها الإنسانُ بلا حَفْزٍ ولا استِكْرَاه .

قال عليُّ بنُ عيسى : المِهْنَةُ صِناعة ، ولكنها [إلى الذلّ أقرب ، وفى الضَّعَة أدخل ، والصناعة مِهْنة ، ولكنّها] تَرْتَفِعُ عن تَوَابِع المِهْنَة ، وفى الصّناعات ما يَتّصِلُ به الذُّلّ أيضًا ، ولكن ذُلٌّ لَيس من جهةِ حَقِيقةِ الصّناعة ؛ ولكن مِنْ جِهَةِ العَرَضِ الذى بين الصّناعة والصناعة ، والمرتبة والمَرْتَبة .

(١١) قيل : فما العادة ؟ قال : حالٌ يأخذ بها المرء نفسَه من غَيْر أنْ تكون مَسْنُونةً يَجْرِى عليها مَجرَى ما هو مَألوفٌ طَبيعيّ .

قال أبو سليمان : كأنّ هٰذا الأسمَ ليس يَخلُصُ إلاّ لمن أتَى شيئًا مِرارًا ، فأمّا فى أوّل ذٰلكَ فليسَ له هٰذا النعت ، وإنّمَا يَصيرُ مَألوفًا بالتّكرار ، ولهذا

---

(١) أضدادها ، أى أضداد الفضائل .

ما صِيغَت الـكلمةُ مِنْ عادَ يَعُودُ واعتادَ يَعْتاد .

وأمّا قولُه : طَبِيعيّ ، فعَلَى وَجْهِ التَّشْبيه ، لأن الطبيعيّ أشَدُّ رُسُوخًا وَأثْبَتُ عِرْقًا ، وَأبْعَدُ مِن الانتِقاض ؛ فأمّا العادةُ فـكُلُّ ذلك جائزٌ عليها ، وَغيرُ مَأمُون من الوُقوعِ فيه .

قيل : كم الحركات ؟ قال : ستّةُ أصناف ، أوّلها حركةُ الانتقال ، وهى ضَرْبان : إمّا حَرَكةُ الجِسْمِ بكُلِّه مِنْ مَكان إلى مكان ، وَإمّا حَرَكتُه بأجْزائِهِ كالفَلَكِ وَالرَّحَى ، والثانى حَرَكةُ الـكَون ، والثالث حَرَكةُ الفَساد ، والرابع حَرَكةُ الرُّبُوّ[1] ، والخامسُ حَرَكةُ النَّقْصِ وَالبِلَى ، والسادِسُ حَرَكةُ الاستِحالة ، وهى ضَرْبان : أمّا فى الجِسْمِ فَمِثْلُ اللَّوْن ، وأمّا فى النَّفْسِ فمِثْلُ الغَضَبِ والرِّضَا ، والعِلْمِ [والجَهْل[2]] . (١٢)

وَالنُّقْلَةُ مَكانِيّة ، وَالـكَونُ وَالفَساد جَوْهَرِيّان ، وَالاستِحالة هَيْئيّة ، والنموُّ وَالاضمِحْلالُ[3] مَكانيّان .

قال الـكِنْدِيّ : وَهاهنا حَرَكةٌ أُخْرَى ، وَهى حَرَكةُ الإبداع ، إلّا أنّ بَيْنَها وَبينَ حَرَكةِ الـكَوْنِ فَرْقًا ، لأنّ هٰذه لامِنْ موضوع ، وَحركة الـكَونِ من فسادِ جَوْهرٍ قَبْلَه بحُدُوثه ، وَلذلِك قيل : إن الـكون خُروجٌ من حالٍ خَسِيسَةٍ إلى حال نفيسة .

قال أبو سليمان : حَرَكةُ الإبْدَاعِ عِبارةٌ بَسِيطةٌ لا يَجِبُ أنْ يُفهَم[4] منها

(١) فى كلتا النسختين : « الدنو » ، وهو تصحيف . والربو : الزيادة ، وقد أثبتنا هذه الـكلمة أخذاً مما يأتى بعد فى توضيح هذه الحركات ، من قوله : « والنمو » وإنما أثبتنا هنا الربو بالراء والباء لقربه من حروف الأصل . (٢) هذه الـكلمة أو مايفيد معناها لم ترد فى كلتا النسختين ، والسياق يقتضى إثباتها إذ لا تتحقق الاستحالة إلا بين الشىء وما يخالفه .

(٣) يشير بالاضمحلال هنا إلى ما سبق من حركة النقص والبلى ، وهى الخامسة .

(٤) فى (ب) : « يظهر » مكان « يفهم » .

مَعْنًى مُرَكَّب . قال : وَإِنَّمَا قلتُ [هذا] لأنَّ اللَّفظَ نَظِيرُ اللَّفظِ فى أَغْلَبِ الأَمرِ وَليس المَعْنَى نَظِيرَ المَعْنَى فى أَغْلَبِ الأَمْر ، وَاللفظ كُلُّه من وَادٍ وَاحد فى التركيب بلُغَة كلّ أُمّة ، وَالمَعَانى تَخْتَلف فى البَساطَة على قَدْرِ العَقْل⁽¹⁾ وَالعَقْل ، وَالعاقِل والعاقِل ، وَإِنَّمَا حَرَكَةُ الإِبْدَاعِ مُشَارٌ بها إلى مقوِّم الأَشياء بلا كُلْفَة فاعِل ، وَلا مُعاناةِ صانِع ، وَإِنَّها بَدَتْ بالمُبْدِعِ مِن المُبْدِع للمُبْدِع لا عَلَى أَنَّ الباء أَلصَقَتْ به شيئاً ، وَلا على أنَّ [مِنْ] فَصَلَتْ مِنْهُ شَيْئاً ، وَلا على أَنَّ اللامَ أَضَافَتْ إليه شيئاً ، فإنَّ هٰذِهِ العلامات وَالأَمارات كلَّها مَوْجُودَةٌ فى الأَشياء الَّتِى تعلَّقت بالإِبداع ، فلَمْ يَجُزْ أَنْ يُنْعَتَ بها المُبْدِع ، وَلو جاز هٰذا لـكانَ داخِلاً فيها ، وَموجوداً بها ، وَهذا بعيدٌ جداً . فلمّا جَلَّ عن هذه الصِّفات بالتَّحقيق فى الاختيار وُصِفَ بها بالاستعارَة على الاضطرار ، لأَنَّه لا بدَّ لنا من أَنْ نَذْكرَه وَنَصِفَه وَنَدْعوَه وَنَعبُدَه وَنَقصدَه وَنَرْجُوَه وَنَخافَه وَنَعرِفَه وَنَنْحُوَه وَنَطْلُبَ ما عِنْدَه وَنُوَاجِهَه وَنـكافِحَه⁽²⁾ ؛ وَهذه نعمةٌ منه عَلَيْنا ، وَلُطفٌ منه بنا ، وَحكمةٌ بينَه وَ بَيْننا وَإلا كانت العِصْمَةُ تَنْبَتِر ، وَالطمعُ يَنْقطِع ، وَالأَمَل يَضْعُف ، وَالرَّجاء يَخيب ، وَالأَركان تَتَخَلْخَل ، وَالذَّرائعُ ترتفع ، وَالوَسائلُ تمْتَنِـع ، والقَواعدُ تَسِيخ ، وَالرَّغبات تَسْقُط ، وَالجود وَالـكرَمُ وَالحِـكْمَةُ والقُدْرَة وَالجَبَرُوتُ وَالمَلَـكُوتُ تَأْبَى ذلك ؛ فصارَتْ هذه الأَسْماء وَالصِّفاتُ سَلالِمَ لنا إليه ، لا حقائقَ يَجُوزُ أَنْ يُظَنَّ به شىءٌ منها ، على سبيل⁽³⁾ السِّياجِ المَمْدُود ، وَالمِنهاجِ المَخْدُود .

سُقْتُ كلامَ عِيسَى فى تَصْنِيفِ الحَرَكاتِ من أَجْلِ هذِه الفِقْرَة الَّتى كانت مَحْفُوظَةً فى حَرَكَةِ الإِبداع ، فإِنِّى قد وَجدتُ للقَوم فى هذا الباب حَيرةً عارِضَة

---

(١) فى (ب) على قدر اللفظ ، وفيه تبديل من الناسخ . (٢) المـكافحة : المواجهة واللاقاة . (٣) فى كلتا النسختين « لا على سبيل » الخ. وقوله « لا » زيادة من الناسخ كما يلوح لنا.

أو راكدة ، لا يستطيعون التفصّي عنها ، ولا يقدرون على البراءة منها ، الضلال الذى قد لزمهم ، والأصنام التى قد تربعت فى نفوسهم ، والأمثلة التى قد خالطت عقولهم ، والأفياء التى استصحبوها من إحساسهم ؛ والقائل هذا ينبغى أن يتحرّى ويتلبّث حتى يعرى من هذه الأشياء ويتريّث ؛ فحينئذ أضمن له أن يصح توحيده ، ويتم تجريده ، وإلى التوحيد تنتهى الفلسفة بأجزائها الكثيرة ، وأبوابها المختلفة ، وطرقها المتشعّبة .

وأنا أعوذ بالله من صناعة لا تحقّق التوحيد ولا تدلّ على الواحد ولا تدعو إلى عبادته ، والاعتراف بوحدانيته ، والقيام بحقوقه ، والمصير إلى كنفه ، والصبر على قضائه ، والتسليم لأمره ؛ ووجدت أرباب هذه الصناعات ، أعنى الهندسة والطبّ والحساب والموسيقى والمنطق والتنجيم معرضين عن تجشّم هذه الغايات ، بل وجدتهم تاركين الإلمام بهذه الحالات ، وهذه آفة نسأل الله السّلامة منها ، والعافية من عواقبها ؛ والسلام .

قيل : ما التّام ؟ قال : بلوغ الشىء الحدّ الّذى ما فوقه[1] إفراط ، (١٣) وما دونه تقصير .

قال أبو سليمان : التمام أليق بالمحسوسات ، والكمال أليق بالأشياء المعقولة.

قال : وليست هذه الفتيا منّى جازمة ، ولا عن العرب العاربة مرويّة ، ولكن إذا لحظنا المعانى مختلفة ، طلبنا لها أسماء مختلفة ، ليكون ذلك معونة لنا فى تحديد الأشياء أو فى وصف الأشياء من[2] طريق الإقناع الكاف[3]

(١) ما فوقه ، أى الذى فوقه . وكذلك أيضاً « وما دونه » .
(٢) ورد فى كلتا النسختين « إلا من طريق » . وقوله « إلا » زيادة من الناسخ كما يلوح لنا.
(٣) فى كلتا النسختين « الكافى » والياء زيادة من الناسخ .

الجَدَل والتهمة ، أو من طريق البُرْهان الناطِع بالحجَّة ، الرافِع للشُبْهة ، أو مِنْ طَرِيقِ التَّقليد الجارى على السَّنَن والعادة .

قال : ولهذا [إذا] قيل : ما أتمّ قامَته ! كان أحسَن ، وإذا قيل : ما أكمَلَ نَفْسَه ! كان أجْمَل .

(١٤) قيل له : هل يَتَساوَى الكَوْنُ والفَساد فيَبْقَى الشىء على ماهُوَ به ؟ فقال : أمّا على الحقيقة فلا ؛ ولكنْ[١] على السَّعَة ، لأنَّ الكَوْن متصل بالفساد ، إلا أنهما يخفيان فى مَبادِئهما حتى إذا أُمتِدّ الآنان[٢] فصارَ آناً[٢] واحداً فحينَئذٍ بانَ الكَوْنُ مِن الفساد ، وبان الفَسَادُ من الكَوْنِ ، وهذا بالأعتبار الحِسّىّ ؛ فأمّا العقل فيَرْتَفِعُ عن هذا ، لأنّه يَعلم حقيقة الشّىء على ما هُوعليه ، ولا يَقبل من الحِسِّ حُكْمًا ، ولا يَحْتَكِمُ إليه أبداً .

وإنّما الحسُّ عامِلٌ من عُمّالِ العَقْل . والعامِلُ يَجُورُ مَرّةً ويَعْدِلُ مَرّة ، فأمّا الذى هذا هُوَ عامِلُه فهو الذى يتعقّبُه ، فإنْ وَجَدَه جائرًا أبْطَلَ قضاءه ، وإنْ وَجَدَه عادِلاً أمْضَى حُكْمَه ، ومتى أُستُشير الحسُّ فى قضايا العقل فقد وُضِعَ الشىء فى غَيْر مَوْضِعِه ، ومتى أُستُشيرَ العَقْلُ فى أحكامِ الحسِّ فقد وُضِعَ الشىء فى مَوْضِعِه .

(١٥) قيل : فما الصُّورة ؟ قال : الّتى بها[٣] يَخْرُجُ الجَوْهَرُ إلى الظّهُورِ عِند أعتِقاب الصُّوَرِ إيّاه .

---

(١) فى (ب) : «أما» مكان « ولكن » ، وهو خطأ من الناسخ لا يستقيم به الكلام إذ لا جواب لأمّا بعد ذلك .

(٢) فى (ب) : الأبان ... أبا واحداً ، وفى (ا) : الاناءان ... « أناء واحدا » ، وهو تحريف فى كلتا النسختين .

(٣) فى (ب) : « لما » ، وهو تحريف .

قال أبو سليمان : هذه الفُتْيا جُزافيّة ، الصُّوَر أصناف : إلهيّةٌ وعَقليّة ، وفَلكيّةٌ وطَبيعيّةٌ ، وأسْطُقُسّيّة وصناعيّة ، ونَفسيّةٌ ولَفظيّة ، وَبَسيطَةٌ وَمُرَكّبةٌ ، وَمَمْزُوجَةٌ وَصافيةٌ ، وَيَقَظيّةٌ وَنَوْميّةٌ ، وَغائبيّةٌ وَشاهِديّة .

(١٦) ثم اندفع فقال : أما الصُورَةَ الإلٰهيّةُ — وهى أعلاها فى الرُّتبَة وَالحَقيقة . وهى أبْعَدُ مِنّا فى التّحصيل إلاّ بمَعُونَةِ الله تعالى — فلا طَرِيقَ إلى وَصْفِها وَتَحْديدِها إلاّ على التّقْريب ، وَذلك أنّ البَساطَةَ تَغلِبُ عليها ، إلا أنّها مع ذلك تُرْسَمُ بأنْ يُقالَ : هى التى تَجَلّت بالوَحْدَة ، وَتَبَتَتْ بالدَّوام ، وَدَامَتْ بالوُجود .

(١٧) وَأما الصُّورَةُ العقليّة فهى شَقيقَةُ تلك ، إلا أنها دونها لا[١] بالانحطاط الحِسّىّ ، وَلكن بالمَرْتبَةِ اللفظيّة ، وَليس بَيْنَ الصُّورتَين فَصْلٌ إلاّ مِنْ ناحيَة النّعْت ، وَإلاّ فالوَحْدَةُ شائِعَةٌ وَغالِبَةٌ وَشامِلة ، لكن الصُّورَة الإلٰهيّة تُلحَظُ لَحْظًا ، ولا يُلفَظُ بِوَصْفِها لفظًا ، لمُشاكَهتِها الصُّورَةَ النّفسيّة ، فإذا كان كذلك أمْكَنَ أنْ تُرْسَمَ فيقال : هى الّتى تَهْدِى إلى العاقِلِ ثَلَجًا فى الحُكم ، وثِقةً بالقَضاء ، وطُمَأنِينة العاقِبة ، وجزمًا بالأمر ، ودُحُوضًا للباطل ، وبَهْجَةَ الحَقّ ونُورًا الصِّدق .

والفَرْقُ بين الصُّورة الإلٰهيّةِ والصُّورَةِ العَقْليّة أنَّ الصورةَ الإلٰهيّة تَرِدُ عليك وتأخذ مِنك ، والصورةَ العَقْليّة تَصِلُ إليك فتُعْطيك ، فالأُولَى بقَهْرٍ وقُدْرَة ، والثانيَةُ برِفْقٍ ولَطافة ؛ وتلك تَحْجُبُك عن لِمَ وكَيْفَ ، وهٰذه تَفْتَحُ عليكَ لِمَ وكَيْفَ ، وتلك لا تُنْحَى ولا تُطْلَب ، وهٰذه يُسْعَى إليها ، ويُسْأَلُ عنها وتوجَد ، وأنوارُ الصُّورَةِ الإلٰهيّة بُرُوقٌ تَمُرّ ، وأنوارُ الصُّورَةِ العَقْليّة شُمُوسٌ تَسْتَنير ؛ وتلك إذا حَصَلَتْ لك بالخُصُوصيّة لا نَصِيبَ لأَحَدٍ منها ، وهٰذه إذا حَصَلَتْ لك فأنْتَ

(١) فى كلتا النسختين : « دونها بالانحطاط » بسقوط « لا » النافية ، والسياق يقتضى إثباتها.

وغيرُك شَرَعٌ فيها ؛ وتلك للصَّوْنِ والحفظ ، وهذه للبَذْل والإفاضة

(١٨) وأمّا الصُّورَةُ الفَلَكيّة فداخلةٌ تحتَ الرَّسْمِ بالعَرَض ، وللوَهْمِ فيها أثرٌ كثير ، ولأنّها مأخوذةٌ من الجسمِ الأعْظَمِ صارت مشاكَهَتُها مقسُومَةً بين البَسيطِ الّذى لا تَرْكِيبَ فيه ألبتّة ، و بين المركّب الّذى لا يَخلو من التّرْكِيب ألبتّة ؛ ولهذا صارَ تأثيرُ الفَلَكِ فى المتحرِّكات عنه أشَدَّ مِنْ تأثُّر الفَلَك عن المُحَرِّكُ له ، وكأنّه أوّلُ [مُحَرِّكٍ] مُتَحَرِّك ؛ وليس هكذا[1] ماعَلَا عنه .

والفَلَكُ بما هو جِسْمٌ مَنْقُوصُ الصُّورَة ، و بما هُو دائمُ الحَرَكة شريفُ الجَوْهَر .

(١٩) وأمّا الصُّورة الطبيعيّة فتَعَلُّقها بالمادّة القابلةِ لآثارِها بحسب استِعدادِها لها ، فلذلك ما هى مُزَحْزَحَة عن الدَّرَجة العُلْيا ، وعِشْقُها للقابِلِ منها أشدُّ من عِشقِها للمُفيضِ عليها ، ولهذا أيضاً كانَت مَنافِعُها ممزوجة ، ومَضَارُّها بَحْتَة[2] ، وهى تَجْمَع بين الحِكْمَة والبَلَه ، و بين الجيّد والرّدىء ، ولو سألْتَها لِمَ أنتِ ضارّةٌ نافِعَة ؟ لقالت : بَعُدْتُ ، فلما بَعُدْتُ صَوَّبْتُ وصَعَّدْتُ .

وَسمِعتُ أبا النَّفيس يقول فى وَصْفِ الطَّبيعة كلامًا له رَوْنَقٌ فى النَّفسِ[3] وأنا أصِلُ هذه الجُمْلَةَ به .

قال : أيّتُها الطبيعة ، ما الّذى أقولُ لكِ ، و بأىِّ شىء أؤاخِذُك ، وكيف أوَجِّه العَتْب عَلَيْكِ ؟ ! فإنّكِ قد جَمَعْتِ أمُورًا مُنْكَرَة ، وأحْوالاً عَسِرَة ،

---

(١) كذا فى (ب) والذى فى (١) « وليس هذا فاعلا عنه » . ولا يخفى ما فى هذه العبارة من التحريف .

(٢) فى كلتا النسختين : « نجية » ، وهو تصحيف ، وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

(٣) فى (ب) « فى السمع » .

لا يَفِي نِظَامُكِ فيها بانْتِثَارِكِ عليها، ولكِ بوادِرُ ضارَّة، وَغَوَائِلُ خَفِيَّةٌ تَبْدُو مِنْكِ، وَتَغُورُ فيكِ، وتَرْجِع إليك، حتى إذا قُلْنَا في بَعْضِهَا: إنَّكِ حَكِيمة، قلنا في بَعْضها: إنَّكِ سَفِيهة، فالبَلَه مِنْكِ مَخْلوطٌ باليَقَظَة، والاستِقَامَةُ فيكِ عائدةٌ بالأعْوِجَاج، وفيكِ فَظَائِعُ ونَزَائع، وقَوَارِعُ وبَدَائع، لأنَّ حَرَكَاتِكِ تَسْتَنُّ مَرَّةً أسْنِنَانا تُعْشَقِين عليه، وتُحَبِّينَ من أجْلِه، وتَزِيغُ أُخْرَى زَيْغاً تُمْقَتِينَ عليه، وتُبْغَضِين بِسَبَبه، وربَّما كانَت حَرَكَتُكِ نَقْضاً لِلبناء المحكَم والصُّورة الرَّائعة، والنظام البَهِيّ، وربما كانَت بناء للمُنْتَقِض، وتَجْدِيداً للبَالى وإصْلاحاً للفاسد، حتى كأنَّكِ عابِثَةٌ بلا قَصْد، عائثَةٌ على عَمْد، وعلى جميع صفاتِكِ من الواصفين لكِ لم يَعْلم[1] مَن ظَنّ، ولا رأى مَنْ تَخَيَّل، ولا بَعُدَ لَفظٌ مِن تأويل، ولا حالَ مَعْنًى عن تَوَهُّم، ولا أسْفَرَ حقٌّ عن باطِل، ولا تَمَيَّزَ بَيَانٌ عن تَمْوِيه، ولا وضَحَ نُصْحٌ من غِشّ، ولا سَلِمَ ظَاهِرٌ من تَنَاقُض، ولا خَلَتْ دَعْوَى من مُعارِض، فلهذا وأشْبَاهِهِ واجَهْتُكِ بخِطَابِي، وعرَضْتُ عَلَيْكِ ما في نَفْسي، فبالَّذي أنتِ به قائِمة، وبالَّذي أنتِ به مَوْجُودَة، وبالذي أنتِ له مُنْقَلِبة، وإليه مُنْسَاقة، إلّا خَبَّرْتِنِي عَنْكِ، وشَفَيْتِ غَلِيلِي منكِ، ونَمَتِّ لِي غَيْبَ شَأنِكِ، وجَعَلْتِ الخَبَر عنكِ كِعِيَانِكِ، وإنما ضَرَعْتُ إليكِ هذا الضَّرَع، وعرَضْتُ عَلَيْكِ هذا الوَجَع، لأنَّكِ جارَتِى وصَاحِبَتِي، وليس بَيْني وبَيْنَكِ حِجاب إلاّ ما هو عَدُوٌّ منكِ أو مِنّي، أعْني بما هو مِنْكِ لُطْفَ سِحْرِكِ، وخَفَاء سِرِّكِ، وأعْني بما هُو مِنِّي ما أعْجَزُ عن اسْتِبانَتِه واستيضاحِه إلّا بقوّة الإله الذي هو سَبَبٌ لِحَرَكَتِكِ في أفانِينِ تَصَرُّفِكِ، وأعاجِيب عَدْلِكِ وتَحَيُّفِكِ.

(١) عبارة (ا) «لم نر أعلم من ظن»، وهو تحريف.

وكان إذا بلغ هذا الحدّ وما شاكله أخذ فى كلام كالجواب على طريق التأنيس والتسلية والاستراحة ، وهذا بالواجب ، لأن الإنسان بسبب أغراضه المجهولة ، وعوارضه الفاجئة الباغتة من الغيب والشهادة يفتقر افتقارا شديدا إلى هذه النعوت التى تقدّم ذكرها ؛ وهذا كالداء والدواء ! وليس لأحد أن يتهكّم فيقول : هلا ارتفع الداء أصلا فيستغنى عن الدواء جملة ، وهلا وقع الدواء أبداً على الداء ونفاه وصرفه . فإن هذا كلام مدخول ، من عقل كليل ، ولعمرى إنّ من جهل القسمة الإلهيّة فى الأزل[1] بحسب شهادة العقل لعب به الوسواس فى هذه المواضع ، وظنّ أنّ الأمر لو كان بخلاف ما هو عليه كان أولى وأتمّ وأوثق وأحكم . يا ويحه ! من أين يوجب هذا الحكم ؟ وبأىّ شىء يثبت هذا القضاء ؟ وكيف يثق بهذا الوهم ؟

وكان يقول أيضاً إنّ الطبيعة تقول : أنا قوّة من قوى البارئ ، موكّلة بهذه الأجسام المسخّرة حتّى أتصرّف فيها بغاية ما عندى من النقش والتصوير والإصلاح والإفساد اللذين لولاهما لم يكن لى أثر فى شىء ، ولا لشىء أثر منّى ، وكان وجودى وعدمى سواء ، وحضورى وغيابى واحدا ، ولو بطلت بطل ببطلانى ما أنا به ؛ وهذا زائف من القول ، وخطل من الرأى ، وتحكّم من الظانّ ؛ ولو احتمل إيراد كلّ ما كان يتنفّس به هذا الشيخ فى حال نشاطه وانقباضه ، لكان ذلك مرادا فسيحا ، ومشرعا واسعا ، ولكنّ ذلك متعذّر لعجزى عن الوفاء به ، ولأنّ هذه الرسالة تتقلّص عنه ، وإنما أجول فى هذه الأكناف لكلفى بالحكمة كيف دارت العبارة بها ، وأمكنت الإشارة إليها ، لا على التقصّى لها وبلوغ الغاية منها ، ومن يقدر على ذلك ؟ ومن يحدّث

(١) فى (ا) « الأول » وفى (ب) « الأولى » ، وهو تحريف .

نفسَه بذلك ؟ العالَمَ أبعدُ غَوْرا وأعلَى قُلّةً وأثقَلُ وَزْنا وأحدُّ غَرْبًا وألطفُ أعرَاضًا وأكثفُ أجرَامًا وأعجبُ تَركِيبًا وأغرَبُ بَساطةً من أن يأتىَ عليه إنسانٌ واحد ، وكلُّ منْ[1] كان فى مَسْكِهِ ، وَإنْ بَلغ الغايةَ فى دِقّة الذِّهْن وَحُسْن البَيان وَبلاغة اللَّفظ ، وَاستِنبَاط الغَامِض فى حاضِرِهِ[2] وَغائبه ؛ هذا ما لا يَتوَهَّمُهُ العقل[3] .

وَأنا أعُوذ بالله من هذه الدَّعْوى ، وَأسْألُهُ أنْ يُلهِمَنى الشُّكْرَ عَلَى ما فتَحَ وَشَرَح ، وَهَدَى إليه وَمَنَحَ ، وأطْلَعَ عليه وَنَدَح[4] ، فإنّ الشُّكْرَ قَرْعٌ لباب المَزِيد ، وَالمَزِيدَ باعثٌ على الشُّكْر الجَدِيد ، وَالشُّكْرُ — وَإنْ خَلَصَ بالعِرْفان ، وَجَرَى بضُرُوب البَيان عَلَى اللِّسَان — فإنّه يَقصُرُ عن تَواتُرِ النِّعْمَةِ بعد النِّعْمَة ، وتظَاهُر الفائِدَةِ بعدَ الفائدة .

(٢٠) وَأما الصُّورَةُ الأُسْطُقُسّيّة ، فهى لائحةٌ لكلّ ذى حِسٍّ[5] بالتّناظُر الموجود فيها ، وَالتّبايُنِ الآخذ بنَصِيبهِ منها ، وَلما انقسامٌ إلى آحادِها ، أعْنى أنّ صورةَ الماء مُبَايِنةٌ لصُورَةِ الهواء ، وكذلك صورةُ الأرْض مُخَالِفةٌ لصُورَةِ النّار ، فتَحْدِيدُها بما يُقرِّرُها مع غَوْصِها فى كلّ أسْطُقُسٍ شديد ، واللّفظُ لا يَصْفُو ، والمُرَاد لا يَنْمَاز .

---

(١) فى (ب) «ما» مكان «من» وفى (ا) «مسئلة» مكان «مسكه» ؛ وهو تحريف فى كلا اللفظين . والمسك : الجلد . ويريد به هنا الشكل ، أى كل من أشبهه وشاكله . أو يريد به من كان محبوسا فى جسمه مقيدا بعادته .

(٢) فى كلتا النسختين : « فى آخره » مكان قوله : « فى حاضره » ؛ وهو تحريف . وفى (ا) و «غايته» مكان «وغائبه» الوارد فى (ب) وهو ما اخترناه ليتقابل الوصفان .

(٣) فى كلتا النسختين « إلا عقل » وفى قوله « إلاّ » تحريف ظاهر .

(٤) ندح الشىء : وسّعه ، وفى كلتا النسختين : و «قدح» بالقاف ، وهو تحريف .

(٥) فى كلتا النسختين : « حسن » ، وهو تحريف .

(٢١) وَأمّا الصُّورَةُ الصِّناعيّة فهى أبْيَنُ من ذلك ، لأنّها مع غَوْصِها فى مادّتها بارزةٌ البَصَر وَالسَّمْع وَلجميع الإحساس ، كصورة السَّرِير وَالكُرْسىّ وَالبابِ وَالخاتَم وَما أشبَه ذلك .

(٢٢) وَأمّا الصُّورَة النَّفْسِيَّة فهى رَاجعةٌ إلى العِلْم وَالمَعْرِفَة وَتوَابِعهما فيما يُحَقِّقهُما أو يُخْدِمُهُما[1] وَهى شقيقةٌ للصُّورَة العقليّة بالحقّ .

(٢٣) وَأمّا الصُّورَةُ البَسِيطةُ فلاُخْتِلَاف مرَاتب البَسِيط ما يَعِزُّ رسمُها إلا بالإيماء إليها ، فإنْ لحقَ هٰذا الإيماءَ سامِعُه فذاك ، وَإلّا فلا طَمَع فى عبارَةٍ شافيةٍ عنها .

(٢٤) وَأما الصُّورَة المركَّبة فهى بادِيةٌ للحِسِّ بآثارِ الطَّبِيعةِ فى مادَّتِها ، وَبادِيةٌ أيضاً للنَّفْس بآثارِ العَقل فى سَيْحِهِ عليها ، وكما أنّ بين البَسِيط والبسيطِ فَرْقاً يَكادُ البَسيطُ يكونُ به مُرَكَّباً ، كذلك بين المركَّب وَالمركَّب فَرْقٌ يَكادُ المركَّبُ يَكونُ به بَسِيطاً ؛ وهذه جُمْلةٌ تفسيرُها مُعْوِز .

(٢٥) وَأما الصُّورَةُ المَمْزُوجةُ فهىأختُ الصُّورةِ المركّبة ، وكذلك الصُّورَةُ الصافِيَة أختُ الصُّورة البَسِيطة ، وليس هـذا تمايُزاً فى اللّفظ واللّفظ ، إذ كانتا مُتصاحِبتين[2] وَلم تكونا مُتعانِدَتين .

(٢٦) وَأمّا الصُّورَةُ اليَقَظيّة فهى مَجْموعَةٌ من الإحساس ، لجرَيانها[3] على وِجدانِ المَشاعر كلِّها ، وَما لها وبها .

(٢٧) وَأمّا الصُّورَةُ النَّوْميّة فهى أيضاً متميزةٌ عن أختها ، أعنى اليَقَظيّة ، لأنها إغْضاء عَيْنٍ وَفَتْحُ عَيْنٍ ، أعنى أنّ النائم قد حِيلَ بينه و بين مِثالَاتِ الإحساسِ

(١) فى (ا) « لو عد منهما » ، وهو تحريف .
(٢) فى كلتا النسختين : « إذا كانا متصاحبين » الخ وهو تحريف .
(٣) فى كلتا النسختين « وجريانها » بالواو ، وهو تحريف .

وعَوارِضِ الكَوْنِ والفَساد ، وفُتِحَ عليه بابٌ إلى وِجْدانِ شيء آخرَ يَجْرِى كَظِلٍّ الشَّخْص من الشَّخْص ، فإن كان ذلك مِن وادِى الطبيعة أومأ إلى آثار الأخلاط ، وإن كان من وادِى النَّفس أوْمأ إلى نَصْب التماثيل ، وإن كان من وادى العَقْلِ صَرَّح بحقائق الغَيْب فى عالَم الشَّهادة إمّا بالتَّقْرِيبِ وإمّا بالتَّهْذِيب أعنى إمّا بوقوعِه عَقِيبَ ذلك ، وإمّا بَعْدَ مُهْلَة .

(٢٨) وأمّا الصُّورَةُ الغائبيَّة والشاهِدِيّة فقد اتّصل الكلامُ فى شَرْحها بما تَقَدَّم من حَدِيث الصُّورة اليَقَظِيّة والنَّوْمِيّة ، والعِبارةُ عن الشاهِدِ مَقصورةٌ على وجدانِ المَشاعِر ، والعبارة عن الغائب مقصورةٌ على ما تَعَلَّقَ[(١)] على المَشاعر ، وفى الغائب شاهدٌ هو الملحوظُ[(٢)] من الغائب ، وفى الشاهِدِ غائبٌ هو المبحوثُ عنه فى الشّاهد ، فالشاهد غائبٌ بِوَجْه ، والغائب شاهدٌ بِوَجْه ، حتى إذا استَجْمَعا لك كنتَ بهما فى شِعارِهما . والإلٰهيون من الفلاسفة هم الذين جَمَعُوا بين هٰذَيْن النَّعْتَيْن ، وعَلَوْا هاتَيْنِ الذِّرْوَتين ، فتَوَحّدوا عِنْدَ ذلك بخَصائِصِهم ، وانْسَلَخُوا عن نَقائِصِهم ، فلو قلت : ما هؤلاء[(٣)] بَشَرٌ كنتَ صادقا .

ولقد أحْسَنَ الّذى قال فى وَصْفِ العِصابة حيث وَصَفَ فقال :

فِينا وفيكَ طبيعةٌ أرْضِيّةٌ ... تَهْوِى بنا أبَدًا لِشَرٍّ[(٤)] قَرار
لكنّها مَقْسورَةٌ مَأْسُورَةٌ ... مَغْلوبةُ السُّلْطانِ فى الأحْرارِ
فجُسُومُهمْ مِن أجْلِها تَهْوِى بهم ... ونُفُوسهمْ تَسْمُو سُمُوَّ النارِ

(١) فى (ب) الموجودة فيها هذه العبارة وحدها دون (ا) «تعلق من» ، وهو تحريف
(٢) فى (ب) الموجودة فيها هذه العبارة وحدها دون (ا) «المخلوط» ، وهو تحريف.
(٣) فى (ا) التى ورد فيها هذا الكلام وحدها دون (ب) «هؤلاء ما ببشر» ، وفيهه تقديم وتأخير وقعا من الناسخ كما لا يخفى .
(٤) فى (ا) التى ورد فيها هذا الشعر وحدها دون (ب) «لنشر» ، وهو تحريف .

لولا مُنازَعةُ الجسومِ نُفوسَهمْ نَفذَتْ بسَوْرَتِها مِن الأقطار
عَرَفُوا لِرُوحِ اللهِ فيه فَضْلَ ما قد آثَرُوا مِن صالحِ الآثار
فتنزَّهوا وتَكرَّموا وتَعظَّمُوا عن لُؤمِ طَبعِ الطِّين والأحجارِ
نَزَعوا إلى البَحرِ الذى منه أتَتْ أرواحُهمْ وسَمَوْا عن الأغوارِ

وهٰذا وَصفٌ بليغٌ بالإضافة إلى القَوْم[1].

فأمّا ما وَراء هٰذا فهُنالكَ خَبَرُ ثقةٍ[2] بما قرَّرَ وقال :

(٢٩) وأمّا الصُّورةُ اللّفظيّة فهى مَسْموعَةٌ بالآلة التى هى الأُذُن ، فإنْ كانت عَجْماء فلهاحُكْم ، وإن كانت ناطقةً فلها حُكْم ، وعلى الحالَين فهى بَيْن مَراتبَ ثلاث : إمّا أن يكون المُرادُ بها تَحسِينَ الإفهام ، وإمّا أن يكون المُرادُ بها تحقيقَ الإفهام ، وعلى الجميع فهى مَوْقُوفةٌ على خاصٍّ مالَها فى بُروزها من نَفْس القائل ، ووُصولِها إلى نَفْس السامع ؛ ولهذه الصُّورة بَعدَ هٰذا كلِّه مَرْتَبةٌ أخرى إذا مازَجَها اللّحْن والإيقاعُ بصِناعة المُوسِيقار ، فإنّها حينئذ تُعطِى أُموراً ظَريفة ، أعنى أنّها تَلذُّ الإحساس ، وتُلْهِبُ الأنفاس ، وتَستَدْعى الكاسَ والطاس ، وتُرَوِّحُ الطَّبع ، وتُنْعِم البال ، وتُذَكِّر بالعالَمِ[3] المَشُوقِ إليه ، المُتَلهَّفِ عليه .

هٰذا مُنْتَهى كلامه على ما عَلِقه الحِفْظ ، ولَقِنَه الذِّهن ؛ ولو كان مأخوذاً عنه بالإمْلاء لكان أقومَ وأحكم ، ولكنّ السَّرْدَ باللّسان ، لا يأتى على جميع الإمكان فى كلّ مكان ، فهذا هذا .

قال الوزير : هذا بابٌ فى غاية الإيفاء والاستيفاء ، ومن يتحكّك بالاعتراض

(١) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام دون (ب) «القول» مكان «القوم» ، وهو تحريف فيما يظهر لنا .

(٢) فى (ا) التى ورد فيها هذا الكلام وحدها دون (ب) «حرسه» ، مكان قوله : «خبر ثقة» وهو تحريف لا يفهم له معنى .

(٣) لعلّه يريد بالعالم : عالم الروح .

عليه فقد صَغَى[1] ، وأبْدَى صَفْحَتَه بالبُهْت ، ودَلّ مِنْ عَقلِهِ على الدّخَل[2] ، ومن أخلاقه على الخَلَل[3] ؛ لقد وَهبَ اللهُ لهذا الرجل مقامًا عاليًا ، ولا عجب فإنه مُعوّض بهذا عمّا فاته .

وقال : أنشدْنى فى الخمر شيئًا غريبًا ، فأنشَدْتُه : (٣٠)

ومُوَرَّدِ الوَجَنـــات يَخْـ ـطِرُ حينَ يَخطِرُ فى مُوَرَّدْ
يَسْقِيكَ مِن جَفْنِ اللُّجَيْـ ـنِ إذا سَقاكَ دُموعَ عَسْجَدْ
حتّى تَظُنّ الشمسَ تَنْـ ـزِلُ أو تَظُنّ الأرضَ تَصْعَد
فإذا سَـــقاكَ بعَيْنِه وبِفِيه ثُمّ سَقاكَ باليَـــدْ
حَيّـــاكَ بالياقوت تَحْـ ـتَ الدُّرِّ مِن فَوْقِ[4] الزَّبَرْجَدْ

قال : أحْسَنْتَ واللهِ ؛ هاتِ زِيادَةً : فقُلْتُ :

وعَذْراءَ[5] تَرْغُو حينَ يَضْرِبُها الفَحْلُ كذا البِكْرُ تَنْزُو حينَ يَفْتَضُّها البَعْلُ
تُديرُ عيونًا فى جُفــونٍ كأنّما حَماليقُها بِيضٌ وأحْـداقُها نُجْلُ
كأنّ حَبابَ الماءِ حَوْلَ إنائهـــا شذورٌ[6] ودُرٌّ ليس بَيْنَهُما فَصلُ

---

(١) صغى : مال .

(٢) فى (ا) التى ورد فيها هذا الكلام وحدها دون (ب) «الرجل» ؛ وهو تصحيف والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٣) فى (ا) التى ورد فيها هذا الكلام وحدها دون (ب) «الحال» ؛ وهو تصحيف ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

(٤) فى (ا) التى ورد فيها وحدها دون (ب) هذا الشعر ما نصه :

حياك بالياقوت فو * ق الدر من تحت الزبرجد

وهو تبديل من الناسخ صوابه ما أثبتنا . إذ الخمر المشبّهة بالياقوت إنما تكون تحت الحبب المشبّه بالدر ؛ وكلاهما فوق الكأس المشبّهة بالزبرجد .

(٥) يريد بالعذراء : البكر من الخمر . ويريد بالفحل : الماء الذى تمزج به .

(٦) فى (ا) التى ورد فيها هذا الشعر وحدها « أناسا شدود » وهو تحريف فى كلتا الكلمتين .

توَهَّمْتُها فى كأسِها فــكأنَّما تَوَهَّمْتُ شيئاً ليس يُدْرِكه العَقْلُ
إذا اشتَبكتْ رِجْلاى من سَوْرةِ الكَرَى دَرَجْتُ إليها مِثْلَ ما يَدْرُجُ الطِّفْلُ

وأنشَدْتُ لآخر :

وكم عائبٍ للخمرِ لو أنّ أمَّـــه تبُولُ مُداماً لم يَزَلْ يَسْتَبِيلُها

ولآخر :

خَليلىَّ لُومَانى[1] عَلَى الخَمْرِ أوْ دَعَا فلَنْ تَجِدا عِنْدى على اللَّوْمِ مَطْمَعا
وشَبّا[2] سَنَا نارٍ لعــلَّ نَدِيمَنا بنَجْرانَ أنْ يَلْقى سَناهَا فَيَتْبَعا
فما رَاعَنا إذْ أُوقِدَتْ فوقَ رَبْوةٍ مِن الأرْضِ إلّا رَاكِبانِ قد أوْضَعَا
فَهشّــا إلينا ثم قالَا : ألا أنعِما مَساءً فقُلْنَا : دامَ ذَاكَ لنَا مَعَا

وأنشَدْتُ لآخَر :

سَقَوْنى وقالُوا لا تُغَنِّ ولو سَقَوْا جبالَ شَمامٍ[3] ما سَقَوْنى لَغَنَّتِ

وأنشَدْتُ أيضاً :

الـكأسُ لا تَدْرِى ولا الخَمْرُ مِنْ أىِّ شىءٍ عُجِّلَ السُّــكْرُ
أسْكَرَنِى مِنْ قَبْلِ شُرْبِى لهـــا مَنْ دَأْبُهُ الإعْراضُ والهَجْرُ
قلتُ له والخمرُ فى كأسِـــه[4] كأنّهــــا فى كَفِّه بَدْرُ

(١) فى (ا) التى ورد فيها هذا الشعر وحدها « أومانى » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى (ا) « وسنا » بالسين والنون ؛ وهو تصحيف .
(٣) شمام : جبل لباهلة له رأسان يسمّيان ابنى شمام ؛ ويضرب بهما المثل فى الاجتماع وعدم الفرقة .
(٤) عبارة (ا) التى ورد فيها هذا الشعر وحدها « فى كفه * كأنها فى كأسه » ؛ وهو خطأ من الناسخ ؛ وسياق المعنى يقتضى ما أثبتنا . إذ المعروف تشبيه الكأس بالبدر ، لا تشبيه الخمر به .

أنتَ لَعمرِى الخمرُ ياسَيِّدِى ليس الّذى سَقَّيْتَنِى الخَمْرُ

آخَرَ :

تركت النبيذ لأهل النبيـــذ فخـــارَ لىَ اللهُ فى تركِه
وقد كنتُ قِدماً به مُعْجَبًا أرُوحُ وَأغــدُو إلى سَفْــكِهِ(١)

فقال : قد جرَى هذا أيضاً على التّام . اختمْ مجلسَنا بدُعاء الصُّوفيّة .

(٣١) فقلتُ : سَمِعْتُ ابنَ سَمعونَ يَدْعُو فى الجامع فى آخِر مجلِسِهِ ويقول : اللهمّ اجعلْ قوْلَنا مَوْصُولًا بالعَمَل ، وَعَمَلَنا مُحَقِّقًا للأمَل ، ولا تُضايقنا فيما نتحوّل به ، وَنَتقَلَّبُ لك فيه ، وَكَنِّفْ علينا بسِترك ، وَسَوِّغْنا برَّك ، وَألْهِمْنا شُكْرَكَ ، وَخَفِّفْ عَلَى أفْواهِنا ذِكْرَكَ ، وَأخصُصْنا بعد ذلك بما هُوَ ألْيَقُ بذلك ؛ اللهمَّ اسمَعْ وَاستَجِبْ وَقرِّبْ . وَانصرفتُ .

الليلة الثامنة والثلاثون

وَجَرَى ليلةً بحضْرَة الوزير — أعْلَى اللهُ كلمتَه ، وَأدامَ غِبطَتَه ، وَوَالَى نِعْمَتَه — أحقُّ مَنْ دُعِيَ له ، وَأشْرَفُ مَنْ بُوهِيَ به ، وَأكمَلُ من شُوهِدَ فى عَصْرِه — حديثُ ابنِ يوسفَ وَما هو عليه مِنْ غَثاثَتِه وَرَثاثته ، وَعِيارَته(٢) وَخَساستِه .

فقلتُ له : عندى حديثٌ ، ولا شَكَّ أنّ الوزيرَ مُطّلِعٌ عليه ، عارفٌ به .

(١) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الشعر « بتكه » بالباء والتاء مكان قوله « سفكه » ولم نجد له معنى يناسب السياق ؛ ولعل الصواب ما أثبتنا إذ المعروف تشبيه الخمر بالدم المسفوك ؛ وقد جاء هذا كثيرا فى الشعر .

(٢) فى (ا) التى ورد فيها هذا الكلام وحدها دون (ب) « وعبارته » بالباء الموحدة ؛ وهو تصحيف .

قال : ما ذاك ؟ قلت : حدّثنى أبو علىّ الحسَن بن علىّ القاضى التَّنُوخِىّ قال : كنت فى الصُّحْبَةِ إلى هَمَذَان سَنَةَ تِسْعٍ وستِّين ، وكُنّا جماعةً وفينا ابن حرنبار[1] أبو محمد ، وكان فى جَنْبِه أبنُ يُوسُف ، فاتّفق أنّ عَضُدَ الدّولة — برّدَ الله مَضْجَعه — قال لأبن شاهَوَيْه : سِرْ إلى ابن حرنبار[1] وقل له : يَنْبَغى أن تسير إلى البَصْرة وَإنّا نجعلُ لك فيها مَعُونة ، فقد طالَ مُقامُكَ عندَنا ، وَتَوَالَى تَبَرُّمُنا بك ، وَتَبَرُّمُكَ بنا ، وليس لك بحَضْرتنا ما تُحِبُّه وَتَقْتَرِحُه ، وَالسلامةُ لكَ فى بُعْدِكَ عنّا قبل أن يُفْضِيَ ذلك إلى تغيُّرنا . وكلامًا فى هذا النَّوع .

قال : وَنَفَذَ أبو بكر ومَعَه آخَرُ منَ المَجْلِس يَشْهَدُ التَّبْليغَ وَالأداء[2] ، وَيَسْمَعُ الجوابَ وَالأبتداء — على رَسْمٍ كان مَعْهوداً فى مِثْلِ هذا الباب — فلقِيَ أبن حرنبار[1] وَشافَهَهَ بالرِّسالَةِ على التَّمام ؛ فقال أبو محمد لما سَمِع : الأمْرُ للمَلِكِ ، وَلا خِلافَ عليه ؛ وَلَعَمْرِى إنّ الناسَ بِجُدُودِهِم يَنالون حُظُوظَهُمْ ، وبحُظوظِهم يَسْتَدِيمون جُدُودَهم ؛ ولو وُفِّقْتُ ما كانَ عجيبًا ، فقد نالَ مَن هُوَ أنقصُ مِنّى ، وَبَلَغَ المُنَى مَن أنا أشرف[3] منه ، ولكنّ المقاديرَ غالبة ، وليس للإنْسَان عنها مُرْتَحَل ؛ وقد قيل : من سَاوَرَ الدهرَ غُلِب ، ولكن أيُّها الشيخ لى حاجة : أحِبّ أنْ تُبَلِّغَ المَلِكَ كلمَةً عَنِّى . قال : هاتِها ؛ قال : تقول له : أنا صائرٌ إلى ما رَسَمْتَ ، وَمُمْتَثِلٌ ما أمَرْت ، بعد أنْ تَقْضِيَ لى وَطَرًا فى نَفْسِى ، قد تَقَطَّعَ عليه نَفَسِى ، وذاك أنْ تَتَقَدَّمَ فيُقامُ عبدُ العزيزِ بنُ يوسُفَ بين اثنين فيَصْفَعانِه مائتين ، ويقولان له : إذا لم تَبْذُلْ جاهَكَ لمتلهِّف ، ولا عِنْدَكَ فَرَجٌ لمكْرُوب ،

(١) كذا ورد هذا الاسم فى الأصول ولم نقف على تصحيحه ؛ ولعل الصواب فيه ابن « حذقيار » فإن هذا من أسمائهم .

(٢) فى (١) التى ورد فيها هذا الكلام وحدها « والآراء » ؛ وهو تحريف .

(٣) فى كلتا النسختين « أشف » ؛ وهو تحريف .

ولا بِرٌّ لضَعيف ، ولا عَطاء لسائل ، ولا جائزةٌ لشاعِر ، ولا مَرْعًى لمُنتَجِع ، ولا مَأوًى لضَيْف ، فلِمَ تُخاطَبُ بسَيِّدنا ، وتُقَبَّلُ لكَ اليدُ ، ويقامُ لك إذا طلَعْتَ ؟ ؟

قال ابن شاهوَيه : فقَبْلَ أن لقيتُ الملِكَ أفصَحَ[1] له الذى كان معى مُشْرِفًا علىّ . فلمّا دَخَلْتُ الدارَ عُرِّفَ ، فقال : علىّ به ، فحضرْتُه وابنُ يوسفَ قاعدٌ بين يدَيْه على رَسْمِه . فقال لى : هاتِ الجوَابَ عما نَفَذْتَ فيه ؛ فقلت : الجوابُ عِندَك ، فقال : ما أعْجَبَ هذا ! أنتَ حُمِّلْتَ الرسالةَ وأطالبُ غيرَك بالجواب ؟ قال : فتلَوَّيْتُ حَياء من ابنِ يوسُفَ ، فقال : هات يا هذا الحديثَ بفَصِّه ، فواللهِ لا أقْنَعُ إلّا به ، ما هذا التّوانِى والتكاسُل ، فكَرِهتُ اللَّجاج ، فسردْتُه على وَجْهِه ، ولم أغادِرْ منه حرْفًا ، وابن يوسف يتقدَّدُ فى إهابه[2] ، ويتغيّرُ[3] وَجْهُه عند كلِّ لفظةٍ تمرُّ به ، فأقبَلَ عليه الملِكُ وقال : كَيْفَ ترى يا أبا القاسم الكَيِّسَ ؟ فقال : يا مولانا ، إنما أنا أقضِى الحاجَةَ بك ، فإذا لمْ تقْضِها كيف أكون ؟ فإن الحوائج كلَّها إليك .

قال : صَدَقْتَ ، أنا لا أقضِى حاجةً لك ، لأنك لا تَقصِدُ بها وَجْهَ اللهِ ، ولا تَبْغِى بها مَكْرُمَة ، ولا تَحْفَظُ بها مُرُوءة ، وإنّما ترتَشِى عليها ، وتُصانِعُ بها ، وتَجْعَلُنى بابًا من أبْوابِ تجارتِك وأرباحِك ، ولو كنتُ أعْلَمُ أنّكَ تَقضى حاجةً لِله أو لمَكْرُمَةٍ أو لرَحمة ورِقّةٍ لكانَ ذلك سَهْلاً علىّ ، وخفيفًا عِنْدى ، لكنّكَ مَعْرُوفُ المَذهبِ فى الطَّمَع والحيلة ، وجَرِّ النارِ إلى قُرْصِك ، وشَرَهِكَ فى جَميع أحوالِك ؛ وليس الذَّنْبُ لك ، ولكنْ لمن رآكَ إنسانًا وأنتَ كلْبٌ .

(١) فى كلا الأصلين : « ما أفصح » . و « ما » زيادة من الناسخ .
(٢) فى (ب) « فى ثيابه » ؛ وهو تحريف .
(٣) فى (١) « يتميز » .

وصَدَقَ — صَدَّقَ اللهُ قَوْلَه — فإنه كان أخَسَّ خَلْق الله ، وأنتَنَ الناس ، وأقذَرَ الناس ، لا مَنْظَرَ ولا مَخْبَر .

وكانت أمُّهُ مُغَنِّيَةً مِنْ أهْلِ البَيْضاء ، وأبُوه مِنْ أسْقاطِ الناس ، ونَشَأَ مع أشكالِه ، وكان فى مَكْتَب[1] الرَّبَضِيِّ على أحْوالٍ فاحشة ، ووَرَّقَ زَماناً ، ثم إنَّ الزمانَ نَوَّهَ به ، ونَبَّهَ عليه ، ومِثْلُ هذا يكون ، والأيامُ ظُهورٌ و بُطونٌ ؛ وكما يَسْقُطُ الفاضِلُ إذا عانَدَه الجَدّ ، كذلك يَرْتفِعُ السّاقِطُ إذا ساعَدَه الجَدّ فهٰذا هٰذا ؛

فقال : ما كان هذا الحديثُ عندى ، وإنّه لَمِنَ الغَرِيب .

ثم قال : كيف خَبَرُك فِي الفِتنة التى عَرَضَتْ وانتَشَرَت ، وتَفاقَمَتْ وتَعاظَمَتْ ؟

فكان مِن الجواب : خَبَرُ مَن شَهِدَ أوّلَها ، وغَرِقَ فى وَسَطِها ، ونَجا فِي آخِرِها .

قال ؛ حَدِّثْنى فإنّ فى روايتِه وسَماعِه تَبْصِرَةً وتَعَجُّبًا ، وزِيادةً فى التّجربة . وقد قيل : تجارِبُ المتقدِّمين ، مَرَايا[2] المتأخِّرين ، كما يُبْصَرُ فيها ما كان ، يُتَبَصَّرُ بها فيما سيكون ، والشاعِرُ قد قال :

والدَّهْرُ آخِرُه شِبْهٌ بأوّلِهِ ناسٌ كناسٍ وأيّامٌ كأيّامِ

وليس مِن حادِثةٍ ماضيةٍ إلّا وهى تُعَرِّفُكَ الخطأَ والصَّوابَ منها لِتَكونَ على أُهْبَةٍ فى أَخْذِكَ وتَرْكِك ، وإقْدامِكَ ونُكولِك ، وقَبْضِكَ وبَسْطِك ، وهذا وإنْ كانَ لا يَقِى كلَّ الوِقاية ، فإنّه لا يُبْقِى فى التَّهْلُكَة كلَّ الإلْقاء .

(١) فى (ب) «مكبت» ؛ وهو تحريف . وفى (ا) «الرمضى» بالميم ؛ وهو تحريف أيضا .
(٢) فى (ا) «مرأى» ، وفى (ب) «مراى» ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين .

كان أوّلَ هذه الحادثة الفظيعة البَشِعَة الّتى حَيَّرت العقولَ وولَّهَت الألباب ، وسافَرَ عنها التوفيق ، وأستولَى عليها الخِذْلان ، وعُدِمَت فيه البَصائر ، شىءٌ كلا شىء ، وإذا أراد اللهُ [تَعالَى ذِكره] أن يُعَظِّمَ صغيراً فَعَل ، وإذا شاء أنْ يُصَغِّر عظيماً قَدَر ، لَهُ الخَلْقُ والأمْر ، ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه ، ولا رادَّ لقضائه ، ولا صارِفَ لقدَرِه ؛ وقُدْرَةُ الإنسان محدودة ، وأستطاعتُه مُتَناهِيَة ، وأختيارُه قَصِير ، وطَاقَتُه مَعْرُوفة ؛ وكلُّ ما جاوز هذا الحَدَّ وهذا[1] التّناهى فهو الذى يَجْرى على الإنسان شاء أوْ أبَى ، كَرِه أوْرَضِى ، وهاهُنا يُفْزَعُ إلى الله مِن نازِلِ المَكْرُوه ، وحادِثِ المَحْذُور .

وذَاكَ أنّ الرُّومَ تهايَجَتْ على المُسْلِمِين ، فسارَتْ إلى نَصِيبِينَ بِجَمْعٍ عَظِيمٍ زائدٍ على ماعُهِدَ على مَرِّ السِّنين ، وكانَ هذا فى آخِرِ سَنَةِ أثنتين وستِّين ، فخافَ[2] الناسُ بالموْصِل وما حوْلها ، وأخَذُوا فى الانْحدار على رُعْبٍ قُذِفَ فى قُلُوبِهِم ، ليكون سَبَبًا لما صارَ إليه [الأمر] ؛ وماجَ الناسُ بمَدينةِ السَّلام وأضطرَبُوا ، وتَقَسَّمَ هذا المَوْجُ والأضطرابُ بين الخاصّةِ والعامّة ؛ وصارَتِ العامّةُ طائفَتَين ، طائفةً تَرِقُ للدِّين وَلما دَهَم المُسْلِمِين ، وتَسْتَعْظِم ذَلِكَ فَرَقًا مما يُنْتَهى إليه ، بعد ما يُؤْتَى عليه ؛ وطائفةً وَجَدَتْ فُرْصَتَها فى العَيْثِ والفَساد ، والنَّهْبِ والغَارةِ بوَساطةِ التعصُّبِ للمَذْهَب .

وافتَرَقَت الخاصّةُ أيضاً فرقَتَين : فرقةً أحَبَّتْ أن تكُونَ لِلنّاسِ حَمِيَّةٌ[3] للإسْلام ، ونُهوضٌ إلى الغَزْو ، وانْبعاثٌ فى نُصْرَةِ المُسْلِمِين ، إذ قد أضْرَبَ

---

(١) فى (ب) : « وهو » ؛ وهو تحريف .

(٢) فى (ا) « لحلق » ؛ وهو تحريف .

(٣) فى (ب) « حيا » ؛ وهو تحريف .

السُّلطانُ عن هذا الحديث ، لأنهما كه فى القَصْفِ والعَزْف ، وإعْراضِه عن المصالح الدِّينيَّة ، والخيرات السِّياسيَّة ؛ وطائفةً اختارت السكونَ والإقبالَ على ما هُوَ أحْسَمُ لمادَّةِ الوُثوب والهَيْج ، وأقطَع لشَغَب الشاغب ، وأقمَعُ لخلاف المتَّهَم ؛ فإنّ الاختلافَ إذا عَرَضَ خَفِيَ مَوْضعُ الاتِّفاق ، وألْتبَسَ الأمرُ على الصِّغارِ والكِبار ؛ وبِمثْلِ هـذا فُتِحَت البلاد ، ومُلِكَت الحصون ، وأُزيلت النِّعَم ، وأريقَت الدِّماء ، وهُتِكَت المحارِمُ ، وأبيدَت الأمم ؛ ونَعُوذُ بالله منْ غضَب الله ومما قرَّب من [سُخْطِ] الله ؛ وإذا أرادَ اللهُ أمرًا كثَّرَ بَواعِثَه ، وفرَّق نَوابِثَه(١) .

ولمـا اشتَعَلَت النائرَة ، واشتَغَلَت الثّائِرة ، صاح الناس : النَّفيرَ النَّفير ، وإسْلَامَاه ، وامُحَمَّداه ، واصَوْمَاه ، واصَلَاتاه ، واحَجَّاه ، واغَزْوَاه ، وا أسْرَاه ، فى أيْدِى الرُّوم والطُّغاة . وكان عِزُّ الدَّولة قد خرَج فى ذلك الأوان إلى الكوفة للصَّيد ، ولأغراضٍ غيرِ ذلك ؛ فاجتمَع الناسُ عند الشيوخ والأماثِل والوُجوهِ والأشرافِ والعُلماء ، وكانت النِّيَّةُ(٢) بَعْدُ حَسَنَة ، والناس فى ظِلِّ السلطان مَبيتٌ ومَقِيل ، يَستعذِبون وِرْدَه ، ويَستَسْهِلُون صَدَرَه ، وعَجُّوا وضَجُّوا ، وقالوا : اللهَ الله ، انظروا فى أمرِ الضُّعَفاء وأحوالِ الفقراء ؛ واغضَبُوا لله ولدينه ؛ فإن هذا الأمر إذا تفاقَمَ تَعدَّى ضُعفَاءنا إلى أقويائنا ، وبطَلَ رَأيُ كُبَرائنا فى تَدْبير صُغَرائنا ؛ والتَّدَارُك واجب ، وهو الإسلام ، إن لم تَذُبَّ عنه غلَبَ الكفر ، وهُوَ الأمْنُ والسكون إن لم يُحْفَظا ، فهو الخوف والبَلاء وذَهابُ الحرْثِ والنَّسل ،

(١) فى كلتا النسختين : « نوائبه » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق . ونوابث الأمر : مثيرات دفينة ومظهرات خفية .

(٢) فى (١) « الثقة » وفى (ب) « البقية » وفى (١) « تعد » مكان قوله « بعد » ؛ وهو تحريف .

وَفَضِيحَةُ الوَلَدِ وَالأَهْلِ . فسَكَّنَ المشايخُ منهم ، وطَيَّبُوا أنفسهم ، وَقَوَّوْا مُنَّتَهُمْ وَوَعَدُوهم أن يَرْتَئُوا(١) فيه مُتَّفِقِين ، وَيجتمِعُوا عليه مجتهدين ، وَيَسْتَخِيرُوا اللهَ ضارعين ؛ وَانصرَفَ الناسُ عَنهم ، وَاُجتَمَعَ القوم : أبو تمَّام الزينبيّ ، ومحمدُ ابنُ صالح بنِ شَيْبان ، وابنُ مَعْروف القاضى ، وأبنُ غسَّان القاضى ، وأبن مُكرَم — وكان مِنْ كِبارِ الشُّهودِ فى سُوق(٢) يحْيَى — وأبنُ أيُّوبَ القَطَّان العَدْل وأبو بكر الرازيُّ الفَقيه ، وعلىُّ بنُ عِيسَى والعَوَّامىّ صاحب الزبيرىّ(٣) ، وابنُ رُبَاطٍ شَيْخُ الكَرْخ ، ونائب الشِّيعة(٤) ولسان الجماعة ، وابن آدم التاجر(٥) ، والشَّالُوسىُّ أبو محمد ، وغيرُهم ممن يَطول ذِكْرُهم ؛ وتَشَاوَرُوا وَتفاوَضُوا ، وقَلَّبُوا الأمْرَ ، وَشَعَّبُوا القول ؛ وَصَوَّبوا وصَعَّدوا ، وقَرَّبوا و بَعَّدُوا(٦) وَالتِأَمَ لهمْ مِنْ ذلك أنْ تخرُجَ طائفةٌ وَراءَ الأمير بَخْتِيار إلى الكُوفةَ وَتَلْقَاه وتُعَرِّفَه(٧) ما قد شَمِلَ مدينةَ السلام من الأهتمام ؛ وأنَّ الخوْفَ قد غَلَبَهم ، وَأنَّ الذُّعْرَ قد مَلَكَهُمْ ؛ وأنهم يقولون : لو كان لنا خَليفةٌ أو أميرٌ أو ناظرٌ سائسٌ لم يُفْضِ الأمرُ إلى هذه الشناعة ؛ وَأنَّ أميرَ المؤمنين المطيعَ لِلّه إنما وَلَّاه ما وَرَاءَ بابه ليتيقَّظَ فى ليله ، متفَكِّراً فى مَصالح الرَّعايا ، وَيُنَفِّذَ فى نَهارِه آمراً وَناهياً ما يَعُودُ بمَرَاشِدِ الدِّين ، ومنافِعِ الدَّانِينَ وَالقاصِين(٨) وَإلّا فلا طاعة ؛

(١) فى كلتا النسختين : « يرثوا » بالثاء وسقوط الهمز ؛ وهو تحريف .

(٢) سوق يحيى كانت فى الجانب الشرقى من بغداد ، كانت بين الرصافة ودار المملكة ؛ وهى منسوبة إلى يحيى بن خالد البرمكى ؛ وهى محلة ابن حجاج الشاعر المعروف .

(٣) فى (ب) « الزهرى » مكان « الزبيرى » .

(٤) فى (١) «ونابالسبعة» وفى (ب) «بابالشيمة» . وهو تحريف فى كلتا النسختين .

(٥) فى (ب) « الشاعر » .

(٦) فى (١) « وقعدوا » ؛ وهو تحريف .

(٧) فى (ب) « وتعلمه » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٨) كذا فى (ب) . والذى فى (١) «الواردين والقاصدين» ؛ وما أثبتناه أولى بالسياق .

وكلامًا على هذا الطابَع ، وفى هذا النَّسْج ؛ فاتَّفق جماعةٌ على صَريمة الرأى فى الحركة إلى السكوفة ، منهم أبو كَعْب الأنصارىّ ، وأبو الحسن مِدْرَهُ القَوْم ، وعلىُّ ابنُ عيسى ، والعَوَّامىّ ، وابنُ حسَّان القاضِى صاحبُ الوُقوف ، وأبو أحمد الجُرْجانىُّ القاضى البليغ ، وابن سَيَّارٍ القاضى أبو بكر ، وأبو بكر الرازىّ .

وأما جُمَل ، فإنه ذَكَر ما به من وَجَع النِّقْرِس ، واستَعْفَى .

وأما أبو سَعيد السِّيرافىُّ ، فإنه ذَكر ضَعْفًا وسِنًّا ، وقال : أنا[1] أُعِينُ فى هذه النائبة بإقامة رَجُلٍ جَلْدٍ مُزاحِ العِلَّة بالفرس والسِّلاحِ ، وقَعَدَ الجمُّ الغَفير ، وسارت الجماعةُ إلى السكوفة ، ولحقَتْ عِزَّ الدولةِ فى التَّصَيُّد ، وانتَظَرَتْهُ ؛ فلمَّا عادَ قامَتْ فى وَجْهه واستأذَنَتْ فى الوُصولِ إليه على خَلْوَة وسكونِ بال وقلَّةِ شُغْل ؛ فلم يَلْتَفِتْ إليهم ، ولا عاجَ عليهم — وكان وافرَ الحظِّ من سُوء الأدب ، قليلَ التَّحاشى من أهْل الفَضْل والحِكمة — ثم قيل له : إنّ القومَ وَرَدُوا فى مُهِمٍّ لا يجُوزُ التغافُلُ عنه ، والإمساكُ دُونَه ، فأذِن[2] لهم بين المَغْرِبِ والعَتَمة ، فجَلَسُوا بحضْرَتِه كما اتَّفَقَ من غير ترتيب ، فقال : تكلَّموا .

فقال أبو الوَفاء المُهَنْدِسُ لأبى بكر الرازىّ : تكلَّمْ أيُّها الشيخ ، فإنَّك رِضَا الجماعَة ، ومَقْنَعُ العِصابة .

فقال أبو بكر : الحمد لله الّذى لا مَوْهِبَةَ إلاّ منه ، ولا بَلْوَى إلاّ بقَضائه ، لا مَفْزَعَ إلاّ إليه ، ولا يُسْرَ إلاّ فيما يَسَّرَه ، ولا مَصلحةَ إلاّ فيما قَدَّرَه ؛ له الحُكْمُ وإليه المَصِير ، وصلّى الله على سيّدنا محمّد رسولِه المبعوث ، إلى الوارث والمَوْروث ؛ أما بعد ، فإنّ الله [تعالى] قد حَضَّ على الجهاد ، وأمَرَ بإعزاز الدِّين ،

(١) فى (ا) « لنا » ، وهو تحريف .
(٢) فى (ب) « فأمر » .

والذَّبُّ عن الحَرِيم والإسلام والمسلمين فى الدهر الصالح، والزمان المطمئنّ؛ فكيف إذا اضطرَبَ الحَبْلُ وانتكَثَتْ مَرِيرَتُه، وأبْرِزَ مَصُونُه، وعُرِّىَ حَرِيمُه بالاستباحة؛ ونِيلَ جانبُه بالضَّيم، وضُعْضِعَ مَنارُه بالرَّغم، وقُصِدَ رُكْنُه بالهَدْم، وأنت أيها[(١)] المولى من وراء سُدَّة أمير المؤمنين المطيع لله، والحاملُ لأعباء مُهِمَّاته، والناهِضُ بأثقال نوائبه وأحداثه؛ والمَفْزَعُ إليك، والمُعَوَّل عليك، فإنْ كانَ مِنْكَ جِدٌّ وتَشمِيرٌ فما أقْرَبَ الفَرَجَ ممَّا قد أظَلَّ وأزْعَج، وإنْ كانَ مِنْكَ تَوانٍ وتَقْصِيرٌ فما أصْعَبَه منْ خَطْب؟ وما أبْعَدَه منْ شَعْب!! وقد جئناكَ نُحَقِّقُ عندَكَ ما بَلَغَكَ من تَوَسُّط هذه الطاغية أطْرَافَ المَوْصِل وما والاها، وأنّ الناسَ قد جَلَوْا عن أوْطانهم، وفُتِنُوا فى أدْيانهم[(٢)] وضَعُفوا عن حقيقة إيمانهم؛ للرُّعْبِ الذى أذْهَلَهم، والخَوْفِ الَّذى وَهَلَهُمْ؛ وإنّما هم بَيْنَ أطْفالٍ صِغار، ونِساء ضِعاف، وشيوخٍ قد أخَذَ الزمانُ منهم، فهم أرْضٌ لكلِّ واطئٍ، ونَهْبٌ لكلّ يد؛ وشَباب لا يقفُون لعدوِّهم لقِلّة سلاحِهم، وسُوءِ تأتِّيهم[(٣)] فى القِراعِ والدِّفاع؛ ونحن نَسْئَلُكَ أن تتوَخَّى فى أُمَّة محمّدٍ صَلّى الله عليه وسلّمَ ما يُزْلِفُكَ عنده، ويكونُ لك فى ذلك ذُخْرٌ منْ شَفاعَته وبِخْتيارُ مُطْرِق.

ثم اندَفَع علىُّ بنُ عيسى فقال: أيّها الأمير، إنّ الصغيرَ يُتَدارَكُ قَبْل أن يَكْبُر، فكيفَ يجُوز ألاّ يُسْتَقْبَلَ بالجِدِّ والاجتهاد وهو قد عَسَا وكَبُر. والله إنْ[(٤)] بِنا إلّا أنْ يَظُنَّ أهْلُ الجَبَلِ وأذْرَبيجانَ وخُرَاسَانَ أنّه ليس لنا ذَابٌّ

---

(١) كذا فى (ب). وعبارة (ا) «وأنت أمير الأمير المولى ما وراء سيده»، ولا يخفى ما فيها من اضطراب.

(٢) فى (ا) «ديارهم»؛ وهو تحريف.

(٣) كذا فى (ب)؛ والذى فى (ا) بأسهم؛ وهو تحريف إذ أن سوء البأس فى هذا الوضع مما يحمد لا مما يعاب. (٤) «إن» فى هذا الموضع نافية بمعنى «ما».

عن حَريمِنا ، ولا ناصِرٌ لِدِينِنا ، ولا حافظٌ لبَيْضَتِنا ، ولا مُفَرِّجٌ لِكَرْبِنا ، ولا مَنْ يَهُمُّه شيءٌ مِنْ أُمورِنا ، فاللهَ اللهَ ، لا تجرَّنَّ علينا شَماتتَهُم بنا ، وخُذْ بأَيْدِينا بقُوَّتِكَ ، وحُسْنِ نِيَّتِك ، وجَمِيلِ طَوِيَّتِك ، وعِزِّكَ وسُلْطانِك ، وأوليائِكَ وأعْوانِك ، واكْتُبْ قبل هٰذا إلى عُدَّةِ الدَّوْلَةِ بما يَبْعَثُه على حِفْظِ أطْرافِه ، وحِراسَةِ أكْنافِه ، مع اسْتِطْلاعِ الرَّأْيِ مِنْ جِهَتِك ، ومُطالَعةِ أميرِ المؤمنين برأيكَ ومَشُورَتِكَ .

ثم رفع الأنصاريُّ رأسَه وقال : ليس في تَكْرِيرِ الكلام — أطال الله بقاء الأمير — فائدةٌ كبيرة ، ولئن كانَ الإيجازُ في هٰذا الباب لا يَكْفِي ، فالإطنابُ فيه أيضاً لا يُغْنِي ، والله لو نَهَضْتَ بنا ونحن أحْراضٌ[1] كما تَرَى لا نُقلِّب مِخْصَرَةً[2] بكَفٍّ ، ولا نَرْمِي دُحْرُوجةً[3] بيد ، ولا نَعرِفُ سِلاحًا إلا بالاسم ، لَنَهَضْنا وسِرْنا تحت رايَتِك ، وتَصرَّفنا بين أمرِكَ ونَهْيِك ، وفَدَّيْناك بأرْواحِنا ضَنًّا بك ، وبعثْنا عَلَى مِثل ذلك أحداثَنا وأوْلادَنا الذين رَبَّيْناهم بنِعْمتِك ، وخرَّجْناهم في أيامِك ، وادَّخرْناهم للنَّوازِلِ إذا قامت ، والحوادثِ إذا تَرامَت ، فإن كان في المال قِلَّةٌ فَخُذْ مِنْ مُوسِرِنا ومِمَّنْ له فَضْل في حالِه ، فإنه يُفرِج عنه طاعةً لك ، وطَمَعًا فيما عِند اللهِ من الثَّواب .

---

(١) في (ب) «أحراص» بالصاد ؛ وهو تصحيف . والأحراض : جمع حرض بالتحريك وهو الكال المعي والمشرف على الهلاك .

(٢) في (ا) «محصره» بالحاء المهملة ؛ وفي (ب) «محضرة» بالحاء المهملة والضاد المعجمة وهو تصحيف في كلتا النسختين . والمخصرة : ما يتوكأ عليه من عصا ونحوها .

(٣) في كلتا النسختين «بحبوحة» وهو تحريف إذ لم نجد له معنى يناسب السياق ، ولعل صوابه ما أثبتنا . والدحروجة : ما يدحرجه الجعل من البندق ، أو لعله حَدَجة بالتحريك يقال تراموا بالحدج وهو الحنظل الصغير .

وقال العَوّامِيّ[1] : واللهِ ما سُمِّيتَ لِلدَّوْلة عِزًّا ، إلا لأنَّ اللهَ — تعالى — قد ذَخَرَكَ للمُسْلِمين كَنزًا ، وجعل لهم على يَدَيْكَ و بتدبيرك راحةً وفَوْزًا ، ولم يُعَرِّضْك لهذه الفَادِحَةِ إلاّ ليَخُصَّكَ بانفِرَاجِها [عَلَى يَدِكَ] وَيُبْقِي لك بها ذِكْرًا يطبِّقُ الأرْض ويبْلُغَ أمَرَاء خُرَاسانَ ومِصْرَ والحِجَازِ واليَمَنِ فيُصيبَهُم الحَسَدُ على ماهَيَّأَ[2] اللهُ لك منها .

ونَظَرَ بَخْتِيَارُ إلى أبنِ حَسَّان القاضي — وكانَ مُنْبَسِطًا مَعَه لِقديم خِدْمَتِه — فقال : أيُّها القاضي ، أنتَ لا تقول شيئاً ؟ قال : أيُّها الأمير ، وما القَوْلُ وعِنْدَكَ هؤلاء العلماء ، والمَصَاقِعُ الألِبَّاء ؛ وإنّ سِرَاجِي لا يَزْدَهِرُ في شَمْسِهِمْ ، وإنّ سَحَابتي لا تبلّ على بِلالِهِم[3] : وقد قالوا فأنْعَمُوا[4] ، وَجَرَوْا[5] فأمْعَنوا ، وليس قُدَّامَهم إمام ، ولا وراءَهُمْ أمام ؛ لـكنِّي أقول : ما جَشَّمْنَا إليكَ هـذه الـكُلَفَ إلّا لِتنظُرَ على ضَعْفِ أرْكانِنا ، وعُلُوِّ أشْنَانِنا[6] وقِلّة أعْوانِنا[7] ، لأنّا[8] رَأَيْنَاكَ أهْلاً للنَّظَر في أمرِنا ، والاهْتمام بحالِنا ، وبما يعودُ نَفْعُه على صغيرِنا وكبيرِنا .

فقال عِزُّ الدولة : ما زُوِيَ عَنِّي ما طَرَقَ هذه البلاد ، ولقد أشْرَفْتُ عليه ، وفـكّرْتُ فيه ، وَما أحْبَبْتُ تَجَشُّمَ هذه الطائفةِ عَلَى هذا الوَجْه . وَما أعْجَبَنِي

(١) في كلتا النسختين : « العراق » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا أخذا مما سبق .
(٢) في (ب) « وهب » مكان قوله « هيأ » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .
(٣) البلال بكسر الباء وضمّها : الماء .
(٤) أنعموا : جوّدوا .
(٥) في (ا) « وحرروا » ؛ وهو تحريف .
(٦) في كلتا النسختين : « شأننا » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا ، كما أن في (ا) وحدها « وغلو » بالغين المعجمة مكان المهملة ؛ وهو تصحيف أيضاً .
(٧) في (ا) « إخواننا » ؛ وهو تحريف .
(٨) في كلتا النسختين : « لـكنا » ؛ وهو تحريف ، فإن الاستدراك هنا غير مفهوم .

هـذا التقريعُ مِنَ الصَّغيرِ والـكبير ، وما كانَ يَجُوز لى أن أَنعَسَ عَلَى هـذه الكارِثَة ، وأَنعَمَ بالعَيْشِ مَعها ، ولَعَمْرِى إنّ الغَفْلَةَ [علينـا] أَغْلَب ، والسَّهْوَ فينا أعمَل ، ولـكن فيما رَكِبْتموه[١] مِنّى تَهْجينٌ شديد ، وتوبيخٌ فاحش ، وإنّ هذا المجلس لِمَّا يُتَهادَى حَدِيثُه بالزّائِد والناقِص ، والحَسَنِ والقَبيح ، وإنّـكم لَتظنّون أنّـكم مَظلومُون بسلطانِي عليكم ، وولايَتِي لِأُمُورِكم ؛ كلاَّ ، ولـكن كما تـكونون يُوَلّى عليكم ؛ هكذا قولُ صاحب الشّريعَة فينَا وفيكُم ؛ واللهِ لوْ لم تَـكُونوا أشْباهى لَمَا وَلِيتُـكُمْ ، وَلَوْلَا[٢] أَنّى كَوَاحِدٍ منكم ، لَمَا جُعِلْتُ قَيِّماً عليكم ؛ ولو خَلَا كلُّ واحِدٍ مِنَّا بعَيْبِ نفسه لَعَلِمَ أنّهُ لايَسَعُه وَعْظُ غيْره ، وتَهْجِينُ سُلْطَانِه ؛ أَيَظُنُّ هٰذَا الشيخُ أبو بكر الرّازيُّ أنّى غيرُ عالِمٍ بِنِفَاقِه ، ولا عارفٍ بمـا يشتمل عليـه مِنْ خَيْرِه وَشَرِّه ؛ يَلْقَانى بوَجهٍ صُلْب ، ولسانٍ هَذّار يُرِى مِنْ نَفْسِه أنه الحَسَنُ البَصرِىّ يَعِظُ الحَجّاج بنَ يُوسُف ، أو وَاصلُ بنُ عَطاء يأمُرُ بالمَعْرُوف ، أو ابن السماك يُرْهِبُ الفُجّار ؛ هٰذا قَبيح ، ولو سكتُّ عن هٰذا لـكان عِيًّا وعَجْزًا ؛ جَزَى اللهُ أبا عَبْد الله شيخَنا خيْرًا حينَ جَلَس ، وكذٰلك أَحْسَنَ اللهُ عنّا مكافأَةَ أبى سَعِيدٍ السِّيرَافىّ ، فإنّه لَوْ عَلِمَ أنّ فى مُسَاعَدَتِـكُمْ رُشْدًا لَمَا تَوَقَّف ؛ وأمّا أنتَ يا أبا الحَسَن — يُرِيد علىّ بن عيسى — فوَحَقِّ أَبِى إنّى لَأُحِبُّ لِقَاءك ، وأُوثِرُ قُرْبَكَ ، ولولا ما يَبْلُغُنى مِنْ مُلَازَمَتِكَ لمجْلسك ، وتَدْرِيسِكَ لمُختلِفَتِك[٣] ، وإكْبَابِكَ عَلَى كِتَابِكَ فى القُرْآن ، لغَلَّبْتُك على زَمَانِك ، ولا أَسْتَـكْثَرْتُ مِمَّا قَلَّ حَظّى منه فى هـذِه الحـال التى أنا مَدْفُوعٌ

(١) فى (ا) « رأيتموه من » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى (ا) « ولو أنى » ؛ ولا يستقيم به المعنى .
(٣) المختلفة : الذين يتعلمون منه .

إليها ، فإنها وَازِعَةٌ على هَوَى النّفْس ، وطاعةِ الشيطان ، ومُنَازَعةِ الأكْفاء ، وجَمْعِ المالِ ، وَأَخْذِهِ منْ حَيْثُ يجبُ أولا يَجِبُ ، وتَفْرِقَتِه فيمن يَسْتَحِقُّ ومن لا يَسْتَحِقّ ، وإلى اللهِ أَفْزَعُ فى قَليلِ أَمْرِى وكثيرِه ، إذا شِئْتم .

قال لى أبو الوَفاء — وهو الّذِى شَرَح لى المجلسَ مِنْ أوّلِهِ إلى آخِره — : لقد شاهدتُ من عِزِّ الدولة فى ذلك المجلس المنصورَ[1] فى جِدِّه وشَهامَتِه ، وثباتِ قَلْبِه وقُوّةِ لِسانِه ، مع بَحَحٍ لَذِيذٍ ولُثْغَةٍ حُلْوَة .

قال : ولقدقُلتُ له بعدذلك : أيُّها الأمير ، ما ظننتُ أنك إذا خَلَعْتَ رِدَاءك ونَزَعْتَ حِذاءك تَقُول ذلك المقال ، وتَجُولُ ذلك المجال ، وتَنالُ ذلِكَ المنال ، لقد انصرَفَ ذٰلِك الرَّهْطُ عَلَى هَيْبَةٍ لَكَ شَدِيدة ، وتعظيمٍ بالغ ، ولَقَد تَدَاوَلوا لَفظَك ، وتَتَبّعُوا مَعَانيكَ ، وتَشَاحُّوا[2] عَلَى نَظْمِك ، وقالوا : ما يَنْبَغى لأحَدٍ أنْ يُسِيء ظنَّه بأحَدٍ إلّا بَعْدَ الخِبْرَةِ والعِيان ، وإلّا بَعْد الشَّهادَة والبَيَان ؛ أهٰذا يقال له مُتَخَلِّف أو ناقِص ؟ لِلّهِ دَرُّه من شَخْص ! ولله أبوه مِنْ فتًى مِدْرَه !

ولما بلَغَ هٰذا المجلسُ الّذين قَعَدُوا عن المَسِير إليه — أعْنِي عِزَّ الدولة — حَمِدُوا اللهَ تعالى ، وعَلِمُوا أنَّ الخِيرَةَ كانت قَرِينةَ اخْتِيَارهم .

قال الوَزِير : قرأتُ ما دَوّنه الصّابى أبو إسحاق فى (التّاجيّ) فما وَجَدْتُ هذا الحديث فيه . قلتُ : لعلّه لم يَقَع إليه ، أو لعلّه لم يَرَ التّطويلَ به ، أو لعلّهُ لم يَسْتَخِفَّ ذِكْرَ عِزِّ الدّولة على هذا الوجه . قال : هذا مُمْكِن ؛ فهل سمِعْتَ فى أيام الفِتْنَة بغَرِيبة ؟

(١) يريد بالمنصور أبا جعفر الخليفة العباسىّ المعروف .

(٢) تشاحّوا على نظمك ، أى أن كلا منهما ضن بما يحفظه منه على صاحبه ، وفى (ب) « وتسابحوا » ؛ وهو تحريف .

قلتُ : كلُّ ما كنّا فيه [كان] غريباً بديعاً ، عجيباً شنيعاً ، حَصَلَ لَنا مِنَ العيّارين قوّاد(١) ، وأشهرُهم(٢) ابن كبرويه ، وأبو الدُّود(٣) ، وأبو الذّباب ، وأسودُ الزُّبْد ، وأبو الأرضة(٤) ، وأبو النَّوائح ، وشُنَّت الغارة ، واتَّصل النَّهْب ، وتوالَى الحَريقُ حتى لم يَصِلْ إلينا الماء من دِجْلَة ، أعْنِي الكَرْخ .

فمِنْ غريبِ ما جرَى أنَّ أسْوَدَ الزُّبْدِ كان عَبْدًا يأوِى إلى قَنْطَرة(٥) الزُّبْدِ ويَلْتَقِطُ النَّوَى ويَسْتَطْعِمُ مَنْ حَضَرَ ذلِكَ المكان بِلَهْوٍ ولَعِب ، وهو عُرْيانُ لا يتوَارَى إلا بِخِرْقَة ، ولا يُؤْبَهُ له ، ولا يُبالَى به ، ومَضَى عَلَى هذا دَهرٌ ، فلما حَلَّتِ النَّفْرة(٦) أعْنِي لمّا وَقَعَت الفِتنة ، وفَشَا الهَرْجُ والمَرْج ، ورأى هذا الأسْوَدُ من هو أضْعَفُ منه قد أخَذَ السَّيْفَ وأعمَلَه ، طلَبَ سَيْفاً وشَحَذَه ، ونَهَبَ وأغارَ وسَلَبَ ، وظَهَرَ منه شيْطانٌ فى مَسْكِ إنسان ، وصَبُحَ وَجْهُه ، وَعَذُبَ لَفْظُه ، وحَسُنَ جِسْمُه ، وعُشِقَ وعَشِق ، والأيّامُ تأتى بالغرائب والعجائب ، وكان الحسنُ البَصْرِيّ يقول فى مَوَاعِظه : المعتبَر كثير ، والمعتبِر قليل . فلمّا دُعِيَ قائداً وأطاعَه

(١) فى (ا) « قول » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى (ب) « وأسماؤهم » .
(٣) فى كلتا النسختين : « وابن الرود » بالراء ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا ، إذ هو المناسب لأسماء هؤلاء الذين ذكرهم .
(٤) كذا فى (ا) والذى فى (ب) « أبو الأرى » .
(٥) فى كلتا النسختين : « الريد » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن كتاب بغداد للأستاذ لوسترانج Le Strange ؛ ولعلهم كانوا يبيعون الزبد عند هذه القنطرة فأضيفت إليه وهى قنطرة البطريق أيضاً . وفى ياقوت : قنطرة رحى البطريق ، وهى على نهر الصراة .
(٦) فى (ا) : « حلف الخنصرة » وفى (ب) « حلب البقرة » ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين .

رِجالٌ وأعطـام وفرّق[١] فيهم ، وطلبَ الرّآسةَ عليهم ، صـار جانبُه لا يُرَام ، وحِمَاه لا يُضَام .

فِمَّا ظَهَرَ من حُسْنِ[٢] خُلُقه — مع شَرَّهِ[٣] ولَعْنَتِهِ ، وسَفْكِه الدّم ، وَهَتْكِهِ الحُرْمة ، ورُكُوبه للفاحشة ، وتمرُّدِه عَلَى رَبِّهِ القادِرِ ، ومالِكِهِ القاهِرِ — أنّه اشْتَرَى جارِيةً كانت فى النّخّاسِين عِند المَوْصِلِيِّ بألف دينار ، وكانت حَسْناء جميلة ، فلمّا حَصَلتْ عندَهُ حاوَل منها حاجَتَه ، فامتنعَتْ عليه ، فقال لها : ما تَكْرَهِين مِنّى ؟ قالت : أكْرَهُكَ كما أنت . فقال لها : فما تُحِبِّين ؟ قالت : أن تبيعنى ، قال لها : أو خَيْرٌ مِنْ ذٰلك أعْتِقُك وأَهَبُ لكِ ألْفَ دينار ؟ قالت : نعم ، فأعْتَقَها وأعطاها ألْفَ دينار بحَضْرَةِ القاضى أبْنِ الدّقاق عند مسجد أبن رَغْبَان[٤] فعَجِبَ الناس من نفسِه وهِمّتِه وسماحَتِهِ ، ومن صبْرِه عَلَى كلامِها ، وتَرْكِ مُكافأتِها على كَرَاهتِها ، فلو قتلها ما كان أتَى ما ليْسَ مِنْ فِعْلِهِ فى مِثْلِها .

قال الوزير : هٰذا وَالله طَرِيف ، فما كان آخِرُ أمْرِه ؟ قلتُ : صارَ فى جانب أبى أحمَدَ المُوسَوِيِّ وحِمَاه ، ثم سيَّرَه إلى الشأم فهَلَكَ بها .

قال : وكيف سَلِمتَ فى هذه الحالات ؟ قلتُ : ومتى سَلِمتُ ؟ جاءتِ النَّهّابة إلى بَيْنَ السُّورَيْنِ[٥] وشَنُّوا الغارَة واكْتَسَحوا ما وَجَدُوا فى مَنْزِلى من ذَهَب وثياب وأثاث ، وما كنتُ ذَخَرْتُه من تُرَاث العُمْر ؛ وجرّدوا السَّكاكين

(١) فرق فيهم ، أى فرق الأعطية فيهم .
(٢) فى (١) « من خلق » ؛ وهو تحريف .
(٣) فى (١) « شرهه » ؛ والهاء الأولى زيادة من الناسخ .
(٤) مسجد ابن رغبان فى غربى بغداد . والذى فى (١) ابن رعبان بالعين المهملة ؛ وهو تصحيف .
(٥) إلى بين السورين ، أى إلى هذه المحلة المسماة بهذا الاسم فى بغداد .

على الجارية فى الدّار يطالبونها بالمال ، فأنشقت مرَارَتُها ، ودُفِنَتْ فى يومِها ، [وأمْسَيْتُ] وما أملِكُ مع الشيطان فَجْرَةً[(١)] ، ولا مع الغُراب نقْرَةً .

أيُّها الشيخ — وفّقكَ الله فى جميع أحوالك ، وكان لكَ فى كلّ مَقالك وفعالك — إنما نثرْتُ بالقلَمِ ما لاقَ به ؛ فأمّا الحديثُ الّذِى كانَ يجْرِى بيْنِى وبَيْنَ الوزيرِ فكان على قَدْرِ الحال والوقتِ [والواجب] ؛ والاتّساعُ يَتبَعُ القلَمَ ما لا يَتْبَعُ اللِّسان ، والرَّوِيّةُ[(٢)] تَتْبَع الخطَّ ما لا تَتْبَع العبارة ، ولما كان قَصْدِى فِيما أعْرِضُه عليك ، وأُلقِيه إليك ، أن يبقى الحديثُ بَعْدى وبَعْدَك ، لم أجِدْ بُدًّا من تنميقٍ يَزْدَانُ بِهِ الحَدِيث ، وإصْلَاحٍ يَحْسُنُ معه المَغْزَى ، وتكلُّفٍ يَبْلُغ بالمُراد الغاية ، فلْيَتِمّ العُذْرُ عِندَكَ على هذا الوَصف ، حتى يَزُول العَتْب ، ويُستَحَقّ الحَمْدُ والشُّكْر .

الليلة التاسعة والثلاثون

(١) وقال الوزير ليلة : يعجبنى الجوابُ الحاضر ، واللفظ النادِر ، والإشارة الحُلْوَة ، والحركة الرَّضِيّة ، والنَّغْمَةُ المُتَوَسِّطة ، لا نازلةً إلى قَعْرِ الحَلْق ، ولا طافِحَةً على الشفة .

فكان من الجواب : اقْتِرَاح الشىء على الكمال سَهْل ، ولكنّ وِجْدَانه

---

(١) فى (١) « نحوه » . وفى (ب) « نحرة » وهو تحريف فى كلتا النسختين صوابه ما أثبتنا ، أى لا أملك ما أفجر به فجرة واحدة مع الشيطان . ويشبّهون العجلة فى السجود بنقر الغراب ، فيريد بالعبارة الثانية أنه لا يملك سجدة مستعجلة مع الغراب تشبه نقرة من نقراته . ويريد بالعبارتين أنه لا يملك عملا خبيثاً ولا طيباً مهما قلّ . هذا ما يلوح لنا من معنى هاتين العبارتين .

(٢) فى الأصول : « والرق به يتسع الخط ما لا تسع الخ » وهو تحريف ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

على ذلك صَعْب ، لأنَّ التَّمَنِّي صَفْوُ النَّفْسِ الحِسِّيَّة ، ونَيْلَ المتمنَّى في الفُرْصَة[1] المحْشُوَّةِ بالحَيْلولة .

وقد قال المدائِنيُّ : أحسنُ الجواب ما كان حاضرًا مع إصابَةِ المَعْنى وإيجاز اللَّفظِ وبُلوغ الحجَّة .

وقال أبو سليمان شارحًا لهذا : أمَّا حُضور الجَوابِ فَلِيَكُونَ الظَّفَرُ عند الحاجة ، وأما إيجاز اللفظ فَلِيَكونَ صافيًا من الحشو ، وأمَّا بُلوغُ الحُجَّةِ فليَكُونَ حَسْمًا للمُعارَضة .

قال : ما أَحْسَنَ ما وَشَّحَ هٰذه الفقْرَة بهٰذِه الشَّذْرَة !

وحَكَى المدائنيّ قال : قال مَسْلَمَةُ بنُ عَبْدِ المَلِك : ما مِنْ شيء يؤتاهُ العَبْدُ بعد الإيمانِ باللهِ أَحَبُّ إليَّ من جَوابٍ حاضِر ، فإنَّ الجَوَابَ إذا تُعُقِّبَ لم يَكُن له وَقْع .

وحَكَى المدائنيُّ بإسنادِهِ عن عَبْد الرَّحمٰن بن حَوْشَب أنَّ رَسُولَ الله صلّى الله عليه وسلّم قال لعَمْرو بن الأَهْتَم التَّميميّ : أَخْبِرْني عن الزِّبْرِقان بن بَدْر ، فقال : مُطاعٌ في أَدْنَيه ، شديد العارِضَة ، مانِعٌ لِمَا وَرَاءَ ظَهْرِهِ . فقال الزِّبْرِقان : يا رَسول الله ، إنه لَيَعْلَمُ مِنِّي أَكثرَ مِنْ هذا ، ولكنَّهُ حَسَدَني ، فقال عمرو : أمَا واللهِ يا رَسُولَ اللهِ إنَّهُ لَزَمِرُ[2] المروءة ، ضَيِّقُ العَطَن ، لئيمُ الخال ، أَحْمَقُ الوالِدِ ، وما كَذَبْتُ في الأولى ، ولقد صَدَقْتُ في الأخرى ، ولقد رَضِيتُ فقلتُ أَحْسَنَ ما علمت ، وسَخِطْتُ فقلتُ أَسْوَأَ ما عَلِمْتُ . فقال رَسُولُ اللهِ صَلّى الله عليه وسلم : « إنَّ من البَيَان لَسِحْرًا وإنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكَمًا » .

(١) في (١) « في العرضة » ؛ وفي (ب) « في العرض » وهو تحريف فيهما .
(٢) في كلتا النسختين : « زمن » بالنون ؛ وهو تحريف ؛ وزمر المروءة : قليلها .

وقال أبو سليمان : السِّحْرُ بالقَوْلِ الأعَمِّ والرَّسمِ المُفيدِ على أرْبَعَةِ أضْرُب : سِحْرٌ عَقْلِيّ ، وهو ما بَدَرَ من الكلام المشتمِلِ على غريب المَعْنى في أيِّ فنّ كان ؛ وسِحْرٌ طَبيعيّ ، وهو ما يَظْهَرُ مِنْ آثارِ الطبيعةِ في العَناصِرا المُتَهَيِّئةِ(١) والموادِّ المُسْتَجيبَة(١) ، وسحرٌ صِناعيّ ، وهوما يوجَدُ(٢) بخِفَّةِ الحركات المباشِرَة ، وتصريفها في الوُجوهِ الخَفِيَّة عن الأبصار المُحَدِّقَة ، وسِحْرٌ إلهي وهو ما يَبْدُو من الأنفُسِ الكَريمة الطّاهِرَة باللَّفظِ مرّة ، وبالفِعْلِ مَرّة . وعَرْض كلّ واحدٍ من هذه الضُّرُوب واسِع ، وكلٌّ حِذْقٍ ومهارةٍ و بلوغِ قاصِيَةٍ في كلّ أمر هو سِحْرٌ ، وصاحبُه ساحِرٌ .

وقال المدائني : نظرَ ثابت بنُ عبد الله بنِ الزُّبَيْر إلى أهل الشام فشَتَمَهُم ، فقال له سعيدُ بنُ عُثمان بن عَفّان ، أتَشْتُمُهُمْ لأنَّهُمْ قَتَلُوا أباكَ ؟ فقال : صَدَقْتَ ، ولكنّ المُهاجِرينَ والأنْصارَ قَتَلُوا أباكَ .

وقال عبدُ المَلك بنُ مَرْوان لثابتِ بن عبد الله بن الزُّبَيْر : أبُوكَ كانَ أعلَمَ بك حين شتَمَكَ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أتدْري لِمَ كان يَشْتُمُني ؟ إني نَهَيْتُه أن يُقاتِلَ بأهْلِ مَكّةَ وأهْلِ المَدِينَة ، فإنّ اللهَ لا يَنْصُره بهما ، وقلتُ له ، أمّا أهلُ مكّة فأخرَجُوا رسُولَ اللهِ صلّى الله عليه وعلى آلهِ وسلّم وأخافُوه ، ثم جاؤا إلى المَدينةِ فأخْرَجَهُمْ مِنْهَا وشَرَّدَهُمْ .

فَعَرَّضَ بالحَكَمِ بنِ أبي العاص — وهو جَدُّ عبدِ المَلِك — وكان النبيُّ صَلّى اللهُ عليه وعلى آله وسلّم نَفَاهُ .

(١) ورد في (ب) هذان اللفظان « المتهيئة والمستجيبة » مهملة حروفهما من النقط تتعذر قراءتهما .

(٢) في (١) يؤخذ .

وأمّا أَهْلُ المدينـةِ فَخَذَلُوا عُثْمانَ حَتّى قُتِلَ بينهم ، لم يَرَوْا أنْ يَدْفَعُوا عنه . فقال له عبدُ المَلِكِ : لَحَاكَ اللهُ .

وقال عبْدُ الرَّحْمٰنِ بنُ خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ لِمُعَاوِيَةَ : أما واللهِ لو كنتَ بمكةَ لَعَلِمْتَ ، فقَال معاوية : كنتُ أكونُ ابنَ أبي سُفْيَان يَنْشَقُّ عنى الأَبْطَح ، وكنتَ أنتَ ابنَ خالدٍ مَنْزِلُكَ أَجْياد ، أعْلاهُ مَدَرَة ، وأَسْفَلُهُ عَذِرَة .

وقال المَدَائِنيّ : قال أبنُ الضحَّاكِ بن قيس الفِهْرِيّ[1] لهشام بنِ عبدالمَلِك قبل أنْ يَمْلِكَ — وهو يومئذ غلامٌ شابٌّ — يا بن الخَلَائِف ، لم تُطِيل شَعرَكَ وقَمِيصَكَ ؟ قالَ أكْرَهُ أنْ أكونَ كما قَالَ الشاعر :

قصيرُ القَمِيصِ فاحِشٌ عِنْدَ بَيْتِهِ   وشَرُّ غِراسٍ في قُرَيْشٍ مُرَكَّبا[2]

قال : وهٰذَا الشعرُ لأبي خالدٍ[3] مروانَ بن الحَكَم ، هَجَا به الضَّحَّاكَ ابن قيس .

وحَكَى أيضاً ، قال : مرَّ عَطاء بنُ أبي[4] صَيْفِيّ بعبد الرحمن بن حسّان ابنِ ثابتٍ وعَطاء على فَرَسٍ له ؛ فقال له عبد الرحمن : يا عَطَاء ، لو وجدتَ زِمَامَ زِقِّ الخمر خالياً ما كنتَ تَصْنَعُ به ؟ قال : كنت آتى به دُورَ بَنِي النَّجّار فأُعرِّفُه فإنّهُ ضالّةٌ من ضوالِّهم ، فإنْ عرَفُوه[5] وإلّا فهوَ لَكَ لمْ يَعْدُكَ ، ولكن

---

(١) في (ا) التي وردت فيها وحدها هذه القصة « العنزى » ، وهو تحريف .
(٢) المركب : الأصل والمنبت . وفي (ا) التي وردت فيها وحدها هذه القصة « فركبا » وهو تحريف لا معنى له . وفيها أيضا « فراش » مكان « غراس » ؛ وهو تحريف .
(٣) لم نجد في الكتب التي بين أيدينا أن أبا خالد كنية لمروان بن الحكم .
(٤) في (ا) التي وردت فيها وحدها هذه القصة : قال ابن عطاء ص ابن صيفى . وفي العبارة اضطراب ظاهر لا يستقيم به المعنى ، كما لا يخفى .
(٥) حذف الجواب هنا للعلم به وهو « فهو لهم » .

أَخْبِرْنى أىُّ جَدَّيْكَ أَكْبَر ، أَفُرَيْعَةُ أَمْ ثابت ؟ قال : لا أدرى . قال : فلِمَ يَغْنِيك[1] ما فى كَنَائِنِ الرِّجال وأنتَ لا تدرى أىُّ جَدَّيْكَ أكبَر ؟ بل فُرَيْعَةُ أكبرُ مِنْ ثابت ، وقد تزوَّجها قبلَه أربعةٌ كلُّهم يلقاها بمِثلِ ذِرَاع البَكْرِ ، ثم يُطَلِّقُها عَنْ قِلًى ؟ فقال لها نِسوةٌ من قومِها : واللهِ يا فُرَيْعَةُ إنَّكِ لَجَمِيلَة ، فما بال أزواجِكِ يُطَلِّقُونَكِ ؟ قالت : يُرِيدُون الضِّيقَ ضَيَّقَ اللهُ عَلَيْهِم .

وحَكَى أيضاً قال : قال أبو السَّفَر : بَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عليه وسلَّم يسيرُ إذ رُفِعَ بينَ مكةَ والمدينة قبرُ أبى سَعِيدِ بن العاص ، فقال أبو بكر : لَعَنَ الله صاحِبَ هٰذا القبر ، فإنه كان يُكذِّبُ اللهَ ورَسولَه ، فقال [خالد بنُ][2] أَسِيد — وهو فى القوم — : لا بل لَعَنَ اللهُ أبا قُحَافَةَ فإنه كانَ لا يَقْرِى الضيفَ ، ولا يَمْنَعُ الضَّيْمَ ، ولا يُقَاتِلُ معَ رَسُولِ الله صلّى الله عليه وسلّم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « إذا سَبَبْتم المُشرِكُون فعُمُّوهم بالسَّبّ ، ولا تَسُبُّوا الأمواتَ فإنَّ سبَّ الأمْوَات يُغْضِبُ الأحْيَاء ؟ » .

قال محمدُ بنُ عُمَارة : فذاكرتُ بهٰذا الحديث رَجُلا من أصحاب الحديثِ مِنْ وَلَدِ سعيدِ بنِ العاص ، فعَرَفَه ، فقال : فيه زيادة ليست عندكم ، قلت : وما هى ؟ فقال : قال خالدُ بنُ أَسِيد : يا رَسولَ الله ، والّذِى بَعَثَكَ بالحق ما يَسُرُّنى أنّه فى أعْلَى عِلِّيينَ وأنَّ أبا قُحافَةَ وَلَدُه . فضَحِك رَسولُ الله صلى الله عليه وسلّم حتى بَدَتْ نواجِذُه ، وقال : « لا تَسُبُّوا الأمواتَ فإنَّ سَبَّهُمْ يُغْضِبُ الأحْيَاء » .

(١) فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة : « ينهيك » ؛ وهو تحريف .

(٢) هذه التكملة التى بين مربعين لم ترد فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة والسياق يقتضى إثباتها إذ أن أسيدا أبا خالد لم يكن مع القوم .

وحَكَى قال : رَمى عُمَرُ بن هُبَيْرَة الفَزَارِىُّ إلى عُرَام بن شُتَيْر[1] بخاتَمٍ له فِضَّة — وقد زُوِّجَ — فَعَقَدَ عليه عُرَام سَيْرًا ورَدَّهُ إلى ابنِ هُبَيْرَة . أَرَادَ ابنُ هُبَيرةَ قَوْلَ الشاعر :

لقـــد زَرِقَتْ عَيْنَاكَ يا بْنَ مُلَقَّنٍ   كما كلُّ ضَبِّىٍّ من اللؤمِ أَزْرَقُ

وعرَّض له عُرام بقول ابن دارَة :

لا تأمَنَنَّ فَزَارِيًّا خَلَوْتَ به   على قَلُوصِكَ واُكْتُبْهَا بأَسْيَار[2]

وقال المدائنى : وكان ابنُ هُبَيْرَة يُسايرُ هِلَال[3] بن مُكَمَّل النُّمَيرِى ، فتَقَدَّمَتْ بَغْلَةُ النُّميرِىِّ بغلةَ ابن هُبَيْرَة . فقال : غُضَّ من بَغلَتِك . فالتفَتَ إليه النُّمَيرِىّ فقال : أَصْلَحَ اللهُ الأَمِير ، إنَّهَا مَكْتُوبة ، وإنما أرَادَ ابنُ هُبَيْرَة :

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ   فلا كَعْبًا بلَغتَ ولا كِلابا[4]

وأرَادَ النُّميرِىُّ قَوْلَ سَالِمِ بنِ دارَة :

لا تأمَنَنَّ فَزَارِيًّا خَلَوْتَ بِهِ   على قَلوصِكَ واُكْتُبْهَا بأَسْيَار

وقال الوليد العَنْبَرِىّ[5] : مرّت امرأةٌ مِنْ بَنِى[6] نُمَير على مجلسٍ لهم ، فقال رجل منهم : أيتها الرسحاء[7] . فقالت المرأة : يا بنى نُمَيْر ، والله ما أَطَعْتُم

---

(١) كذا فى تاريخ الطبرى طبع أوربا . والذى فى (ا) التى وردت فيهـا وحدها هذه القصة « شنير » بالنون ، وهو تصحيف .

(٢) اكتبها بأسيار ، أى اخزم حياءها لئلا ينزى عليها .

(٣) فى العقد الفريد « سنان بن مكمل » . وفى نهاية الأرب أيوب بن ظبيان ، وفى كتاب الكناية والتعريض للثعالبى « شريك بن محمد » .

(٤) البيت لجرير .

(٥) فى (ا) التى وردت فيهـا وحدها هذه القصة « النيدىّ » ، ولم نجد الفيدىّ هذا ضمن أسماء الرواة ، والذى وجدناه فى أسمائهم الوليد العنبرى كما فى تاريخ الطبرى .

(٦) فى نهاية الأرب مرت امرأة من العرب بمجلس من مجالس بنى نمير ؛ وهو أنسب .

(٧) الرسحاء : التى خفّ لحم أليتيهـا ووركيها .

اللهَ ولا أطَعْتُمُ الشاعر ، قال الله عزّ وجلّ (قُلْ لِلمُؤْمِنِين يَغُضّوا من أبْصَارِهِمْ)
وقال الشاعر :

فغُضّ الطَّرْفَ إنَّكَ من نُمَيْرٍ فلا كَعْبًا بلغتَ ولا كِلابَا

وقال : مرّ الفرزدقُ بخالِد بن صَفْوان بن الأهتم ، فقال له خالد : يا أبا فِراس ، ما أنت الذى لمّا رأينَهُ أكْبَرْنَهُ وقطّعْنَ أيْدِيَهُنّ ، فقال لَهُ الفرزْدق : ولا أنت الذى قالت الفتاة لأبيها فيه : (يا أبتِ اسْتَأجِرهُ إنّ خَيْرَ مَن اسْتَأجَرْتَ القَوِىُّ الأمِينُ) .

قال : ودخل يزيدُ بنُ مُسْلِمٍ على سُليمان بن عبد المَلِك ، وكانَ مُصَفَّرًا نحيفًا ، فقال سُليمان : على رَجُلٍ أجرّكَ رَسَنَكَ(١) وسَلَّطَكَ على المُسْلمين لَعْنَةُ الله . فقال : يا أميرَ المؤمنين إنّكَ رَأيْتَنِي والأمْرُ عَنّى مدبرٌ ، فلو رأيْتَنى وهو علَىّ مُقْبِلٌ لاسْتَعْظَمْتَ منّى يومَئِذٍ ما اسْتَصْغَرْتَ اليَوْمَ . قالَ : فأيْنَ الحَجّاج ؟ قالَ : يجىء يومَ القيامَةِ بَيْنَ أبيكَ وَأخِيكَ ، فَضَعْهُ حَيْثُ شِئْت .

وقالَ عبّاد بن زِياد : كنتُ عند عبد المَلِكِ بن مروان إذ أتاه أبو يوسُف حاجِبُهُ ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، هذه بُثَيْنَة . قال : أبُثَيْنَةُ جَمِيل ؟ قال : نعم ، قال أدْخِلْهَا ، فدَخَلَت امرأةٌ أدْمَاء طَوِيلَةٌ يُعْلَمُ أنَّهَا كانَتْ جميلة ، فقال له يا أبا يوسف ألقِ لها كُرْسِيًا ، فألقاهُ لها ، فقال لها عَبْدُ المَلِك ، ويحكِ ما رَجَا مِنكِ جَمِيل ، قالت : الذى رَجَتْ مِنكَ الأمّةُ حينَ ولّتكَ أمْرَهَا .

وقال سعيدُ بنُ عَبْد الرّحْمن بن حَسّان : إنّ رَهْطًا من الأنْصَار دَخَلُوا على مُعَاوية ، فقال : يا مَعْشَرَ الأنصَار ، قُرَيْشٌ خَيْرٌ لكم منكم لَهُمْ ، فإنْ يكن

(١) أجرك رسنك ، أى تركك وشأنك تفعل ما تشاء . والرسن المِقْوَد تقاد به الدابة.

ذلك لقتلى أُحُد ، فقد قتلتم يومَ بَدْرٍ مِثْلَهم ؛ وإن يكن لإمْرَةٍ[(١)] فوالله ما جعلتم لى إلى صِلَتِكم سَبيلاً ؛ خَذَلتُم عُثْمانَ يومَ الدار ، وقتلتم أنصاره يومَ الجَمَل ، وصَلِيتُم بالأمر يوم صِفِّين . فتكلَّمَ رَجُلٌ منهم ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، أمَّا قولُك « إن يَكن لِقَتْلَى أُحُد » فإن قَتيلَنا شَهيد وحَيَّنا تائق[(٢)] ، وأمَّا ذِكْرُك الإمْرَةَ ، فإنَّ رَسُولَ الله صَلّى الله عليه وسلّم أمرَ بالصَّبْر عليها . وأمَّا قولُك إنَّا خَذَلْنا عُثْمانَ ، فإنَّ الأمر فى عثمان إلى قَتَلَتِهِ[(٣)] ؛ وأمّا قولُك إنّا قتلنا أنصارَه يوم الجَمَلِ فذلك ما لا نَعْتَذِرُ منه ، وأما قولُك إنّا صَلِينا بالأمْرِ يومَ صِفِّين ، فإنما كُنّا مع رَجُل لم نألُه خُبْرًا ، فإنْ لُمْتَنا فرُبَّ مَلُومٍ لا ذَنْبَ لهُ .

ثم قام هو وأصحابُه يجرُّ ثوبَهُ مُغْضَبًا ، فقال معاوية : رُدُّوهم ، فرُدُّوا فترضَّاهم حتى رَضُوا ، ثم انصَرَفُوا . وأقبلَ معاوية على رَهْطٍ من قريشٍ ، فقال : والله ما فَرَغَ من مَنْطِقِه حتى ضاقَ بِي مجلسى .

قال سعيدُ بن عبد الرَّحمٰن بن حَسَّان : دَخَلَ قيسُ بنُ سعد بن عُبادةَ مع قومٍ من الأنصار على مُعاوِية . فقال معاوية : يا مَعْشَر الأنصار ، لِمَ تَطْلُبُون ما قِبَلِي ، فوالله لقد كنتم قليلاً معى ، كثيراً علىّ ، ولقد قَتَلْتُم جُنْدِى[(٤)] يوم

(١) فى (ا) التى ورد فيها وحدها دون (ب) هذا الكلام « لدهيه » ؛ وهو تحريف ، صوابه ما أثبتنا كما يؤخذ مما يأتى بعد فى جواب الأنصار من قولهم : وأما ذكرك الإمرة الخ . ويريد بالإمرة أنه لا يوليهم الأعمال .

(٢) تائق أى إلى أن يستشهد . وفى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة وردت تلك الكلمة مهملة الحروف من النقط . ولعل الصواب ما أثبتنا أو لعل صوابها « مائت » .

(٣) فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة « قلنا » ؛ وهو تحريف .

(٤) فى (ا) « جدى » ؛ وهو تحريف .

صِفِّين حتى رأيتُ المَنَايا تَلَظَّى فى أَسِنَّتِكُمْ ، وهَجَوْتُمُونى(١) بأشَدَّ من وَخْزِ الأَشَافى(٢) حتى إذا أَقَامَ الله ما حاولتُم مَيْلَه(٣) ، قلتم : ارْعَ فينا وَصِيَّةَ رَسُول الله صلّى الله عليه وسلم ؛ هَيهات ، «أَبَى الحَقِينُ العِذْرَةَ»(٤) ، فقال قيس : نَطْلُبُ ما قِبَلَكَ بالإسلام الكافِى به الله لا سِوَاه ، لا بما تَمُتُّ به إليكَ الأحزاب ، وأما عِداوُنا لك فلو شئت كَفَفْتَها عنك ؛ وأما هِجاؤُنا إيّاك فقولٌ يَزُولُ باطِلُه ، ويَثْبُتُ حَقُّه ، وأمّا قَتْلُنَا جُنْدَكَ يومَ صِفِّينَ فإنا كنا مع رَجُلٍ نَرَى أنّ طاعَتَه طَاعةُ الله ؛ وأمّا استقامة الأمْرِ لك فعَلَى كُرْهٍ كان مِنّا ، وأمّا وَصِيَّةُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وعَلَى آله وسلم فينا ، فمَنْ آمَن به رعاها ؛ وأما قولك « أَبَى الحَقِينُ العِذْرَةَ » ، فليس دُونَ الله يَدٌ تَحْجُزُكَ ؛ فشأنَك . فقامَ مُعَاويةُ فدَخَلَ ، وخَرَجَ قَيْسٌ ومَنْ كان مَعَه .

وقالَ محمد بنُ خالد القُرَشِىّ : دَخَلَ زُفَرُ بنُ الحارثِ الكِلَابِىُّ على عبدِ المَلك بن مَرْوَان وعندهُ خالدُ بنُ عبدِ الله بن خالد بن أَسِيد وأُمَيّةُ بنُ عبد الله بن خالد ، فقال زُفَرُ : لو كانَ لعبد الله سَخاء مُصْعَب وكان لمصعب عِبادَة عبد الله لكانا ما شاء المُتَمَنِّى . فقال عبدُ المَلِك : ما كان سَخاء

---

(١) فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة « ولمجوتمونى » ، وهو تحريف .

(٢) فى (ا) « الأثافى » بالثاء ؛ وهو تحريف .

(٣) فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة « مثله » بالثاء ؛ وهو تصحيف ، والتصحيح عن العقد الفريد ج ٢ ص ١٤٦ طبع بولاق .

(٤) وردت هذه العبارة فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة « بأى الحقين الغدرة » ؛ وهو تحريف كما ترى ، والتصحيح عن مجمع الأمثال . والحقين : اللبن المحقون والعِذرة : العذر . وأصله أن رجلا نزل بقوم فاستسقاهم لبنا ، فاعتلوا عليه وزعموا أن لا لبن عندهم ، وكان اللبن محقونا فى وطاب عندهم ، فقال هذا المثل ؛ وهو مثل يضرب للكاذب الذى يعتذر ولا عذر له . يقول : إن اللبن المحقون لديكم يكذبكم فى عذركم . والذى فى العقد الفريد « أبى الحبير العذرة » .

مُصْعَب إلا لَعِبًا ، ولا كانت عبادةُ عبد الله إلا عَبَثًا ، ولـكنْ لو كان للضَّحَّاك ابن قَيْسٍ مِثْلُ رجال مَرْوَانَ لـكانت قيسُ أرباباً بالشَّام ، فقال زُفَرُ : لو كانت لمروانَ صُحْبَةُ الضَّحَّاك لـكان ؛ فقال عبد المَلك ، والله ما أُحِبُّ له مِثْلَ صُحْبَتِه ومَصْرَعِه ، فقال خالد : لولا أنَّ أميرَ المؤمنين لا يُبْصِر مَرْعًى[1] لما تَرَكْناكَ والـكلامَ . فقال زُفَر : اِرْبَعا[2] على أنْفُسِكما ودَعانا وخَلِيفتَنا واسحَبا ذُيولَـكما على خيانة خُراسانَ وسِجِسْتَان والبَصْرَة .

وقال المدائنيّ : غابَ مَوْلًى للزُّبَيْر عن المدينة حيناً ، فقال له رجل من قريش لمّا رَجَع : أما والله لقد أَتيْتَ قومًا يُبْغِضون طَلْعتَك ، وفارقتَ قومًا لا يُحبُّونَ رَجْعَتَك . قال المولَى : فلا أنْعَمَ اللهُ بمَن قدِمْتُ عليـه عَيْنًا ، ولا أخْلَفَ اللهُ على مَنْ فارَقتُ بخير .

قال المدَائنيّ : كان مَرْثَد بنُ حوشب عند سُلَيْمان بن عَبدِ المَلِك ، فجرى بَيْنَهُ وبينَ أبيهِ كلامٌ حتّى تسابّا ، فقال له أبوه : والله ما أنتَ بابنى ، قال : واللهِ لأنا أشْبَهُ بِكَ مِنكَ بأبِيكَ ، ولأنتَ كنتَ أغْيَرَ على أُمِّى من أبيكَ على أُمِّك . فقال له سليمان : قاتَلَكَ الله ، إنَّك لَابنُهُ .

وسابَّ مَرْثَد أخاهُ ثُمامَة ، فقال له ثُمامَة : يا حَلَقِيّ[3] ، فقال له مَرْثَد :

---

(١) يشير خالد بهذه العبارة إلى قول زفر بن الحارث :

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هيا

وهذا البيت من أبيات قالها زفر حين فرّ بعـد وقعة مرج راهط التى قتل فيها الضحاك وانتصر فيها مروان ، وكان زفر من أصحاب الضحاك .

(٢) اربعا : يخاطب خالدا وأخاه أمية .

(٣) يتهمه بداء قبيح ؛ ويقال أتان حلقية إذا تداولتها الحمر فأصابها داء فى رحمها . والحلاق فى الأتان ألا تشبع من السفاد .

يا خَبيث ، أتسابّنى مُسَابَّةَ الصِبْيَان ، فوالله إنّكَ لابْنِى ، ولقد غَلَبنِى حَوْشب على أمّكَ ، وقد أقحَمْتُهَا بِكَ[1] .

وقال ابنُ عَيَّاش المَنتوف[2] لِأَبِى شاكر بنِ هِشَام بن عبد الملك : لوقَصَّرْتَ قَمِيصَكَ ، قال له : ما يَضرُّكَ مِنْ طُولِهِ . قال : تَدُوسُه فى الطِّين ، قال وما يَنفَعُكَ مِنْ دَوْسِه .

وقال : كان على تَبالَةَ[2] رجُل من قُرَيش ، فقال لِرَجل من باهِلة ، مَن الذى يقول :

إن كُنتَ ترجو أن تنالَ غنيمةً ... فى دُور باهِلَةَ بن يَعْفُرَ فارْحَل

قـــومٌ قتيبة أمُّهُمْ وأبُوهُمُ ... لَوْلَا قُتَيْبَةُ أصْبَحُوا فى مَجْهَلِ

فقال الباهِلىّ : ما أدْرِى غيرَ أنّى أظُنُّه الذى يقول :

يا شَدّةً ما شدَدْنا غيرَ كاذِبَةٍ ... عَلَى سَخِينَةَ لولا اللَّيْلُ والحَرَمُ[3]

قال : وتكلّم ابنُ ظبيانَ التَّيْمِىُّ يوماً فأكثر ، فقال له مالِكُ بنُ مِسْمَع ،

(١) يتضح من القصة أن مرثدا وعمامة أخوان لأب ، وبذلك يستقيم الكلام .

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى طبع أوربا . والذى فى (١) التى وردت فيها وحدها هذه القصة « المثبوق » ؛ وهو تحريف .

(٣) فى (١) التى وردت فيها وحدها هذه القصّة : « تأييده » مكان قوله : « ياشدة » . و « على سجية » مكان قوله « على سخينة » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين صوابه ما أثبتنا نقلا عن الأغانى ج ١٩ ص ٧٦ طبع بولاق . والبيت لخداش بن زهير ، والسخينة : طعام يتخذ من الدقيق وهو دون العصيدة فى الرقة وفوق الحساء ، وهو لقب لقريش كانت تعيّر به لكثرة اتخاذهم لهذا الطعام . وهذا البيت من أبيات أربعة وردت فى الأغانى فى خبر طويل فانظره ثم . وها هى ذى الأبيات الثلاثة بعد هذا البيت :

إذ يتقينا هشام بالوليـــد ولو ... أنا ثقفنا هشاما شالت الخدم

بين الأراك وبين المرج تبطحهم ... زرق الأسنة فى أطرافها السمم

فان سمعتم بجيش سالك شرفا ... وبطن مر فأخفوا الجرس واكتتموا

إيهاً أبا مَطَر(١) ، فإن للقوم فى الكلامِ نَصِيبًا ، فقال : والله ما إليكَ جِئتُ ، ولو أن بكرَ بنَ وائل اجتمعتْ فى بيتٍ بَقّالٍ لأَتَيْتُهُمْ . فقال له مالِكٌ ، إنما أنت سَهْمٌ من سِهام كِنانتِي . فقال ابنُ ظَبْيان : أنا سَهْمٌ من سِهام كِنانتِك ؟ فوالله لو قمتُ فيها لَطلتُها ، ولو قعدتُ فيها لخرَقتُها ، وايْمُ اللهِ ما أَراكَ تنتهى حتى أرمِيَكَ بِسَهْمٍ لم يُرَشْ(٢) ، تَذْبُلُ به شَفَتاك ، ويَجِفُّ لَهُ رِيقُك .

وقال رجُلٌ للأحنَف : بأىِّ شَىءٍ سُدْتَ تَميماً ؟ فوالله ما أنتَ بأجْوَدِهم ولا أشجَعِهم ولا أجْمَلِهم ولا أشْرَفِهم ، قال : بخلافِ ما أنتَ فيه . قال : وما خِلافُ ما أنا فيه ؟ قال : تَرْكِى ما لا يَعْنِينِى من أُمُورِ الناس كما عَنَاكَ مِنْ أَمْرِى ما لا يَعْنيكَ .

ووَفَدَ عُلَيْمُ بن خالِدٍ الهُجَيْمِىُّ عَلَى هِشَامٍ وعنده الأبرش [الكلبىّ] ، فقال له الأبْرَش الكَلْبىّ : يا أخا بنى الهُجَيْم ، مَن القائل :

لو يَسْمَعُون بأَكْلةٍ أو شَرْبَةٍ   بعُمانَ أَصْبَحَ جَمْعُهم بِعُمانِ

أَلكُمْ يَقوله ؟ قال : نعم ، لنا يَقُوله ، ولكنكم يا مَعْشَرَ كَلْبٍ تُعبِرُون(٣) النِّساء وتَجُزُّون(٤) الشَّاء ، وتكدِّرُون العَطاء ، وتؤخِّرون العَشَاء ، وتبيعون الماء .

---

(١) فى (ا) « إنها أبا فطر » ، وهو تحريف ، وقد أثبتنا هذه الكنية عن الكامل للمبرد . والذى فى (ب) إنما ينتظر القوم .

(٢) يقال راش السهم بريشه إذا وضع عليه الريش ليكون أسرع له . ويريد هنا سهماً من القول .

(٣) تعبرون النساء أى تتركون ختانهن . يقال امرأة معبرة إذا طال بظرها . وفى الأصل تيبرون بالياء المثناة وهو تحريف .

(٤) فى كلتا النسختين : « وتجرون » ؛ وهو تحريف ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا .

إلاَّ من كانتْ أمُّهُ زَنَى بها رجُلٌ مِنّا فنَزَعَ إلينا. فقال له الثّنوِىّ . وكذلك كلُّ مَنْ [لم] يقل الشِّعْر مِنْكم ، فإنما زَنى بأمِّهِ رَجُلٌ مِنّا فحَمَلَتْ به ، فنَزَعَ إلَينا ، فمِنْ ثَمَّ لم يَقُل الشعر.

وقال رَجُلٌ مِنَ العَرَبِ لرجُلٍ مِنْ أبْناء العَجَمِ : رأيتُ فى النَّوْمِ كأنِّى دَخَلْتُ الجَنّةَ فلم أرَ فيها ثَنَوِيًّا . فقال له الثّنَوِىّ : أصَعِدْتَ الغُرَفَ ؟ قال : لا . قال : فمِنْ ثَمّ لم ترَهُم ، هُمْ فى الغُرَف .

قال أبنُ عَيّاش : ما قطَعَنى إلا رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ من آل أبى مُعَيْط ، وكان ماجِنًا(١) شارب خَمْرٍ ، وذاك أنى وَقَفْتُ على بَيان التّبّان(٢) الذى أُتِىَ(٣) به ابنَ هُبَيْرَةَ الفزَارِىّ فأمَرَ بصَلْبه ، فقال لى : ما وُقوفُكَ هاهنا يا أبا الجرّاح ؟ قلتُ : أنظُرُ إلى هذا الشقِىِّ الذى يقول : إنّهُ نبِىّ ؛ قال : وما أتى به فى نبوّتِه ؟ قلتُ : بتحليل الخَمْرِ والزِّنا — وأنا أعَرِّضُ به — فقال : لا ، واللهِ لا يُقْبَلُ ذلك منه حتى يُبْرِئَ الأكْمَه والأبْرَص .

قال المدائنىُّ : ابنُ عَيّاش أبْرَص .

وقال : دَخَلَ أبو الأسود الدؤلىُّ على عبيد الله بن زِيادٍ ، فقال له ابنُ زياد — وهو يَهْزَأُ به — [أمسيتَ يا أبا الأسود العشيّةَ جميلا فلو عَلّقْتَ تميمةً تنفِى

(١) فى (١) التى وردت فيها وحدها هذه القصة « ما حارنا » وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

(٢) فى (١) التى وردت فيها وحدها هذه القصة : « ابن بيان » . ولم نجده فيما راجعناه من الكتب ، ولعل الصواب ما أثبتنا نقلا عن الكامل لابن الأثير ، والفرق بين الفرق ، وعيون الأخبار . وبيان هذا ، هو ابن سمعان التيمى وهو أول من قال بخلق القرآن ، وغير ذلك من المقالات الزائغة وكان يقول إنه المشار إليه بقوله تعالى : « هذا بيان للناس » .

(٣) فى (١) التى وردت فيها وحدها هذه القصة « أرى » ؛ وهو تحريف . والذى وجدناه فى الكتب أن الذى صلب بيانا هذا هو خالد بن عبد الله لا ابن هبيرة الفزارى وكان ذلك سنة ١١٩ هـ

بها عنك العين ؟ فعرف أنه يهزأ به] فقال : أصلح الله الأمير —

أفنَى الشَّبابَ الّذى فارقْتُ بَهْجَتَهُ   مَرُّ الجَدِيدَيْن مِنْ آتٍ وَمُنْطَلِقِ

لم يَتْرُكا لِىَ فى طُولِ اخْتِلافِهِما   شيئاً تُخافُ عليه لَذْغَةُ(١) الحَدَقِ

وقال المَدائنيّ : وَقَعَ بين العُرْيانِ بنِ الهَيْثَمِ النَّخَعيّ و بين بلالِ بنِ أبى بُرْدَةَ ابنِ أبى موسى الأشعريّ كلامٌ بينَ يَدَىْ خالد بن عبد الله القَسْرِىّ(٢) وَخالدٌ يومئذٍ على العراق — وكان متحاملا على بلال ، وكان العريان على شُرْطة خالد — فقال العُريان لبلال : إنى والله ما أنا بأبْيَضِ الرَّاحَتَين ، ولا مُنْتَشِرِ المَنْخِرَيْنِ ، ولا أرْوَحِ القَدَمَين ، ولا مُحَدَّدِ الأسنان ، ولا جَعْدٍ قَطَط ، فقال بلال : يا عُرْيان أتَعْنِينِى(٣) بهذا ؟ قال : لا والله ، ولكن كلامٌ يتلو بعضه بعضاً . فقال بلال : يا عُرْيان ، أتريد أنْ تَشْتُمَ أبا بُرْدَةَ وَأشْتُمَ أباكَ ، وتَشْتُمَ أبا مُوسى وأشْتُمَ جَدَّكَ ، هذا والله ما لا يكون ، فقال العُرْيان : إنى والله ما أجعل أبا مُوسى فِداءَ الأسْوَد ، ولا أبا بُرْدَةَ فِداءَ الهَيْثَم ، فَمَثَلى ومَثَلُكَ فى ذلك كما قالَ مِسْكِينٌ الدارِمِىّ(٤) :

أنا مِسْكِينٌ لمن أنْكَرَنى   ولِمن يَعرِفُنى جِدُّ نَطِقْ(٥)

لا أبيعُ الناسَ عِرْضِى إننى   لو أبيعُ الناسَ عِرْضِى لَنَفَقْ

(١) فى رواية : « لذعة » .

(٢) فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة « القشيرى » ؛ وهو تصحيف .

(٣) فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة « استعن » ؛ وهو تحريف إذ لا يناسب معناه سياق الكلام .

(٤) فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة « الدانق » ؛ وهو تحريف .

(٥) ورد هذا البيت فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذان البيتان :

أيا مسكين لمن تعرفنى   ولمن تبادر لى حد نطق

وهو تحريف ؛ والتصحيح عن الأغانى فى ترجمة مسكين الدارمى .

قال المَدائنيّ : جرى بين وكيع بن الجراح و بين رجل من أصحابه كلامٌ فى معاوية واختلفا ، فقال الرجل لوكيع : ألم يَبْلُغك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لَعَنَ أبا سفيان ومعاوية وعتبة فقال : « لعن الله الراكبَ والقائد والسائق » ، فقال وكيع : إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « أيُّما عَبْدٍ دعوتُ عليه فاجْعَلْ ذلك (له أوْ عليه) رَحْمَةً » ؛ فقال الرجل : أفيسرُّك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لعَنَ والِدَيْك فكان ذلك لهما رحمةً . فلَمْ يَحِر إليه جَواباً .

تَكلَّمَ صَعْصَعةُ عِنْدَ مُعاوِيةَ فعَرِق ، فقال : وبَهَرَكَ القَوْلُ يا صَعْصَعة ؟ فقال : إن الجِيادَ نَضَّاحَةٌ بالماء .

هكذا قال لنا السِّيرافيّ ، وقد قرأتُ عليه هذه الفِقَرَ كلَّها ، وإنما جَمَعْتُها للوزير بعد إحكامها ورِوايتِها .

قال عليُّ بن عبدِ الله : شَهِدْتُ الحَجّاج خارِجا مِنْ عِنْدِ عبدِ الملك بن مَرْوَانَ ، فقال له خالدُ بنُ يَزِيدَ بنِ مُعاوية : إلى متى تَقْتُلُ أهلَ العِراق يا أبا مُحمّد ؟ فقال : إلى أنْ يَكُفُّوا عَنْ قَوْلِهم فى أبيك : إنّه كان يَشْرَبُ الخَمْرَ .

قال المدائنيّ : أسَرَتْ مُزَيْنَةُ حَسّانَ بنَ ثابتٍ — وكانَ قَدْ هجاهُمْ — فقال:

مُزَيْنَةُ لا يُرَى فيها خَطِيبٌ ولا فَلِجٌ يُطَافُ به خَضِيبُ
أناسٌ تَهْلِكُ الأحْسابُ فِيهم يَرَوْنَ التَّيْسَ يَعْدِلُه الحبيب

فأتتهم الخَزْرج يَفْتَدُونَه ؛ فقالوا[1] : نفاديه بتَيْس ؛ فغَضِبُوا وقامُوا ؛ فقال لهم حسّان : يا إخوَتِى خذوا أخاكم وادْفعُوا إليهم أخاهم .

وقال المَدائنيّ : فرّقَ عُمَرُ بنُ الخَطّاب بين منظور بن أبانَ و بين امرأته —

(١) فقالوا ، أى آسروه ، وهم بنو مزينة .

وكان خَلَفَ عليها بعد أبيه — فتزوّجها طلحةُ بنُ عبدِ الله ، فلقيَه منظور ، فقال له : كيف وَجدتَ سُوري ؟ فقال : كما وَجدْتَ سُوْرَ أبيكَ . فأفحَمَه .

وقال حاطِب بنُ أبي بَلْتَعَة : بعثَني النبيُّ صلّى الله عليه وعلى آلِه وسلّمَ إلى المُقَوْقِس مَلِكِ الإسكَنْدَرِية ، فأتَيتُه بكتاب رسُول الله — صلى الله عليه وسلّمَ — وأبْلَغتُه رِسالتَه ؛ فضحكَ ثم قال : كتَبَ إليَّ صاحِبُك أنْ أتبَعَه على دِينِه ، فما يَمنَعُه — إنْ كان نبيّا — أن يَدْعُوَ اللهَ أن يسلِّط عليَّ البحرَ فيُغرِقَني فيَكتَفِيَ مَؤُونتي ويأخُذَ مُلكي ؟ قلتُ : فما صَنَع عيسى إذ أخَذَتْه اليَهُودُ فربَطوه في حَبْل وحلَقوا وَسط رَأسِه ، وجَعَلوا عليه إكليلَ شوْك ، وحَمَلُوا خَشَبَتَه الّتي صَلَبُوه عليها على عُنُقِه ، ثم أخرَجُوه وهو يَبْكي حتّى نَصَبُوه على الخشَبَة ، ثم طَعَنُوه حَيّا بحَرْبة حتّى مات ؛ هذا على زَعْمِكم ، فما مَنَعَه أن يَسأَلَ اللهَ فيُنْجِيَه ويُهلِكَهُمْ فيُكفَى مَؤونتَهم ويظْهَرَ هُوَ وأصحابُه عليهم ؟ وما مَنَع يحْيَى بن زكريّا حين سألَت امرأةُ المَلِكِ المَلِكَ أنْ يَقتُله فقتَله ، وبَعَثَ برأسِه إليها حتى وُضِع بين يَدَيْها ، أن يَسْألَ اللهَ تعالَى أنْ ينجيَهُ ويُهلِكَ الناسَ ؟ فأقبَلَ على جُلَسائه وقال : إنّه واللهِ لحكيمٌ ، وما يَخرُجُ الحكيمُ إلا مِنْ عند الحُكَماء .

قال المَدائنيّ : أبْطَأَ على رَجُلٍ منْ أصْحابِ الجُنَيْدِ بن عَبد الرّحمن ما قِبَله[1] — وهو على خُراسان — وكان يقال للرجُل : زامِلُ بنُ عَمْرو مِنْ بَني أسَد بن خُزَيْمة ، فدَخلَ على الجُنَيْدِ يوماً فقال : أصلحَ اللهُ الأميرَ ، قد طَال انتِظاري ، فإنْ رَأى الأميرُ أنْ يَضرِبَ لي مَوْعِدًا أصيرُ إليه فعَل . فقال : مَوْعِدُك الحَشْر ؛ فخرج زاملٌ متوجّهاً إلى أهله ؛ ودخل على الجُنَيْدِ بعد ذلك رَجُلٌ مِنْ أصحابِه فقال : أصْلحَ اللهُ الأمير .

(١) ما قبله ، أي ما قبل الجنيد من العطاء .

أَرِحْنِي بخَيْرٍ منكَ إنْ كُنْتَ فاعِلاً ... وإلّا فيعادٌ كميعادِ زامِلِ

قال : وما فَعَلَ زامل ؟ قال : لَحِقَ بأهله . فأَبْرَدَ الجُنَيْدُ فى أثره بَرِيداً وبَعَث يُعْهِدُهُ إلى الكُورة[(١)] التى يُدْرِكُ بها ، [فأَدْرِكَ][(٢)] بنَيْسابُورَ ، فنَزَلها .

وامتَدَح رَجُلٌ الحسنَ بنَ علىٍّ — عليه السلام — بشِعْرٍ ، فأَمَرَ له بشىء ؛ فقيل[(٣)] : أتُعْطِى على كلام الشّيطان ؟ فقال : أَبْتَغِى الخيرَ لنَفْى الشرّ .

قال المدائنىّ : أتى العَبْدانىُّ حمّادَ بْنَ أبى حنيفةَ وقد مَلَأَ عينَه كُحْلًا قد ظَهَرَ مِنْ مَحاجِرِ عَيْنِه ، وعنــد حمّادٍ جَماعَةٌ . فقال له حمّاد : كأنك أمرأة نُفَساء . قال : لا ، ولـكنّى ثَـكْلَى . قال : على مَن ؟ قال : على أبى حَنِيفَة .

وقال مَرْوانُ بنُ الحكم ليَحْيَى[(٤)] : إنّ ابنتَك تَشْـكُو تَزْوِيجَك وتَزْعُمُ أنّه[(٥)] يبول فى دِثاره[(٦)] . قال : فهو يَبُول منها فيما هو أعظمُ مِنْ دِثاره[(٦)] .

وقال مُعاوِيَة : هذا عَقِيلٌ عَمُّهُ أبُو لَهَب . فقال عَقِيل : هٰذا مُعاوِيَةُ عَمَّتُه حَمّالَةُ الحطب .

قال : ودَخَل مَعْنُ بنُ زائِدةَ على أبى جَعْفرٍ فقارَبَ فى خَطْوه ، فقال أبو جَعْفَر : كَبِرَتْ سِنُّكَ يا مَعْن . قال : فى طاعَتِك . قال : وإنّك لجَلْد . قال : على أعْدائك . قال : إنّ فيك لبَقِيّة . قال : هى لكَ يا أميرَ المُؤمنين .

---

(١) بعث يعهده إلى الكورة ، أى بعث إلى الكورة التى يدرك بها يؤمّنه . يقال أعهده إذا أمّنه وكفله . (٢) لم ترد هذه الكلمة فى (ا) التى وردت فيها وحدها دون (ب) هذه القصّة ؛ وسياق الكلام يقتضى إثباتها .

(٣) فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة « فقال » ؛ وهو خطأ ؛ أو لعلّ اسم القائل قد سقط من الناسخ كما يظهر لنا .

(٤) يريد يحيى بن الحكم أخا مروان . (٥) أنه أى زوجها .

(٦) فى (ا) التى وردت فيها وحدها دون (ب) هذه القصة « داره » ؛ فى كلا الموضوعين وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

قال المنصورُ لسُفْيانَ بنِ مُعاويةَ المُهَلَّبيّ ، ما أسْرَعَ الناسَ إلى قومِكَ ؟ قال سفيان :

إنَّ العَرانينَ[١] تَلْقاها مُحَسَّدَةً ولَنْ تَرَى لِلِئامِ النّاسِ حُسّادا

فقال : صدقتَ .

قال المدائني : حضرَ قومٌ مِنْ قُرَيْش مجلسَ معاويةَ وفيهم عَمْرُو بنُ العاصِ وعبدُ اللهِ بنُ صفوان بن أُمَيّة الجُمَحيّ وعبدُ الرحمن بنُ الحارثِ بنِ هِشام ؛ فقال عمرو : احْمَدوا اللهَ يا مَعْشَرَ قُرَيْش إذ جعل والىَ أمورِكم من يُغْضِى[٢] على القَذَى ، ويَتَصامُّ عَنِ العَوْراء ، ويجرُّ ذَيْلَه على الخدائع . قال عبد الله بنُ صفوان : لو لم يكن هذا لمشَيْنا إليه الضَّرَاء ، ودَبَبْنا[٣] له الخَمَرَ ، وقَلَبْنا له ظَهْرَ المِجَنِّ ، ورجَوْنا أن يقومَ بأمْرِنا مَنْ لا يُطْعِمُك مالَ مِصْر .

وقال معاوية : يا مَعْشَرَ قريش ، حتّى مَتَى لا تُنْصِفُون من أنفُسِكُم ؟

فقال عبد الرحمن بنُ الحارث : إن عَمْرًا وذَوِى عَمْرٍو أفسَدُوك علينا وأفسَدُونا عليكَ ، ما كان لَوْ أغْضَيْتَ على هذه ؟ فقال : إنّ عَمْرًا لى ناصح ، قال أطْعِمْنا مِمّا[٤] أطْعَمْتَه ، ثم خُذْنا بمِثْلِ نَصيحَتِه ، إنّكَ يا مُعاوِيَةُ تَضْرِبُ عَوَامَّ قُرَيْشٍ بأيادِيكَ فى خَواصِّها كأنّكَ تَرَى أنّ كِرامَها جارَوْكَ[٥] دونَ لئامها ،

---

(١) عرانين القوم : عليتهم ، تشبيها بعرانين الأنوف .

(٢) فى نسخة : « يقضى على المدى » .

(٣) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام دون (ب) «ووهنا له الحمى» مكان «ودبينا له الخمر » ؛ وهو تحريف من الناسخ صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق ، يقال : مشى إلى خصمه الضراء ودب إليه الخمر بفتح الخاء والميم إذا مشى إليه مستخفيا ليختله . والضراء : الشجر الملتف : والخمر : ما واراك من جرف ونحوه .

(٤) فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة « منذ » ؛ وهو تحريف .

(٥) كذا فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة . وجاروك ، أى جروا معك فيما تريد . وفى بعض الكتب حاربوك . يريد أنه يعطى كرامهم خوفا منهم واتقاء لحربهم .

وأيمُ الله : إنّك لتفرغ(١) من إناء فَعْم فى إناء ضَخْم ، ولكأنك بالحَرْبِ قد حَلَّ عِقالَها ثمّ لا تُنْظِرُك . فقال معاوية : يا بن أخى(٢) ما أحْوَجَ أهلَكَ إليك . ثم أنْشَدَ معاوية :

أغَرَّ رجالاً من قُرَيْشٍ تَشايَعُوا على سَفَهٍ ، مِنّا الحَيَا والتَّكَرُّمُ ؟

وقال المَدائنىّ : كان عروةُ بنُ الزُّبَيْر عند عبدِ الملك بنِ مَرْوانَ يحدِّثُه — وعنده الحَجّاج بنُ يوسف — فقال له عُرْوَةُ فى بَعْضِ حديثه : قال أبو بكر — يَعْنى عبدَ الله بنَ الزُّبَيْر — فقال الحجّاج : أعند أمير المؤمنين تكْنى ذلك الفاسقَ ؟ لا أمَّ لك . فقال عُرْوَة : أَلِىَ تقول هذا لا أمَّ لك وأنا ابن عجائز الجنّة خديجة وصفيّة وأسماء وعائشة ، بل لا أمّ لك أنت يا بنَ المُسْتَفْرِمَة(٣) بِعَجَم زَبيبِ الطّائف .

وقال : لمّا صَنَع هِشامُ بن عبدِ المَلِكِ بغَيلانَ الواعِظِ ما صَنَع ، قال له رَجُلٌ : ما ظلَمَكَ اللهُ ولا سَلَّطَ عليكَ أميرَ المؤمنين إلّا وأنتَ مُسْتَحِقّ ؛ فقال غَيْلان : قاتَلَكَ الله ، إنّك جاهِلٌ بأصحابِ الأخْدُود .

قال عمرو بنُ العاص : أعْجَبَتْنى كلمةٌ مِنْ أمَةٍ ؛ قلتُ لها ومعها طَبَق : ما عليه يا جارِيَة ؟ قالت : فلِمَ غطّيْناه إذاً ؟

وَقَعَ ابنُ الزُّبَيْر فى مُعاوِيَة ، ثم دَخَل عليه فأَخْبَره مُعاوِية بِبَعْضِهِ ، فقال : أنّى عَلِمتَ ذلك ؟ فقال مُعاوِيَةُ : أما عَلِمْتَ أنّ ظَنَّ الحكيم كهانَة .

(١) فى (ا) التى وردت فيها هذه القصة وحدها : « لتفرغر » ، ولم نتبين له معنى . والصواب ما أثبتنا كما فى العقد الفريد .

(٢) فى الأصل : « يا براح » مكان « يابن أخى » ، ولم نفهم له معنى . والصواب ما أثبتنا كما فى العقد الفريد . وبعد قوله « ما أحوج أهلك إليك » قوله « فلا تفجعهم بنفسك » .

(٣) المستفرمة بعجم زبيب الطائف : عبارة كان عبد الملك بن مروان قد شتم بها الحجاج فى بعض كتبه اليه . وعجم الزبيب : نواه . ويريد أن أمه كانت تستفرم به أى تضعه فى فرجها ليضيق .

وقيل لعُمرَ بن عبدِ العَزيز : ما تَقُولُ في عليّ وعُثمانَ وفى حَرب الجَمَل وصِفّين ؟ قال : تلك دِماء كفَّ اللهُ يَدِى عنها ، فأنا أكْرَهُ أنْ أغمِسَ لِسانى فِيها .

وقال : طَلَّقَ أبُو الخِنْدف امرأتَهُ أمَّ الخِنْدِف ، فقالت له : يا أبا الخِنْدِف طَلَّقتَنى بعد خمسين سَنَة ، فقال : مالَكِ[1] عِندِى ذَنبٌ غيرُه .

وقال : لقى جريرٌ الأخْطَلَ فقال : يا مَالِك ، ما فَعلَتْ خنازيرُكَ ؟ قال : كثيرةٌ فى مَرْجٍ أفيَحَ ، فإنْ شِئْتَ قَرَيْنَاكَ منها ، ثم قال الأخطل : يا أبا حَزْرَةَ ما فَعلتْ أعنازُك ؟ قال كثيرةٌ فى وادٍ أرْوح ، فإن شئتَ أنْزَيْناكَ[2] على بَعْضها .

وقال الشَّعْبِىّ : ذَكرَ عَمْرُو بنُ العاصِ عَلِيًّا فقال : فيه دُعابَةٌ ، فبلغَ ذلكَ عليًّا فقال : زَعَم ابنُ النَّابِغَةِ أنِّى تِلْعَابَةٌ تِمْراحَةٌ ذُو دُعابَةٍ أُعافِسُ وأُمارِسُ ؛ هَيْهات ، يَمْنَعُ مِن العِفاسِ والمِراسِ ذِكْرُ المَوْتِ وخَوْفُ البَعْثِ والحِساب ومَنْ كان لهُ قَلْبٌ فَفِى هٰذا عن هٰذا له واعِظ وزاجِر ، أما وشَرُّ القَوْلِ الكَذِب — إنَّه لَيعِدُ فيُخلِف ، ويُحَدِّثُ فيَكْذِب ، فإذا كانَ يومُ البَأسِ فإنّه زاجِرٌ وآمِرٌ ما لم تأخُذِ السيوفُ بِهامِ الرِّجال ، فإذا كان ذاكَ فأعْظَمُ مَكيدَتِه فى نَفْسِه أنْ يَمْنَحَ القومَ اسْتَه .

قال المَدائنِىّ : بَعَثَ المُفَضَّلُ [الضَّبِّىّ] إلى رَجُل بأضْحِيَة ، ثم لَقِيه فقال : كيف كانت أضْحِيَّتُك ؟ فقال : قليلةُ الدَّم . وأرادَ قَولَ الشاعر :

ولو ذُبِحَ الضَّبِّىُّ بالسَّيْفِ لم تَجِدْ … مِنَ اللُّؤْمِ لِلضَّبِّىِّ لحمًا ولا دَمًا

---

(١) فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة : « تبالك » .

(٢) فى (ا) التى وردت فيها وحدها هـذه القصة : « أقريناك » بالقاف والراء ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

وقال المَدَائِنيّ : مَرَّ عَقِيلُ بنُ أبي طَالِب على أخيه عليّ بن أبي طالب عليه السلام ومعه تيسٌ، فقالَ له عليّ : إنّ أحَدَ ثلاثَتِنا أحمق . فقال عَقِيل : أمّا أنا وتيسى فلا .

وكلّم عامرُ بن عبدِ قيسٍ حُمْران يوماً في المسجد . فقال له حُمْران : لا أكثرَ اللهُ فينا مِثْلَكَ . فقال عامر : لكن : أكثرَ اللهُ فينا مِثْلَكَ ، فقال له القوم : يا عامر ، يقول لك حمران مالا تقول مِثْلَه ؟ فقال : نعم يَكسَحُون طُرُقَنا ، ويَحُوكُون[1] ثِيابَنا ، ويَخرِزُون خِفافَنا . فقِيل له : ما كنّا نَرَى أنّكَ تعرِفُ مِثْلَ هذا؟ ، قال : ما أكثرَ ما نَعرِفُ ممّا لا تَظُنّون بنا .

وقال : مَرّ جَرِير بن عطيةَ على الأحْوَصِ وهو عَلَى بَغْلٍ ، فأَدْلَى البَغْلُ فقال الأحوص : بَغْلُك يا أبا حَزْرَةَ على خمسٍ قوائم . قال جرير : والخامِسةُ أحبُّ إليك .

ومَرّ جَرِيرٌ بالأحْوَصِ[2] وهو يَفسُق بامرأة ويُنشِدُ :

يَقِرُّ بِعَيْنِي ما يَقِرُّ بعَيْنِها وأحسَنُ شيء ما به العَيْنُ قَرّتِ

فقال له جرير : فإنّه يَقِر بعَيْنها أنْ تَقعُدَ على مِثْلِ ذِراعِ البَكْر ، أفتَراكَ تَفعلُ ذلك ؟

فقال الوزير : مَنْ رأيتَ مِن الكِبار[3] كان يَحفَظُ هذا الفَنّ وله فيه غَزارَةٌ وانبعاثٌ وجَسارةٌ على الإيراد . قلتُ : ابنُ عَبّاد على هذا ، ويَبْلُغ من قوّته أنه يفتَعِل[4] أشياء شَبِيهةَ بهذا الضَّرْبِ على من حضر ، فقال : الكذبُ لا خيرَ

(١) في (ا) التي وردت فيها وحدها هذه القصة : « ويحولون » ؛ ولا يخفى ما فيها من تحريف ظاهر .

(٢) عبارة (ب) « ومرجرير بالأحوص وهو ينشد » ثم ذكر البيت .

(٣) في (ب) « الكتاب » . (٤) في (ا) « ينقل » ؛ وهو تحريف .

فيه ، ولا حَلاَوَةَ لِراويه ، ولا قَبُولَ عند سامِعِيه .

وقال: أرْسَلَ بلالُ بنُ أبى بُرْدَة إلى أبى عَلْقَمة فأتاه ، فقال : أتدرى لأىّ شىء أرسلتُ إليك ؟ قال : نعم ، لتَصْنَعَ بى خيرًا . قال : أخطأتَ ولكن لِأُسىء بك . فقال : أمّا إذْ قلتَ ذاك لقد حَكَّمَ المسلمُون حَكَمين ، فسَخِرَ أحَدُهُما بالآخَر . فقال الوزير : أيُقَالُ سَخِرَ بِهِ ! فكان الجواب أنّ أبا زَيْد حَكاه ، وصاحبَ التَّصْنِيفِ قد رَوَاه ؛ وسَخِرَ منه أيضاً كلامٌ ، و إنما يقال هُوَ أفْصَح ، لأنه فى كتاب الله عَزَّ وجَلَّ ، و إلّا فكلاهُما جائز .

وقال حَمْزَةُ بن بيض الحنفىُّ لِلفَرزْدَق : يا أبا فِراس ، أيُّما أحبُّ إليك أن تَسْبِقَ الخيرَ أمْ يسْبِقُك ! قال : ما أُرِيدُ أنْ أسْبِقَه ولا أنْ يَسْبِقَنى ، بل نَكون معاً . ولكنْ حَدِّثْنى أيُّما أحَبُّ إليكَ : أن تَدخُلَ مَنْزِلَكَ فتجدَ رَجُلاً على حِرِ أُمِّكَ ، أو تجدَها قابضةً على قُمُدِّ الرجل . فأفْحَمَه .

فلما قَرَأْتُ الُجزْء فى ضُروبِ الجوابِ المُفحِم . قال : ما أفْتَحَ[١] هذا النوعَ من الكلامِ لأبواب[٢] البَديهة ! وأبْعَثَه لرواقد الذِّهْن ! وما يَتَفَاضَلُ الناسُ عِنْدِى بشىء [أحْسَنَ][٣] مِنْ هذه الكلمات النوائق الروائق ، ما أحْسَنَ ما جَمَعْتَ وأتَيْتَ به .

الليلة الأربعون

(١) وقال مَرّةً أخرَى : حَدِّثْنِى عن أعتِقادِكَ فى أبى تَمّامٍ والبُحْتُرِىّ ، فكان

(١) كذا فى (ب) . والذى فى (ا) « ما أصح » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى (ب) : «لأنواع» ؛ وهو خطأ من الناسخ .
(٣) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها لم ترد فى كلتا النسختين ، والسياق يقتضيها ، إذ لا تتم العبارة بدونها .

الجواب : إن هذا البابَ مُخْتَلَفٌ فيه ، ولا سبيل إلى رَفْعه ، وقد سَبَقَ هذا من الناس فى الفَرَزْدَقِ وجَرِيرٍ ومِنْ قَبْلِهما فى زُهَيْر والنابغة حتّى تكلّمَ على ذلك الصدرُ الأول ، مع علوّ مَراتِبِهِمْ فى الدِّين والعَقْلِ والبَيان ، لكن حَدَّثَنا أبو محمد العَروضىُّ عن أبى العبّاسِ المُبَرِّدِ قال : سألنى عُبَيْدُ الله بنُ سُلَيْمانَ عن أبى تمّام والبُحْتُرِىِّ ؛ فقلت : أبو تمّام يَعْلُو عُلوًّا رَفِيعاً ، ويَسْقُطُ سُقُوطاً قَبيحًا ، والبحترىُّ أحسنُ الرجلين نَمَطًا ، وأعْذَبُ لَفْظًا ؛ فقال عُبَيْدُ الله :

قد كانَ ذلكَ ظَنِّى فصــــادَ ظَنِّى يَقِينا

فقلتُ : وهٰذا أيضاً شِعْر . فقال : ما عَلِمْتُ .

فقال : هٰذه حكاية مفيدةٌ مِنْ هٰذا العالِمِ المتقدِّم ، وحُكْمٌ يَلُوحُ منه الإنصاف ، وقد أغْنَى هذا القولُ عن خَوْضٍ كثير .

(٢) وَدَعْ ذا ؛ مِن أيْنَ دَخَلَتِ الآفَةُ على أصحاب المَذاهِب حتى افترقوا هذا الافتراق ، وتَبَايَنُوا هٰذا التّبايُنَ ، وخَرَجُوا إلى التكفير والتّفسيق وإباحةِ الدّم والمالِ ورَدِّ الشّهادَةِ وإطْلاقِ اللِّسان بالجرْح وبالقَذْع والتّهاجُر والتّقاطُع !

فكان الجواب : إنَّ المذاهبَ فُروعُ الأدْيان ، والأديان أصولُ المَذاهِب ، فإذا ساغ[1] الاختِلافُ فى الأديان — وهى الأصول — فلِمَ لا يَسُوغُ فى المَذاهب وهى الفروع .

فقال : ولا سَوَاء[2] ، الأديان اخْتَلَفَتْ بالأنبياء ، وهم أرْبابُ الصِّدْقِ والوَحْىِ المَوْثوق به ، والآياتِ الدّالّة على الصِّدق ؛ وليس كذٰلك المَذاهِب .

فقيل : هٰذا صحيح ، ولا دافع[3] له ، ولكن لمّا كانت المذاهب نتائجَ

(١) فى (ب) « شاع » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .
(٢) فى (ا) ولا سيما ؛ وهو تحريف إذ لا يستقيم به سياق الكلام .
(٣) فى (ا) « ولا رابع » ؛ وهو تحريف .

الآراء ، والآراء ثمراتِ العقول ، والعقولُ مَنائحَ الله للعباد ، وهذه النتائجُ مُخْتَلِفَةٌ بالصَّفاء والكَدَر ، وبالكمال والنَّقْص ، وبالقِلّة والكَثْرة ، وبالخفاء والوُضوح ؛ وَجَب أن يَجْرِيَ الأمرُ فيها على مَناهجِ الأدْيان في الاختلاف والافتراق وإن كانت تلكَ مَنُوطَةً بالنبوّة ؛ وبعد ، فما دامَ الناسُ على فِطَرٍ كثيرةٍ ، وعادَاتٍ حَسَنَةٍ وقَبيحة ، ومَناشِئَ محمودةٍ ومَذمومة ، ومُلاحَظَاتٍ قريبةٍ وبعيدة ، فلا بدّ من الاختلاف في كلّ ما يُخْتَارُ ويُجْتَنَب ، ولا يجوزُ في الحِكْمَةِ أنْ يَقعَ الاتفاق فيما جرَى مَجْرَى المَذاهبِ والأدْيان ؛ ألَا تَرَى أنّ الاتّفاق لم يَحْصُل في تفضِيل أمة على أمّة ، ولا في تفضيلِ بَلَدٍ على بَلَد ، ولا في تَقديمِ رَجُلٍ على رَجُل ، ولو لم يكن في هذا الأمر إلا التّعَصُّبُ واللّجاجُ والهوَى والمَحْكُ والذّهابُ مَعَ السابق إلى النفس ، والموافِقُ [للمزاج] ، والخفيفُ على الطِّباع ، والمالكُ للقَلْب ، لكان كافياً بالِغاً بالإنسان كلّ مبلغ .

وشيخُنا أبو سُلَيْمَانَ يقول كثيراً : إنَّ الدِّين مَوْضُوعٌ على القَبولِ والتّسليم ، والمُبالَغةِ في التّعْظيم[1] ، وليس فيه « لِمَ » و « لا » و « كَيْفَ » إلا بقدرِ ما يؤكّدُ أصْلَه ويَشُدُّ أزْرَه ، ويَنْفِي عارِضَ السُّوءِ عنه ، لأن ما زادَ على هذا يُوهِنُ [الأصْلَ] بالشكّ ، ويَقْدَحُ في الفَرْع بالتّهمةِ .

قال : وهذا لا يخصّ دِيناً دُونَ دِين ، ولا مقالةً دُون مَقالة ، ولا نِحْلَةً دونَ نِحْلَة ، بل هو سارٍ في كلّ شيء في كلّ حالٍ في كلّ زمان ، وكلّ مَن حاوَلَ رَفْعَ هذا فقد حاوَلَ رَفْعَ الفِطْرَة وَنَفْيَ الطِّباع وَقَلْبَ الأصْل ، وَعَكْسَ الأمر ؛ وهٰذا غيرُ مُسْتَطاعٍ ولا مُمْكِن ؛ وقد قيل : « إذا لم يَكُنْ ما تُريد فأرِدْ ما يكون » .

---

(١) في كلتا النسختين « والتعظيم » بالواو ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

وقال لنا القاضي أبو حامِد المَرْوَرُّوذِيُّ : أنا منذ أربعين سنةً أجْتَهِدُ معَ أصْحابِنا البَصْرِيِّينَ في أنْ أُصَحِّحَ عندهم أن بغدادَ أطْيَبُ مِنَ البَصْرَة ، وأنا اليومَ في كلامِي معهم كما كُنتُ في أوّل كلامِي لهم ، وكذلك حالُهُمْ مَعِي ، فهٰذا هٰذا . أُنظر إلى فَضْل وَمَرْعُوش — وَهما مِن سَقَطِ النّاس وَسِفْلَتِهم — كيف لَهِجَ الناسُ بهما وبالتعَصُّب لهما حتى صارَ جميعُ مَن ببغداد إما مَرْعُوشِيًّا وإمَّا فَضْلِيًّا .

ولقدْ أجْتازَ ابنُ مَعْرُوف وهوَ عَلَى قَضَاء القضاة بباب الطاق فتَعَلَّقَ بعضُ هٰؤلاء المُجّان بلِجام بَغْلَتِه ، وقال : أيُّها القاضي ، عرِّفْنا ، أنتَ مَرْعُوشِيٌّ أمْ فَضْلِيٌّ ، فتحيّرَ وعَرَف ما تحْتَ هٰذه الكَلِمَةِ مِنَ السَّفَه والفِتْنَة ، وأنّ التخلُّصَ بالجوَاب الرَّفيق أجْدَى عليه مِن العُنْف والخُرْق وإظْهار السَّطْوة ؛ فالْتَفَتَ إلى الحرّانيِّ — وكانَ معه وهو من الشهود — فقال : يا أبا القاسم ، نحن في مَحَلّةِ مَن ؟ قال : في مَحَلّةِ مَرْعُوش ؛ فقال ابنُ معروف : كذلك نَحْنُ — عافاكَ اللهُ — مِنْ أصْحابِ مَحَلَّتِنا لا نَخْتارُ على أختيارِهم ؛ ولا نَتَمَيَّزُ فيهم . فقال العَيّار : اِمْشِ أيُّها القاضي في سِتر الله ؛ مِثْلُكَ من تَعَصَّبَ للجيران .

فقال الوزير — أحْسَنَ اللهُ تَوفيقَه — هٰـذا كلُّهُ تعصُّبٌ وهَوًى وتَمَاحُكٌ[(١)] وتكلُّفٌ . قِيل : هٰذا وإنْ كانَ هكذا فهو داخلٌ فيما عَدَاهُ مِنْ حَديث الدِّين والمَذْهَبِ والصِّناعَةِ والبَلَد .

قال أبو سليمان : ولمصلحةٍ عامّةٍ نُهِيَ عن المِراء والجدَل [في الدِّين] على عادة المتكلّمين ، الذين يزعمون أنّهم يَنصُرُونَ الدّين[(٢)] ، وهمْ في غايةِ العَداوَةِ

---

(١) في (ا) « وتماسك » ؛ وهو تحريف .
(٢) في (ب) « الجدل » مكان « الدين » ؛ وهو خطأ من الناسخ .

للإسلامِ والمُسلِمين ، وأبْعَدُ الناسِ من الطُّمَأنينة واليَقِين .

ثم حدّث فقال :

اجتمعَ رَجُلان : أحدهما يقول بقَوْلِ هِشام ، والآخَرُ يَقُولُ بقَوْل الجوَاليقيّ ؛ فقال صاحِبُ الجَوَاليقيّ لصاحب هشام : صِفْ لِي رَبَّكَ الّذى تَعْبُده ، فوَصَفَه بأنّه لا يَدَ له ولا جارِحةَ ولا آلةَ ولا لِسان ، فقال الجواليقيّ : أيسرُّكَ أنْ يكون لكَ وَلَدٌ بهذا الوصف ! قال : لا ، قال : أمَا تَسْتَحِى أن تصفَ رَبَّك بصفةٍ لا تَرْضاهَا لوَلدِكَ ! فقال صاحبُ هِشام : إنّكَ قد سَمِعْتَ ما تَقُول ، صِفْ لى أنتَ رَبَّكَ ؛ فقال : إنّه جَعْدٌ قَطط فى أتمّ القامات وأحْسَن الصُّوَر والقَوام . فقال صاحب هِشام[1] : أيسُرُّكَ أنْ تكونَ لكَ جاريةٌ بهذه الصِّفة تَطَؤُها ؟ ! قال : نعم ، قال : أفما تستحى من عبادة من تُحِبُّ مُباضَعَةَ مِثلِه ! ! وذلك لأنّ مَنْ أحَبَّ مُباضَعَتَه فقد أوْقَعَ الشَّهْوَةَ عليه .

فقال : هذا من شؤم الكلام ونكد الجَدَل ، فلو كان هُناكَ دِينٌ لكان لا يَدُورُ هذا فى وَهْمٍ[2] ولا يَنْطِقُ بهِ لِسان .

وَحَكى أيضاً قال : ابْتُلِيَ غلامٌ أعْجَمىٌّ بوَجَع شديد ، فجعل يتأوّهُ ويتلوّى ويَصِيح . فقال له أبوه : يا بُنيّ اصبرْ واحْمَدِ اللهَ تعالى . فقال : ولماذا أحْمَدُه ! قال لأنه ابتَلاكَ بهذا ؛ فاشتَدَّ وَجَعُ الغُلامِ ورَفَعَ صَوْته بالتأوّه أشَدَّ مِمّا كان ، فقال له أبُوه : ولِمَ اشتدّ جَزَعُك ! فقال : كنتُ أظُنُّ أنَّ غَيْرَ اللهِ ابْتَلانى بهذا فكنتُ أرْجُوهُ أن يُعافِيَنى من هذا البلاء ويَصْرِفَه عنّى ، فأمّا إذ كانَ هوَ

(١) فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه العبارة « الجواليقى » مكان « هشام » ، وهو خطأ من الناسخ ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا . وعبارة (ب) «فقال له» ثم ذكر كلامه .

(٢) فى (ب) « فى خاطر » ، والمعنى يستقيم عليه أيضا .

الّذى أبتلانى به فمن أرْجُو أنْ يُعافِيَنى ! فالآن أشتدّ جزَعِى ، وعَظُمَتْ مُصِيبَتِى . قال : ولو عَلِمَ أنّ الّذى أبتلاه هو الذى أستَصْلَحَه بالبَلاء لِيَكُونَ إذَا وَهَب له العافيةَ شاكِرًا له عليها بحِسٍّ صَحِيحٍ وعِلْمٍ تامٍّ لكان لا يَرَى ما قالَه وتَوهَّمَه لازِمًا .

وحَكَى أيضًا أنّ رَجلاً مِن العَجَم حَجَّ وتَعَلَّقَ بأسْتارِ الكَعْبَةِ فَطَفِقَ يَدْعُو ويَقول: يا مَن خَلَق السِّباعَ الضارِيَةَ ، والهَوامَّ العادِيَةَ ، وسَلَّطها على الناس ، وضَرَبَهُمْ بالزَّمانَةِ والْعَمَى والفَقْرِ والحاجة ؛ فوَثَب الناسُ عليه وسَبُّوه وزَجَرُوه وقالوا : اُدع اللهَ بأسْمائِه الحُسْنَى . فأظْهر لهم النَّدامة ، والتَّقارف[1] فَخَلَّوْا عنه بعد ما أرادُوا الوَقِيعةَ به ، فَرَجَعَ وتَعَلَّق بأسْتارِ الكَعْبة ، وجعَلَ يُنادِى : يا مَنْ لم يَخلق السِّباعَ الضَّارِيَةَ ، ولا الهَوَامّ ، ولا سلَّطها على النَّاس ، ولمْ يَضرِب الناسَ بالأوْجاع والأسْقام . فوثبوا [عليه] أيضاً وقالوا له : لا تَقُلْ هٰذا فإنّ اللهَ خالقُ كلِّ شىء ؛ فقال : ما أدْرِى كيفَ أعمل ؟ إنْ قلتُ : إنّ اللهَ خالقُ هٰذه الأشياء وَثَبْتم علىّ ؛ وإن قلتُ : [إنّ اللهَ] لم يَخْلُقْها وثَبْتم عَلَىّ . فقالوا : هٰذا يَنْبَغى أنْ تَعلَمه بقَلْبِك ولا تَدْعُ اللهَ به .

قال أبو سُلَيْمان : وهذَا أيضاً مِن شُؤْم الكلامِ وشُبَه المُتَكلِّمِين الّذِين يَقُولون : لا يَجُوزُ[2] أنْ يُعتَقَدَ شىء بالتقليد ، ولا بُدَّ مِن دليل ، ثم يُدَلِّلونَ ويَخْتَلِفُون ، ثم يَرْجِعُون إلى القَوْل بأنّ الأدِلّةَ مُتَكافِئة .

وكان ابنُ البَقّال يَجْهَر بهذا القول ، فقلتُ له مرّةً : لِمَ مِلْتَ إلى هذا المَذْهب ؟ فقال : لِأنّى وَجَدْتُ الأدِلّةَ مُتدافِعَةً فى أنْفُسها ، ورأيتُ أصحابَها

(١) عبارة (ا) «وفارق بحلوا عنه» ؛ وهو تحريف . والتقارف : التقارب والمداناة .

(٢) كذا فى (ا) والذى فى (ب) « لا يجب » . ولعلها محرفة عن « لا يُحِبُّ » بالبناء للمجهول .

يُزَخرِفُونها ويُمَوِّهُونها لتُقْبَلَ منهم ، وكانُوا كأصحابِ الزُّيُوفِ الّذِين يَغشُّون النَّقْدَ لِيَنْفقَ عِندَهم ، وتدور المُغالَطةُ[١] بينهم . فقلتُ له : أَمَا تَعرِفُ بأنَّ الحقَّ حَقّ والباطِلَ باطل ؟ قال : بلى ، ولكن لا يَتَبيَّن[٢] أحدُهُما من الآخر . قلتُ : أَفَلأنه لا يتبيّن لك الحقُّ مِنَ الباطِلِ تَعتَقِد أنّ الحقَّ باطِل وأنّ الباطلَ حقّ ؟ قال : لاَ أَجيء إلى حقّ أعرِفهُ بعَيْنِه فأعتقِد أنّه باطل ، ولا أجيء أيضاً إلى باطل أعرِفهُ بعَيْنِه فأَعتَقِد أنه حَقّ ، ولكنْ لمّا الْتَبَس الحقُّ بالباطِلِ والباطِلُ بالحق قُلتُ : إنّ الأدِلّة عليهما ولهما متكافئة ، وإنها مَوقُوفَةٌ على حِذْقِ الحاذِق فى نُصْرَتِه ، وضَعْفِ الضَّعِيفِ فى الذّبِّ عنه . قلتُ فكأنّك قد رَجعْتَ عن اعترافِكَ بالحَقّ أنّه حَقّ ، وبالباطِلِ أنّه باطِل . قال : ما رَجعْتُ . قلتُ فكأنّك تَدّعى الحَقَّ حقًّا جُمْلَةً والباطلَ باطِلاً جُمْلَةً من غيرِ أنْ تُمَيِّزَ بالتفصِيل . قال : كذا هو . قلتُ : فما نَفْعُكَ[٣] بالاعتراف بالحقّ وأنّه مُتَمَيِّزٌ عن الباطل فى الأصل ، وأنت لا تميِّزُ بينهما فى التفصِيلِ ؟ قال : والله ما أدْرِى ما نَفْعى منه . قلتُ فلِمَ لاَ تَقُول : الرأىُ أن أقفَ فلا أحكُمَ على الأدِلّة بالتّكافؤ ، لأنّ الباطلَ لا يُقاوِمُ الحقّ ، والحقّ لا يتَشَبَّه بالباطل ، إلى أن يَفتَحَ اللهُ بَصَرِى فأرَى الحقّ حقًّا فى التفصِيل ، والباطلَ باطِلاً على التّحصيل ، كما رأيتَهما فى الجُمْلة ، وأنّ الّذِى فتَح بَصَرى على ذلك فى الأوّلِ هوَ الّذى غَضّ بَصَرِى عنه فى الثانى ؟ قال : يَنْبَغى أنْ أنظُرَ فيما قلتَ . فقلتُ : انظُرْ إنْ كانَ لك نَظَر ، ولا تَتَكلَّف النّظرَ ما دامَ بكَ عَمًى أوْ عَشًا أو رَمَد .

(١) كذ فى (ا) والذى فى (ب) « المعاملة » .
(٢) فى كلتا النسختين « يبين » بسقوط « لا » ؛ والصواب ما أثبتنا كما يؤخذ مما يأتى بعد .
(٣) فى (ا) « نفعل » ؛ وهو تحريف .

وحكى لنا أبو سليمان قال : وصَف لنا بعضُ النَّصارَى الجَنَّةَ فقال : ليس فيها أكْلٌ ولا شُرْبٌ ولا نِكاح . فسَمِعَ ذلك بعضُ المتكلِّمين فقال : ما تصف إلاّ الحُزْنَ والأسَفَ والبَلاء .

وقال أبو عيسى الورّاق — وكان مِن حُذّاق المتكلِّمين — إنّ الآمر بما يَعلمُ أنّ المأمور لا يَفعَلُه سَفيه ، وقد عَلِم اللهُ مِن الكفّار أنّهم لا يؤمنون ، فليسَ لأمْرِهِمْ بالإيمانِ وَجْهٌ في الحِكْمَة .

قال أبو سليمان : أنظُرْ كيف ذَهب عليه الشَّرُّ في هذه الحال ، مِنْ أيْنَ أتَوا ، وكيف لَزِمَتْهم الحجَّة .

وقال أبو عيسى أيضاً : المُعاقِبُ الّذى لا يَسْتَصْلِحُ بِعُقوبته من عاقبَه ، ولا يستَصْلحُ به غَيْره ، ولا يَشفى غيظَه بعقوبَتِه جائر ، لأنّه قد وَضَع العُقوبَةَ في غير مَوْضِعها . قال : لأنّ الله تعالَى لا يَسْتَصْلِحُ أهْلَ النار ولا غيرَهم ، ولا يَشْفِي غَيْظَه بعُقوبَتِهم ، فليس للعُقوبَةِ وَجْهٌ في الحِكْمَة . هذا غَرَضُ كِتابِهِ الّذى نَسَبَه إلى الغَرِيب المَشرِقِ .

وقال أبو سَعِيد الحَضْرَمىّ — وكان من حُذاقِ المُتَكلِّمين ببَغْداد ، وهو الذى تَظاهَرَ بالقَوْل بتكافُؤ الأدلّة — إنْ كانَ الله عَدْلاً كريماً جَوَاداً عَليماً رَءوفاً رَحيماً فإنّه سَيُصَيِّرُ جميعَ خَلقِه إلى جَنّته ، وذلك أنّهم جميعاً على اختِلافهم يَجتهدُون في طَلب مَرْضَاتِه ، فَيهرُبُون مِنْ وَقْع سُخْطه بِقَدْرِ عِلْمِهِمْ وَمَبْلغ عُقولهم ، وَإنّما تَرَكُوا اتّباعَ أمرِه لأنّهم خُدِعُوا ، وزُيِّنَ لهم الباطِلُ باسمِ الحقِّ ؛ ومَثَلُهم في ذلك مَثَلُ رَجُل حَمَلَ هَديّةً إلى مَلِك ، فعَرَض له في الطريقِ قومٌ شأنُهم الخِداعُ والمَكْرُ والاستِلال[1] ، فنَصَبوا له رَجُلا ، وسمّوْه باسمِ الملك

(١) في (ا) «والاسترلال» وفي (ب) «والاسترسال» ؛ وهو تحريف في كلتا النسختين.

الذي كان قَصَدَه ، فسَلَّمَ المدية إليهم ؛ فالملكُ الّذي قَصَده إنْ كان كريماً فإنّه يَعْذِرُه ويَرْحَمُهُ ويَزِيدُ في كرامتِه وبِرِّه حِينَ يقِفُ على قِصَّتِه ، وهذا أَوْلَى به مِنْ أنْ يَغضَبَ عليه ويُعاقبه .

وقال أبو سليمان : ذكروا أنّ رَجُلاً رَأى قوماً يتَنَاظَرُون ، فجَلَسَ إليهم فرآهم مُخْتَلِفِين ، فأقبَلَ على رَجُل منهم فقال : أتُلْزِمُني أنْ أقولَ بقَوْلِكَ وأنَا لا أعلمُ أنّك مُحِقٌّ ؟ فإنْ قلتَ : نَعَم ، قلتُ لك : إنّ بعضَ جُلَسائك يدعوني إلى مخالَفَتِك واتِّباعِه ، وليس عِندي عِلْمٌ بالمُحِقِّ منكم ؛ وإن ألزَمْتَني أنْ أتْبعَ كلَّكُم فهٰذا مُحال ، وإن قلت : لا يَلزَمُكَ أنْ تتّبِعَني ولا غَيْرِي إلّا بَعْدَ العلم بالمُحِقِّ منكم ، لم يَخْلُ العلمُ بذٰلك مِنْ أنْ يكون فِعْلي أو فِعْلَ غيري ، فإنْ كان العلمُ فِعْلا لِغَيْرِي فقد صِرْتُ مُضْطَرًّا ، ولا أسْتَوْجِبُ عليه حمداً ولا ذمًّا [وإن كان الفعل لي] فمَنْ أعظَمُ جَهالَةً ممّن يَفعل ما يَلْزَمُه الأمرُ والنهْي به ، وإنْ قَصَّرَ صَيَّرَه ذٰلك إلى العَطَب والهَلاك ، مع أنّ هٰذا القَوْلَ يُؤَدِّي إلى أنْ أكُونَ أنا المُعْتَرِضُ على نَفْسي ، لأنه إنما يَلْزَمُني ذٰلك إذا عَلِمْتُ أنّي أقْدِرُ أنْ أعْلَمَ وألّا أعْلَم .

وحَكَى لنا أيضاً قال : سئل عندنا رَجُلٌ مِن المتحَيِّرِينَ بسِجِسْتَان فقِيل له : [ما دليلك على صحّة مقالتك ؟ فقال لا دليل ولا حجّة . فقيل له] وما الّذي أحْوَجَكَ إلى هـذا ؟ قال : لأنّي رأيتُ الدليلَ لا يكون إلّا مِنْ وُجُوهٍ ثلاثة : إمّا مِنْ طَرِيق النبوّةِ والآيات ، فإن كان إنما يَثبت من هذه الجهة فلم أشاهد شيئاً من ذلك ثبتت عندي مقالته .

وإما أن يكون يثبت بالكلام والقياس فإن كان إنما يثبت بذلك فقد

رأيتنى مَرَّةً أَخْصِمُ وَمَرَّةً أُخْصَم ، ورأيتُنِي أَعجزُ عن الحجّة فأجدُها عند غَيْرِى ، وأَتَنَبَّهُ إليها مِن تِلقاءِ نَفْسِي بعد ذلك ، فيَصِحُّ عِنْدِى ما كانَ باطِلاً ، ويَفْسُدُ عِنْدِي ما كان صحيحاً ؛ فلمّا كان هذا الوَصْفُ على ما وَصَفْتُ لم يكن لى أن أقضى لشىء بصحّةٍ من هذه الجهة ، ولا أقضِىَ على شىء بفَسادٍ لعدَمِ الحجّة .

وإمّا أن تكون ثبتَتْ بالأخبارِ عن الكُتُب فلم أَجِدْ أهلَ مِلّةٍ أَوْلَى بذلك مِنْ غيرهم ، ولم أَجِدْ إلى تَصْدِيقِ كلِّهم سبيلاً . وكان تَصْدِيقُ الفِرْقَةِ الواحدةِ دُونَ ما سِواها جَوْرًا ، لأنّ الفِرَق مُتَساوِيةٌ فى الدَّعْوَى والحُجّةِ والذَّبِّ والنُّصْرَة . فقيل له : فلِمَ تَدِينُ بدِينِك هذا الذى أنتَ على شِعارِه وحِلْيَتِه ، وهَدْيِه وهَيْئَتِه ؟

فقال : لأنّ له حرمةً ليسَتْ لغَيْرِه ، وذاك أَنِّى وُلِدْتُ فيه ، ونَشَأْت عليه ، وتَشَرَّبْتُ حَلاوَتَه ، وأَلِفْتُ عادَةَ أَهْلِه ، فكان مَثَلِي كمَثَل رَجُلٍ دَخَل خاناً يستظلُّ فيه ساعةً مِنْ نَهار وَالسَّماء مُصْحِيَةٌ ، فأدخله صاحب الخان بيتاً من البيوتِ من غير تَخَبُّرٍ ولا مَعرفَةٍ بصَلاحِه ، فبينا هو كذلك إذْ نَشَأَتْ سحابةٌ فمَطَرَتْ جَوْدًا ، وَوَكَفَ البَيْتُ ، فنَظَرَ إلى البُيوتِ التى فى الفُنْدُق فرآها أيضاً تَكِفُ ، ورأى فى صَحْنِ الدّارِ رَدْغَة ، ففكّرَ أنْ يُقِيمَ مَكانَه ولا يَنْتَقِلُ إلى بَيْتٍ [آخر] ويَرْبَحَ الرّاحةَ ، ولا يُلَطِّخ رِجْلَيْه بالرَّدْغَة والوَحَلِ اللّذَيْنِ فى الصَّحْن ؛ ومالَ إلى الصَّبْرِ فى بَيْتِه ، والمُقام على ما هُوَ عليه ، وكان هذا مَثَلى ، وُلِدْتُ ولا عَقْلَ لى ، ثم أَدْخَلَنى أبَوَاىَ فى هذا الدِّينِ مِن غَيْرِ خِبْرَةٍ مِنِّى ، فلمّا فتّشْتُ عنه رَأيْتُ سَبيلَه سَبِيلَ غَيْرِه ، ورَأيتُنى فى صَبْرِى

عليه أعزّ مِنّى فى تركه ، إذ كنتُ لا أدَعُه وأميلُ إلى غَيْره إلاّ باختيار مِنّى لذلك ، وأثَرَة له عليه ؛ ولَسْتُ أجِدُ له حُجّةً إلاّ وأجِدُ لغَيْره عليه مِثْلَها .

وحَكَى لنا ابنُ البقّال — وكان مِنْ دُهاةِ الناسِ — قال : قال ابن الهَيْثم : جُمِع بَيْنى وبَيْنَ عُثمانَ بنِ خالد ، فقال لى : أُحِبُّ أنْ أُناظِرَك فى الإمامة ؛ فقلتُ : إنّكَ لا تُناظِرُنى ، وإنّما تُشيرُ عَلَيّ ؛ فقال : ما أَفْعَلُ ذلك ، ولا هذا مَوْضِعُ مَشُورة ، وإنما اجتَمعْنا للمناظَرة ؛ فقلتُ له : فإنّا قد أجْمَعْنا على أنّ أوْلَى الناسِ بالإمامة أفضَلُهم ، وقد سَبَقَنا القومُ الذين يتَنازَعُ فى فَضْلِهم ، وإنما يُعْرَفُ فَضْلُهم بالنَّقْلِ والخَبَر ؛ فإنْ أحْبَبْتَ سَلَّمْتُ لك ما تَرْوِيه أنتَ وأهْلُ مَذْهَبِكَ فى صاحِبِك ، وتُسَلِّمُ لِى ما أرْوِيه أنا وفِرْقَتِى فى صاحِبِى ، ثم أناظِرُكَ فى أىّ الفَضائل أعْلى وأشرَف ؛ قال : لا أريد هذا ، وذاكَ أنى أرْوِى مع أصحابى أنّ صاحبى رَجُلٌ مِنَ المسلمين يُصيبُ ويُخطِئُ ، ويَعْلَمُ ويَجْهَل ؛ وأنت تقولُ فى صاحبك : إنّه مَعْصومٌ من الخطأ ، عالِمٌ بما يحتاج إليه . فكيفَ أرْضَى هذه الجُملة ؟ قلت : فأَقْبَلُ كلَّ شىء تَرْوِيه أنت وأصحابُكَ فى صاحبى مِن حَمْدٍ أو ذَمّ ، وتَقْبَلُ أنت كلَّ شىء أرْوِيه أنا وأصحابى فى صاحِبِك من حَمْدٍ أو ذَمّ ؛ قال : هذا أقْبَحُ من الأوّل ، وذلك أنى وأصحابى نَرْوِى أنّ صاحِبك مؤمنٌ خَيِّرٌ فاضِل ، وأنت وأصحابُك تَرْوُون أنّ صاحبى كافرٌ مُنافِق ؛ فكيف أقْبَلُ هذا منك وأناظِرُك عليه ؟

قال ابن الهيثم : فلم يَبْقَ إلاّ أن أقول : دَعْ قَوْلَكَ وقولَ أصحابِكَ ، واْقبلْ قولى وقولَ أصحابى ؛ قال : ما هو إلاّ ذاك ؛ قلت : هذه مَشُورَة ، ولَيْسَت مناظَرَة . قال : صَدَقْتَ .

وحَكَى لنا الزُّهَيْرِىُّ قال : سأَلَ رَجلٌ آخَرَ فقال : أتقولُ إنَّ اللهَ نَهانا أنْ نعبُدَ إلٰهَيْنِ ؟ قال : نعم ؛ قال : [وأمَرَنا أنْ نَعْبُدَ إلٰهًا واحداً ؟ قال :] نعم ؛ قال : فالاثنان اللّذان نَهانا عن عِبادَتِهما مَعْقولان هكذا ؟ وأشار بإصْبَعَيْه ، قال : نعم ؛ قال : فالواحِدُ الذى أمَرَنا بعِبادتِه مَعْقولٌ هكذا ؟ وأشار بإصبع واحدة ؛ قال : لا ؛ قال : فقد نهانا عمَّا يُعقَل وأمَرَنا بما لا يُعقَل ، وهذا يُعلَمُ ما فيه فانظُرْ حَسَنًا .

وحَكَى لنا الزُّهَيْرِىُّ قال : حَدَّثَنا ابنُ الأخْشادِ قال : تَناظَرَ رَجلانِ فى وَصْفِ البارِى سُبْحانَه ، واشتَدَّ بَيْنَهُما الجدال ، فتَراضَيا بأوَّلِ مَن يَطْلُعُ عليهما ويَحْكُمُ بَيْنَهُما ، فطَلَعَ أعرابىٌّ ، فأجلَساه وقَصَّا قِصَّتَهُما ، ووَصَفا له مَذْهَبَيْهِما ؛ فقال الأعرابىُّ لأحَدِهما — وكان مُشَبِّهًا — : أمَّا أنتَ فتَصِفُ صَنَمًا ، وقال للثانى : وأمَّا أنتَ فتَصِف عَدَمًا ، وكِلاكُما تَقُولان عَلَى اللهِ ما لم تَعلَما .

وقال لنا الأنصارىُّ أبو كَعْب : قال أبنُ الطحَّان الضَّرِيرَ البَصْرِىَّ — وكان يَقولُ بقَوْلِ جَهم — : إذا كان يوم القِيامة بَدّل اللهُ سَيِّئاتِ المؤمِنين حَسَنات ، فيَنْدَمُون عَلَى ما قَصَّرُوا فيه من تَناوُل اللّذّاتِ ، وقَضاء الأوْطار بالشَّهَوَات ؛ لأنهم كانوا يتَوقَّعون العِقاب ، فنالوا الثَّواب ؛ وكان يَتلو عند هذا الحديث قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ : (فَأُولٰئِكَ يُبَدِّلُ اللّٰهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) .

وحَكَى لنا ابنُ الثّلاّج قال ، قال أبو عُثمانَ الآدَمِىُّ : إنَّ الجَنّةَ لا ساتِرَ فيها ، وذلك لأنَّ كلَّ ساتِرٍ مانِع ، وكلَّ مانِعٍ آفَة ، وليستْ فى الجَنّة آفَة ، ولهٰذا رُوِىَ فى الحديث : إنَّ الحُورَ يُرَى مُخُّ ساقِها مِنْ وَراء سبْعين حُلّةً

سِوَى ما تَحْتَ ذلك من اللّحم والعَظْم ، كالسِّلْكِ في الياقوت ؛ فقال له قائل : الجَنّةُ إذًا أَوْلَى مِنَ الحمّام ، إذ قيل : بئسَ البَيْتُ الحمّام ، يُذْهِبُ الحياء ، ويُبْدِي العَوْرَة .

وحَكَى لنا ابنُ رَبَاطٍ الكوفيُّ — وكان رئيسَ الشِّيعةِ ببَغدادَ ، ولم أَرَ أَنْطَقَ منه — قال : قيل لأميرِ المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب — عليه السلام — مِنْ أَيْنَ جاء اختلافُ النّاسِ في الحديث ؟ فقال : الناسُ أَرْبعة : رَجُلٌ مُنافِقٌ كَذَبَ عَلَى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم متعمِّدًا ، فلو عُلِمَ أنّه مُنافِقٌ ما صُدِّقَ[1] ولا أُخِذَ عنه . ورجل سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولاً أو رآه يفعل فعلاً ثم غاب ونُسِخ ذلك من قوله أو فعله ، فلو علم أنّه نُسِخ ما حَدَّثَ ولا عَمِلَ به ولو عَلِمَ الناسُ أنّه نُسِخ ما قَبِلوا منه ولا أَخَذُوا عَنْه ورَجُلٌ سَمِع رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقول قولاً فوَهِمَ فيه ، فلو عَلِمَ أنّه وَهِمَ ما حَدَّثَ ولا عمل به . ورجلٌ لم يَكْذِبْ ولم يَهِمْ ، وشَهِدَ ولم يَغِبْ .

قال : وإنما دَلَّ بهذا عَلَى نَفْسِه ، ولهذا قال : كنتُ إذا سُئِلتُ أَجَبْتُ ، وإذا سَكَتُّ ابْتُدِئْتُ .

وحَكَى لنا ابن زُرْعَةَ النّصرانيُّ قال : قيل للمسيح : ما بالُ الرّجلين يَسْمَعان الحقّ فيَقْبَلُه أحدُهما ولا يَقْبَلُه الآخَرُ ؟ فقال : مَثَلُ ذلك مَثَلُ الرّاعي الذي يصوِّت بغَنَمِه فتأْتيه هذه الشاةُ بندائه ، ولا تأتيه هذه .

قال أبو سليمان : هذا جوابٌ مَبْتور ، وليس له سَنَن ، ولعلّ الترجمة قد

(١) كذا في (ب) . والذي في (١) : « ما حدث » .

حافت عليه ، والمعنى انحرف عن الغاية ؛ وليس يَجُوز أن يكون حال الإنسان كيف كان ، حالَ الشاةِ فى إجابةِ الداعى و إبائها[١] ، فإنّ له دَواعِيَ ومَوانعَ عقليّةً [وحِسِّيّة] .

فقال الوزير : هذا أيضاً بابٌ قد مَضى مُستَوْفًى ، ما الذى سمعتَ اليوم ؟ فقلتُ : رأيت ابن برمويه فى دَعْوَة ، وتَرَامَى الحديث فقال : رأيتُ اليومَ الوزيرَ شديدَ العُبوس ، أهُوَ هكذا أبداً ، أم عرَضَ له هذا عَلَى بَخْتى ؟ فقال ابنُ جَبَلة : لعلّه كان ذاك لسبَب ، وإلاّ فالبِشرُ غالبٌ عَلَى وَجْهه ، والبَشاشةُ مألوفةٌ منه . فقال ابن برمويه : ما أحْسَنَ ما قال الشاعر :

أخو البِشْرِ محمودٌ عَلَى حُسْنِ بِشرِهِ ولن يَعْدَمَ البَغضاء مَن كان عابسا

فقال عليُّ بنُ محمد — رسولُ سِجِستان — : ما أدرِى ما أنتُما فيه ، ولـكن يقال : ما أُرْضى الغَضْبان ، ولا اُستعطِفَ السلطان ، ولا مَلَكَ الإخوان ؛ ولا استُلَّت الشَّحْناء ، ولا رُفِعت البَغضاء ؛ ولا تُوقِّى المحذور ، ولا اجتُلِبَ السرور ؛ بمثل البِشر والبِرّ ، والهَديّةِ والعَطيّة .

وقال الوزير : هاتِ مُلْحَةَ المجلس[٢] .

فـكان الجوابُ : قال أبو همّام ذاتَ يوم : لو كان النخلُ لا يَحمِلُ بعضُه إلاّ الرُّطَب ، وبَعضُه [إلاّ] البُسْر ، و بعضُه إلاّ الخلاَل[٣] ، وكنّا متى

(١) كذا فى (ا) . والذى فى (ب) : « وإتيانه » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى (ب) : « الوداع » مكان قوله : « المجلس » .
(٣) الخلال بفتح الخاء : البسر إذا اخضر واستدار .

تناوَلْنا مِنَ الشِّمْراخ بُسْرَةً خَلَقَ اللهُ مَكانَها بُسْرَتَين ، ما كان بذلك بأس .

ثم قال : أستغفرُ اللهَ ، لو كنتُ تمنَّيتُ بَدَلَ نَوَاةِ التَّمر زُبْدَةً كان أصْوَب .

وسأَلَ الوزيرُ : هل يقال فى النساء رَجُلَة ؟ (٣)

فكان الجواب : حدَّثنا أبو سَعِيد السِّيرافىُّ قال : كان يقال فى عائشةَ بنتِ أبى بكرٍ الصِّدِّيقِ [رضى الله عنهما] : « كَانت رَجُلَةَ العَرَب » ، وإنما ضاعَتْ هذه الصِّفَةُ عَلَى مَرِّ الأيام بغَلَبةِ العُجْمان ؛ فقال : إنَّها واللهِ لكذلك ، ولقد سمعتُ مَن يقول : كان يُقال : لو كان لأبيها ذَكَرٌ مِثلُها لما خَرَجَ الأمرُ منه .

قال : هل تَحفَظُ مِن كلامِها شيئاً ؟ فقلتُ : لها كلامٌ كثيرٌ فى الشريعة ، والرِّوايةُ عنها شائعةٌ فى الأحكام ، ولقد نَطَقَتْ بعد مَوْتِ أبيها بما حُفِظ وأُذيع ، لكنِّى أحْفَظُ لها ما قالتْهُ لمَّا قُتِلَ عثمان :

خرجَتْ والناسُ مُجتمِعون ، وعلىٌّ فيهم ، فقالت : أَقُتِلَ أميرُ المؤمنين عثمان ؟ قالوا : نعم ، قالت : أَمَا واللهِ لقد كنتُم إلى تَسْديد الحقِّ وتأكيده أحوَجَ مِنكم إلى ما نَهَضْتُمْ إليه ، مِن طاعةِ مَن خالَفَ عليه ؛ ولكنْ كلَّما زادَكم اللهُ صِحةً فى دِينِه ، ازْدَدْتُمْ تثاقُلاً عن نُصْرَتِهِ طَمَعًا فى دُنياكم ، أَمَا واللهِ لَهَدْمُ النِّعْمَةِ أيْسَرُ من بُنْيانِها ، وما الزِّيادةُ إليكم بالشُّكر ، بأَسْرَعَ مِن زَوَالِ النعمةِ عنكم بالكُفْر ؛ أما لئن كان فَنِيَ أُكُلُه ، واختُرِمَ أجَلُه ، إنَّه لِصِهْرُ رسولِ الله صلى الله عليه وعَلَى آله وسلم مرَّتين ، وما عَلِمْنا [خَلْقًا] . تزوَّج ابْنَتَىْ نَبِىٍّ غَيْرَه ؛ ولو غَيْرَ أيْدِيكم قَرَعَتْ صفاتَه لوُجِد عند تَلَظِّى

الحربِ متجرِّدًا[(١)] ، ولِسُيوفِ النَّصْرِ متقلّدًا ، ولـكنّها فِتْنةٌ قُدِحَتْ بأيْدِى الظَّلَمَة ؛ أمَا واللهِ لقد حاطَ الإسلامَ وأَكَّدَه ، وعَضَّدَ الدِّينَ وأيَّدَه ؛ ولقد هدَم اللهُ به صَيَاصِىَ أهلِ الشِّرْك ، ووَقَمَ[(٢)] أركانَ الـكُفْر ؛ للهِ المُصِيبَةُ به ، ما أفْجَعَها ! والفَجِيعَةُ به ما أوْجَعَها ! صَدَّعَ واللهِ مَقْتَلُه صَفاةَ الدِّين ، وثَلَمَتْ مصيبَتُه ذِرْوَةَ الإسلام ، تبًّا لقاتِلِه ، أعاذَنا اللهُ وإياكم مِنَ التلبُّسِ بدَمِه ، والرِّضا بقَتْلِه .

فقال الوزير : ما أفْصَحَ لسانَها ، وأشْجَعَ جَنَانَها ، فى ذلك المحْفِل الذى يَتَبَلْبَلُ فيه كلُّ قُلْقُل[(٣)] !

ورَوَيْتُ أيضاً أنّها قالت : مَكارِمُ الأخلاق عَشر : صِدْقُ الحديث ، وصِدْقُ البأس[(٤)] ، وأداء الأمانة ، وصِلَةُ الرَّحِم ، وبَذْلُ المَعْرُوف ، والتَّذَمُّمُ للجار ، والتَّذَمُّمُ للصَّاحب ، والمُـكافأَةُ بالصَّنائِع ، وقِرَى الضَّيْف ، ورأسُهُنَّ الحياء .

فقال : واللهِ لـكأنَّها نَغَماتُ النبى صلى الله عليه وسلّم ، ما كان أشْهَمَها ، وأعْلَى نظَرَها ، وأبْيَنَ جوَابَها !!

(٤) وحدَّثنى أنَّ امرأةً تَظَلَّمَتْ إلى مسلِم بن قُتَيْبَة بخُراسان ، فزَبَرَها ، ولم يَنظُرْ فى قِصَّتِها ؛ فقالت له : إنَّ أميرَ المؤمنين بَعَثَكَ إلى خُراسانَ لِتَنْظُرَ هل تَثْبُتُ خُراسانُ بلا عاملٍ أم لا ؛ فقال لها مسلِم : اسكتى وَيْلَكِ ، فظلامَتُكِ مَسْموعة ، وحاجَتُكِ مَقْضِيَّة .

(١) فى (ا) : « متحركا » ؛ وهو تحريف .
(٢) وقم أركان الـكفر : كسرها وأذلّها .
(٣) القلقل : السريع الخفيف المعوان .
(٤) فى (ا) : « الناس » بالنون . ووردت هذه الـكلمة فى (ب) لا نقط فيها . ولعل الصواب ما أثبتنا .

وقال مسلم : ما وَخَزَ قلبي قطّ شيء مِثْلُ قَوْلِ هذه المرأة ، ولقد آليت الاّ أستهينَ بأحَدٍ من ذَ كَرٍ أو أنثى .

وشبيهٌ بهـذا قول المُعَلَّى بن أيُّوبَ : رأيْتُ فى دارِ المأمون إنسـانًا فازْدَرَيْتُه ، فقلتُ : لأيِّ شيء تَصْلُحُ أنت ؟ عَلَى غَيْظٍ مِنِّى وتَغَضُّب ؛ فقال : أنا أصْلُحُ لِأَنْ يقالَ لى : هل يَصْلُحُ مِثْلُكَ لِما أنْتَ فيه أوْ لا . قال : فوَاللهِ ما وَقَرَتْ كَلِمَتُهُ فى أُذُنى حتّى أظْلَمَ عَلَيَّ الجَوُّ ونَـكِرْتُ نَفْسِي .

وكان عَبْدُ المَلِكِ بنُ مرْوَانَ إذا كان له خَصِيٌّ وَضِيءٌ أمَرَ أنْ يُحْجَبَ عن نِسائه ، وقال : هو رَجلٌ وإنْ قُطِـعَ منه ما قُطع ، وربّما اجتزأتِ امرأةٌ بمِثْلِها ، وللعَيْنِ حظُّها .

قال عبد الرحمن بنُ سعيد القرشيّ : كان لهِشام بنِ عبدِ الملك خَصِيٌّ يقال له خالد ، وكان وَضِيئًا تأخُذُه العين ، مديدَ القامة ، فخمًا أبيَضَ ، فأمرَ هشامٌ مَسْلَمَـةَ بالغُدُوِّ عليه ، فغَدَا ، فقيل : اسْتَأْذِنْ لأخى أميرِ المؤمنين عليه ، فاستَخَفَّ وقال كلمةً سَمِعَها مَسْلَمَةُ ، فحَقَدَها عليه ، فلمّا دخل مَسْلَمَةُ إلى هشام لم يَزَلْ يُبذا كِرُه شيئًا ، ويُشِيرُ عليه حتى حُطَّ عن فُرُشِه وجلَسَا عَلَى البِساط ومَسْلَمَةُ فى ذلك يَرْمُقُ الخَصيَّ مَتَى يَمُرُّ به ، فلم يَلْبَثْ أنْ مرَّ مُعَمَّمًا بعِمامَةٍ وَشْى ؛ فقال مَسْلَمة : يا أميرَ المؤمنين ، أىُّ فِتيانِنا هذا ؟ قال : غَفَرَ اللهُ لكَ يا أبا سَعْد ، هذا خالد الخَصِيّ ؛ قال ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، لَضَمَّةٌ مِن هذا خيرٌ من مُجَامَعَةِ رَجل ، فقَلِقَ هِشامٌ وجعل يَتَضَوَّر حتى قام مَسْلَمة ، ثم أمَرَ بالخادِمِ فأُخرِجَ من الرُّصافة ، فاتَّصَل ببعض بَنِيه ، فـكتب إليه هِشام ، إنى نحَّيْتُه لِما بَلَغَكَ ، فجفاه ، فلَحِقَ الخادمُ بالثَّغْرِ .

(٥) وجرى حديثُ النَّفسِ وأنّها كيف تعلَمُ الأشياء ، فقيل : النَّفسُ في الأصلِ علاَّمة ، والعِلمُ صُورتُها ؛ لكنّها لما لابَسَتِ البدَن ، وصار البدَنُ بها إنساناً ، اعترضَتْ حُجُبٌ بينها وبينَ صُورتِها كثيفةٌ ولطيفَة ، فصارت تَخرِقُ الحُجُبَ بكلٍّ ما استطاعَتْ لتَصِل إلى ما لها من غَيْبِها ، فصارت تعلَمُ الماضيَ بالاستِخبارِ والتّعرُّف والبحْثِ والمسْئلَةِ والتّنقِير ، وتعلَمُ الآتيَ بالتّلقّي والتوكُّفِ والتّبشيرِ والإنذار ، وتعلَمُ الحاضرَ بالتعارُفِ[١] والمُشاهَدَةِ ومَجالِ الحِسّ ؛ وهذه المَعلوماتُ كلُّها زمانيّة ، ولهذا انقسَم بين الماضي والآتي والحاضر .

فأمّا ما هو فَوْقَ الزمان فإنّها تعلَمُه بالمصادَفَةِ الخارِجَةِ من الزَّمان ، العاليةِ عَلَى حَصْرِ[٢] الدَّهر ، وهذه عبارةٌ عن وِجدانِها ، لِما لها في غَيْبِها بالحرَكة اللائقة بها ، أعنِي الحركةَ التي هي في نوعِ السُّكون ، وأعْني بهذا السكون الذي هو في نَوْعِ الحرَكة ؛ ولمّا فُقِدَ الاسمُ الخاصُّ بهذا المعنى ، ولم يُعْرَف في الإِخْبارِ والاستِخبار إلاّ ما كان مألوفاً بالزّمان ، الْتَبَسَتِ العِبارةُ عنه باعتمادِ السُّكونِ فيما يُلْحَظُ منه الحرَكة ، واعتمادِ الحرَكة فيما يُلْحَظ منه السُّكون ، فصار هذا الجُزْء[٣] كأنّه ناقِضٌ ومَنْقوض ، وهذا لِجَذْب[٤] مَحلِّ الحِسّ مِنْ نَبْتِ[٥] العَقْل ، وخِصْب[٦] مَرادِ العَقْلِ بكلّ ما عَلِقَ بالمَوجُودِ الحَقّ .

---

(١) كذا وردت هذه الكلمة في الأصول ولا معنى للتعارف هنا .
(٢) في (ب) : « حصن » .
(٣) في (ب) : « الجبر » مكان قوله : « الجزء » .
(٤) في (ا) : « الجزء » مكان قوله : « الجذب » .
(٥) في (ا) : « ثبت » . وقد وردت هذه الكلمة في (ب) مهملة الحروف من النقط.
(٦) كذا في (ب) . والذى في (ا) : « وخصت مواد العقل » ؛ وما أثبتناه هو ما يقتضيه سياق الكلام.

فقال الوزير : ما أَعْلَى نَجْدَ هذا الكلام ! وما أَعْمَقَ غَوْرَه ! وإنى لأَعْذِرُ كلَّ مَن قابَلَ هـذا المَسْموعَ بالرَّدِّ ، واُعْتَرَضَ عَلَى قائله بالتَّكبُّر ؛ ولَعَمْرِى إذا تَعَايَتِ الأشياء بالأسماء والصِّفات ، وعَرَضَ العَجْزُ عن إبانتها بحقائق الألقاب ، حارَ العَقْلُ الإنسانىّ ، وحُيِّرَ الفَهْمُ الحِسّىّ ، واُستَحَال المِزاجُ البَشَرِىّ وتَهَافَتَ التركيبُ الطِّينىّ ، وقَدَّرَ النَّاظرُ فى هـذا الفنّ ، والباحثُ عن هذا المستكنّ ، أنه حالِم ، وأنّ الحُلْمَ لا ثَمَرَةَ له ، ولا جَدْوَى منه .

وهذا كلّه هكذا ما دامَ مَقيساً إلى الأمورِ القائمة[1] بشهادَةِ الإحْساس ؛ فأمّا إذا صَفَا الناظِرُ ، أَعْنِى ناظرَ العَقْلِ مِنْ قَذَى الحِسّ ، فإنَّ المطلوبَ يكونُ حاضِرًا أكْثَرَ ممّا يَكونُ غَيْرُه ظاهراً مُسْتَبانًا ؛ ولَيْسَتْ شهادَةُ العَبْدِ كشَهادَةِ المَوْلَى ، ولا نُورُ السُّهى كنُورِ القَمَر .

قال : أَنشِدْنى أبياتاً غريبةً جَزْلَةً ، فأَنشَدْتُ [لِهُدْبَةَ العُذْرِىّ] : (٦)

سَآوِى إلى خَـيْرٍ فقد فاتَنِى الصِّبَا ... وصِيحَ بَرَيْعانِ الشَّبَابِ فَنُفِّرَا
أُمـورٌ وأَلْوانٌ وحالٌ تَقَلَّبَتْ ... بنا وزَمَانٌ عُرْفُه قَدْ تَنَكَّرَا
أُصِبْنَا بما لو أَنّ سَلْمَى أَصابَهُ ... تَسَهَّلَ من أَرْكانِه ما تَوَعَّرَا
وإنْ نَنْجُ مِنْ أهوالِ ما خافَ قَوْمُنا ... عَلَيْنا فإنّ اللهَ ما شـاءَ يَسَّرَا
وإنْ غَالَنَا دَهْرٌ فقَدْ غَالَ قَبْلَنَـا ... مُلوكَ بَنِى نَصْرٍ وكِسْرَى وقَيصَرَا
وذِى نَيْرَبٍ[2] قد عابَنِى لِيَنالَنِى ... فأَعْيَا مَدَاهُ عن مَدَاىَ فأَنصَرَا

(١) فى نسخة : « الغائبة » مكان « القائمة » .
(٢) النيرب : الحقد . والذى فى (١) : « ثيرب » . وفى (ب) : « سرب » ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين .

فإنْ يكُ دَهْرٌ نالَنِى فأصـــابنِى بريْبٍ فما تُشْوِى[1] الحوادثُ مَعْشَرَا
فلَسْتُ إذا الضَّرّاء نابَتْ بِجُبَّإٍ[2] ولا جَزِعٍ إن كان دَهْرٌ تَغيَّرَا

فقيل : ما الجُبَّأُ ؟ فقال : الجَبانُ .

قال أبو سَعيد : حَكى العلماء أنَّ فلانًا جُبَّأٌ ، إذا نَكَل .

فقال : ما أمْتَنَ هذا الكلامَ ، وألْطَفَ هذا الجَدَ ! وما أبْعَدَهُ من تَلْفيقِ الضَّرُورة ، وهُجْنَةِ التكلُّف ، لولا أنَّ سامِعَه رُبَّما تَطَيَّرَ به ، وانكَسَرَ عليه .

(٧) فكان الجوابُ : قدْ مَرَّ فى الفَألِ والزَّجْرِ والطِّيَرَةِ والاْعْتِيَاف ما إذا تُحُقِّقَ لم يُعَجْ عَلَى مِثْلِ هـذا الاْستِشْمار ؛ ولعَمْرِى إنَّ المَذْكُورَ والمَسْموع إذا كان حَسَنًا وجَمِيلاً ومَحْبُوبًا ومُتَمَنًّى ، كان أخَفَّ عَلَى القَلْبِ ، وأخْلَطَ بالنَّفْس ، وأعْبَثَ بالرُّوح ؛ وكذٰلك[3] إذا كان ذٰلك عَلَى الضِّدِّ ، فإنَّهُ يكونُ أزْوَى للوَجْه ، وأكْرَبَ للنَّفْس ؛ ولكنَّ الأمورَ فى الخيراتِ والشُّرُورِ ليْسَتْ فاشية من الطِّيَرَةِ والعِيَافَةِ ، ولا جارِيةً على هـذه الحدود المعروفة ، وهى عَلَى مَقاصدِها التى هى غاياتُها ، ومُتَوَجَّهاتُها التى هى نهاياتُها ؛ وإنما هـذه الأخلاق عارضةٌ للنِّساء وأشْباهِ النساء ، ومَن بِنْيَتُه[4] ضعيفة ، ومادّتُه من العَقْل طَفِيفة ، وعادَتُه الجارِيَةُ سَخِيفة ؛ وإلاَّ فبأَىِّ بُرْهانٍ صَحَّ أنَّ الكلامَ الطَّيِّبَ يَجْلبُ المَحْبُوبَ ويكونُ عِلَّةً له ؟! وأنَّ اللَّفْظَ الخبيثَ يَجْلبُ المكرُوه ويكونُ

(١) تشوى : تخطىء .

(٢) فى (ا) : « محبيا » . وفى (ب) : « محبا » ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

(٣) كان الأولى أن يقول « ولا كذلك » أو « وليس كذلك » أو « وعكس ذلك » فإن الآتى بعد ليس كالذى ذكره قبل .

(٤) كذا فى (ب) . والذى فى (ا) : « نفسه » .

عِلَّةٌ له ؟ ! هذا خَوَرٌ فى طباعِ قائله ، وتأنُّثٌ(١) فى عُنْصُرِ مُستَشْعِرِه ؛ ولوْ سَلَكَ العُلماء والبُصَرَاء هذَا الطَّرِيقَ فى كلِّ حالٍ وفى كلِّ أمْرٍ لأدَّى ذلك إلى فسادٍ عامّ ؛ وآثَرُ(٢) ما فى هذه القصَّة أنَّ الإنسانَ إنْ أعْجَبَه شىءٌ من هذا لا يُعَوِّلُ عليه ، وإن ساء منه شىءٌ لا يَحُطّ إليه ، بل يكون تَوَكُّلُهُ عَلَى رَبِّه فى مَسَرَّتِه ومَساءته ، أَكْثَرَ مِن تفرُّدِه بحَوْلِه وقوَّتِه ، فى اختيارِه وتَكَرُّهِه ، وهذَا يَحْتاجُ إلى عَقْلٍ رَصِين ، وهِمَّةٍ(٣) صاعِدة ، وشكِيمةٍ شَدِيدة ، وليس يوجَدُ هذَا عند كلِّ أحد ، ولا يُصَابُ مع كلِّ إنسان .

فقال الوزير : قد أخذَت المسئلةُ بحقِّها ، والمُستَزِيدُ منها ظالم ، والزائد عليها متكلِّف .

(٨) وقال أيضاً : أُرِيدُ أنْ أسألك عن ابن فارسٍ أبى الفَتْح — فقد كنتَ عندَه بقَرْمِيسِين(٤) أياماً — وما وَضَحَ لك من تقدُّمه وتأخُّره فى صِناعَتِه وبضاعته ؟

فكان من الجواب : إنّه شيخٌ فيه مَحاسنُ ومَساوِئ ، إلّا أنَّ الرُّجْحانَ لما يُذَمُّ به لا لِما يُحْمَدُ عليه ، فمن ذلك أنَّ له خِبرة بالتصرُّف ، وهُناك(٥) أيضاً قِسطٌ مِنَ العِلْمِ بأوائل الهندسة ، وتَشَبُّهٌ(٦) بأصحابِ البلاغة ، ومُذَاكَرةٌ

---

(١) فى كلتا النسختين : « وثابت » ؛ وهو تحريف .

(٢) فى كلتا النسختين : « وأكثر » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

(٣) عبارة (١) : « ومدة متباعدة » مكان قوله : « وهمة صاعدة » ؛ ومعناها لايناسب سياق الكلام هنا .

(٤) قرميسين بلد قرب الدينور بين همذان وحلوان .

(٥) فى (١) : « وهذا » مكان « وهناك » ؛ وهو خطأ من الناسخ .

(٦) فى (١) : « ونسبة » ؛ وهو تحريف .

فى المحافلِ صاخِبة؛ إلّا أنّ هذا كلَّه مَرْدُودٌ بالرعونة والمَكر(١) والإيهامِ والخِسّة والكذب والغيبة؛ وقد كان قَرِينُه بقَرْمِيسِين يَظُنُّ به خَيْرًا، ويَلْحَظُه بعينٍ ما؛ فلمّا سَبَرَه ذَمّه وكَرِهَ أنْ يُعاجِلَه بالصَّرْف لئلّا يُحْكَمَ عَلَى اختيارِه بالخطأ، وعَلَى تصرُّفِه بالهَوَى. والكُبَرَاء وذَوِى القُدْرَةِ زَلّاتٌ فاحشة، وفَعَلاتٌ مُوحِشة، ولكنْ ليس لهمْ [عليها] مِعيَرٌ للخَوْف منهم؛ فلمّا تَمَادَى قليلًا وَجَّهَ أبنَ وَصِيفٍ حتى صَرَفه(٢) وقَيَّدَه [بعد ما وَبَّخَه وَفَنَّدَه] وها هو ذا ألقِىَ هٰهنا لا يُقْبَلُ بقَبْصَة(٣)، ولا يُلْتَفَتُ إليه بلَحْظَة، ومع ذلك يَظُنُّ أنّ فَقْرَ الدَّولة إلى نَظَرِه كفَقْرِ المُذْنِب إلى عافيتِه.

وله مع طاهر بن محمد بن إبراهيم شِرَار(٤) وقَبْقَبَة(٥)، وتَنْدِيد وشُنْعة.

وحدّثنى أبنُ أحمد أمسِ أنّ ابنَ فارس شارِعٌ فى أمور خبيثة، وعازِمٌ على أشياء قَبيحةٍ، ومُضَرِّبٌ بين أقوامٍ ضَمّتْهم الأُلْفَة، واستَحكمتْ بينهم الثِّقَة، وخَلَصُوا(٦) حَفَظةً للدّولة، وحَرَسًا للنِّعمة، وعَلِموا أنّ اللهَ لا يغيِّرُ ما بقومٍ حتّى يُغَيِّرُوا ما بأنفسهم، وما أخْوَفَنى على إخوانِنا الذين بهم عَذُبَ

(١) فى كلتا النسختين: «والفكر»؛ وهو تحريف.
(٢) كذا فى (ب). والذى فى (ا): «ضربة».
(٣) فى كلتا النسختين: «لا يقلب بقبضة»؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين. والقبصة: ما أخذ بأطراف الأصابع، كما سبق ذلك فى تفسير المؤلف لهذا اللفظ نقلا عن بعض اللغويين فى الجزء السابق من هذا الكتاب. ويريد بهذه العبارة أنه رخيص.
(٤) شرار، أى مشارّة بتشديد الراء. وفى نسخة: «سرار» بالسين المهملة.
(٥) من معانى القبقبة: الهدير، وصوت أنياب الفحل، والحمق؛ فلعله يريد ما تفيده هذه المعانى من أن بينهما مناضبة وملاحاة وخصومة. وفى (ا): «وفتنة» مكان «وقبقبة». «وتبديل» مكان «وتنديد»؛ وهو تحريف فى كلا اللفظين.
(٦) فى كلتا النسختين: «وحصلوا»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

شُرْبنا ، وأَمِنَ سِرْبُنا ، كفانا اللهُ فيهم وكفاهم فينا كلَّ مَكروه .

فقال : هو أَضيَقُ مَبْعَرًا ، وأقلُّ مَنظرًا ، وأذلُّ ناصراً من ذاك ؛ والله لو نفختُ عليه لطار ، ولو هممتُ به لبَار .

وأمّا ما قلتَ لى أيُّها الشيخُ(١) إنّه يَنْبَغى أن تكتُبَ رسائلك إلى الوزير ، حتى أقف عَلَى مقاصِدك فيها ، وأستبينَ براعَتَكَ وترتيبَك(٢) بها ؛ فأنا أفعل ذلك فى هذه الورَقات ، ولم أكتُبْ فى طولِ هذه المدة مع هذه الأحوال العَجيبة إلاّ رُقعَتَين ورسالتين ؛ فأما الرُّقعةُ الواحدةُ فإنّها تضمّنت حديثَ الخادِمِ وما عزَمَ عليه ، وقد شافهتُك به ؛ وأما الأخرى فحَوتْ حديثَ ابنِ طاهر وصاحبِ الرُّصافة ، وقد سَمِعْتَه منّى .

رسالتان كتب بهما المؤلف إلى الوزير

أما الرسالة الأولى :

بسم الله الرّحمن الرّحيم : اللهمّ حَلِّنى بالتوفيق ، وأيِّدْنى بالنُّصرَة ، وأقرِنْ مَنْطِقى بالسَّداد ، واجعل لى مِن الوَزير وزيرِ المَمالِكِ عُقْبَى فارِجَةً(٣) من الغُمَم ، وخاتمةً موصولةً بالنجاح ، فإنك على ذلك قدير ، وبالإجابة جدير .

كنتُ وصلتُ إلى مجلسِ الوَزير ، وفُزْتُ بالشَّرَفِ منه ، وخدمت دولته وعلاه من صدرى بخَبيئَتِه ، ومن فؤادى بمحيضته ، وتصرفتُ من الحديث

(١) يريد بالشيخ أبا الوفاء المهندس .

(٢) فى كلتا النسختين : « برأيك » مكان « براعتك » . وفى (١) : «وقرنيتك» مكان « وترتيبك » .

(٣) فى (١) : « نازحة » ؛ وهو تحريف .

بإذنه فى شجونه وفنونه ، كلُّ ذلك آملاً فى جَدْوَى آخُذُها ، وحُظْوةٍ أحْظَى بها ، وزُلْفَى أَمِيسُ معها ، ومَثالةٍ أُحْسَدُ عليها ؛ فتقبَّل ذلك كلَّه ، ووَعَدَ عليه خيرًا ولم يزَلْ أهْلَه ، وانقَلَبْتُ إلى أهلى مَسرُورًا بوَجْهٍ مُسْفِر ، ومُحَيًّا طَلْق ، وطَرْفٍ عازم(١) ، وأَمَلٍ قد سَدَّ ما بين أُفُقِ العراق إلى صَنْعاءِ اليَمَن ، حتّى إذا قلتُ للنفس : هذا مَكَانُ الوَزِيرِ ومَعْمَرُه ، وجَنَابُه ومَحضَرُه ، [فانشرِحى مستفتِحَة ، وتيمَّنى مقترحة ، واُطمئنّى راضيةً مرضيّة ، لا كدِرَةَ الشُّرْب ، ولا مذعورةَ السِّرْب] ، حَصَلْتُ من ذلكَ الوَعد والضمان ، على بعض فَعَلات الزمان ؛ ولا عَجَب فى ذلكَ من الزمان فهو بمثله ملىء ، وله فَعُول . وبَقيتُ محولاً بينى وبين إذكارِه — قَرَنَ الله ساعاتِه بسعاداته ، ووَصَلَ عِزَّ(٢) يومه بسعادةِ غَدِه ؛ وغَدَه بامتِدادِ يَدِه — حيرانَ لا أَرِيش ولا أَبرى ، ثمّ رفعتُ ناظِرى ، وسَدَّدْتُ خاطرى ، وفصّلتُ الحسابَ لى وعَلَىّ ؛ فوَضَحَ العذرُ المبينُ ، المانعُ من استزادة المستزيدين ، وذلكَ أنى رأيتُ أعباءَ الوزارةِ تؤودُ(٣) سِرَّه ، وتُتْعِبُ(٤) بالَه ، والمملكةَ تفزَعُ وَلْهَى عليه ، وتُلقِى بجِرانِها(٥) له بين يديه ، والدولة تَسْتَمِدُّه التدبيرَ الثاقب ، والرأىَ الصائب ، سِوى أمورٍ فى خلاف ذلكَ لا يحرّرها رسمُ راسم ، ولا يقرِّرها قَسْمُ قاسِم ، ولا يحْوِيها وهمُ واهِم ، ولا يَفوزُ بها سَهْمُ مُساهِم ، وهو يخطر فى حواشى هذه الأحوال ،

(١) كذا وردت هذه الكلمة فى الأصول ولعلها تحريف إذ لم نتبين معنى وصف الطرف بهذا الوصف .

(٢) فى (ب) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « عن » مكان « عز » ؛ وهو تحريف .

(٣) فى (ب) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « تود » ؛ وهو تحريف .

(٤) فى (ب) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « وتستعين » مكان « وتتعب » ؛ وهو تحريف .

(٥) فى (ب) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « بحرانها » ؛ وهو تصحيف .

متأبِّطا بَواهظ الأثقال، مفتتِحًا عَويصَ الأقفال[١]، سامِيَ الطَّرْف، فسيحَ الصَّدْر، بَسّامًا على العِلاّت، غيرَ مُكترِث بهاكَ وهاتِ، يَتلقّى ما أعْيا مِنْ ذلك باللّيّ[٢]، وما أشكَلَ بالإيضاح، وما عَسُرَ بالتّدبير، وما فَسَدَ بالإصلاح، وما أُرِقَّ بالعِتق، وما خُرِق بالرّتق، وما خَفِيَ بالتكشيف، وما بَدا بالتصريف، وما أَوِدَ بالتثقيف، وما لَبَسَ بالتعريف، حتى أَجْمَعَ على هَوَاهُ قاصيها ودانِيها، وجرَى عَلَى مُرَادِه خافِيها وبادِيها، واستجابَ لأمْرِه أبيُّها ومُنقادُها، وأتلَفَ بلَفْظِه نادرُها ومُعْتادُها؛ فلمّا تيقَّنْتُ[٣] ذلك كلَّه وقتَلْتُه خُبْرًا، أمسكت عن إذكاره — نَفّس اللهُ مُدَّته — سالِفَ عَهْدِه، ومتقدِّمَ وَعْدِه، عالمًا بأنَّ أَسَرّها[٤] مَرْعِيٌّ عنده في صَدْرِ الكَرَم، ومَكتوبٌ لديه في صَحيفةِ المجد، وثابتٌ قِبَلَهُ في دِيوانِ الحُسْنَى.

ولكنْ كان ذلك الامتنان[٥] عَلَى رَغْمٍ منّي[٦]، لأني قتلتُ في أثنائِه بين جَنْبَيَّ قلبًا مَغْرُورَ الرَّجاء، ومَنْزُورَ العَزاء، عَلَى عَوارِضَ لم تَسْنَح في خَلَدِي، ولم أَعْقِدْ عَلَى شيء منها يَدِي.

فالحمدُ للهِ الذي جعل مَعاذِي إلى الوزيرِ الكريم، البَرِّ الرَّحيم، والمِنّة لله الذي جعلني من عُفاةِ جُوده، وناشِئةِ عُرْفِه، ووَارِدِ عِدِّه، وقادِحِي زَنْدِه،

(١) في الأصول «الأفنال»؛ وهو تصحيف.
(٢) في كلتا النسختين: «بالكي» بالكاف؛ وهو تحريف لا معنى له هنا. ولعل صوابه ما أثبتنا.
(٣) في الأصل «نفثت»؛ وهو تحريف.
(٤) في كلتا النسختين: «ايسرها»؛ والياء زيادة من الناسخ.
(٥) كذا وردت هذه الكلمة في الأصول؛ ولا معنى للامتنان هنا، ولعل صوابه الكتمان أو «الإمساك» أو ما يفيد ذلك أخذاً من قوله قبل: فأمسكت عن إذكاره.
(٦) في (ا) على زعم من أبي فلبث إلى أنيابه. مكان قوله على رغم مني لأني قتلت في أثنائه.

ومُقْتَبِسِي نُورِه ، ومُصْطَلِي نَارِه ، وحامِلِي نِعْمَتِه ، وطالِبِي خِدْمَتِه ، وجَعَلَ خاصَّتِي وخالِصَتِي من بينهم روايةَ مَناقبِه باللِّسانِ الأبْيَن ، ونَشْرَ فضائلِه بالثَّناء الأحْسَن ، وذِكْرَ آلائه باللَّفظِ الأفصَح ، والاحتِجاجَ لسَدادِ آرائِه بالمعْنَى الأوْضَح ؛ فلا زَالَ الوَزيرُ — وزيرُ الممالك — مَمْدُوحًا فى أطْوَارِ الأرْض على ألْسِنَةِ الأدباء والحكماء ، وفى نَوَادِي الرُّؤساء والعُظماء ، ما آبَ آئب[١] ، وغابَ غائب ، بمَنِّه ولُطْفِه .

قد نادَيْتُ الوزيرَ حَيًّا سامِعًا ، وخيرًا جامعًا ، وهَزَزْتُ منه صارمًا قاطعًا ، وشِهابًا ساطِعًا ، واستَسْقَيْتُ من كَرَمِه سَحابًا هاطلاً ، ونُقاخًا[٢] سائلاً ، وأسأله أن يُجَنِّبَنِى مرارةَ الخَيْبَة ، وحَسْرَةَ الإخفاق ، وعذابَ التَّسْويف ، فقد تلطَّفْتُ بالسِّحْرِ الحلال ، والعَذْبِ الزُّلال ، جُهْدَ المُقِلِّ المحتال ، وهو أوْلَى بمَجْدِه ، فى تَدْبير عَبْدِه ، إن شاء اللهُ تعالى .

هذا آخرُ الرِّسالة الأولَى .

وحَضَرَ وُصُولَها إليه بهرام — لعنه الله — وتكلّم بما يشبه نذالتَه وخِسَّتَه ونَتْنَ نِيَّتِه ، فما كنتُ آمَنُه[٣] ؛ وما أشَدَّ إشفاقى على هذا الوَزيرِ الخطير من شؤمِ ناصِيَةِ بَهْرام ، وغِلِّ صَدْرِه ، وقِلّةِ نَصيحتِه ، ولؤمِ طَبْعِه ، وخُبْثِ أصْله ، وسُقُوطِ فَرْعِه ، ودَمامةِ مَنْظَرِه ، ولآمةِ مَخْبَرِه ؛ حَرَسَ اللهُ العبادَ من شرِّه ، وطهَّرَ البلادَ من عُرِّه وضُرِّه .

وأما الرسالة الثانية فهى التى كانَتْ فى هذه الأيام بعد استئذانى إيّاهُ

(١) فى كلتا النسختين : « وغلب غالب » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين .
(٢) ورد هذا اللفظ بالياء والقاء ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا .
(٣) فى كلتا النسختين : « آمله » باللام ؛ وهو تحريف . والسياق يقتضى ما أثبتنا

فى المخاطبةِ بالكاف ، حتّى يجرىَ الكلامُ على سَنَنِ الأسترسال ، ولا يُعثِرَ فى طريقِ الكتابةِ بما يُزاحمُ عليه من اللّفظِ واللّفظ ، وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم . أيُّها الوزير . جَعَلَ اللهُ أقدارَ دهرِكَ جاريةً على تحكُّمِ آمالك ، ووَصَل توفيقَه بمَبالِغ مُرادِك فى أقوالِك وأفعالِك ، ومكَّنَكَ مِنْ نَوَاصى أعدائك ، وثبَّتَ أَوَاخِيَ دَوْلَتِكَ على ما فى نُفُوسِ أوليائك .

يَجِبُ على كلِّ مَن آتاه الله رأياً ثاقباً ، ونُصْحاً حاضراً ، وتنبُّهاً نافعاً ، أن يَخْدُمَكَ مُتحرِّياً لرُسوخِ دعائمِ المَملكةِ بسياسَتك وريادَتك[1] ، قاضياً بذلك حقَّ اللهِ عليه فى تَقْوِيَتِكَ وحِياطَتِك . وإنى أرَى عَلَى بابِكَ جماعةً ليست بالكثيرة — ولعلَّها دُونَ العَشَرَة — يُؤْثِرُون لِقاءَك والوُصول إليك لما تُجِنُّ صدورُهم من النصائحِ النافعةِ ، والبلاغاتِ المُجْدِيَةِ ، والدَّلالات المُفيدة ، ويَرَوْنَ أنَّهم إذا أهَّلُوا لذلك فقد قَضَوْا حَقَّك ، وأدَّوْا ما وَجَبَ عليهم من حُرْمَتِك ، وبلَغوا بذلك مُرادَهم من تَفَضُّلِكَ واصطِناعِك ، وتقديمِكَ وتكريمِك ؛ والحِجابُ قد حالَ بينَهم وبينَك ، ولكلٍّ منهم وسيلةٌ شافعةٌ ، وخِدْمةٌ للخَيْرَاتِ جامعةٌ ؛ منهم — وهو أهل الوفاء — ذُو كفايةٍ وأمانةٍ ، ونَباهةٍ ولَباقة ؛ ومنهم مَن يَصْلُحُ للعَمَل الجليل ، ولِرَتْقِ الفَتْقِ العَظيم ؛ ومنهم مَن يُمتِعُ إذا نادَم ، ويَشْكُرُ إذا اصطُنِع ، ويَبْذُلُ المجهودَ إذا رُفِع ؛ ومنهم مَن يَنْظِمُ الدُّرَّ إذا مَدَح ، ويُضْحِكُ الثَّغرَ إذا مَزَح ؛ ومنهم مَن قَعَدَ به الدَّهْرُ لِسِنِّه العالية ، وجَلابِيبِه البالية ، فهو مَوْضِعُ الأجْرِ المَذْخُور ، وناطِقٌ بالشُّكرِ المنظومِ والمَنْثور ؛ ومنهم طائفةٌ أخرى قد عَكَفوا فى بُيوتِهم

(١) فى كلتا النسختين : « وزيادتك » بالزاى المعجمة ؛ وهو تصحيف .

عَلَى ما يَعْنِيهم من أحوال أنفسهم، فى تزْجِيَةِ عَيْشهم ، وعِمارةِ آخِرتِهم ، وهمْ مع ذلك مِنْ وَرَاء خَصَاصةٍ مُرَّة ، ومُؤَنٍ غليظة ، وحاجاتٍ متوالية ؛ ولهم العِلْمُ والحِكمةُ والبَيَانُ والتَّجربَةُ ، ولو وَثِقوا بأنَّهم إذا عَرَضوا أنفسهم عليك ، وجَهَّزُوا ما مَعَهم من الأدبِ والفَضْلِ إليك حَظُوا منك ، وأعتزُّوا بك ، لَحَضَرُوا بابَك ، وجَشِمُوا المَشقَّة إليك ؛ لكنَّ اليأسَ قد غَلَبَ عليهم ، وضَعُفَتْ مُنَّتُهم ، وعُكِسَ أَمَلُهم ، ورأَوْا أنّ سَفَّ التراب ، أخف من الوُقوفِ على الأبواب ، إذا دَنَوْا منها دُفِعوا عنها ؛ فلو لَحَظْتَ هؤلاء كلَّهم بفَضْلِكَ ، وأَدْنَيْتَهم بسَعَةِ ذَرْعِكَ وكَرَمِ خِيمِك ، وأَصْغَيْتَ إلى مَقالتِهم بسَمْعِك ، وقابَلْتَهم بمِلْءِ عَيْنِك ، كان فى ذلك بقاءُ النِّعمةِ عليك ، وصِيتٌ فاشٍ بذِكرِكَ ، وثوابٌ مُؤَجَّلٌ[1] فى صَحِيفَتِك ، وثناءٌ معجَّلٌ عند قريبِكَ وبعيدِكَ ؛ والأيامُ مَعْروفةٌ بالتقلّب ، واللّيالى ما خِضَةٌ بما يتعجَّبُ منه ذو اللُّبّ ، والمَجْدُودُ مَنْ جُدَّ فى جِدّه ، أعنى من كان جِدُّه فى الدُّنيا مَوْصولاً بحظِّه من الآخرة ، وَلَأنْ يُوكَلَ العاقلُ بالأعتبارِ بغَيرِه ، خيرٌ مِنْ أن يُوكَلَ غيْرُه بالأعتبارِ به .

أيُّها الوزير ، اصطِناعُ الرِّجالِ صِناعةٌ قائمةٌ برأسِها ، قَلَّ مَنْ يَرُبُّها[2] ، أو يَتَأَتَّى لها ، أو يَعْرِفُ حلاوتَها ، وهى غيرُ الكِتابةِ التى تتعلَّقُ بالبلاغةِ والحِساب .

وسَمِعْتُ ابنَ سُورِين يقول : آخِرُ مَنْ شاهَدْنا مِمَّنْ عَرَفَ الأصطِناع ،

---

(١) فى الأصول « يوجد » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه قوله بعد « معجل » .

(٢) فى (أ) : « يسقى تربها » مكان « يرى بربها » . وفى (ب) : « بربهـا » بالياء المثناة ؛ وهو تصحيف فى كلتا النسختين . يقال : رب الصنيعة يربها — بضم الراء — إذا نماها وتعهدها .

واستَحلى الصَّنائع ، وارتاحَ للذِّكرِ الطَّيِّب ، واهتزَّ للمَديح ، وطرِبَ على نَغمَة السائل ، واُغتَنَمَ خَلَّةَ المحتاج ، وأُنتَهَبَ الكَرَمَ انتهابا ، وأُلتَهَبَ فى عِشْقِ الثَّناء ألتهابا ، أبو محمد المُهلَّبى ، فإنه قَدَّمَ قوْمًا ونوَّه بهم ، ونبَّهَ على فضلِهم وأحْوَجَ الناظِرين فى أمْرِ المُلْكِ إليهم ، وإلى كفايتهم ، منهم أبو الفَضْل العبّاسُ بنُ الحسين ، ومنهم ابنُ معروف القاضى ، [ومنهم أبو عبد الله اليَفُرَنىّ] ، ومنهم أبو إسحاق الصابئ ، وأبو الخطّاب الصابئ ، [ومنهم أحمد الطَّويل ، ومنهم أبو العَلاء صاعد ، ومنهم أبو أحمد ابنُ الهيْثَم ، وابنُ حَفْصٍ صاحبُ الديوان] ، وفلان وفلان ، هؤلاء إلى غير هؤلاء(١) ، [كأبى تمّام الزّينبىّ ، وأبى بكر الزهرىّ] ، وابن قريعة ، وأبى حامد المَرْوَرُّوذِى ، [وأبى عبد الله البَصرى] ، وأبى سَعيد السِّيرافى ، [وأبى محمد الفارسى] ، وابن دُرُسْتُويه ، [وابن البقّال] ، وَالسَّرِىُّ ، ومَنْ لا يُحْصَى كثرةً من التّجارِ والعُدُول .

وقال لى [ابنُ سُورين] : كان أبو محمد يَطْرَبُ على اُصطناع الرِّجال كما يَطْرَبُ سامِعُ الغِناء على الشَّبابير(٢) ، ويَرْتاحُ كما يَرْتاحُ مُديرُ الكأس على العشائر . وقال عنه : [إنّه] قال : والله لأكونَنّ فى دولة الدَّيلم ، أول مَن يُذْكَر ، إنْ فاتنى أنْ كنتُ فى دَوْلةِ بنى العبّاس آخِرَ مَنْ يُذْكَر .

فلولا أنّكَ — أدامَ الله دَوْلَتكَ — أذِنْتَ لى أن أكتُبَ إليكَ كلَّ ما هَجَسَ فى النفس ، وطَلَعَ به الرَّأى مِمّا فيه مَرَدٌّ على ما أنْتَ فيه من هذا

(١) فى (ب) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « هذا إلى غير هذا » .

(٢) فى كلتا النسختين : « الستاير » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق الكلام . والشبابير : جمع شبور ، وهو من آلات الموسيقى .

الثِّقْلِ الباهظ ، وتنبيهٌ على ما تُباشِرُه بكاهِلِكَ الضَّخْم ، لم يَكُنْ خَطَرى يَبْلُغُ مُوَاجَهَتَكَ بلَفْظٍ يَثْقُل ، وإشارةٍ تَغْلُظ ، وكنايةٍ تَخْدِش[1] ، لَكِنَّكَ واللهُ يأخُذُ بيَدِك ، ويَقْرِنُ الصنعَ الجميلَ بظاهِرِكَ وباطِنِك — قد رَخَّصْتَ لى فى ذلك ، وخَصَصْتَنى به من بين غاشِيَةِ بابِك ، وخَدَمِ دَوْلَتِك ، فلذلك أقولُ ما أقولُ معتمداً على حُسْنِ تَقَبُّلِك[2] ، وجميل تَكَمُّلِك[3] ، ومُنْتَظَرِ تفضُّلِك ؛ وليس فى أبوابِ السِّياسةِ شىءٌ أجْدَى وأنفع ، وأنفَى للفَسادِ وأقمع ، من الأعتبارِ المُوقِظِ للنفس ، الباعثِ على أخْذِ الحَزْم ، وتَجْريد العَزْم ؛ فإنَّ الوِكالَ[4] والمُوَيْنَا قلَّما يُفضِيان بصاحِبهما إلى دَرْكِ مأمول ، ونَيْل مراد ، وإصابة مُتَمَنَّى . وقد قال رجُلٌ كبيرُ الحِكمة ، مَعْرُوفُ الحُنكة : المُعْتَبَرُ كثير ، والمعتبِرُ قليل . وصَدَق هذا الرَّجُل الصالح ، وهو الحَسَنُ البَصرىّ :

لو أعتبَرَ من تأخَّر بمن تَقَدَّم ، لم يَكُنْ من يَتحسَّر فى الناسِ[5] ويَنْدَم ، ولكنَّ اللهَ بَنَى هذه الدار على أن يكونَ أهْلُها بين يَقَظةٍ ونَوْمٍ ، وبين فَرَحٍ وتَرَح ، وبين حَبْطةٍ[6] ووَرْطة ، وبين حَزْمٍ وغَفْلة ، وبين نِزَاعٍ وسَلْوَة ، لكنَّ الآخِذَ بالحَزْم — وإن جَرَى عليه مكْرُوه — أعْذَرُ عند نَفْسِه وعند

---

(١) فى كلتا النسختين : « تخرس » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق ما قبله .

(٢) فى كلتا النسختين : « تقلبك » ؛ وهو تحريف .

(٣) فى (ب) : « تكلفك » ؛ وهو تحريف .

(٤) فى (ا) : « الوكان » بالنون . وفى (ب) : «الوكاك» بالكاف ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين .

(٥) فى (ب) : « فى الدنيا »

(٦) فى كلتا النسختين : « غبطة » ؛ ولعله تحريف ، إذ الغبطة لا تقابل الورطة ، والذى يقابلها الحَبْطة كما أثبتنا .

كلٌّ من كان فى مَسْكِه ، مِنَ المُلْقِي بيَدِه ، والمُتَدَلِّى بغُرُورِه ، والساعِى فى ثُبُورِه ؛ وما وَهَبَ اللهُ العَقْلَ لأحَدٍ إلّا وقد عرَّضَه للنّجاة ، ولا حَلّاه بالعِلم إلاّ وقد دَعاه إلى العَمَل بشرائطه ، ولا هداه الطريقين (أعْنى الغَىَّ والرُّشْدَ) إلاّ ليزْحَفَ إلى أحدِهما بحُسْنِ الاختيار .

هذا بالأمسِ أبو الفَضْل العبّاسُ بنُ الحُسَين الوزير — وهو فى وزارتِه وبَسْطَةِ أمْره ونَهْيِه — قيل له ذاتَ يوم : هـذا التركى ساسنكر[1] تفَيّأ بِظِلّه ، واعتصِمْ بحَبْله ، واستَسْقِ بسَجْله ، وارتَوِ من سُؤْرِه ، ولا يَبْلُغْه عنك ، ما يوحِشُه منك ، ويُجْفيه[2] عليك . وقد قيل :

* أسجُدْ لقِرْدِ السُّوء فى زمانه *

وإذا لم تَقْدِر على قطْعِ يَدٍ جائرةٍ ، فقبِّلها مُتْهِمَةً[3] مُنجِدَةً غائرة . فلم يَفْعَلْ ، حتى وَجَدَ أعداؤه طريقاً إليه ، فسلَكوه وأوْفَعوه .

ثم قيل له فى الوزارة الثانية : قد ذُقْتَ مَرارةَ النَّكبة ، وتحرَّقتَ بنارِ الشماتة ، وتأرَّقتَ على فرَطاتِ[4] العَجْز والفَسَالة ، وقد كان من ذلك كلِّه ما كان ، ودارَ لك بما تمنّيْتَ[5] الزّمان ؛ فانظُرْ أين تضَعُ الآنَ قدَمَك ، وبأىِّ شىء تُدِيرُ لِسانَكَ وقلَمك ، فإنّ مُخلِّصَك من وَرْطَتِك بالمِرْصاد ، وقد

---

(١) لم نجد هذا الاسم فيما راجعناه من معجمات الأعلام التركية ؛ والذى وجدناه «سنجر» بالسين والجيم وبلا سين وألف فى أوله .

(٢) فى (ا) : « ويخيفه » ؛ وهو تحريف .

(٣) فى كلتا النسختين : « بهمه » ؛ وهو تحريف .

(٤) فى كلتا النسختين : « فطرات » ؛ والظاهر أن فى حروفه قلبا وقع من الناسخ . كما أن فى كلتا النسختين : « وأرقت » مكان « وتأرقت » ؛ وما أثبتناه أولى للملاءمة بينه وبين قوله قبل : « وتحرقت » .

(٥) فى (ب) : « ظننت » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

وَعَدْتَ مِنْ نَفسِك إنْ أعاد اللهُ يَدَكَ(١) إلى البَسْطة ، ورَدَّ حالَكَ إلى السرورِ والغِبْطة ، أنّكَ تُجْمِل المعامَلة ، وتَنسى(٢) المقابلة ، وتَلقَى وليّك وعدوّك بالإحسانِ إلى هـذا ، والـكفّ عن هـذا ، حتى يَتَساوَيا بنَظَرِك ، ويَتَعبَّدَا لك بتفضُّلك .

فـكان من جوابه ما دلّ على عتوِّه وثَباتِه(٣) ، لأنّه قال : أمَا سَمِعْتُم اللهَ تعالى حيث يقول : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ [وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ؟

وقال لى القُومَسىّ(٤) — ولم يَعْلَم ما فى فَحْوَى هذا الـكلام — : ما ذاك ؟ قلتُ : فحواه ولو عادوا إلى ما نُهُوا عنه لعُدْنا] إلى مُقابَلتِهم بما أستحقُّوا عليه .

وصدق ما قال اللهُ عزَّ وجلّ ، ما لَبِثَ ذلك الإنسانُ بعدَ هـذا الـكلامِ إلاّ قليلاً حتى أوْرَدَه(٥) ولم يُصْدِرْه ، وأعْثَرَه ولم يُنْعِشْه ، وسُلِّمَ إلى عدوِّه حتّى أستَلّ رُوحَه من بين جَنْبَيْه ، شافِيًا به ومُشْتَفِيًا منه ، وكان عاقِبةُ أمْرِهِ خُسْرًا ، ولو اتقى الله لـكانَ آخِرُ أمْرِهِ يُسْرًا . واللهُ المستَعان .

وهذا بَعْدَه محمد بنُ بَقِيّةَ طَغَى وبَغَى ، واقتَحَمَ ظلماتِ الظلْمِ والعَسْف ، وطار بجناحِ اللّهْوِ والعَزْف ، والشُّرْب والقَصْف ، ومَلَّ نِعْمَةَ اللهِ عليه ، وضَلَّ بين إمْهالِ اللهِ وإمْلائه ، فحاقَ به ما ذهبَتْ عليه نَفْسُه ومالُه ، وخرِّبَ بَيْتُه ، وافتَضَحَ أهْلُه ، وكيف كان يَسْلَمُ ؟ أم كيف كان يَنْجو وقد قَتَلَ ابنَ السَّرّاج

(١) فى (ب) : « أعاد الله بك أيامك البسيطة » ؛ وفى بعض كلماتها تحريف لا يخفى .

(٢) كذا فى (ا) . والذى فى (ب) : « وتسىء » ؛ وهو تحريف . وتنسى المقابلة ، أى لا تقابل الذنب بما يستحقه من عقوبة بل تعفو .

(٣) وثباته ، أى ثباته على ما كان عليه من سوء السياسة .

(٤) فى كلتا النسختين : « المسى » ؛ وهو تحريف كما ترى ، صوابه ما أثبتنا .

(٥) أورده ولم يصدره فاعل الفعلين ضمير يعود على الـكلام السابق ذكره . أى أورده كلامه الخ .

بلا ذَنْب ، والجَرْجَرائِيَّ(١) بلا حجّة ، وضرَبَ ابن مَعْرُوفٍ بالسِّياط وأبا القاسم — أخاً لأبي محمد القاضي — وشَهَّرَهُ على جَمَلٍ في الجانِب الشرقيّ ؟!

والتَّشَفِّي حُلْوُ العَلانِيَة ، ولكنَّه مُرُّ العاقبة ، وكأنَّ الحَفِيظةَ إنما خُلِقَتْ لِتُفْتَقَد(٢) ، والحقدَ إنما وُجِدَ لِيُبْلَغَ به ما يَسُرُّ الشيطان .

وكأنَّ العفوَ حرَام ، والكَظْمَ(٣) محظور ، والمكافأةَ مأمورٌ بها .

وهذا بالأُنْسِ عليُّ بنُ محمد ذو الكفايَتَيْن ، اغترَّ بشَبابه ، ولَهَا عن الحَزْمِ والأخْذِ به فيما كان أوْلَى به ، وظَنَّ أنَّ كِفايَتَه تحْفَظه ، ونَسَبَه مِنْ أبيه يَكْنُفُه ، وبَراءتَه تحتَجُّ له ، وذنوبَه الصغيرَة تُغْتَفَر ؛ لِبَلائه المذكور ، وغَنائه المشهور ؛ ومَشَى فعَثَر ، وراب(٤) فخَثُر ، والأوّلُ يقول :

مَن سابَقَ الدَّهرَ كبا كَبْوَةً   لم يَسْتَقِلْها آخِرَ الدَّهْرِ
فاُخْطُ مع الدَّهْرِ إذا ما خَطَا   وأجرِ مع الدَّهْرِ كما يَجْرِي

وقال لي الخليل — وكان لطيفَ المَحَلِّ عنده ، لِما كان يَرَى من اختِصاصِ أبيه له ، ولِما يَظْهَرُ من فَضْله عندَه — : قلتُ له يوماً : يا هذا ، في أيِّ شيء أنت ؟! وبأيِّ شيء تَعَلَّلُ ؟! وقد شُحِذَت المَوَاسي ، وحُدِّدت الأنياب ، وفُتِلت المَرائر(٥) ، ونُصِبَت الفِخاخ ، والعيونُ مُحَدِّقَةٌ نحوَ القَطِيعة ،

(١) في (ا) : « الجرجاني » .
(٢) في (ا) : « لتعتد » . وفي (ب) : « لتنفذ » ؛ وهو تحريف في كلتا الكلمتين .
(٣) في كلتا النسختين : « والظلم » ؛ وهو تحريف .
(٤) في (ا) : «وداب فخسر» . وفي (ب) : «وذاب فخثر» ؛ ولعل الصواب ما أثبتنا .
(٥) في (ا) : « وقبلت » . وفي (ب) : « وقتلت » ؛ وهو تصحيف في كلتا النسختين . وفي (ا) : « المدابر » مكان « المرائر » ؛ وهو تحريف أيضا . والمرائر : الحبال ، جمع مريرة .

والأعناقُ صُورٌ[1] إلى الفَظِيعة ، وأنتَ لاهٍ ساهٍ عمّا يُرادُ بك بَعْدُ ؛ يَشْبِيكَ[2] هذا المزرفن[3] وهذا المُرْخِي[4] وهذا المُعَرَّض[5] ، وهذا الحليق ، وهذا النَّتِيف ، وهذا المعقربُ الصُّدغ ، وهذا المَصْفُوف الطُّرّة ، وبالكاس[6] والطاس ، والغِناء والقَصْف ، والناي والعُود ، والصَّبُوحِ والغَبُوق ، والشرابِ المُرَوَّق العتيق ؛ واللهِ ما أدرِي ما أصْنَع ، إن سَكَتُّ عنك كَمِدْتُ ، وإن نَصَحْتُكَ خِفْتُ منك ؛ ونَعُوذُ باللهِ من اشْتِباهِ الرأى ، واشتباكِ الأمر ، وقِلَّةِ الاحتراسِ ، والإعراضِ عمّا يجرى من أفْواهِ الناس .

يا هذا ، سُوء الاستمساكِ خيرٌ من حُسْنِ الصَّرْعة ، وتَلَقِّى الأمرِ بالحزمِ والشهامةِ أوْلَى من استِدباره بالحسرةِ والنَّدامة ، ومَنْ لا تَجْرِبَةَ له يَقْتَبِسُ مِمَّنْ له تَجْرِبَة ، فإذا نَقِبَ الخُفُّ دَمِيَ الأظَلّ . فقال : قد فَرَغ اللهُ مِمَّا هو كائن ، وإذَا جاءَ أجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُون .

قال : قلتُ له : ما أطْلَعكَ الله على كائنات الأمور ، ولا أعْلَمكَ بعواقب الأحوال ، وإنما عرَّفكَ حَظَّك بَعْدَ أنْ[7] وَفَّر عَقْلَك ، وأحْضَرَكَ استطاعتَكَ ، وأوْضَحَ لِقلبِكَ ما عليْكَ ولك ، حتّى يَستَشِفَّ ويَستَكْشِف ، وملَّكَكَ

(١) صور ، أى مائلة . إلى الفظيعة ، أى إلى النكبة الفظيعة . وفى كلتا النسختين : « العظيمة » . وما أثبتناه هو ما يستقيم به السجع الذى التزمه المؤلف فى بعض فقراته .

(٢) فى (ا) : « بعد تشبثك » . وفى (ب) : « بعد بسببك » ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين .

(٣) المزرفن الذى يجعل صدغيه كالزرفين ، وهى الحلقة .

(٤) كذا فى (ب) والذى فى (ا) « المزرجن » ، ولا معنى له هنا .

(٥) المعرّض بتشديد الراء الذى نبت شعر عارضيه . كما يقال عذّر الغلام بتشديد الذال إذا نبت شعر عذاره .

(٦) وبالكاس متعلق بقوله قبل : « لاه » .

(٧) كذا فى (ب) . والذى فى (ا) : « مقدار » مكان « بعد أن » ؛ وهو تحريف .

النَّوَاصِيَ حتَّى تَمُنَّ[1] وتَرْسِل ، وما طالَبَكَ إلاّ بعد أن أَزَاحَ عِلَّتَك ، ولا عاقبَكَ إلاّ بعد أن أنذَرَكَ وأَنظَرَك ، وبِمِثْلِ هذا تُطَالِبُ أنت مَن هُوَ دُونَكَ مِنْ خَدَمِكَ وحَشَمِك ، وأَوْليائك وأَعْدائك ، وهذا الذى أَعْذُلُكَ عليه هُوَ الذى به تَعْذُل غيرَك وتَراه ضالاً فى مَسْلَكِه ، متعرِّضًا لمَهْلَكِه .

فقال : أَيَظْلِمُنِي وَلِيُّ نِعْمَتِي صُراحًا بلا ذَنْب ، ويَجْتَبِحُنِى[2] بلا جَرِيمة ؛ ويَثْلِمُ دَوْلَتَه بلا حُجّة ؟

قلتُ : اللهُ يَقِيك ويَكْفِيك ، نَرَاكَ بلا ذَنْب ، ونَجِدُكَ بريئًا مِن كلِّ عَيْب ، وغَيْرُكَ لا يَرَاكَ بهذه العَين ، ولا يَحْكُمُ لك بهذا الحُكم ؛ فإن كنتَ تَرَى فُرْصَةً فانتَهِزْها ، وإن كنتَ تَخَافُ بغُصّةٍ[3] فاحتَرِزْ منها ؛ فأبوابُ النَّجاةِ مُفَتَّحة ، وطُرق الأمانِ مُتَوَجِّهة ، والأَخْذُ بالاحتياط واجب ، قد قَرُبَ الشَّاخِصُ من هذا المكان ، والقِيَامةُ قد قامت بالإرجاف ، والطِّيَرَةُ قُشَعْرِيرةُ النَّفْس ، كما أنّ القشعريرةَ طِيَرَةُ البَدَن ، والاسترسالُ كلالُ الحِسّ ، والفَأْلُ لِسَان الزمان ، وعُنْوَانُ الحِدْثَان ، ولا يَقَعُ فى الأفواه إلاّ ما يُوجِب الحَذَر ، ويَبْعَثُ على الرّأيِ والنَّظَر ، واستقراء الأَثَر والخَبَر .

قال : أمَّا أنا بَعْدَ التَّوَكُّلِ على الله فقد استَظْهَرْتُ بمحمد بنِ إبراهيم صاحبِ نيسابور ، وبفَخْرِ الدَّوْلة وهو بهَمَذَانَ على ثلاثة أيام ، وبِعِزِّ الدَّوْلة

---

(١) فى (ا) : « تمل وترشد » . وفى (ب) : « تمد » مكان « تمل » ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين صوابه ما أثبتنا . وتمن وترسل ، أى تمن بالعفو عمن أساء ، وترسل من أمسكته ، أى تطلقه .

(٢) كذا فى (ب) . والذى فى (ا) : « يجنبنا » .

(٣) فى (ا) : « بعض » بالعين والضاد . وفى (ب) : « بقصة » بالقاف والصاد ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا .

وهو بمدينة السّلام ؛ ومتى حَرَبَ حارِب ، ورَابَ رائب ، أَوَيتُ إلى واحدٍ من هؤلاء .

قال : قلتُ : ها هنا ما هو أسهلُ مِنْ هذا وإن كان أَهْوَل ، وأَنجَى وإن كان أَشْجَى ، وأَقرَب وإن كان أَغرَب .

قال : ما هو ؟ فرِّجْ عَنّى وأَهْدِنى .

قلتُ : لمّا يَدْخُلُ هذا الوارِد [الدّار] ، ويَدْنو من طَرَف البِساط ، تُنْدِرُ رأسَه عن كاهله ، وتُلقِى شِلْوَه فى مزبلَة ، فإنّ الهَيْبَةَ تقَع ، والنّائرة تَخْبُو ، والعَجَب يَغْمُر ، والظِّنَّةَ تزُول ، والصّدْرَ يَشْتَفى ، والأعتذارَ يَنتَفى ؛ ويُكْتَبَ إلى مُوفِدِهِ بأنّ الرّأىَ أوْجَبَ هذا الفِعل ، لأنّه غَلَبَ على الظّنّ أنه وَافَى لِكَيْدٍ يُوصِلُه إلَىّ ، وبَلاء يُفرِغُه علَىّ ، فأزَلتُ هذا الظّنّ باليَقين ، ودَفَعتُ الشُّبْهَةَ بالجلاء ، واستَخْلَصْتُ النورَ من الظّلام ؛ ولَأنْ تبْعِدَ ساقطاً مِنْ خَدَمِك ، يَسوء ظَنى به مِن جِهَتِك ، ويَقْدَحُ فى طاعتِى لك ، [ويُضْرِمُ فىّ نار التُّهمَة بينى وبينَك ؛ خيرٌ لى فى نصيحتى لِدَوْلتك ، وخيرٌ لك] فى بَقائى[1] على أمْرِكَ وَنَهْيِك ، مِن أن يَلْتاثَ ضميرى فى سِياسَةِ دَوْلَتِك ، وتَحُولَ نِيَّتِى[2] عمّا عَهِدْتَ من القِيامِ بحقّ جُنْدِكَ ورَعِيَّتِك ، وحِفْظِ قاصِيَتِك ودانِيَتِك .

فقال : هذا أعْظَمُ ، واللهُ المُسْتَعان .

ولَيْتَنى أصَبْتُ بهذا الرّأىِ[3] أمراً عَلَا عَقْلُه ، فيَقبَله ببيَان ، أو يَرُدّه

---

(١) كذا فى (ب) . والذى فى (ا) : « ثنائى » ؛ وهو تحريف .

(٢) فى كلتا النسختين : « بينى » ؛ وهو تصحيف .

(٣) وردت هذه العبارة فى كلتا النسختين هكذا « وليتنى أصبت من أمر بهذا الرأى على عقله » ؛ وفيها تقديم وتأخير وتحريف إذ لا معنى لها على هذا الوجه ؛ ولعل الصواب ما أثبتنا .

بُرْهان ، فكان يَقْوَى أو يَضْعُف ، ويُقْدِمُ عليه أو يُحْجِمُ عنه ، فإنَّ المُبْرَم أقْوَى من السَّحيل ، والسمينَ أحْمَدُ من النَّحيل ؛ ثم كان ما كان . وكان مَشايخُ العِراق والجَبَل يرَوْنَ ما حَدَثَ بذلك الفتَى أمْرًا فَرِيًّا ، وظُلْمًا عَبْقَرِيًّا .

وحَدَّثنى القُومَسِىُّ أنه لم يتقدَّم بذلك أمْر ، ولا سَبَقَ به إذْن ، ولكنْ لمَّا حَدَثَ ما حدث ، وَقَع عنه إمساك ، وسُتِرَت الكراهيَةُ والإنكار .

* * *

وللأمور أيُّها الوزيرُ ظُهورٌ وبُطون ، وهَوَادٍ وأعجاز ، وأوائل وأواخِر ؛ وليس عَلَى الإنسانِ أنْ يُدرِكَ النجاحَ فى العَواقب ، وإنَّما عليه أن يَتحَرَّزَ فى المبادىء ؛ ولهذا قال القائل :

لأمْرٍ عليهم أن تَتِمَّ صُدُورُه   وليس عليهم أن تَتِمَّ عَوَاقِبُه

وقال سليمانُ بنُ عبدِ الملِكِ أو غيرُه من أهْل بَيْتِه : ما لُمتُ نفسى على فَوْتِ أمْرٍ بَدَأْتُه بحَزْم ، ولا حَمِدْتُها على دَرْكِ أمْرٍ بدأْتُه بعَجْز .

هاهنا ناسٌ إذا تلاقَوْا يَنْفُث بعضهم إلى بعض بما هو صريح وكِناية ، ويحتاجُ الأمرُ إلى ابن يوسف ، ويَسْتَمْلِى[1] الخَبيثُ من المجالس فوقَ مَشْرَعَةِ مكان الرَّوايا .

[2]وليس يصحُّ كلُّ ما يقال فيُرْوَى على وَجْهه ، وليس يَخْفَى أيضاً كلُّ ما يَجْرِى فيُمْسَكَ عنه ؛ والأمورُ مَرِجَة ، والصدورُ حَرِجَة ، والاحتراسُ

(١) عبارة (ا) : « ومسلم الخبيث من الحالين فوق مشرعة » ؛ وفيها تحريف ظاهر وفى (ب) : «الحبيب» مكان «الخبيث» ؛ وهو تصحيف أيضا . ويريد بالخبيث ابن يوسف .

(٢) ورد فى (ا) قبل قوله : « وليس يصح » قوله : « فصل » .

واجب ، والنصحُ مَقبول ، والرأى مُشْتَرك ، والثقةُ بالله من اللوازم على مَنْ عرَفَه وآمَن به ، وليس مِنَ الله عزَّ وجَلَّ بُدٌّ على كلّ حال .

والله أسألُ الدفاعَ عنك ، والوقايةَ لك ، فى مُصْبَحِك ومُمْساك ، وفى مَبيتِك ومَقِيلِك ، وشهادَتِكَ وغَيْبَتِك ، ولذوى مليحا[1] فى هذا الباب نَفْخٌ وإيقاد ، وتَنَاقُلٌ وأثبار[2] ، ومَسْئلةٌ وجَواب .

وعند الشيخ أبى الوَفاء مِنْ هٰـذا الحديث ومن غيره ممّا يَتّصل به من ناحيةِ ابنِ اليزيدىّ ما يجب أن يُصاخَ له بالأُذُن الواعية ، ويُقابَل بالنَّفْسِ الراعية ، ويُداوَى بالدّواء الناجع ، وتُحْسَمَ مادّتُه من الأصل ، فإنَّ الفَسادَ إذا زال حَصَلَ مكانَه الصلاح . وليس بَعْدَ المَرَضِ إلاّ الإفْرَاق ، ولا بعد النَّزْعِ إلاّ الإغْراق .

إلى هاهنا انتَهى نَفَسى بالنُّصْح وإن كانت شفقتى[3] تتجاوَزُه ، وحِرْصى يَسْتَبْطِى عليـه ، لـكنّى خادم ، وكما يجب علىّ أن أخْدُمَ بِنِيّاتِ[4] الصدر ، فينبغى أن ألْزَمَ الحدَّ بحُسْنِ الأدب .

والله إنى لَوَادٌّ مُخْلِصٌ ، وعَبْدٌ طائع ، ورَجائى اليومَ أقْوَى من رَجائى أمْس ، وأمَلِى غدًا أبْسَط[5] من أملى اليوم ؛ أشكو إليك الأرَق باللّيلِ فِـكْرًا فيما يقال ، وتَحَفّظا[6] ممّا يُنال ، وتوهُّماً لِما لا يكون [إن كان] ، وشرَّ العِدَا ، الّذين يَتمنَّوْنَ لأُولِى نِعْمتِهم الرّدَى ، ويبَيِّتون النَّـكائث[7] ،

(١) كذا وردت هذه العبارة فى (ب) ولم تتبين من هم ذوو مليحا .
(٢) فى كلتا النسختين : « وتثاقل وأثمار » ؛ وهو تصحيف .
(٣) فى كلتا النسختين : « شفق » ؛ وهو تحريف .
(٤) فى (ا) : « تبيان » . وفى (ب) : « بثبات » ، وهو تصحيف .
(٥) فى (ب) : « أنشط » . (٦) فى (ب) : « وغيظا » .
(٧) فى (ب) : « البيايت » ، وهو تحريف .

ويَكسِرون الأجفان(١) ، ويتخازرون بالأعين ، ويَتجاهَرون بالأذى إذا تلاقَوا ، ويَتهامَسون بالألسُن إذا تدانَوْا ، والله يَصْرَعُ جُدُودَهم ، ويُضرِعُ خُدُودَهم بين يديك ؛ وهذه الرِّقَّةُ منّى والحَفاوَة ، وهذه الرِّعْشةُ والقَلَق ، وهـذا التَّقبُّعُ والتفزُّع كلُّه ، لأنى ما رأيتُ مِثْلَك ، ولا شاهَدْتُ شِبْهَك ، كَرَمَ خِيم ، ولِينَ عَرِيكة ، وجُودَ بَنان ، وحُضورَ بشر ، وتهلُّلَ وَجْه ، وحُسْنَ وَعْد ، وقربَ إنجاز ، وبَذْلَ مال ، وحُبَّ حِكمة(٢) .

قد شاهدتُ نَاسًا فى السَّفَر والحَضَر ، صِغارًا وكِبارًا وأوْساطا ، فما شاهدتُ مَنْ يَدِينُ بالمَجْد ، ويَتحلَّى(٣) بالجود ، ويَرْتَدِى بالعَفْو ، ويَتأزَّر(٤) بالحِلْم ؛ ويُعْطِى بالجُزَاف ، ويَفْرَحُ بالأضياف ، ويَصِلُ الإسعافَ بالإسعاف ، والإتحافَ بالإتحاف ، غيرَك .

وأُللهِ إنَّكَ لَتَهَبُ الدرهمَ والدينارَ وكأنَّكَ غَضْبانُ عليهما ، وتُطْعِمُ الصادرَ والوارِدَ كأنَّ اللهَ قد أستخلَفَكَ على رِزْقهما ؛ ثم تَتَجاوَزُ الذهبَ والفِضَّةَ إلى الثيابِ العزيزة ، والخِلَع النفيسة ، والخَيْلِ العِتاق ، والمَرا كِب الثِّقال ، والغِلْمان وَالجوارى ، حتّى الكُتُب والدفاتر وما يَضَنُّ به كلُّ جَواد ؛ وما هـذا مِنْ سَجايا البَشَر إلاّ أن يكونَ فاعِلُ هذا نَبِيًّا صادقا ، ووَلِيًّا للهِ مُجتَبى ، [فإنّ الله قد أمَّنَ هذا الصنف من الفَقْر ، ورَفَع من قلوبهم عزَّ المـال] ، وهَوَّنَ عليهم

(١) فى (ا) : « الأظفار » ، وهو تحريف .

(٢) كذا فى (ب) . والذى فى (ا) : « وبذل ما أوجب حكمة » ، وهو تحريف كما لا يخفى .

(٣) فى كلتا النسختين : « وينتحل » ، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا ، إذ ليس انتحال الجود مما يمدح به .

(٤) فى كلتا النسختين : « ويبارز » ، وهو تحريف .

الإفراجَ عن كلِّ مُنفِسٍ[1] ، ياقوتاً كان أو دُرًّا ، ذهباً كان أو فِضَّة ؛ كفاكَ اللهُ عَيْنَ الحاسِدِين ، وَوَقاكَ كيدَ المُفْسِدِين ، الّذِين أنعمتَ عليهم بالأمس على رُءوسِ الأشهاد ، وكانوا كحَصًى فجَعلتَهُمْ كالأطواد ؛ وهم يَكْفُرون أيادِيَك ، ويوالُونَ أعادِيَك ، ويَتَمَنَّوْنَ لك ما أَرْجُو أنّ اللهَ يَعْصِبُه برُءوسِهم ، ويُنزِلُه على أرواحِهم ، ويُذِيقُهم وَبالَ أمرِهم ، ويَجْعَلُهم عِبرةً لكلِّ مَن يرام ويَسْمَعُ بهم ، كان اللهُ لكَ ومَعَك ، وحافِظَك وناصِرَك .

أطلتُ الحديثَ تلذُّذًا بمواجَهتِك ، وَوَصَلْتُه خِدمةً لِدَوْلَتِك ، وكَرَّرْتُه توقُّعاً لحُسْنِ مَوْقِعِه عِنْدَك ، وأعَدْتُه وأبْدَيْتُه طَلَباً للمكانةِ في نَفْسِك .

وأَرْجُو إنْ شاء الله ألّا أُحْرَمَ هَبَّةً مِنْ رِيحِك ، ونَسِيما مِنْ سَحَرِك ، وخِيرةً بنظَرِك . لَمْ أوفّق في هذه الكلمة الأخيرة ، والله ما يمرُّ بي يأسٌ مِنْ إنعامكَ فأُقَوِّيه بالرَّجاء ، ولا يَعْتَرِيني وَهْمٌ في الخَيْبَةِ لَدَيْكَ فأَتلافاهُ بالأمل . إنَّما قُصارَى أمنيَّتي إذا حُكِّمْتُ أن أُعطَى فيكَ سُؤْلي بالبَقاءِ المَديد ، والأمرِ الرَّشيد ، والعَدوِّ الصريع ، والوَلِيِّ الرَّفيع ، والدَّوْلةِ المُسْتَتِبّة ، والأحوالِ المُسْتَحَبّة ، والآمالِ المَبْلُوغة ، والأمانيِّ المُدْرَكة ، مع الأمرِ والنَّهْيِ النّافِذَيْن ، بَيْنَ أَهْلِ الخافِقَيْن ؛ واللهُ يُبلِغني ذلك بطَوْلِه ومَنِّه .

وآخِرُ ما أقول ، أيّها الوزير : مُرْ بالصَّدَقات ، فإنّها مَجْلَبَةُ السلاماتِ والكرامات ، مَدْفَعَةٌ لِلمكارِهِ والآفات ؛ واهْجُرِ الشراب ، وَأَدِمِ النظرَ في المُصْحَف ، وافْزَعْ إلى اللهِ في الاستِخارة ، وإلى الثِّقاتِ بالاستِشارة ؛ ولا تَبْخَلْ على نَفْسِك برَأْيِ غَيْرِك ، وإن كان خامِلًا في نَفْسك ، قليلًا في عَيْنِك ،

(١) كذا في (ا) . والذي في (ب) : « مفسر » ، ولا يستقيم معه الكلام الآتي بعد .

فإنّ الرّأى كالدُّرّة التى رُبّما[1] وُجِدَتْ فى الطّريق وفى المَزْبلَة ، وقلّ من فَزِعَ إلى الله بالتوكّل عليه ، وإلى الصّديق بالإسعاد[2] منه ، إلّا أراهُ اللهُ النّجاحَ فى مَسْئَلته ، والقضاء لحاجته ؛ والسلام .

فقال لى الوَزِير بعد ما قرأ الرِّسالة : يا أبا مزْيَد[3] ، بَيِّضْتُها ، وعَجِبْتُ من تَشْقيقِ القَوْلِ فيها ، ومِنْ لُطفِ[4] إيرادِكَ لها ، ومِن بِلّةِ رِيقِكَ بها .

واللهُ يُحقِّقُ ما نأمُلُه له ، ونرجُوه لأنفسنا ، ويَنْحَسِرُ عنّا هـذا الضَّبابُ الّذِى رَكَدَ علَيْنا ، ويَزُولُ الغَيْمُ الّذى اسْتَعْرضَ فى أمْرِنا ، وعلى الله توكّلنا ، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ .

رسالة فى شكوى البؤس ورجاء المعونة وجّهَ بهـا المؤلف إلى الشيخ أبى الوفاء المهندس الذى كتب له المؤلف هـذا الـكتاب . وختم كتابه بها :

أيُّها الشيخ ، سَلّمَكَ اللهُ بالصُّنْعِ الجميل ، وحَقّقَ لكَ وفيك وبكَ غايةَ المأمول .

هـذا آخرُ الحديث ، وخَتَمْتُه بالرِّسالتين ، ويتقرّرُ جميعُ ما جرَى ودَارَ[5] على وَجْهِهِ ، إلاّ ما لَمَمْتُ به شَعَثًا ، وزَيّنْتُ[6] به لَفْظًا ، وزَيّدْتُ

(١) فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : «إنما» ، وهو تحريف . والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٢) فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « بالإشهاد » ؛ وهو تحريف . وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

(٣) فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « يا أبا فريد » .

(٤) فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « لفظ » ؛ وهو تحريف .

(٥) فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « ودان » ؛ وهو تحريف .

(٦) فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « ورتبت » ؛ وهو تحريف .

مَنْقُوصًا ، ولم أَظْلِمْ معنًى بالتَّحريف ، ولا مِلْتُ فيه إلى التَّحْوِيرِ[١] ؛ وأرجو أن يَبْيَضَّ وَجْهِى عِنْدَكَ بالرِّضا عنِّى ، فقد كاد وَعْدُكَ فى عنايتك[٢] يأتى علىَّ ، وأنا أسألُ اللهَ أن يَحْفَظَ عِنايَتَكَ علىَّ ، كسابق اهتمامك بأمرى ،[٣] حتى أَمْلِكَ بهما[٤] ما وعدْتَنيه مِنْ تَكْرِمَةِ هذا الوَزِيرِ الذى قد أَشْبَعَ كلَّ جائع ، وكَسَا كلَّ عارٍ ، وتألَّفَ كلَّ شارِدٍ ، وأحسَنَ إلى كلِّ مُسىء[٥] ، ونَوَّهَ بكلِّ خامِلٍ ، ونَفَّقَ[٦] كلَّ هَزِيلٍ ، وأعَزَّ كلَّ ذَلِيلٍ ؛ ولم يَبْقَ فى هذه الجماعة على فَقْرِه وبُؤْسِه ، ومُرِّه ويَأْسِه ، غيرى ؛ مع خِدْمَتى السالفةِ والآنفة ، وبَذْلِى كلَّ مجهود ، ونَسْخِى كلَّ عَوِيص ، وقِيامى بكلِّ صَعْب ؛ والأمورُ مقدَّرة ، والحُظوظُ أقسام ، والكَدْحُ لا يأتى بغيرِ ما فى اللَّوْح .

فصـــل

خَلِّصْنِى أيها الرَّجُلُ[٧] من التَّكَفُّف ، أنقِذْنى من لُبْسِ الفَقْر ، أطْلِقْنى من قَيْدِ الضُّرِّ ، اشْتَرِنى بالإحسان ، اعْتَبِدْنى بالشُّكْر ، اسْتَعْمِلْ لِسانى بفُنُونِ المَدْح ، اكْفِنى مُؤُونَةَ الغَداء والعَشاء .

(١) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « التجويز » — بالجيم والزاى ؛ وهو تحريف .

(٢) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « غنائك » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق الكلام .

(٣) وردت هذه العبارة فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام هكذا « بأمر يرجى » ولا معنى لها على هذا الوجه ؛ والصواب ما أثبتنا ، كما يقتضيه السياق .

(٤) بهما ، أى بالعناية والاهتمام .

(٥) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « شىء » ؛ وهو تحريف .

(٦) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « ونفق » ؛ وهو تحريف .

(٧) يريد بالرجل أبا الوفاء وهو الذى قربه إلى الوزير .

إلى مَتَى الكُسَيْرَةُ اليابسة ، والبُقَيْلَةُ الذّاوية ، والقَمِيصُ المرقّع ، وباقِلّى دَرْبِ الحاجب ، وسَذابُ دَرْب الرّوّاسين ؟

إلى مَتَى التأدُّمُ بالخُبْزِ والزّيتون ؟ قد واللهِ بحّ الحلق ، وتَغَيَّرَ الخُلُق ؛ اللهَ اللهَ في أمْرِي ؛ اجبُرْني فإنني مكسور ، اسقِني فإنني صَدٍ ، أغِثْني فإنني مَلهوف ، شَهِّرْني فإنني غُفْل ، حلِّني فإنني عاطل .

قد أذَلَّني السَّفَرُ من بَلَدٍ إلى بَلَد ، وخَذَلني الوُقوفُ على بابٍ باب ، ونَكِرَني العارِفُ بي ، وتباعَدَ عني القريبُ مِنّي .

أغرّكَ مِسْكَوَيْه حين قال لك : قد لَقِيتُ أبا حَيّان ، وقد أخرجتُه مع صاحِبِ البريد إلى قَرْمِيسِين ؟ !

واللهِ ثم وحياتِكَ التي هي حياتي ، ما انقلبْتُ من ذلك بنفقةِ شهر ، واللهُ نَظَرَ لي بالعَوْد ، فإنّ الأراجيفَ اتّصَلَتْ ، والأرضَ اقشعرّتْ ، والنفوسَ استوحَشَتْ ، وتشبّهَ كلُّ ثعلبٍ بأسَد ، وفَتَلَ كلُّ إنسانٍ لعدوِّه حَبْلًا مِنْ مَسَد .

أيُّها الكريمُ ، ارْحَمْ ؛ واللهِ ما يَكْفيني ما يَصِلُ إليّ في كلِّ شَهْرٍ مِنْ هذا الرِّزْق المقتَّر الّذي يَرْجِع بعد التَّقْتِير والتَّيْسير إلى أرْبَعين درهمًا مع هذه المَئونَة الغليظة ، والسَّفرِ الشاق[1] ، والأبواب المحجَّبة ، والوُجوه المقطَّبة ، والأيدي المسمَّرة ، والنفوسِ الضيِّقة ، والأخلاقِ الدَّنيئة .

أيُّها السيِّد ، أقْصِرْ تأمِيلي ، اِرْعَ ذِمامَ المِلْحِ بيني وبَيْنَك ، وتذكّر

(١) وردت هذه العبارة في (ا) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام هكذا « والسعر الشاري » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا أخذا من سياق الكلام .

العَهْدَ فى صُحْبَتِى ، طالِبْ نَفْسَك بمـا يَقْطَعُ حُجّتِى ، دَعْنِى من التعليل الّذى لا مَرَدَّ له ، والتسويف الّذى لا آخرَ معه .

ذَكِّرِ الوَزيرَ أمرى ، وكَرِّرْ على أُذُنِه ذِكْرى ، وأَمْلِ عليه سُورَةً مِنْ شُكْرى ، وأبعثْه على الإحسان إلىّ .

افتح عليه باباً يُغرِى[1] الرّاغبَ فى اصطناع المعروف لا يستغنى عن المرغب ، والفاعل الخَيْرِ لا يَسْتَوْحِشُ من الباعث عليه .

أنفِقْ جاهَكَ فإنّه بحَمْدِ اللهِ عَرِيض ، وإذا جُدْتَ بالمـالِ فَجُدْ أيضاً بالجاه ، فإنّهما أخَوَان .

سَرِّحْنى رسولًا إلى صاحِبِ البَطائح أو[2] إلى أبى السؤل الـكُرْدِىّ[3] أو إلى غَيْرِه ممّنْ هو فى الجبال ، هــذا إنْ لم تُؤَهِّلْنى برسالةٍ إلى سَعْدٍ المعالِىّ بأطرافِ الشام ، وإلى البَصرة ، فإنى أبلُغُ فى تحَمُّلِ ما أُحمِل ، وأداء ما أُؤدِّى ؛ وتَزْيِينِ ما أُزيِّن ، حدًّا[4] أملِكُ به الحَمْد ، وأُعرَفُ فيه بالنَّصيحة وأستَوْفِى فيه على الغاية . دَعْ هذا ، ودَعْ لى ألفَ درهم ، فإنى أتّخِذُ رأسَ مال ، وأُشارِكُ بقّالَ المَحَلّة فى دَرْبِ الحاجب ، ولا أقلّ مِنْ ذا ، تقدّم إلى كسج[5] البَقّـالِ حتّى يستعين بى لأبيـع الدّفاتر . قلتَ : الوَزيرُ

(١) فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الـكلام : « يغنى » بالنون ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا

(٢) فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الـكلام : « لوالى » ؛ وهو تحريف .

(٣) كذا ورد هذا الاسم فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الـكلام دون (ب) ولم نهتد إلى وجه الصواب فيه .

(٤) فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الـكلام : « جدا » بالجيم ؛ وهو تصحيف .

(٥) كذا ورد هذا الاسم بالـكاف والسين والجيم فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الـكلام ؛ ولم نقف على وجه الصواب فيه .

مَشْغول . فما أَصْنَعُ به إذا فَرَغ ، فالشاعرُ يقول :

« تُناطُ بكَ الآمالُ ما اتَّصَلَ الشُّغْل »

قد واللهِ نَسِيتُ صَدْرَ هذا البيت ، وما بالُ[1] غيرى يُنَوِّلُه ويُمَوِّلُه مع شُغْلِه[2] وأُحرَم أنا ؟ ! أنا كما قال الشاعر :

وبَرْقٌ أضاء الأرضَ شرقًا ومَغْرِبًا ... ومَوْضِعُ رِجْلِي منه أَسْوَدُ مُظْلِمُ

والله إنَّ الوزيرَ مع أشغاله المتَّصِلة ، وأثقاله الباهظة ، وفكرِه المفضوض[3] ورأيِه المشترَك ، لكريمٌ ماجِد ، ومُفْضِلٌ مُحْسن ، يَرْعَى القليلَ من الحُرْمة ، ويُعطِي الجزيلَ من النِّعمة ، ويحافظ على اليَسير من الذِّمام ، ويتقبَّل مَذاهِبَ الكرام ، ويَتلذَّذُ بالثناء إذا سَمِع ، ويَتمرَّضُ للشُّكر من كلِّ مُنتجِع ، ويَزْرَع الخير ، ويَحْصُدُ الأجْر ، ويواظبُ على كَسْبِ المَجْد ، ويثابرُ على اجتلاب الحمد ، ويَنْخَدِعُ للسائل ، ويتهلَّلُ فى وَجْهِ الآمِل ، ولا يَتَبَوَّأُ من الفضائل إلّا فى ذُراها ، رحيم بكلِّ غادٍ ورائح ، ولكلِّ صالحٍ وطالح .

وأنا الجارُ القديم ، والعَبْدُ الشاكر ، والصاحب المَخْبور ، ولكنّك مُقْبِلٌ كالمُعْرِض ، ومُقَدِّمٌ كالمؤخِّر[4] ، ومُوقِدٌ كالمُخْمِد ، تُدْنِيني إلى حَظِّى بِشِمالك ، وتَجْذِبُني عن نَيْله بيَمِينك ، وتُغَذِّيني بوَعْدٍ كالعَسل ، وتُعَشِّيني

(١) وردت هذه العبارة فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام هكذا « وما نال غيرى سؤل وتحول مع شغله وآخر من أنا » ؛ وفيها تحريف ظاهر لا يستقيم به المعنى .

(٢) ينوّله ويموّله ، أى ينوله الوزير ويموّله . مع شغله ، أى مع شغل الوزير .

(٣) المفضوض ، أى المتفرق غير المجتمع .

(٤) فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « ومؤخر كالمقدم » ؛ وفى كلتا الكلمتين تقديم وتأخير من الناسخ ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا .

بيأس كالحَنْظل ، « ومَنْ[1] كان عتبه على مظنّة عيبك ، فليس ينبغى أن يكون تقصيره على نيقّنه[2] بنصرك » .

نعم ؛ عَتَبْتُ فأوْجَعْتُ ، وعَرَفْت البَراءةَ فهلاّ نفثتَ ؟ والله ما أدرى ما أقول ، إنْ شكرْتُكَ على ظاهِرِكَ الصّحيح لَدَغتُك لباطِنِك السقيم ، وإن حَمِدْتُكَ على أوَّلِكَ الجميل ، أفسدْتُ لآخرِكَ الذى ليس بجميل .

قد أطَلْت ، ولكنْ ما شُفيت ، ونَهِلْتُ وعَلَلْتُ ، ولكن ما رَوِيت .

وآخِرُ ما أقول : اِفْعَلْ ما تَرَى ، واْصْنَعْ ماتَسْتَحْسِن ، وأَبْلُغْ ماتهْوَى ، فليسَ واللهِ مِنْكَ بُدّ ، ولا عَنْكَ غِنًى .

والصَّبْرُ عَلَيْكَ أهْوَنُ مِنَ الصَّبْرِ عَنْك ، لأنَّ الصَّبْرَ عَنْكَ مَقْرُونٌ باليَأس ، والصَّبْرَ عَلَيْكَ رُبَّمَا يُؤَدِّى إلى رَفْعِ هَذَا الوَسْوَاس ، والسَّلَامُ لِأَهْلِ السلام .

صورة ما كتبه الناسخ فى آخر النسخة المرموز إليها بحرف (ا)

تم الجزء الثالث من كتاب « الإمتاع والمؤانسة » بحول الله وحسن توفيقه ، فى شوال سنة خمس عشرة وثمانمائة ، على يدى أضعف العباد شرف بن أميرة ، أصلح الله شأنه ، فى مصر المحروسة ، حماها الله تعالى من الآفات والعاهات ، ومن عوادى الزمان . آمين يا رب العالمين .

تم الكتاب

---

(١) كذا ورد هذا الكلام فى الأصل . وفيه تحريف ظاهر لم نهتد الى وجه الصواب فيه .

(٢) على تيقّنه ، أى مع تيقنه . « ويكون » هنا تامّة .

فهرست الأعلام

الواردة فى الجزء الثالث من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدى

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(ع)

(ن)

تم فهرست الأعلام

فهرست أسماء الأماكن

الواردة فى الجزء الثالث من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدى

تم فهرست الأماكن

فهرست الكتب

الواردة فى الجزء الثالث من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدىّ

(ل)

(م)

(ن)

(ى)

تم الفهرست

فهرست أسماء القبائل والأمم والفرق

الواردة فى الجزء الثالث من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدى

تم فهرست أسماء القبائل والأمم والفرق

ملاحظات للدكتور مصطفى جواد

الأستاذ بمدرسة المعلمين العليا ببغداد

على بعض ألفاظ وردت فى الجزء الأول والثانى من كتاب الإمتاع والمؤانسة ننشرها فيما يلى مع جزيل الشكر لكاتبها الفاضل على حسن نيته وجميل تقديره لما بذلناه فى تصحيح هذا الكتاب من جهد .

الجزء الأول

١ — ورد فى الصفحة « م » من المقدمة فى السطر ٥ « لأبى على الحسن التنوخى » والصواب « المحسن » .

٢ — ص ٦ س ٥ « فوارضها » . الصحيح « عوارضها » .

٣ — ص ١٣ س ٨ « ويكون سبباً قوياً على حسن الحال وطلب العيش » . الصواب « قوياً إلى حسن الحال وطيب العيش » .

٤ — ص ١٦ س ٦ « الدهر الخالى من الديانيين » . الديان هو الله والأولى « الربانيين » و « الديانين » وهم المنسوبون إلى الديانة . وهذه الكلمة من كلمات القرن الرابع للهجرة تجدونها فى أول صفحة من مروج الذهب للمسعودى .

٥ — ص ٢١ س ١ «ولا محاباة ولا انحياش» والصواب «محاوتة» بالتاء ، قال الزمخشرى فى أساس البلاغة « ومن المجاز : حاوتنى فلان عن كذا إذا خادعك عنه وراوغك ، وظل فلان يحاوتنى بخدعه ومعناه يداورنى فعل الحوت فى الماء .

٦ — وفى ص ٣٤ س ٩ « ولم يتفوح بردع الفلسفة » وفى الأصل « لم يتفرخ » والصواب « يتضرج » .

٧ — وفى ص ٤٠ س ٣ « والأمر الربوبى » بضم الراء . والذى فى أصله بفتح الراء .

٨ — ص ٤٤ س ٦ « تأجيل الهنأ » . والذى أراه لمراعاة الأصل « تعجيل المقنأ » أى المبادرة بإظهار الكراهية والبغضة .

٩ — ص ٤٥ س ٨ « كيف استكفى هذه الجماعة حوله » وفى الأصل « استكفيت » . فالصواب « استكفت هذه الجماعة حوله » . وفى أساس البلاغة : « واستكف الناس حواليه : أحدقوا به » .

١٠ — ص ٥٠ س ٧ « ويفرنى » . والأولى « ويسّرنى » أى أتاح لى اليسر .

١١ — وجاء فى ص ٥١ س ٧ ذكر « الناسومة » ولم تجدوها فى كتاب لغة . والصحيح أنها

وردت فى غير مادتها فقد ذكرها الهروى مؤلف الغريبين فى مادة «نعل» من غريب الحديث ، ونقلها عنه المبارك بن الأثير فى «النهاية» ونقل عن أحدهما الفيومىّ فى «نعل» من المصباح المنير .

١٢ — ص ٦٢ س ١١ «والتشيع الظاهر والدعوى العارية» الخ . ولا محل للتشيع أبداً والصواب «التشبع» وهو تكلف الشبع، ومنه الحديث النبوى الشريف «المتشبع بما ليس فيه كلابس ثوبى زور» .

١٣ — ص ٦٨ س ١٢ «بدافع ما يعلمه» والصواب «بدفع ما يعلمه» أى بإنكاره ،

١٤ — وفى ص ٧٠ س ٥ وما بعده حكاية وردت فيها الأعلام مصحفة وكانت جرت فى عهد بنى أمية فصيرها التصحيف مما جرى فى عهد بنى العباس . وفى الحكاية ذكر أمير المؤمنين المهدى . فالظاهر أن لفظ «المهدى» تصحيف اسم أمير من أمراء بنى أميــة كالمهلبى وغيره ، وأما «كريز» الوارد فى السطر ٧ فصوابه «كردين» وهو من رجال الدولة الأموية كما فى عيون الأخبار «ج ١ ص ١٧١» وأما «دوست» الوارد فى الســطر ٩ فصوابه «درست» بالراء وهو من رجال العهد الأموى أيضاً كما فى البيان والتبيين «ج ٢ ص ١٢٧» .

١٥ — ص ٧٢ س ١٦ «وهم يحاضون به» والصواب «يتحاضون» .

١٦ — وفى ص ٧٩ س ٧ «ويتعاورون» . والصواب «يتغاورون» أى يغير بعضهم على بعض .

١٧ — ص ٨٧ س ١٠ «وقنع باليسير ورخى العيش» . والصواب «باليسير من رخى العيش» .

١٨ — ص ١٠٣ س ١١ «كان يخبط فى هواه» وفى الحاشية أنه «يحط» وأنه تصحيف استوجب التصحيح . قلت : وهذا غير صحيح ، فالأصــل هو الفصيح ، قال الزمخشرى فى أساس البلاغة «وحط فى هواه وانحط فيه ، ويقال : أكل من حلوائهم فانحط فى أهوائهم» .

١٩ — ص ١٠٩ س ٢ «المصاع من صاع الشجاع أقرانه إذا حمل عليهم ففرق جمعهم» والصواب «ماصع يماصع» أى ضرب بالسيف خاصة .

٢٠ — ص ١١٩ س ١٢ «أن يبرر لهم ما صح له بالاعتبار» . والصواب «أن يبرز لهم ما صح» .

٢١ — ص ١٣٩ س ٧ «ويهم فيهز» والصواب «يشتم» من الشتم .

٢٢ — ص ١٤١ س ١٣ «إلا أنه يأتى لابن عباد فى سمته» . والصواب «تأتّى» أى ترفق وتلطف .

٢٣ — ص ١٤٢ س ١٤ «أو أقلع عن كبيرة رغبة» . والصواب «رهبة» .

٢٤ — ص ١٤٤ س ١٣ «وسمن يعروا» والصحيح «سمن اليعر» وهو مذكور فى حياة الحيوان .

٢٥ — ص ١٥٨ س ٧ « كل شيء يطلبه ويتوناه » : الصواب « ويتوخاه » .

٢٦ — ص ١٦٢ س ٩ « العقاب يجلس » والصواب « تجلس » .

٢٧ — ص ١٦٨ س ٥ « إلى أن يترحل النهار » ترحل النهار يدل على عكس المراد بالحكاية . والصواب « يترجل » أى يعلو ويرتفع .

٢٨ — ص ١٧٠ س ٤ « ويستخفى فى البحر » ، والصواب « فى الشجر » .

٢٩ — ص ١٧٥ س ١١ « ثم المقد فى لبن » . الصواب « أقنعه » ومصدره الإقناع أى رطبه وربيه باللبن .

٣٠ — ص ١٧٦ س ٣ « حوت يقال له : موق » . الصواب « مَوْتَى » منسوب إلى الموت ، لأنه يتماوت ويتهالك .

٣١ — ص ١٨٠ س ٤ « دابة يقال لها بالفارسية درباست » . والصواب « بادستر » وهو « الجند بادستر » .

٣٢ — ص ١٨٢ س ٨ « الجرذان » . والصواب « القردان » جمع القراد .

٣٣ — ص ١٩٠ س ٦ « لسرعة إحناء أجنحته » والصواب « إعياء أجنحته » .

٣٤ — ص ١٩٧ س ١ « بما هاج الحبيب حبيب » صوابه « كما هاج الحبيب حبيب » .

٣٥ — ص ٢٠٠ س ١٤ « تحركه وتحسسه » . الصواب « تعتثه » .

٣٦ — ص ٢٢١ س ١٢ « من لقبه الحربى إلى أى شيء ينسب » . والصواب اللازم صويعة الحرسى إلى أى شيء تنسب .

الجزء الثـــانى

٣٧ — ص ٥ س ١٠ « ولقنوها الناس » . والصواب « لقنوها الناس » فالفعل متعد إلى المفعولين بنفسه .

٣٨ — ص ١١ س ٥ لـكن الحريرى غلام ابن طرارة هيجه يوماً فى الوراقين . الصواب « الجريرى » نسبة إلى مذهب محمد بن جرير الطبرى المشهور والصواب ابن طرارة (بتخفيف الراء) لا تشديدها .

٣٩ — ص ١٣ س ١٣ « ومزقتم بين مجتمعين » . والصواب « وفرقتم بين مجتمعين » .

٤٠ — ص ٢١ س ٦ وإن هذا النعت من قولى ... » . الصواب « وأين » .

٤١ — ص ٢١ س ١٨ « الأفعى تأخذ السم من الأصيلة » . صوابه « من الأصَلَة » وهى نوع من الحيات .

٤٢ — ص ٤١ س ٥ « طالحات بالسلام » . صوابه « طالحات بالسنام » .

٤٣ — ص ٥٩ س ١٤ شرحتم كلمة « الصراة » بأنه نهر بالعراق ، وكان الأولى أن يقال « نهر كان ببغداد » .

٤٤ — ص ٦٠ س ١ « ويا قصراً بلا مسناه » . الصواب « المسناة » وهي البنية التي تبنى بين القصور وماء النهر لتحفظها من الماء .

٤٥ وجاء في ص ٧٩ س ١ « وقلت لابن الجلاء الزاهد بمكة سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة ... » والذي في تاريخ بغداد « ج ٥ ص ٢١٣ » للخطيب البغدادي وأنساب السمعاني عادة « الجلاء » أن ابن الجلاء توفي سنة « ٣٠٦ هـ » .

٤٦ — ص ٩٣ س ١٢ « من صبر باب » . والمحفوظ في الحديث « صبير » .

٤٧ — ص ١٣٦ س ٩ « ظاهر النفع في معاينة الروح » . والصواب « معابثة الروح » .

٤٨ — ص ١٤٣ س ١٠ « ومقاساة الحُرقة » . والصحيح « الحرفة » أي الفقر والعوز .

٤٩ — ص ١٥٦ س ٥ « فلما أجمعنا على العجن والملك لم نجد الحراق » ، والصواب « الملّ » وهو الاختباز على « الملة » أي الجمر المختلط بالرماد .

٥٠ — ص ١٥٧ س ٥ « الانخزال » . والصواب « الانخذال » .

٥١ — ص ١٦٢ س ٧ « والزيادة والرفع » . والصواب « الزيع » .

٥٢ — ص ١٦٧ س ٦ « [القاطن] في دار القطن عند جامع المدينة » صوابه القاطن في دار القطان كما هو في الأصل .

٥٣ — ص ١٧٠ س ٥ « تسحب الخاطر » . الصواب عندي « تشعب الخاطر » .

٥٤ — ص ١٧١ س ١٣ « ولا طرب ابن صُبْر القاضي » . قلت : الصواب « ابن صُبَر » بضم الصاد وفتح الباء .

٥٥ — ص ١٧٤ س ٩٠ « وقد علق عناقا فهذاهُم كما كنَّا » . والصواب « هَم » بفتح الهاء وهو موضع النكتة التي جاء الخبر من أجلها فإنه استعمل « هم » العامية العراقية بمعنى « أيضاً » ولا يزال العراقيون يستعملونها ، والكرد أيضاً ، قال الحريري في درة الغواص « ويقولون للمخاطب هم فعلت وهم خرجت » فيزيدون هَم في افتتاح الكلام وهو من أشنع الأغلاط ، وعن الأخفش أنه قال لتلامذته : جنبوني أن تقولوا هَم : وأن تقولوا بَس وأن تقولوا ليس لفلان بخت » . ولذلك قال أبو حيان : « وأصحابنا يستملحون قوله هَم ها هنا » . ولا استملاح مع « هُم » .

٥٦ — ص ١٧٦ أيضا س ١٢ « إذا أخذت في هزارها » . وفي الحاشية اعتذار من الغموض . قلت : الهزار ها هنا من الفارسية بمعنى « الأنشودة » .

٥٧ — ص ١٨٠ س ٣ « والبوارد والجوزبات » . قلت : أما البوارد فقد ذكرها محمد بن الحسن بن الكريم البغدادي في كتابه « الطبيخ » ص ٥٦ فقال « الباب الخامس في المطجنات والبوارد ... » وشرحها بلا داع طابع الكتاب فقال « هي البقول المطبوخة الموضوعة في الأشياء

الحامضة كالخل وماء الحصرم وماء التفاح (كذا) . . . » وأما « الجوزيات » فالظاهر أنها تصحيف « جوذابات » جمع « جوذابة » وهي معروفة بين ألوان الأطعمة والحلوى .

٥٨ — ص ١٨٩ س ١٢ « ما يُكسبك الفكر » والصواب « يَكسبك » بفتح الياء لأنه متعد إلى مفعوليه بنفسه .

٥٩ — ص ١٩٥ س ١١ « مستقر بذنبه » . والصواب « مستقر » من الاستقرار وهو معروف .

٦٠ — ص ٢٠٢ س ١١ « والقديم قدم » . وعندي أن الأصل « والعديم عدم » . والله يوفقنا وإياكم للصواب .

مصطفى جواد

ملاحظات للأستاذ كراوس

على الأجزاء الثلاثة من كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي

الجـــزء الأول

ص ٣٨ : ٤ : بُكَّكُش ، والصواب : بَكَّكُش (= Bakksus) .
٥٨ : ١٠ : ابن نُوبخت — ابن نَوبخت .
« تعليق ٢ : كان على بن ربن الطبرى نصرانياً لا يهوديا أسلم .
٧٩ : ٩ : بفغور ، صححه كرد على فنفور ، والصحيح : بغفور .
١٦٤ : ٣ : أديوس ، والصواب : أديسوس (Odysseus) .
« : ٧ : المتصب ، والصواب المصت كما فى الدميرى .
١٩٨ : ١٤ : و ٢٠٢ : ٢ : بحس من الإحساس ، والصواب : الأحساس جمع حس .

الجزء الثـــانى

ص ٧٧ : ٦ : وهذا أشجعى ، والصواب : إسحاق ، والإسحاقية فرقة من غلاة الشيعة قريبة المنصب من النصيرية ، ذكرها الشهرستانى والجرجانى فى التعريفات وغيرهما ومؤسسها أبو يعقوب إسحاق بن محمد بن أبان النخعى الكوفى المتوفى سنة ٢٨٦ هـ .
« « : « : قَطعىّ . والأصح : القِطعِىّ .
« ٧٨ : تعليق١ : ليست الراوندية من أتباع ابن الراوندى الملحد بل هم فرقة من أتباع عبد الله الراوندى ، قالت بألوهية الخليفة منصور من آل بنى عباس ، راجع مقالات الأشعرى ص ٢١ وابن حزم ج ٤ ص ١٨٧ وابن الأثير فى وقائع سنة ١٤١ وما إليها من المصادر .
« ٨٤ : ١٥ : و ٨٥ : ٢ : استثباتها ، وفى الأصل « أسباب إثباتها » أو « إثبات إثباتها » — أما الصواب بلا شك أنه « إثبات أَنِيّاتها » .
ص ٨٤ : ١٦ : إلى تحقيق إثباتها ، وفى الأصول : ما ينالها أو مسابتها — والصواب : إلى تحقيق مائيتها ، والمائية تقابل الإنية .
٨٧ : ٢ : العبارة « بمنزلة » صحيحة وهى ترد هكذا فى كثير من الكتب المترجمة من اليونانية ومعناها « مثل » .
٨٧ : ٥ : والمُرِّيّان ، والصواب : والمِرّتان أعنى المرة السوداء والمرة الصفراء .
٨٧ : ٦ : الأربع ، والأصح : الأربعة .

٩١ : ٢ : بالاستمرار : والصواب الاستمرار .

» : ١٠ : ورضوا بالزهد ، وأظن الصواب : ووَصَّوا كما فى س ١٢ .

١٠٥ : ١٢ : لعل الصواب : أحذر [من الذئب (أو الغراب) وألص] من العقعق . راجع الأمثال للميدانى .

١٠٧ : السطر الأخير : العلَّق ، والصواب العلَق .

١٠٨ : ٥ : يرسخ ؟ لعله يرشح ؟

١٠٨ : ٧ : الشُك ، والصواب الشَك .

١١٣ : » : بالحد والاسم ، أليس الصواب : بالحد والرسم .

» : ١٠ و ١١ : ماله فيه (منه) ، والصواب عندى مائيته أو ماهيته .

١٥٣ الخ : ليس اسم الشاعر اليونانى كندس بل هو إيبِقُس (Ibykos) كما فى الأصول وقصته مع الكراكى مشهورة متداولة عند كتاب اليونان ، وقد اختارها Sobieecr موضوعا لقصيدة له — أما اسم الملك فلا شك أنه محرف ، وكان المنتظر أن يكون Polykrakes الذى عاش إيبقس الشاعر فى أيامه . ويلاحظ أن اسم إيبقُس مصحّح فى فهرس الأعلام لهذا الجزء . فراجعه .

١٥٧ الخ : ينبهنى صديق M. Stern على أن هذه القصة (قصة المجوسىّ واليهودى) وردت فى رسائل إخوان الصفاء فى الرسالة التاسعة من الجزء الأول منها (ص٤٦ من القسم الثانى من الجزء الأول من طبعة بمباى) .

١٥٧ : ١٥ : سفرة ، وفى الأصول : فى سفره ، والصواب ، كما فى رسائل إخوان الصفاء : بغلة له عليها [كل ما يحتاج إليه للسافر] فى سفره .

الجزء الثالث

ص ١٠٨ : ١٦ : النفس عَدَد محرك بذاته ، كذا فى كلتا النسختين وهو صحيح لا يحتاج إلى تصحيح «عدد» بعَرَض — وهو حد مدرسة فوثاغورس للنفس ، راجع الترجمة العربيـة للآراء الطبيعية لفلوطرخوس التى نشرتها فى ملحق بحثى عن جابر بن حيان (ص ٣٢٢ من الجزء الثانى) : « وأما فوثاغورس فيرى أن النفس عَدَد محرِّك ذاته ويعنى بقوله العـدد العقل » — ولعل الأصح أن يقرأ فى «الإمتاع» محرك ذاته أو متحرك بذاته .

١٣٠ السطر الأخير : موريس ؟ لعله أموِرس ؟

١٤٢ : ٢ ، ١٥ وكذلك ١٤٤ : ١٣ : الإحساس ، والصواب : الأحساس ، جمع الحس .

١٥٣ : ٧ : أظن أن قراءة نسخة ب (باب الشيعة) صحيحة ، فإن الشيعة تسمى رئيسها الذى يلى فى الترتيب الإمام النائب بابا .